



مجلة

# المؤرخ العربي

مجلة علمية محكمة

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن والعشرون - أكتوبر ٢٠٢٠ م

- (المجلد الثاني) -

جميع المراسلات ترسل باسم

الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

مقر الأنشطة: مدينة نصر- الحى الثامن- ١٠ شارع فؤاد بدواني - خلف مدرسة الصديق

تليفون: ٢٢٨٧٠٠٩٠ - ٠٠٢ - ٠٠٢ - فاكس: ٢٢٨٧٠٠٩١ - ٠٠٢ - ٠٠٢

موقع المجلة على بنك المعرفة المصرى

<https://hja.journals.ekb.eg/>

Email : [arabhistoryso@hotmail.com](mailto:arabhistoryso@hotmail.com)

مقر المؤتمرات: التجمع الأول - بعد سنترال التجمع - خلف مدرسة جرين هاينس

[www.arabhistoryso.net](http://www.arabhistoryso.net)

رقم الإيداع: (١٩٩٤/٦٥٤٩)

الترقيم الدولي: (ISSN) (2535-2288)



لا يسمح إطلاقاً بترجمة هذه الدورية إلى أي لغة أخرى،  
أو إعادة إنتاج أو طبع أو نقل أو تخزين أي جزء منها على  
أية أنظمة استرجاع بأي شكل أو وسيلة، سواءً الكترونية أو  
ميكانيكية أو غيرها من الوسائل دون الحصول على موافقة  
كتابة خطية مسبقة من إدارة اتحاد المؤرخين العرب.

### شروط نشر البحوث في مجلة المؤرخ العربي

١. أن يكون عضواً باتحاد المؤرخين العرب.
٢. عدد صفحات البحث في حدود (٣٠ ورقة) وما يزيد يحاسب بالورقة.
٣. الخط: (Simplified Arabic) بنط (١٦) والهوامش السفلية بنط (١٤).
٤. يقدم البحث من نسختين ورقيتين + نسخة على سي دي CD، أو فلاشة.
٥. يكتب ملخص للبحث باللغتين (العربية والانجليزية) في حدود ورقتين.
٦. سداد رسوم التحكيم والنشر بالمجلة بإدارة الاتحاد.
٧. المجلة غير ملزمة بإعادة البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

### شروط الاشتراك في عضوية الاتحاد

١. الحصول على الدكتوراه (في التاريخ أو الآثار).
٢. عدد (٢) صورة شخصية - ملئ استمارة العضوية.
٣. سداد الرسوم المقررة.



**مجلة**  
**المؤرخ العربي**  
(مجلة علمية محكمة)  
يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

**رئيس مجلس الإدارة**  
**أ.د. محمد عيسى الحيري**  
رئيس اتحاد المؤرخين العرب  
الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة

**رئيس التحرير**  
**أ.د. زبيدة محمد عطا**  
مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب  
أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان

**هيئة التحرير**  
أ.د. عفيفي محمود إبراهيم أمين عام الاتحاد  
أ.د. حامد زيان غانم أمين الصندوق  
أ.د. عفاف سيد صبرة مسئولة العلاقات العامة

**سكرتارية التحرير**  
**أ. عبدالعزيز همام**  
**أ. محمود يحيى**



## الرؤية

السعي لتحقيق الريادة في النشر العلمي المتميز في المحتوي والمضمون والتأثير والمرجعية في مجالات الوطن العربي وأقطاره.

## الرسالة

نشر البحوث العلمية الأصلية والرصينة والمبتكرة في مجالات الوطن العربي وأقطاره في مجالات اختصاص المجلة وفق المعايير والقواعد المهنية العالمية المعمول بها في المجالات المحكمة دولياً.

## الأهداف

- نشر البحوث العلمية الأصيلة والرصينة والمبتكرة.
- إتاحة المجال أمام العلماء والباحثين في مجالات اختصاص المجلة في التاريخ، على المستوي المحلي والإقليمي والعالمي لنشر بحوثهم وإنتاجهم العلمي.
- نشر أبحاث كبار الأساتذة وأبحاث الترقية للسادة الأساتذة المساعدين والسادة المدرسين بمختلف الجامعات المصرية والعربية.
- تشجيع ونشر مختلف البحوث المتعلقة بالدراسات التاريخية للوطن العربي.
- الإسهام في تنمية مجتمع المعرفة في مجالات اختصاص المجلة من خلال نشر البحوث العلمية الرصينة والمتميزة.



### الهيئة الاستشارية المصرية

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٣	أ.د. حامد زيان غانم	أمين عام الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٤	أ.د. زبيدة محمد عطيا	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٥	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٦	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
٧	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
٨	أ.د. طارق منصور محمد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس
٩	أ.د. حمدي عبدالمنعم محمد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة كلية الآداب جامعة اسكندرية
١٠	أ.د. إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة



### الهيئة الاستشارية الدولية

م	الاسم	الجنسية	الوظيفة
١	أ.د. إسماعيل محمد البشرى	سعودى	نائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب مدير جامعة الجوف سابقا
٢	أ.د. أحمد عمر الزيلعي	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية السياحة والآثار-جامعة الملك سعود
٣	أ.د. إبراهيم بن محمد المريني	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٤	أ.د. حياة ناصر سالم الحجي	كويتية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت
٥	أ.د. على منصور آل شهاب	بحريني	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب نائب رئيس جامعة البحرين
٦	أ.د. محمد بهجت القبيسي	سورى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ محاضر بجامعة حلب - سابقا
٧	أ.د. نبيلة عبدالشكور	جزائرية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بجامعة الجزائر ٢.
٨	أ.د. عبدالله سعيد الغامدى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ العصور الوسطى- كلية الشريعة- جامعة أم القرى
٩	أ.د. عبدالرحمن محمد الانصارى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة الملك سعود



## هذه المجلة

١. مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحثية، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
٢. تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية لموضوع محدد صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.
٣. البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسؤولة عما يرد من آراء علمية.
٤. تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعده غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.
٥. تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.
٦. يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخرى، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخرى بعد قبوله للنشر بالمجلة.
٧. لا ترد أصول الأعمال المقدمة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.
٨. يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولى، متبوعاً باسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.
٩. ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.
١٠. يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي:
  - (أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.
  - (ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدوريات، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.
  - (ج) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، والجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.



## المحتويات

م	الموضوع	الاسم	ص
أ	كلمة الافتتاح (رئيس اتحاد المؤرخين العرب)	أ.د. محمد عيسى الحريري	١٠
ب	كلمة التحرير (رئيس تحرير مجلة الاتحاد)	أ.د. زبيدة محمد عطا	١٢
ج	أسماء السادة أعضاء مجلس الإدارة	اتحاد المؤرخين العرب	١٤
د	أسماء السادة الأساتذة المحكمون	لهذا العدد	١٥
١	مدينة أغمات من الفتح الإسلامي وحتى سقوط دولة المرابطين في المغرب (٦٣-٥٤١ هـ/٦٨٢-١١٤٦م)	د. شاهنדה سعيد محمود منصور	١٦
٢	الصومال "بلاد البربر في شرق أفريقيا في مصنفات الجغرافيين والرحالة المسلمين في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري (التاسع إلى الرابع عشر الميلادي).	د. محمد خليفة ركابي حمد الله	٥٦
٣	السلع والأسواق في بلاد المغرب على ضوء كتاب المسالك والممالك للبكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)	د. حسام حسن إسماعيل	١٠١
٤	الكرك في كتب الجغرافية والرحلة	أ.د. عامر جاد الله أبو جبلة	١٢٩
٥	مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة	د. حسن حلمي أبو الفضل العسيري	١٧٢
٦	الطعام واللباس في رحلة السلطان الأشرف قايتباي للحج سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م من خلال رحلته المدونة في المجموع الظريف في حجة المقام الشريف	د. ريم بنت معيض عايض الحرابي	٢٠٢
٧	المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيماس (الحاج يونس المصري) بين القاهرة ودمشق: قراءة في سفره الأول من رحلاته	أ.د. إبراهيم بن محمد بن حمد المزيني	٢٤٩





٢٨٣	د. نصير خير الله محمد	الأهمية الاقتصادية لمدينة القدس الشريف في العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٧م)	٨
٣٢٨	د. مي السيد السيد محمد	أسواق مدينة تونس في كتابات الرحالة الأوروبيين في العصر العثماني	٩
٣٦٠	د. سامح إبراهيم عبد الفتاح عبد العزيز	الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني (دراسة تاريخية)	١٠
٤١٠	أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس	بلاد الشام في عيون الرحالة الروس "قسطنطين بازيلبي نموذجاً"	١١
٤٢٩	د. نهلة بنت شحات عمر محبت	جوانب من الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما دونها الرحالة شارل ديدييه من خلال رحلته الموسومة بـ"رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م	١٢
٤٨٩	أ.د. أحمد بن عمر آل عقيل الزيلعي	محافظة القنفذة من كتاب الرحلة اليمانية لشرف بن عبد المحسن البركاتي مع التركيز على معركة عجلان الفاصلة	١٣
٥٠٩	د/ هويدا أحمد على أحمد	الأوضاع السياسية للمملكة المتوكلية اليمنية في كتابات رحلة أمين الريحاني عام ١٩٢٢م "دراسة تحليلية"	١٤



## كلمة الافتتاح

أ.د. محمد عيسى الحيري

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

رغم تعدد مجالات الدراسات التاريخية وإصدار المجالات العلمية والثقافية على مستوى مصر والعالم العربي، إلا إن (مجلة المؤرخ العربي) التي يصدرها سنويًا اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة كانت ولا تزال في صدارة هذه المطبوعات والإصدارات التاريخية، حيث إنها تنصدر هذا المشهد بما لها من مكانة علمية عظيمة على مستوى الوطن العربي، وثقل تاريخي كبير يقوم على توثيق الأحداث التاريخية وحفظها، وذلك عن طريق الأبحاث التي تحتويها لكبار العلماء والمؤرخين ورواد دراسة التاريخ في العالم العربي، ومنذ أن صدر أول عدد لهذه المجلة عام ١٩٩٢م، وهي ملتزمة دائمًا بالعمق والجدية الواجبة، ورصدها للأحداث السياسية والتاريخية بدقة وإسهاب في شتى (العصور القديمة- والوسطى- والحديثة- والإسلامية).

يقول الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) سورة فاطر ٢٨.

من هذا المنطلق، فقد استشعر اتحاد المؤرخين العرب ضرورة الاهتمام بالدراسات التاريخية والحضارية، ودوره الكبير في هذه الفترة للقيام بواجبه نحو مواكبة الأحداث التاريخية والثقافية وتشجيع وتحديث الدراسات التاريخية والأثرية التي تسهم في دعم وأاصر الوحدة العربية وتماسكها.

ويسعدني أن أقدم هذا العدد الثامن والعشرين من مجلة المؤرخ العربي لعام ٢٠٢٠م، متضمنًا عددًا من الأبحاث التاريخية المتنوعة لعدد من أساتذة التاريخ بشتى عصوره: العتيقة، والوسيطة، والحديثة، والمعاصرة. وكذلك في تخصصات متنوعة ما بين حضارة مصر والشرق القديم، أو التاريخ اليوناني الروماني، أو التاريخ والحضارة الإسلامية.



ولا شك إن جهود السادة الزملاء من أساتذة التاريخ في عدة جامعات مختلفة على مستوى الوطن العربي، وأيضاً جهود السادة الباحثين الأفاضل؛ توخت - بالقدر الممكن - أن تكشف وجه الحقيقة دون تحيز أو ميل مع أي غرض أو اتجاه يتنافى مع عدالة الرصد والتاريخ في المصادر التاريخية ليخرجوا بمجموعة من الأبحاث المتميزة بموضوعات مختلفة متنوعة، عبروا فيها عن فكر عميق، وإمام وافر، وسعة إطلاع، أبهرت كثيراً من أرباب الفكر ورواد دراسة التاريخ.

وفي النهاية يهمني أن أشكر جميع الزملاء والباحثين الذين شاركوا وقدموا ٦٥ بحثاً في هذا المؤتمر (الوطن العربي في كتابات الرحالة والجغرافيين) لعام ٢٠١٩م، كما اتوجه بالشكر أيضاً إلى جميع الزملاء والأعضاء الذين حضروا هذا المؤتمر العظيم وقد تجاوزوا أكثر من ٣٥٠ شخصاً من أعضاء الاتحاد والضيوف الأعرء .. شكري وتقديري لهم جميعاً.  
نسأل الله العلي القدير لكم المزيد من التوفيق والسداد، وأن ينفعا جميعاً بهذا العلم.

أ.د. محمد عيسى الحريري

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

نوفمبر ٢٠٢٠م



## كلمة التحرير

يصدر العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي في ظل ظروف تسود العالم وأثرت على المجال الثقافي والعلمي، وخاصة الأنشطة الثقافية فلم نستطع هذا العام استكمال الندوات الشهرية، ولكننا سنقوم بإذن الله باستعادة النشاط لنشاط الندوات اعتباراً من شهر ديسمبر ٢٠٢٠م وذلك عبر الفيديو كونفرانس، وكذلك فإن المجلة نقلت في إطار بنك المعرفة المصري، وهذا يساعد على سرعة الإنجاز، كذلك، فإن ملخصات الندوات ستصدر بعد ذلك بنفس الطريقة.

والمجلة ستصدر في مجلدين وتطوف بنا عبر الفترات الزمنية وعن القادات في أبحاث تتناول تاريخ العراق القديم إلى التاريخ الإسلامي والوسيط عن الأديرة في العصر الفاطمي إلى دور المرأة إلى دراسة تاريخية عن كتب الرحلات، سواء ما تناول الحياة الاجتماعية وعن الطعام واللباس في عهد الأشرف قايتباي ومدارس دمشق من خلال وصف ابن بطوطة والسلع والأسواق في بلاد المغرب من خلال كتاب المسالك والممالك انتقالاً للتاريخ الحديث كرحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما بين القاهرة ودمشق، أسواق مدينة تونس في كتابات الرحالة الأوربيين في العصر العثماني إلى الأوضاع السياسية للمملكة المتوكلية اليمنية في رحلة أمين الريحاني، فالرحلات تعكس صورة واقعية لشاهد عيان عن أحداث الفترة ثم دراسات عن موقف أمريكا من الحركة الوطنية في الجزائر، وعن اليهود



وتوطينهم في منابع النيل الاستوائية، فهي موسوعة شاملة جديدة بالقراءة متنوعة المعلومة والفائدة، ونرجو أن تنتهي الجائحة لنعاود النشاط الثقافي المباشر، ويوفر الاتحاد جميع وسائل الاتصال الإلكترونية في نفس الوقت ليظل التواصل العلمي قائماً، ونرجو أن نكون قد قدمنا جهداً مقبولاً للقارئ.

وفي الختام نأمل أن نتلقى آرائكم ومقترحاتكم لإثراء هذه المجلة .

والله ولي التوفيق،،،

#### رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

#### هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم

أ.د. عفاف سيد صبرة

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم



### السادة أعضاء مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب

م	الإسم	الجنسية	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	مصرى	رئيس اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. اسماعيل بن محمد البشرى	سعودى	نائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة مدير جامعة الجوف سابقا
٣	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	مصرى	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٤	أ.د. حامد زيان غانم	مصرى	أمين الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٥	أ.د. زبيدة محمد عطيا	مصرى	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٦	أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية السياحة والتجارة - جامعة الملك سعود
٧	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مصرية	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٨	أ.د. إبراهيم بن محمد المريني	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٩	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	مصرى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
١٠	أ.د. على منصور آل شهاب	بحرينى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب نائب رئيس جامعة البحرين
١١	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مصرى	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
١٢	أ.د. نبيلة عبدالشكور	جزائرية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بجامعة الجزائر ٢
١٣	أ.د. حياة ناصر سالم الحجي	كويتية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت
١٤	أ.د. محمد بهجت القبيسى	سورى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ محاضر بجامعة حلب - سابقا



### السادة الأساتذة المحكمون

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٣	أ.د. حامد زيان غانم	أمين عام الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٤	أ.د. زبيدة محمد عطا	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٥	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٦	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
٧	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
٨	أ.د. إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٩	أ.د. محمد أحمد بديوى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة أسيوط

**مدينة أغمات من الفتح الإسلامي  
وحتى سقوط دولة المرابطين في المغرب  
(٦٣-٥٤١ هـ/٦٨٢-١١٤٦ م)  
(دراسة تاريخية وحضارية)**

**د. شاهنדה سعيد محمود منصور**

أستاذ مساعد التاريخ والحضارة الإسلامية

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

**ملخص البحث:**

يتناول موضوع البحث دراسة عن مدينة هامة من بين أهم مدن المغرب ألا وهي مدينة أغمات، وتتمتع المدينة بموقع جغرافي واستراتيجي مهم وتمتيز في الركن الجنوب الغربي لبلاد المغرب، فهو موقع عبور إلى الصحراء ولقد انفق الجغرافيون على أن أغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة، ولقد عزف الكثير من الدارسين عن تناولها نظراً لقلّة المصادر التي تناولتها بالدراسة غير أن المدينة كان لها دور بارز في عصر كل من الدولة الإدريسية والدولة المرابطية التي ازدهرت المدينة في عصرهما بشكل كبير. ولقد اتخذ المرابطين منها عاصمة مؤقتة لهم قبل تأسيس مدينة مراكش واتخاذهم منها عاصمة مركزية لدولتهم المرابطية. كما اتخذوا منها مدينة منفى للعديد من ملوك الطوائف بالأندلس ومن أشهرهم كل من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وعبد الله بن بلكين بن زيري صاحب غرناطة.



**Abstract 150 words**  
**City of Aghmat in the Islamic era**  
**From the conquest until the fall of the Almoravid state**  
**(63-541A.H/ 682-1146A.D)**

The topic of the research deals with a study on an important city among the most important cities in Morocco which it is the city of Aghmat, the city has an important and distinct geographical and strategic location in the southwestern corner of the countries of the Maghreb, as it is a transit site to the desert, and geographers have agreed that the floods of two cities One of them is called Aghmat Wraikah and the other is Helena's aggravations, and many scholars have reluctance to take it due to the scarcity of the sources that dealt with it in the study. However, the city had a prominent role in the era of both the Idrisid state and the Almoravid state, which flourished in their era greatly. The Almoravid choice it as a temporary capital before founding the city of Marrakesh and making it the central capital of their Almoravid state. They also took from it a city of exile for many of the kings of the sects in Andalusia, and among the most famous of them are al-Mu'tamid bin Abbad, the ruler of Seville, and Abdullah bin Belkin bin Ziri, the ruler of Granada.

### المقدمة:

تكمن أهمية هذا الموضوع فيما يمكن أن يضيفه من معلومات عن تاريخ مدينة أغمات، فقد كان للمدينة تاريخياً دور بارز في عصر كل من الدولة الإدريسية والدولة المرابطية التي ازدهرت المدينة في عصرها بشكل كبير، بعد أن اتخذ منها المرابطون عاصمة مؤقتة لهم قبل تأسيس مدينة مراكش، واتخاذهم منها عاصمة مركزية لدولتهم. كما اتخذوا منها مدينة نُفي إليها العديد من المعارضين سواء من المغرب أو من ملوك الطوائف بالأندلس؛ ومن أشهرهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وزوجته اعتماد الرميكية، وكذلك عبد الله بن بلكين بن زيري صاحب غرناطة، وأخوه تميم صاحب مالقة.

وقد اهتمت بها كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين، الذين اتسمت معلوماتهم بالأصالة بشكل عام، كما تميزت بأهميتها، نظراً لانفرادها بمعلومات غير معروفة في المصادر الأخرى غطت الجوانب الجغرافية والطبيعية، وما يرتبط بذلك من معلومات حول الموقع الجغرافي وتحديد المسافات بين أغمات والمدن المجاورة. كما تضمنت المصادر الجغرافية والرحلات معلومات اقتصادية تتعلق بالزراعة والتجارة وما ترتب على ذلك من نشاط اقتصادي. كما تضمنت أيضاً معلومات تتعلق بالأحوال الاجتماعية من حيث استقرار القبائل البربرية واليهود بالمدينة.

## الموقع الجغرافي لمدينة أغمات:

تتمتع مدينة أغمات بموقع جغرافي واستراتيجي مهم ومتميز في الركن الجنوب الغربي<sup>(١)</sup> لبلاد المغرب، شمال جبل درن<sup>(٢)</sup>. وتتضح لنا مكانة أغمات المتميزة من خلال موقعها الجغرافي المهم، فقد عرف ابن حوقل (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) أغمات بأنها إقليم<sup>(٣)</sup>، أما البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، فعرف المدن المجاورة للمدينة وفقاً للمسافة والطرق الواقعة بينها وبين أغمات، ويقول في ذلك الطريق (من سجماسة إلى أغمات والطريق من مدينة أغمات إلى مدينة فاس وهكذا....)<sup>(٤)</sup>، ولقد اتفق الجغرافيون على أن أغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات هيلانة، والأخرى أغمات وريكة، ولكنهم اختلفوا في تحديد المسافة بينهما، فقد

(١) تقع المدينة حالياً على مبعده ٣٠ كيلو متراً جنوب شرق مراكش.

(٢) وهي سلسلة جبال أطلس عرفت قديماً باسم جبل درن، الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص ٢٣١.

جبل بالمغرب مشهور يعرف بسقنور، وهو جبل عظيم معترض في الصحراء. قل أن يكون في الجبال مثله سموًا وكثرة خصب و طول مسافة واتصال عمارة، ومبدأى من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر مع المشرق مستقيماً حتى يصل إلى جبال نفوسة، ويسمى هنالك بجبل نفوسة، و يتصل بعد ذلك بجبال طرابلس ثم يرق هنالك ويخفي أثره يقال إن هذا الجبل يصل إلى البحر حيث الطرف المسمى بأوثان. قال البكري: وهو متصل بجبال أوراس ويجبل نفوسة المجاور بطرابلس. قال: وتسير في هذا الجبل إلى موضع يقال له الملاحة، وفي أعلى الجبل نهر عظيم كبير والجبل كثير الأشجار. قال بعضهم: هذا الجبل فاصل بين الصحراء والساحل ومنه ينفجر كل نهر هناك، وهم يختلفون في تسميته؛ فأهل فاس وسجماسة يسمونه درن. ولقد قال فيه المعتمد عندما رآه وهو في طريقه إلى منقاه بأغمات.

قلبي بها نو درن  
و ليتها لم ترني

هذي جبال درن  
يا ليتها لم أرها

انظر: البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز القرطبي)، المغرب في نكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثني، بغداد، بدون تاريخ، ص ١٤٧؛ الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، هيدلبرغ، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، صورة الأرض، الطبعة الثانية، دار صادر، لبنان، ١٩٣٨م، ص ٩٠؛ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ص ١٣٤.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٥٢.

حددها البكري ويتفق معه كل من الإدريسي وصاحب الاستبصار على أن المسافة بينهما نحو ستة أميال<sup>(١)</sup>، بينما حددها كل من (أبوالفداء) و(الحميري) بثمانية أميال<sup>(٢)</sup> ويستكمل الإدريسي التعريف بأغمت إيلان والمقصود بها هيلانة بقوله تقع في أسفل جبل درن، وهي إلى الشرق من أغمت وريكة التي تقع أسفل هذا الجبل أيضاً ولكن من ناحية الشمال؛ أي إن مدينة أغمت مدينة تكفها جبل درن<sup>(٣)</sup>. وإن كانت أغمت وريكة هي التي اشتهرت وحازت اهتمام الجغرافيين فذلك لأنها كانت مسكناً للأعيان وبها ينزل التجار على القديم، لأنها كانت دار التجيز للصحراء<sup>(٤)</sup>

ولكن لم تذكر لنا هذه المصادر الجغرافية أصل تسمية المدينة أوبداية نشأة المدينة ومؤسسها. في حين أجمعت المعاجم العربية على أن كلمة أغمت تعني التخمة التي تصيب الإنسان بعد أكله لأكلة دسمة، فيقال: أكله دسماً فنقل عليه واتخم وثقل الطعام عليه. فهي من المصدر غمت: الغمت والفقم: التخمة. غمته الطعام يغمته غمناً: أكله دسماً، فغلب على قلبه، وثقل واتخم، وقال الأزهري: هو أن يستكثر من حتى يتخم. وقال شمر: غمته الودك يغمته إذا صيره كالسكران. وغمته إذا غطاه. وغمته في الماء يغمته غمناً: غطه فيه<sup>(٥)</sup>. ويؤكد على هذا المعنى صاحب كتاب تاج العروس غمت: غمته الطعام يغمته غمناً من باب

(١) البكري، المصدر السابق، ص ١٥٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٥؛ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، مشروع النشر المشترك، المغرب، ١٩٨٥، ص ٢٠٧.

(٢) أبوالفداء، تقويم البلدان، ص ١٤٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣١.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦؛ مجهول، الاستبصار، ص ٢٠٧؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ - من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢١٩..

(٥) ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حنيفة)، لسان العرب، تحقيق عبد الله على الكبير - محمد أحمد حسب الله - هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، مادة (غم ت) ج ٣٦، ص ٣٢٩٢.

ضرب، إذا ثقل على قلبه، وفي بعض نسخ الصحاح: على فؤاده، وذلك إذا أكله دسماً، فغلب على قلبه وثقل واتخم. والغمت والفقم: التخمة، وقال الأزهرى: هوأن يستكثر منه حتى يتخم، وقال شمر: غمته الودك، إذا اتخم فصييره كالسكران، فغمت الرجل كفرح، إذا كان كذلك. وغمته في الماء يغمته غمناً: غطه فيه. ويقال غمت الشيء غطاه يغمته غمناً. وغمت نفساً، إذا رفع رأسه عند الشرب<sup>(١)</sup>. ومن هذه التعريفات يتضح لنا لماذا عرفت المدينة بهذا الاسم، يرجع ذلك إلى المكانة الاقتصادية الكبيرة لها، فهي التي كانت تغرق المقيمين بها في حياة رغدة تجعل من أصحابها متخمين بالأموال.

### الفتح العربي لمدينة أغمات:

لم تتمكن قوات العرب المسلمين من الوصول إلى المغرب الأقصى لأول مرة إلا على يد عقبة بن نافع في ولايته الثانية لإفريقية، فقد خرج عقبة بجنده بقصد فتح الشمال الإفريقي كله وضمه لحوزة العرب، وبعد أن تم لعقبة القضاء على سبل مقاومة البربر والروم في المغرب الأوسط؛ نجده ينحدر من الهضبة إلى السهل الساحلي، ويسير بمحاذاة الساحل حتى ينتهي إلى طنجة<sup>(٢)</sup> تاركاً البربر والأفارقة من ورائه متحصنين بالقلاع والحصون.

أما عن ظروف وملابسات فتح المدينة أو في أي عام بالتحديد تم الفتح، فليس لدينا من المعلومات سوى أن فتح مدينة أغمات جاء ضمن خط سير الفتوحات في ترتيب مدن المغرب الأقصى، فقد تحرك عقبة إلى ما وراء طنجة حيث السوس الأدنى (تامسنا) وهي مساكن قبائل

(١) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي - راجعه عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٩، مادة (غ م ت) ج ٥، ص ١٩-٢٠.

(٢) مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني - المصري، لبنان - القاهرة، ١٩٨١م، ص ٣؛ ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان. إ. لفي برفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت. لبنان، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٦؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٩١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الطبعة الثانية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٣٩.

مصمودة، حيث قتل منهم كثيراً وسار من نصر إلى آخر حتى بلغ السوس الأقصى، وكانت أغمات مأهولة من قبل الأمازيغ المسيحيين، وقد اقتصر نكر ابن عذارى لفتح أغمات على قوله: إن عقبة بن نافع نزل من درعة إلى بلاد صنهاجة ثم هسكورة ثم نزل بأغمات وريكة، ثم نزل منها على وادي نفيس<sup>(١)</sup>، إلا إن هذه الرواية لم تظهر لأول مرة إلا بعد ٧٠٠ عام من ذلك التاريخ، ولم يُعطاها المؤرخون أية مصداقية<sup>(٢)</sup>. ولم يرد نكر لها بعد ذلك في المصادر إلا عندما قام موسى بن نصير بإرسال المعلمين إلى السوس الأقصى وحول الكنائس فيها إلى مساجد، فجعلها مراكز لتحصيل العلوم الدينية وأسس مسجدي تلمسان وأغمات هيلانة<sup>(٣)</sup> في سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م<sup>(٤)</sup>. واشتركت أغمات في ثورة ميسرة المطغرى التي اتخذت من طنجة مركزاً، والتي اشتعل بها المغرب الأقصى عام ١٢٢هـ / ٧٤٠م، ويفرد صاحب مفاخر البربر بذلك قائلاً: "وثار بأغمات المصامدة وأكبر من ثار بها قديماً ميسرة المطغرى، وفتنته أول فتنة وقعت في المغرب في الإسلام"<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٢٧؛ عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي، ص ١٣٩؛ Lévi-Provençal, "Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord", *Arabica* 1 (1954) 17-43.

نفيس مدينة من بلاد المغرب عند أغمات تُعرف بالبلد النفيس، وهي مدينة قديمة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائل البربر، وبها من الحنطة والفواكه واللحوم ما لا يكون في كثير من البلاد، وبها جامع وسوق نافقة وأنواع عجيبة من الزبيب المتناهي طيباً وكثرة. غزاها عقبة بن نافع رحمه الله وحاصر بها الروم فافتتحها وأصاب المسلمون فيها أموالاً كثيرة ومغانم واسعة، وبنى فيها عقبة مسجداً، وهو معروف باسمه إلى اليوم، وليس في جميع تلك البلاد أطيب هواء منها ولا أجل منظراً ولا أكثر أنهاراً وأشجاراً وثمراً. ويشق بلد نفيس نهر كبير ينبعث من جبل درن حيث تربة الإمام المهدي وخليفته عبد المؤمن، ومراكش بين أغمات ونفيس. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٧٨.

(2) A. Benabbès, "Les premiers raids arabes en Numidie byzantine: questions toponymiques", in *Identités et Cultures dans l'Algérie Antique*, University of Rouen, 2005

(٣) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٢٧؛ عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي، ص ٢٠٦.

(٤) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ - ج ١، ص ٩٢.

(٥) مجهول، نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٤م، ص ١٣٩.

### أغمات في عصر الدولة الإدريسية:

ثم اختفي ذكر مدينة أغمات إلى أن قامت دولة الأدارسة بالمغرب<sup>(١)</sup> وبمجرد أن وصل إدريس إلى طنجة حتى أخذ يعمل على دراسة أحوال المغرب الأقصى ومدنه وقبائله في فترة إقامته بها التي استمرت لعدة أيام<sup>(٢)</sup>، خاصة أن منطقة المغرب الأقصى كانت بالفعل منطقة خارجة عن نفوذ الخلافة<sup>(٣)</sup>. وهكذا وفي أقل من عام، امتد سلطان إدريس من تلمسان إلى ريف تامسنا، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع<sup>(٤)</sup>.

لم تذكر مدينة أغمات إلا في عهد إدريس الثاني<sup>(٥)</sup>. حينما خرج إدريس بن إدريس بمجرد الانتهاء من بناء حاضرتة ومقره الجديد بفاس بحملة في عام ١٩٧هـ/ ٨١٢م، عازماً على غزوقبائل

(١) في عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة على العباسيين، فكانت تلك المجزرة بموضع فخ بين المدينة ومكة، ونجح إدريس في الفرار من مكة متخذاً طريق المغرب. و كان دخول إدريس بإفريقية سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م. ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)، الأئيب المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص ١٩؛ ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٢١.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٩؛ سعد زغول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، تاريخ دولة الأغلبية والريستيميين وبنى مدرار والادارسة حتى قيام الفاطميين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٤٣٦.

(٣) إسماعيل العربي، الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٣م، ص ٦٦.

(٤) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الخامسة، دار الرشد، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٢٧؛ سعد زغول، المغرب العربي، ج ٢، ص ٤١٤؛ محمد سليمان الطيب، الإتحاف في تاريخ الأشراف في المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٦٢؛

Jamil Abun Nasr, A History of the Maghrib, p.79.

(٥) توفي إدريس تاركاً وراءه إمامة بلا وارث شرعي لها، فلم يكن لإدريس أولاد، إلا إنه ترك جارية تسمى كنزة. كنزة. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢٥؛ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد)، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ج ٣، ص ١٩٥؛ Henri Terrasse, Histoire du Maroc, p58. و قد وضعت كنزة حملها في يوم الاثنين الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ١٧٥هـ/ أغسطس ٧٩١م، و سمي بإدريس؛ و لذلك عرف بإدريس الثاني حيث ولي سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م. ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، الحلة السرياء، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة و النشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٥٣؛ ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٢١٠؛ الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز)، العبر في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٤٨، ج ١، ص ٢٥٦.

البربر الوثنيين باتجاه مدينة نفيس وبلاد المصامدة، وقد كللت هذه الغزوة بنجاحه في فرض سيطرته ودخول كل من مدينتي نفيس وأغمات التي يصفها الجغرافيون العرب بأنها أصبحت بعد ذلك قاعدة إدرسية مزدهرة، كما فتح سائر بلاد المصامدة ليعود إلى حضرته مرة أخرى<sup>(١)</sup>.  
وبوفاة إدريس بن إدريس آل أمر دولته من بعده إلى محمد أكبر أولاده سنًا<sup>(٢)</sup>، إلا إننا نجد أن أول ما قام به محمد بن إدريس بعد توليته أمور البلاد تقسيم دولته إلى أجزاء وزعها على إخوته الراشدين، أما القصر فأبقى محمد عليهم وضعهم تحت وصايته<sup>(٣)</sup>.  
وقسم محمد بن إدريس دولته على هذا النحو بناءً على طلب جدته كنزة مستمراً في اتخاذ فاس حاضرة له<sup>(٤)</sup>، كما كانت لأبيه من قبل، وقد تم التقسيم على النحو الآتي: وفقاً لتقسيم ابن أبي زرع، وهو: عبد الله: مدينة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة والسوس<sup>(٥)</sup> أما عن السلاوي صاحب كتاب الاستقصا فلقد ذكرها على هذا النحو: عبد الله: أغمات ونفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٥٠؛ السلاوي، الاستقصا، ج ١، ص ٢٢٥؛ عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي، ص ٣٩١.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٥١؛ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٥٧؛ سليمان الطيب، الإنصاف في تاريخ الأشراف، ص ٤٥؛

Jamil Abun Nasr, A History of the Maghrib, p.80.

(٣) ابن الأبار، الحلة، ج ١، ص ١٣١؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى الشأن الأكبر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٠م، ج ٦، ص ٢٥٦.

(٤) البكري، المغرب، ص ١٢٤؛ ابن الأبار، الحلة، ج ١، ص ١٣١؛ ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٥٦.

(٥) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٥١..

(٦) السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر - محمد الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج ١، ص ١٥٦. عن مسألة التقسيم بين الإخوة انظر كذلك: ابن الأبار، الحلة، ج ١، ص ١٣٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٠٤-٢٠٥؛ ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢١٦؛ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج ٢، ص ٤٥٨-٤٥٩.



وأياً ما كان أمر التقسيم، فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في تبعية بعض المدن، فإن البكري لم يذكر مدينة أغمات ضمن المدن التي قام محمد بن إدريس بتقسيمها على إخوته<sup>(١)</sup>، في حين أن كلاً من ابن أبي زرع والساوي اتفقا على أن مدينة أغمات كانت ضمن عدد من المناطق التي عهد بها محمد بن إدريس لأخيه عبد الله.

### أغمات تحت حكم المغراويين:

ثم اختفي ذكر أغمات في المصادر، وهو ما يدل على أنها فقدت أهميتها في ظل المنازعات البربرية، إلى أن عاد اسمها للظهور في عهد المغراويين الذين حكموا بلاد المغرب قبيل ظهور دولة المرابطين. ويحدد السلاوي سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م لدخول المغراويين للمغرب قائلاً: "وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بعدها دخل مغراوة المغرب وملوكه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي"<sup>(٢)</sup>. ويعتبر أبناء مغراوة وبنويفرن أبناء العمومة؛ لأن "مغراو ويفرن أخوان شقيقان، وهما ابنا يصلتين بن مسرى بن زاكيا بن ورسيك بن الديديت بن زانا وهو أبوزناتة"<sup>(٣)</sup>.

لم تذكر لنا المصادر ملابسات دخول المدينة تحت حكم المغراويين، ولم تُعرف أي أحداث داخل المدينة في هذه الفترة فيما عدا عند سقوط المدينة في أيدي المرابطين على يد عبد الله بن ياسين ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وفرار أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلة، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما يلي. ولكن قبل ذلك لا بد من الإشارة إلى أنه يبدو أن حكم المغراويين لأغمات لم يكن قد مر عليه وقت طويل، ويمكننا أن نعرف ذلك من زواج لقوط المغراوي - صاحب المدينة قبل فتح المرابطين - من زينب النفزاوية، الذي لم يتم إلا بعد أن تمكن من فرض سيطرته على أغمات فتزوج من زوجة شيخها، وفي ذلك يقول صاحب

(١) البكري، المغرب، ص ١٢٤.

(٢) السلاوي، الاستقصا، ج ١، ص ٢٦١.

(٣) السلاوي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٢.

الأعلام بمراكش وأغمات " كانت زوجة عند يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن وطاس، وكان شيخاً على وريكة وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب النفزاوية<sup>(١)</sup>.

### أغمات في عصر الدولة المرابطية:

بعد أن نجح المرابطون في إخضاع كل من جدالة ولمتونة ومسوفة وغيرهم من قبائل صنهاجة<sup>(٢)</sup>، بدأ عبد الله بن ياسين هو وأصحابه في عام ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م في الخروج من الصحراء باتجاه بلاد المغرب؛ وبعد نجاحهم في ضم السوس الأدنى؛ اتجهوا إلى الجنوب الشرقي من المغرب، حيث نجحوا في فتح أغمات سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م<sup>(٣)</sup>. ففي هذا العام اتجه عبد الله بن ياسين إلى مدينة أغمات، أما عن تفاصيل سقوط المدينة في يد المرابطين بعدما امتنع بداخل المدينة صاحبها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي، مما اضطر عبد الله إلى تصييق الحصار عليها وقاتل صاحبها أشد القتال، وأمام هذا الحصار شعر لقوط أنه لا طاقة له بهم مما اضطر لقوط إلى الفرار عنها ليلاً بجميع حشمه إلى مدينة تادلة<sup>(٤)</sup> لينزل بها عند أصحابها من بني يفرن. ولقد أقام عبد الله بمدينة أغمات نحو شهرين، ثم خرج بجنوده نحو تادلة وجهة لقوط، حيث نجح في فتحها، وقتل زعماءها من بني يفرن، كما ظفر بلقوط

(١) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ج٣، ص٢٧٥. انظر كذلك السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص١٥؛ مصطفى عربوش، من تاريخ منطقة إقليم تادلة و بني ملال، الطبعة الأولى، مكتبة الطالب، الرباط، ١٩٨٥، ص١٥٤.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٢٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٢٨.

(٣) مجهول، مفاخر البربر، ص١٤٥؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٢٩؛ ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٧٥؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس - دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٣، ص٣٠٥.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٧٥؛ أحمد عامر، الأمازيغ (البربر والسياسة والحكم) في بلدان المغرب، ٢٠٠١م، ص٥١٤.

المغراوي الذي قام بقتله أيضاً<sup>(١)</sup>. ووفقاً لرواية صاحب الحل الموشية، فلقد تمكن الأمير أبوبكر بن عمر بمصاحبة عبد الله بن ياسين، من فتح مدينة أغمات سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، فطاعت له وريكة وهيلانة وهزميرة فنزل بها بعدما استقبله أشياخ المصامدة وأذعنوا له بالطاعة، ومنذ ذلك الحين استوطن الأمير أبوبكر بن عمر اللمتوني مع إمامه الشيخ عبد الله بن ياسين بمدينة أغمات التي أقام بها حتى خروجه إلى تامسنا لإدخالهم في طاعته، لكن للأسف لم يذكر أية تفاصيل عن هذا الفتح المرابطي للمدينة<sup>(٢)</sup>.

وقد وقع اختيار المرابطين على مدينة أغمات ليتخذوا منها قاعدة لهم، وذلك قبل انتقالهم إلى مراکش؛ إذ "كانت كرسى ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قبل أن يخط مدينة مراکش"<sup>(٣)</sup>. ومن الفتوحات التي تمت للمرابطين، وهم مستقرون بأغمات نجح أبي بكر بن عمر في استئصال شأفة برغواطة حتى نجح في تفريقهم في الصحراء وإنزالهم على الطاعة حتى حسن إسلامهم. وبعد هذا النجاح رجع أبوبكر إلى الإقامة بمدينة أغمات مرة أخرى. وفي صفر ٤٥٢هـ/مارس ١٠٦٠م خرج أبوبكر بن عمر بجيوشه من صنهاجة والمصامدة وجزولة، ونجح في فتح فازان وجبالها وسائر بلاد زناتة ومكناسة، كما نجح في فتح لواتة ودخلها، وقام بتخريبها في ربيع الآخر سنة ٤٥٢هـ/يونيو ١٠٦٠م، ولما انتهى من فتح لواتة عاد إلى مستقره بمدينة أغمات ليقوم فيها مدة ثلاثة أشهر بمصاحبة زوجته زينب النفزاوية؛ تلك الشخصية النسائية الأشهر في نساء المغرب، وذلك قبل قدوم رسول عليه من قبل الصحراء ليخبره باختلال الأمر في قبائل الصحراء الجنوبية. مما اضطره إلى الخروج تاركاً من ورائه زينب بالمدينة بعد أن طلقها مبرراً ومفسراً لها ذلك عند فراقه لها قائلاً: "يا زينب

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٢٩؛ ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٤٤؛ السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ١٥؛ عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي، ص ٦١١؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ١٥٩؛ عنان، دولة الإسلام، ج ٣، ص ٣٠٥.

(٢) مجهول، الحل الموشية في نكر الأخبار المرلكشية، تحقيق سهيل زكار - عبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص ٢٣.

(٣) مجهول، المصدر السابق، ص ٢٣؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٣٥.



إنك ذات حسن وجمال فائق، وإنى سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلى أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر، وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء، وإنى مطلقك فإن أتممت عندك فتزوجى ابن عمى يوسف بن تاشفين<sup>(١)</sup>. وهكذا دخل يوسف بن تاشفين أغمات بعد أن تمكن من فرض سيطرته على بلاد المغرب من بنى مغرولة وبنى يفرن وسائر قبائل البربر. وعندما استقر بأغمات تزوج من زينب النفزاوية بناء على وصية أبوبكر بن عمر<sup>(٢)</sup>، حتى أطلق على يوسف بن تاشفين لقب أمير أغمات من قبل صاحب غانة، وقد انفرد بذلك صاحب الاستبصار حينما ذكر هذه الرواية قائلاً: "ووقع إلى كتاب ملكها إلى يوسف بن تاشفين، نصه: إلى أمير أغمات، قال غانة"<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن المدينة ظلت تقي بالغرض حتى سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م؛ وهو العام الذى استقامت الإمارة فيه، ودانت له البلاد بالطاعة فوجه عماله إليها، وأخذت الوفود والجيوش تتوافد عليها من الصحراء. وهوما أشعر أهلها بالضيق بعدما أخذت المدينة تعاني من الازدحام.

ويذكر صاحب الحل الموشية أن السبب في اختيار واختطاط مراكش<sup>(٤)</sup> حاضرة الدولة المرابطية يرجع الفضل فيه إلى أهل أغمات، فحينما خرج اللمتونيون من الصحراء بقيادة الأمير أبوبكر بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت اللمتوني نزلوا بأغمات وريكة فشكا إليه أشياخ وريكة وهيلانة من كثرة الخلق بها، وما ترتب على ذلك من من العناء والمشقة بالعيش

(١) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٣٣-١٣٤؛ السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٢٠؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ١٦٠؛ عنان، دولة الإسلام، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٢) السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٢٣.

(٣) مجهول، الاستبصار، ص ٢١٩.

(٤) اختلف المؤرخون في السنة التى بدأ فيها الشروع في بناء المدينة، وفي مؤسسها، ففي الوقت الذى اتفق فيه عدد من المؤرخين على أن مؤسسها هو يوسف بن تاشفين عام ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م. ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٩٥؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٣٤؛ ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٧٨، وفي حين اتفق الإدريسي والحميري مع السابقين على أن مراكش تم اختطاطها من قبل يوسف بن تاشفين بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات، فإنهم حددوا تاريخاً مختلفاً و هو عام ٤٧٠هـ / م. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٣؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٠.

بالمدينة التي ضاقت بهم، وبعد تكرار الشكوى أكثر من مرة طلب منهم أبوبكر أن يعينوا لهم موضعاً يكون نواة لتأسيس مدينة لهم بالمغرب الأقصى "عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله"؛ فوقع اختيارهم بالإجماع على أن يكون موضع المدينة الجديدة بين بلاد هيلانة وهزميرة، وأخبروا بذلك الأمير أبوبكر بن عمر بعد أن عددوا له مزايا هذا المكان الفسيح قائلين له "قد نظرنا لك أيها الأمير، موضعاً صحراء، رحب الساحة، واسع الفناء، يليق بمقصدك، وقالوا له: نفيس جناها، وبلاد دكالة فدائها، وزمام جبل درن بيد أميرها". فركب الأمير أبوبكر بن عمر في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ومن معه من قومه من الملمثين وأشياخ المصامدة وساروا معه إلى فحص مراکش<sup>(١)</sup>.

وبعد انتقال أبوبكر إلى فحص مراکش؛ وأثناء مقامه بها بلغته الأخبار بقيام قبيلة جدالة بالإغارة على لمتونة، مما دفعه إلى الخروج إلى الصحراء مرة أخرى، ولكن بعد أن استخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، وظل أبوبكر في قتال قبائل الصحراء حتى عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، الذي تمكن فيه من القضاء على مظاهر التمرد في الصحراء، فقرر العودة إلى بلاد المغرب، ووقع اختياره مرة أخرى على النزول بمدينة أغمات بخارج المدينة، ولكنه وجد أن الأمر كله أصبح بيد يوسف بن تاشفين الذي استبد بالأمر، وخرج يوسف بن تاشفين في جنوده وعبيده ليلتقيه به في منتصف الطريق بين أغمات ومراكش على بعد تسعة أميال منها. فتعجب الأمير أبوبكر بن عمر مما رآه من ضخامة ملكه فتخلى له أبوبكر عن الأمر بالمغرب، وقام فودعه الأمير يوسف بن تاشفين، وعاد الأمير أبوبكر إلى موضع نزوله بأغمات. وهناك استقبل أبوبكر الهدايا التي أهداها إليه يوسف بن تاشفين<sup>(٢)</sup>.

(١) مجهول، الحل الموشية، ص ١٥. يتفق معه ابن عذارى في تاريخ تأسيس المدينة. ابن عذارى، البيان، ج ٤، ص ٢٠. وهي في شمال أغمات بميله يسيرة إلى الغرب وبينهما نحو خمسة عشر ميلاً. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٣٥.

(٢) عنان، دولة الإسلام، ج ٣، ص ٣١٢. عن تفاصيل هذه الهدايا انظر مجهول، الحل الموشية، ص ٢٧.

وفي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، فرق يوسف بن تاشفين عماله على بلاد المغرب؛ فولى سبيري بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاته وفازاز، وولى عمر بن سليمان على مدينة فاس وأحوازها، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وولى ولده تميم بن يوسف بن تاشفين على مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس والمصامدة وتادلة وتامسنا<sup>(١)</sup>. وظل تميم على حكم هذه المناطق حتى عام ٥٠١هـ / ١١٠٧م عندما عزله أخوه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب، وولى مكانه أبو عبد الله بن الحاج، وتم تعيين تميم على غرناطة وأعمالها<sup>(٢)</sup>. غير أنه لم يطل مقام ابن الحاج بولاية المغرب، فلم يستمر بها سوى ستة أشهر ليتم عزله وتوليته على بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الأندلس<sup>(٣)</sup>.

### أغمات مركزاً للمنفيين:

اتخذ الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين من مدينة أغمات مدينة نفي إليها أشهر ملوك طوائف الأندلس من المعتمد بن عباد والأمير عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة وأخيه المستنصر تميم بن بلكين صاحب مالقة<sup>(٤)</sup>. وذلك في محاولة منه لإقصائهم عن المشهد السياسي في الأندلس والمغرب.

وعرف المعتمد بن عباد منذ محاولاته مع المرابطين لإقناعهم بالعبور إلى بلاد الأندلس لما سوف يكتسبونه من جهاد في سبيل الله، وإنقاذاً لبلاد المسلمين من هجمات النصارى التي

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٤٢؛ السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٣٠.

(٢) السلاوي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٣.

(٣) السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٦٣.

(٤) كان تميم والياً على مالقة منذ عهد جده باديس، اختار شيوخ صنهاجة أخاه الصغير عبد الله أميراً على غرناطة، واستقل تميم بمالقة وأغار على ثغر المنكب الذي كان تحت حكم عبد الله، فسار عبد الله لقتاله وهزمه. وكاد أن ينهي حكمه لولا تدخل والدتهما، فتركه عبد الله وعاد إلى غرناطة. وفي عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م استجد تميم مع ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين، وفي عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م شارك تميم مع ملوك الطوائف في موقعة الزلاقة. وفي عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م اتهم بعض الفقهاء تميم بارتكاب مظالم بحق رعاياه، وطالبوا ابن تاشفين بخلعه. مجهول، الحل الموشية، ص ٧١.

ترمي إلى إخراج الإسلام من بلاد الأندلس<sup>(١)</sup>، وقد بعث المعتمد بن عباد في عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م إلى يوسف بن تاشفين يطلب منه المساعدة والمعونة على صد تلك الهجمات النصرانية<sup>(٢)</sup>، وقد اعتذر يوسف بن تاشفين، وتحجج بعدم سيطرته على بلاد العدو الأفريقية (سبتة وطنجة)<sup>(٣)</sup>، حتى إن المعتمد عرض عليه إمكان إرسال قطع من أسطوله<sup>(٤)</sup> يمكنه عن طريقها حصر كل من طنجة وسبتة في هجوم بري وبحري في وقت واحد؛ الأمر الذي يسهل معه إحكام السيطرة على بلاد العدو ضد البرغواطيين<sup>(٥)</sup>. ويبدو أن المعتمد بن عباد لم يفقد الأمل في عبور يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس لإنقاذهم من براثن حرب الاسترداد المسيحية وهجمات ألفونسو السادس<sup>(٦)</sup>.

وقد بدأت تلك المحاولات تؤتي ثمارها عندما اجتمع رأي أمراء الطوائف وملوكهم على إرسال رسالة إلى يوسف بن تاشفين تصف له ما يلقاه المسلمون على يد النصارى من محن<sup>(٧)</sup>، وعندما بعثوا بتلك الرسالة إلى المرابطين رأوا أن الواجب الديني يحتم عليهم نصره إخوانهم المسلمين<sup>(٨)</sup>؛ وقد جاء عبور يوسف من سبتة إلى الجزيرة في شهر ربيع الآخر من سنة ٤٧٩هـ/أغسطس ١٠٨٦م<sup>(٩)</sup>، ومنها اتجه إلى إشبيلية، وذلك بعد أن تسلّم الجزيرة

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٦٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٤٢.

(٣) سالم، المغرب الإسلامي، ص٦٢٨.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٤٢؛ السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص٣١.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٦٢.

(٦) Jamil Abun Nasr, A History of the Maghrib, p.98.

(٧) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٤٤.

(٨) مجهول، الحل، ص٤٩؛ يوسف أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦، ج١، ص٧٥.

(٩) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٧٩؛ يوسف أشباح، تاريخ الأندلس، ج١، ص٨٢.

الخضراء من المعتمد بن عباد<sup>(١)</sup>، بعدما تعهد كل أمراء الأندلس بإعداد جيوشهم وتزويدها بالمؤن، وأول من قام بذلك من أمراء الطوائف هو المعتمد بن عباد، وقد نتج عن اتحاد أمراء الطوائف بعضهم مع البعض واجتماعهم على معونة ومساعدة جموع المرابطين التي عبرت إليهم من بلاد العدو - أن من الله عليهم بالنصر في موقعة الزلاقة (Sacralias) ١٢ رجب عام ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م<sup>(٢)</sup>، وهي التي أظهر فيها المعتمد بن عباد شجاعة وصموداً ضد هؤلاء النصارى<sup>(٣)</sup>.

وبعد هذا النصر الكبير للمسلمين ترك يوسف بن تاشفين ميدان المعركة عابراً إلى أفريقيا تاركاً قائده سير بن أبي بكر على قيادة جيوشه؛ الأمر الذي ساعد ألفونسو السادس على القيام بإعادة بناء جيشه مرة أخرى؛ ومن ثم أخذ يهاجم أراضي المسلمين<sup>(٤)</sup>.

وقد وصل ألفونسو بغزواته إلى حدود إشبيلية بعد مرور عام واحد فقط من موقعة الزلاقة، فقرر يوسف العبور إلى الأندلس بنفسه للمرة الثانية في سنة ٤٨١هـ / يونيه ١٠٨٨م<sup>(٥)</sup>، وفي هذه المرة رأى يوسف مدى ما يمثله أمراء الطوائف في الأندلس من عوامل تسبب الانهيار السريع للبلاد، فهم غير متفقيين على رأي، ويرى كل منهم أنه سيد تلك البلاد وحده دون منازع، ولا يفكر إلا في تحقيق أهدافه دون الاهتمام بإخوانه المسلمين وبالإسلام ذاته، بل كان هدف كل منهم تحقيق مصلحته فقط لا غير<sup>(٦)</sup>.

(١) مجهول، الحل، ص ٥٢؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ج ١، ص ٨٢-٨٣.

(٢) قتل فيها نحو ٣٠٠ ألف من النصارى. مجهول، الحل، ص ٥٩-٦٣.

(٣) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ج ١، ص ٩٠.

(٤) يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص ٩٣.

عن الأسباب التي دفعت يوسف بن تاشفين للعودة إلى المغرب بعد موقعة الزلاقة. انظر عصمت عبد اللطيف

ننش، أضواء جديدة على المرابطين، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٩١م، ص ٧١-٧٨.

(٥) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٥٢؛ مجهول، الحل، ص ٦٦؛ حمدي عبد المنعم حسين، تاريخ

المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ٦٢..

(٦) عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، التنبؤ عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحرير على

على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٣٥.



فقد امتنعت قوات مرسية عن الانضمام للجيش المرابطي، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يقطعون الإمدادات عن الجيش المرابطي<sup>(١)</sup>، كما أخذ بعض الولاة الآخرين ينسحبون من معسكر المرابطين، ولعل كل هذه الأحداث جعلت يوسف بن تاشفين يتأكد من حتمية القضاء على هؤلاء الأمراء المنفرقين؛ الذين أصبحوا نتيجة لهذا التفرق والتحاسد بينهم أداة في أيدي الملوك المسيحيين الذين استطاعوا الاستيلاء على الكثير من القلاع والحصون دون الدخول في معارك مع هؤلاء الأمراء المسلمين المتناحرين؛ ولذلك قرر يوسف التخلص من كل أمراء الأندلس المسلمين؛ حتى يستطيع بعد ذلك التفرغ للقضاء على ملوك المسيحيين دون استثناء.

وفي عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م عبر يوسف بن تاشفين من سبتة<sup>(٢)</sup> إلى الأندلس للمرة الثالثة<sup>(٣)</sup>، وأسّر كلاً من عبد الله بن بلكين بن باديس<sup>(٤)</sup> وأخيه تميم بن بلكين صاحبى كل من غرناطة ومالقة، ونفاهما إلى أغمات<sup>(٥)</sup>. فنزل عبد الله وأهله أولاً إلى الجزيرة الخضراء، ثم نقلوا إلى سبتة، فمكناسة. وذلك قبل أن يصلوا أخيراً إلى مدينة أغمات، حيث تقرر إقامتهم، وأنزلوا هناك في دار حسنة وعوملوا برفق وعناية. وفي المنفى كتب عبد الله بن بلكين مذكراته

- (١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٥٣؛ مجهول، الحل، ص ٧٠. لمزيد من التفاصيل:  
Henri Terrasse , Histoire du Maroc, p. 236
- (٢) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤، ج ٢، ص ١١٦..
- (٣) مجهول، الحل، ص ٧١؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٣٥٠.
- (٤) عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن زيري الملك الثالث و الأخير لمملكة غرناطة، اسسها فرع منحدر منحدر من عائلة بنى زيري البربرية الصنهاجية بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ٤٢٢هـ / ١٠٣٠ م . ولد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٦م، و عين عند وفاة أبيه بلكين سيف الدولة في عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م ولي عهد لجدّه الأمير باديس بن حبوس، ليعتلى عرش غرناطة سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م. مذكرات الأمير عبد الله، ص ٩.
- (٥) مجهول، الحل، ص ٧١؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٣٥٠؛ ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٣٨٠؛ محمد ولد دادة، مفهوم الملك في المغرب من إنتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع دراسة في التاريخ السياسي، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني- المصري، ١٩٧٧، ص ١١٧؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ج ١، ص ٩٨.

الشخصية وعنوان التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة. ولقد وقف ابن الخطيب خلال زيارته لأغمات على ديوان لعبد الله بخطه " ألفه بعد خلعه، وقرر فيه أحواله الحادثة عليه، مما يستظرف من مثله"<sup>(١)</sup> وسرد فيها تاريخ آباءه، وأحوال حكمه، وحوادث الأندلس في عصره التي يتضح فيها بشكل جلي جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والدعة في مجانبته للإقدام وحبه للسلامة والعافية<sup>(٢)</sup>. وتوفي عبد الله بمنفاه بأغمات. وأما بالنسبة لتميم، فلقد ظل حبيسا بأغمات إلى أن عفا عنه ابن تاشفين وسمح له بالانتقال إلى مراكش؛ حيث توفي بها عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م<sup>(٣)</sup>.

وعاد يوسف إلى سبته<sup>(٤)</sup> تاركًا وراءه أربعة جيوش، وقرر أن يكون الأمير التالي هو المعتمد بن عباد نفسه صاحب إشبيلية وقرمونة وإستجة وقرطبة ويقاع أخرى من مرسية) حيث كانت دولته تعد من أكبر دول الأندلس في ذلك الوقت). أما القائد الذي تم إرساله لاستنزال المعتمد بن عباد، فهو سير بن أبي بكر<sup>(٥)</sup>، الذي يعد واحدًا من أهم قواد يوسف بن تاشفين؛ وقد أخذ المعتمد بن عباد أهفته لمقاتلة جنود المرابطين، وعلى الرغم من ذلك فلم ينجح المعتمد في إيقاف سيل المرابطين الذين تمكنوا من الاستيلاء على كل من جيان وقرطبة ورندة، وبذلك لم يبق للمعتمد سوى إشبيلية وقرمونة، إلا إن الأخيرة خالفت توقعاته في الصمود، وسقطت في ربيع الأول سنة ٤٨٤هـ / مايو ١٠٩١ م<sup>(٦)</sup> على الرغم من حصانتها.

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٣٥..

(٢) عنان، دولة الإسلام، ج٣، ص١٤٦.

(٣) منكرات الأمير عبد الله، ص١٧١؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٣٦؛ عنان، دولة الإسلام، ج٣، ص٣٤٢.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص٢٥٠.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١١٧؛ ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٨٠.

(٦) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٨٠؛ يوسف أشباح، تاريخ الأندلس، ج١، ص١٠٠-١٠١؛ إبراهيم حركات، حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، ص١٦٥.

وبذلك لم يبق في حوزته سوى إشبيلية، التي أخذ بالاستعانة بالنصارى للحفاظ عليها، وبالفعل وصلت تلك الإمدادات المسيحية تحت قيادة الكونت جومز في نحو أربعين ألف رجل وعشرين ألف فارس؛ حيث التقت جموع النصارى المتحالفة مع المعتمد بن عباد بجموع المرابطين على مقربة من قرطبة، وقد تمكن المرابطون بقيادة إبراهيم بن إسحاق من إنزال هزيمة فادحة بهم، اضطروا بعدها إلى الفرار تاركين إشبيلية وصاحبها يواجهان مصيرهما، وانتهى الأمر بتسليم المعتمد بن عباد المدينة إلى المرابطين بعد أن أخذوا على أنفسهم عهداً بتأمينه<sup>(١)</sup>، هو وأهله وشعبه مع الحفاظ على أموالهم، وجاء سقوط إشبيلية في رجب سنة ٤٨٤هـ/ سبتمبر ١٠٩١م<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من العهد الذي أخذه المرابطون على أنفسهم للمعتمد، فإنهم ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى نسائه وأبنائه ورحلّوهم إلى طنجة نزولاً على أوامر يوسف بن تاشفين.

وقد دخل المعتمد بن عباد طنجة، في شعبان عام ٤٨٤هـ/ أكتوبر ١٠٩١م<sup>(٣)</sup>، وبقي بها بضعة أيام<sup>(٤)</sup>. ثم صدرت الأوامر بنقل المعتمد بن عباد من طنجة إلى مكناسة<sup>(٥)</sup>، فأقام فأقام بها أشهراً قبل أن يصدر الأمر بالمسير إلى أغمات وريكة<sup>(٦)</sup>؛ منفي لهم تم تحديد إقامتهم إقامتهم فيه؛ حيث عانى من اكتئاب نفسي شديد لما أصابه؛ إذ زج به وبآله إلى قلعة أغمات المنيعه، حيث قضى بضعة أعوام في أغلال الأسر بهذا المنفي. ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلاً عادياً، بل كان سجنًا شنيعاً ضيقاً فيه على المعتمد وأهله، ولم يكن يطلق لهم

(١) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٨٠؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ج١، ص١٠١-١٠٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٨٠.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١١٧.

(٤) المرلكشي (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لنن فتح الأندلس إلى آخر عصر

عصر الموحدين، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٠٥.

(٥) عبد الواحد المرلكشي، المصدر السابق، ص٢٠٧.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص١١٨.

ما يكفيهم من النققة<sup>(١)</sup>. ويبدو أن المدينة كانت منفي لكل المعارضين، فلقد التقى فيها طائفة من أهل فاس كان يوسف بن تاشفين قد سجنهم هم أيضاً بأغمات، وفي ذلك يقول ابن خاقان: " وتلقبوا بالإمارة، وأركبوا السوء نفوسهم الإمارة، حتى كادت تقفر أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين أمرهم، وأطفأ جمرهم"، فكان المعتمد يلتقى بهم ويستأنس بوجودهم حتى شفع فيهم، فانطلقوا من وثاقهم، وبقي المعتمد يشتكى من ضيق الكبل، وحينما دخلوا عليه مودعين قال:

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة  
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى  
تخلصتم من سجن أغمات، والتوت  
على قيود لم يحن فكها بعد<sup>(٢)</sup>  
لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد  
بما منه قد عافاكم الصمد الفرد

وقد عاش المعتمد بن عباد في أغمات في ضيق حتى أن بناته اضطروا للعمل بالغزل بالأجرة حتى يتمكنوا من توفير متطلبات الحياة، ولقد أثار دخولهن عليه السجن في العيد وهم في ملابس رثة وحالة سيئة حزناً شديداً يقول:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً  
تري بناتك في الأظمار جائعة  
فساءك العيد في أغمات مأسوراً  
يغزلن للناس، لا يملكن قطميراً<sup>(٣)</sup>

ولقد أصبحت أغمات مقصداً لمن يريد أن يتردد على المعتمد بن عباد وزيارته، وممن زار المعتمد بن عباد في منفاه الشاعر ابن حمديس<sup>(٤)</sup>؛ فلقد كان ابن حمديس ممن مدحوا ابن

(١) عنان، دولة الإسلام، ج٣، ص٣٥٧.

(٢) ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان و محاسن الأعيان، حققه و علق عليه حسين يوسف خربوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩، ص١٠١؛ ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق حامد عبد المجيد- أحمد أحمد بدوي، دار الكتب المصرية، ص٩٤-٩٥.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص٩٥؛ ديوان المعتمد بن عباد، ص١٠٠.

(٤) ابن حمديس: أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر المعروف بحمديس الصقلي، شاعر عربي ولد بسرقوسة بصقلية عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، أثناء حكم المسلمين لها و تعلم فيها و شارك في بعض معارك المسلمين في إيطاليا في شبابه. و بعد سقوط إمارة صقلية سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م، رحل ابن حمديس إلى الأندلس

ابن عباد وكان من شعراء بلاطه فتزدد على المعتمد في محبسه بأغمت وفاء له. كما زاره أيضًا الأديب أبوبكر محمد بن عيسى بن اللبانة<sup>(١)</sup>، وكان من شعرائه، اشتهر بوفائه لذكرى المعتمد بن عباد وإمارته بعد خلعه ونفيه إلى أغمت، ولقد ساءه ما رآه مما وصل به الحال، وهو مكبل بهذا الشكل المهين، " فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عايتها التواء الأسود السود، وهولا يطيق أعمال قدم، ولا يريق دمعا إلا ممترجا بدم"، الأمر الذي حفزه على تدوين ذلك في أبيات شعرية<sup>(٢)</sup>. ولقد كان ابن اللبانة يتزدد على المعتمد في منفاه، فلما اقترب في إحدى المرات وقت سفره وتركه أرسل مع أحد أبنائه صلة له " مفتاح فيها من خطة زهر الرياحين بعشرين متقالا مرابطة، وثوبين غير مخيطين"<sup>(٣)</sup> غير أنه رد هذه الصلة مبررا ذلك بالظروف التي يمر بها المعتمد بن عباد رادا عليه ببعض الأبيات الشعرية<sup>(٤)</sup>

سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٨م، فدخل في بلاط المعتمد بن عباد، و بعد أن استولى المرابطون على إشبيلية، انتقل ابن حمديس إلى إفريقية سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، و اتجه إلى بلاط بني زيري في إفريقية يمتدحهم لينكسب، فمدح أبو طاهر يحيى ابن تميم الصنهاجي، ثم ابنه عليا فابنه الحسن سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، و لما اضطرت أحوال بني زيري انتقل إلى بني حماد في بجاية. توفي ابن حمديس في رمضان ٥٢٧هـ / ١١٣٣م، في جزيرة ميورقة و قد بلغ من العمر ثمانين عاما و قد كف بصره. و قيل بل مات ببجاية. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان و أبناء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، ج٣، ص ٢١٤. خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٨٦، ج٣، ص ٢٧٤.

(١) ابن اللبانة: هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، ولد في مدينة دانية و إليها ينتسب. و قد كنى بابن اللبانة؛ لأن والدته كانت تعمل ببيع اللبن. شاعر معاصر للمعتمد، وكان من أقرب أصحابه إليه. توفي سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م. ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٥٨.

(٢) عن هذه الأبيات الشعرية و لمزيد من التفاصيل انظر ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٠٣.

(٣) المقرئ (أحمد بن محمد المقرئ التمساني)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٤، ص ٩٦.

(٤) ديوان المعتمد، ص ١٠٣.

واستطال أسر المعتمد بها، وفي أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالأغلال بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار بإشبيلية؛ وهي الثورة التي اتخذت ذريعة للتكيل بأبيه، وظل على هذا الحال حتى مات بها<sup>(١)</sup> في ١١ شوال ٤٨٨ / أواخر أكتوبر ١٠٩٥م<sup>(٢)</sup>، بعد مرض شديد أصابه. ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه وجلال شأنه<sup>(٣)</sup>. ولقد صاحبه في تلك الرحلة والإقامة بالمنفي زوجته اعتماد الرميكية أم الربيع، وظلت بها حتى وفاتها قبل المعتمد حسرة على ما فات ودفنت بأغمات. وفي ذلك يقول ابن الأبار قائلاً: "لم ترقأ بها عبرة ولا فارقتها حسرة حتى قضت أسفاً وهلكت حزناً رحمها الله"<sup>(٤)</sup>، وهذا شئىً بديهي لما لاقوه من زوال الملك وحال يوحش سماعها فضلاً عن مشاهدتها<sup>(٥)</sup>.

ولقد أصبحت المدينة مزاراً لعدد من الشعراء ومشاهير رجال الدول من المؤرخين لزيارة قبر المعتمد بن عباد، فلقد زار هذا القبر ابن اللبانة ورثى المعتمد في قصيدة مشهورة<sup>(٦)</sup>، وفي ذلك يقول:

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٦٤؛ المقري، نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٤٧. لمزيد من التفاصيل عن حياة المعتمد بن عباد انظر سحر السيد عبد العزيز سالم، بحوث مشرقية و مغربية في التاريخ و الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص ١٧٦-١٨٨.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٥٥؛ السلاوى، الاستقصا، ج ٢، ص ٥٤. انظر ابن الأبار الذى جعل تاريخ خلع المعتمد يوم الأحد لإحدى و عشرين ليلة خلت من رجب سنة أربع و ثمانين. كما جعل تاريخ وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمان و ثمانين. ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٥٥. عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢٠٧.

(٣) ابن بسام (أبو الحسن على بن بسام الشنترنينى)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩، ج ١، ص ٣٠٦.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٦٣.

(٥) ابن الأبار، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥.

(٦) ابن الأبار، نفسه، ج ٢، ص ٦٦.

انفض يدك من الدنيا وساكنها  
وقل لعالمها الأرض قد كتمت  
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا  
سريرة العالم العلوى، أغمات<sup>(١)</sup>

وقد زار قبره بعد وفاته بأيام الشاعر أبوبكر بحر بن عبد الصمد، وأخذ في إنشاد الشعر، ويذكر صاحب قلائد العقيان ذلك قائلاً: " فلما كان يوم العيد، وانتشر الناس ضحى، وظهر كل متوار وضحى، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم، واختيالهم بزيتهم وحلاهم، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه وخر على ترابه"<sup>(٢)</sup>. كما زاره عبد الواحد المراكشي (ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م)، ووصفه بأنه قبر متواضع داخل حجرة مهدمة في فضاء لا يعمره غير بعض الرعاة. كما زاره أيضاً ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) ورثاه<sup>(٣)</sup> بالإضافة إلى زيارة المقرئ (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) صاحب كتاب نفح الطيب للقبر عام ١٠١٠<sup>(٤)</sup>

#### أغمات في أواخر دولة المرابطين:

كما كان لمدينة أغمات دور عندما اتخذ منها المرابطون حاضرة لهم بالمغرب في بداية الدولة، فكان لها بعد ذلك أيضاً دور لدى الحركات المضادة للمرابطين والتي سوف تضع نهاية لهم. وقد ابتدأ ظهور المهدي بن تومرت بدولة المرابطين عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م بمراكش في عهد الأمير المرابطى على بن يوسف، وأخذ المهدي على عاتقه تغيير المنكر وأخذ يدعو الناس إلى ذلك، وعلى الرغم من محاولة المهدي الاتصال بالأمير على بن يوسف، فإن من

(١) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٢٥؛ إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١١٣.

(٢) انظر الأبيات الشعرية. ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ١٠٧.

(٣) فلقد زار ابن الخطيب مدينة أغمات في عام ٧٦١هـ / ١٣٥٩م في طريقه إلى مراكش، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٦٦.

رأيت نك من أولى المهمات  
ويا سراج الليالى المدلهمات

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات  
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً

المقرئ، نفح الطيب، ج ٤، ص ٩٨.

(٤) المقرئ، المصدر السابق، ج ٤، ص ٩٩.

كانوا حول الأمير حذروه من استمرار وجود المهدي بمراكش، بل نصحوه بضرورة التخلص منه بالزج به في السجن، إلا إن الوزير ينتيان بن عمر رفض هذا المقترح، واعتبره مما يقلل من هبة الدولة " فقال له: "يا أمير المسلمين، هذا وهن في حق الملك، أن تلتفت إلى هذا الرجل الضعيف" وهكذا طرد ابن تومرت من مراكش<sup>(١)</sup>.

وهكذا، خرج المهدي وتلاميذه من مراكش بعدما تأكد أنه لا مقام له بمراكش مع وجود شخص مثل مالك بن وهيب؛ ولذلك قرر التوجه إلى مدينة أغمات إيلان، قائلاً لهم: " إن لنا بمدينة أغمات أحاً في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً؛ حيث نزلوا بالمدينة ضيوفاً على عثمان المعلم لمدة ثلاثة أيام<sup>(٢)</sup> ليخرج بعدها إلى أغمات وريكة، حيث نزل في ضاحية أيغيل، وأقرأ الطلبة بجامع وطاس بن يحيى بموضع من ناحية الغرب مما يلي الصحن يدرس فيه العلم للناس ويعظهم حتى ضاق به معلم البلدة عبد الحق بن إبراهيم<sup>(٣)</sup>، وهوما ترتب عليه خصومة بين الطرفين أدت إلى انقسام الناس بين فرقتين متنافستين تدعى كل منهما أنها على حق<sup>(٤)</sup>، فما كان من صاحب المدينة إلا أن قام بإخراجه من المدينة مما اضطره إلى الاتجاه إلى السوس الأقصى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ونزل بتمميل، حيث اتبعه بعض من الناس والبربر<sup>(٥)</sup>، تاركاً من ورائه مجموعة من المخلصين له داخل أغمات وعلى رأسهم إسماعيل بن ايجيج أحد طلبته المخلصين<sup>(٦)</sup>.

ومن مدينة أغمات جاء إعلان الحركة الموحدية بشكل رسمي حركة ثورية مضادة للدولة المرابطية. ولقد جهز على بن يوسف جيشاً بقيادة أخيه أبو الطاهر تميم للقضاء على قوة

(١) السلاوي، الاستقصا، ج٢، ص٨٥؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، ص٢٥١.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج٥، ص١٨٥.

(٣) حمدي عبد المنعم، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٩٨.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج٥، ص١٨٥.

(٥) مجهول، الحل الموشية، ص١٠١؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج١، ص٢٥٢.

(٦) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج٥، ص١٨٦.



الموحدين المتمركزة بالجبل، وعلى الرغم من خروجه بعسكر كبير، فإن الموحدون نجحوا نظراً لصعوبة الممرات والمضايق الجبلية في التكمين لجيش المرابطين بعدما سدوا عليه ممرات الجبال، مما جعلهم يدبرون مهزومين من دون قتال، وقد جد الموحدون في اتباع فلول المرابطين إلى مقربة من جبل وريكة بقبلى أغمات. وفي محاولة من المرابطين لتدبير الأمر خرج جيش من المرابطين بقيادة بطى اللمتونى، غير أن هذا الجيش هزم هو الآخر وقتل على إثرها بطى اللمتونى في عدد كبير من أهل أغمات<sup>(١)</sup>.

وحيثما انتشرت دعوة المهدي طلب من أتباعه القدوم إلى تينملل وكان عددهم نحو أربعين ألف وهم في أهبة الاستعداد، فجعل القيادة في يد الشيخ أبو محمد البشير وعقد لهم راية بيضاء؛ فخرجوا قاصدين مدينة أغمات<sup>(٢)</sup> فوصل خبرهم إلى أمير المسلمين على بن يوسف فخرج إليهم في نحو مائة ألف من الحشم والأجناد بقيادة الأحول كلثوم، ولكن على الرغم من كثرة عددهم فقد نجح الموحدون في هزيمتهم وقتل الأحول، بل واتبعهم بالسيف حتى أدخلوهم مراكش، وضرب الحصار عليها لمدة أربعين يوماً في شعبان ٥١٦هـ / ١٠ أكتوبر ١١٢٢م<sup>(٣)</sup>. غير أن الأمور انقلبت رأساً على عقب عندما تمكن المرابطون بقيادة الشيخ أبو محمد بن وانودين من هزيمة الموحدين، وقتل عدداً كبيراً منهم على رأسهم الشيخ أبو محمد البشير نفسه. ولقد اضطرت فلول الموحدين في الفرار من أمام الحاضرة مراكش إلى أغمات؛ حيث أظهر عبد المؤمن بن على في هذا اليوم شجاعة في الدفاع عن فلول الموحدين الذين لم ينج منهم إلا اليسير<sup>(٤)</sup>.

(١) مجهول، الحل الموشية، ص ١١٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٧؛ حمدي عبد المنعم، تاريخ المغرب في عصر المرابطين، ص ١٠١.

(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٧؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٢٥٥.

(٤) مجهول، الحل الموشية، ص ١١٦.

ومهما يكن من أمر، فقد استمر المهدي يحارب قبائل السوس وجيوش المرابطين في منطقة إيجليز في الفترة الزمنية من سنة ٥١٥هـ / ١٢١م إلى سنة ٥١٨هـ / ١٢٤م<sup>(١)</sup>، ثم انتقل من منطقة إيجليز التي استقر بها نحو ثلاث سنوات إلى تينملل<sup>(٢)</sup>، حيث قسم أراضيها وديارها على أصحابه، وكان اختيار المهدي لهذه البلدة لما ارتآه فيها من منعتها وحصانة موقعها<sup>(٣)</sup>، ولقد حاول المرابطون إسقاط تينملل، لكنهم فشلوا في ذلك نظرًا لمعاقلها الجبلية الوعرة التي استغلها المهدي أفضل استغلال<sup>(٤)</sup>.

وفي عام ٥٢٠هـ / ١٢٦م بدأ المهدي يهاجم المرابطين بشكل موسع، واستمر الأمر على هذا النحو حتى وفاة المهدي بن تومرت في ١٤ رمضان سنة ٥٢٤هـ / ١٣٠م<sup>(٥)</sup>،

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٨؛ ابن القطان المراكشي (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٠، ص ٧٨؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٧٠.

(٢) تينملل: ذات السطوح المزروعة قلعة منيعة، و تقع فوق ريوه عالية في سفح جبل درن من شعب جبال الأطلس على بعد حوالي مائة كيلو متر جنوب غربي مراكش، و بها حتى الآن قبر المهدي بن تومرت. ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٣٩؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ج ٢٤، ص ٢٨٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ٢٧٦؛ عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب- المغرب في عصر الوحدة و السطوة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٤، ج ٢، ص ١٤٦؛

Jamil Abun Nasr, A History of the Maghrib, p.106; Henri Terrasse , Histoire du Maroc, p. 83; L. Leves Que- CH- Penz, Histoire du maroc,p.38.

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٤٠؛ مجهول، الحل، ص ١١٢.

(٤) مجهول، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٢٨٨؛ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تحقيق و تعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ، ص ٧، ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٨٧، ص ٢٥٠.

وهوالعام نفسه الذي هُزم فيه الموحدون هزيمة فادحة في موقعة البحيرة<sup>(١)</sup>، إلا أنه توفي تاركًا لهم من توسم فيه الكفاءة بحيث تقوم على أكتافه دولته<sup>(٢)</sup>.

وقد ظلت أغمات محوراً للصراع بين المرابطين والموحدين حتى سقوط دولة المرابطين سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م .

## بعض مظاهر الحضارة في أغمات

### أ- الحياة الاقتصادية

تشكل الحياة الاقتصادية عصب النشاط البشري للسكان في أي مجتمع خلال العصور التاريخية المختلفة. إذ لا بد من توافر الأرض التي يستقر فيها السكان، ويمارسون نشاطهم اليومي الذي يوفر لهم أسباب العيش واستمرار الحياة. وللأسف فإن المصادر الجغرافية الإسلامية لم تُعنَ كثيرًا بوصف تفاصيل الحياة الاقتصادية في أغمات، ولم تزودنا إلا بمعلومات مقتضبة وموجزة لبعض أوجه النشاط الاقتصادي، ومع هذا فإن ذلك لا يقل من أهمية النصوص الموجودة في إعطاء صورة عن ذلك النشاط الذي مارسه سكان أغمات خلال الفترة موضوع البحث.

أما ابن أبي زرع، فقد جعل تاريخ الوفاة في ٢٥ رمضان. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٩. ولقد نكتم أصحابه خبر وفاته عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م، أي بعد نحو ثلاث سنوات؛ حتى يستقروا على اختيار من يخلفه في تسيير أمور الدولة، أو ربما رأى عبد المؤمن أن يخفي هذا النبأ عن الجنود في ميادين القتال و قوادهم حتى لا يربك هذه القوات في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الموحدين.

مجهول، الحل، ص ١١٧؛ أحمد عامر، الأمازيغ، ص ٥٢٦

(١) تعرف أيضًا ببهيرة الرقائوق، وهي بسيط كان أمام باب الدباغين و باب إيلان من مراكش حيث حدثت أحداث الحالبية، و جرت بها موقعة البحيرة في يوم السبت الثاني من جمادى الأولى عام ٥٢٤هـ/ الثاني من إبريل ١١٣٠م. البيهقي(أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط، ١٩٧١، ص ٤٠؛ السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ٨٧.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٥٦؛ ابن سماك، الحل، ص ١١٦؛ ألفرد بل، الفرق الإسلامية، ص ٢٦٢؛ سعد زغلول، المهدي بن تومرت، ص ٢٩؛

Jamil Abun Nasr, A History of the Maghrib, p.106; Henri Terrasse , Histoire du Maroc, p. 83.

وقد وردت لدى الجغرافيين المسلمين عند حديثهم عن أغمات إشارات نستنتج منها مدى الازدهار الاقتصادي الذي كانت تعيشه أغمات في تلك الفترة.

#### • موارد المياه:

ساعدت مصادر المياه في أغمات على وجود مهنة الزراعة؛ فالمياه تخترق المدينة يميناً وشمالاً. ومن أهم مصادر المياه نهر ليس بالكبير<sup>(١)</sup> يشق المدينة ويأتيها من جنوبها فيمر إلى أن يخرج من شمالها، وهذا النهر يدخل المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت والأحد، وباقى أيام الجمعة يأخذونه لسقى جناتهم وأرضهم ويقطعونه عن البلد فلا يجرى منه إليه شيء<sup>(٢)</sup>. أما عن مصدر مياه هذا النهر فهونلك الثلوج النازلة على جبل درن في فصل الشتاء، فيسيل نوبانها إلى نهر أغمات، وربما جمد في داخل المدينة حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جامد فلا يتكسر لشدة جموده<sup>(٣)</sup>، وهو ما رآه الإدريسي بنفسه أكثر من مرة بأغمات وريكة<sup>(٤)</sup>. وقد لجأ المرابطون بعد بناء مدينة مراكش إلى الاستعانة بمياه أغمات التي جلبوها إلى المدينة بواسطة السواقي<sup>(٥)</sup>.

#### • الحاصلات الزراعية:

ومن خلال كتابات الجغرافيين عن أغمات نجد أن الزراعة ازدهرت في المدينة؛ فلقد وجدت أصناف مختلفة من الحاصلات الزراعية التي تزرع بأغمات. يذكر ابن حوقل أنه ليس هناك بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيراً منها قد جمعت فنون المأكل

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢٣١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٣٥.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣١.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٣٥.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٢-٢٣١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٣٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦.

(٥) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ص ٢٢٢.

كلها ذات الصرود والجروم<sup>(١)</sup>، فيها الأترج<sup>(٢)</sup> والجوز واللوز والنخل وقصب السكر والسمسم والقنب<sup>(٣)</sup> وسائر البقول<sup>(٤)</sup>.

كما إن البكري عند حديثه عن أغمات أشار إلى أن "حولها بساتين ونخل كثير"<sup>(٥)</sup>. وزراعة النخل من أهم الموارد الاقتصادية للمدينة خاصة أن التمر واللبن يعتبران وجبة كاملة لسكان الصحراء، ومن المعروف أن النخيل لا يزرع إلا في ظل ظروف مناخية قوامها النفاء. وأشار الإدريسي إلى أن المدينة تقع في "قاص طيب التراب وكثير النبات والأعشاب وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة"<sup>(٦)</sup>، ونستدل من هذه الإشارات على مدى انتشار انتشار الزراعة وبخاصة الفواكه.

كما كانت تزرع في أغمات الحنطة، هذه الحبوب التي تمثل جانباً حيوياً رئيساً في غذاء الإنسان على مر العصور، فقد نكر الإدريسي هذا بقوله "عليه أرجاؤهم التي يطحنون بها الحنطة"<sup>(٧)</sup>.

#### • التجارة:

تعد مدينة أغمات أحد أهم مراكز التجارة بالمغرب الأقصى<sup>(٨)</sup>، فقد لعب سكان المدينة دور الوسيط التجاري في نقل وتبادل السلع بين بلاد المغرب والصحراء؛ إذ كانت دار التجهيز للصحراء<sup>(٩)</sup>.

(١) الصرود: أي الأراضي المرتفعة الباردة و يقابلها الجروم الأرضي الشديدة الحر.

(٢) الأترج: نوع من النباتات الحمضية ، رائحته طيبة و طعمه طيب يميل للحموضة. و هو ينمو بكثرة في المناطق الحارة قرب المياه و هو أقل الحمضيات تحملاً للبرودة. إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، هامش ص ١١١.

(٣) القنب: نوع من النباتات المخدرة.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٠؛ إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص ١٠٩.

(٥) البكري، المغرب في نكر إفريقية، ص ١٥٣.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣١.

(٧) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٨) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٢٢٠.

(٩) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦.

تقع مدينة أغمات على طرق القوافل لمن أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة؛ فالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس، ومن فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى أغمات (إيلان) إلى بني درعة إلى سجلماسة<sup>(١)</sup>. وترتبط أغمات بطرق تجارية مع سجلماسة تستغرق الرحلة فيها عشرة أيام، كما إنها ترتبط بطريق أخرى تربط أغمات بمدينة فاس يستغرق المسير فيها ثمانى عشرة مرحلة<sup>(٢)</sup>. وأدت الصلات التجارية في الفترة الإسلامية بين أغمات وبلاد السودان إلى ثراء أهلها ثراء جمًّا. وقد ظهر هذا الثراء واضحًا في حياتهم التي تميزت بالترف، ويشير صاحب نزهة المشتاق إلى ذلك قائلاً: "لم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منهم حالاً"<sup>(٣)</sup>. "فلقد كان أهلها من التجار ميسوري الحال يذهبون في قوافل على الجمال الحاملة لقناطر الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفارية والعطر وآلات الحديد المصنوع"<sup>(٤)</sup>. ومما يدل على كثرة أموال أهل أغمات وعظم تجارتهم أن الرجل عندما كان يرسل عبيده أوجاله في قافلة، كان عدد الجمال في القوافل يبلغ مائة ولا يقل عن سبعين جملاً موقرة<sup>(٥)</sup>.

ولقد عجت أسواق أغمات بضروب وصنوف من السلع وأنواع المتاجر ومما يدل على الإقبال الواسع على هذا السوق إنه كان يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاه<sup>(٦)</sup> ولقد

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٤٩.

(٢) فاطمة بلهوارى، التبادل التجارى بين مدن بلاد المغرب خلال القرن ٤هـ / ١٠م، مجلة إنسانيات، الجزائر، العدد ٤٢، ٢٠٠٨، ص ٣٥.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٤٨؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ١٣٥.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣١؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٦؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٢١٩.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٢.

(٦) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٧١٤؛ فاطمة بلهوارى، التبادل التجارى، ص ٣٨.

اتصلت مدينة أغمات بساحل البحر المحيط عبر طرق فرعية تجارية ارتبطت بمناطق السوس الأقصى وخاصة بمنطقة ماسة على ساحل البحر<sup>(١)</sup>.

وليس أدل على أهمية المدينة الاقتصادية من أنها كانت واحدة من المدن التي كان بها دور لضرب السكة الخاصة بأمير المسلمين، وذلك في الوقت الذي كانت فيه القيمة النقدية للسكة المرابطية مرتفعة؛ نظراً لرواج التجارة بين المغرب وبلاد البحر الأبيض المتوسط<sup>(٢)</sup>.

ولقد وضع أهل أغمات على أبواب منازلهم علامات تدل على مقاديرهم<sup>(٣)</sup>، وفي ذلك يقول الإدريسي: "إن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرضتين من الأرض إلى أعلى السقف وبنياتهم بالآجر وبالطوب والطين أكثر، فإذا مر الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرض على الأبواب القائمة عدّها فيعلم من عدّها كم مبلغ مال صاحب الدار<sup>(٤)</sup>". ويذكر كل من الإدريسي والحميري هذه العادة الأغماتية على الرغم من تأكيدهما بأن أحوال أهل المدينة تغيرت، وأن ذلك كان في فترة زمنية تسبقهما بقولهما: "وتغيرت بعد ذلك أحوالهم لإتيان المصامدة على أكثر أموالهم"<sup>(٥)</sup>.

#### ب- سكان أغمات:

الحديث عن سكان أغمات في الفترة موضوع البحث صعب المنال بسبب أن الجغرافيين المسلمين لم يتناولوا سكان أغمات من حيث العدد، فنحن نفتقر بدرجة كبيرة إلى تحديد عدد السكان في تلك الفترة لقلة المعلومات المتعلقة بذلك.

(١) اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)، البلدان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ص ١٩٩.

(٢) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٢.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢٣٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦.

ويقسم الإدريسي سكان أغمات إلى قبيلتين من البربر تسكنان بغربي أغمات (إيلان) وشرقيها مصاميد وريكة<sup>(١)</sup> بينما ينسب سكان أغمات (وريكة) إلى قبيلة هواره من قبائل البربر المتبررين بالمجاورة الذين وصفهم بأنهم أغنياء لهم نخوة واعتزاز لا يتحولون عنه. ولقد اتخذ الأعيان من أغمات وريكة مستقرًا لهم.

وأهلها فرقتان يقال لإحدهما الموسوية من أصحاب علي بن ورسند والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقة، أما الفرقة الأخرى فهي مالكية<sup>(٢)</sup> وبينهما قتال دائم، وكل فرقة تصلى في الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى<sup>(٣)</sup>.

ويذكر الإدريسي استيطان يهود البلاد بأغمات إيلان واتخاذهم منها مستقرًا لهم في عهد الدولة المرابطية قائلاً: "يسكن يهود تلك البلاد" وهو ما لم يسبقه في ذلك أحد آخر، وليس هناك تفسير لذلك سوى أن اليهود لم يستقروا في هذه المدينة بهذا الشكل إلا في عصور متأخرة بناء على القرار الذي اتخذه علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠-٥٣٧هـ / ١١٠٦-١١٤٣م) بمنع اليهود من الإقامة في مدينة مراكش<sup>(٤)</sup>، ولا تدخلها إلا نهارًا لتصرف أمور له، وخدمات تختص به، وتتصرف عنها ليلاً؛ لأنه متى عثر على واحد منهم بات ليلته فيها استباح ماله ودمه؛ ولذلك عزف اليهود عن المبيت بها؛ خوفاً على أموالهم وحياتهم<sup>(٥)</sup>. ونظراً لحرص اليهود على العمل بالتجارة والوجود في المناطق ذات الشأن الاقتصادي، لذلك لم يجد اليهود مفرًا من الاستقرار بمدينة أغمات إيلان لقرىها من مراكش<sup>(٦)</sup>. حتى إننا نجد أن بساتين أغمات في عهد المرابطين يختص بها اليهود وحدهم تقريباً<sup>(٧)</sup>.

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٦.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٠؛ إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص ١٠٩.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٢٤..

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٥.

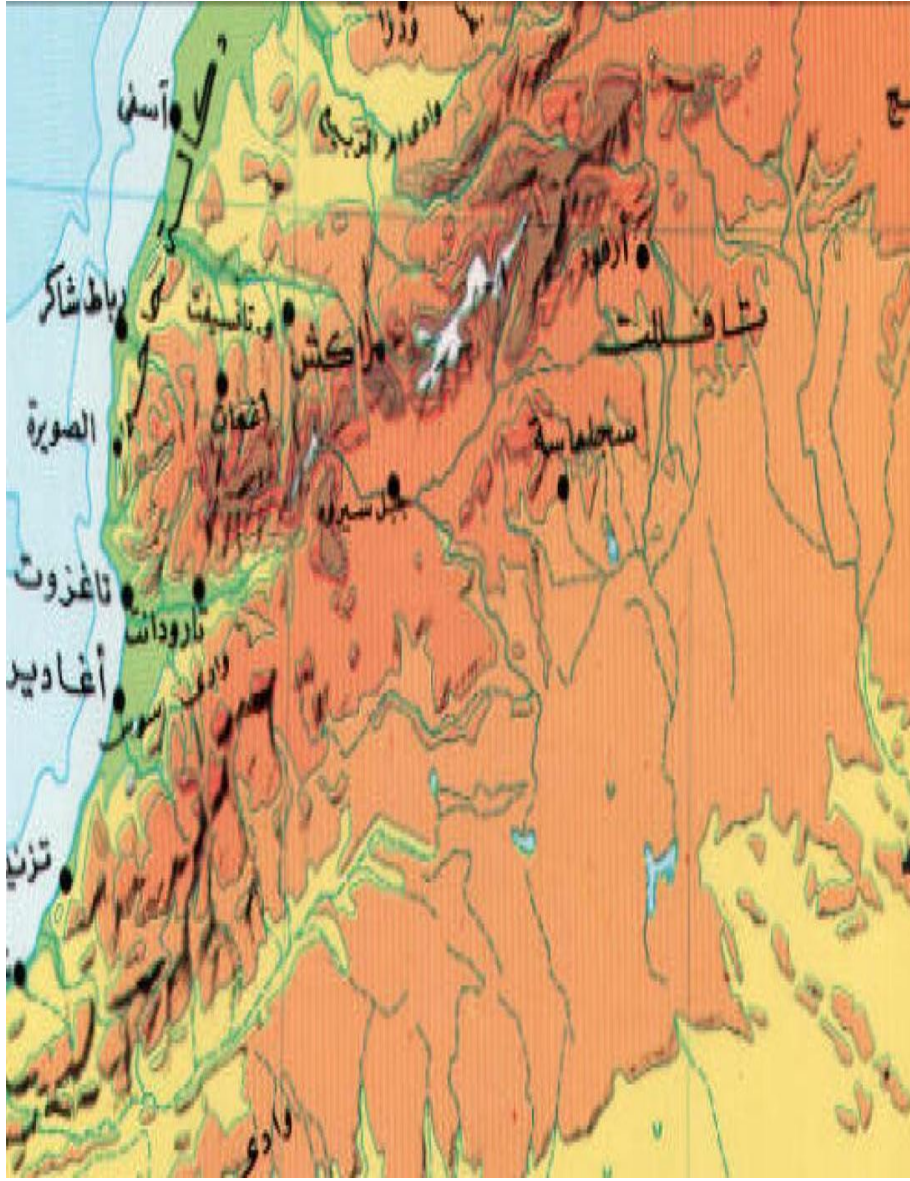
(٦) عبد الرحمن البشير، اليهود في المغرب العربي (٢٢-٤٦٢هـ / ٦٤٢-١٠٧٠م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٥١.

(٧) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ١، ص ٢١٦.



### الخاتمة

- لم يرد في المصادر سواء التاريخية أو الجغرافية أصل تسمية المدينة أو السبب في تسميتها بهذا الاسم.
- تؤكد القول بأن فتح مدينة أغمات من الأمور غير واضحة تمامًا، والتي لا تزال يكتنفها الغموض الذي لحق بالعديد من مدن المغرب الأقصى. وربما يرجع السبب في هذا الغموض أولاً: إلى طول فترة الفتوحات التي استغرقها الفاتحون في تثبيت أركان دولتهم بالمغرب. وثانياً: بُعد هذه المناطق عن بؤرة اهتمام المؤرخين نظراً لبعدها عن مركز الخلافة في المشرق. ولذلك لا نجد شيئاً ذا قيمة قد ذكر عن فتح هذه المدينة في العديد من المصادر.
- مما لا شك فيه أنه مما كان سبباً في قلة الكتابة عن المدينة هو خروج المغرب الأقصى عن سيطرة الخلافة في المشرق منذ ثورة ميسرة المطغرى. وعلى الرغم من أنه لم تعد السيطرة العربية على هذه المناطق إلا في عهد الدولة الإدريسية، وعلى الرغم من أن المؤرخين يصفون أغمات بأنها قاعدة إدريسية مزدهرة، فإنهم لم يمدونا بمعلومات كافية عن المدينة، وربما يرجع السبب في ذلك أيضاً إلى أن هذه الدولة كانت من الدول الخارجة عن السلطة المركزية.
- لم يهتم المؤرخون بالتأريخ للمدينة في الفترة التي تلت الفتح ودخولها تحت سيطرة العرب المسلمين، ربما لعدم وجود أحداث تاريخية مهمة تخص المدينة تدخلها في دائرة اهتمامهم. وعلى العكس من ذلك حازت المدينة اهتمام الجغرافيين؛ نظراً لمواردها المائية وكثرة محاصيلها الزراعية، فضلاً عن موقعها المهم على طريق القوافل والتجهز للصحراء.
- برز الاهتمام بتاريخ المدينة منذ عصر المرابطين؛ وذلك نظراً للمكانة التي احتلتها المدينة واتخاذ المرابطين منها حاضرة لهم قبل انتقالهم لعاصمتهم مراكش.
- نفي المعتمد بن عباد وقضاؤه بها آخر أيامه ثم دفنه بها بجوار زوجته اعتماد الرميكية كان من أحد أهم أسباب شهرة المدينة.
- اشتهرت أغمات بمنتجاتها الزراعية والحيوانية فضلاً عن نشاط سكانها في التجارة .



حسين يونس - أطلس العالم الإسلامي ص ١٥٦ .

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) ت ٦٥٨هـ/٢٦٠م: الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، جزآن.
- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس) ت ٥٤٨هـ/١٥٣م: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
- ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريزي) ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م: النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.
- البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز القرطبي) ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م: المغرب في نكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ.
- البلاذري (الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م: فتوح البلدان، تحقيق وشرح عبد الله أنيس الطباع - عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.
- البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط، ١٩٧١.
- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، هيدلبرغ، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م: صورة الأرض، الطبعة الثانية، دار صادر، لبنان، ١٩٣٨م.
- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه حسين يوسف خربوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م:
- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤.



- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ / ٤٠٥م: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى الشأن الأكبر، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٠م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م: وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
- الدمشقي (عبد الحي بن أحمد العكري) ت ١٠٨٩هـ / ٦٧٨م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز)، العبر في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٤٨.
- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) منتصف القرن الثامن الهجري: الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م.
- السلوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر - محمد الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.
- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ.
- ابن سماء العاملي: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، نشر وتحقيق محمود علي مكي، مدريد، ١٩٧٩م.
- عبد الله بن بكين بن باديس بن حبوس: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، حرره على عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- ابن عذارى المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حياً ٧١٢هـ / ٣١٢م: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان. إ. ليفي برفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت. لبنان، ١٩٨٣.
- ابن عسك (أبو عبد الله أبو بكر بن خميس)، أعلام مالقة، تعليق عبد الله المرابط الترغي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٩٩.
- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت.
- ابن القطان المراكشي (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك القطان) منتصف القرن السابع: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٩٠م.

- المراكشي (عبد الواحد بن علي) ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م.
- مجهول (ت منتصف القرن الثامن الهجري): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار - عبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.
- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني - المصري، لبنان - القاهرة، ١٩٨١م.
- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، مشروع النشر المشترك، المغرب، ١٩٨٥.
- مجهول - نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٤م.
- المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤.
- اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)، البلدان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، بدون تاريخ.

#### ثانياً: المراجع:

- أحمد عامر، الأمازيغ (البربر والسياسة والحكم) في بلدان المغرب، ٢٠٠١م.
- إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٨٧.
- حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي - عصر الولاة، الطبعة الأولى، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٧.
- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة كلية الآداب، القاهرة، ١٩٤٧م.

- حمدي عبد المنعم حسين، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين - دولة علي بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- العلاقات بين الأندلس ودويلات المغرب الإسلامي منذ قيام الدولة الأموية في الأندلس ١٣٨هـ / ٧٥٦م، حتى قيام الدولة الفاطمية في المغرب ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٨٦.
- رينهت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- سعد زغول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج٢، تاريخ دولة الأغالبة والرستميين وبنى مدرار والأدراسة حتى قيام الفاطميين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩.
- ج٥، الموحدون مصامدة السوس الجباليون ورثة المرابطين تأسيس الدولة وقيامها (٥٠٠-٥٥٨هـ / ١١٠٠-١١٦٣م) على عهدي شهاب الدين محمد بن تومرت الهرغي وسراج الموحدين عبد المؤمن بن علي الكومي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الطبعة الثانية، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكز وأغامت الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣.
- عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي (٢٢-٤٦٢هـ / ٦٤٢-١٠٧٠م)، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.
- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب - المغرب في عصر الوحدة والسطوة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٤.
- عصمت عبد اللطيف نندش، أضواء جديدة على المرابطين، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٩١م.
- محمد سليمان الطيب، الإنصاف في تاريخ الأشراف في المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.
- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس (١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)، الطبعة الثالثة، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٧.

- محمد ولد دادة، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع دراسة في التاريخ السياسي، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني - المصري، ١٩٧٧.
- مصطفى عربوش، من تاريخ منطقة إقليم تادلة وبنى ملال، الطبعة الأولى، مكتبة الطالب، الرباط، ١٩٨٥.
- يوسف أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦.
- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي - راجعه عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٩.
- المراجع الأجنبية:
  - **Abun- Nasr, Jamil M.**, A History of the Maghrib, Second Edition, Cambridge, University Press.
  - **A. Benabbès**, "Les premiers raids arabes en Numidie byzantine: questions toponymiques", in *Identités et Cultures dans l'Algérie Antique*, University of Rouen, 2005 (ISBN 2-87775-391-3)
  - **Lévi-Provençal**, "Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord", *Arabica* 1 (1954) 17-43.
  - **Levesque(L.)& Penz (CH.)**, Histoire du Maroc, Rabat, ١٩٥٢.
  - **Terrasse (Henri)**, Histoire du Maroc, Librairie Plon, Paris, ١٩٥٢.

**”الصومال” بلاد البربر في شرق أفريقيا في مصنفات الجغرافيين والرَّحالة  
المسلمين في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري  
(التاسع إلى الرابع عشر الميلادي).**

د/ محمد خليفة ركابي حمد الله\*).

**الملخص:**

تكشف هذه الدراسة عن جزء أصيل من التاريخ الإسلامي في شرق أفريقيا، وتحديدًا في منطقة القرن الأفريقي من أرض الصومال الحالية، والتي عُرِفَت عبر العصور التاريخية باسم بلاد (البربر). ورغم تعدد الأماكن التي شاركتها نفس الاسم، إلا إن هذا الاسم كثيرًا ما تكرر ذكره عند وصف المناطق الصومالية في مصنفات الجغرافيين والرَّحالة المسلمين، وذلك منذ بداية تدوينها في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). ولا يعني هذا أن اسم البربر الذي عُرِفَت به بلاد الصومال ظهر في ذلك العصر؛ فالثابت من التراث التاريخي والجغرافي والأدبي واللغوي للحضارات القديمة التي سبقت الإسلام، يؤكد أن الأراضي الصومالية اشتهرت بهذا الاسم منذ القرن الأول الميلادي، وقد شاع تداوله حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ليحل بعده اسم بلاد الزيلع أو الزيالة إلى ظهور الاسم الحالي (الصومال) في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وبالتالي، فإن تاريخ الصومال لم يكن مجهولًا في العصور الإسلامية، بل كان مهملاً، والمعلوم أن وصف البلاد ومواضعها، مظانه كتب الجغرافيا والبلدان ونحوها. وانطلاقًا من هذا اليقين، فسوف يسלט البحث الضوء على كتابات الجغرافيين وروايات الرَّحالة في العصور الإسلامية عن تلك المناطق الصومالية؛ للوقوف على المسميات التاريخية بمعلومات جغرافية توضح الصورة الحقيقية التي كانت عليها هذه البلاد.

---

(\* مدرس التاريخ الإسلامي بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية ودول حوض النيل - جامعة أسوان.



“Somalia” the country of Berbers in East Africa in the Compilations of Muslim geographers and travelers during the period from the third century to the eighth century HA” (ninth to fourteenth century AD).

**Dr: Mohamed Khalifa Rekaby Hamed Allah(\*)**.

### **Abstract:**

This study reveals an integral part of Islamic history in East Africa, specifically in the Horn of Africa region of present-day Somalia, which has been known throughout historical times as the country (the Berbers). Despite the multiplicity of places that I shared the same name, it is frequently mentioned when describing the Somali regions in the works of Muslim geographers and travelers, since the beginning of their codification at the beginning of the third century AH (ninth century AD).

This does not mean that the name of the Berbers, known by the countries of Somalia, appeared at that time. The constant of the historical, geographical, literary and linguistic heritage of the ancient civilizations that preceded Islam confirms that Somali lands were famous for it since the first century AD, Until the eighth century AH (fourteenth century AD), To be known later as the country of Zila or Zela'a Consequently, and it was circulated until the emergence of the current name (Somalia) in the ninth century AH (fifteenth century AD).

The history of Somalia was not unknown in Islamic times. Rather, it was neglected. It is known that the description of the country and its locations, In the thinking of geography books and countries and the like. On the basis of this certainty, the research will shed light on the writings of geographers and traveler novels in Islamic times about these Somali regions. And To know the names, Through a historical study with geographical information to clarify the true image of this country.

---

(\*) Dr. of Islamic history at the African Research and Studies Institute and the Nile Basin countries – Aswan University.

إن البحث والدراسة في البلدان وتاريخها من الدراسات الحساسة والشائكة؛ لكونها تبحث في مدعاة فخر الشعوب ومصدر عزها، وبما إن البلاد لاتزال قائمة تتحرك بحركة الحاضر وتحمل رائحة الماضي، ويفتخر أبنائها بتاريخها وأمجادها.... تبرز إثارة البحث وحساسيته. فقد قضت إرادة الله وحكمته بتعلق قلوب العباد بأوطانهم، وهذا الحب العميق أشار إليه القرآن في قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ)<sup>(١)</sup>، فقد اقترن حرص الناس بالأوطان إلى الحرص منهم بالأنفس. وهذا الأمر طبيعي ثابت بالفطرة لتكامل المعيشة الدنيوية، وإلا لم عمرت أكثر أجزاء المعمورة؟. فقد خالف الله بين طبائع الناس، ولولا اختلاف طبائعهم وعلهم لما اختاروا من الأسماء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أغناها، ومن الأمصار إلا أوسطها...، ولتقاتلوا على الأحسن منها وخلوا الحسن وما دونه... وقد قيل في الأمثال: "عمر الله البلدان بحب الأوطان"<sup>(٢)</sup>.

وبما أن حب الوطن فطرة لا إرادية للإنسان، فإن ذلك كثيراً ما يؤدي إلى تفضيلها عن غيرها، وركوب الصعب والذلول لعرض تميزها، ووضع الأحاديث والأخبار الأسطورية لها. لهذا علينا ألا نسلم بكل ما ورد من أخبار البلدان وفضائلها؛ فإن ظهور العصبية الدينية والسياسية والقومية أدى إلى وضع الكثير من المتعصبين أحاديثاً وأقوالاً يرفعون فيها قدر الموضوع له، وقد أخذت البلدان حظاً من هذا، تارة في فضل مقامها، وتارة أخرى في فضل من زارها أو توفي فيها ونحو ذلك، مما أدى إلى اعتقاد الفضل في أماكن لم يرد فيها فضل<sup>(٣)</sup>. والصحيح في هذا أن الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه لطاعة الله ورسوله، وفعل الحسنات والخير...، أفضل من الإقامة في موضع يكون حاله فيه دون ذلك في طاعة الله ورسوله، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم<sup>(٤)</sup>.

لذلك يجب أن نتوخى الحذر عند التعامل مع كتب البلدان والتواريخ؛ حيث توسع الكثير من المؤرخين في نقل الأحاديث الباطلة عن فضل البلدان ولا سيما بلدانهم، فقد تساهلوا في

(١) سورة النساء: آية ٦٦.

(٢) الهمداني: البلدان، تحقيق يوسف الهادي، ط١، بيروت، عالم الكتب، عام ١٩٩٦م، ص٤٨٧.

(٣) أحمد سليمان أيوب: سمو إلى العنان بذكر صحيح فضائل البلدان، تقديم محمد صفوت نور الدين، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٢م، ص١٦.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، اعتنى بها وأخرج أحديثه أحمد الجزار وأ نور الباز، ط٣، المنصورة، دار الوفاء، عام ٢٠٠٥م، ج٢٧، رقم الفتوى ٣٩، ص٢٦.

ذلك غاية التساهل دون انتباه، وقد وقع الكثيرون منهم في ذلك رغم كونهم أهل التخصص. فالحذر من النقل والاعتماد دون تحقيق، فإن الكذب في هذا قد كثر وتجاوز الحد؛ وسببه ما جُبلت عليه قلوب العباد من حب الأوطان والشغف بالمنشأ<sup>(١)</sup>. لذلك نؤكد أن من له حظ في مطالعة كتب البلدان والبحث فيها، وخاصة ما يكتبه أبناء البلاد عن مهدهم، بحاجة إلى التحقيق وقسط من العدل، فلا يرفع من قدر بلد ولا يحبط منها.

ورغم التغني بأخبار البلدان ووصف محاسنها، إلا إن بلاد شرق أفريقيا عمومًا وبلاد الصومال بشكل خاص لم تتل حظًا من هذا؛ وربما كان ذلك مرجعه اتجاه معظم الكتاب إلى الكتابة في تاريخ المشرق الإسلامي وبلادها وانغماسهم فيه، يحركهم في ذلك المصالح، أو تعبير عن نزعات عنصرية وقبيلية تبرز في كتاباتهم التاريخية، والتي تناولت موضوعات قتلت بحثًا، وكان العالم الإسلامي حُصر في منطقة آسيا فقط<sup>(٢)</sup>. ولعل كان مرجعه أيضًا عدم اكتشاف شخصيات محلية من أبناء الوطن برصد وتكوين الأحداث التي مرت بها بلادهم إلا في عصور متأخرة. مما جعل قلة الكتابة عن هذه البلاد وعدم تقديم الدعم الثقافي لها، أن غفل العالم الإسلامي عن بعض أطرافه، والتي أدت في النهاية الأمر أن يفقد بعضًا منها.

لذلك كان من دواعي اهتمامي لاختيار موضوع هذا البحث؛ هو محاولة إيجاد تقارب إسلامي عربي إفريقي في ظل عالم يتميز بأنه عالم التكتلات السياسية والاقتصادية. وما أحوجنا نحن المسلمين العرب إلى مثل هذه الموضوعات التي تساعد على الوحدة. ومن هنا تبرز أهمية إحياء التراث الإسلامي العربي الذي يوظف الماضي للانطلاق تجاه الحاضر.

ولا نستطيع القول أن تاريخ المناطق الصومالية في فترة العصور الإسلامية كان مجهولاً، ولكن نقول كان مهملاً، فالمعلوم أن المعلومات عن تطور البلدان، وطبيعة أماكنها البرية والبحرية، ووصف مدننا وقرها، مظانه كتب الجغرافيا، ومعاجم البلدان، وتاريخ المدن ونحوها. وانطلاقاً من هذا اليقين فسوف نسلط الضوء على كتابات الجغرافيين وروايات الرحالة لتلك المنطقة في الفترة من القرن

(١) الشوكاني: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط١،

بيروت، دار الكتب العلمية، عام ١٩٩٥م، باب فضائل الأمكنة والأزمنة، ص ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) المقرئ: الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، مع دراسة عن الإسلام في شرق أفريقيا والحبشة،

تحقيق عبد النعيم ضيفي عثمان، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، عام ٢٠٠٦م، مقمة المحقق، ص ٤.

(٣- ٩/٥٨-١٤م). لتقديم دراسة تاريخية بمعلومات جغرافية نستطيع من خلالها وضع صورة لحدود تلك البلاد خلال هذه الفترة، وماهي المناطق التي كان يسكنها الصوماليون. وللوصول لنتائج حقيقية في هذا البحث، كان لابد أولاً من معرفة المسميات التاريخية لبلاد الصومال والوقوف عليها عبر العصور، فالثابت حالياً أن اسم (الصومال) الذي ينكر عند وصف أرض الصومال لم يتم استعماله إلا في عصور متأخرة؛ ويظن البعض أن أول إشارة ظهرت له كانت ضمن كلمات أنشودة حبشية تخلد انتصارات النجاشي ملك الحبشة على إحدى الممالك الإسلامية في الصومال في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)<sup>(١)</sup>، غير أن الاسم ورد أكثر وضوحاً في عدة مواضع من كتاب (تحفة الزمان أو فتوح الحبشة)، للمؤرخ اليمني المعروف بـ عرب فقيه (ت: بعد ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)، الذي عاصر أحداث الحروب الإسلامية المسيحية في المنطقة خلال القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)<sup>(٢)</sup>. وعقب ذلك تردد اسم الصومال كثيراً لينتشر بعدها حتى بات الآن اسم لدولة عربية إسلامية، كانت أرضها شاهدة في العصور الوسطى على حضارة المسلمين في الساحل الشرقي لإفريقيا<sup>(٣)</sup>.

(١) إنريكو تشيروي (مستشرق إيطالي): الصومال، كتابات مختلفة نشرت وغير منشورة، ثلاثة مجلدات، روما، الإدارة الائتمانية الإيطالية من الصومال، عام ١٩٥٧-١٩٦٤م؛

- Cerulli, Enrico: Somalia, Scritti vari editi ed inediti, 3vol, Amministrazione Fiduciaria Italiana di Somalia, 1957-1964 Roma, vol 1, P.111.

(٢) عرب فقيه (شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان الجيزاني): مخطوطة تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، المكتبة المركزية بجامعة الرياض بالسعودية، قسم المخطوطات، المسجلة برقم ٣٥٠.

(٣) الصومال: دولة عربية تقع في شرق قارة إفريقيا على منطقة ما تعرف باسم القرن الإفريقي. يحدها خليج عدن والمحيط الهندي من الشرق، وإثيوبيا من الغرب، وجيبوتي من الشمال الغربي، كينيا من الجنوب الغربي. وتقع هذه البلاد ما بين درجتين جنوباً و١٣ درجة شمالاً من خط الاستواء، وتمتد شرقاً من خط طول ٥١ درجة شرقاً، حتى تصل خط طول ٤١ درجة شرقاً. وتحتل بلاد الصومال حالياً مساحة من الأرض تصل إلى حوالي ٢٤٦ ألف ميل مربع (٦٧٨/٥٠٠ كم ٢ أو ما يعادل ٦٣/٨ هكتار مربع)، وتأخذ أرضه شكل بروز داخل مياه المحيط الهندي على شكل رقم (7) بالإنجليزية، أو عبارة عن مثلث بزواوية على صورة قرن في بطن مياه المحيط الهندي. وتملك أطول حدود بحرية في قارة أفريقيا، حيث يبلغ طول الجزء الخاص بخليج عدن ٦٥٠ ميلاً، أما الساحل الذي يقع على المحيط الهندي فهو ١٣٠٠ ميلاً، تتسم تضاريسها بالتنوع بين الهضاب والسهول والمرتفعات، مناخها صحراوي حار على مدار السنة مع بعض الرياح الموسمية والأمطار غير =

وقد اختلف الباحثون حول معنى كلمة الصومال وتحديد مصدرها، وطرحوا عدة آراء لتفسيرها، والواضح أن هذه الآراء اعتمدت في جملتها على تفسيرات لغوية وتأويلات لفظية، والتي غالباً ما يلجأ إليها الناس لمعرفة ما أشكل عليهم من معاني الكلمات<sup>(١)</sup>. والواضح أن هذه التفسيرات لم تستند إلى أدلة تاريخية يمكن الاعتماد عليها، ولا تركز على أسس علمية منطقية يمكن قبولها، وفي الغالب مصدرها الروايات الشفهية المتداولة وسط الصوماليين، أو خيال الباحثين الذين حاولوا تحديد المعنى الأصلي لهذه الكلمة.

وبالعودة للبحث عن كلمة الصومال في العصور الإسلامية الأولى، لم نجد لها أي ذكر، ولكن وجدنا وصف هذه البلاد في تلك العصور تحت مسمى مغاير لها وهو (البربر)،

=المنتظمة. (أحمد صوار: الصومال الكبير، كتب سياسية الكتاب رقم ١٢١، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ط (د.ت)، ص ٥؛ على أحمد هارون: أسس الجغرافية السياسية، ط ١، القاهرة، دار الفكر العربي، عام ١٩٩٨م، ص ٢٤٨؛ فيليب رفة: الجغرافية السياسية لأفريقية، مع دراسة شاملة للدول الأفريقية سياسياً واقتصادياً وطبيعياً، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٦٦م، ص ٣٠١-٣٠٢؛ كتاب المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية، إعداد معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، المنظومة العربية للتربية والنشر، عام ١٩٨٢م، مقال السعيد إبراهيم البوي: الإنتاج الزراعي في الصومال، ص ٤٠٣، ومقال شوقي عطا الله الجمل: تاريخ الصومال في العصر الحديث ١٩٦٩-١٩٨٦م، ص ٩٣).

(١) لقد تعددت هذه الآراء واختلفت التفسيرات بل وتعددت حول اسم الصومال فمنها ما يفترض أن لفظة (صومال) محرفة من كلمة (سوماج) أو (سوماهة) الأثيوبية وهي تعني بالحشبية غير المتحضرين، وهي تسمية أطلقها الأحباش على الصوماليين إبان الحروب الدينية. ويرى رأي آخر أن الكلمة مأخوذة من كلمة (سمال) العربية، والتي كان يلقب بها زعيم قبلي صومالي سمل عين أخيه. في حين يرى آخر أن كلمة (سمال) صومالية تتركب من مقطعين وهما: (سما) أو (سمى) وتعني يد الرمح، و(ل) وتعني: نو أو صاحب، وبجمع المقطعين، تكون الكلمة بالصومالية (نو الرمح) أو (صاحب الرمح). وآخر يرى أن الكلمة مأخوذة من اسم لجزيرة قديمة كانت في منطقة شمال شرق الصومال تسمى (سمالي). وادعى رأي آخر أن كلمة الصومال مأخوذة من الكلمة العربية (نو مال) التي كان يلقب بها أحد الصوماليين الأثرياء الذي عاش في المنطقة، ومع مرور الزمن، تم تحريف كلمة (نو مال) إلى (صومال)، لعدم استخدام الصوماليين حرف (ذ). بينما يرى آخرون أنها مأخوذة من وادي في اليمن هاجر منه الجد الأكبر للصوماليين الذي كان يسمى (صومل). ويرى آخرون أيضاً أن لفظة (سومال) مأخوذة من كلمة صومالية مكونة من مقطعين متلازمين، هما (سو) من الحروف المساندة للفعل وخاصة الأمر، و(مال) وهو الفعل ويعني عندهم (ذهب أو احلب) الناقة وغيرها (زين العابدين عبد الحميد السراج: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي فيما بين القرنين ٦-٨هـ/١٢-١٤م، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة، عام ١٩٨٦م، ص ٤-١٠).

رغم أن المعلومات المتوفرة حول هذه الكلمة من الناحية الجغرافية، تبين أنها انتشرت في أكثر من موضع، فنجد هذا المسمى عُرفت به أماكن في جنوب الجزيرة العربية، وما جاورها من المناطق الإفريقية من الصومال حتى مصر وبلاد الشام. فقد كان يُطلق هذا الاسم سابقاً على أمة كبيرة وقبائل كثيرة في بلاد المغرب، ويُقصد بهم سكان شمال أفريقيا الأصليين المعروفين اليوم باسم (الأمازيغ). وكذلك أُطلق على أمة أخرى في قبالة بلاد اليمن بين أرض الحبشة والزنج، وهؤلاء بلادهم الواقعة في الصومال حالياً. وأُطلق أيضاً على سوق كبير بوسط الفسطاط بمصر، حين نزلها قوم من بربر العرب فسُمي بهم<sup>(١)</sup>. كما أُطلق الاسم على القبيلة الحاكمة لإقليم (جَنَاوَة)، وهي المنطقة التي كانت غرب الصحراء والتي عُرفت بالسودان الغربي أو إمبراطورية غانا<sup>(٢)</sup>.

وكذلك أيضاً أُطلق على إحدى نواحي النيل السوداني، في الإقليم القبلي التابع لولايات شمال السودان، والذي يشتهر بكثرة شجرة المفل (اللوم)<sup>(٣)</sup>، وقاعدته أيضاً تسمى بربر، في المنطقة التي تقطنها قبيلة (الميرفات)، على ضفتي النيل في المساحة الممتدة من الشلال الخامس شمالاً إلى بلاد عطبرة جنوباً<sup>(٤)</sup>. وقيل أيضاً أن هذا الاسم لجبل في أعالي نجران باليمن، و أيضاً اسم لجبل آخر في أواسط جبل الشيخ في سلسلة جبال تتمر بسوريا<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفتروق صقعا، ط٢، بيروت، عالم الكتب، عام ١٩٨٦م، ص ٤١-٤٢؛ بامخرمة الحميري: النسبة إلى المواضع والبلدان، ط١، أبوظبي، مركز الوثائق والبحوث، عام ٢٠٠٤م، ص ٩٩.
- (٢) أبو عبد الله الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط (د.ت.)، ص ١٢٥-١٢٦.
- (٣) عبدالحكيم عفيفي: موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، ط١، بيروت، أوراق شرقية للطباعة، عام ٢٠٠٠م، ص ١٠٦.
- (٤) عون الشريف قاسم: موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن، ط١، الخرطوم السودان، نشر شركة أفروقراف، عام ١٩٩٦م، ج٦، ص ٢٤٤١؛ عبد العزيز بن عبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معمة الصحراء، الرباط، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عام ١٩٧٦م، ص ٥٥.
- (٥) محمد علي مانون: عروية البربر الحقيقة المغمورة، ط١، دمشق، المركز العربي للتعبير والترجمة والتأليف والنشر، عام ١٩٩٢م، ص ٨٥.

ورغم تعدد الأماكن التي عُرفت باسم (البربر)، إلا إنه شاع استخدامه عند وصف المناطق الصومالية، فكثيراً ما تكرر على ألسنة الجغرافيين والزحالة والمؤرخين المتقدمين على الصعيدين الإسلامي والعربي، فمنذ المحاولات الأولى لظهور الجغرافيا الأدبية في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، والتي تمثلت في صورة وصف المسافات بين البلدان، نجد في أقدم مصادرها وهو كتاب "المسالك والممالك" لابن خُرْدَانْبَه (ت: ٥٢٨٠/٨٩٣م)، وربما أول من ذكرها بهذا المسمى خلال حديثه عن وضع البحار، فيشير إلى المناطق الحالية لبلاد الصومال بجملة "ناحية البربر"<sup>(١)</sup>.

ولكن مع استمرار الكتابة الجغرافية وتطورها في عصور لاحقة لابن خُرْدَانْبَه، والتصدي لدراسة مشاهد الأرض الطبيعية، نجد أنها قدمت وصفاً أكثر وضوحاً لبلاد الصومال ولكن بنفس المسمى، وربما طرأ عليه بعض التغيير البسيط، فقد كتبه البعض مضبوطاً بفتح الباء الموحدة وراء مهملة ساكنة، ثم باء ثانية مفتوحة وراء أخرى مهملة (بَرَبْر)<sup>(٢)</sup>، بينما نجد البعض الآخر يكتبه كذلك مع فتح الراء الأخيرة (بَرَبْر)<sup>(٣)</sup>، وأحياناً نجد الكلمة مضافاً إليها ألف مقصورة في آخرها (بَرَبْرَا)<sup>(٤)</sup>،

(١) ابن خُرْدَانْبَه: المسالك والممالك، ليدن، هولندا، دار بريل للنشر، عام ١٨٨٩م، ص ٢٣٠.

(٢) ابن رُسْتَه: الأعلاق النفيسة، ليدن، دار بريل للنشر، عام ١٨٩٢م، ص ٨٤؛ البكري: المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، عام ١٩٩٢م، ج ١، ص ٣٢٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، عام ١٣٤١هـ، ص ٩١؛ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبدالمنعم العريان، ط ١، بيروت، دار إحياء العلوم، عام ١٩٨٧م، ج ١، ص ٢٦١؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، عام ٢٠٠١م، ج ١ (المقدمة)، ص ٦٠.

(٣) الهمذاني: البلدان، ص ٦٣.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ١، اعتنى به وراجعته كمال حسن مرعي، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، عام ٢٠٠٥م، ج ٢، ص ٥؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط ١، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، عام ١٩٧٠م، ص ٨١؛ وأيضاً ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان المغرب، معهد مولاي الحسن، عام ١٩٥٨م، ص ١٣؛ المشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزيغ المانيا، نشر أوتو ويلهيلم هراسوفيتش، عام ١٩٢٣م، ص ١٩؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق رينود والبارون ماك كوكين، باريس فرنسا، دار الطباعة السلطانية، عام ١٨٤٠م، ص ١٥١؛ بامخرمة الحميري: النسبة إلى المواضع والبلدان، ص ٩٩.

وأحياناً أخرى بنفس الصورة مع تغير في حرفها الأخير ليكون الألف تاء مربوطة (بِريرة)<sup>(١)</sup>. وقد رجح البعض أن اسم البربر الذي عُرفت به بلاد الصومال في العصور الوسطى، يرجع إلى النسبة لمدينة (بِريرة) الصومالية، التي تقع شمال غرب الصومال وتضم ميناء بحري في الساحل الجنوبي من خليج عدن، والتي لا تزال يتداول اسمها على هذه الصورة إلى الآن<sup>(٢)</sup>. وهذا الطرح لا تُؤيده المصادر الجغرافية والتاريخية؛ لأن هذه البلدة نفسها لم يتم ذكرها إلا في القرن السادس الهجري (الثالث عشر الميلادي) للمرة الأولى، في حين أن مسمى البربر قد عمّ ذكره لوصف المناطق الصومالية عند الجغرافيين والرحالة منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). حتى اقترن لديهم منذ بدايته بحقيقة قاطعة عن بلاد الصومال، وهي أن هؤلاء البربر تقع بلادهم ما بين بلاد الحبشة وبلاد الزنج، في قبالة برّ اليمن على أعالي بحر القلزم (البحر الأحمر)<sup>(٣)</sup>.

ويبدو إن هذا التحديد كان حرصاً منهم للتفريق بين جيران الموطن بدقة واضحة، فكما فرقوا بين مواطن البربر والحبشة والزنج، فقد نبهوا إلى حقيقة فاصلة أهم وهي التفريق بين أجناس البربر، فهناك بربر المغرب في شمال أفريقيا، وبربر ساحل البحر الأحمر في شرق أفريقيا، وذكرهم بأنهم طائفة من السود بين بلاد الزنج وبلاد الحبش يسكنون البرية. كما إنهم

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، عام ١٩٩٢م، ص ٤٩؛ البيروني: القانون المسعودي، تحقيق وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، ط ١، حيدر آباد الدكن الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، عام ١٩٥٤م، ج ٢، ص ٥٣٨، ٥٤٨؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، عام ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٤٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، عام ١٩٧٧م، ج ١، ص ٣٦٩.

(٢) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية من ظهور الإسلام إلى قنوم البرتغاليين، القاهرة، دار النهضة العربية، عام ١٩٩٩م، ص ٩١.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٢٣٠؛ ابن رُسته: الأعلاق النفيسة، ص ٨٣-٨٤؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٥؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٤٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦٩؛ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص ٨١-٨٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ١٥٨:١٥٩؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٩١؛ ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٧٢.



وضحوا - تحاشياً للبس - أصول وصفات ثم ألوان وأماكن كل منهما بكل دقة وعناية، فهؤلاء بربر شرق أفريقيا يتميزون بلونهم الشديد السواد ويسكنون الصحراء، بينما بربر شمال أفريقيا بيض الألوان كسائر أهل إقليم البحر الأبيض المتوسط<sup>(١)</sup>.

وهكذا تداولت كتب الجغرافيا والرحلات اسم البربر لوصف المناطق الصومالية في العصور الوسطى وتواترت فيما بينها، ولكن هذا لا يعني أن المسمى ظهر في تلك العصور؛ فقد ظهر هذا الاسم في تاريخ سابق للعصور التي دون فيها الجغرافيون والرحالة مؤلفاتهم. فالثابت من التراث الأدبي للعرب في العصور التي سبقت الإسلام يؤكد أن العرب عرفوا المناطق الصومالية وأطلقوا على بلادها اسم (بربرا). حيث ورد ذكرها في بعض قصائد الشعر الجاهلي قبل الإسلام في أكثر من موضع. فنذكر "ابن يعقوب الهمداني"<sup>(٢)</sup> (ت: ٣٣٦هـ/٩٤٧م) من قول "آل أسعد ملكي كرب تبع"<sup>(٣)</sup>، يرجع إلى القرن الخامس الميلادي تقريباً، ذكرهم منازل من خرج منهم من اليمن في سائر جزيرة العرب وغيرها:

"وَمِنَّا بِأَرْضِ الْعَرَبِ تَعَلَّقُوا إِلَى بَرِّيرٍ حَتَّى أَتَوْا أَرْضَ بَرِّيرٍ"

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٨٤؛ البكري: المسالك والممالك، ج ١، ص ٣٢٠؛ ياقوت الحموي: المشترك وضعاً والمفترق صقلاً، ص ٤١:٤٢؛ بامخرمة الحميري: النسبة إلى المواضع والبلدان، ص ٩٩.

(٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، ط ١، صنعاء اليمن، مكتبة الإرشاد، عام ١٩٩٠م، ص ٣٢٦، ٣٢٥.

(٣) آل أسعد ملكي كرب: هم عشيرة أسعد أبو كرب الحميري أو أبو كرب أسعد أو أسعد تبع، ويعرف في كتب التراث العربية باسم (أسعد الكامل)، أحد ملوك مملكة حمير اليمنية وأطولهم عمراً، ويرجح أنه في الفترة من (٣٧٨-٤٣٠م)، وهو أول من أطلق على نفسه لقب ملك سبأ ونو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في المرتفعات والتهائم، ويشاع أنه كان أنه اعتنق اليهودية أثناء نزوله بيثرب في طريقه إلى اليمن، لكن أهل الأخبار نكروا أنه كان يتبع ديانة توحيدية حميرية متأثرة باليهودية متمحورة حول الإله رحمن، وقد دلت النصوص أنه كان عقيماً وتوزع الملك من بعده على أسرته ودب الخلاف بينهم، ففترقوا في البلاد (جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، نشر جامعة بغداد، عام ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٥٧٠، ٥٢٦).

والواضح من هذا القول أمرين: أولهما أن أرض بربر في جهة الغرب من بلاد اليمن، وهذه الناحية هي بلاد الصومال. والأخر أن أرض هذه البلاد شهدت هجرات عربية في عصور سبقت انتشار الإسلام. ومن جملة ما يستدل به على تأكيد هجرات العرب الجنوبيين إلى بلاد الصومال في هذه العصور، هو عثور علماء الآثار على أسماء آلهة عبدها عرب الجنوب، عثر عليها في بعض الكتابات الصومالية. ووجودها في هذه الأرض هو دليل على وجود جاليات عربية جنوبية في تلك الجهات وتأثر الصوماليين بثقافة العرب<sup>(١)</sup>.

وكذلك نجد نكر هذه البلاد في قصائد أخري من الشعر الجاهلي ترجع إلى القرن السادس الميلادي، وذلك في أكثر من موضع من قصائد الشاعر العربي الملقب بـ "أمرئ القيس الكندي"<sup>(٢)</sup> (ت: ٥٤٥م)، والتي نظمها خلال حروبه مع بني أسد، ففي أحدها يصف خيل بربرا إذ خصها بقوله:

"عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذَّنَابِي مُعَاوِدٍ      بَرِيدِ السَّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرَبْرَا"<sup>(٣)</sup>

- (١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤٥٢.
- (٢) أمرؤ القيس: هو جندح بن حجر بن الحارث الكندي (٤٩٧-٥٤٥ م)، هو شاعر عربي من مكانة رفيعة، برز في فترة الجاهلية، ويعد رأس شعراء العرب، وأحد أبرزهم في التاريخ، اختلفت المصادر في تسميته، فورد باسم جندح وحندج وملبكة وعدي، وهو من قبيلة كندة. يُعرف في كتب التراث العربية بألقاب عدة، منها: الملك الضليل ونو القروح، وكُني بأبي وهب، وأبي زيد، وأبي الحارث (أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين ويكر عباس، ط ١، بيروت، دار صادر، عام ٢٠٠٢م، ج ٩، ص ٥٩؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم الرجال والنساء في العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ١٥، بيروت، دار العلم للملايين، عام ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ١١).
- (٣) المبرّد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، القاهرة، دار الفكر العربي، عام ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٦١؛ ديوان أمرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، القاهرة، دار المعارف، عام ١٩٦٩م، ص ٦٦؛ ويعني بمقصوص الذنابي: أي محذوف الذيل وقد كانت العادة عندهم أن تحذف أذناب خيل البريد ليكون علامة لها، معاود: معناد السير، بريد السرى: رسول الليل، والسري لا يكون إلا ليلاً، وبربر: القبيلة القائمة على خيل البريد (شرح ديوان أمرئ القيس، تحقيق حسن السندي، ط ١، بيروت، دار إحياء العلوم، عام ١٩٩٠م، ص ١٠٧).

ونكر "ابن رشيق القيرواني"<sup>(١)</sup> (ت: ٤٥٦هـ/ ١٠٧٠م) أنه خص خيل بربرا بالذکر دون سواها من خيل العرب لصلابتها وقوة تحملها، وكانت تلهب أذناها - قص ذيولها - كالبالغ لتدخل مداخلها في خدمة البريد، وربما وللإعلام بأنها للملك، ولا يبعد أنه كان طلباً للخفة في العدو، مثلما كانوا يعتقدون شعر الأعراف والأذنان لخيولهم في الحرب. وفي موضع آخر له من قصيدة أخرى، يتفاخر بأنه كان يملك جمعاً من قوم بربرا بجانب جيوشه فيقول:

**"وَيَعَدُّ أَبِي فِي حِصْنِ كِنْدَةَ سَيِّدًا يَسُودُ جُمُوعًا مِنْ جِيُوشِ وَبَرِّيرَا"<sup>(٢)</sup>**

وقد يقصد بذكرهم أنه كان يملك كثيراً من الرقيق الذي يجلب من بربرا؛ فينكر "المقنسي"<sup>(٣)</sup> (ت: ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) أن: "من بين أجناس الرقيق الذي يُجلب إلى ميناء عدن، من جنس البربر وهو أشرفهم". غير أن "ابن سعيد"<sup>(٤)</sup> (ت: ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ذكر: "أن رقيقهم الذي ذكره امرؤ القيس مستحسن، وقد قدموا في بلاد الإسلام بعدما أسلم أكثرهم". ولعله يقصد بأنهم أحد القوى المحاربة بجانب جيشه، وربما ذكرهم لما اشتهروا به من القوة والبأس في الحروب، وصيد الوحوش، والبراعة في صنع السم ورميه بالنبال<sup>(٥)</sup>.

وكيفما كان المعنى إلا إن المؤكد من قول امرئ القيس: بربرا، قصد بها بلاد الصومال، رغم إن الاسم كان يُطلق على أمم أخرى - كما أسلفت الإشارة إليه - والدال على ذلك نصين: أولهما "لابن سعيد المغربي"<sup>(٦)</sup> الذي قال: "بربرا قاعدة البرابر التي نكر امرؤ القيس خيلهم، ورقيقهم مستحسن، وقد أسلم أكثرهم فلذلك قدموا في بلاد الإسلام..". ثم استكمل

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٥، بيروت، نشر دار الجيل،

عام ١٩٨١م، ج٢، ص٢٢٧.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص٢٦٩.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق شاکر لعيبي، ط١، أبو ظبي الإمارات، دار السويدي،

عام ٢٠٠٣م، ص٢٢٤.

(٤) كتاب الجغرافيا، ص٨١.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٦٩؛ ونفس المصدر، ج٣، ص١٦٤.

(٦) كتاب الجغرافيا، ص٨١؛ وأيضاً ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص١٣.



كلامه عن نيل مقديشو وبعض الأماكن الأخرى الواقعة في بلاد الصومال الحالية. والآخر "لابن خلدون"<sup>(١)</sup> (ت: ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) والذي قال فيه: "وبريرا قاعدة البرابر التي نكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر الذي هم قبائل المغرب ..".

وقد ذكرهم شاعر آخر من شعراء الجاهلية وهو "عدي بن زيد العبادي التميمي"<sup>(٢)</sup> (ت: ٩٠م) في إحدى قصائده عن بلاد اليمن بقوله:

"يَوْمَ يَقُولُونَ يَا لَ بَرِّيرِ وَالِدِ يَكْسُومَ لَا يَفْلِحُنْ هَارِبُهَا"<sup>(٣)</sup>

والواضح من قوله (أل بَرِّيرِ) يقصد به قبائل الصومال، فقد ذكر جمعهم دون ملكهم كالحبشة (يَكْسُومَ)<sup>(٤)</sup>؛ وهذا يؤكد أنهم جنس دون الحبشة، فقد كانوا آنذاك قبائل شتى يجتمعون يجتمعون تحت اسم بَرِّيرِ، فلم يكن لهم حكم أو سياسة كما للحبشة، ولو كان يقصد بهم

(١) العبر، ج ١، ص ٦٠.

(٢) عدي بن زيد العبادي التميمي، هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب بن محرووف بن عامر بن عضية بن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، العبادي التميمي، كان شاعرًا نصرانيًا من أهل الحيرة عاش في القرن السادس الميلادي وكان من دهاة الجاهلية، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية، والرمي بالنشأب. هو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، الذي جعله ترجمانًا بينه وبين العرب، فسكن المدائن ولما مات كسرى وولي الحكم هرمز الرابع أعلى شأنه ووجهه رسولاً إلى ملك الروم طيياربوس الثاني في القسطنطينية، فزار بلاد الشام، ثم تزوج هند بنت النعمان. وشى به أعداء له إلى النعمان الثالث بما أوغر صدره فسجنه وقتله بأن خنقه النعمان بنفسه في السجن حوالي عام ٥٨٧ م (أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ٢، ص ٦٣ وما بعدها؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٢٢٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، ط ١، بيروت، دار الجليل، عام ١٤١١هـ، ج ١، ص ١٨٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، عام ١٩٩٠م، ج ٢، ص ١٧٩؛ ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعبيد، بغداد، دار الجمهورية للنشر، عام ١٩٦٥م، ص ٤٧.

(٤) يكسوم: هو يكسوم بن أبرهة الأشرم صاحب (حادثة الفيل)، حكم اليمن بعد هلاك أبيه من قبل مملكة أكسوم أكسوم الحبشية، خلال فترة احتلال الأحباش لليمن (٥٢٥ - ٥٩٩م)، وتولى الحكم في عام (٥٧٠ أو ٥٧١م)، وكان سيئ السيرة في أهل اليمن فعم أذاه سائر الناس، إلى أن هلك بعد عشرين سنة من الحكم، وقيل مكث على اليمن تسع عشرة سنة، قيل أيضًا سبع عشرة سنة، وتولى بعده أخوه مسروق بن أبرهة، وهو أخو سيف بن ذي يزن من جهة الأم (ريحانة ابنة ذي جدن)، والذي قُتل في معركة صنعاء التي دارت بين الأحباش واليمنيين بمساندة الفرس، بعدما استعانت بهم سيف بن ذي يزن، وبموته انتهى حكم الأحباش على اليمن (جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٥٠٤، ٥٠٥).

الأحباش لغفل ذكرهم بذكر ملكهم. إضافة إلى ذلك أن ذكر اسمهم جاء مقترناً بملك الحبشة يدل على أنهم شاركوا الأحباش في غزو اليمن.  
ونجد ذكرهم أيضاً في إحدى قصائد الشعر الجاهلي للشاعر اليمني "عَلْقَمَةُ ذِي جَدَنَ الحَمِيرِيِّ"<sup>(١)</sup> (عاش في القرن السادس أو السابع بعد الميلاد) في إحدى مراتبه لحصون حمير بقوله:

"وَلَمِيسُ كَانَتْ فِي نَوَابَةِ نَاعِطٍ يَجْبِي إِلَيْهَا الخَرْجَ سَاكِنُ بَرَبِرٍ"<sup>(٢)</sup>

وهنا الشاعر يرثي أحد الحصون القوية في عصر تبابعة - ملوك - حمير المعروف بلميس، والذي كان في نؤابة - قمة - الجبل المعروف بناعط بصنعاء اليمن، حيث كانت تأتي إليه الضرائب من أرض بربر (الصومال) المجاورة لبلدهم، والتي كانت تحت نفوذ دولتهم في عصر الحميريين. وهذا ما أكدته مؤلفات القرن الأول الميلادي، والتي أشارت إلى أن الجزء الجنوبي من الساحل الأفريقي كان في أيدي الحميريين في ذلك الوقت<sup>(٣)</sup>.  
وكذلك أيضاً نجد الشاعر "مِرْدَاسُ بْنُ أَبِي عَامِرِ السُّلَمِيِّ"<sup>(٤)</sup>، ذكرهم في أحد أشعاره عندما أخذت منه بنو بكر بن كلاب أبله التي غنمها في إحدى حروب الجاهلية التي عرفت

(١) عَلْقَمَةُ ذِي جَدَنَ الحَمِيرِيِّ (عاش في القرن السادس أو السابع بعد الميلاد) شاعر عربي من اليمن. تناولت أشعاره عن حصون اليمن وتميرها. ومن أحفاده الصحابي الجليل علقمة بن أسلم بن مرثد، وكان شاعراً ويقال له: علقمة الأصغر (ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، القاهرة، عام ٢٠٠٨م، ج٨، ص١٩٣).

(٢) ابن يعقوب الهمداني: الإكليل، الكتاب الثاني في أنساب ولد الهميسع بن حمير، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، صنعاء، نشر وزارة الثقافة والسياحة اليمنية، عام ٢٠٠٤م، ص٢٢٤-٢٣٠؛ نشوان ابن سعيد الحميري: منتخبات من أخبار اليمن منتقاة من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق عظيم الدين أحمد، ط١، لينن، مطبعة بريل، عام ١٩١٦م، ص٩٦.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ص٤٥٢.

(٤) مِرْدَاسُ بْنُ أَبِي عَامِرِ السُّلَمِيِّ: هو مِرْدَاسُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَبْدِ قَيْسِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ بَهْتَةَ السُّلَمِيِّ، من بني سليم بن منصور، هو زوج الخنساء، ووالد الصحابي الجليل عباس بن مرداس المتوفي ١٨هـ/٦٣٩م، وقيل أن مرداس قتلته الجن بعد أن أحرق الوادي المشهور بالجن (ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد علي الجاوي، ط١، بيروت، دار الجليل، عام ١٩٩٢م، ج٢، ص٨١٧).

يوم "شعب جبلة"<sup>(١)</sup>، والتي وقعت أحداثها حوالي عام (٥٧٠م) وقيل عام (٥٥٣م)، بقوله:

"تَدَاعَتْ بَنُو بَكْرِ عَلِيٍّ كَأَنَّمَا تَدَاعَتْ عَلِيٌّ بِالْأَحْرَةِ بِرَبْرِ"<sup>(٢)</sup>

وهكذا تكرر اسم البربر في التراث الأدبي للعرب منذ العصور القديمة، وهذا دليل على أن المناطق الصومالية ذاع صيتها في العصور التي سبقت الإسلام، حيث انتشرت مخرجاتها في البقاع المجاورة، وورد ذكرها في تاريخ سابق للعصور التي دون فيها الجغرافيون والرحالة مؤلفاتهم. هذا الأمر الذي يجعلنا نعود بالبحث عن مسمى البربر في عصور تاريخية أقدم. وإلى هنا يمكن لنا أن نتساءل عن الأسباب التي أدت إلى إطلاق هذه اللفظة (البربر) ذات الأهمية التاريخية على بلاد الصومال، وما مصدرها؟. وهل لذلك علاقة بم هذه الكلمة من مدلولات لغوية متنوعة؟.

فالشائع في الكتب أن مصطلح (بربر) أو (برابرة) مشتق من الكلمة اللاتينية الأصل بارباروس (Barbarus)، التي كان يطلقها الرومان على غيرهم من شعوب حضارات الأخرى، فكانوا ينعنون بها غيرهم من الحضارات التي لاتزال في حالة من البدائية والتوحش، بصفتهم همجاً لم يرقوا بعد إلى درجة من النضج والانضباط الاجتماعي<sup>(٣)</sup>. ولكن كتب أخرى تؤكد أن أصلها إغريقي من الكلمة اليونانية بارباروس (βάρβαρος)، وإن أصل اللفظ نابع من تهكم وسخرية الإغريق من ناطقي اللغات الأخرى

(١) يوم شعب جبلة: هي حرب ضروس وقعت في الجاهلية حوالي عام (٥٧٠م) وقيل عام (٥٥٣م)، والتي اندلعت بين قبائل تميم ومن معها من الحلفاء من بنو مرة وفزارة نبيان وبنو أسد، ضد بني عامر وحلفائهم من بني بارق وعبس الذين تحصنوا في شعب بجبل عظيم يعرف بجبلة، وانتهت الحرب بانتصار حزب بني عامر (أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ١١، ص ٩٢ وما بعدها).

(٢) أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ١١، ص ١٠٧.

(٣) ظهر المصلح البربر في الإمبراطورية الرومانية بعد خلافات حادة في حق المواطنة الرومانية، فبعدما منح الإمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧م) في عام (٢١٢م) جميع سكان الإمبراطورية حق الوطنية الرومانية. صدور مرسوم بالتفريق بين سكان الإمبراطورية من الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م)، واعتبر أن الوطنيين الرومان هم الرعايا، والخارجين عن دائرة التمدن الروماني البيزنطي أجانب، ويطلق مصطلح (Barbarus) في اللاتينية على الواحد منهم (محمد محسن البرازي: محاضرات في الحقوق الرومانية، القاهرة، مؤسسة هنداوي، عام ٢٠١٧م، ص ٨٩-٩٠).

غير الإغريقية أو ناطقي اللغة الإغريقية بطريقة خاطئة، وكانت تستخدم للإشارة إلى أي شخص غريب أو حضارة أو ثقافة أجنبية التقوا بها لا يتحدث أفرادها اللغة الإغريقية، وكذلك تطلق أيضاً على الإغريق الذين لا يجيدون اللغة اليونانية ويتبعون العادات اليونانية الكلاسيكية<sup>(١)</sup>. ثم أخذ الرومان عن الإغريق هذا المصطلح ليطلق بعد ذلك على كل من لا يتحدث اليونانية واللاتينية<sup>(٢)</sup>. ومنها انتشرت في كل اللغات بنفس الصيغة الصوتية عند جميع الأمم والحضارات القديمة، للإشارة إلى أي شخص غريب عنها أو أمة لا تشاركها اللغة والموطن، حتى بات المصطلح تطلقه جميع الأمم على جميع الأمم الأخرى<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا الاشتقاق اللغوي وانتشار المصطلح في لغات العالم القديم، يستدل البعض أن كلمة البربر هي تسمية قديمة ظهرت قبل اليونان والرومان، وأخرى قبل العرب الذين استعملوا هذا الاسم أيضاً قبل الفتح الإسلامي. وحجتهم على ذلك أن المصطلح كان يطلق على العناصر ذات العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة في كلامها، أو إقامتها بشاطئ النيل السريع، أو من حيث إنها كانت تمثل الرُّحل الذين يسبغون من مكان لآخر. فالمصطلح لديهم كان يضم عائلة من الشعوب الأفريقية القديمة الناطقة بالبربرية، والتي كانت تتوزع من البحر الأحمر شرقاً إلى السينغال غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى نيجيريا جنوباً<sup>(٤)</sup>.

وعلى أية حال، فإن وجود مصطلح البربر في اللغة اليونانية القديمة وكذلك اللغة اللاتينية، وغيرهما من لغات العالم القديم، لهو دليل على انتشار المصطلح خارج البيئة العربية.

(١) محمد مختار العريايوي: هل كلمة البربر شرقية عربية، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد ٢٥، الجزائر، عام ٢٠١٠م، ص ٢٥٨؛ ديميتراكس: المعجم الهجائي والتفسيري الجديد لكل اللغات اليونانية، إصدار عام ١٩٧٠م.

- Dimitraks: Le Nouveau Dictionnaire orthographique et interprétatif de toute la langue grecque, Edition 1970.

(٢) محمد حقي: البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة أثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية، ط١، الدار البيضاء، شركة النشر المدارس، عام ٢٠٠١م، ص ٢٦.

(٣) الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ط٢، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر، عام ١٩٨٦م، ص ٦٣.

(٤) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط٦، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، عام ٢٠٠٣م، ص (ز، ح) من مقدمة المؤلف.

هذا الأمر الذي يستدعي البحث في الواقع اللغوي والثقافي لهذه الكلمة ومدلولاتها. ومن خلال البحث اللغوي لمدلول كلمة البربر في معاجم اللغة اليونانية<sup>(١)</sup>، واللغة اللاتينية<sup>(٢)</sup>، تبين لنا أن الكلمة تدل على الازدراء والتحقير فتحمل المعاني التالية: (الغريب، والهمجي، والوحشي، أو اختلاط الأصوات غير المفهومة). لكن الطريف أن نجد البنية الصوتية لهذا الكلمة في هذه المعاجم، هي نفس البنية التي جاءت بها معاجم اللغة العربية، كما أن الترادفات والدلالات والمعاني التي أتت بها هذه المعاجم تتفق تمامًا مع ما جاءت به معاجم اللغة العربية<sup>(٣)</sup>.

ورغم تشابه البنية الصوتية لكلمة بربر وتوافق دلالتها في عدد من اللغات المختلفة، لا يعني هذا انتقال الكلمة من لغة إلى أخرى؛ بل يكون السبب ناجمًا عن وجود غريزة لغوية في تركيب عقل الإنسان تؤثر في التراكيب اللغوية لديه، فتولد نفس الكلمة عند شعوب مختلفة، وبالتالي لا يكون مصدرها إلا النظرة الشعبية للخلاف اللغوي، فكل من لا يفهمه ويفهمنا يصبح مدعاة للسخرية والتهكم، وقد نجد صدى لهذا التحقير في أيامنا عند من نسميهم بالمتفقين. فالناس دائمًا يميلون في مواجهة الاختلاف اللغوي إلى السخرية من عادات الآخرين اللغوية، على اعتبار أن لغتهم هم هي الأجل والأدق، وأن اختلاف لغة الآخر نقصًا فيه، وكلامه ما ليس إلا بريرة وثرثرة<sup>(٤)</sup>.

(١) صموئيل كامل عبد السيد وارثيميس ثلاثينوس: قاموس عربي يوناني، بيروت، مكتبة لبنان، عام ١٩٩٠م، ص ٢٤، ٤٢٩، ٤٤٢.

(2) Oxford Latin Dictionary, Oxford At the Clarendon Press, 1968, p.225.

(٣) مادة (بربر) في معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين مريب على حروف المعجم، تحقيق عبد الحميد هندراوي، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، عام ٢٠٠٣م، ج ١، ص ١٢٩؛ الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، بيروت، دار العلم للملايين، عام ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٥٨٨؛ ابن منظور: لسان العرب، ط ٣، بيروت، دار صادر، عام ١٤١٤هـ، ج ٤، ص ٥٥-٥٦؛ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط ٨، بيروت، مؤسسة الرسالة، عام ٢٠٠٥م، ص ٣٤٩؛ محمد مرتضي الزبيدي: تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق على هلال وأخرون، ط ٢، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عام ٢٠٠٤م، ج ١٠، ص ١٥٩-١٦٠.

(٤) لويس جان كالفني: حرب اللغات والسياسة اللغوية، ترجمة حسن حمزة توزيع، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠٠٨م، ص ١١٠.



ولكن حين ننظر لتداول لفظ البربر في لغات الحضارات القديمة اليونانية والرومانية بالتوازي مع اللغة العربية من الناحية التاريخية، نجد أن اللفظ قد تم استعماله أيضًا من قبل اليونان والرومان لوصف البلاد الصومالية مثلما استعمله العرب قبل الإسلام، فنجد المؤرخين اليونان والرومان الذين زاروا المناطق الصومالية قد ذكروها باسم بلاد (بربري)<sup>(١)</sup>، وخاصة المؤرخ اليوناني المجهول صاحب كتاب "الطواف حول البحر الأريثري"، الذي زار المنطقة في القرن الأول الميلادي واصفًا أسواقها وموانئها<sup>(٢)</sup>. وكذلك ذكرها المؤرخ الروماني "كوزماس" بهذا الاسم في مؤلفه المرسوم بطبغرافية العالم المسيحي في بدايات القرن الساس الميلادي<sup>(٣)</sup>.

وتدل المعلومات التي أوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان، على أن بلاد الصومال قد شهدت على علاقات تجارية وطيدة مع حضارات البحر المتوسط، خاصة في عصر سيطرة الإغريق ومن بعدهم الرومان على سواحل البحر الأحمر. خاصة في المراكز التجارية والموانئ الواقعة على الساحل الصومالي، والتي قصدها الرومان من أجل الحصول على البخور والعطور والعاج والفضة وغيرها من مختلف السلع<sup>(٤)</sup>. ومن الجدير بالذكر أن نجد هؤلاء الكتاب قد فرقوا في مؤلفاتهم بين سكان الصومال القدماء والحبشة؛ فاطلقوا اسم (البرابرة) على سكان الصومال،

(١) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقيا الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة، عام ١٩٢٧م، ص ٦٦، ٥١.

(2) the preplus maris erythraei, text with introduction translatin, and commentary by lionel casson, , university press, 1989, pp. 158:177.

(3) Cosmas Indicopleustes: The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk: ranslated from the Greek, and Edited with Notes and Introduction, (TRANS, J. W. McCrindle Cambridge Library Collection – Hakluyt First Series) , London 2010.

(٤) حمدي السيد سالم: الصومال قديمًا وحديثًا، مقديشو، دار القومية للطباعة، عام ١٩٦٥م، ج ١، ص ٣٢٨-٣٣٣.

و(الإثيوبيين) التي تعني ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون على سكان الحبشة والفرق واضح<sup>(١)</sup>.

وبما أن اسم البربر ارتبط بوصف المناطق الصومالية في اللغة اليونانية واللاتينية وكذلك العربية، لهو دليل قاطع على أن هذه البلاد تلت اسمها من أصحاب هؤلاء اللغات منذ القرن الأول الميلادي. ولا يعني هذا أن حضارة بلاد الصومال قامت في هذه العصور؛ فقد أثبتت البعثات الأثرية المتعاقبة لبلاد الصومال، أن هذه البلاد كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري القديم، في فترة ترجع إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد على الأقل تقدير<sup>(٢)</sup>. كذلك ربطتها علاقات تجارية مع المصريين القدماء، وكانت تسمى حينها بأرض "بُنط" أو "بُنْت" (Punt) أو الأراض المقدسة، وأرض الإله، وأرض البخور والعطور....، وقد سجلت جدران المعابد المصرية هذا الاسم في العدد من البعثات التجارية من وإلى تلك البلاد، وهي عصور سابقة لسيطرة الإغريق والرومان على ساحل البحر الأحمر<sup>(٣)</sup>.

ولكن عندما تداعت الدولة المصرية إثر تعرضها لاحتلال خارجي متتابع (الآشوري، الفارسي، اليوناني، الروماني على التوالي) اختفت بلاد البُنط عن الأضواء مع اختفاء المصريين. ولكن مع بدايات سيطرة الإغريق على ساحل البحر الأحمر، عرفوا تلك البلاد وأطلقوا عليها اسم (أروماتيارحبو) أي إقليم العطور، ونقلت إلينا أعمال الجغرافيين اليونان الكثير عن أحوال سكان المنطقة فالجغرافي "سترابون" ذكر فيما كتبه عن إفريقيا الكثير من

---

(١) إثيوبيا (Aethiops) كلمة يونانية بمعنى ذوي البشرة المحترقة أو السوداء أو الزيتونية اللون، وتتكون من مقطعين: (Aitheim) بمعنى محترق، و(ops) بمعنى وجه. وكانت تطلق على العناصر التي تسكن المساحات الشاسعة الممتدة جنوب مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن، عام ١٩٥٩م، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ص ٤).

(٢) Brandt, S.A.: The Upper Pleistocene and Early Holocene Prehistory of the Horn of Africa, The African Archaeological Review, Vol. 4 (1986), pp. 41-82.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع، شحاته أم محمد: الرحلات والبعثات برًا وبحرًا في مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى نهاية عهد الدولة الوسطى، رسالة دكتوراه (غير منشورة) قسم التاريخ كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٦٦م، ص ١٤١.

عادات أهل البلاد، ووصف لنا طرق الدفن والجنازات عند سكان ساحل الصومال، وهذه الطقوس تشبه الكثير من الطقوس التي يزاولها الصوماليون اليوم<sup>(١)</sup>.

وعندما ورث الرومان عرش اليونان بسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر في شرق أفريقيا، ثم دالت دولة الرومان وتل عرشها، وبدأت تتسلخ عنها الممتلكات البعيدة قبل القريبة، وضاع منها صولجان تجارة البحر الأحمر وخرجت من يدها بلاد ساحل شرق أفريقيا. في الوقت نفسه كان اسم بلاد بربري أو بربر أو بريرة قد شاع عند وصف المناطق الصومالية منذ القرن الأول الميلادي في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة في الحضارات المختلفة عبر عصور التاريخ.

ولو أردنا معرفة حدود بلاد الصومال والمناطق التي سكنوها منذ العصور الوسطى؛ فإننا نستطيع معرفة ذلك بفضل الجهود العظيمة للجغرافيين والرحالة المسلمين منذ بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، فنجد المتقدمين منهم يقدمون إشارات لبعض حدودها. ففي أقدم مصادر الجغرافيا العربية "لابن خردادب" (ت: ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، ولعله أقدم من أشار إلى بلاد الصومال باسم البربر، حيث يذكر بعضاً من حدودها خلال حديثه عن البحر الأحمر فيقول: "... ومن هذا البحر، خليج يخرج من أرض الحبشة يمتد إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربري،.... وأصل الذي يبتدئ منه في البحر الأعظم"<sup>(٢)</sup>. ورغم أنه لم يقدم أي وصف لناحية البربر، لكنه أشار إلى معلومة جغرافية مهمة خلال تحديده لمسافة الخليج البربري - عدن - الذي يمتد طوله من أرض الحبشة شمالاً، حتى البحر الأعظم - المحيط الهندي - جنوباً؛ وهي أن بلاد البربر تحدها أرض الحبشة شمالاً حتى ساحل البحر الأحمر، وساحل خليج عدن من البحر شرقاً. الأمر الذي يجعل هذا التحديد ينطبق تماماً من الناحية الجغرافية على أرض الصومال.

(١) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في شرق أفريقيا وجنوب الصحراء ط١، ليبيا، نشر جامعة بنغازي، عام ١٩٩٨م، ص ٧٢؛

- Copans, (L), Histor de L'Afrique Noire Dakar, 1982, P. 117.

(٢) المسالك والممالك، ص ٢٣٠.

وقد أكد أيضاً "ابن رُسته" (ت: نحو ٣٠٠هـ/٩١٢م) على هذا الموضوع الجغرافي لبلاد الصومال خلال حديثه عن المحيط الهندي بقوله: " .. فأما البحر الهندي، فإنه يمتد من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبش إلى أقصى الهند، يخرج منه خليج عند أرض الحبش، يمر إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربري"<sup>(١)</sup>، وفي موضع آخر، نجده يصف الساحل الشرقي لبلاد الصومال، خلال استكمال له وصف هذا المحيط فيقول: " .. أما بحر الهند إذا قطع الراكب البحر عند غبب - آخر - عدن، فإن أول ما يصير إليها جزيرة يقال لها بربر، وهي مسكونة وفيها جنس من الزنج"<sup>(٢)</sup> يتصلون ببلاد السودان، وفي تلك الناحية بلاد الزنج... وكل هؤلاء الذين ذكرنا وغيرهم من تلك الناحية الغربية"<sup>(٣)</sup>. وهنا نلاحظ من قول "ابن رُسته" بالناحية الغربية أنه قصد الساحل الشرقي للصومال، الواقع في غرب الهند، أما قوله بالجزيرة التي يقال لها بربر في محاذة آخر عدن فإنه قصد الجزء المعروف برأس شبه الجزيرة الصومالية من القرن الأفريقي، الذي يفصل بين خليج عدن من ناحية والمحيط الهندي من ناحية أخرى.

لهذا يمكن لنا القول أن الحدود العامة لموضع الصومال قد رسمت منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، فكانت بلاد الحبشة الحدود الشمالية لها، وشكّل الساحل الجنوبي لخليج عدن حدودها الشرقية، بينما كانت بلاد الزنج تحدها جنوباً وباقي بلاد السودان جهة الغرب. وهذا الذي أكده "المسعودي" (ت: ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) بعد فترة قليلة من تدوين "ابن خرداذبه" و"ابن رُسته" معلوماتهما عن بلاد الصومال، بقوله: " .. وليس في المعمور أعظم من هذا البحر، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة، ويسمى الخليج البربري"<sup>(٤)</sup>.

(١) الأعلاق النفيسة، ص ٨٣: ٨٤.

(٢) الزنج وصف أطلقه الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى على سكان جنوب شرق أفريقيا، وخصوصاً سكان منطقة ساحل جنوب شرق أفريقيا، المعروف اليوم باسم كينيا وتنزانيا (محمد عبدالله النقيرة: انشاز الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له، الرياض، دار المريخ، عام ١٩٨٢م، ص ٣٩-٤١).

(٣) ابن رُسته: الأعلاق النفيسة، ص ٨٨.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٨٤.

واستكمالاً للتحديد العام الذي قدمه "المسعودي"، يقدم لنا معلومات أكثر تفصيلاً عن جغرافية الساحل الصومالي بقوله: "... أن أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري، وهم يعرفونه ببحر بربري وبلاد وجفوني"<sup>(١)</sup>. من قوله نلاحظ معلومتين، أولهما: أن مسمى بربري انعكس على البيئة المحيطة للصومال؛ بحيث كان الخليج الفاصل بين الصومال واليمن يسميه الجغرافيون بالخليج البربري. فهذا مثلاً "ابن الفقيه الهمداني" (ت: نحو ٩٥١/٣٤٠م) وهو جغرافي معاصر "للمسعودي" يذكر في القول عن البحار وإحاطتها بالأرض، أن البحر الكبير يمتد من قلزم مصر، حتى يبلغ بربر، إلى أن يصل لجبال الصين<sup>(٢)</sup>. وهو الذي يشتهر في وقتنا الحالي بخليج عدن، غير أن اسم بربري الآن اقتصر فقط على إحدى مدن شمال الصومال الساحلية التي تطل على الخليج وهي مدينة بربرة<sup>(٣)</sup>.

**وثانيهما:** أن هذه بلاد عرفت باسمين هما بربري وجفوني، هذا الأمر الذي جعلنا نبحث في دلالة الاسمين، فالواضح أن بربري هو الاسم الذي اشتهر به الخليج الذي يضم الساحل الشمالي للصومال. إذن فما دلالة اسم جفوني؟. وللوقوف على أمره تطلب البحث عن أمر مماثل في تدوينات الجغرافيين اللاحقين "للمسعودي" عن بلاد الصومال، وقد وجدنا أن "الإدريسي" (ت: ١٠٦٥/٥٦٠م) حين قدم وصف لبلاد الصومال ذكر أن هذه البلاد بها جبل مشهور يسمى (خاقوني)، وقال عنه: "... منها جبل خاقوني، وهو جبل له سبعة رؤوس خارجة، ويمتد تحت الماء في البحر..<sup>(٤)</sup>. وهو الذي ذكره أيضاً "ابن سعيد المغربي" (ت: ١٢٨٥/٥٦٨٥م) ولكن باسم (خاقوني)، فقال: "... وفي شرقيها حافوني، الجبل المشهور عند المسافرين، ويظهر داخلًا في البر جنوبًا نحو مائة ميل، ويدخل في البحر نحو مائة وأربعين ميلاً في الشمال بتعرج للمشرق. وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدها المسافرون على بعد، ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف"<sup>(٥)</sup>.

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) الهمداني: البلدان، ص ٦٣.

(٣) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص ٩١.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٤٨.

(٥) كتاب الجغرافيا، ص ٨١؛ بسط الأرض في الطول والعرض، ص ١٤.

والواضح لنا من الوصف والتحديد الجغرافي للجبل المشهور بالسبع قمم عند "الإدريسي" و"ابن سعيد"، أنه نفس الجبل عندهما وإن اختلفت الأسماء بينهما في بعض أماكن النقاط؛ وربما كان هذا مرجعه عدم معرفتهما للاسم الصحيح، أو أخطاء من الرواة أو المترجمين. وخاصة ونحن نعلم يقيناً أن "الإدريسي" و"ابن سعيد" لم يزورا تلك البلاد<sup>(١)</sup>. لكن المؤكد من وصفهما أن هذا الجبل كان علامة واضحة يستدل بها البحارة لجهة بعينها، وهذا الأمر هو الذي قصده "المسعودي" باسم جفوني.

لذلك يمكن القول أن الجبل الذي ذكره "الإدريسي" و"ابن سعيد" باسم خاقوني أو حافوني، لعله الذي ذكره "المسعودي" باسم جفوني بل هو؛ لأن صفات هذا الجبل له قمم خارجة من الماء، تحوي بينها جيوب ممتلئة بالماء. وهذا المعنى جاء به القرآن الكريم بلفظ: "وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ"<sup>(٢)</sup>، والذي ذكره "الطبري" (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م) في تفسيره بأنه يعني أوعية كالأحواض، يستنقع فيها الماء<sup>(٣)</sup>. لذلك يتأكد لنا أن اسم جفوني الذي ذكره "المسعودي" هو نفس الجبل الذي ذكره "الإدريسي" و"ابن سعيد"، بل هو الأصح من حيث المصطلح ومعناه؛ لأنه الجغرافي الوحيد الذي زار المنطقة دونهما، وشارك البحارين في عبور هذه الجهات. فلذلك ينبغي التثبت وتدقيق البحث في الأخبار التي يحاكيها الجغرافيون عن أهل المنطقة؛ لأن كثيراً منهم لم يزوروا البلد، وإنما اكتفوا باستخبار القادمين منها كالتجار<sup>(٤)</sup>.

(١) رغم أن الإدريسي طاف بعدد من البلاد فزار الحجاز و تهامة ومصر، وعاش فترة في صقلية ونزل فيها ضيفاً على ملكها روجر الثاني، الذي وضع له خارطة العالم المعروفة باسم "لوح الترسيم" على دائرة من الفضة. وفي إحدى المرات قدم وصفاً عن وضع بلاد السودان ومدنها، إلا إنه اعتمد على الاستماع إلى بعض القصص والروايات. أما ابن سعيد، فقد قام أيضاً برحلة طويلة، زار من خلالها عدداً من البلاد منها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس، وقيل: في دمشق، ولم يزور أكثر البلاد التي ذكرها في جغرافيته، والواضح أنه اعتمد في أغلب معلوماته على مادة الإدريسي وتبويبها (عبد الرحمن حميدة: أعلام الجرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط١، دمشق، دار الفكر، عام ١٩٨١م، ص ٤٨٩، ٣٨٨).

(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، الجزيرة، دار هجر، عام ٢٠٠١م، ج ١٩، ص ٢٣٢ وما بعدها.

(٤) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، جدة، دار البيان العربي، ط (د.ت)، ص ١٠٢.

وهذا الجبل يقع حاليًا على شبه جزيرة خافون (رأس خافون) في شمال الساحل الشرقي للصومال من المحيط الهندي<sup>(١)</sup>. إنن فالمعلومة الجغرافية التي أراد أن يقدمها "المسعودي" والتي كانت أكثر تفصيلاً عن ساحل بلاد الصومال، هي أن لهذه البلاد ساحلين: أحدهما الساحل الشمالي وهو الذي ذكره باسم بريري، والأخر الساحل الشرقي وهو الذي ذكره باسم جفوني. وهذه المعلومة يؤكدها "المسعودي" نفسه بقول: "... كانوا إذا- توسطوا فيه- وحفتهم الأمواج يرتجزون قائلين: بريري وجفوني، وموجك المجنون. جفوني وبريري، وموجها كما ترى"<sup>(٢)</sup>. ويؤكد "ابن سعيد" أيضاً هذا المعنى بقوله: "... وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدّها المسافرون على بعد، ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف"<sup>(٣)</sup>.

وفي موضع آخر يقدم "المسعودي" معلومة أخرى أكثر تفصيلاً عن الحدود الفاصلة لتلك البلاد جهة الشمال، والتي كانت تفصل بينها وبين الحبشة، فقال: "... وبريرا وغيرهم من أنواع الزنج، ... على الخليج البريري، وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزليع وناصع"<sup>(٤)</sup>. وهي نفس المعلومة التي ذكرها عند وصفه لحدود بلاد الحبشة على الساحل جهة الجنوب، فقال: "... ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة، وهو مقابل لبلاد اليمن، فمن مدن الحبشة على الساحل الزليع والدهلك وناصع، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين، إلا إنهم في ذمة الحبشة"<sup>(٥)</sup>.

(١) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية، ص ١١٠.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٨٤.

(٣) كتاب الجغرافيا، ص ٨١؛ بسط الأرض في الطول والعرض، ص ١٤.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٥.

(٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٥.



والمعلوم في ترتيب مواضع هذه المدن على ساحل البحر الأحمر، جاءت من الجنوب إلى الشمال كالتالي: زيلع<sup>(١)</sup>، ثم أرخبيل دهلك<sup>(٢)</sup>، ثم باضع<sup>(٣)</sup> والتي نكرها ناصع؛ وهو أمر اعتاد عليه الجغرافيون المسلمون بوضع الجنوب في رأس خرائطهم، من مبدأ أن العالم يبدأ من جهة الجنوب، وذلك عكس ما نتعامل به في مصوراتنا الجغرافية اليوم<sup>(٤)</sup>. إذن ترتيب

(١) زيلع (زيلا): مدينة في أقصى شمال الصومال على الحدود مع جمهورية جيبوتي، وتطل على الساحل الصومالي من البحر الأحمر على بعد خمسين ميلا جنوب مضيق باب المندب، وتبعد عن مدينة بربرة بحوالي ٢٠٠ كم وإلى الشمال الغربي منها. دخلها الإسلام منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) بعد هجرة العرب للساحل الشرقي لإفريقيا. (زين العابدين عبد الحميد: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي، ص ٢٦؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، ص ٢٦٩).

(٢) دهلك: وهو اسم الجزيرة الرئيسية في مجموعة أرخبيل الجزائر والمعروفة بالاسم ذاته، وتقع في البحر الأحمر قبالة الشواطئ الإريتريّة قرب مدينة مصوّع، ومصوّع هي ميناء بحري تبعد عن العاصمة أسمرة بحوالي ١٠٠ كم شرقاً، وسكان هذه الجزيرة من أصل تكري وهم يتحدثون بهذه اللغة. وقد دخل الإسلام إلى جزيرة دهلك في عهد منقّم جدا. وكانت تتخذ منفي في عهد الأمويين والعباسيين (الشاطر البصلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة، عام ١٩٧٢م، ص ١٤٥؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير مجموعة من المستشرقين، ط ١، الإمارات، مركز الشارقة للإبداع الفكري، عام ١٩٩٨م، ج ١٦، ص ٤٩٥٨؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، ص ٤٦١).

(٣) باضع: تحديداً تقع هذه الجزيرة على الساحل السوداني في جزئه المعروف باسم خور نوارات، على جزيرة صغيرة تعرف باسم جزيرة الريح، وهي تقع على خط عرض ١٨ درجة و ٩ دقائق، وخط طول ٣٨ درجة و ٢٨ دقيقة، وهي قريبة للغاية من خط الساحل، ويكاد يربطها به لسان من الأرض المستوية ليبدو صخرياً في بعض المواقع. (صلاح الدين الشامي: صلاح الدين الشامي: الموانئ السودانية دراسة في الجغرافية التاريخية، القاهرة، مكتبة مصر، عام ١٩٦٢م، ص ٩٦).

(٤) تميزت الخرائط العربية بعدة سمات خاصة، لعل أبرزها وضع الجنوب في أعلى الخريطة، وقد حار الباحثون في تعليل ذلك، ويرجح أن وضع الجنوب في أعلى الخريطة كان له مغزى ديني؛ حيث أن جميع العواصم الإسلامية كانت تقع شمالي مكة (المدينة، الكوفة، دمشق، بغداد، القاهرة)، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتجه في صلاته صوب الجنوب، صوب الكعبة، لذلك كان لا بد أن يوضع الاتجاه الجنوبي في أعلى الخريطة لأن الاتجاه الجنوبي يعني الاتجاه صوب القبلة، وهي أشرف بقعة يتجه إليها المسلمون. كما وأن في وضع الجنوب أعلى الخريطة مخالفة لغير المسلمين، فلو نظرنا إلى خرائط الدولة الرومانية في العصر المسيحي نجد اتجاه الشرق يوضع في أعلى الخريطة، حيث الأماكن المقدسة المسيحية تقع شرقاً في بيت المقدس (محمد محمود محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ط ٣، الرياض السعودية، دار العلوم للطباعة، عام ١٩٩٩م، ص ٢٢٨).



مواضع المدن التي ذكرها "المسعودي" وفقاً للخرائط الحالية تكون معكوسة، وبالتالي تكون زيلع آخر حدود بلاد الحبشة جنوباً، وعندها أول بلاد الصومال شمالاً.

وعلى الرغم من أن "المسعودي" ذكر في عصره أن زيلع تخضع لنفوذ الحبشة وجزء من بلادها، وبذلك تمثل الحد الفاصل بين أرضها وأرض الصومال على ساحل البحر الأحمر، إلا إن سابقه ومعاصريه من الجغرافيين والمؤرخين وكذلك اللاحقين منهم، تباينوا في آرائهم حول وقوع زيلع في تبعيتها ضمن نطاق نفوذ الصومال أو الحبشة أو غيرهما. فنجد مثلاً "اليقوبي" (ت: بعد ٢٩٢هـ/٩٠٥م) الذي يُعد أول من أورد ذكرها في مؤلفه الذي انتهى منه بعد عام (٢٥٨هـ/١٧٢م) بقليل، أي في زمن سابق لعصر "المسعودي" بعدة عقود، والذي جعل فيه زيلع من جزائر اليمن<sup>(١)</sup>.

والمؤكد أن "اليقوبي" لا يقصد بذلك أن زيلع كانت ضمن النطاق الجغرافي لبلاد اليمن، إنما قصد بأنها خضعت في العصر الذي دَوّن فيه كتابه لنفوذ اليمن؛ وتحديدًا لإمارة بني زياد التي سيطرت على منطقة تهامة باليمن، حيث استطاعت تلك الإمارة منذ بداية قيامها عام (٢٠٤هـ/٨١٩م)، أن تخضع معظم جزائر الساحل الأفريقي تحت سلطانها<sup>(٢)</sup>.

وقد أكد هذا الأمر أيضًا "ابن يعقوب الهمداني" (ت: حوالي ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، وهو أحد الجغرافيين اليمنيين المعاصرين "للمسعودي"، وذلك خلال حديثه الذي ذكره عن جزائر البحر الأحمر، فقال: " .. وأما ما يجاور سواحل اليمن من الجزائر التي في البحر المحيط بها فدهلك، وكمران، وهي حصن لمن ملك يمان تهامة - يقصد بني زياد - فجزائر فرسان،

(١) البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (د.ت)، ص ١٥٥.

(٢) إمارة بني زياد هي إمارة نشأت في مدينة زبيد باليمن، أسسها محمد بن عبد الله بن زياد الأموي، وكانت أول إمارة شبه مستقلة في اليمن، عندما أرسله الخليفة العباسي المأمون إلى اليمن حاكمًا باسمه، عام ٢٠٣هـ/٨١٨م، فاخنت مدينة زبيد واتخذها قاعدة لملكه في عام ٢٠٤هـ/٨١٩م، ثم تمكن من فرض سيطرته على منطقة تهامة باليمن، واخضع جميع القبائل العربية النائرة فيها، وأخذ الخليفة المأمون يمدّه بجيش قوي حتى عظم أمره وملك إقليم اليمن بأسره، واستمرت إمارته بوراثته وأبنائه وأخوته حتى عام ٤٠٩هـ/١٠١٩م (عبد الرحمن بن علي الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، عام ١٩٨٣م، ص ٥١، وما بعدها).

فجزيرة زيلع، وفيها سوق يجلب إليه المعزى من بلاد الحبش، فتشتري أهبها ويرمى بأكثر مسالخيها في البحر"<sup>(١)</sup>.

بينما نجد "الاصطخري" (ت: بعد ٣٤٠هـ/٩٥١م) وهو أيضاً جغرافي معاصر للمسعودي، لكنه يتفق معه فيما ذكره من أن زيلع كانت في عصرهما خاضعة لنفوذ الحبشة، فقال: "... وهم متفرقون - أي الحبشة - في ساحل هذا البحر إلى أن يحاذى عدن، وما كان من النمر والجلود الملمعة، وأكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعال تقع منها إلى عدوة اليمن، وهم أهل سلم ليسوا بدار حرب، ولهم على الشط موضع يقال له زيلع، فريضة للعبور إلى الحجاز واليمن"<sup>(٢)</sup>.

والواضح أن زيلع خضعت في إدارتها لنفوذ بني زياد في الفترة التي سبقت زيارة "المسعودي" للمنطقة، لكنها عادت مرة أخرى تحت سلطة الحبشة في عصره. وهذا الأمر أكده "المسعودي" بنفسه، خلال حديثه عن سيطرة بني زياد على بعض جزر البحر الأحمر قبالة اليمن، والتي ما زالت قواتهم قائمة في بعضها حتى وقته، فقال: "... وصاحب زييد في وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب الحرمل، ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمعة، وبينهم مهادنة"<sup>(٣)</sup>.

وبالمقارنة بين التوقيت الذي ذكره "المسعودي" عن انعقاد الهدنة فيه، بين الحبشة وصاحب زييد إبراهيم بن زياد، والذي حكم الإمارة في الفترة من (٢٤٢:٢٨٩هـ/ ٨٥٧:٩٠٢م)، والتوقيت الذي سجل فيه "اليقوبي" معلوماته عن زيلع، أي قبل عام (٢٥٨هـ/٨٧٢م)، يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً فيما قصده "اليقوبي" من جعل زيلع من جزائر اليمن. وبالتالي يمكن لنا القول أن زيلع خرجت عن نفوذ الحبشة منذ بداية القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي)، ثم عودتها مرة أخرى لنفوذ الحبشة في عصر "المسعودي"، حوالي أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي).

(١) صفة جزيرة العرب، ص ٩٣.

(٢) المسالك والممالك، لين هولندا، دار بريل للنشر، عام ١٩٢٧م، ص ٣٥.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٦.

والراجح أن بني زياد تخلت عن إدارة زيلع في ذلك التوقيت؛ لأنها أمست آنذاك تحت سيطرة العناصر المسلمة التي كثرت في هذه البلاد، وهو ما أكده "المسعودي" في هذا التوقيت بقوله: ".. وهذه مدن فيها خلق من المسلمين، إلا إنهم في نمة الحبشة"<sup>(١)</sup>. هذا الأمر الذي يضمن لهم السيطرة عليها بقوة الرابط الديني والانتماء الروحي الذي يجمع بين إمارتهم الإسلامية في اليمن، ومسلمي الزيلع في الحبشة. ولربما هذا الرابط قامت عليه روابط أخرى اجتماعية، أو ولاءات وزعمات سياسية، كانت أكثر تفاعلاً واحتكاكاً. ولم لا!!.. وأن ذلك التوقيت كان شاهداً على بوادر قيام أول إمارة إسلامية في منطقة (شوة) في ما يلي الهضبة الحبشية بظهير زيلع قبل عام ٢٨٣هـ / ٨٩٦م<sup>(٢)</sup>، وذلك بفضل عناصر إسلامية ذات أصول عربية تأقلمت مع البيئة الصومالية<sup>(٣)</sup>. والواضح هنا أن هذه العناصر الإسلامية بدأت تستقل بإدارة زيلع ذاتياً عن نفوذ الحبشة منذ بدايات القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهذا وفق ما أشار إليه "ابن حوقل" (ت: بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، خلال حديثه عن الأحباش، فقال: ".. والجميع أهل سلم وليست دارهم بدار حرب، وعلى شط البحر بنواحيهم منهل يقال له زيلع، فريضة للعبور الى الحجاز

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢، ص ١٥.

(٢) يحتمل أنها قامت أقدم إمارة إسلامية في الحبشة في منطقة شوة، فوق مرتفعات الهضبة الحبشية، حيث تقع مدينة أنيس أبابا الحالية، وذلك منذ عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م، وقد أسسها مهاجرون من قبيلة بني مخزوم العربية القرشية، واستمرت قرابة أربعة قرون، حتى عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، تمتعت خلالها بالأمن والاستقرار والتمتع بالنفوذ والثروة. وظل أمر تلك المملكة الإسلامية المخزومية مجهولاً، إلى أن اكتشف مستشرق إيطالي (روسيني شيرولي) وثيقة عربية، سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م، تعرضت للأحداث التي مرت بها تلك المملكة في أواخر عهدها، حين دب فيها الضعف ومزقت أوصالها الصراعات والمنازعات والحروب، حتى طوتها إمارة أوفات إلى أملاكها عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، أقوى الإمارات الإسلامية آنذاك. (Trimingham: Islan In Ethiopia, London 1952, P.58, Note.T ؛ زاهر رياض: الإسلام في أثيوبيا، ط١، القاهرة، دار المعرفة، عام ١٩٦٤م، ص ٦٤-٧٤؛ إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة، ص ٣٢؛ رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص ٦١-٦٢).

(٣) بولتسكه: هرر والصومال في شرق أفريقيا، لايبزيغ ألمانيا، عام ١٨٨٤م، ص ٢٥-٦٠؛

- Paulischke: Harar Und Somal In East Africa., Leipzig, 1884., P25-60.

واليمين<sup>(١)</sup>. والملاحظ من تحديده لموضع زيلع على البحر بقوله: (بنواحيهم)، إنما هو دليل على خروجها عن نفوذ الحبشة واستقلالها عنها؛ فلو أراد أن يجعلها من بلدانها أو تحت سلطتها، لذكر ذلك كما ذكر غيرها من البلاد. وما يؤكد مقصده استخدامه لكلمة (منهل)، والتي جاءت في معاجم اللغة في العصور الوسطى بمعنى المنزل في المفازة على طريق السفر<sup>(٢)</sup>. وهذا المعنى يتفق تمامًا مع وصف المناطق التي سيطرت عليها العناصر الإسلامية في ظهير زيلع آنذاك، وهي المناطق القريبة الاتصال بالهضبة الحبشية من ناحية الشرق، ويطلق عليها منطقة هرر، وهي التي تفصل الساحل عن الهضبة، لتصل بعدها بوادي نهر أوأش الذي يتيح ممرًا طبيعيًا ضيقًا يربطها بإقليم شوة في المنطقة الوسطى من الهضبة<sup>(٣)</sup>.

وما يؤكد قولنا هذا وصف "ابن حوقل" نفسه عن الحبشة بأنهم أهل سلم وليست دارهم بدار حرب، ولا يعني هذا أن ليس للحبشة قوة عسكرية تستطيع بها ردّ العناصر الغربية عنها من السيطرة على بعض بلادها؛ ولكن يرجع ذلك لما أصاب بلادهم في عصر "ابن حوقل" من اضطراب حال مملكتهم وتعرضها للضعف والانحيار، وهذا الأمر وضحه لاحقًا في كتابه، قائلاً: "وَأَمَّا بِلْدِ الْحَبِشَةِ، فَمَلِكْتُهُمْ مَرَّةً مِذْ سَنُونَ كَثِيرَةً، وَهِيَ الْفَاتِلَةُ لِمَلِكِ الْحَبِشَةِ الْمَعْرُوفِ كَانَ بِالْحَضَانِيِّ، وَهِيَ مَقِيمَةٌ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مُسْتَوَلِيَةٌ عَلَى بِلْدِهَا وَمَا جَاوَرَهَا مِنْ بِلْدِ الْحَضَانِيِّ فِي دَبُورِ بِلْدِ الْحَبِشَةِ، وَهُوَ بِلْدٌ عَظِيمٌ لَا غَايَةَ لَهُ وَمِفَاوِزٌ وَيَرَارِيٌّ يَتَعَذَّرُ مَسَلِكُهَا"<sup>(٤)</sup>.

والواضح من قول "ابن حوقل" أن دولة الحبشة السليمانية كانت في النزع الأخير، فقد قامت بدلاً منها أسرة الأجييين في حكم الحبشة، بعد أن قضت على مملكة أكسوم الضعيفة

(١) صورة الأرض، ص ٦١.

(٢) مادة (نهل) في معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج ٤، ص ٢٧٣؛ الجوهري: الصحاح، ج ٥، ص ١٨٣٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٦٨١.

(٣) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في شرق إفريقيا، ليبيا، ص ١٥٧، ١٥٦.

(٤) صورة الأرض، ص ٦٣.



منذ عام (٣٢٩هـ/٩٤٠م)<sup>(١)</sup>. لتدخل بعدها مملكتهم فيما عُرف بالعزلة الحبشية عن العالم، بعد أن مزقت الحروب والنزاعات السياسية والمذهبية وأوصالها وتقطعت جهاتها، وباتت لا تستطع حماية مواردها وممتلكاتها<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً كتابات "المقدسي"<sup>(٣)</sup> (ت: حوالي ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، والذي كان عصره مقابلاً لنفس العصر الذي شهد تلك الأحداث، ولعله يشير إلى ذلك باستخدام لفظ (وراء) فيقول: **.. والنوبة من وراء مصر، والبجة<sup>(٤)</sup> وراء عيذاب<sup>(٥)</sup>، والحبش وراء زيلع.**

(١) تعرضت مملكة اكسوم الحبشية منذ القرن الأول الهجري (السادس الميلادي) لمشاكل ونزاعات داخلية، انتهت بها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى الدخول فيما عُرف بالعزلة الحبشية عن العالم، إذ تدهورت أحوال المملكة وتمزقت وحدتها واستقلت مقاطعاتها، فاستغل تلك الأوضاع يهود الحبشة (الفلانجا) وقاموا سنة (٣٤٨هـ/٩٦٠م) بثورة عارمة قادتهم فيها امرأة عرفت باسم (استير) أو (جوديت)، أميرة مقاطعة (سمين) اليهودية، واستطاعت اعتلاء عرش المملكة، ينتقل بعدها تاريخ الحبشة تحت حكم أسرة جديدة هي أسرة (الزاجوي)، والتي حكمت الحبشة حتى سنة (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، حيث عانى نصارى الحبشة خلال فترة حكمها من الاضطهاد والتشتت، إلى أن تمكن يكونو أملاك (٦٦٨:٦٨٤هـ/١٢٧٠:١٢٨٥م) الذي زعم أنه من نسل النبي سليمان - عليه السلام - من اعتلاء عرش الحبشة، وتأسيس الأسرة السلطانية التي ظلت تحكم الحبشة حتى هيلاساسي في العصر الحديث (محمد جلاء إدريس: يهود الفلانجا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقتهم بإسرائيل، القاهرة، مكتبة منبولي، عام ١٩٩٣م، ص ٧٧-٧٨).

(٢) رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في إفريقيا الشرقية، ص ٧١.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٤.

(٤) البجة: عرف العرب في العصور الوسطى القبائل التي سكنت الصحراء الشرقية جنوبي مصر باسم قبائل البجة أو البجاة، وأشاروا إلى أن أوطانهم امتدت فيما بين جنوب شرق الصعيد من البلاد المصرية، إلى شمال بلاد النوبة والحبشة، وبين البحر الأحمر شرقاً، ونيل مصر والسودان غرباً. ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً، ونهر العظيرة، ثم النيل الأكبر غرباً، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان في الشمال. وقد تبلغ هذه المساحة حوالي ١١٠,٠٠٠ ميل مربع موزعة بين مصر والسودان وإريتريا. (مصطفى محمد مسعد: البجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢١، الجزء ٢، ديسمبر ١٩٥٩م، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٤-١).

(٥) عيذاب: وهي أكثر موانئ البحر الأحمر شهرة في العصور الوسطى، وقد لعبت دوراً تاريخياً مهماً على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي. وقد استختمت للأغراض الحربية في بداية الأمر، وما لبثت أن أصبحت تستخدم للأغراض التجارية حتى باتت أعظم ميناء تجاري في المنطقة، وبذلك أصبحت مدينة عيذاب أكبر سوق تجاري آنذاك. والآن عيذاب ومينائها أصبحت خرائب تقع شمال حلايب الحالية بنحو ٢٠ كم عند دائرة عرض ٢٠، ٢٢ شمالاً كمكان مندثر. (عبد العال عبد المنعم الشامي: محاضرات في الجغرافية التاريخية، طريق عيذاب قوص خلال العصر الوسيط، القاهرة، عام ١٩٩٨م، ص ٢٨).

ويبدو من وضع كلمة (وراء) وتكرارها بين المواطن والبلدان المذكورة، كأنه أراد أن يجعل بها علامة جغرافية أكثر منها سياسية؛ ليفرق بها بين بدايات ونهايات تلك البلاد، وبالتالي يتبين لنا استقلال البلاد اللاحقة للكلمة عن النفوذ الفعلي للبلاد التي تسبقها. ولكن رغم ذلك الحال في زيلع إلا إنها ظلت المنفذ الوحيد والرئيس لتجارة الحبشة إلى البحر الأحمر حتى زمن "الببروني" (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الذي وصفها في قانونه، بقوله: "زيلع فرضة للحبشة نحو أرض اليمن"<sup>(١)</sup>.

ويعد "البكري" (ت: ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أول من ذكر إشارة صريحة في عصره عن تتمتع زيلع وغيرها من مدن الساحل الشرقي لأفريقيا بحكم ذاتي مستقل عن الحبشة، على أيدي العناصر المسلمة المقيمة فيها، فذكر قائلاً: "... وبلاد الحبشة واسعة جداً، ويتجهز إليهم التجار بالأمته من مصر واليمن، وما يجاورها من بلاد الزيلع وباضع وسواكن"<sup>(٢)</sup> ودهلك، وفي هذه المدائن والجزائر المسلمون والمساجد والحكام..<sup>(٣)</sup>.

والواضح هنا أن هذه العناصر المسلمة استغلت الظروف السياسية وحالة الفوضى التي ألمت بالحبشة، لتبدأ بمرحلة التأسيس الفعلي لبناء الإمارات الإسلامية على بعض مناطق الساحل الشرقي لأفريقيا، فاستطاعت منذ بدايات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، من تأسيس بعض الإمارات الإسلامية بما لديها من أدوات التجارة والروابط الدينية، وخاصة في منطقة الساحل الصومالي وبعض الأجزاء المجاورة لها من بلاد الحبشة، والتي كان من أهمها زيلع كونها محطة تجارية مهمة. حتى اشتهرت هذه الإمارات في القرن السابع

(١) القانون السعودي، ج٢، ص٥٤٨.

(٢) سواكن: مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر في شمال شرق السودان، وكانت تضم ميناء شهير في العصور الوسطى والإسلامية، واستطاعت أن تحل محل عيذاب كمنفذ تجاري لممالك السودان القديمة. هي الآن بلدة مهجورة بعد أن حل مكانها ميناء بور السودان، وهي تقع على خط عرض ١٩,٥ درجة شمالاً، وخط طول ٣٧,٥ درجة شرقاً، في وسط سهل ساحلي منخفض يحاذي البحر الأحمر، وهذا السهل يحده من الشمال كتلة جبلية يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر (محمد صالح ضرار: تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، عام ١٩٩١م، ص٢٣).

(٣) المسالك والممالك، ج١، ص٣٢٧.

الهجري (الثالث عشر الميلادي) وبانت تُعرفت بمصر والشام باسم (بلاد الزيلع)<sup>(١)</sup>. والتي كان يعبر عنها (بممالك الطراز الإسلامي)؛ لأنها على جانبي البحر كالطراز له<sup>(٢)</sup>. ورغم الجهود التي بذلها هؤلاء المسلمون في هذه الفترة، من التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطانها، إلا إنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحي، فكثرت المنافسات واشتدت النزاعات حتى في داخل الإمارة الواحدة ما أضعفها جميعاً<sup>(٣)</sup>. هذا الأمر الذي جعل من السهل على سلطة الحبشة المضطربة أن تخضع تلك الإمارات الإسلامية القائمة بأرضها تحت طاعتها ونفوذها السياسي، وكذلك ما كان مجاوراً لها ببلاد الصومال، وقد استطاعت تحقيق ذلك منذ بدايات القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وقد أكد هذا "الإريسي" (ت: ٥٥٩هـ/١١٦٦م) في عصره، قائلاً: ".. ومن مدن الحبشة الساحلية مدينة زالغ ومنقونة واقت وياقطي إلى ما اتصل بها من عمارات قرى بريرة.."<sup>(٤)</sup>. ثم يذكر في موضع آخر: ".. ويتصل أيضاً بأرض الحبشة على البحر بلاد بريرة وهم تحت طاعة الحبشة وهي قرى متصلة وأولها قرية جوة ومنها إلى باقطي ستة أيام، ومنها أيضاً إلى بظا البرية سبعة أيام ومدينة بظا المتقدم ذكرها فوق خط الاستواء في نهاية المعمور."<sup>(٥)</sup>.

(١) العمري: مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الحبري، بيروت، مطبعة دار الكتب العلمية، عام ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٣٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، مطبعة دار الكتب العلمية، عام ١٩٢٢م، ج ٥، ص ٣٢٤؛ وقد عد القلقشندي الممالك التي اشتهرت بالطراز بسبع ممالك لكل منها ملك مستقل، وهي: وفات أو أوفات وجبرة، ودوارو، وأربيني، وهديّة، وشرحا، ويالي، ودارة.

(٣) إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، ص ٣٤.

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٤٧.

(٥) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٤٣.

والملاحظ من قول "الإدريسي" إنه أول جغرافي عربي يقدم في عصره معلومات أكثر تفصيلاً عن مدن وقرى الصومال وتعيين أسمائها، ونكرها كالتالي<sup>(١)</sup>: تبدأ ب (جوة) وهي التي تقع حالياً في شرق الساحل الشمالي عند منطقة بندر قاسم في بوساسو الحالية من خليج عدن<sup>(٢)</sup>، ثم (قرقونة) شرقاً في رأس جردفون، تتجه جنوباً إلى (برمة) وهي التي تقابل رأس خافون حالياً على الساحل الشرقي، ثم تليها جنوباً (قرى الهاوية) في وادي شمال (مركة) وهي التي تعرف بمركا الحالية في موقعها القائم على الساحل جنوب مَقْدِيَشُو، ثم وضح نهاية بلاد بربرا بطريقة أكثر دقة من الآخرين؛ فذكر أنها آخرها عند بلد (النجا) قبل (بروة)، وبروة هذه هي التي تعرف حالياً بمدينة براوة على الساحل الصومالي، والتي أكد بأنها لم تكن ضمن بلاد البربر، إلا إن جزءاً من أرضها يقع في طاعة ملك البربر، والبعض الآخر في طاعة ملك الحبشة<sup>(٣)</sup>.

ومن وصف "الإدريسي" لخريطته، يتبين لنا أن الحدود التي كانت تفصل بين بلاد البربر (الصومال) والحبشة تبدأ في شرق الساحل الشمالي، ثم تمتد جنوباً على الساحل الشرقي حتى شمال براوة من بلاد الزنج. كذلك أيضاً يتبين لنا أن الزيلع كانت تضم مساحة شاسعة امتدت على طول الساحل الشمالي للصومال شرقاً حتى شمال مدينة الزيلع نفسها غرباً. ولكن من ناحية أخرى نرى في الإشارة التي قدمها "الإدريسي" عن بلاد البربر بأن أهلها مسلمون؛ وذلك خلال من وصفه لودنهم من أهل الزنج جنوباً بأنهم: "كفرة"، وهما يتصلان<sup>(٤)</sup>. إضافة إلى ذلك أن منطقة الزيلع قد تغلغل فيها الإسلام آنذاك!.. تبدو لنا الأسباب الحقيقية وراء سعي السلطة الحبشية من السيطرة على منطقة الزيلع وما مجاورها من أرض الصومال؛ فهذه المناطق أصبحت تمثل تواجد العناصر المسلمة في الساحل الشرقي لأفريقيا، حتى أضحت مستودعاً بشراً هائلاً من العناصر المسلمة المختلفة الحامية منها والسامية، وبالتالي اجتماع تلك العناصر فيما بينها بقوة الرابط الروحي يشكل تهديداً واضحاً ضد سلطتها في المنطقة.

(١) نزهة المشتاق، ج ١، ص ٤٨.

(٢) المسيو جيان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية، ص ١٠٨.

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٥٨.

(٤) نزهة المشتاق، ج ١، ص ٤٩.



والواضح أن مساعي الحبشة وسياستها لم تكن مجدية، بل آلت الى نتائج عكسية غير تلك التي كانت تطمح لها؛ فأخضع بلاد البربر تحت طاعتها جعل من عناصرها رعايا للسلطة الحبشية، وبالتالي أتاح لهم ذلك حرية الحركة والتنقل خارج حدود بلادهم إلى كافة أرجاء المنطقة. وهذا ما تحقق فعلياً منذ نهايات القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). والذي نقله إلينا "ياقوت الحموي" (ت: ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) من خلال الروايات التي سمعها بنفسه عن زيلع، والتي أكدت أن العناصر البربرية استطاعت التوافد على زيلع حتى باتوا من أبرز عناصرها، فيقول: "وحدثني الشيخ وليد البصري وكان ممن جال في البلدان، أن البربر طائفة من السودان بين بلاد الزنج وبلاد الحبش،... وقال: وأكثر من ترى من هذه البلاد من الطائفة المعروفة بالزيلع السودان، إنما هم.. (يقصد البربر)،... وقال: وزيلع قرية على ساحل البحر من ناحية الحبش فيها طوائف منهم ومن غيرهم.."<sup>(١)</sup>.

ولعل ما يؤكد ما طرحنا، ويثبت نشاط وتحرك البرابرة اتجاه الإجراء الغربية من الساحل الشمالي للصومال الحالي، خاصة في المنطقة التي عرفت باسم بلاد الزيلع من الحبشة، هو أن "ياقوت الحموي" نفسه حينما أشار إلى حدود بلاد البربر في مواضع أخرى من معجمه، أكد أن بلادهم لم تتجاوز المناطق التي حددها الجغرافيون السابقون وخاصة "الإدريسي"، والتي تنتهي في الأطراف الشرقية من الساحل الشمالي للصومال، لتمتد جنوباً على الساحل الشرقي من المحيط الهندي. وهذه الإشارة تحديداً قدمها خلال وصفه للبحر الأحمر في اتجاه غربي شمالي، قائلاً: "فالدخل إليه، يكون على يساره أواخر بلاد البربر، ثم الزيلع ثم الحبشة، ومنتهاه من هذه الجهة بلاد البجاء الذين قدمنا ذكرهم، وعلى يمينه عدن ثم المنذب"<sup>(٢)</sup>. وفي موضع آخر أيضاً قدم له وصفاً غيره في اتجاه شرقي جنوبي، قائلاً: "ثم يمتد البحر حتى يتصل ببلاد الحبشة، ثم إلى الزيلع حتى ينتهي إلى مخرجه من البحر الأعظم (المحيط الهندي)، ثم إلى سواحل البربر، ثم إلى أرض الزنج في بحر الجنوب"<sup>(٣)</sup>.

(١) معجم البلدان، ج٣، ص١٦٤-١٦٥.

(٢) معجم البلدان، ج٣، ص٣٤٤.

(٣) معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٨.

وبما أن كتابات "الحموي" توضح أثر الإسلام في تقوية الروابط التي صارت بين البربر والأحباش في زيلع على الساحل الشمالي للصومال، فأنها أيضاً تشير في مواضع أخرى إلى نفس الدور في قيام روابط أخرى أقوى، ولكن هذه المرة بين البربر والعرب على الساحل الشرقي للصومال في مَقْدِشُو<sup>(١)</sup>، فقد أشار خلال وصفه لبحر الزنج<sup>(٢)</sup> إلى سماح البربر للعرب الوافدين بالاستيطان والإقامة الدائمة ببلادهم، قائلاً: "ولهم هناك مدن أجملها مَقْدِشُو، وسكانها عرباء واستوطنوا تلك البلاد، وهم مسلمون، طوائف لا سلطان لهم لكل طائفة شيخ يأترون له، وهي على برّ البربر"<sup>(٣)</sup>. ثم أضاف في موضع آخر خلال حديثه عن مَقْدِشُو نفسها، إلى مدى الترابط الذي صار بين البربر وهذه العناصر العربية وتوافقهما على نظم الإمارة رغم كونهم غرباء، فقال: "هي مدينة في أول بلاد الزنج في جنوب اليمن في برّ البربر في وسط بلادهم....، وهي على ساحل البحر وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم إنما يدبرّ أمورهم المتقدمون على اصطلاح - اتفاق - لهم"<sup>(٤)</sup>.

ويبدو إن هذه الروابط القوية ظلت قائمة بين العنصرين البربري والعربي في الساحل الغربي للصومال حتى منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). وهذا الذي

(١) مَقْدِشُو أو مَقْدِشُو: وتنطق بالصومالية (مَقْدِشُو)، هي عاصمة جمهورية الصومال وأكبر مدنها التي تقع على الساحل الغربي للمحيط الهندي، وقد تتضارب الآراء نحو تفسير اسم المدينة، فذهب البعض أنها تتكون من كلمتين: أحدها عربية والأخرى فارسية وهما (مقعد + شاه) تنطق معاً بمعنى (مقعد الشيخ)، وهي إشارة إلى المكان الذي اتخذته الحاكم مقرّاً لحكمه ومكان جلوسه. وبعضهم قال إنها بمعنى المكان الذي تتجمع فيه الأغنام للبيع. وعبر عنها الرحالة الغربيون بأسماء مختلفة مثل: (موجوديشيو Mougidshu) و (موجود سكوا Mougoudiskua) و (موجاديشوا Mougadishu) و (مقدشيكو Makdishiku) و (مقديكسو Magdiksu) أو (مجد كسو Magdiksu) وكل حسب نطقه (حمدي السيد سالم: الصومال قديماً وحديثاً، ص ٣٥٦-٣٥٧).

(٢) بحر الزنج: هو وصف أطلقه الجغرافيون المسلمون على المنطقة الواقعة في الغرب من المحيط الهندي قبالة سواحل كينيا وتنزانيا.

(٣) معجم البلدان، ج ١، ص ٣٤٣.

(٤) معجم البلدان، ج ٥، ص ١٧٣.

أخبر به "القرويني" (ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) في عصره، فقال عن مَقْدِشُو: "... مدينة في أول بلاد الزنج، في جنوبي اليمن على ساحل البحر. وأهلها عرباء لا سلطان لهم، ويدبر أمرهم المتقدمون على الاصطلاح"<sup>(١)</sup>. وكل هذه الدلائل توضح مدى انتشار الإسلام بين البربر في ذلك الوقت، على مستوى الصعيدين الداخلي والخارجي من بلادهم. فقد عمَّ الإسلام آنذاك غالبية أرجاء القرن الأفريقي، وقد أكد هذا "ابن سعيد المغربي" (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في مصنفاته الجغرافية، فذكر أن الإسلام انتشر بين البربر فقال عنهم: "وبربرا قاعدة البرابر...، وقد أسلم أكثرهم"<sup>(٢)</sup>. أما عن انتشاره في بلاد الحبشة، فكان في المناطق الساحلية منها، فقال: "وهم نصارى وفيهم بالساحل مسلمون"<sup>(٣)</sup>.

والواضح أن مع مرور الزمن وازدياد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية، وتزايد نشاط الدعاة في بلاد البربر وساحل الحبشة من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعي وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، كان لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية، فتحوّلت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة مشهورة على حد قول "ابن سعيد"، امتدت من بلاد البربر في جنوب الساحل الشرقي للصومال، إلى سواحل ووسط الحبشة في شمالاً، فكان وصفه لمدن البربر هكذا: "... من بلاد بربرا المشهورة على البحر مركه ...، وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية"<sup>(٤)</sup> التي تنيف على خمسين قرية... وفي شرقي تلك مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع والمتردة الذكر على ألسن المسافرين وهي مقدشو"<sup>(٥)</sup>. أما وصفه عن مدن

(١) القرويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ط (د.ت)، ص ٦٢.

(٢) كتاب الجغرافيا، ص ٨٢؛ وأيضاً ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، ص ١٤.

(٣) الجغرافيا، ص ٩٧؛ بسط الأرض، ص ٣٠.

(٤) الهاوية: هي قبائل صومالية أتخذت من مَرَكَة أو مَرَكَا مركزاً لتجمعها، ومركة هي المدينة الساحلية التي تقع على الساحل الشرقي للصومال من المحيط الهندي على بعد حوالي ٩٢ كم جنوب العاصمة مقديشو، وقد ذكرها "الإدريسي" سابقاً في عصره والتي وصفها بأنها: "بلاد صغار كالقرى يقال لها الهاوية" (نزهة المشتاق، ج ١، ص ٤٨). ومن هذا الوصف ومقارنته بوصف "ابن سعيد" يتضح لنا مدى التغير الذي طرأ عليها.

(٥) الجغرافيا، ص ٨٢؛ بسط الأرض، ص ١٤.

الحبشة الإسلامية فقال: "من مدن الحبشة المشهورة بلاد الزيلع، وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محل حظ وإقلاع"<sup>(١)</sup>.

والواضح أن مَقْدِشُو في الجنوب وزيلع في الشمال صارت أرضهما أهم منفذين لتياري العروبة والإسلام في المنطقة، وقد استمرت هذه المدن الإسلامية في الشهرة والازدهار حتى باتت في بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، تُعرَف بها معالم المنطقة في الأوساط الجغرافية لهذا العصر. فها هو شيخ الربوة "الدمشقي" (ت: ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، حين قدم وصفاً للساحل الشرقي للقرن الأفريقي، والذي عرف ببحر الزنج قال عنه: "ويسمى بحر بربرا ومقدشو الحمرا،.. وهو معمور بالسودان المسلمين ومذهبهم زيديّة"<sup>(٢)</sup> وشافعية"<sup>(٣)</sup>. أما الساحل الشمالي منه فعرفه في جزئه من عدن قبالة اليمن بـ "بِرّ زيلع"، بينما قال عن جزئه من البحر الأحمر: "بحر القنزوم يسمى بحر موسى وبحر الزيلع"<sup>(٤)</sup>.

وبذلك يمكن القول أن منذ نهايات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قد تحقق ما كانت تخشاه الحبشة من اتحاد كافة العناصر المسلمة في المنطقة القرن الأفريقي، وأن سعيها في الحيلولة دون ذلك قد باء بالفشل؛ فقد تأصل الإسلام في المنطقة وتغلغل في نفوس عناصرها المختلفة من عرب وبربر وأحباش، وترسخ مبدأ أخوة الدين والعقيدة لا الوطن والجنس، فالانتماء في دولة الإسلام للدين لا لأعراق، فقبل ذلك الزمن بدأت تتشكل دولة الإسلام في المنطقة بعدما بدأت أول أمرها بإمارات ضعيفة متفرقة. ويمكن معرفة دور الإسلام في ذلك الزمن في هذه المنطقة، من خلال تلاقي عناصرها وترابطهم بإقامة تحالف

(١) الجغرافيا، ص ٩٩؛ بسط الأرض، ص ٣٢.

(٢) الزيديّة: هي فرقة دينية من أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثرها اعتدالاً، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسمي أتباعه بالزيديّة لخروجهم معه في ثورته على الأمويين زمن هشام بن عبد الملك على أثر الخلاف بين الأمويين والعلويين، وقد قام مذهبهم بالأصل على فكرة الخروج على الحاكم الظالم.. ولتفاصيل أكثر انظر (محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهيّة، القاهرة، دار الفكر العربي، ط (د.ت)، ص ٤٠-٤٤).

(٣) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، ص ١٦٢.

(٤) الدمشقي: نخبة الدهر، ص ١٩، ص ١٦٥.

إسلامي عُرف باسم (بلاد الزيلع أو الزبالعة)، تحت زعامة إمارة (أوفات)<sup>(١)</sup> أقوى الإمارات الإسلامية آنذاك، بعدما استطاعت ضم جميع الإمارات الإسلامية في بلاد الحبشة والصومال بما فيها إمارة مَدْيَشُو، حتى أصبحت مساحتها تفوق أراض مملكة الحبشة المسيحية التي قامت في جزء كبير من أرضها<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال الشواهد السابقة يتبين لنا أن كامل سواحل القرن الأفريقي بما فيها من بلاد الصومال، باتت تُعرف منذ بدايات القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) باسم "بلاد الزيلع أو الزبالعة". ويؤكد ذلك جغرافي هذا العصر ك"ابن الوردي" (ت: ٥٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، الذي عندما قدم وصفاً للبحر الأحمر في كتابه، ذكر أن بلاد البربر تجاور الحبشة في الجنوب منه<sup>(٣)</sup>. في حين عندما رسم خريطته للعالم في بداية كتابه نفسه، وضع اسم الزيلع بدلاً من البربر بين الحبشة والزنج؛ والواضح أنه قام بذلك؛ لأن أسماء الأماكن في الخرائط تُعين بوضع الاسم الأعم والأشهر. ولو افترضنا جدلاً أنه قصد بزيلع (الميناء) فلمَ لم يُعين ما هو أهم منها وأشهر في المنطقة أو غيرها بخريطته.

وهذا القول أيضاً يؤكد كذا "ابن بطوطة" (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) خلال وصف رحلته التي قام بها للمنطقة في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، ولكن بعبارة صريحة وأكثر وضوحاً قال

(١) أوفات أو جبرة: هي إمارة إسلامية تأسست على يد أبناء أسرة تاجر عربي كان يسمى "عمر" ولقب بـ "وَلَشَمَع"، والذي ينتمي إلى قريش من ولد عبدالدار أو من بني هاشم، من ولد عقيل بن أبي طالب، حيث ولاه "الحطّ" ملك الحبشة أعمال مدينة أوفات، والتي تقع في الغرب من زيلع، في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ومنذ تأسيسها أخذت على عاتقها تحرير أوفات من التبعية الحبشية المسيحية، والاستقلال بالأمر، ونشر الدين الإسلامي، حتى استطاعت تكوين تحالف إسلامي كبير عرف باسم "بلاد الزيلع، والتي امتد سلطانها على أراضي شاسعة في منطقة القرن الإفريقي، والتي تتمثل الآن فيما يعرف بجيبوتي، والجزء الجنوبي من إقليم إريتريان وسهول الدناكل، وتمتد جنوباً لتضم الجزء الشرقي من حوض نهر أوّاش الأثيوبي، وكذلك الهضبة الصومالية بما فيها من منطقة هرر والأوجادين، وتمتد شرقاً لتشمل جزءاً كبيراً مما يعرف الآن بالصومال الشمالي بما فيه من مينائي زيلع وبريرة (رجب محمد عبدالحليم: العروبة والإسلام في أفريقيا الشرقية، ص ٨٩).

(٢) Trimingham: Islam in Ethiopia, Oxford, 1952, p69.

(٣) خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٩١.

فيها: " ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين. أولها زيلع، وآخرها مقدشو"<sup>(١)</sup>.

أما كتابات "أبو الفداء" الجغرافية (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م) لم نتطرق لها، رغم أنه قدم وصفاً لبلاد البربر والزيلع والحبشة وحقق مساحتها<sup>(٢)</sup>؛ إلا إنه لم يضيف معلومات جديدة تمثل وصفاً لواقع تلك البلاد في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، بالرغم من أنه معاصراً للدمشقي "وسابقاً" لابن الوردي" و "ابن بطوطة"، فقد اعتمد في وصفه وتحقيق أمر المساحة على الاقتباس من سابقه وخصوصاً جغرافية "ابن سعيد المغربي"، وهو لم يخف ذلك.

ولكن تأكيداً لاختفاء اسم البربر عن بلاد الصومال في نهايات القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بعدما صارت جزءاً من بلاد الزيلع، فهذا هو أيضاً "ابن الشحنة" (ت: ٨١٥هـ/١٤١٢م) من جغرافي هذا العصر، حين قدم وصفاً للسودان قال: " .. فمنهم الحبوش، وبلادهم تقابل الحجاز بينهما البحر، وتجاورهم في الجنوب الزيلع، والغالب عليهم دين الإسلام"<sup>(٣)</sup>. ومن التمعن في هذا القول يتأكد أن البلاد المقابلة لليمن من أرض السودان في القرن الإفريقي، صارت في عصره تُعرف بالزيلع.

وبوصولنا إلى سر اختفاء اسم البربر على المناطق الصومالية، ليحل محله اسم الزيلع عليها، ثم تكاملها ثقافياً واجتماعياً حتى شاع عنها اسم بلاد الصومال في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، نكون قد وصلنا أيضاً إلى نهاية هذا البحث؛ والذي أردت فيه تسليط الضوء على كتابات الجغرافيين للمنطقة الصومالية من مختلف الكتب الجغرافية في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري (التاسع إلى الرابع عشر الميلادي)؛ لعلني أكون قد ساهمت في كشف بعض جوانب تاريخ أرضنا الصومالية المدفون بين الكتب.

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، ص ٢٦١.

(٢) تقويم البلدان، ص ١٥٢:١٦٣؛ وأيضاً أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، عام ١٣٢٥هـ، ج١، ص ٩٥.

(٣) ابن الشحنة: روضة المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد محمد مهني، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، عام ١٩٩٧م، ص ٦٣.

### الخاتمة:

إن نخرج بخلصة مهمة، وهي أن اسم بلاد بربري أو بربرا أو بريرة أو بربر الذي شاع عند وصف البلاد الصومالية منذ أقدم الحضارات عبر عصور، يقصد به العناصر التي كانت تقيم بأرض الصومال، والذي لم يبق منه سوى اسم مدينة بريرة الساحلية شمال الصومال؛ وكأنها أبت إلا إن تذكرنا بزمان كان اسم البربر اسماً شائعاً على هذه البلاد في إحدى حقب التاريخ.

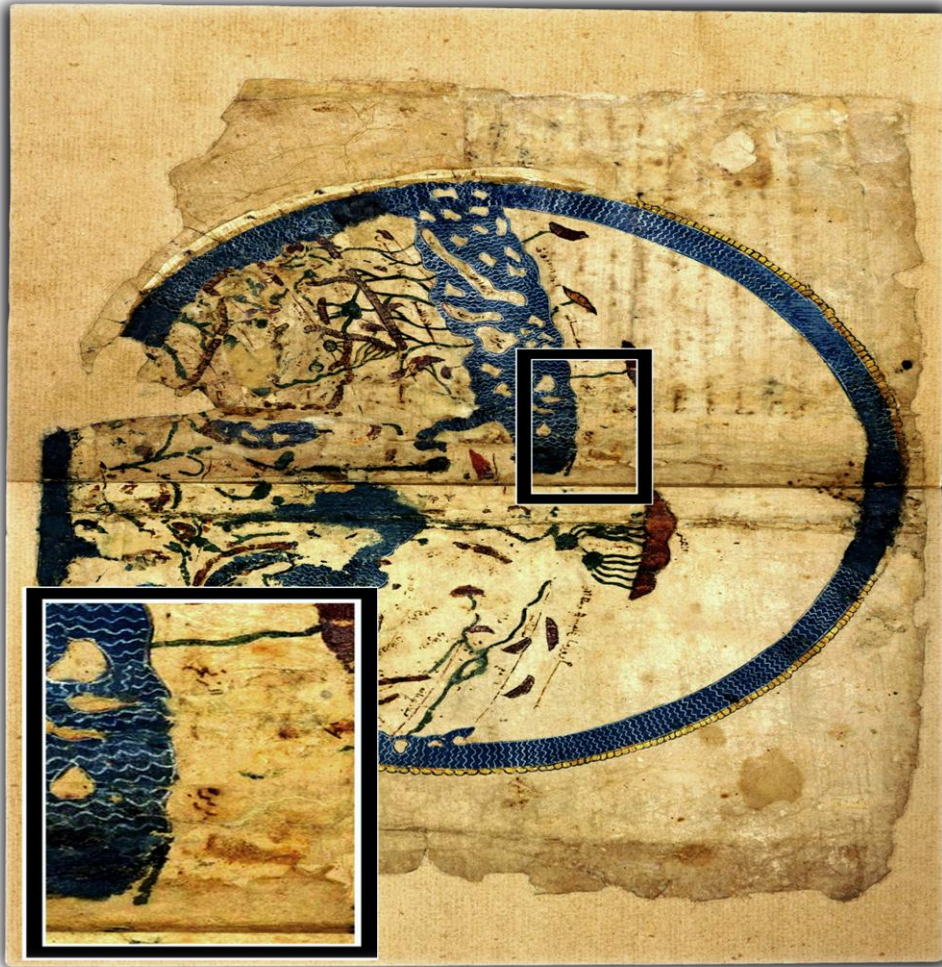
ومن ذلك نؤكد أن اسم البربر الذي اشتهرت به الأراضي الصومالية، وقد شاع تداوله في فترة من الزمن امتدت على أقل تقدير منذ القرن الأول الميلادي، حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ليحل بعده اسم بلاد الزيلع أو الزيالعة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، إلى ظهور الاسم الحالي (الصومال) في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

وقد أبرزت مصنفات المؤرخين والجغرافيين والزَّحالة في العصر الإسلامي، في الفترة من القرن الثالث إلى الثامن الهجري (التاسع إلى الرابع عشر الميلادي)، الأثر الواضح للإسلام في تشكل المجتمع الإسلامي بالصومال بين عناصره المختلفة من بربر وعرب، ووقوفهم ضد الاضطهاد الحبشي المسيحي والعدوان الأوربي، وتمسكهم في أحلك الظروف بعقيدتهم وثقافتهم الإسلامية العربية، حتى أعقب ذلك اسم الصومال يتردد كثيراً لاسم دولة عربية إسلامية، كانت أرضها شاهدة في العصور الإسلامية على حضارة المسلمين في ساحل شرق أفريقيا عامة والقرن الإفريقي خاصة.

### الملاحق:

#### ملحق (١)

بلاد بربرة في خريطة العالم بأقدم مخطوطة لكتاب "الإدريسي" (نزهة المشتاق)<sup>(١)</sup>.



(١) مخطوطة محفوظة الآن بمكتبة فرنسا الوطنية، تحت رقم: (MS Arabe 2221)، ورقة: (١٥، ١٦)،  
المكتبة الرقمية العالمية، موقع:

<https://www.wdl.org/ar/item/18418/view/1/14>



## ملحق (٢)

بلاد بريرة تظهر بوضوح في مخطوطة أخرى لخريطة العالم نُسخت من خريطة كتاب الإدريسي (نزهة المشتاق)، في القرن التاسع الهجري بالقاهرة<sup>(١)</sup>.



(١) مخطوطة محفوظة بمكتبة بودليان بأكسفورد، برقم: (Ms. Pococke 375 fol. 3v-4) ينشرها موقع: <https://sindominio.net/labiblio/varios/IdrisiMap.jpg>

### ملحق (٣)

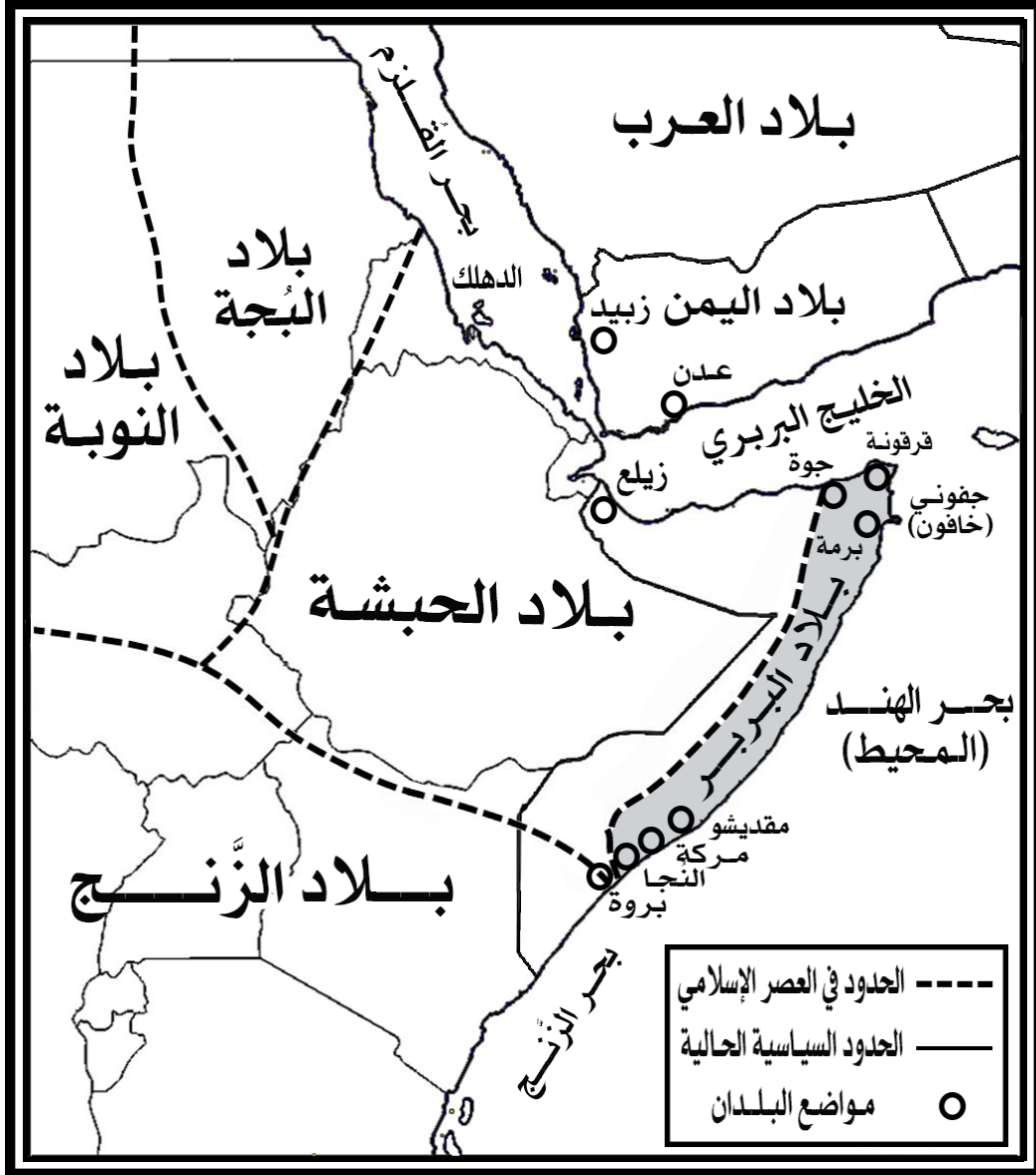
بلاد الزيلع تحل بدلا من بلاد البربر في خريطة العالم من مخطوطة كتاب "ابن الوردى" (خريدة العجائب)<sup>(١)</sup>.



(١) مخطوطة محفوظة الآن بمكتبة الكونغرس الأميركية ، تحت رقم: (near east: sm 3)، ورقة (٢٦)،  
المكتبة الرقمية العالمية، موقع: [https://dl.wdl.org/11218\\_1\\_26.png](https://dl.wdl.org/11218_1_26.png)

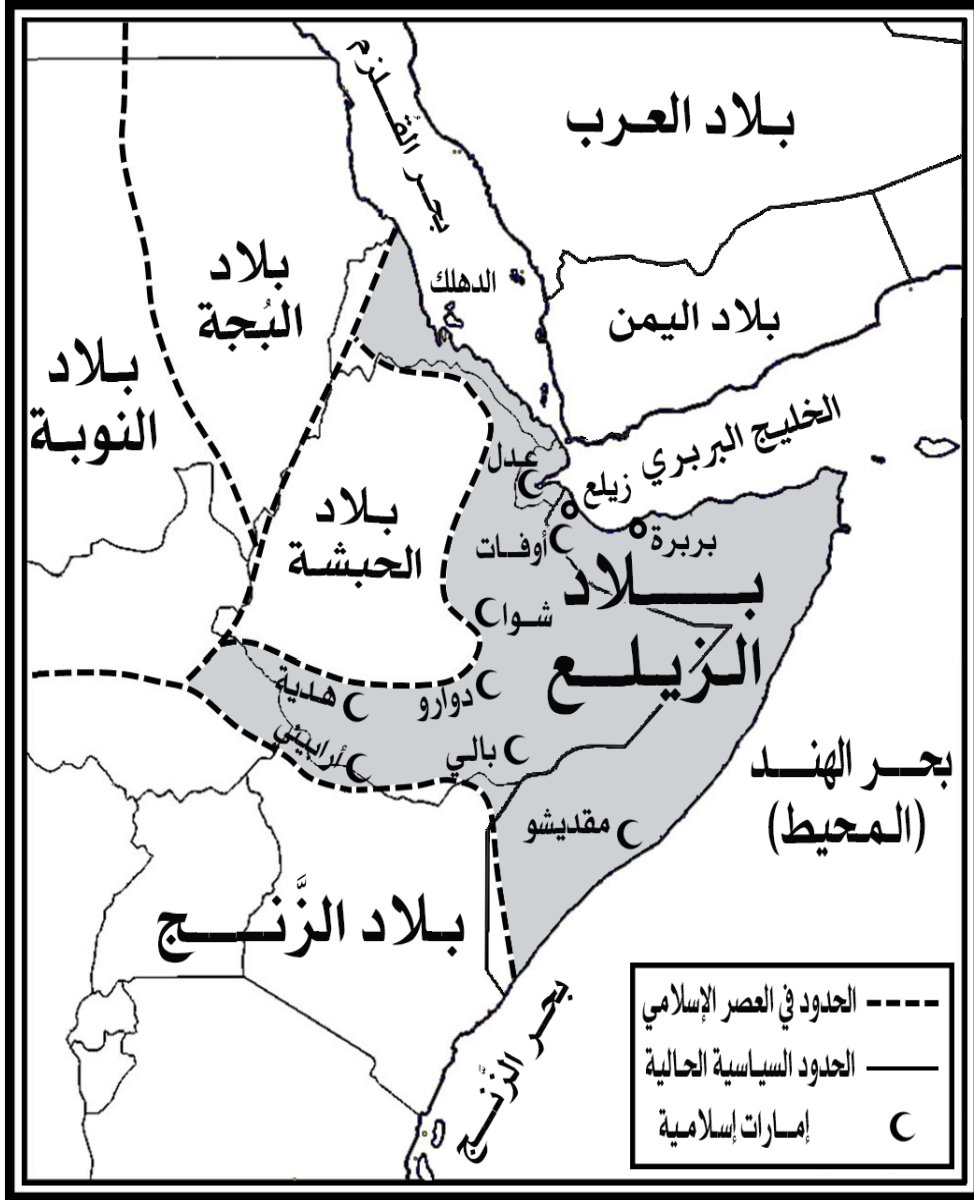
### ملحق (٤)

خريطة توضح بلاد البربر في العصر الإسلامي في الفترة من القرن الثالث إلى السادس الهجري (إعداد الباحث).



### ملحق (٥)

خريطة توضح بلاد الزيلع في العصر الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين  
(إعداد الباحث).



## السلع والأسواق في بلاد المغرب على ضوء

كتاب المسالك والممالك للبكري (ت ٥٤٨٧/هـ ١٠٩٤م)

**د. حسام حسن إسماعيل**

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة المنيا

### ملخص البحث:

كانت بلاد المغرب سوقا رائجا للسلع والأسواق، نظرا لتفردها المكانية والجغرافية، الأمر الذي أسهم إلى وفرة السلع بأشكالها في ذلك الوقت، مما استرعى نظر أبي عبيد الله البكري فوقف ساردا وواصفا ما زخرت به مدن المغرب من سلع وأسواق، من خلال مؤلفه المسالك والممالك،

ويحاول هذا البحث أن يقف على ما كتبه البكري مصنفا إياه، وعارضا لما دون، آملا أن يلقي البحث الضوء على السلع والأسواق في بلاد المغرب في كتابه. ويعد كتاب المسالك والممالك وهو موضوع هذا البحث من أهم المؤلفات التي ألفها البكري في الجغرافيا وقد اهتم فيه بعرض البلدان والبقاع، وقد تم تقسيم الكتاب إلى جزأين، ويتضح من حديث البكري في الجزء الثاني من الكتاب أنه خصص جزءا من مؤلفه للحديث عن بلاد المغرب وما تضمنته هذه البلدان من سلع وأسواق، وبإعادة تبويب ما قدمه يمكننا أن نصنف ما قدمه بشأن بلاد المغرب عبر حديثه عن سلعها وأسواقها في المحاور التالية:

- المحور الأول: السلع الزراعية.
- المحور الثاني: السلع الصناعية.
- المحور الثالث: الأسواق.

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج التالية أهمها:

- ١- رصد البكرى فى مؤلفه كافة السلع الزراعية فى بلاد المغرب ونبوه على أنه غض الطرف عن بعضها فى الوقت الذى أشار إليها سابقوه.
- ٢- صنف البكرى فى مؤلفه المسالك والممالك العديد من المنتجات الصناعية التى تفنن سكان بلاد المغرب فى تصنيعها، وكان للسلع الصناعية مكانتها المتفردة فى بلاد المغرب، وجاء هذا التفرد حاملا معه خصوصية المنتجات الصناعية التى تميزت بها هذه المنطقة، الأمر الذى انعكس بدوره على الحالة الاقتصادية لأهل هذه البقعة المكانية، وعد رافدا اقتصاديا لا يستهان به.
- ٣- تعد الأسواق من أهم مميزات بلاد المغرب، وقد اشتهرت هذه البلدان بتجاريتها الداخلية والخارجية، وقد أشار البكرى فى حديثه عن بلاد المغرب إلى وجود عدد كبير من الأسواق، وهذا الأمر مرده من وجهة نظرى لحجم السلع الزراعية والصناعية التى حظيت بها بلاد المغرب والتى دأب أهلها على تجويدها والعناية بها.

**Commodities and markets in Maghreb countries in the light  
of the Roads and Kingdoms Book**

**By Al-Bakri**

**(Died in 487 H/1094 A.D.)**

---

**Hussam Hassan Ismail**

**Lecturer of Islamic History and Islamic Civilization**

**Faculty of Dar Al-Uloom – Minya University**

---

Maghreb (Northwest African) countries were a popular market for commodities and markets, due to their spatial and geographical uniqueness, which contributed to the abundance of commodities of all kinds at that time, drawing the attention of Abu-Ubaydallah Al Bakri to narrate and describe the goods and markets that Maghreb cities have been full of through his book "Roads and Kingdoms".

This research tries to point out what Al-Bakri wrote, classifying it, presenting what he has recorded, and hoping that it will shed light on the commodities and markets in Maghreb countries in his book.

The Roads and Kingdoms book, which is the subject of this research, is one of the most important books that Al-Bakri wrote in geography, and in which he was interested in displaying the countries and spots. The book was divided into two parts. The second part of the book shows that it is devoted to the talk about Maghreb countries and their commodities and

markets. After reclassifying what he presented, we can classify his presentation on Maghreb by talking about its commodities and markets in the following axes:

- First: agricultural commodities.
- Second: Industrial commodities.
- Third: Markets.

The research has reached a set of the following conclusions, the most important of which are:

1. 'Al-Bakri' observed all agricultural commodities in Maghreb and we note that he turned a blind eye to some of them at the time his predecessors referred to them.
2. Al-Bakri classified in his book 'Roads and Kingdoms' many industrial products that the people of Maghreb mastered in their manufacture. Industrial commodities had a unique position in Maghreb countries. This uniqueness was carrying the peculiarity of industrial products that characterized this region. This, in turn, was reflected in the economic situation of the people of this spatial area, and it was considered an economic support that cannot be underestimated.
3. The main feature of Maghreb countries is markets. They have been famous for their internal and external trade. Talking about Maghreb countries, Al-Bakri pointed out that there are many markets, which is due in my view to the size of the agricultural and industrial commodities that Maghreb countries have had and that the people have been improving and caring for.



والبكري هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب<sup>(١)</sup>، وهو من نسل قبيلة بكر بن وائل<sup>(٢)</sup>، ولد عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠م<sup>(٣)</sup>، وقد نشأ البكري في بيت إمارة بالأندلس<sup>(٤)</sup>، فكان جده الأكبر أيوب بن عمرو البكري صاحب خطة الرد بقرطبة، وقاض بمدينة لبلة<sup>(٥)</sup>، وامتاز بالجاه والحسب<sup>(٦)</sup>، وكان والده أبو عزيز البكري أميراً بلبله، وصاحب جزيرة شلطيّش<sup>(٧)</sup>، واستمر حاكماً بهما فترة طويلة حتى انهزم من المعتضد بن عباد<sup>(٨)</sup> عام

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١٩، ص ٣٥.

(٢) بكر بن وائل: وهي من أقدم القبائل في بلاد العراق، وتنقسم لعدة أفرع: بنو شيبان، بنو عجيل، اللهازم (عباس العزاوي: موسوعة عشائر العراق القديمة البدوية الحاضرة، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ج١، ص ٩٣:٩١).

(٣) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٨٦م، ص ١١٥.

(٤) ابن بسلام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، مج ٢ ق ١، ص ٢٣٢.

(٥) لبلة: مدينة كبيرة بالأندلس تقع غرب قرطبة، وهي مدينة برية، وبحرية، وتتميز بكثرة الثمار، والزروع، والشجر (ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ٥، ص ١٠).

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري-، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان - ليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٨٣م، ج ٣ ص ٢٤١.

(٧) جزيرة شلطيّش: هي جزيرة تطل على مدينة لبلة، ليس لها سور بل هي بنيان مرتبط ببعضه البعض، وبها أسواق، وتشتهر بمعدن الحديد الذي يستخدم في صناعة السفن (الإديسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، مج ١، ص ٥٤٢).

(٨) المعتضد بن عباد: هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي الأندلسي، صاحب إشبيلية، وكان شهماً، مهيباً، شجاعاً، متخذاً نفس الخصال التي كان عليها والده، وكانت وفاته عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م (الذهبي: سير أعلام النبلاء، رتبته واعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٢١١٦).



٤٤٤٣هـ/١٠٥١م<sup>(٩)</sup>، فخرج أبو عبيد البكري منها واتجه إلى قرطبة<sup>(١٠)</sup>، ثم اتجه بعد أن ذاع صيته علمياً إلى محمد بن معن صاحب مدينة المرية الذي اصطفاه وقربه منه مستأنساً بمجلسه، كما قام بزيادة راتبه<sup>(١١)</sup>.

ويعرف عن البكري بأنه من أهل اللغة والعلم والأدب<sup>(١٢)</sup>، وكان له العديد من المؤلفات التي دلت على سعة علمه وقدرته على جمع واستيعاب الكثير من العلوم مثل: اللغة، والأدب، والجغرافيا، والنبات، حتى أن ملوك الأندلس كانت تتهاذى مصنفاته<sup>(١٣)</sup>، ومن أهم مؤلفاته في اللغة والأدب كتاب "التببيه على أوهام أبي علي في أماليه"<sup>(١٤)</sup>، وكتاب "سمط اللآلي في شرح أبي علي القالي"<sup>(١٥)</sup>، وكتاب "صلة المفصول ونسبة المجهول في أبيات الغريب المصنف"، وكتاب "اشنقاق الأسماء"، وكتاب "شفاء عليل العربية"، وكتاب

(٩) ياقوت الحموي: معجم الأديباء، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٣م، ج ٤ ص ١٥٣٤؛ حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، ص ١١٥.

(١٠) قرطبة: مدينة كبيرة تقع في وسط الأندلس (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٣٢٤).

(١١) الصفي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط- تركي مصطفى، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ١٧، ص ١٥٦.

(١٢) ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م، ج ١، ص ٣٧٦.

(١٣) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق آرنؤاش آرنؤوش، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوى- الجيلاني بن الحاج يحيى- محمد المرزوقي، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ٤٧٥.

(١٤) وقد ألف البكري هذا الكتاب لإصلاح ما وجد من أخطاء في كتاب الأمالي (البكري: التببيه على أوهام أبي علي في أماليه، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ٢٠٠٠م، ص ٣).

(١٥) وفيه شرح البكري النوار التي أهملها القالي في أماليه، وبين معاني منظومها ومنثورها، كما إنه وصل من الشواهد والأشعار ما قطع، ونسب قائل الشعر الذي أهملهم القالي إلى قائله، وكان يرد البيت المغفل والشعر المجرد (البكري: سمط اللآلي، نسخة مصححة ومنقحة بمعرفة عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الكويت، ١٣٥٤هـ/١٩٦٣م، ص ٣).



"الإحصاء لطبقات الشعراء"، ومن مؤلفاته في الموسوعات : كتاب "التدريب والتهديب في ضروب أبواب الحروب"، وكتاب "النبات"، وكتاب "أعلام نبوة نبينا محمد (ﷺ)"، ومن مؤلفاته في الجغرافيا كتاب "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"<sup>(١٦)</sup>، وكتاب "المسالك والممالك" وهو موضوع هذا البحث وكان هذا الكتاب من أهم المؤلفات التي ألفها البكري في الجغرافيا، وقد اهتم فيه بعرض البلدان والبقاع، وقد ذكر المحقق بأن البكري لم يرتحل ولم يشهد أيًا من هذه البلدان أو البقاع، ولكنه اعتمد في كتابه على من سبقوه من الرحالة والجغرافيين<sup>(١٧)</sup>، وقد قام بتقسيم كتابه المسالك والممالك إلى جزأين: بدأ الجزء الأول بالحديث عن القول في عمارة الأرض، ومبدأ الخلق واليوم الذي نشأت فيه، ثم قام بذكر إبليس وميلاد حواء، وكيفية تكوين الجنين، ثم ذكر وفاة آدم، وبعده قام باستعراض عام للأتبياء، وتناول بعدها جزيرة العرب وبعضها من أخبارها، تلاها بالحديث عن مذاهب العرب، ثم تناول البيوت المعظمة لدى الجاهليين، واليونانيين، والصقالبة، والصابئة، وبيوت النيران، وبدأ بعد ذلك بتفصيل للأرض والبحار والأنهار، ثم ابتداءً بذكر الممالك، فتناول ممالك الهند، والصين، والترك، والسريانيين، وبلاد السند، والفرس، وملوك اليونان، والروم، والسودان، والبربر، والواحات، والإفرنجية، والجلاتقة، والأكراد، وملوك اليمن، وختم الجزء الأول بما اختصت به جزيرة العرب وأهم من وجد بها من أحداث تاريخية<sup>(١٨)</sup>.

ثم بدأ الجزء الثاني بالحديث عن ذكر بلاد العراق والمشهور من مدنها، ثم عرض لبلدان المشرق الإسلامي، وذكر الشام ومدنها، والروم وأخبارها ومذاهبها والخراج بها، ثم

(١٦) وقد تناول فيه البكري جملة ما ورد في الحديث والأخبار، والتواريخ والأشعار من المنازل والديار، والقرى والأمصار، والجبال والآثار، والمياه والآبار، وقد استند فيه البكري إلى كتاب الهمذاني صفة جزيرة العرب، فنقل عنه واستند إليه، وقام بترتيبه ترتيباً أبجدياً حتى يسهل على الناس قراءته (البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ص ١).

(١٧) جمال طلبية: مقدمة المسالك والممالك، ص أ، ب.

(١٨) البكري: المسالك والممالك، ج ١ ص ٣٣٣ : ٣٣٦.



تتاول المغرب ومصر وبعضاً من أخبارها، وتلاها بنبذة عن سير البربر وأخبارهم وسياستهم، وذكر بلاد الأندلس والمشهور بها وغريب الأخبار، ثم كانت خاتمة الجزء الثاني بذكر بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصارى<sup>(١٩)</sup>.

ويتضح من تقسيمنا لمحتوى الجزء الثاني من كتاب المسالك والممالك موضوع البحث أن البكري خصص جزءاً من مؤلفه للحديث عن بلاد المغرب وما تضمنته هذه البلدان من سلع وأسواق، وبإعادة تبويب ما قدمه يمكننا أن نصنف ما قدمه بشأن بلاد المغرب عبر حديثه عن سلعها وأسواقها في المحاور التالية:

- **المحور الأول: السلع الزراعية.**

- **المحور الثاني: السلع الصناعية.**

- **المحور الثالث: الأسواق.**

وسنفضل عبر الصفحات القادمة الحديث عن كل محور:

#### **المحور الأول: السلع الزراعية:**

كان للموقع الجغرافي المتميز لبلاد المغرب الأثر الكبير في جعلها أرضاً خصبة للعديد من السلع الزراعية، وكان لتربة بلاد المغرب الأثر الأكبر في جعل السلع الزراعية على قدر كبير من التميز عن سائر السلع الزراعية في البلدان الأخرى، وقد أشار البكري في كتابه لجودة التربة في بلاد المغرب في أكثر من موقع فوصف تربة مدينة برقة<sup>(٢٠)</sup> بحمرة اللون<sup>(٢١)</sup>، كما تحدث عن طيب تربة مدينة رقادة<sup>(٢٢)</sup>؛ لأنه لم يجد لها مثيلاً<sup>(٢٣)</sup>، كما

(١٩) البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٣٨: ٥٤٤.

(٢٠) برقة: وهي اسم كبير يشتمل على عدة مدن بين الإسكندرية وإفريقية (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٨٨).

(٢١) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦.

(٢٢) رقادة: بلدة بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، ولا يوجد بإفريقية أطيب هواء منها (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٥٥).

(٢٣) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٠٠.



تطرق البكري أيضًا لوصف تربة مدينة باجة<sup>(٢٤)</sup>، فهي تربة سوداء متشققة تصلح لزراعة كل أنواع البذور<sup>(٢٥)</sup>، كما ذكر البكري عند وصفه لمدينة أطرابلس<sup>(٢٦)</sup> بأن لهم فحصًا يسمى فحس سوفجين، وكان أهل مدينة أطرابلس يستخدمون هذا الفحص؛ لأنه يصيب سنة في سنين<sup>(٢٧)</sup>، ويمكننا القول بأن النعوت والصفات التي قدمها البكري في وصفه للتربة في بعض بلدان المغرب جاءت متطابقة لمن سبقوه من الجغرافيين في وصفهم للتربة في تلك البلدان مثل ابن حوقل والأدريسي<sup>(٢٨)</sup>، إلا إن الإدريسي زاد عند حديثه عن تربة مدينة برقة بأنها كانت تستخدم للعلاج، فكانت تخرج التربة من برقة إلى سائر بلدان المغرب، وكانت تستخدم هذه التربة مع الزيت لعلاج الجرب، والحكة، وداء الحية<sup>(٢٩)</sup>، وهذا ما أغفله البكري عند الحديث عن تربة برقة.

#### ومن أهم السلع الزراعية التي وصفها البكري في حديثه عن بلاد المغرب:

١- الأترج: ويعرف بالفتح اليماني، ويوجد منه الحلو، ويوجد منه الحامض، ويتم البدء في زراعة الأترج في أوائل الخريف، ولكونه من الأشجار المائية، فيجب سقايته طوال العام، وزهر الأترج أبيض يظهر في الربيع والصيف والخريف<sup>(٣٠)</sup>، ولقد أحصى البكري

<sup>(٢٤)</sup> باجة: وهي مدينة حسنة صغيرة، تقع في إفريقية (الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٥١).

<sup>(٢٥)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٣٦.

<sup>(٢٦)</sup> أطرابلس: وهي من مدن إفريقية، وهي مدينة منبئة من الصخر الأبيض ولذلك يطلق عليها بأنها مدينة بيضاء، وتقع على ساحل البحر، ولذلك، فهي تمتاز بأنها محصنة (ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م ص ٧١)

<sup>(٢٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٨١.

<sup>(٢٨)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٩؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٣١٠.

<sup>(٢٩)</sup> الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣١١.

<sup>(٣٠)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، تحقيق أنور أبو سويلم - سمير الدروي - علي أرشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ج ٢ ص ٢٦٣: ٢٦٥.



مواقع زراعته في بلاد المغرب، حيث يزرع بمدينة برقة<sup>(٣١)</sup>، وبمدينة تونس<sup>(٣٢)</sup>، وكان يتمتع الأترج المزروع بهما بطيب الطعم والرائحة<sup>(٣٣)</sup>، ويزرع الأترج أيضاً بمدينة توزر<sup>(٣٤)</sup> ونعت البكري الأترج المزروع بها بأنه الأفضل في بلاد المغرب<sup>(٣٥)</sup>.

٢- **الموز:** المتعارف على الموز أنه ينبت في الأرض السوداء الرخوة السليمة، وهو شجرة ضعيفة تتميز أوراقها بأنها كبيرة، وتحتاج دائماً عند زراعتها إلى رعاية وفلاحة مستمرة حتى لا تتعرض للموت السريع<sup>(٣٦)</sup>، وقد ألمح البكري إلى فاكهة الموز عند ذكره لمدينة قابس؛ لأنه كان من السلع المزروعة بها<sup>(٣٧)</sup>.

٣- **التين:** يتم غرسه في فصلي الربيع والخريف، ويفضل أن يغرس في الأرض الصلبة القوية البعيدة عن الندى؛ لأن الندى الذي يوجد بالتربة يضر شجرة التين المزروعة<sup>(٣٨)</sup>، وكان التين من أهم الزراعات التي وجدت في بلاد المغرب، وقد أشار البكري إلى وجود التين في كل من مدينة القيروان<sup>(٣٩)</sup>، ومدينة تونس وهو تين أسود كبير يتميز برقة قشره، وكثرة عسله، كما إنه لا يحتوي على بذر<sup>(٤٠)</sup>، أما مدينة مذكود<sup>(٤١)</sup> فيعد

(٣١) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦.

(٣٢) تونس: مدينة كبيرة بإفريقية على ساحل بحر الروم (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٦٠).

(٣٣) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢١٥.

(٣٤) توزر: مدينة في أقصى إفريقية، تقع على نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب، ومبينة بالطوب والحجارة (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٥٧، ٥٨).

(٣٥) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢٥.

(٣٦) ابن وحشية: الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق - سوريا، دت، ج ١ ق ١ ص ١٧٧.

(٣٧) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٨٩.

(٣٨) الإثنيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٢٢٧.

(٣٩) البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٩٩.

(٤٠) البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢١٥.

(٤١) مذكود: أكبر مدن إقليم قمنونية، والتي كانت تعرف بالقيروان قبل أن تمصر (نفسه: ج ٢ ص ٢٥٧؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٣٩٩).



التين المزروع بها من أطيب أنواع التين المزروعة في إفريقيا، وذكر البكري أن التين المزروع في تلك المدن كان ينقل إلى مدينة القيروان؛ ونظرًا لشدة حلاوته كان يكثر عليه الطلب، وبالتالي يزداد سعره<sup>(٤٢)</sup>.

٤- **الجوز:** يزرع الجوز قبل فصل الربيع، وأيضًا قبل الخريف، وهو من المزروعات التي تميل إلى الماء، فيكثر زرعه الأرض الندية الباردة<sup>(٤٣)</sup>، ولقد أشار البكري إلى زراعته بمدينة برقة<sup>(٤٤)</sup>.

٥- **السفرجل:** من المزروعات التي تحوى ثمرًا حلواً وحامضاً، وتتميز شجرة السفرجل بأنها شجرة صلبة وقوية، وتعرف بطول العمر، ويستحب زراعة السفرجل في بلاد المغرب؛ لأن مناخها يساعد شجرة السفرجل على أن تعطي ثمرة تتميز بالجودة والرطوبة والطعم المميز<sup>(٤٥)</sup>، وقد انتشر السفرجل بكثرة داخل بلاد المغرب، وقد ألمح البكري إلى زراعته في العديد من مدن بلاد المغرب من بينها مدينة برقة التي تميزت بين أقرانها بكثرة زراعتها للسفرجل، كما وجد السفرجل أيضًا بمدينة تونس، وكان يمتاز بكبر الحجم والرائحة الزكية، وزرع بمدينة باجة، أما أفضل أنواع السفرجل من وجهة نظر البكري، فذلك الذي زرع بمدينة تيهرت<sup>(٤٦)</sup> ويطلق عليه السفرجل الفارس، وهو من أطيب أنواع السفرجل وأحسنها بل أفضلها رائحة<sup>(٤٧)</sup> كما زرع السفرجل أيضًا بمدينة تنس<sup>(٤٨)</sup> وبالرغم من طيبه ورائحته

<sup>(٤٢)</sup> نفسه: ج ٢ ص ٢٥٧.

<sup>(٤٣)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٢١٥.

<sup>(٤٤)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢، ص ١٧٦.

<sup>(٤٥)</sup> ابن وحشية: الفلاحة النبطية، ج ٢ ق ٢، ص ١٢١٤.

<sup>(٤٦)</sup> تيهرت: مدينة من مدن بلاد المغرب، بينها وبين المسيلة ست مراحل، تقع في الإقليم الرابع، وكان يطلق عليها قديما عراق المغرب (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٧، ٨).

<sup>(٤٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦، ٢١٥، ٢٣٦، ٢٤٨.

<sup>(٤٨)</sup> تنس: مدينة بإفريقية تقع بين وهران وتيهرت، وهي على ضفة البحر، ولذلك فهي محصنة بسور كبير (الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٥١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٨).



المميزة التي تؤهله ليكون في صدارة المحاصيل، فقد أغفل البكري ذكره عند حديثه عن السلع الزراعية في هذه المدينة<sup>(٤٩)</sup>.

٦- **التوت:** ويحتوي على عدة أنواع، فمنه الحامض ومنه المز، ويزرع في شهر فبراير، ويفضل زرعه في الأراضي اليابسة قليلة الرطوبة، كما إنه من الممكن زراعته في الأراضي الرطبة كثيرة الماء<sup>(٥٠)</sup>، وقد أشار البكري إلى أن زراعة التوت كانت تتم بمدينة قابس<sup>(٥١)</sup>.

٧- **اللوز:** ومنه الحلو ومنه المر، وهو أول الأشجار التي تورده، ويزرع في أول فبراير، ومن الممكن زراعته في أي مكان، ويستخدم اللوز الحلو لكي يتغذى منه البدين، أما اللوز المر، فيستخدم في العلاج<sup>(٥٢)</sup>، وكانت تتم زراعته في بلاد المغرب في مدينة تونس مثلما أشار البكري، وكان يمتاز بطيب طعمه، وكبر حجمه، ورقة قشره، ولذلك أطلق عليه اللوز الفريك، نظراً لسهولة فركه<sup>(٥٣)</sup>.

٨- **الرمان:** يحتوي الرمان على عدة أنواع مختلفة، وتتميز جميع هذه الأنواع بأنها حلوة المذاق، ويفضل زراعته في الأرض الجافة أو الجبلية عن الأرض الندية، الوقت المناسب لزراعته في شهري فبراير ومارس<sup>(٥٤)</sup>، وتنتشر زراعة الرمان في بلاد المغرب حسب إشارة البكري في مدينة تونس ويمتاز بكثرة الماء بداخله وبحلاوة مذاقه<sup>(٥٥)</sup>.

<sup>(٤٩)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٨.

<sup>(٥٠)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٢٠٧: ٢٠٩.

<sup>(٥١)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٨٩.

<sup>(٥٢)</sup> ابن وحشية: الفلاحة النبطية، ج ٢ ق ٢ ص ١١٧٨.

<sup>(٥٣)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢١٥.

<sup>(٥٤)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ١٧٣: ١٧٥.

<sup>(٥٥)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢١٥.





٩- **القطن:** يزرع القطن في الأراضي المستوية، ويفضل قبل زراعته حرث الأرض عدة مرات حتى يصبح أجود وأفضل، ويتم غرز حباته في شهر مايو<sup>(٥٦)</sup>، ومن المناطق التي اشتهرت بزراعة القطن في بلاد المغرب مدينة المسيلة\*<sup>(٥٧)</sup>، ومدينة تونس والتي أغفلها البكري كواحدة من أهم مناطق زراعة القطن عند سرده لأهم السلع الزراعية فيها<sup>(٥٨)</sup>.

١٠- **الفسق:** وهو من المزروعات التي يفضل زرعها في الأراضي اليابسة، كما إنه من الممكن زراعته في الرمال أيضاً، ويبدأ زراعة الفسق في الفترة من أول شهر مارس وحتى أول شهر أبريل<sup>(٥٩)</sup>، وقد كثر زراعته كما أشار البكري في مدينة قفصة<sup>(٦٠)</sup> وهي من أشهر مدن المغرب في زراعة الفسق، ويحمل منها إلى سائر البلدان في إفريقيا، ومصر، والأندلس، كما يزرع أيضاً بمدينة طراق\*<sup>(٦١)</sup>.

١١- **الكتان:** ويزرع في الأراضي اللينة حتى لا يغلظ ساقه ويكثر بذره<sup>(٦٢)</sup>، ويزرع الكتان بمدينة بونة<sup>(٦٣)</sup>، وهو ما أغفله البكري عند ذكره للسلع الزراعية في هذه المدينة<sup>(٦٤)</sup>.

<sup>(٥٦)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق، ١٢٩٩م، ج٢ ص ١٣٦.  
<sup>(٥٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج٢ ص ٢٣٩؛ \*المسيلة: مدينة ببلاد المغرب يطلق عليها المحمدية، بناها أبو القاسم محمد بن المهدي عام ٣١٥هـ/٩٢٧م (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥ ص ١٣٠).

<sup>(٥٨)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٥؛ الإدريسي نزهة المشتاق، ص ٢٨٥.

<sup>(٥٩)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج٢ ص ١٥٣، ١٥٦.

<sup>(٦٠)</sup> قفصة: بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ص ٣٨٢).

<sup>(٦١)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج٢ ص ٢٢٤؛ \*طراق: مدينة كبيرة بإفريقية تقع في منتصف الطريق بين مدينة قفصة وفج الحمام (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤ ص ٢٧).

<sup>(٦٢)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ج٢ ص ١٣٦.

<sup>(٦٣)</sup> بونة: مدينة بإفريقية تقع بين مرسى الخرز، وجزيرة بني مزغناي، وتقع على البحر، وتمتاز بحصانتها (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١ ص ٥١٢).

<sup>(٦٤)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٧؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٩١.

١٢- **الزيتون:** وهو نوعان نوع ينبت في الجبال ولا تصل إليه الماء، والنوع الآخر هو النوع العام أو المتعارف عليه والذي يمتاز بكثرة حبه ودهنه، ويفضل عند زراعة الزيتون أن تكون الأرض المزروعة لينة حتى تعطي أكبر قدر ممكن من الزيتون، كما إن شجرة الزيتون المزروعة في الأراضي اللينة تكون حاملة لأكثر قدر من الزيت، وينبغي زراعة شجر الزيتون في الخريف أو الربيع، وإن كان الخريف أفضل للزراعة<sup>(٦٥)</sup>، وانتشرت زراعة الزيتون بشدة في بلاد المغرب في مدينتي سفاقس<sup>(٦٦)</sup> والتي كانت مبنية في وسط غابة أشجار زيتون، ومدينة تماجر والتي كانت تحوي أيضًا على غابة أشجار زيتون<sup>(٦٧)</sup>، كما أغفل البكري ذكر زراعة الزيتون في مدينة قابس والذي كان يعد من الزراعات المتميزة بالمدينة<sup>(٦٨)</sup>.

١٣- **القمح:** وهو أفضل أصناف الحبوب وأقربها للاعتدال، ويفضل زراعته في الأماكن الحارة، ويفضل حصاده سريعًا وبه بعض الرطوبة لكي يكون على قدر كبير من الجودة والطعم المتميز<sup>(٦٩)</sup>، ولقد انتشر القمح في بلاد المغرب في مدينة باجة\*<sup>(٧٠)</sup>، أما مدينة بونة، فقد أغفل البكري الحديث عن قمحها بالرغم من عدها سلعة زراعية بهذه المدينة<sup>(٧١)</sup>.

<sup>(٦٥)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٦١: ٦٣، ٦٧.

<sup>(٦٦)</sup> سفاقس: وهي مدينة من مدن إفريقية تقع على مقربة من مدينة المهديّة، وتطل على البحر ولها سور كبير وأبواب منيعة (ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٣).

<sup>(٦٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٩٢، ٢٠٢.

<sup>(٦٨)</sup> الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٨.

<sup>(٦٩)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحه في علم الفلاحة، ج ٢ ص ١٣٨: ١٤١.

<sup>(٧٠)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٣٧؛ \*باجة: مدينة بإفريقية تعرف بباجة القمح، وسميت بذلك لكثرة حنطتها، وتعرف أيضًا بهيْرى إفريقية لكثرة أنواع الزروع بها، ويفصلها عن مدينة تنس يومان (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣١٤، ٣١٥).

<sup>(٧١)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٧؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٩١.



١٤- **العنب:** وهو من السلع الزراعية المتعددة الأنواع ويمتاز بحلاوة طعمه، ويزرع العنب في الخريف حتى ينشأ سريعاً، وينبغي عند غرزه أن يغرز في الأرض التي تحتوي على قليل الماء<sup>(٧٢)</sup>، وقد أشار البكري إلى أن العنب قد تمت زراعته بكثرة في بلاد المغرب، فكثرت زراعته في مدينة تماجر، وزرع بمدينة تونس وكان يمتاز بالرفع، وزرع بمدينة باجة، وزرع بمدينة الغدير<sup>(٧٣)</sup>، وكان يمتاز برخص سعره بها<sup>(٧٤)</sup>.

١٥- **الحمص:** وهو متعدد الأنواع منه : الأبيض، والأسود، والأحمر، ويفضل قبل زراعته نقيه بقشره بماء ساخن حتى ينبت، ثم زراعته في أرض ندية، فيخرج حينئذ نباتاً قوياً<sup>(٧٥)</sup>، وعرفت مدينة باجة بزراعتها لأجود أنواع الحمص الموجود ببلاد المغرب عامة<sup>(٧٦)</sup> عامة<sup>(٧٦)</sup> حسب رواية البكري.

١٦- **السمسم:** وهو من أكثر البذور دهنية، وأفضلها في الجودة<sup>(٧٧)</sup>، وقد أشار البكري إلى أن السمسم كان يزرع في بلاد المغرب في مدينة جلول<sup>(٧٨)</sup>، وعرف عن أهلها قيامهم بخلط السمسم مع الياسمين والورد والبنفسج<sup>(٧٩)</sup>.

١٧- **البصل:** وله عدة أنواع، ويفضل زراعته في الأيام الأولى من شهر أبريل وحتى آخر أيام شهر مايو<sup>(٨٠)</sup>، ويجب أن يسقى بالكثير من الماء، وذكر البكري أن مدينة تونس تعد من أشهر بلاد المغرب في زراعة البصل والذي عرف عنه حلاوة طعمه وكثرة مائه<sup>(٨١)</sup>.

<sup>(٧٢)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٣٧٥، ٣٥٨.

<sup>(٧٣)</sup> الغدير: مدينة ببلاد المغرب تبعد نصف يوم عن قلعة بني حماد (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ١٨٨).

<sup>(٧٤)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٠٢، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٤٠.

<sup>(٧٥)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة ج ٢ ص ١٤٤.

<sup>(٧٦)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٣٧.

<sup>(٧٧)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ج ٢ ص ١٤٧، ١٤٨.

<sup>(٧٨)</sup> جلول: مدينة بإفريقية تبعد عن القيروان أربعة وعشرين ميلاً، وهي مدينة قديمة بنيت بالصخر، ويكثر بها

الأنهار والثمار (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٥٦).

<sup>(٧٩)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٠٥.

<sup>(٨٠)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ج ٢ ص ١٦٣.

<sup>(٨١)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢١٦.

١٨- **التمر:** وهو مختلف الأنواع والأسماء، وتمتاز جميعها بطيب الطعم والمذاق، ويزرع في الأراضي المالحة، وهو من المزروعات المحبة للماء<sup>(٨٢)</sup>، وقد أشار البكري إلى أن بلاد المغرب تتفرد بزراعة التمر، حيث انتشرت هذه الزراعة في مدينة قفصة وتمرها صغير الحجم، وكان يوزع في مدينة القيروان، كما تمت زراعة التمر في مدينة توزر، وهي أكثر مدن إفريقية إنتاجًا للتمر، وأيضًا زرع بمدينة بسكرة<sup>(٨٣)</sup>، وكان التمر بها نوعان: نوع يطلق عليه الكسبا وهو من أفضل أنواع التمر، والنوع الآخر التمر اللبائي، وهو تمر أبيض ذو ملمس جيد<sup>(٨٤)</sup>، وقد أغفل البكري عند ذكره لزراعة التمر في بلدان المغرب، ذكره لزراعة التمر في مدينة قابس، ويعد تمر مدينة قابس من أفضل وأطيب التمور مذاقًا في بلدان المغرب<sup>(٨٥)</sup>.

١٩- **الترنجين:** وهو نوعان البستاني والبري ومنه كبير الورق، ومنه الصغير، ويبدأ غرس بذوره في شهر فبراير، وكلاهما ذات زهر أبيض، ويبدأ هذا الزهر في الظهور في شهر أبريل وشهر مايو، ويظهر أيضًا خلال فصل الربيع بأكمله، ويمتاز الترنجين بأن له رائحة مثل رائحة الأترج، ودائمًا ما يستطيب النحل ما هو حلو المذاق منه<sup>(٨٦)</sup>، وقد انتشرت زراعة الترنجين في مدينة توزر من بلاد المغرب حسب رواية البكري<sup>(٨٧)</sup>.

٢٠- **الزعفران:** وهو من مشتقات البصل، وورقه رقيق الملمس، كثيف الأوراق والتي تعزى إلى أصل واحد، وتنتزين كل ورقة من أوراق الزعفران من الداخل باللون الأبيض،

<sup>(٨٢)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٢ ص ٣٣٩.

<sup>(٨٣)</sup> بسكرة: مدينة ببلاد المغرب من نواحي الزاب، تقع بالقرب من قلعة بني حماد، وتمتاز بكثرة الأسواق والحمامات (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٢٢).

<sup>(٨٤)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٠.

<sup>(٨٥)</sup> الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٨.

<sup>(٨٦)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحه في علم الفلاحة، ج ٢ ص ٢٠١.

<sup>(٨٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢٥.



ويبدأ الزعفران بالإزهار في فصل الخريف<sup>(٨٨)</sup>، وقد انتشرت زراعة الزعفران مثلما أشار البكري في بلاد في المغرب في مدينة لرس، ويعد زعفرانها من أطيب أنواع الزعفران في بلاد المغرب، ويزرع أيضا في مدينة أبة<sup>(٨٩)</sup>.

٢١- **قصب السكر:** ويبدأ غرسه وزراعته في شهر مارس، ويعتمد في الأساس عند زراعته على أصله، ولكي ينبت جيدا يجب تهيئة وحرث الأرض جيدا قبل زراعته، كما يفضل عند زراعته أن تكون الأرض طيبة حسنة صالحة للزراعة، ومن الممكن أن يتم غرزه وزراعته في شهر أكتوبر، وأيضا من الممكن أن يغرس ويزرع في أواخر شهر ديسمبر، مع التأكيد على ضرورة ريه وسقايته حتى ينبت في شهر يناير<sup>(٩٠)</sup>، وكانت زراعة قصب السكر منتشرة بكثرة في بلاد المغرب، وأشار في البكري في كتابه إلى أن زراعة القصب كانت تتم في مدينتي قابس وجلولا، وقد وجد البكري أن زراعة قصب السكر كانت منتشرة بكثرة في هاتين المدينتين<sup>(٩١)</sup>.

٢٢- **الشعير:** ويزرع في أرض متوسطة التربة، وبها شيء من الملوحة<sup>(٩٢)</sup>، وقد أشار البكري إلى أن محصول الشعير انتشرت زراعته في بلاد المغرب في مدينة باديس<sup>(٩٣)</sup>، وكان يزرع بها مرتين في العام؛ نظرا لوفرة الماء وملوحة الأرض لديهم<sup>(٩٤)</sup>، أما مدينة بونة، فكانت هي الأخرى تزرع الشعير في أراضيها، إلا إن البكري في حديثه عنها، أغفل هذه الزراعة من ضمن حديثه عن السلع الزراعية بها<sup>(٩٥)</sup>.

<sup>(٨٨)</sup> الإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، قدم له وحققه محمد العربي الخطابي، الطبعة الأولى، دار

الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٥م، ج ١ ص ٢٧٦

<sup>(٨٩)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢٣، ٢٣١.

<sup>(٩٠)</sup> عبد الغني النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ج ٢ ص ٦١، ٦٢.

<sup>(٩١)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٨٩، ٢٠٥.

<sup>(٩٢)</sup> الإشبيلي: كتاب الفلاحة، ج ٤ ص ٧.

<sup>(٩٣)</sup> باديس: مدينة ببلاد المغرب تقع بالقرب من مدينة تهودة (الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار،

تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، ١٩٧٥م، ص ٧٥).

<sup>(٩٤)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٥٧

<sup>(٩٥)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٧؛ الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٢٩١.

## المحور الثاني: السلع الصناعية:

كان للسلع الصناعية مكانتها المتفردة في بلاد المغرب، وجاء هذا التفرد حاملا معه خصوصية المنتجات الصناعية التي تميزت بها هذه المنطقة، الأمر الذي انعكس بدوره على الحالة الاقتصادية لأهل هذه البقعة المكانية، وعد رافداً اقتصادياً لا يستهان به، ولقد صنف البكري في مؤلفه المسالك والممالك العديد من المنتجات الصناعية التي تفنن سكان بلاد المغرب في تصنيعها على النحو التالي:

١- **دباغة الجلود:** وهي معالجة الجلد لكي يحمي من التلف<sup>(٩٦)</sup>، وتستخلص هذه الجلود من الماشية، والغزال، والماعز، والغنم، وتعد دباغة الجلود من أهم الصناعات في بلاد المغرب، وقد أشار البكري في كتابه المسالك والممالك إلى أن سكان مدينة غدامس قد برعوا في عملية دبغ الجلود، فكانت دباغتهم من أفضل الدباغ في بلاد المغرب<sup>(٩٧)</sup>.

٢- **الحرير:** وهو من أهم الصناعات في بلاد المغرب، ويقوم في الأساس على دود القز الموجود على شجر التوت، وقد أوضح البكري إلى أن صناعة الحرير لم تحظ بقدر كبير من الحسن والجودة في بلاد المغرب وإفريقية إلا في مدينة قابس، فكانت الشجرة الواحدة في هذه المدينة تنتج من الحرير ما تنتجه خمس شجرات في أماكن أخرى، وكان حرير قابس يمتاز بالرقّة وحسن الملمس مما يشير إلى تفرد سكان هذه المدينة بصناعة الحرير<sup>(٩٨)</sup>.

٣- **الزيت:** ويستخرج الزيت من دهن الزيتون، وهو من أهم الصناعات في بلاد المغرب؛ نظراً لانشغال عدد كبير من سكان بلاد المغرب بهذه الحرفة، وقد ذكر البكري أن عدداً من مدن بلاد المغرب تميزت في صناعة الزيت مثل مدينة سفاقس والتي تفردت في

<sup>(٩٦)</sup> أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة- مصر،

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، مج ١ ص ٧٢٢.

<sup>(٩٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢٥.

<sup>(٩٨)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨٩.



صناعة الزيت ونقله إلى داخل وخارج بلاد المغرب، كما امتازت مدينة القيروان بإنتاج الزيت، ولكنها لم تكن بنفس جودة مدينة سفاقس<sup>(٩٩)</sup>، وقد أغفل البكري عند حديثه عن صناعة الزيت في بلاد المغرب ذكر عمل أهل مدينة تونس بهذه الصناعة<sup>(١٠٠)</sup>.

٤- **الرخام:** وهو عبارة عن حجر ثقيل يمكن صقل سطحه بسهولة، وللرخام العديد من الألوان المميزة له<sup>(١٠١)</sup>، وقد أشار البكري في كتابه المسالك والممالك إلى أن الرخام قد وجد بغزارة في مدينة قرطاجنة إلى الدرجة التي يصعب فيها الانتهاء من جمعه وتصنيعه<sup>(١٠٢)</sup>.

٥- **العسل:** وهو من أهم الصناعات في بلاد المغرب، وقد انتشرت صناعة العسل كما أشار البكري في مدينة جلولا؛ نظرًا لكثرة بساتين الياسمين بها، فلم يكن هناك أطيب من عسل هذه المدينة، كما انتشر العسل في مدينة برقة، ومدينة بونة<sup>(١٠٣)</sup>.

٦- **النبيد:** وهو شراب يصنع من عصير العنب أو التمر، وقد كانت مدينة رقادة هي المتفردة في بلاد المغرب من حيث صناعة النبيد وبيعه، كما أشار البكري في كتابه<sup>(١٠٤)</sup>.

٧- **الملح:** وكان من أهم الصناعات في بلاد المغرب حسب قول البكري، وقد اشتهرت مدينة بسكرة بصناعته؛ وذلك لاحتوائها على جبل كبير من الملح، فكان سكان مدينة بسكرة يقطعون منه الملح ومن ثم تطويبه لكي يستخدم في شتى مجالات الحياة<sup>(١٠٥)</sup>.

<sup>(٩٩)</sup> نفسه: ج ٢ ص ١٩٢، ١٩٩.

<sup>(١٠٠)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٥؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٨٥.

<sup>(١٠١)</sup> أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج ٢ ص ٨٧٥.

<sup>(١٠٢)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٢١.

<sup>(١٠٣)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦، ٢٠٥، ٢٣٣.

<sup>(١٠٤)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٠٠.

<sup>(١٠٥)</sup> نفسه: ج ٢ ص ٢٣٠.

٨- **الحيَاكَة:** وهي نسج الثياب، وقد برع سكان مدينة سوسة، كما أشار البكري في هذه الصناعة، فكان لهم التميز والتفرد، وكانت الثياب المحاكاة من قبل سكان مدينة سوسة توزع في سائر بلاد المغرب<sup>(١٠٦)</sup>.

٩- **آنية الخزف:** وقد كانت من الصناعات المميزة في بلاد المغرب، وقد أشار البكري في كتابه إلى أن سكان مدينة تونس قد تميزوا بالبراعة والإتقان في صناعة آنية الخزف واستخدموها في شرب الماء، وبلغت درجة براعتهم في تعدد أشكالها ونصاعتها، فكانت شديدة البياض، ولم ير مثلها في بلاد المغرب عامة<sup>(١٠٧)</sup>.

١٠- **القطران:** وهو مادة شديدة الاشتعال ويستخلص من شجرة الأرز، وله عدة أنواع واستخدامات فيستخدم في القضاء على الجراثيم، أو يوضع على الجمال عندما تصاب بأى مكروه، كما إنه يساعد على حفظ الخشب والحديد<sup>(١٠٨)</sup>، وقد برع سكان مدينة برقة كما أشار البكري في صناعة القطران، فلم يكن له مثل في الجودة<sup>(١٠٩)</sup>.

١١- **حجر اللازورد:** وكان يستخدم في الحلى والمشغولات الخاصة بالسيدات، وقد برع سكان كتامة في هذه الصناعة، ويرى البكري أن مدينة بسكرة كانت تحتوي على اللازورد الجيد، وهو ما أتاح الفرصة لكي تكون صناعة متفردة في بلاد المغرب<sup>(١١٠)</sup>.

١٢- **معدن النحاس والحديد:** وهي المعادن التي تستخدم في الصناعات الثقيلة، وقد برع سكان مدينتي كتامة وبونة في استخدامهم لها وتطويرهم إياها حسب إshade البكري<sup>(١١١)</sup>.

<sup>(١٠٦)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٠٧.

<sup>(١٠٧)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢١٥.

<sup>(١٠٨)</sup> أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج ٣ ص ١٨٣٣.

<sup>(١٠٩)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦.

<sup>(١١٠)</sup> البكري: الصدر السابق، ج ٢ ص ٢٠٦.

<sup>(١١١)</sup> نفسه: ج ٢ ص ٢٠٦، ٢٣٣.



### المحور الثالث: الأسواق:

تعد الأسواق من أهم مميزات بلاد المغرب، وقد اشتهرت هذه البلدان بتجاريتها الداخلية والخارجية، وقد أشار البكري في حديثه عن بلاد المغرب إلى وجود عدد كبير من الأسواق، وهذا الأمر مرده من وجهة نظري لحجم السلع الزراعية والصناعية التي حظيت بها بلاد المغرب والتي دأب أهلها على تجويدها والعناية بها ويمكننا حصرها على النحو التالي:

**الطرق التجارية:** وهي الأساس في عمليات التجارة، حيث تمهد انتقال السلع الغذائية من وإلى بلدان المغرب جميعاً، أو من بلدان المغرب وغيرها من الدول المختلفة، فقد كان للموقع الجغرافي في بلاد المغرب دوره المتميز في جعلها تتمتع بالعديد من الطرق التجارية المهمة، وكان أول طريق تجاري وصفه البكري هو الطريق الذي يبدأ من مدينة قابس الساحلية، ثم يتجه إلى مدينة سفاقس، والتي تشكل بدورها مرفأً للسفن القادمة من قابس، ومنها طريقان: طريق إلى مدينة القيروان، وطريق إلى مدينة المهدية<sup>(١١٢)</sup>.

**أما مدينة القيروان،** فكانت هي الأساس والتي يأتي إليها كل السلع التجارية من بلاد المغرب، فقد ربطت القيروان بالعديد من الطرق التجارية، فكان الطريق يبدأ من القيروان ثم يتجه إلى جلولاً ومنها إلى أجز ومنها إلى بونة<sup>(١١٣)</sup>، أما الطريق الآخر، فيبدأ من القيروان ثم يتجه إلى منستير<sup>(١١٤)</sup>، ثم إلى باجة، ثم إلى درنة، ثم إلى طبرقة<sup>(١١٥)</sup>.

**الأسواق المغربية:** الأسواق هي الأساس في عمليات التبادل التجاري، وقد كان لبلاد المغرب العديد من الأسواق منها الدائم ومنها المستمر.

<sup>(١١٢)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٩١: ١٩٣.

<sup>(١١٣)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

<sup>(١١٤)</sup> منستير: مدينة إفريقية تقع بين المهدية وسوسة (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٢٠٩).

<sup>(١١٥)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٣٥: ٢٣٧.

أما النوع الأول والمعروف بالأسواق الدائمة: وهي التي توجد في كل البلدان بصفة مستمرة مثل الذي وجد في حصن تاكلات\*<sup>(١١٦)</sup>، ومدينة سوسة، ومدينة المسيلة، ومدينة سفاقس والتي كان يقصدها التجار من كل مكان، ومدينة مذكود، ومدينة قابس ومدينة توزر، ومدينة باجة التي كان يوجد بها أماكن مخصصة لبيع الأطعمة فقط<sup>(١١٧)</sup>.

أما النوع الثاني من الأسواق: فهي الأسواق الموسمية أو المؤقتة والتي يختار فيها أصحاب كل سلعة يوماً واحداً في الأسبوع لعرض منتجاتهم، وقد أكد البكري ذلك عندما ذكر أن سوق وادي درعة والذي يقع بالقرب من سجل ماسة، كان يقام كل يوم جمعة، وكان أحياناً يقام به سوق واحد لعرض المنتجات، وأحياناً سوقان، وذلك لكثرة إقبال الناس عليه<sup>(١١٨)</sup>.

**التبادل السلعي:** وهو مجموعة من التعاملات التي كانت تتم داخل بلاد المغرب من خلال بيعهم للسلع والبضائع التي كانت تزرع أو تصنع بداخلها، وكانت هذا التعامل يتم داخلياً أو خارجياً.

ولقد أشار البكري في كتابه إلى تجارة رائجة في الأسواق المغربية هي تربية الأغنام والماشية، وكانت مدينة برقة موزعاً هائلاً للحوم خارج بلاد المغرب فقد كانت تصدر اللحوم إلى مصر، وكان الأغلب من ذبائح مصر يأتي عبر برقة، كما اشتهرت مدينة سوسة بتربية الأغنام والماشية أيضاً، وقد عرفت بطيب لحم أغنامها وماشيتها، كما كانت تمتاز برخص أسعار هذه الأغنام والماشية عن سائر بلدان بلاد المغرب<sup>(١١٩)</sup>.

<sup>(١١٦)</sup> الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٦٢؛ \* حصن تاكلات: حصن منيع يقع بالقرب من مدينة بجاية (نفسه: ص ٢٦٢).

<sup>(١١٧)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٨٩، ١٩٢، ٢٢٥، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٥٧.

<sup>(١١٨)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٣٨.

<sup>(١١٩)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٧٦، ٢٠٧.

ونظرًا لكثرة الأغنام والماشية في بلاد المغرب، فقد قامت على إثرهما صناعتان من أهم الصناعات، وهما دبغ الجلود، وصناعة الصوف، وكانت مدينتا غدامس وبرقة من أهم موزعي هاتين الصناعتين في سائر بلدان المغرب<sup>(١٢٠)</sup>.

**وبالنسبة للمنتجات السمكية في بلاد المغرب،** فحدث ولا حرج، فقد كان للموقع الجغرافي المتميز للعديد من بلدان المغرب على ساحل البحر فضل السبق في جعلها مركزًا متميزًا للثروة السمكية، وقد أشار البكري في كتابه على تمتع العديد من البلدان المغربية بهذه الثروة السمكية والتي كانت ترسلها إلى بعضها البعض مثل مدينة تونس والتي كانت تحوي العديد والمختلف من أصناف الأسماك والتي لا يوجد لها مثيل في بلاد المغرب، وقد اشتهرت أيضًا مدينة بونة بصيد الأسماك وإرسالها إلى ما جاورها من بلدان، وكان للنهر الذي يقسم مدينة بنرزت، الأثر المباشر في كثرة الأسماك بها، والتي لم يكن في بلاد المغرب أرخص من أسماكها، وقد تفردت مدينة باجة بالسمك البورى الذى كان لا يخرج إلا منها، وكانت هذه الأسماك كبيرة جدا لدرجة لا توصف<sup>(١٢١)</sup>، أما مدينة سفاقس، فقد اشتهر أهلها بصيد الأسماك، وكانت أسماكهم كثيرة إلى الحد الذى يعجز عنه الوصف وكانت ترسل إلى البلدان المجاورة أعدادًا كبيرة منها<sup>(١٢٢)</sup>.

**أما من حيث المنتجات الزراعية المعدة للتصدير،** فقد تفردت بلاد المغرب بالعديد من هذه المنتجات، وقد أشار البكري في كتابه إلى عملية التبادل التجارى في السلع الزراعية بين البلدان وبعضها البعض الناتجة عن وفرة كبيرة في هذه السلع، فمدينة جلولا كانت تزرع قصب السكر بأعداد كبيرة، كما كانت تقوم بزراعة السمسم، وكانت هذه السلع الزراعية تخرج دائمًا من جلولا إلى مدينة القيروان، وكان ذلك لا يؤثر على الإنتاج الداخلى للمدينة أو يؤدي إلى رفع الأسعار، نظرا لوفرة المنتجات الذاهبة إلى القيروان<sup>(١٢٣)</sup>.

<sup>(١٢٠)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٧٦، ٢٢٥.

<sup>(١٢١)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢١٥، ٢٣٤، ٢٣٧.

<sup>(١٢٢)</sup> ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٣؛ الإندلسي نزهة المشتاق، ص ٢٨١.

<sup>(١٢٣)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ٢٠٥.



أما بالنسبة لتصدير التمر، فقد اشتهرت به العديد من بلدان المغرب، وقد أشار البكري في كتابه إلى أن التمر كان من السلع المهمة التي كانت تصدر في جميع أرجاء البلدان، فوفرة تمر مدينة توزر كان يحمل حسب وصف البكري على ما يقرب من ألف بعير كي يتم توزيعه في جميع الأرجاء، كما اشتهرت مدينة قفصة بإنتاج التمر الصغير، وكانت دائماً تصدره إلى مدينة القيروان، وقامت مدينة بسكرة بتوزيع منتجها من التمر إلى جميع أرجاء بلاد المغرب<sup>(١٢٤)</sup>، وكانت قابس أيضاً مشهورة بإنتاج التمر المخزن والذي لا يؤكل إلا بعد زوال العسل منه، وكان يوزع أيضاً في جميع أرجاء بلاد المغرب، واشتهرت أيضاً مدينة سجلماسة<sup>(١٢٥)</sup>.

أما تجارة الزيت، فقد مثلت تجارة مهمة في بلاد المغرب، فقد أشار البكري إلى أن مدينة سفاقس كانت من أهم المدن في إنتاج الزيت، وكان زيت مدينة سفاقس ينقل في عمليات التجارة إلى أهل مصر، والمغرب، وصقلية، والروم؛ نظراً لجودته، وبالإضافة إلى تصديرها للزيت إلى كل هذه البلدان إلا أنها كانت أيضاً سوقاً رائجة يقصدها التجار من جميع الانحاء لكي يقوموا بشراء أشهر أنواع الزيت في بلاد المغرب<sup>(١٢٦)</sup>.

وقد أشار البكري أيضاً إلى أن هناك عدداً من الفواكه والسلع الزراعية التي كانت تتبادلها بلدان المغرب لبعضها البعض، فمدينة مذكود كانت تنتقل حصادها من تينها المشهور بحلاوته وجودته إلى سائر البلدان المغربية، وأمدت مدينة قفصة جل بلدان إفريقية بفستقها الذي لا يضاهي، وموز مدينة قابس كان يرسل إلى مدينة القيروان، وعلى غرار مدينة قابس فإن مدينة جلولا كانت ترسل إلى القيروان كل يوم العديد من أنواع الفواكه والبقول<sup>(١٢٧)</sup>.

<sup>(١٢٤)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٠.

<sup>(١٢٥)</sup> الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢٨٠.

<sup>(١٢٦)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٩٢.

<sup>(١٢٧)</sup> البكري: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨٩، ٢٠٥، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٥٧.

المكايل والموازين: وهي الأساس في عملية التجارة، وقد أشار البكري في كتابه المسالك والممالك إلى بعض المكايل والموازين في عدد من بلاد المغرب فكان مكيال مدينة تيهرت خمسة أقدرة<sup>(١٢٨)</sup> ونصف، أما قنطار الزيت، فهو قنطاران إلا ثلث، وهذا يتم في الزيت فقط أما السلع الأخرى مثل الفلفل فتوزن على إنها قنطار واحد صحيح، أما رطل اللحم لديهم فيزن خمسة أرطال، أما مدينة تنس، فرطل اللحم لديهم سبع وستون أوقية، أما سائر السلع فرطلها اثنان وعشرون أوقية، ويزن القيراط لديهم ثلث الدرهم، أما مدينة القيروان وما جاورها من بلدان فكان رطل اللحم والتين وسائر المأكولات مقداره عشرة أرطال من الفلفل، والزيت لديهم كان يزن ثلاثة أرطال من الفلفل<sup>(١٢٩)</sup>.

---

<sup>(١٢٨)</sup> القفيز: عسر الجريب وهو ثلثمائة وستون ذراعًا مكسرة (الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٩٢.  
<sup>(١٢٩)</sup> البكري: المسالك والممالك، ج ٢ ص ١٩٩، ٢٤٠، ٢٤٨.

### الخاتمة

- فهذه قراءة بحثية طوفت عبر صفحاتها على السلع والأسواق في بلاد المغرب من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري. ويمكننا أن نعرض لأهم النتائج التي نستخلصها من العرض السابق على النحو التالي:
- ١- البكري من خلال عرضه للسلع والأسواق المغربية كان ناقلاً عن سابقه من الرحالة والجغرافيين من أمثال ابن حوقل والإدريسي.
  - ٢- رصد البكري في مؤلفه كافة السلع الزراعية في بلاد المغرب ونبه على أنه غض الطرف عن بعضها في الوقت الذي أشار إليها سابقوه.
  - ٣- يحسب للسلع الزراعية في بلاد المغرب كما عرضها البكري كثرتها وتنوعها مما أسهم في الاكتفاء الذاتي لبلاد المغرب منها إلى جانب التبادل السلعي للفائض عنها بين المدن المغربية.
  - ٤- صنف البكري في مؤلفه المسالك والممالك العديد من المنتجات الصناعية التي تقطن سكان بلاد المغرب في تصنيعها، وكان للسلع الصناعية مكانتها المتفردة في بلاد المغرب، وجاء هذا التفرد حاملاً معه خصوصية المنتجات الصناعية التي تميزت بها هذه المنطقة، الأمر الذي انعكس بدوره على الحالة الاقتصادية لأهل هذه البقعة المكانية، وعد رافداً اقتصادياً لا يستهان به.
  - ٥- تعد الأسواق من أهم مميزات بلاد المغرب، وقد اشتهرت هذه البلدان بتجارها الداخلية والخارجية، وقد أشار البكري في حديثه عن بلاد المغرب إلى وجود عدد كبير من الأسواق، وهذا الأمر مرده من وجهة نظري لحجم السلع الزراعية والصناعية التي حظيت بها بلاد المغرب والتي دأب أهلها على تجويدها والعناية بها.
  - ٤- أظهر البكري من خلال حديثه عن الأسواق ببلاد المغرب أن للطرق التجارية المنتشرة في بلاد المغرب الأثر المباشر في ازدياد حركة التجارة الداخلية والخارجية.
  - ٥- كشف البكري في أثناء حديثه عن التبادل التجاري عن وجود رواج اقتصادي بين بلاد المغرب في ذلك الوقت.
  - ٦- لم يغفل البكري عبر حديثه قيمة المكابيل والموازين في إتمام عمليات البيع والشراء في بلاد المغرب.



## المصادر والمراجع

### أولاً- المصادر:

- ١- الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م): أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن إدريس الصقلي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- ٢- الأصفهاني (٥٩٧هـ/١٢٠١م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد: خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوي- الجبلاني بن الحاج يحيى- محمد المرزوقي، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦
- ٣- ابن بسام (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) أبو الحسن علي التغلبى الشنتريني: النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٤- ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م) خلف بن عبد الملك بن مسعود بن الخزرجي الأنصاري الأندلسي: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم، حققه وضبطه نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠م
- ٥- البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد: التنبيه على أوهام أبو علي في أماليه، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ٢٠٠٠م.
- ٦- -: سمط اللآلي، نسخة مصححة ومنقحة بمعرفة عبد العزيز الميمنى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الكويت، ١٣٥٤هـ/١٩٦٣م.
- ٧- -: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وضبطه مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٨- -: المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن، أندري فيري، الدار العربية للكتاب- المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، ١٩٩٢م.
- ٩- الحميري (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م): محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، ١٩٧٥م.
- ١٠- ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): محمد أبو القاسم: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.
- ١١- الخوارزمي (ت بعد ٢٣٢هـ/٨٤٦م): أبو عبد الله محمد بن موسى: مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.



- ١٢- أبو الخير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) أبو بكر محمد بن خير بن عمر ابن خليفة: عمدة الطبيب في معرفة النبات، قم له وحققه محمد العربي الخطابي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٥م
- ١٣- الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق الجزء الثامن نذير حمدان، الطبعة الحادية عشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- ١٤- الصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) صلاح الدين خليل ابن أيبك: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط- تركي مصطفى، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م
- ١٥- عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ / ١٧٣١م): عبد الغني بن إسماعيل النمشقي الحنفي: علم الملاحه في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق- سوريا، ١٢٩٩م.
- ١٦- ابن عذارى (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) أبو عبد الله محمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، إيلفي بروفينسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٨٣م.
- ١٧- ابن العوام الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م): أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد: كتاب الفلاحة، تحقيق أنور أبو سويلم- سمير الروبي- على أرشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
- ١٨- ابن وحشية (ت ٩٣٠هـ / ) أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار ابن عبد الكريم: الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق- سوريا، د.ت
- ١٩- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي: معجم الأندباء، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٣م.
- ٢٠- : معجم البلدان، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

#### ثانيا- المراجع :

- ٢١- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م،
- ٢٢- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، مصر، ١٩٨٦م،
- ٢٣- عباس العزاوي: موسوعة عشائر العراق القديمة البدوية الحاضرة، الدار العربية للموسوعات، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م



## الكرك في كتب الجغرافية والرحلة

أ.د عامر جاد الله أبو جبلة

قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية  
جامعة مؤتة/ الأردن

### خطة البحث:

أولاً : تمهيد

ثانياً: الموقع الجغرافي ووصف المكان

ثالثاً: الحياة السياسية والإدارية

رابعاً: الحياة الاقتصادية

خامساً: الحياة الاجتماعية

سادساً: الخاتمة

سابعاً: الهوامش

### ملخص البحث

يتناول هذا البحث مدينة الكرك الأثرية والتاريخية في الأردن من حيث وصفها من قبل مصادرنا الجغرافيا العربية، والتي أشارت إليها كمدينة من المدن المهمة في شرق الأردن لموقعها وحصانتها وأهميتها في مراحل تاريخ الدول الإسلامية التي توالى عليها.. ولقد ساعد موقعها في تحديد معالم تاريخها وتأثيرها في الأحداث التي مرت بها.. فضلا عن أن كتب الرحلة والرحالة الذين زاروها أو مروا بها من مختلف الجنسيات كانوا قد أسهبوا في وصفها ووصف بيئتها وسكانها وقدموا لنا شرحاً تفصيلياً عن مدينة الكرك لا سيما الرحالة الأجانب الذين اهتموا بها كونها من المواقع الأثرية التي ترجع إلى فترة الحروب الصليبية .. وكون قلعة الكرك تعتبر من أكبر وأبرز الآثار التي مازالت شاهدة على كثير من الأحداث التاريخية البارزة في تاريخ شرقي الأردن.

## ABSTRACT

"Al Karak in Geography and Travel Books"

Prepared by: Prof. Amer Jadallah Abu Jablah / Department of History / Faculty of Social Sciences / Mutah University / Jordan

This research deals with the city of al Karak, and its archaeological and historical position in Jordan as described by our Arab geographical sources, which referred to it as an important city in eastern Jordan for its location and immunity

And its importance in the stages of the history of the Islamic countries that have ruled over it, the site has helped in determining the parameters of its history and its impact on the events that have passed.

especially foreign travelers who are interested in it as one of the archaeological sites dating back to the period of the Crusades, and the fact that the castle of Karak is one of the largest and most prominent monuments that continue to witness many of the landmark historical events in the history of eastern Jordan.

### أولاً: تمهيد:

تشير التوراة إلى الكرك بمعنى المدينة الحصينة، أو القلعة المحصنة على تل، وفي اللغة الآرامية تعني المدينة المسورة، وكذلك اسم الكرك بالآرامية القلعة، أما بناؤها، فيعود أصل بناء قلعة الكرك إلى الملك المؤابي (ميشع) (٨٦٠-٨٥٠م)<sup>(١)</sup>.

وتدل التماثيل العائدة للفترة النبطية المكتشفة في القلعة أنها استخدمت زمن الأنباط، فضلاً عن أنها أدت دورها كحصن منيع في العصور المختلفة، الإغريقية، والرومانية، والبيزنطية، كما أشارت إليها خريطة الفسيفساء في مادبا<sup>(٢)</sup>.

أما في فترة الفتوحات الإسلامية فيذكر أن قائد جيوش المسلمين الفاتح أبو عبيدة عامر بن الجراح كان قد فتحها صلحاً<sup>(٣)</sup>.

ويشار إلى أن حصن الكرك كان موجوداً ومستخدماً زمن الفاطميين، قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، واتخاذهم لها حصناً ذلك أن الصليبيين سيطروا على الكرك سنة ١١٤٢/٥٣٧م، وكانت قلعة الكرك قائمة، وكل ما فعله الفرنج أنهم زادوا في إعمارها وتحسيناتها<sup>(٤)</sup>. وتم تحريرها زمن الأيوبيين على يد العادل أخي صلاح الدين في عام ١١٨٩/٥٨٤م، بعد حصار دام سنة ونصف تقريباً<sup>(٥)</sup>. وتقع قلعة الكرك في الجهة الجنوبية الغربية من القصبية، ويفصلها خندق حفر في الصخر، ويبلغ طولها من الجهة الشرقية ٢٢٠م،

- ١- يوسف غوانمة، الكرك في عصرها الذهبي، مطبعة القبرون، عمان ٢٠٠٧م ص ٢، وإمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، ط ٢، عمان، ١٩٨٢م، ص ٤٥-٥١.
- ٢- انظر: يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، ط ٢، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٦٠.
- ٣- البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٣.
- ٤- يوسف غوانمة، الكرك في عصرها الذهبي، ص ٢.
- ٥- المرجع نفسه، ص ٤، وانظر: أحمد الحسو، الكرك عبر العصور، تاريخ الكرك في العصور الإسلامية، وزارة الثقافة، عمان ٢٠٠٥م، ص ٤٢-٤٣.



ومن الجهة الغربية ٢٤٠م ومن الجهة الجنوبية ٩٠م، أما من الشمال فيبلغ ١٣٥م، ويحيط بالقلعة سور تتخلله عدة أبراج تتخذ أشكالاً مربعة، وأسطوانية، وتكثر منافذ السهام على امتداد السور والأبراج، وتحتوي القلعة من الداخل على منشآت عديدة لأغراض عسكرية واستراتيجية، ويذكر أن بعض أجزاء القلعة كانت قد تعرضت إلى الخراب في عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م، عندما طارد إبراهيم باشا، الشيخ قاسم الأحمد زعيم نابلس، الذي كان قد لجأ إلى قلعة الكرك ليحتمي بها، وعندما دخلت الدولة العثمانية إلى قسبة الكرك سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م جعلتها مركزاً للمصرفية العثمانية، فأزلت الأنقاض والأثرية المتركمة في القلعة، واتخذتها تكتة عسكرية للجند، ومخزناً للمؤن، وقد ذكر الرحالة الإنجليزي "داولنج" الذي زار قلعة الكرك سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م أن عدد أفراد الحامية التركية المرابطة في القلعة كان نحو ١٤٠٠ جندي، وارتفع هذا العدد في القرن العشرين قبل بداية الحرب العالمية الأولى إلى ٢٠٠٠ جندي من المشاة و ٢١٥ من الفرسان<sup>(١)</sup>.

#### ثانياً: الموقع الجغرافي ووصف المكان:

اهتم الجغرافيون العرب والرحالة بوصف موقع الكرك ووصف قلعتها، ووصف المكان كل حسب مشاهداته، أو ما نقله عن سلفه من المختصين والمهتمين بهذا المكان، فهذا المقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) ذكر في كتابه أحسن التقاسيم، بعض الأماكن في منطقة الكرك فأشار إلى مآب، وقال عنها "مآب من الجبل .. وذكر مؤتة بأنها تضم قبري جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة"<sup>(٢)</sup>. أما البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) في كتابه "معجم ما استعجم" فيشير إلى مؤتة بأنها موضع من أرض الشام من عمل البلقاء<sup>(٣)</sup>.

٦- محمد سالم الطراونة، الحياة الاجتماعية في لواء الكرك (١٣١١-١١٣٧هـ / ١٨٩٣-١٩١٨م)، جامعة مؤتة، ٢٠١٠م، ص ٢٥.

٧- المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعثناء محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٣٦-١٥١.

٨- البكري، أبو عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) معجم ما استعجم، ص ٩.



ويذكر ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في كتابه "معجم البلدان" الكرك، بأنها اسم قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء، في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهو على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الريض<sup>(٩)</sup>.

وذكرها ياقوت الحموي في موضع آخر من كتابه "المشترك وضعا" بأنها: قلعة مشهورة حصينة من طرف البلقاء من أرض الشام، من ناحية جبل الشراة<sup>(١٠)</sup>.

كما ذكر شيخ الریوة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" بأنها: "مملكة الكرك، وهو حصن منيع عالٍ على قمة جبل خندقه أودية بعيدة السفلى (المنحدر) ويقال إنه كان ديرا للروم فبني حصنا، ومن جنده الشوبك"<sup>(١١)</sup>.

ثم ذكر الكرك أبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م) في كتابه "تقويم البلدان" قال: "الكرك من البلقاء، وهو بلد مشهور، وله حصن عالي المكان وهو أحد المعاقل بالشام التي لا تزال، وعلى بعد مرحلة من مؤتة وبها قبر جعفر الطيار، وأصحابه رضي الله عنهم" وهو على أطراف الشام من جهة الحجاز، وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل<sup>(١٢)</sup> وقال البغدادي (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) في كتابه "مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع" إن الكرك قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، قال: بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على جبل عالٍ<sup>(١٣)</sup>.

٩- ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، ج٥، دار صادر، بيروت، ج٤، ص٤٥٣.

١٠- المؤلف نفسه، المشترك وضعا والمعترف صقعا، جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٦م، ص٣٧١.

١١- شيخ الریوة، محمد بن أبي طالب النمشي (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد (٩ت) ص٢١٣، وانظر: المهدي عيد الرواضية، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، ص٣٢٩.

١٢- أبو الفداء، إسماعيل بن محمد (٧٣٢هـ/١٣٣١م) تقويم البلدان، صححه جوزيف توسن رينود، ومالك كوين ويسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص٢٤٦-٢٤٧، وانظر: المهدي عيد الرواضية، الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب، ص٣٢٩.

١٣- البغدادي، عبد المؤمن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٣، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤، ج٣ ص١١٥٩، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٢٩.



ويشير ابن فضل الله العمري (٧٢٧هـ/١٣٣٨م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمطار" إلى الكرك؛ إذ قال: "الكرك مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك، والشوبك أقدم منها، والكرك مدينة محدثة البناء، كان يديرها الرهبان ثم كثروا فكبروا ببناءه، وكثروا أبناءه، وأوت إليه الفرنج (الصليبيين) فأدارت أسواره، فصارت مدينة مشهورة فبنوا حصنه فكانت قلعة، فاستولى عليها الفرنج. وهو حصن في مكان صعب المرتقى، قد زاحم الشعري العبور بمناكبه..."<sup>(١٤)</sup>.

كما ذكر ابن الوردي (٧٤٩هـ-١٣٤٨م) في كتابه "جريدة العجائب وفريدة الغرائب"، الكرك من جملة بلاد الشام على أن قلعتها (قلعة الكرك) أمنع قلعة فيها، قال عن الشام: "وهو يشمل ثلاثين قلعة وليس فيها أمنع من قلعة الكرك"<sup>(١٥)</sup>.

ويشير الحميري (٨٨٠هـ/١٤٠٠م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى الكرك، قال: "حصن مشهور، ومعقل مشهور"، كما إنه يذكر أن هذا الحصن استعمله النصارى (الفرنج). وقال: وهو أعظم حصون النصارى معترض في الطريق للحجاز.. وله نظر عظيم الاتساع، متصل العمارة ينتهي إلى أربعمئة قرية"<sup>(١٦)</sup>.

١٤- ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمطار، تحقيق كرويتا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦، ص ٢١٢-٢١٣، وانظر: المهدي عيد الرواضية مرجع سابق ص ٣٣٠.

١٥- ابن الوردي، سراج الدين عمر بن مظفر (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) فريدة العجائب وفريدة الغرائب، المكتبة الشعبية، بيروت، (د.ن) ص ٣٧، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص ٣٣١.

١٦- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ق ٨٨٠هـ/ق ١٤٠٠م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٤٩٣، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص ٣٣١-٣٣٢.



أما ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م) في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" فيقول: "هي مملكة بمفردها وتسمى مأب، وهي مدينة حصينة، معقل من معاقل الإسلام، وبها قلعة ليس لها نظير في الإسلام ولا في الكفر، تسمى حصن الغراب... وبها قرى كثيرة ومعاملات والمسلك إليها صعب وبها المزارات والأماكن الشريفة، مكان جعفر الطيار، وقبر زيد بين حارثة، وقبر عبدالله بن رواحة، وقبر حارث بن النعمان، وقبر زيد بن الأرقم، وقبر زيد بن الخطاب وعبدالله بن سهل، رضي الله عنهم استشهدوا في غزوة مؤتة، وقبر عبدالله بن المبارك<sup>(١٧)</sup>."

وقال ابن شاهين أيضاً: "إن الكرك يمكن رؤيتها من القدس الشريفة، وبالقدس الشريف مصطبة على سطح الصخرة يرى منها قلعة الكرك"، كما ذكر المحطات الواصلة ما بين دمشق والكرك<sup>(١٨)</sup> أما كتب الرحلة العربية فساهمت بدورها في ذكر الكرك وقلعتها، فهذا الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، ذكر الكرك وقلعتها على السماع لا المشاهدة، وذلك في رحلته المشهورة فقال "وهو المعترض في طريق الحجاز، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق (أقل) قليلاً، وله نظر عظيم الاتساع، وينكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية"<sup>(١٩)</sup>.

- 
- ١٧- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك، صححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م، ص ٤٣.
- ١٨- المصدر نفسه، ص ١١٧، ٢٣، ١٢.
- ١٩- ابن جبير، محمد أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت (د.ت) ص ٢٦٠، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص ٣٣٤.





وكانت الرحلة العربية الثانية قد تمثلت في رحلة ابن بطوطة سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) والمعروفة بـ "تحفة النظار"، كان ابن بطوطة قد مرّ بالكرك مرافقاً للركب الشامي المتوجهة إلى الحج في شوال من سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، فوصف قلعة الكرك، إذ قال: "ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويسمى حصن الغراب، والوادي يطوف به من جميع جهاته وله باب واحد، قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد، ومدخل دهليزه كذلك، وبهذا الحصن يتحصن الملوك" (٢٠).

أما الرحلة العربية الثالثة، فكانت رحلة البلوي (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) الذي مرّ بالكرك سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، ووصفها في كتابه "تابع المفرق في تحليل علماء المشرق"، وكان في طريقه من بيت المقدس إلى مكة، قال: "وسرنا إلى أن وافينا مدينة الكرك المحروسة العليا، التي هي أمنع معقل في الدنيا، فوصلنا إليها في ضحوة الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، قد رأيت مدينة عظيمة الجرم، سامية الرسم، كأنها على مرتقب النجم يحصر دونها حوض الغمام.... متناهية في الحصانة، موصوفة بالوثاقة، ممتعة عن الطلب والطلاب... منصوبة على أصعب المسائل، وأوعر المناصب، صماء على الراقي، عالية المرتقى، نائية للمراقب، لم تزدها الأيام إلا بنو أعطاف واستصعاب جوانب وأطراف، فهو حمى لا يراعى، ومعقل لا يستطاع، كأن الأيام صافحتها على الإغفاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع، ضخمة المأوى رحبة المنوى، معشوقة السكنى، رائعة المغنى:

تحسبُ النجمَ في دُجى الليلِ زهراً.... في رُباها وتحسبُ الزَّهرَ نجماً

٢٠- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي (ن ٧٧٩هـ/١٣٧٧)، تحفة النظار، تحقيق: عبد الهادي التازي، ج ٥، الأكاديمية المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٣٤٤-٣٤٦، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.



قد ساوت الفرقد بالوهاد والنجد، وفتحت أبوابها أنقبا في وسط الحجر الصلد، والعجب كل العجب أنها على بعد مرقاها، وسمو مرتقاها، قد انبعث في أعلاها الثمار، وتفجرت منها العيون والأنهار، فكلما هب فيها النسيم غربت الأطيوار.. وأضاف: "فزلنا بخارجها (الكرك) في الثنية العلمية، وقد وصل بوصولنا المحمل الدمشقي والمركب الحلبي، وتألقت هناك ركبان الشام، وأعدت عدة السير لزيارة أفضل الأنام عليه أتم الصلاة والسلام"<sup>(٢١)</sup>.

وكانت الرحلة العربية الرابعة هي رحلة صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) نكر الكرك في رحلته للحج سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، قال: ثم يرحل (يقصد ركب الحجاج) إلى الكرك، فيأخذ إليه في خمس مراحل، ويقوم في ظاهره على مكان يعرف بالثنية ثلاثة أيام أو أربعة"<sup>(٢٢)</sup>.

كما ساهمت كتب الرحلة الأجنبية في وصف موقع الكرك الجغرافي، ووصف المكان بعامة، ذلك أن هذه الرحلات التي جاءت إلى المنطقة منذ بداية ق ١٩م كانت قد جاءت بسبب اهتمام الأجانب بالأراضي المقدسة، وتطلعاتهم الدينية<sup>(٢٣)</sup>، فكان الرحالة الألماني سيتزن (Seetezen) الذي تجول في الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م، قادمًا من مأدبا، وقد دون مذكراته ومشاهداته عن المنطقة، حيث زار سيتزن قرى الكرك العامرة ومواقعها الأثرية... وذكر

٢١- البلوي، خالد بن عيسى بن أحمد الأندلسي (تبعده ٧٦٧هـ/١٣٦٥م) تاج المفرق في تحلية علماء الشرق، تحقيق: الحسن السائح، ج٢، الرباط، (د.ت) ط١، ص٢٢٧-٢٧٧، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢٢- انظر: الجزيري، عبد القادر الحنبلي (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٢٥٧م، وانظر: المهدي عيد الرواضية، مرجع سابق، ص٣٣٦.

٢٣- السوارية، نوفان رجا، كتب الرحالة الأوروبيين عن فلسطين والأردن، مجلة دراسات (العلوم الإنسانية) الجامعة الأردنية، م١٩٨٦، ١٣، ص٢٠٧-٢١٤.

القرى المهجورة والمدمرة والخراب، فقد ذكر سيتزن أنه يوجد في منطقة الكرك أكثر من (٤٠) قرية مدمرة، وعدد القرى القديمة يتجاوز (٣٤) قرية، ويعلق سيتزن على ذلك بأن ذلك يدل على الانتعاش العظيم الذي شهدته منطقة الكرك في الماضي<sup>(٢٤)</sup>.

وقد ذكر من هذه المواقع: الثنية، وراكين، واللجون، وبتير، والسيرة، وقريفة، وشيحان، والقطرانة<sup>(٢٥)</sup>، وذات راس، ومؤته، وأريحا، وعزرا، وبذان، وحميمات، والبالوع، وبيت كروم، والياروت، ومجدولين، مع أنه مرّ فقط بالمناطق التالية، المحطة، وأريحا، والبالوع، وحميمات، وبيت كروم، والرية، والياروت، وقريفة، والكرك<sup>(٢٦)</sup>.

ولم يغفل سيتزن وصف طبيعة المنطقة الكرك الممتدة بين وادي الحسا ووادي الموجب، وأشار إلى مجموعة الأودية التي تجري خلالها من الشرق باتجاه البحر الميت ومن أشهرها وادي الحسا، ووادي الكرك، ووادي ابن حمّاد، ووادي الموجب، وأشار إلى ينابيع المياه المتدفقة في هذه الأودية وإلى الجهة الغربية من سلسلة جبال مؤاب، التي تتصف بانحدارها الشديد من الجهة الغربية نحو البحر الميت<sup>(٢٧)</sup>.

ويصف سيتزن مدينة الكرك بأنها تقع على مرتفع من الأرض تحيط به الأودية من كل جانب، قال "إن الكرك تشبه السلط من بعيد، وإنها لعلوها تمكن المشاهد في الجو الصافي أن يرى

٢٤- محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحديث)، ٩٢٢-١٣٣٩هـ/١٥١٦-١٩٢١م)، ص ٢٠٤.

٢٥- المرجع السابق نفسه، ص ٤١.

٢٦- المرجع نفسه، ص ٤٢.

٢٧- المرجع نفسه، ص ٤٣.

القدس وما حولها، وقد وصف المنطقة المحيطة بها، ذاكراً أنها من جهتها اليمنى جافة وذات صخور رسوبية وبركانية<sup>(٢٨)</sup>.

وبعد سبع سنوات من رحلة سياتزن زار منطقة الكرك الرحالة السويسري يوهان لودفيغ بيركهارت (١١٩٩-١٢٣٢هـ/١٧٨٤-١٨١٧م)، وقد تميز بدقة الملاحظة والمعرفة بتاريخ المنطقة، حيث بدأ بيركهارت في وصفه للمنطقة التي مر بها أثناء زيارته للكرك ما بين ٤ تموز - ٦ آب ١٨١٢م بالتعريف الجغرافي الدقيق لمعالم الأرض، من جبال وأودية وهضاب، ومنخفضات وسهول، واصفاً نوع التربة، وخصائصها، فكانت زيارته للمنطقة في فصل الصيف الجاف، ذاكراً ما فيها من مواقع أثرية وخرائب قديمة، معتمداً على أسمائها التي وردت في كتاب العهد القديم (التوراة) التي اطلع عليها أثناء دراسته مسترشداً بالخرائط القديمة ويكتب الرحالة الذين سبقوه وبخاصة سياتزن الذي يصفه بقوله: " هو الرحالة الوحيد الذي لا يعرف الكلال ولا الملل من بين كل الرحالة الذين زاروا سوريا في أي وقت مضى". وبعد أن يستكمل بيركهارت الوصف الجغرافي والعمراني للمنطقة يدون معلوماته عن جوانب الحياة الأخرى في الكرك<sup>(٢٩)</sup>.

أما مسار رحلة بيركهارت في منطقة الكرك، فقد جاء إلى منطقة الكرك قادماً من مادبا عن طريق وادي الموجب صاعداً نحو منطقة الكرك من الجهة الشمالية ماراً بجبل شيحان متجهاً نحو الرية ثم إلى خرائب بيت كرم وحميمات ثم إلى مدينة الكرك فوادي الفرنج ثم إلى كثرنا وخنزيرا ماراً بقرية العراق، ومن خلال استعراض الجدول الزمني لرحلة بيركهارت فإنه أمضى ثلاثة أسابيع متواصلة في مدينة الكرك من ٥ تموز - ٤ آب ١٨١٢م، وأن ما أمضاه في بقية المناطق لا يتجاوز

٢٨- المرجع نفسه، ص ٤٤.

٢٩- رحلات بيركهارت، ج ٢، ص ١١٢، وانظر، الطراونة، مرجع سابق، ص ٤٤.



أسبوعين ولم يقم بزيارة منطقة الأغوار أو الأجزاء الجنوبية من منطقة الكرك، وفي بداية رحلته وصف بيركهارت وادي الموجب أو أرنون كما ورد في الكتاب المقدس، متتبعاً مجراه من المنبع حتى المصب ذاكراً الأودية التي ترفده والأسماء التي يحملها أثناء سيره نحو البحر الميت، فهو ينبع من قرب القطرانة، وترفده أودية اللجون والنخيلة والبالوع والمخيرير، وصليحة، ولا يكفي بوصف الجريان بل يصف التربة وأنواع الحجارة<sup>(٣٠)</sup>.

ثم ينتقل بيركهارت إلى وصف معالم الهضبة في شمال الكرك حيث يرتفع جبل شيحان كأعلى قمة، وتمتد سلسلة منخفضة من الجبال من الشمال إلى الشرق تدعى الغيطة، وإلى الجنوب من الغيطة تبدأ سلسلة جبال منخفضة تدعى الطرفوية، حتى تتصل بسلسلة أخرى تدعى عراقية، وبعد هذه السلسلة تمتد سهول مستوية خصبة<sup>(٣١)</sup>.

ويذكر بيركهارت أن مدينة الكرك مبنية على قمة جبل شديد الانحدار محاط من جميع جوانبه بأودية سحيقة، وعلى الجانبين الغربي والشمالي توجد ينابيع غزيرة أشهرها عين سارة وتوجد عدة أودية تتحدر من جبال الكرك إلى السهل الواقع على ساحل البحر الميت، ومن هذه الأودية سيل الجرة، ووادي ابن حمّاد، حيث توجد ينابيع ساخنة، وقد توهم بيركهارت حين ظن أن هذا الوادي هو نهر زارد المذكور في الكتاب المقدس<sup>(٣٢)</sup>. فمن المتعارف عليه أن نهر زارد هو وادي

٣٠- المرجع نفسه، ج ٢ ص ٩٧-١٠١.

٣١- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١٠٠.

٣٢- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٢.



الحسا<sup>(٣٣)</sup>. ومن الأودية سيل الكرك، ووادي الذراع، وسيل عسال، والنميرة، ووادي خنزير، ووادي الحسا، وهو نهر يفصل منطقة الكرك عن منطقة جبال يقصد بها الطفيلة<sup>(٣٤)</sup>.

أما منطقة الغور التابعة للكرك فيذكر بيركهارت أنه لم يتسن له زيارتها كما فعل سبترن، ولذلك جاء الوصف الجغرافي لها عند بيركهارت مقتضياً ومقصوراً على وصف الساحل الواقع بين الجبال وشاطئ البحر الميت، وضيقة واتساعه وصلاحيته للزراعة في الأجزاء الجنوبية منه، التي وصفها اعتماداً على معلومات استقاها من آخرين أو قرأها في كتب من سبقوه<sup>(٣٥)</sup>.

أما وصفه للمنطقة التي مرَّ بها أثناء خروجه من الكرك متجهاً إلى كثرنا، فقد ذكر أنه مرَّ بعين الفرنج، وعين ترعين، وتمكن من مشاهدة البحر الميت من الجبال المطلّة على هذه العيون، ويصف قرية كثرنا بأنها تضم حوالي ثمانين بيتاً.... ويصف المنطقة بين كثرنا وقرية العراق بأنها برية قاحلة تتخللها عدة أودية، ويذكر أن قرية العراق بحجم قرية كثرنا تماماً، ويصف موقعها بأنها تقع في مكان فائن، وأنها مبنية على سفح شيار عمودي مرتفع تتحدر منه جداول باتجاه الوادي للأسفل<sup>(٣٦)</sup>.

أما قرية خنزيرا فيذكر بيركهارت أنها أكبر من قريتي العراق وكثرنا، وقال: «إن قرية خنزيرا مدينة مبنية على منحدر جبل أعلى الجبال الواقعة على الجانب الشرقي للبحر الميت<sup>(٣٧)</sup>. وقصد جبل مضباب الذي يرتفع ما يزيد عن ١٣٠٠م عن سطح البحر<sup>(٣٨)</sup>. ونكر بيركهارت الكثير من الخرائب

٣٣- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٢.

٣٤- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٢.

٣٥- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٢.

٣٦- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٧.

٣٧- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٧.

٣٨- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١٧.



القديمة في منطقة الكرك ومنها: فارس، وشيخان، وبيت كرم، والزّية، وأدر، والبالوع، ومؤتة، وجلجول، وكفيراز، وذات راس، ومجلين، والياروت، والمريغة، وأمرع، وجحفة، وحميمات، وتدون<sup>(٣٩)</sup>.

أما وليم فرانسيس لينش قائد البعثة الأمريكية في المنطقة لدراسة البحر الميت ومحيطه، فلقد زار منطقة الكرك في عام ١٨٤٨م، ونشرت نتائج رحلته في كتاب عنوانه "رحلات في الأردن وفلسطين" ومن جملة ما ذكره عن منطقة الكرك وصفه لغور المزرعة<sup>(٤٠)</sup>. حيث تابع سيره إلى الكرك من خلال وادي الكرك، قال: "سرنا مصعدين في وادي الكرك، وكان المنظر أروع ما شاهدت عيوننا، وبعد مسافة شاهدنا قطع أرض مزروعة... وأخيراً وصلنا إلى السور ثم إلى بوابة نحتت في الصخر<sup>(٤١)</sup>.

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا الكرك في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ه.ب. تريسترام الذي زار الكرك في عام ١٨٧٢م، ونشرت رحلته هذه في كتاب عنوانه: "رحلات في شرق الأردن"، وكان بدأ رحلته هذه من غور الصافي ثم عبر الكرك وقراها، ثم قرى شيخان وإلى وادي الموجب شمال الكرك، وذكر أن طريقهم ومسيرهم نحو الكرك باتجاه الطرف الجنوبي لوادي الكرك، وقال: "عندما صعدنا إلى أعلى بدأ الوادي يتسع، فشهدنا هنا وهناك عدداً من بيوت البدو التي ظهرت من بعيد، وكأنها بقع سوداء في السفوح الجبلية، ورأينا الكرك تشمخ أمامنا بجرانها وقلعتها القوية الرائعة، حيث إنّ الجهة الجنوبية منها كانت ذات أهمية كبرى، ولكي تصل إلى المدينة كان يتعين علينا أن ننحدر إلى الوادي لنصعد بعد ذلك الطور الصخري الذي تتربع على قمته هذه المدينة، واستغرق مسيرنا هذا ساعة بدءاً من جدول الماء لنصل في نهايتها إلى المدخل المؤدي إلى الكرك، والذي هو عبارة عن ممر ضيق على طول جوانب الانحدار الممزق، وكان رغم ضيقه مزروعاً بالجلاميد الصخرية، بالإضافة إلى أنه منحدر للغاية، حتى إنه في بعض الأحيان يصبح من الصعوبة البالغة أن تمر خيولنا عبره، وعندما اقتربنا من قمة هذا القمع المخروطي انعطفت فجأة في

٣٩- المرجع نفسه، ج ٢ ص ١١١.

٤٠- دائرة الثقافة والفنون، رحلات في الأردن وفلسطين، وليم لينش (١٨٠١-١٨٦٥م) قائد البعثة الأمريكية لدراسة البحر الميت ومحيطه، ط١، عمان، ١٩٨٧، ص ٩٠، ٩١

٤١- المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥..



نفق مسقوف بالأقواس الحجرية فسرنا وسط ارتباك وتعثر عبر الظلام لمسافة تبلغ حوالي ثمانين ياردة، ظهرنا بعدها إلى المساحة المفتوحة داخل سوق الكرك<sup>(٤٢)</sup>.

وأشار تريسترام إلى الكرك أيضاً، قال: " فموقعها قوي للغاية بشكل طبيعي إلى درجة أنها كانت مكان قلعة بنيت عليها منذ الأزمنة الغابرة، فهناك حاجب صخري شامخ يندفع باتجاه الغرب، تلو قمته مساحة مسطحة، حتى ليبدو الموقع على شكل رأس تقع عنقه في المضيق الجنوبي الشرقي، مما يعطيه شكل شبه الجزيرة، في وقت ينحدر البرزخ - إذا جازت التسمية - بشكل متدهور سريع على الجوانب قبل أن يبدأ بالارتفاع ثانية ليتوحد مرة أخرى مجتمعاً في تل شامخ يقع إلى الشرق من برزخ القلعة، ويرتفع موقع الكرك ٣٧٢٠ قدم عن سطح البحر، ومع هذا فهي محاطة بمرتفعات أخرى يصل ارتفاعها إلى أربعة آلاف وخمسين ٤٠٥٠ قدم.. وبدأت الأرض لنا قاسية وصعبة في كل مكان حولنا ما عدا العنق، كما كانت تبدو بدرجة أقل قساوة في الجهة الشمالية الغربية، وهناك واديان عميقان يبلغ عمق كل منها ١٠٠٠-١٣٥٠ قدم وهي ذات جوانب حادة الارتفاع، وأخرى ذات شكل مهلهل ممزق ألا وهما وادي حماد في الجنوب ووادي الكرك في الشمال، واللذان يلتقيان ويتحدان على مسافة ميل غربي المدينة يشكّل تلاقيهما المجرى الذي سلكناه في طريقنا إلى الكرك، أما الضلع الثالث للمثلث فهو وادي كبيشه الذي ينطلق من المنخفض الذي سمّيته العنق حيث ينحدر مسرعاً نحو وادي الكرك<sup>(٤٣)</sup>. كما وصف القلعة وأجزاءها ومكوناتها وأبراجها والعهد التي مرت بها من خلال الإضافات على بناء هذه القلعة<sup>(٤٤)</sup>.

٤٢- ه.ب. تريسترام، رحلات في شرق الأردن، ترجمة أحمد عويدي العبادي، الدار العربية للنشر والتوزيع، وزارة

الإعلام والثقافة، ط١، عمان، ١٩٨٧م، ص٧٥-٧٦.

٤٣- المرجع نفسه، ص٧٧-٧٨.

٤٤- المرجع نفسه، ص٧٨-٨٤.





وتجول تريسترام في ربوع مناطق الكرك المحيطة بها، قال: " وصلنا إلى السهول الجبلية فوق مرتفعات مؤاب، حيث اعتلينا القمة التي تبدو من الجانب الآخر سلسلة جبلية، والتي هي في الحقيقة لا تتجاوز كونها سهلاً عالياً يشمخ بمقدار ٤٠٠٠ قدم فوق البحر الميت، والذي يرفع بلطف واتساق نحو الشرق لمسافة خمسة وعشرين ميلاً تقريباً أما مسيلات الأودية المتجهة نحو الغرب والتي بدت لنا لدى صعودنا من عند البحر الميت بأنها غنية الملاح والسمات، فقد وجدناها لا تتعدى أن تكون أكثر وديان لطيفة تفصلها تلال جبلية مطوية خالية من الانحدار، وعندما يكون حجر الليموستوني أعلى من التربة الزراعية الخصبة، فإننا نجد الكثير من الكهوف المحفورة تحتها، المستخدمة كأبار لتجميع المياه<sup>(٤٥)</sup>.

ثم توجه تريسترام نحو الجنوب الغربي للكرك انطلاقاً من "كرينز"، حيث انتهى إلى قمة ربوة من الأطلال تدعى "خربة عزيزة"، حيث توجد بقايا كثيرة منها مع وجود عدد كبير من الأودية ولدى تتبعه للآثار القديمة، وعلامات الأيام الغابرة، وجد معصرة حجر محفورة في الصخر<sup>(٤٦)</sup>.

كما مرّ تريسترام بمؤتة وذكر أنه يرقد إلى جانبها ضريح الشهيد جعفر بن أبي طالب، وقبره طويل بني عليه قبة تقوم فوق أعمدة، وبعد مسير نصف ساعة ركبناً وصلوا إلى وادٍ ضيق حيث سلكوا فيه طريقاً وعراً أدى بهم إلى بئر عميق يدعى بئر مدين ومن خلفه مدينة قديمة، تقوم على سفح الجبل المحاذي وقمته، وقال: "وجدنا بئر مدين كهفاً طبيعياً بعمق عدة أقدام، ويبدو أنه يتغذى من نبع حار تحت الأرض، ونزلنا عبر درجات إلى قعر البئر، ووجدنا بئرين آخرين في نفس الوادي، وبالقرب من فتحات أبواب الآبار شاهدنا عدداً من الأحواض الصخرية المنحوتة

٤٥- المرجع نفسه، ص ١٠٢-١٠٣.

٤٦- المرجع نفسه، ص ١٠٤.



على شكل تابوت، ووجدنا فيها ماء استقينا منه خيولنا، يبدو أن بعض المسافرين قد تركوها لمن بعدهم، بعد أن سحبوا الماء<sup>(٤٧)</sup>.

ثم واصل تريسترام سيره شمالاً وقال: "وسرنا خمس عشرة دقيقة وسط أرض وعرة، وصلنا بعدها إلى خرائب مدين على قمة تله حيث تمتد على سهل يتربع قمة الجبل، وذلك ما يجعلها تختلف عن سائر المدن القديمة الأخرى ... وبدا لنا أننا تركنا السهل المستوى الذي يمتد بعيداً في الشرق والجنوب، بينما نجد أنفسنا في الجهة الغربية ندخل التلال مرة أخرى، حيث توجد قلعة الكرك التي تعتبر مفتاحها جميعاً من الغرب، ووجدنا الآثار كثيرة وفي حالة جيدة ... فهناك حجارة مربعة ذات أحجام كبيرة بينما لا تزال العديد من الحيطان تقف على نفس ارتفاعها الذي أشيبت به غابر الأزمان، لقد رأيت عدداً من التوابيت ملقاة هنا وهناك، استخدم أحدها كعتبة لباب قديم، كما توجد عدد من بقايا النصوص الرومانية المبعثرة، ومعصرة زيتون مكسورة، وعندما نظرنا إلى الشمال شاهدنا جبل شيحان يقف بوضوح وهو يسد الأفق الشمالي... واستغرقت رحلة العودة من مدين إلى الثنية زهاء ساعة ركبناً، وساعة أخرى من الثنية إلى الكرك"<sup>(٤٨)</sup>.

ومرّ تريسترام في الطريق إلى الرّبة، حيث مرّ بعدد من الخرب عددها أربعة منها راكين، ولقد أعطى رأيه في أن المدين في جنوب الكرك أكثر منها في الشمال؛ لأنه يعتقد أن طبيعة المنطقة الجنوبية كونها عبارة عن تلال أو ربوات صخرية تساعد على حفر الآبار لجمع المياه، ولذلك فضل أهل هذه المناطق الاستقرار في مواقع يتوفر فيها تخزين المياه بشكل لا حدود له<sup>(٤٩)</sup>.

٤٧- المرجع نفسه، ص ١٠٦.

٤٨- المرجع نفسه، ص ١٠٧.

٤٩- المرجع نفسه، ص ١١٠.



وفي طريقه إلى الرية أيضاً يشير تريسترام إلى مشاهدته للطريق الروماني الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، حيث لم تنزل رصفته موجودة قائمة رغم أنها معطوبة في بعض المواقع، حيث أزيحت حجارة الرصيف إلى الجوانب بفعل الزمن والمطر بينما لا تزال الجوانب قائمة على جناحها (جناحي الطريق) وسرنا فوق شارع معبد مهشم، ويشير إلى الرية بأنها قريبة من الحدود الشمالية لبلاد مؤاب تلك الحدود المنتهية بوادي أرنون (الموجب) وأنه لا توجد آثار لمدينة ذات أهمية بينها وبين نهر الموجب، ولقد وجدنا مادة غزيرة في الرية لدرجة تستحق الاستكشاف، لقد بدا من مكان المدينة مربع يشقه الطريق الروماني إلى قطاعين من الشمال إلى الجنوب، ولا تزال آثار الشارع الرئيس موجودة والرية تحمل جميع علامات المدينة الرمانية المتأخرة مع توفر الكثير من معالم آثار الحقب السابقة<sup>(٥٠)</sup>.

ويفصل تريسترام حديثه عن الرية فذكرها بقوله: ويبلغ طول المدينة الرومانية مقدار ثلاثة أرباع الميل لكل جهة، وشاهدنا العديد من التلال الاصطناعية التي تدل على وجود أضرحة وبنائيات مطموسة بالتراب عليها الأعشاب وهي تستحق الحفريات، ويوجد أيضاً معبد يبرز منه عمودان من الطراز الكورنثي وأجزاء أخرى فيها قوسان، وهناك بركتان مفتوحتان واسعتان، وأما ما تبقى من المدينة فهو كومة من الجدران المهذمة، وقد تناثرت هنا وهناك أجزاء من الحجارة المنحوتة وتوابيت مكسورة وجدران من الحجر البازلتي وقناطر وأقبيبة قوسيه من جميع الأحجام التي لا زال بعضها يستخدمه العرب حظائر لمواشيهم ومهاجع لنومهم، ومخازن لمنتجاتهم، كما توجد في بعضها أعداد لا تحصى من الحمام البري، أما القناطر فلا حصر لها لكثرتها، ويبدو أن الرومان قد استخدموا حجارة كانت في صروح أبنية ضخمة أخرى بناها أقوام سبقوهم، أما مادة المدينة، فهي من الليموستون، ووجدنا عدداً من الواجهات المبنية من الحجر الناري والذي لا بد أنه

٥٠ - المرجع نفسه، ص ١١٠-١١١-١١٢.



جاء به من جبل شيحان الذي يبعد عن الرّبة عدة أميال، وقد تم استخدام هذا الحجر الناري في الجدران والأقواس معاً، حيث كان بعضها مشذباً بنعومة بينما البعض الآخر منحوتاً بشكل مقوّس، والتي تدل على وجود مدينة مؤابيه تتقدم زمنياً على الرومانية، ومن بين هذه المجموعات البازلتية تشاهد شرائح من العوارض المرتكزة على أعمدة قائمة كما إن عدداً من التوابيت منحوت من البازلت أيضاً، ولكن دونما أية زينة نحتية، وفي النهاية الشرقية للمدينة تجثم بقايا بنايات مربعة، حيث يبرز صف من الأعمدة تحيط بساحة مركزية دائرية قد تكون موقعا لقصر العدل<sup>(٥١)</sup>.

ويشمل قصر الرّبة على معبد رائع ضخم، ولا يوجد حوله من آثار البنايات الأخرى إلا بقايا خافتة ويبدو واضحاً أنه (المعبد) يقف وحده، وملحق به عدة عنابر لتجمع الحضور فيها، أما سور الحصن فمبني من حجارة مربعة يبلغ طول بعضها ٦ قدم X ٣ قدم، والسور محبوك بسلسلة من بقايا الأعمدة التي لم يقع منها أي عمود وهي ذات طابع كورنثي<sup>(٥٢)</sup>.

وذكر تريسترام وصوله إلى جبل شيحان شمالاً وقال: "على مدى جميع سفوحه الجنوبية شاهدنا أعداداً لا تحصى من الحظائر المحاطة بسلاسل حجرية من حجر البازلت الذي اختير بعناية فائقة، وتغطي بقايا الكروم عدداً من الهكتارات، والتي تدل على أن مدينة شيحان كانت ذات مدى واسع عظيم<sup>(٥٣)</sup>".

وأضاف: ربما يجوز لي الاجتهاد في أن قلعة البلدة القديمة ومركز حمايتها هي التي جاءت على شكل بناية تتربع على قمة التله مبنية من حجر الليموستون الذي يخالطه تناثر الحطام والبقايا بما يشير إلى أكثر من عصر تتابع على هذه المكان ولنفس غاية الحماية والدفاع، في هذه القلعة

٥١- المرجع نفسه، ص ١١٢.

٥٢- المرجع نفسه، ص ١١٩.

٥٣- المرجع نفسه، ص ١٢٢.



وجدت بقايا معبد روماني وأسطوانات أعمدة حجرية مكسرة متناثرة وأعمدة أيونية، وعدداً من الآبار الواسعة العميقة التي لم تزل مقصورة بالشيد حتى الآن، وبطريقة متقنة، ويوجد بئران منها كانا في الأصل مغائر تم توسيعهما واستغلالهما، هذا بالإضافة إلى آبار أخرى عميقة ليست مقصورة بالكامل. وتستخدم قبيلة بني حميدة هذا الموقع كمقابر كما وصف المكان بأنه بالإمكان رؤية البحر الميت والقدس وبيت لحم وصدع وادي الموجب الذي يستمر حتى البحر الميت<sup>(٥٤)</sup>.

كما وصف تزيسترام المناطق الواقعة نحو الشمال الشرقي من شيحان لمسافة ٢٥ دقيقة من المسير، ويقول عنها "ربما تكون أكثر الأماكن التي رأيناها فقراً، وإطاماساً للعالم، حيث إنها مستوية كلها مع الأرض تماماً". كما واصل سيره شرقاً لمدة سبعين دقيقة أخرى، فوصل إحدى الخراب التي تحاذي محطة الحجاج، والتي هي مجرد قلعة ذات أصل إسلامي على ما يبدو، وهناك بقايا مدينة تعود إلى وقت أقدم من تاريخ القلعة<sup>(٥٥)</sup>.

أما السير أليل كركبرايد الذي أقام في الكرك ما بين ١٩١٨-١٩٢٠، كضابط إدارة بريطانية لمنطقة الكرك قبل وصول الأمير عبدالله بن الحسين إلى شرقي الأردن، وتأسيس الإمارة سنة ١٩٢١م، فأعطى أليك كركبرايد معلومات مهمة عن الكرك، واصفاً الحديث والقديم للكرك، قال: وأشيدت مدينة الكرك الحديثة في أحضان عش القلعة القديمة، ويمكن لمن يقف على أسوارها يتنفس هواءً نقياً، وأن يرى الأغوار والسلسلة الجبلية حتى البحر الميت وجبال جنوب فلسطين حتى القدس التي يمكن رؤية انعكاسات أشعة الشمس على نوافذها في الصباح، وبالعين المجردة<sup>(٥٦)</sup>.

٥٤- المرجع نفسه، ص ١٢٤، ١٢٣.

٥٥- المرجع نفسه، ص ١٢٤.

٥٦- أليك كركبرايد، خشخشة الأشواك، ترجمة أحمد عويدي العبادي، دار النفائس، ط ١، المفرق، الأردن، ١٩٨٧م، ص ٣٠-٣١.



### ثالثاً: الحياة السياسية والإدارية :

لم تهتم كتب الجغرافية العربية بالجانب السياسي للكرك، وإن كانت هناك بعض الإشارات هنا وهناك وهي قليلة جداً، ولكن منذ البداية ذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم إشارة إلى وقعة مؤتة بين المسلمين والروم سنة ٨هـ، وذكر مؤتة بأنها "تضم قبري جعفر الطيار وعبد الله بن رواحة"<sup>(٥٧)</sup>.

أما البكري في كتابه معجم ما استعجم، فذكر أيضاً أحداث معركة مؤتة سنة ٨هـ، وأن المسلمين التقوا الروم في قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء، ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة<sup>(٥٨)</sup>. كما ذكر شيخ الریوة (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) في كتابه "تخبة الدهر في عجائب البر والبحر" الكرك في زمنه بأنها: "مملكة الكرك" وذكر أن من جند الكرك الشويك، وأن حصن الكرك خزنة الأتراك ومعقلهم، ويتسلمه نائب مأمون عندهم"<sup>(٥٩)</sup>.

وأشار كذلك أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) إلى موقعة مؤتة أيضاً، وذكر أن بها قبر جعفر الطيار، وأصحابه رضي الله عنهم<sup>(٦٠)</sup>.

أما ابن فضل الله العمري (٧٢٧هـ/١٣٤٨م) في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، فقد ذكر استيلاء الفرنج (الصلبيين) على الكرك، حتى فتحت في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب<sup>(٦١)</sup>.

٥٧- المقدسي، مصدر سابق، ص ١٣٦، ١٥١.

٥٨- البكري، مصدر سابق، ص.

٥٩- شيخ الریوة، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

٦٠- أبو الفداء، مصدر سابق، ص ٣٢٩.

٦١- ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، ص ٣٣٠.



ويشير الحميري (ت ق ٨٨٠هـ/٤٤٠م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى الكرك، بأن حصنها (قلعتها) استعمله النصارى (الفرنج) الصليبيون واستخدموه كمعقل لهم، يقطعون من خلاله الطريق على المسلمين في البر، قال: وهو أعظم حصون النصارى معترض في طريق الحجاز... ونزله صلاح الدين بعساكره وضيق عليه وطل حصاره له، وقال: وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب... كما أشار الحميري إلى أنه في زمن السلطان العادل سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أيوب كانت خزائن أموال الدولة بهذا المعقل (القلعة)<sup>(٦٢)</sup>.

وأشار ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م) في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" إلى الكرك قال: هي مملكة بمفردها... ولم تكن فتحت عنوة قط، وإنما فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وكانت بيد البرنس أرنط وكان يتعرض إلى حجاج بيت الله الحرام<sup>(٦٣)</sup>.

وذكر ابن شاهين أيضًا أن الملك صلاح الدين بن أيوب عندما افتتح عكا من الصليبيين حمل قفلها بمفتاحه وهو حمل فرس إلى سجن قلعة الكرك وقال: "وهو بها الآن من العجائب"<sup>(٦٤)</sup>. وعند ذكره لمراكز الأبراج التي تعنى ببريد الحمام التي تربط بين بلبيس وسلطنة مصر والكرك قال: بلبيس ثم الصالحية، ثم قطب، ثم الواردة، ثم غزة، وإلى القدس الشريف وإلى نابلس وإلى الخليل عليه السلام ثم الصافية والكرك<sup>(٦٥)</sup>.

٦٢ - الحميري، مصدر سابق، ص ٣٣١-٣٣٢.

٦٣ - ابن شاهين الظاهري، مصدر سابق، ص ٤٣.

٦٤ - المصدر نفسه، ص ٤٤.

٦٥ - المصدر نفسه، ص ١١٧.

ويشير ابن شاهين إلى أصحاب الوظائف في الكرك في أيامه (ق ٩ هـ/ق ١٥م) في زمن المماليك، قال: "وكان بها قديما أمراء وأجناد حلقة والآن فيها حاجبان، وقاضيان، وكاتب سر، وناظر جيش، ونقيب جيش، ومحتسب، ومتولي، ونائب قلعة، وأمير عشرينات، وبعض أجناد الحلقة، وبحرية، وغلمان سلطانية أصحاب نوب، وأمير عربان له إمرة بالكرك، وكانت نيابة الكرك لا يتولاها إلا أتابك العساكر المنصورة، أو هو نظيره... وكانت نيابة الكرك متحصلها في كل شهر قريب من عشرة آلاف منقال ذهب"<sup>(٦٦)</sup>.

أما الإشارات السياسية عند الرحالة العرب في كتب رحلاتهم فيذكر ابن بطوطة في سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، بأنه بهذا الحصن (الكرك) يتحصن الملوك، وإليه يلجئون في النوائب وله لجأ الملك الناصر؛ لأنه ولي الملك وهو صغير السن، فاستولى على التدبير مملوكه سارر النائب عنه، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج، فلما وصل عقبة أيلة لجأ إلى الحصن وأقام فيه أعواماً إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه الممالك ... وكان قد ولي الملك في تلك الفترة بيبيرس الششكير، وهو أمير الطعام، وتسمى بالملك المظفر ... فقصد الملك الناصر بالعساكر ففر بيبيرس إلى الصحراء فنتبعه العساكر، وقبض وحبس في جب حتى مات جوعاً"<sup>(٦٧)</sup>.

أما الرحالة الأجنبي بريكهارت الذي زار الكرك في عام ١٨١٢م فقد تعرض في رحلته إلى وصف النزاعات القبلية والمظاهر الاجتماعية السائدة في الكرك، فالعلاقات القائمة بين القبائل قائمة على القوة والتحالفات التي تظهر بين الحين والآخر للحد من شوكة القبائل، وخاصة ما

٦٦- المصدر نفسه، ص ١٣٢.

٦٧- ابن بطوطة، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣٤-٣٤٦.





حصل مع قبيلة العمر، حيث تحالف شيخ الكرك مع قبيلة الحويطات لإقصاء قبيلة العمر من حول المدينة، وتحالفت العمر مع قبيلة العدوان للعودة مجدداً إلى المنطقة.

كما إن غارات البدو لا تتقطع من جميع الجهات، مثل غارة قبيلة الرولة على مضارب عشائر المسيحية مشرق الكرك، وغارات الترابين على المناطق المطلة على البحر الميت، وكانت النزاعات تظهر أحياناً؛ بسبب اقتسام مناطق الرعي، أو الامتناع عن دفع الأتاوى أو زيادتها، وكان اللصوص وقطاع الطرق يقومون بأعمال السلب والنهب، لذلك سعى أهل الكرك على تربية أبنائهم على الفروسية، واستعمال السلاح منذ الصغر، وامتلاك البندقية واقتناء الجياد أمران ضروريان<sup>(٦٨)</sup>.

ويشير بيركهارت إلى أن النفوذ الوهابي كان قد وصل إلى الكرك سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، ويذكر أن العلاقة كانت قائمة على نشر مبادئ الدعوة الوهابية، وجباية الضرائب من أهل المنطقة، وكان الوهابيين قد وطدوا علاقتهم مع الشيوخ المحليين، منهم شيخ الكرك الذي نصبوه أميراً للبدو من دمشق ولغاية البحر الأحمر<sup>(٦٩)</sup>.

ثم أصبحت الكرك من المناطق التابعة لولاية الشام العثمانية، وعمل الوالي سليمان باشا العادل التابع للسلطة العثمانية على إنهاء النفوذ الوهابي في جنوب سوريا، بعد أن وصلوا إلى قرية المزيريب على بعد ١٠٣ كم جنوب دمشق<sup>(٧٠)</sup>. وقد استمرت الكرك في تبعيتها لولاية الشام حتى سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م. عندما خضعت للحكم المصري<sup>(٧١)</sup>.

٦٨- بيركهارت، رحلات بيركهارت، ج٢، ص١٠٥.

٦٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧.

٧٠- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٧.

٧١- محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحديث)، ص٥١.



أما أليك كركبريد الذي أقام في الكرك من ١٩١٨-١٩٢٠م كضابط إداري بريطاني لمنطقة الكرك، فقد أشار إلى قبائل الكرك بأنها لم تخضع بشكل كامل لسلطة الأتراك من قبل، مشيراً إلى أن الكرك تتميز بعدد من الخصائص فالكرك تخلو من الطرق المعبدة، والهواتف، واللاسلكي<sup>(٧٢)</sup>.

#### رابعاً: الحياة الاقتصادية:

تشير كتب الجغرافية العربية إلى بعض النشاطات الاقتصادية في منطقة الكرك، فهذا المقدسي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) ذكر في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" منطقة الكرك فأشار إلى مآب بأنها كثيرة القرى واللوز والأعناب<sup>(٧٣)</sup>.

أما ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، فأشار في كتابه "بسطة الأرض" إلى تجارة أهل الكرك مع البحر الأحمر وخاصة النصارى منهم؛ إذ قال: إن أهل الكرك والشوبك كانوا يبادلون الزبيب والزيت والزيتون بالسمك المقدد مع أهل جزائر الغول الواقعة أسفل شعبة خليج العقبة<sup>(٧٤)</sup>.

وذكر أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) في كتابه "تقويم البلدان"، جانباً من نشاط أهل الكرك الاقتصادي قال: وتحت الكرك وإد فيه حمّام وبساتين كثيرة وفواكه مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك<sup>(٧٥)</sup>.

٧٢- أليك كركبريد، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١.

٧٣- المقدسي، مصدر سابق، ص ١٣٦، ١٥١.

٧٤- ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص ٣٢٨.

٧٥- أبو الفداء، مصدر سابق، ص ٣٢٩.



وأشار الحميري (ت ق ١٤/هـ ٨م) في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" إلى النشاط التجاري مع منطقة الكرك مشيراً إلى أنه على الرغم من الحروب بين المسلمين والصليبيين إلا إن الحركة التجارية كانت تسير على خير ما يرام قال: "ومع ذلك فالقوافل تمر من مصر إلى بلاد الفرنج (الصليبيين) إلى دمشق غير منقطعة، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يتعرض له، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمن على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعتهم والاتفاق بينهم في ذلك والاعتدال في جمع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"<sup>(٧٦)</sup>.

ثم هناك إشارة اقتصادية في بعض كتب الرحلة العربية لمنطقة الكرك ذلك أن ابن بطوطة في رحلته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ذكر منطقة اللجون من أعمال الكرك من حيث وجود الماء فيها، قال: "ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري"<sup>(٧٧)</sup>، الذي من شأنه أن يستخدم في الزراعة.

وفي رحلة البلوي الذي مرَّ بالكرك سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م والذي وصف الكرك بقطعة أدبية مشوقة، فنكر ثمارها قال: والعجب كل العجب أنها على بعد مراقها، وسمو مرتقاها، قد انبعث في أعلاها الثمار، وتفجرت منها العيون والأنهار، فكلما هب فيها النسيم غردت الأطيوار"<sup>(٧٨)</sup>. كما عنت كتب الرحلة الأجنبية بذكر نشاطات سكان الكرك الاقتصادية، فيذكر الرحالة الألماني سيتزن (Setzen) الذي تجول في الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م وزار قرى الكرك العامرة، ووصف طبيعة المنطقة ومصادر المياه وأنماط الزراعة السائدة.. وأشار إلى سكان الغور بأنهم

٧٦- الحميري، مصدر سابق، ص ٣٣١-٣٣٢.

٧٧- ابن بطوطة، ج ١، مصدر سابق، ص ٣٤٤-٣٤٦

٧٨- البلوي، مصدر سابق، ص ٣٣٥.

يعتمدون على الزراعة وأن من أهم المزروعات لديهم النيلة التي يبيعونها في دامية، إضافة إلى أنماط الزراعات التقليدية من الأشجار والحبوب<sup>(٧٩)</sup>.

وأشار سيتزن إلى القبائل النبوية المقيمة في الكرك قد تضطر إلى الانتقال إلى القدس والخليل للبحث عن مراعي خصبة لجمالهم ومواشيهم، ويقول: "وهم لا يجدون صعوبة في هذا الأمر، ولا يدفعون مقابلًا لذلك"<sup>(٨٠)</sup>. ويضيف سيتزن: "بالإضافة إلى تربية المواشي هناك الكثير من المزروعات كالأشجار المثمرة والحبوب والبقوليات التي يصدر الفائض منها إلى الخليل والقدس ودمشق، ويتم استبدالها بالألبسة والمنسوجات والصابون، والدخان (التبناك)، كما يتم جلب المنسوجات والعباءات والعُقل مندمشق، كما شاهد سيتزن سكان الغور يقومون بجمع الملحمن الساحل الشرقي للبحر الميت والاتجار به"<sup>(٨١)</sup>. وبالمجمل وصف منطقة الكرك بأنها غنية حيث قال: "وأن مؤاب دائما هي أرض غنية"<sup>(٨٢)</sup>.

أما الرحالة بيركهارت الذي زار الكرك في عام ١٨١٢م، فأشار إلى الكرك بأنه يوجد بها ينابيع غزيرة المياه، أشهرها عين سارة... وذكر أوديتها الخصبة<sup>(٨٣)</sup>. معرجًا على منطقة الغور التابعة للكرك، مشيرًا إلى صلاحية هذه المنطقة للزراعة في الأجزاء الجنوبية من الغور<sup>(٨٤)</sup>. وعندما زار بيركهارت قرية كثرنا من أعمال الكرك ذكر أنه مر بعين الفرنج، وعين ترعين، وقال: لها بساتين كثيرة أكثرها من أشجار التين الضخمة، كما ذكر قرية العراق القريبة من كثرنا،

٧٩- انظر: محمد سالم الطراونة، مرجع سابق، ص ٤٢.

٨٠- المرجع نفسه، ص ٤٢.

٨١- المرجع نفسه، ص ٤٣.

٨٢- المرجع نفسه، ص ٤٤.

٨٣- بيركهارت، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٢.

٨٤- المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٢.



وأشار إلى وجود زراعة الحبوب والأشجار المثمرة وعذوبة ماء الينابيع في قرية العراق، وأشار إلى الفواكه الجيدة فيها<sup>(٨٥)</sup>.

وعند ذكر بيركهارت لقرية خنزيرة أشار إلى أنها منطقة خصبة وفيها الكثير من الجنائن التي تروى بمياه الينابيع، وأن حياة الفلاحين فيها أحسن من حياة البدو<sup>(٨٦)</sup>. ويشير بيركهارت إلى أن الغالبية من سكان الكرك يعتمدون على تربية المواشي والزراعة، وبعض الحرف المحددة كالحداثة، وصناعة الأحذية، وصياغة الفضة<sup>(٨٧)</sup>.

وذكر بيركهارت أن هناك تبادلاً تجارياً مع القدس، حيث يبيع أهل الكرك الأغنام والبغال والجلود والصوف ويشترون البن، والأرز والتبغ والأثاث المنزلي، وأشار إلى أن المسيطرين على التجارة تجار الخليل، فلهم حوانيت في مدينة الكرك، وتجري التجارة بينهم بالمقايضة، ويقدر قيمة كل شيء بالحنطة، المادة الرئيسة في التبادل التجاري بينهم<sup>(٨٨)</sup>. ويستغل الكركيون قدوم قافلة الحج (المحمل الشامي) لبيع الميرة من جميع الأصناف للحجاج في منطقة القطرانة<sup>(٨٩)</sup>. كما توجد داخل بيوت أهل الكرك خزانات قمح ترابية تسمى (كواري)<sup>(٩٠)</sup>. ويشير بيركهارت إلى منتجات البدو كالسمن واللبن، ولكنه ذكر بأن البدو يعتبرون بيع السمن واللبن سبباً ونقيصة، لا يقوم عليها إلا أرذل القوم، رغم الفقر الشديد والعوز<sup>(٩١)</sup>.

٨٥- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٧.

٨٦- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٧.

٨٧- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.

٨٨- المرجع نفسه، ج٢، ص١١٠-١١١.

٨٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.

٩٠- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.

٩١- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.



وعندما زار الرحالة الأمريكي وليم فرانسيس لينش المنطقة في عام ١٨٤٨م، زار قرية المزرعة في غور المزرعة من أعمال الكرك، وذكر أن سكانها يزرعون الذرة ونبات التبغ وبعض النيلة<sup>(٩٢)</sup>. وعند صعود وليم لينش في وادي الكرك شاهد قطع أراض مزروعة بالحبوب، وأشجار الزيتون<sup>(٩٣)</sup>. وذكر أن بعثته قد حصلوا على كمية من القمح، ذلك أنهم أخبروه أن أهل هذه القرية لم يفيديوا كثيراً من مزرعاتهم خلال السنين السبعة السابقة نتيجة الجراد والرياح الشرقية<sup>(٩٤)</sup>. وذكر لينش عند تجواله في مدينة الكرك أنه وجد دكاناً فيه قماش موسلين من صنع إنجلترا، وثمار مشمش مجففة<sup>(٩٥)</sup>.

ويشير الرحالة ه.ب. تريسترام الذي زار الكرك في عام ١٨٧٢م، إلى أن أهل الكرك يزرعون قاعدة وادي الكرك زيتوناً وثيناً ورمناً وعباً وبعض البقع من الحنطة. وقال: "وتوقفنا على رصيف شكلته فتحة الوادي، حيث تتبثق منه نبعة ماء جميلة تتساب وسط الأعشاب"<sup>(٩٦)</sup>. وذكر تريسترام وجود معاصر العنب المنحوتة في الصخر في المنطقة كدليل على زراعة العنب في الكرك<sup>(٩٧)</sup>.

وعند زيارته منطقة الرّبة من أعمال الكرك أشار إلى زراعة الحبوب حول منطقة الرّبة، فذكر أنه شاهد بعض البقع المحروثة هنا وهناك وهي مبدورة بالحبوب، أما بقية الأرض فتعج

٩٢ - دائرة الثقافة والفنون، رحلات في الأردن وفلسطين، ص ٩١.

٩٣ - المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.

٩٤ - المرجع نفسه، ص ٩٥.

٩٥ - المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.

٩٦ - ه.ب. تريسترام، المرجع نفسه، ص ٧٥، ٧٦.

٩٧ - المرجع نفسه، ص ١٠٣.

بالأعشاب، وذكر تريسترام أن الناس يتبعون نظاماً زراعياً في تلك الأراضي قال: وهناك وجدنا أن الناس يزرعون جزءاً من الأرض بغلة واحدة ويتركون الباقي للراحة ثم يتركون الموقع الذي زرعه مدة ثلاث سنوات أو أربعة دونما زراعة، حيث يستغلون خلالها بقعا أخرى<sup>(٩٨)</sup>. كما أشار إلى كروم شيحان من أعمال الكرك، والتي تغطي عدداً من الهكتارات<sup>(٩٩)</sup>.

---

٩٨ - المرجع نفسه، ص ١٢١، ١٢٢.

٩٩ - المرجع نفسه، ص ١٢٢.

### خامساً: الحياة الاجتماعية:

أشار ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في كتابه "بسط الأرض" إلى وجود النصارى في الكرك وتجارته مع البحر الأحمر<sup>(١٠٠)</sup>. وأكد هذا فيما بعد ابن فضل الله العمري (ت ٧٢٧هـ/١٣٤٨م). في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" إنقال: "كان ديراً (حصن الكرك) يديره الرهبان ثم كثروا فكبروا ببناءه، وكثروا أبناءه، وأوى إليهم أناس من مجاوريهم النصارى، فقامت لهم به أسواق .."<sup>(١٠١)</sup>. وبذلك، فإن كتب الجغرافية العربية لم تكن كثيراً بالحياة الاجتماعية سوى هذه الإشارات النادرة عن سكان الكرك منذ ق ١٢/٥٧م.

أما في كتب الرحلة العربية، فإن ابن بطوطة أشار في رحلته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، أنه مرّ بالكرك مرافقاً للركب الشامي المتوجه إلى الحج في شوال من سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وذكر أن الركب الشامي (ركب الحج الشامي) أقام خارج الكرك أربع أيام بموضع يقال له الثنية، حيث "تجهزوا الدخول البرية"<sup>(١٠٢)</sup>.

كما ذكر صلاح الدين الصفدي في رحلته للحج سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤، قال: "ثم يرحل (يقصد ركب الحجاج) إلى الكرك، فيأخذ في خمس مراحل، ويقوم في ظاهره على مكان يعرف بالثنية ثلاثة أيام أو أربعة"<sup>(١٠٣)</sup>. وهكذا فإن كتب الرحلة العربية اعتنت بذكر ركب الحمل الشامي للحج الماز بالكرك ومناطقها لأهميتها على طريق الحج الشامي للحجاز والديار المقدسة.

١٠٠- ابن سعيد المغربي، مصدر سابق، ص ٣٢٨.

١٠١- ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، ص ٢١٢-٢١٣.

١٠٢- ابن بطوطة، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٤-٣٤٦.

١٠٣- انظر: الجزيري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٥٧.



أما كتب الرحلة الأجنبية، فقد اعتنت عناية خاصة بالحياة الاجتماعية في الكرك، فسجل الرحالة الأجانب في رحلاتهم مشاهدات لمجتمع الكرك، فهذا الرحالة الألماني سيتزن، زار الكرك ما بين ٢٣-٣٠ أيار ١٨٠٦م، فوصف ملامح الحياة وأحوال السكان الاجتماعية، ففي وصفه للأحوال السكانية تناول وصف مدينة الكرك والقرى العامرة، ومنها كثرنا، وخنزوع، والعراق، وبعض البيوت المنتشرة بين الخرب، في منطقة الرّبة، والبيوت المبنية من القصب في غور الصافي وغور المزرعة<sup>(١٠٤)</sup>، أما بقية السكان فيذكر أنهم يسكنون الخيام خارج أماكن العمران، ولعل سيتزن يشير إلى نمط من الحياة السائدة آنذاك، وهي هجرة السكن من القرى والانتقال إلى حياة البداوة طلباً للكلاً لمواشيهم، حيث أن زيارته كانت في فصل الربيع، إذ اعتاد السكان مغادرة قراهم والإقامة في بيوت الشعر في هذا الفصل بالذات<sup>(١٠٥)</sup>.

وتناول سيتزن حياة البداوة والقبائل التي مرّ بمضاربها، فقد نكر أنه مرّ بمضارب قبيلة العمر وشاهد مضارب بني حميدة، وعشيرة الحدادين، ولاحظ أن التوزيع القبلي على الأرض قليل جداً، حيث يقدر أن نسبة الاستيطان لكل ٤ميل نسمة واحدة، كما لاحظ وجود عدد كبير من بيوت الشعر منتشرة في الغور تقدر ب ٧٠-٨٠ بيتاً للمسيحيين و ١٢٠ بيتاً للمسلمين، وأنهم في هذه المنطقة يتقاسمون ملكية الطواحين الأربعة الموجودة في نهاية وادي الكرك قبل مصبه في البحر الميت<sup>(١٠٦)</sup>.

وقدر سيتزن عدد المسيحيين بالكرك ب ٤٠٠ رجل وعدد المسلمين ٧٠٠ رجل، ثم ينكر سيتزن أن جميع قرّة كثرنا والعراق وخنزيرا هم من المسلمين، ويعطى سيتزن فكرة بأسفة عن سكان

١٠٤- انظر: محمد سالم الطراونة، الكرك عبر العصور (تاريخ الكرك الحيث)، ص ٢٠٤

١٠٥- الطراونة، مرجع سابق، ص ٤١.

١٠٦- المرجع نفسه، ص ٤٢.



الغور، ويقول إنهم يسكنون بيوتاً من القصب، وهم لا يملكون ثروة حيوانية بل يعتمدون على الزراعة<sup>(١٠٧)</sup>، كما شاهد سبتزن قسماً من قبيلة العمر مخيمة بالقرب من مدينة الكرك<sup>(١٠٨)</sup>. ووصف سبتزن مجتمع الكرك بالكرم والسخاء، وأنهم يتميزون بعلاقات طيبة مع بعضهم البعض، وأنهم يحترمون الضيف، ويقدمون له الطعام والقهوة العربية، ويذكر أن أهل الكرك يلبسون العباءات والملابس الطويلة ذات الأكمام الفضفاضة والمناديل البيضاء، التي يعبر عنها بالإشثار الوهابي، ويقدر قيمة المهر لأهل العروس بحوالي ١٠٠٠ قرش إضافة إلى الهدايا<sup>(١٠٩)</sup>. وعندما زار الرحالة بيركهارت الكرك ما بين ٤ تموز - ٦ آب ١٨١٢م، ذكر قرية كثرنا من أعمال الكرك بأنها تضم حوالي ثمانين بيتاً، وكثير من أهلها يعيشون في بيوت شعر منصوبة في الساحات المكشوفة الواقعة بين بيوت القرية، كما وصف كرم أهل قرية العراق حين كانوا يقدمون له ولرفيقه الذبائح والفواكه الجيدة<sup>(١١٠)</sup>. وذكر بيركهارت قرية خنزيرة بأنها أكبر من قريتي العراق وكثرنا، ويذكر أن شيخ الكرك كان له بيت وزوجة في تلك القرية، وأنه أثناء مرورهم بالقرية عقد جلسة محاكمة لفض المنازعات بين الفلاحين حول قضايا مالية وامتلاك مشترك للخيل العربية، مشيراً إلى أن حياة الفلاحين فيها أحسن قليلاً من حياة البدو<sup>(١١١)</sup>.

١٠٧- المرجع نفسه، ص ٤٢.

١٠٨- المرجع نفسه، ص ٤٢.

١٠٩- المرجع نفسه، ص ٤٣.

١١٠- رحلات بيركهارت، ج ٢، ص ١١٧، وانظر: الطراونة، مرجع سابق، ص ٤٤.

١١١- بيركهارت، المرجع نفسه، ج ٢، ص ١١٧.



ويشير بيركهارت إلى سيادة النظام القبلي الذي يستند إلى سلطة الشيخ المدعومة بقوة الفرسان، وكان هذا النظام قائماً سواء في القبائل التي تعيش حياة البداوة أو سكان القرى والتجمعات السكانية، وبالرغم من تباين الحاليتين فقد خضعت الكرك لسلطة شيخ الكرك، الذي كان يقيم في مدينة الكرك، وتتبع قرى كثرها وعراق وخزيرة لسلطته مع وجود شيخ مستقل لكل قرية، ولم يذكر بيركهارت أسماء هؤلاء الشيوخ وإلى أي القبائل ينتمون<sup>(١١٢)</sup>.

أما القبائل العربية التي ورد ذكرها في رحلة بيركهارت فهي: عرب العمر، والحمايدة، والغوارنة، كما أشار إلى عشيرتي الضمور وبني نعيم<sup>(١١٣)</sup>. وذكر انتشار قبيلة العمرو حول مدينة الكرك وانتشار عرب الحمايدة في مناطق شمال الكرك، كما ذكر بيركهارت أن أهالي الكرك في البادية والحضر كانوا يدفعون إتاوة سنوية لشيخ الكرك، أما علاقة سكان الكرك مع القبائل الأخرى مثل الحويطات وبني صخر، فقد كانت قائمة على دفع الإتاوة، وتقديم الهدايا، للمحافظة على العلاقات الحسنة منعاً للتعدي والغزو<sup>(١١٤)</sup>.

ونكر بيركهارت سكان الكرك بأنها مأهولة بحوالي ٤٠٠ عائلة مسلمة و ١٥٠ عائلة مسيحية، وقال: إن المسلمين الساكنين بالكرك هم من أصول من جميع أنحاء سورية الجنوبية، وبخاصة من الخليل ونابلس، في حين جاء القسم الأكبر من المسيحيين من القنس وبيت لحم وبيت جالا، كما يشير بيركهارت إلى تمتع المسيحيين بالحقوق والواجبات نفسها مع المسلمين، وهم متحررون من جميع الضرائب الابتزازية، وأنهم كانوا على علاقة طيبة مع شيخ الكرك، ويدعمون سلطته ويؤيدونه<sup>(١١٥)</sup>.

١١٢- المرجع نفسه، ج٢، ص ١١١.

١١٣- المرجع نفسه، ج٢، ص ١٠٦.

١١٤- المرجع نفسه، ج٢، ص ١١١.

١١٥- المرجع نفسه، ج٢، ص ١٠٥.

ويصف بيركهارت بيوت أهل الكرك في مدينة الكرك، قال: وأما البيوت غالباً ما تكون طبقة واحدة، وسقف المنزل مدعوم بأقواس (القناطر)، حيث توجد فروع الأشجار الغليظة وطبقة رقيقة من نبات الأسل أو السمار، وتوجد داخل البيوت خزانات قمح ترابية تسمى (كواري) ولا يوجد للغرف فتحات سوى الأبواب<sup>(١١٦)</sup>.

كما وصف بيركهارت النزاعات القبلية والمظاهر الاجتماعية السائدة، من حيث العلاقات وأنماط العادات والتقاليد في الكرك، فالعلاقات بين القبائل قائمة على القوة والتحالفات التي تظهر بين الحين والآخر للحد من شوكة القبائل وخاصة ما حصل مع قبيلة العمر، حيث تحالف شيخ الكرك مع قبيلة الحويطات لإقصاء قبيلة العمر من حول الكرك<sup>(١١٧)</sup>.

وأشار بيركهارت إلى عادة الكرم عند أبناء الكرك سواء في البادية أو الحضر، والإصرار على إكرام الضيف والمبالغة في ذلك، واعتبر بيع السمن واللبن سبباً ونقيصة لا يقدم عليها إلا أرادل القوم، رغم فقرهم الشديد والعوز<sup>(١١٨)</sup>.

وذكر بيركهارت بعض العادات في الزواج عند أهل الكرك بأنه يجري بين أبناء كل طائفة سواء في البادية أو الحضر، ويتراوح المهر من ٦٠٠-٨٠٠ قرش، والذي لا يملك المهر يضطر لخدمة والد العروس مدة تزيد عن خمس سنوات، كعبد أو خادم، حيث يقوم بكل الأعمال الوضيعة مقابل الموافقة على الزواج والإعفاء من دفع المهر<sup>(١١٩)</sup>.

١١٦- المرجع نفسه، ج٢، ص١١١.

١١٧- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٥.

١١٨- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.

١١٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٨.



ويشير بيركهارت إلى عدم اهتمام أهل المنطقة بزواجاتهم والتخلي عن الزوجة في حال المرض، وعدم شراء الملابس لها، مما يضطرها إلى بيع بعض المحاصيل أو المنتجات الحيوانية والتصرف بها، وتحرم النساء من الميراث، ولا يختلف المسيحيون عن المسلمين في هذا التعامل، ويلجأ السكان في فض المنازعات إلى الشيخ الذي يصدر أحكامه التي قلما يخرج أحد عنها<sup>(١٢٠)</sup>. أما موضوع التدين وممارسة العبادات، فأشار بيركهارت إلى أنه لا تحظى الواجبات الدينية بكل الاهتمام سواء عند المسلمين أو المسيحيين، الذي لا يعرفون مراسم الصلاة باللغة اليونانية، وقليل منهم الذي يذهب إلى الكنيسة<sup>(١٢١)</sup>، وكانت الكرك مقر المطران اليوناني الذي يقيم عادة في بيت المقدس، وتدعى الأسقفية أبرشية البتراء<sup>(١٢٢)</sup>.

أما الرحالة وليم فرانسيس لينش قائد البعثة الأمريكية في المنطقة لدراسة البحر الميت ومحيطه، فقد زار المنطقة عام ١٨٤٨م، ومن جملة ما ذكره عن الكرك وصفه للمكونات الاجتماعية؛ إذ قال: "حدثنا جمعة خميس أن هناك شيخين في الكرك أحدهما مسيحي ويستطيع أن يحشد ٢٥٠ من حملة البنادق، وشيخ مسلم أكثر رجاله خيالة فرسان وهم أكثر عدداً بكثير، وأن الشيخ المسيحي يتبع الشيخ المسلم تبعية كاملة"<sup>(١٢٣)</sup>. دون أن يذكر اسميهما. وذكر ضيافة أهل غور المزرعة لبعثته قال: "إن شخصاً أحضر لهم اللبن والحليب، وكمية من طحين الدوم الجاف فكان لذيذاً جداً"<sup>(١٢٤)</sup>.

١٢٠- المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٠٨.

١٢١- المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٠٩.

١٢٢- المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٠١.

١٢٣- دائرة الثقافة والفنون، مرجع سابق، ص ٩٠.

١٢٤- المرجع نفسه، ص ٩١.



وعند وصوله إلى الكرك ذكر وليم لينش قوله: "وبلغنا بيوت البلدة (الكرك) وسرنا إلى المضافة التي كانت مدرسة للمسيحيين في الوقت نفسه، ويشير إلى أنه كان يأمل أن يذبحوا لهم شاة، ولكن يذكر أنهم حصلوا على بعض البيض، وكان غذاؤهم مكوناً من ثلاث بيضات لكل شخص، وأشار إلى بيوت الكرك بأنها ليس لها نوافذ، وذكر أن في الكرك ٣٠٠ أسرة ثلاثة أرباعها من المسيحيين؛ لأن قبيلة الكركية القوية تقيم في مضارب لها على بعد مسافة قصيرة من أسوار القلعة، وقد بلغ من كراهة بعض القوم للإقامة في بيت الحجر<sup>(١٢٥)</sup>.

كما ذكر وليم لينش أن البعض من الكركية ينصبون بيوت الشعر في ساحات المنازل الخالية، قال: في الكرك قرى معظم الرجال يلبسون معاطف الفراء، وبينما ترتدي النساء الثياب الغامقة الألوان، ولم تكن النساء المسيحيات يخفين وجوههن التي لاحظنا أنها موشومة. وأشار وليم لينش إلى أن الخوري أخذهم إلى كنيسة الصغيرة وهي غرفة واطئة ومعتمة، وفيها عمودان غير كاملين جيء بهما أصلاً من القلعة .. وذكر أنه بمقدور الكركية أن يحشدوا ٧٠٠ رجل مقاتل<sup>(١٢٦)</sup>. وأخبره شيخ المسيحية المدعو عبدالله أن عدد المسيحيين يتراوح بين ٩٠٠ إلى ألف شخص، يستطيع حشد ٢٠٠ مقاتل<sup>(١٢٧)</sup>.

وفي عام ١٨٧٢م، زار الكرك ه.ب. تريسترام، حيث شاهد أثناء مسيره في وادي الكرك عدداً من بيوت البدو التي ظهرت له من بعيد، وكأنها بقع سوداء في السفوح الجبلية ويعود أكثر هذه البيوت إلى أناس من الكرك، ويخيم القسم الأكبر منهم صيفاً في الجبال ومعهم مواشيهم<sup>(١٢٨)</sup>

١٢٥- المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.

١٢٦- المرجع نفسه، ص ٩٦.

١٢٧- المرجع نفسه، ص ٩٦.

١٢٨- ه.ب. تريسترام، رحلات في شرق الأردن، ص ٧٦، ٧٥.



كما زار ترسترام المدرسة المسيحية في الكرك وذكر أن مديرها من أصل يوناني، ووصف بأنه كان شغوفاً بالعلم مفكراً، ولديه الرغبة الحثيثة في إتمام دراسته في إنجلترا.. ووصف مسيحيي الكرك وصلاته بهم قال: "جميع المشتركين ثلاثين رجلاً وامرأة لأداء صلاته معهم، وجميعهم من أتباع الكنيسة الإغريقية، وعلى الرغم من أنهم جهلة إلا أنهم بروتستانتيون في القلب، مما يخص تعاليم الإنجيل، ولديهم معرفة بالحقيقة، ومع هذا فهم متعطشون للمزيد منها"<sup>(١٢٩)</sup>. كما أشار إلى أن عدد المسيحيين في الكرك يتراوح بين ٨٠٠-١٦٠٠ شخصاً من أصل ٨٠٠٠، بقية سكان الكرك من المسلمين<sup>(١٣٠)</sup>.

وعند مرور ترسترام بالحي الإسلامي في مدينة الكرك وصف البيت الكركي الذي رآه في الكرك، والذي يمثل نموذجاً لهندسة البناء عند أهل الكرك، فأشار إلى أنه يتم الدخول للبيت الكركي عبر باب خفيض لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام، وهو مقوس عادة، ومبني من الحجارة الصلبة، أما العتبة فضخمة مأخوذة عادة من حجار بنايات قديمة، ويفتح هذا الباب على ساحة قذرة، فيها عدد من الحجارة، موضوعة عليها روث البقر كي يجف في الشمس وبصير "جلة" تستعمل للوقود، وهو الوقود الوحيد الذي عندهم، لانعدام الأشجار، ويسير تحت هذه الحجارة على أحد الجوانب كميات من اللبن الجاف، ومذود الأغنام والحمير، وهناك باب آخر بارتفاع أربعة أقدام يؤدي إلى الغرفة الرئيسية، وهي غرفة العائلة، وليس في هذه الغرفة نوافذ، أو مداخن، ومسقوفة بعقود متتابعة من الحجارة مع عوارض خشبية ممدودة فوق هذه الأقواس، وتقع نقرة النار في وسط الغرفة، حيث تتكون من حوض الطين على شكل صحن، وهذا هو مكان الخبز والطبخ والنار، ولا

١٢٩- المرجع نفسه، ص ١٠٨، ٩٤، ٩١.

١٣٠- المرجع نفسه، ص ٨٥.



منفذ للدخان إلا من خلال الباب، ويفتح على الغرفة عدد من المخازن المظلمة التي تشابه الزنزانات، ويبدو أن بعضها كان أنفاقاً للمدينة القديمة، وبعضها يستخدم مخزناً للعائلة، ولا يوجد أثاث أبداً، يجلس الجميع وينامون على الأرض<sup>(١٣١)</sup>.

ثم قام تريسترام بزيارة للحي المسيحي في الكرك الذي شاهده من الجهة الشمالية من بلدة الكرك زار فيه الكنيسة الإغريقية، وهي كنيسة منيعة مبنية من الحجارة، ولها جزء ثان نصف دائري، وفيها جناح خاص مفصول عن صحنها بالأعمدة، هذا بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأعمدة التي تشبه تلك الموجودة في كنيسة نورماية، وهناك بئر في الطرف الغربي منها لا يزال صالحاً، وفيه ماء للشرب والاستعمال، كما شاهد صور القديسين الموجودة في الكنيسة وقال: يحيط بالكنيسة من الخارج سور أنيق متقن البناء، بينما بنيت إلى الغرب منها غرف الكاهن والمدرسة التي هي (المدرسة) بناية مستوية مفروشة بالحصائر، التي تشكل أثاثها الوحيد، وذكر أيضاً أن مجتمع بناء الكنيسة قام بتزويد المدرسة ببعض الكتب والأقلام والدفاتر والمحايات ... وشاهد نسخة إنجيل بالعربية وعليها ختم جمعية الإنجيل، وذكر أن مدير المدرسة يفضل الحصول على نسخ بالعربية، بحيث تكون لها هوامش وشروحات، وهي غير متوفرة لديه، قال: فوجدنا بإرسالها<sup>(١٣٢)</sup>. وأشار تريسترام كذلك إلى أن بعض المسيحيين في الكرك لا يعمدون أبناءهم في الكنيسة الإغريقية، وإنما يرسلونهم إلى السلط لهذه الغاية حيث تكون وتتواجد هناك إحدى البعثات التبشيرية في إحدى جولاتها هناك<sup>(١٣٣)</sup>.

١٣١- المرجع نفسه، ص ٨٥-٨٦.

١٣٢- المرجع نفسه، ص ٨٦-٨٧.

١٣٣- المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.





ويذكر تريسترلم أنه قام بزيارة إلى المجالي في الكرك، وقال: "كان مركزه في وسط المدينة تحيطه ساحة، دخلنا إليها حيث قادنا الطريق إلى عنبر داخل البيت الذي يشكل مجلس المدينة الرسمي، وهناك وجدنا مجموعة من ثلاثين رجلاً يحيطون بنقرة النار بشكل دائري، وهم يدخنون غلابينهم وهم يطلبون الدفء من الجمرات المتقدة في النقرة، وذلك بسبب برودة الجو"<sup>(١٣٤)</sup>.

كما أشار تريسترلم إلى أن عرب بني حميدة يستخدمون منطقة قلعة البلدة القديمة في شيحان كمقابر، وذكر أنه ولدى تجواله بين القبور لفت نظره وجود خصل من جدائل الشعر، موضوعة على القبور الحديثة بينما استأثرت قبور أخرى بنوع من القرايين جاء على شكل عصى ممدودة مع الأعشاب وعليها ضفائر من الشعر أيضاً بينما وضع على أخرى بقايا أسمال بالية من القمصان الخلع ذات الألوان المتباينة، وقدائد الملابس، وقناوي الرعاة"<sup>(١٣٥)</sup>.

أما السير أليك كركبرايد ضابط الإدارة البريطاني لمنطقة الكرك ما بين ١٩١٨-١٩٢٠، فوصل ملابس أهل الكرك وتطرق إلى صلاة النصارى في الكرك في بيت الشعر، قال: "أما من جهة اللباس فلم تدخل إلى أهل الكرك مفسدات الألبسة العربية آنذ تلك المفسد التي عمّت العالم العربي فيما بعد، ونجد أيضاً أن العشائر المسيحية تعيش النمط نفسه الذي تعيشه العشائر المسلمة، فقد حضرت صلاة النصارى في بيت من الشعر أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة، ولقد اعتنت بي راهبات الوردية حيث بقيت ملابسني نظيفة وبيتي، وكانت عامة الراهبات عربيات"<sup>(١٣٦)</sup>.

١٣٤- المرجع نفسه، ص ١٠٧.

١٣٥- المرجع نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

١٣٦- أليك كركبرايد، خشخشة الأشواك، ص ٣١.

### سادساً: الخاتمة :

بعد أن تم عرض المعلومات المتوافرة حول الكرك في كتب الجغرافية والرحلة يمكن استخلاص جملة من النتائج:

- أظهرت الدراسة أهمية الكرك عبر التاريخ، وأنها ذات موقع استراتيجي وقوي ومؤثر في الأحداث التاريخية، وذلك لحصانتها ومنعتها، فحظيت باهتمام الدول التي مرّت عليها عبر التاريخ، مروراً بعهدما القديم، والإسلامي، والصليبي، والأيوبي، والمملوكي، والعثماني، وإلى الآن.

- ذكرت كتب الجغرافية العربية مدينة الكرك، من حيث موقعها من بلاد الشام، وبعض القرى التابعة لها، ودخولها في الإسلام، وذكرت قلعتها، وأشار إليها أنها "قلعة مشهورة وحصينة" فضلاً عن ذكر قرية مؤتة من أعمالها، وما فيها من قبور للصحابه الذين استشهدوا في معركة مؤتة سنة ٨هـ، ثم ذكر منتجاتها الزراعية، والتجارة التي كان لها دور فيها لوقوعها على الطريق التجاري الواصل بين الشام وجزيرة العرب، كما ذكرت بعض كتب الجغرافية مكونات السكان في الكرك من مسلمين ونصارى، وخاصة في الفترة الصليبية، وسيطرة الصليبيين عليها ثم استعادتها زمن صلاح الدين الأيوبي، وذكر أهمية قرب الكرك من القدس في الأحداث التاريخية بين المسلمين والصليبيين، كما ذكرت بعض الوظائف الإدارية الموجودة في الكرك زمن المماليك، أما أهم المصادر التي تناولت موضوع الكرك فهي: المقدسي في كتابه، أحسن التقاسيم، والبكري في كتابه، معجم ما استعجم، وياقوت الحموي، معجم البلدان، والبغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، وابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، والحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، وابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك.

- وأظهرت كتب الرحلة العربية، مثل رحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة البلوي الموسومة ب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ورحلة صلاح الدين الصفدي سنة ٧٧٥هـ/١٣٥٤م، تناولت الكرك من حيث وقوعها على طريق الحج الشامي للحجاز، والإشارة لكثرة القرى التابعة للكرك، والقرب من بيت المقدس، وحصانة المدينة واستعمالها من قبل السلطة كمركز للإدارة في المنطقة.

- أما الكرك في كتب الرحلة الأجنبية، فتبين أن معظم الرحلات كانت بدافع ديني، تم تمويلها من مؤسسات غربية لها ارتباط بأفكار العهد القديم، ومن أهم تلك الرحلات رحلة الألماني سيتزن عام ١٨٠٦م، ورحلة بيركهارت ١٨١٢م، ورحلة وليم لينش ١٨٤٨م، ثم رحلة تريسترام عام 1872م، وإليك كركيريد ما بين ١٩١٨-١٩٢٠م، لقد فصلت كتب الرحلة الأجنبية، بل توسعت في وصف الكرك ومحيطها، فوصف هؤلاء الرحالة القلعة وصفاً دقيقاً، فضلاً عن وصف سكان الكرك من مسلمين ونصارى، وأعطى بعضهم عدد أسر المسلمين والنصارى في مدينة الكرك، وعاداتهم وتقاليدهم في الكرم الطعام، والزواج والملابس، وما حول الكرك من أودية وعيون وبساتين ومواشي، وقرى، وقبائل تسكن في جوار الكرك، فضلاً عن منتجاتها الزراعية وتجاريتها مع الخليل والقدس ودمشق، حتى الخرائب القديمة تم ذكرها في منطقة الكرك، وأعطاه أسماء توراتية كما يعتقدونها في العهد القديم (بيركهارت نموذجاً) كم تم ذكر مناطق الأغوار التابعة للكرك، والحديث عن المكان الجغرافي، والمنتجات الزراعية، وسكان الأغوار، والعلاقات ما بين البادية والحضر في منطقة الكرك، ومن اللافت تركيز بعض الرحالة مثل تريسترام ١٨٧٢م على ذكر تواجد النصارى ومدرستهم وكنيستهم وأحوالهم في الكرك.

## مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة

### د. حسن حلمي أبو الفضل العسيري

مدرس التاريخ الإسلامي  
معهد البحوث والدراسات الأفريقية  
ودول حوض النيل - جامعة إسوان

### ملخص البحث باللغة العربية

تتاول هذا البحث مدارس مدينة دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة، وقد أشار الباحث من خلال هذا الموضوع إلي عدة نقاط أهمها :

- كثرة المدارس الفقهية التي انتشرت في كل أنحاء مدينة دمشق، فقد شهدت هذه المدينة انتشاراً واسعاً لفقه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وقد برع أبناء دمشق في دراسة هذه المذاهب الفقهية .
- كذلك تنوعت طرق وأساليب الدراسة في مدينة دمشق مما جعل تحصيل العلم في مدينة دمشق سهل وميسر للجميع، فقد كانت هناك مراعاة لظروف الطلاب والباحثين
- اهتمت مدينة دمشق بتوفير الحياة الكريمة للفقهاء وللمعلمين مما كان له عظيم الأثر في النهضة العلمية التي شهدتها مدينة دمشق عصر المماليك وهذا ما شاهده ابن بطوطة عند زيارته للمدينة .
- كانت الرحلة لطلب العلم من وإلى دمشق ميسرة، حيث اهتم ملوك دولة المماليك بالرحلة العلمية مما أثر بشكل إيجابي علي النهضة العلمية في المدينة .
- عرفت مدينة دمشق كغيرها من مدن العالم الإسلامي الإجازات العلمية وهي بمثابة شهادة تمنح للمدارس عند إتمام دراسته يتأهل بعدها الطالب للجلوس للفتيا وبذل العلم .

## summary

This research deals with the schools of Damascus and their cultural role through Ibn Battuta's description. Through this topic the researcher pointed out several points, the most important of which are:

- The large number of schools of jurisprudence that spread throughout the city of Damascus. This city witnessed a wide spread of the jurisprudence of Imam Malik, Imam Abu Hanifa, Imam al-Shafi'i and Imam Ahmad ibn Hanbal, and the people of Damascus excelled in studying these jurisprudence schools.

- The methods and methods of study were also varied in the city of Damascus, which made acquiring education in the city of Damascus easy and accessible for all, as there was consideration for the conditions of students and researchers.

- The city of Damascus was interested in providing a decent life for jurists and teachers, which had a great impact on the scientific renaissance witnessed by the city of Damascus in the Mamluk era, and this is what Ibn Battuta saw when he visited the city.

- The trip to seek knowledge to and from Damascus was easy, as the kings of the Mamluk state were interested in the scientific journey, which positively affected the scientific renaissance in the city.

- The city of Damascus, like other cities in the Islamic world, is known for academic degrees, and it is like a certificate granted to schools upon completion of his studies, after which the student qualifies to sit for fatwas and do knowledge.

### المقدمة:

يعد ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المولود بمدينة طبخة في السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هجرياً / الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادياً - من أشهر الرحالة العرب المسلمين الذين جابوا البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ينتقلون بين جنبات العالم الفسيح بحثاً عن معرفة أحوال الأمم والملوك يسطرون بأقلامهم مشاهداتهم عن أحوال هذه البلاد في شتى نواحي الحياة المختلفة ليقدموا صورة صادقة وواقية عن هذه المجتمعات، فقد رأوا بأعينهم وعاشوا أحوال هذه الأمم مما يعطي لمعلوماتهم المصدقية في كل ما يذكرونه عن البلدان التي زاروها، ويجعل من أقوالهم مادة أصيلة عند كتابة تاريخ هذه المناطق فليس من رأى كمن سمع.

ومن أهم هذه المدن التي زارها ابن بطوطة (مدينة دمشق) <sup>(١)</sup> تلك المدينة التي افتتحت في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه سنة ١٤ هجرياً افتتحها أبو عبيدة بن الجراح من باب يقال له باب الجابية صلحاً بعد حصار دام سنة <sup>(٢)</sup> وقد زارها ابن بطوطة في فترة تولى حكم دولة المماليك البحرية على مصر والشام في الولاية الثالثة للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هجرياً / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادياً). <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> سميت بذلك؛ لأنهم دمشقوا في بنائها؛ أي أسرعوا، وقيل سميت دمشق بدمشق بن مالك ابن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام، وقيل إن الذي بناها حيروت بن سعد بن عاد بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ١٣٧٧ هجرياً / ١٩٥٧ ميلادياً، ص ٤٦٢ .

<sup>(٢)</sup> كتاب الاعلاق النفيسة: المجلد السابع، دن، مدينة لندن سنة ١٣٨٧ هجرياً/١٩٦٧ ميلادياً، ص ٣٢٥.

<sup>(٣)</sup> محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر، الكويت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧ هجرياً/١٩٩٧ ميلادياً، ص ٣٨٢ .

وقد دخل ابن بطوطة دمشق - كما ذكر - يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ٧٢٦ هجرياً أوائل أغسطس سنة ١٣٢٦ ميلادياً<sup>(٤)</sup> وقد أعجب بها وبِعظمتها حتى وصفها بقوله: ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً، وكل وصف وأن طال فهو قاصر عن محاسنها ..<sup>(٥)</sup>

ولم يكن ابن بطوطة وحده الذي أعجب بدمشق ومحاسنها، فقد أطنب المؤرخون في وصفها فمنهم من وصفها بقوله: "هي جنة المشرق، وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين ... وتشرفت بأن آوي الله تعالى المسيح وأمه - صلى الله عليهما - منها إلى ربوة ذات قرار ومعين"<sup>(٦)</sup>

ومنهم من قال عنها " هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارتها، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهتها، ونزاهة رقعة " <sup>(٧)</sup>

وقيل في وصفها " هي جنة الشام لحسن عمارتها وبقعتها، وكثرة أشجارها وفواكهها، ومياهها المتدفقة في مساكنها وأسواقها وجامعها ومدارسها " <sup>(٨)</sup>

ووصفها آخر بقوله " دمشق بلاد الأنبياء وموطن الأصفياء من الصحابة والتابعين والأولياء"<sup>(٩)</sup>

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتاب التحرير، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هجرياً / ١٩٦٦ ميلادياً، ص ٦١.

(٥) المصدر السابق والصفحة .

(٦) ابن جبير: رحلة ابن جبير، بيروت، سنة ١٣٨٤ هجرياً / ١٩٦٤ ميلادياً، ص ٢١٠ .

(٧) ياقوت الحموي: مصدر سابق، ص ٤٦٢ .

(٨) البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الجزء الثالث، تحقيق محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٥ هجرياً / ١٩٥٥ ميلادياً، ص ٥٣٤ .

(٩) عبد الله بن محمد البديري: نزهة الأثام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٤١ هجرياً / ١٩٢٢ ميلادياً، ص ٣٨٤ .

حقاً، كل وصف، وإن طال فهو قاصر عن محاسنها فهذا قليل من كثير في وصف نرة بلاد الإسلام، وحاضرة العالم الإسلامي إنها دمشق .

ومما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو أنني أردت أن أعيش مع ابن بطوطة وهو ينتقل بين جنات مدينة دمشق واصفاً مدارسها كمؤسسات تعليمية وجدت كل العناية والاهتمام من سلاطين المماليك مما جعل للمدارس في مدينة دمشق دوراً كبيراً في تطوير الحياة الثقافية في هذه المدينة، وهذا ما أرادت إبرازه من خلال هذا البحث .

وقد كانت مدينة دمشق عامرة بالعلماء الذين جاعوا من شتي البقاع يؤدون رسالتهم بإخلاص لله سبحانه وتعالى وبطرق وأساليب مختلفة، مع التنوع في مواد الدراسة حسبما يختار الدارس منها ما يشاء، ثم يجاز بعد ذلك من هؤلاء العلماء، وتعد هذه الإجازة بمثابة حجة قوية تثبت للحاصل عليها أنه أصبح بارزاً في فن من فنون العلم والمعرفة حسبما درس، وهذه قمة ما يبغيه الدارس، حيث يحق له بعد حصوله على هذه الإجازة أن يجلس لتعلم غيره وينشر علمه النافع بين طلابه ومريديه .

وقد اتبعت منهج البحث التاريخي القائم على نقد وتحليل الروايات التاريخية وصولاً إلى الواقع الصحيح للأحداث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أعرضه من خلال الحديث عن النقاط التالية:

أولاً: المدارس الفقهية بمدينة دمشق.

ثانياً: طرق وأساليب التعلم في مدينة دمشق.

ثالثاً: الإجازات العلمية بمدينة دمشق.



### أولاً: المدارس الفقهية بمدينة دمشق

يعتبر هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي هو أول من أحدث الدراسة بمدينة دمشق وكان ذلك بالمسجد الكبير بدمشق<sup>(١٠)</sup> أما المدرسة كظاهرة معمارية لم تنشأ في بلاد الشام إلا في القرن السادس الهجري، وكانت المدرسة تحتوي على إوابين وغرف للطلبة، وكان عدد الأوابين يختلف من مدرسة إلى أخرى بحسب عدد المذاهب السنية التي تدرس بها<sup>(١١)</sup>

ومن شغفهم ببناء المدارس وسعادتهم عند اكتمال بناء مدرسة قد جرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره سلطان المماليك والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان أي تشارك فيه كل فئات المجتمع الدمشقي، ويمد سماط فاخر في صحن المدرسة، به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه، ويخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة الخلع العديدة إكراماً لهم<sup>(١٢)</sup>

وقد تعددت المدارس في مدينة دمشق ووجدت الرعاية والاهتمام من سلاطين دولة المماليك لمعرفتهم بأهمية المدارس ودورها في تطوير الحياة الثقافية في كل ربوع المدينة، وبالفعل شهدت مدينة دمشق خلال عصر دولة المماليك نهضة ثقافية كبيرة هذا خلافاً لمن وصف عصر دولة المماليك بعصر الركود الثقافي والتخلف المعرفي فمن المؤرخين من وصف هذه الفترة - فترة حكم

(١٠) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، المجلد الثاني، القسم الأول، خطط الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي بدمشق، سنة ١٣٧٤ هجرية/١٩٥٤ ميلادية، ص ٥٠.

(١١) أحمد رمضان أحمد محمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، دت، دن، ص ١٤١ - ١٤٢.

(١٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨ هجرية/١٩٩٧ ميلادية، ص ٤٦٤؛ إنباء الغمر بإنباء العمر، الجزء الأول، دن، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٦ هجرية/١٩٩٢ ميلادية، ص ٧٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦ هجرية/١٩٩٥ ميلادية، ص ٣٤٣.

المماليك - بأنها عصر الظلام أو عصر الفوضى أو العصور المظلمة<sup>(١٣)</sup> ومنهم من قال أنه عصر يكاد يخلو من الأصالة والإبداع<sup>(١٤)</sup> وقدم آخر مبرراً للركود الثقافي الذي عاشته مدينة دمشق في عصر سلاطين المماليك بقوله: " في عهدهم، بدأ عهد الانحطاط الفكري عند العرب، وذلك أن السلاطين كانوا أميين وبعضهم لا يعرفون اللغة العربية " <sup>(١٥)</sup>

ورغم هذه الآراء، يظل عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور التطور والتقدم الثقافي الذي شهدته مدينة دمشق وهذا ما يؤكد هذا البحث من خلال استقراء الأدلة التاريخية التي تؤكد على عظمة دولة المماليك في بناء مجدهم الثقافي في كل المدن التي سيطروا عليها لاسيما مدينة دمشق .

ويري الباحث أن عصر الناصر محمد بن قلاوون ( ٧٠٩ - ٧٤١ هجرياً / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادياً) - وهو ذلك العصر الذي زار فيه ابن بطوطة مدينة دمشق - قد شهد الاهتمام الكبير الذي قام به هذا السلطان تجاه المؤسسات التعليمية بمدينة دمشق لاسيما المدارس بمختلف تخصصاتها، فقد قام هذا السلطان بتوفير الحياة الكريمة للعلماء بما بذله لهم من أموال وعطايا جعلتهم في رغد من العيش مما أعانهم على أداء رسالتهم العلمية على أكمل وجه .  
وها هو ابن جبير يؤكد هذا القول عن حديثه عما توليه دولة المماليك من عناية ورعاية خاصة للعلماء بقوله: " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فيرحل إلى هذه البلاد - دمشق - ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها: فراغ البال من أمور المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها " <sup>(١٦)</sup>

<sup>(١٣)</sup> أنور زقلمة: المماليك في مصر، مطبعة مندبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً، ص ١٨ .

<sup>(١٤)</sup> بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٧ هجرياً / ١٩٤٨ ميلادياً، ص ٢٤٨ .

<sup>(١٥)</sup> رانيا الهاشم: قصة وتاريخ الحضارات العربية، دار إحياء التراث، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هجرياً / ١٩٩٩ ميلادياً، الجزء ١٧، ص ٧٥ .

<sup>(١٦)</sup> ابن جبير: مصدر سابق، ص ٢٣٢ .

وقد صدق ابن جبير، فإن العالم إذا وجد ما يكفيه وأهله من لقمة العيش، فهنا بيدع العالم وبينكر فسينصرف اهتمامه للبحث العلمي والتنقيب وراء المعرفة بشتى صورها .  
أما ابن بطوطة، فقد قصر وصفه عند الحديث عن مدارس دمشق على الحديث عن المدارس الفقهية، وهي المدارس الخاصة بدراسة المذاهب الفقهية الأربعة: المذهب الشافعي - الحنفي المالكي - الحنبلي وفقاً لأكثر المذاهب انتشاراً في مدينة دمشق، وأيضاً لعله لاحظ أهمية هذه المدارس واهتمام السلاطين بها أكثر من اهتمامهم بغيرها، كذلك تحدث ابن بطوطة عن مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق .

#### (أ) المدارس الشافعية :

وسنبداً بالحديث عن المدرستين الخاصتين بدراسة الفقه الشافعي، كما بدأ ابن بطوطة؛ وذلك لأن المذهب الشافعي كان المذهب الرسمي للدولة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، ولكن الظاهر ببيرس كان أول من أعترف بالمذاهب الأربعة في القاهرة وفي دمشق<sup>(١٧)</sup>

#### (١) المدرسة العادلية :

تعتبر المدرسة العادلية أحد أهم المدرستين لدراسة الفقه الشافعي في مدينة دمشق، و أول من شرع في بنائها نور الدين محمود الشهيد ٥٦٨ هجرياً/١١٧٢ ميلادياً<sup>(١٨)</sup>، وتوفي ولم تتم، ثم بني بعضها الملك العادل سيف الدين ابن أبي بكر بن أيوب ثم توفي ولم يتمها فتمما ولده الملك المعظم وأوقف عليها الأوقاف<sup>(١٩)</sup>

(١٧) حسام الدين عباس الحنوري : الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، سنة ١٤٣٢ هجرياً / ٢٠١١ ميلادياً، ص ١١٧ .

(١٨) الصفدي: تحفة نوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثاني، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي - وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة، سوريا - دمشق، د.ط، سنة ١٤١٣ هجرياً/ ١٩٩٢ ميلادياً، ص ٢٠٤ .

(١٩) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٤٠٩ هجرياً / ١٩٨٨ ميلادياً، ص ٣٥٩ .

ويذكر لنا بعض المؤرخين سبب تسمية العادلية بهذا الاسم فيقول النعيمي نقلاً عن الأُسدي في تاريخه في ٥٦٨ هجرياً / ١١٧٢ ميلادياً، وفيها شرع نور الدين في عمارة مدرسة الشافعية ووضع محرابها، فمات ولم يتمها وبقي أمرها على ذلك إلى أن أزال الملك العادل البناء وعمل مدرسة عظيمة فسميت العادلية (٢٠)

وجعل في وسطها صهريج يجري الماء فيه وذلك لكي يشرب منه رواد المدرسة و يتوضؤون منه (٢١)

وافتتحت المدرسة العادلية رسمياً في احتفال كبير أواخر ٦١٩ هجرياً / ١٢٢٢ ميلادياً (٢٢) وحضره السلطان والقاضي والأعيان و كل فئات المجتمع .

وكان في دمشق مدرستان بهذا الاسم هما : العادلية الصغرى وهي مدرسة للشافعية داخل باب الفرج، شرقي باب القلعة الشرقي وكانت بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه، وقد أوقفتها على ابنه عمها زهرة خاتون بنت الملك العادل (٢٣) فأُنشئت زهرة خاتون هذه المدرسة و عينت لها مدرسين ومعيين ومؤنناً وعشرين فقيهاً وشرطت على المدرس بها إلا يجمع بينها وبين غيرها (٢٤)

وهناك العادلية الكبرى نسبة للملك العادل سيف الدين بن أبي بكر ابن أيوب، وقد سبق الحديث عن بنائها، وكانت المدرسة العادلية الكبرى في القرن السابع الهجري منبراً من منابر العلم والإشعاع الديني في مدينة دمشق، وقد أدت هذه المدرسة دوراً رائداً في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق (٢٥)

(٢٠) النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٥٩ .

(٢١) ابن جبير: مصدر سابق، ص ٢١٩ .

(٢٢) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٤ .

(٢٣) الصفدي: مصدر سابق، ص ٢٠٣؛ النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٦٨ .

(٢٤) النعيمي: مصدر سابق، ص ٣٦٩ .

(٢٥) أحمد رمضان: مرجع سابق، ص ١٤٧ .

فقد ضمت العديد من العلماء الذين وفدوا من كل الأقطار بالإضافة إلى الطلاب الذين نهلوا من علم هؤلاء العلماء في شتى المجالات مما ساعد على إثراء الحياة الثقافية في مدينة دمشق، وإذا كان للمدرسة العادلية هذا الدور الكبير في تعليم وتنقيف أبناء مدينة دمشق وغيرهم، فإن هناك مدارس أخرى للشافعية لا يقل دورها في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق عن دور المدرسة العادلية إلا وهي المدرسة الظاهرية .

## (٢) المدرسة الظاهرية:

المدرسة الظاهرية من أهم مدارس الشافعية التي وجدت في مدينة دمشق، وكان لها دور كبير في تطوير تعليم أبناء دمشق الفقه الشافعي مما ساعد بشكل كبير على انتشار المذهب الشافعي في ربوع مدينة دمشق، فالمدرسة الظاهرية أسهمت وبشكل كبير مع المدرسة العادلية في رسوخ فقه الامام الشافعي لدى طلاب مدينة دمشق .

ومؤسس هذه المدرسة هو الملك الظاهر بيبرس البندقدادي الصالحى<sup>(٢٦)</sup> أحد أهم ملوك دولة المماليك البحرية والذي تولى عرش دولة المماليك في الفترة من ( ٦٥٨ - ٦٧٦ هجرياً / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ ميلادياً)<sup>(٢٧)</sup>

وكان للملك الظاهر بيبرس اهتمام كبير ببناء المدارس والأنفاق عليها، وبناء هذه المدرسة يعد دليلاً على ذلك، حيث إن الأرض التي بنيت عليها هذه المدرسة كانت داراً لأحمد بن الحسين بن أحمد ابن علي المعروف بالعقيقي، ولما توفي هذا الرجل، اشترى الملك الظاهر بيبرس هذه الدار من ورثته وبنائها لتكون مدرسة للشافعية وعمل بها قبراً ليدفن فيها .<sup>(٢٨)</sup>

(٢٦) الظاهر بيبرس: هو ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي البندقداري الصالحى النجمي أحد المماليك البحرية صاحب مصر والشام ولد حوالي سنة ٦٢٠ هجرياً / ١٢٢٣ ميلادياً و كانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين و ١٢ يوماً وقام برحلة الحج سنة ٦٦٧ هجرياً / ١٢٦٨ ميلادياً وتوفي بدمشق سنة ٦٧٦ هجرياً / ١٢٧٧ ميلادياً للمزيد انظر: النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٩ - ٣٥٠؛ الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٨ هجرياً / ١٩٩٧ ميلادياً، ص ٣٠ .

(٢٧) ابن كثير: البداية والنهاية، المجلد السادس، الجزء الثاني عشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٢٩٨؛ النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٩؛ الجبرتي: مصدر سابق، ص ٣٠ .

(٢٨) ابن كثير: مصدر سابق، ص ٣٥٢؛ النعمي: الجزء الأول، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

وبالفعل تم بناء هذه المدرسة الظاهرية في منطقة داخل باب الفرج، بجوار المسجد الأموي وشرق المدرسة العادلية بالمواجهة وبينهم طريق<sup>(٢٩)</sup> وأدت هذه المدرسة دورها كأهم مدارس الشافعية التي أسهمت بشكل كبير في تطوير الحياة الثقافية في مدينة دمشق .  
ومما أعطى إلى هذه المدرسة أهمية كبيرة أيضاً أنها كانت مقر إقامة قاضي الشافعية وهذا يكسبها أهمية أخرى بجوار دورها الثقافي<sup>(٣٠)</sup>

وهكذا، وجد المذهب الشافعي أرضاً خصبة لكي ينمو وينتشر في ربوع مدينة دمشق، حيث وفد الطلاب من كل أنحاء المدينة لدراسة فقه الإمام الشافعي، وذلك في مدرستين من أكبر مدارس دمشق في ذلك الوقت وهما المدرسة العادلية والمدرسة الظاهرية، فقد كانتا نعم العون لدارسي الفقه الشافعي .

ورغم الدور الثقافي الذي أسهمت فيه كلتا المدرستين في تطور الحياة الثقافية في دمشق، إلا إن مدينة دمشق في نهضتها الثقافية لم تكف فقط بدراسة المذهب الشافعي فقد كان لأصحاب أبي حنيفة مدرسة خاصة لدراسة الفقه الحنفي و معرفة مقاصده إلا وهي مدرسة الشهيد نور الدين محمود .

#### (ب) مدرسة الشهيد نور الدين للأحناف:

تعتبر مدرسة الشهيد نور الدين محمود من أهم المدارس التي اهتمت بدراسة الفقه الحنفي في مدينة دمشق، ولم يذكر ابن بطوطة اسم هذه المدرسة واكتفى في شأنها بقوله: "للحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين، وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية"<sup>(٣١)</sup>  
ولكن دلت المصادر التي حدتحدثت عن الحياة الثقافية ومدارس الفقه في مدينة دمشق في هذه الفترة على أن اسم هذه المدرسة هي المدرسة النورية نسبة للسلطان الشهيد نور الدين محمود؛ لأن الشهيد نور الدين محمود عندما استولى على الشام كانت له همه عزيمة وعناية

(٢٩) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٨ .

(٣٠) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٩ .

(٣١) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٩ .

كبيرة بالتعليم والثقافة فاهتم ببناء المدارس والاتفاق عليها، واهتم كذلك باستدعاء كبار العلماء من كل الأقطار للتدريس في مدارس دمشق حتى أصبحت بلاد الشام في عهده مقر العلماء والفقهاء والصوفية الذين أتوا من كل البقاع<sup>(٣٢)</sup>

وقد لقيت مدرسة الشهيد نور الدين محمود رعاية كبيرة من حيث استقدام العلماء وكثرة الطلاب الذين وفدوا للدراسة فيها من كل الأقطار، وليس هذا فحسب، بل إن مدرسة الشهيد نور الدين محمود كانت غاية في الجمال والروعة من حيث البناء المعماري، فقد لقيت اهتماماً كبيراً من هذه الناحية حتى غدت واحدة من أهم مدارس دمشق ذات الطراز المعماري والهندسي الجديد ومما يدل على روعة وجمال هذه المدرسة وصف ابن جبير لها فقد وصفها ابن جبير بقوله :

" ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شانروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن تقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار بين حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين<sup>(٣٣)</sup>

ولقد أدت مدرسة الشهيد نور الدين محمود (المدرسة النورية) دورها كأهم المدارس التي تهتم بدراسة فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان مما ساعد على انتشار مذهب أبي حنيفة في أنحاء دمشق، فكان للمدرسة النورية دورها في التطور الثقافي الذي شهدته مدينة دمشق عصر دولة المماليك .

أما إمام المدينة وعالمها الإمام مالك - رضي الله عنه - وكان لمذهبه شهرة واسعة وانتشار كبير في كل ربوع مدينة دمشق، ومما يدل على ذلك وجد عدة مدارس تهتم بدراسة فقه الإمام مالك و منتشر في كل أنحاء هذه المدينة .

<sup>(٣٢)</sup> محمد كرد علي : خطط الشام، الجزء الخامس، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٣ هجرياً/

١٩٨٣ ميلادياً، ص ٦٧ .

<sup>(٣٣)</sup> مصدر سابق، ص ٢٣١ .

### (ج) مدارس المالكية:

مدارس المالكية هي المدارس التي تهتم بدراسة فقه الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه، وقد كان في مدينة دمشق عدة مدارس لطلاب ومريدي التفقه في فقه الإمام مالك رضي الله عنه، وهذا إن دل، فإنما يدل على حب أهل دمشق لفقه إمام دار الهجرة واعتقادهم مذهبه . ولقد لاحظ ابن بطوطة أثناء زيارته لمدينة دمشق أن هناك أكثر من مدرسة متخصصة في دراسة فقه الإمام مالك و منتشرة في أنحاء عديدة من مدينة دمشق وذكر منها المدرسة الصمصامية والمدرسة الشرايشية، ونبدأ كما بدأ ابن بطوطة بالمدرسة الصمصامية .

#### (١) المدرسة الصمصامية :

من أهم المدارس التي تهتم بدراسة الفقه المالكي المدرسة الصمصامية ولم يعرف مكان هذه المدرسة بالتحديد، فهناك من يقول أنها تقع بمحلة حجر الذهب شرقي دار القرآن الكريم الوحيية وقلبي المسرورية الشافعية<sup>(٣٤)</sup> وهناك من يرى أن موقعها بين دار الحديث الأشرفية والبيمارستان النوري جنوب دار القرآن الصوفية<sup>(٣٥)</sup>

ومرجع هذا الخلاف في تعيين مكان هذه المدرسة أنه لا يوجد مصدر يؤرخ لبناء هذه المدرسة ويهتم كذلك بتحديد مكانها .

وقد ذكر ابن كثير أن هذه المدرسة قد تم افتتاحها سنة ٧١٧ هجرياً / ١٣١٧ ميلادياً وحضر الافتتاح كثير من القضاة و العلماء والأعيان وابن تيميه وغيرهم من العلماء وطلاب العلم<sup>(٣٦)</sup> ونرى أن هذه المدرسة كانت من الأهمية بمكان في مدينة دمشق، وذلك لما اقتصت به هذه المدرسة دون مدارس المالكية، فمما اقتصت به إقامة قاضي القضاة المالكية بها، فكانت بمثابة دار إقامة واستراحة و مسكن خاص لقاضي القضاة المالكية، وليس هذا فحسب، بل إن قاضي القضاة جعل من هذه المدرسة مكاناً للفصل في القضايا التي تعرض له، فكانت هذه المدرسة

<sup>(٣٤)</sup> النعيمي: الجزء الثاني، ص ٨ .

<sup>(٣٥)</sup> حسام الدين عباس الحنوري: مرجع سابق، ص ١٤٢ .

<sup>(٣٦)</sup> البداية والنهاية: الجزء الرابع، ص ٧٨؛ حسام الدين الحنوري: مرجع سابق، ص ١٤٢ .



بجانب دورها الثقافي في تعليم الفقه المالكي كان لها دور قضائي، فهي بمثابة محكمة يمارس فيها قاضي القضاة المالكية عمله، حيث يجلس فيها للنظر فيما يعرض عليه من قضايا، وهذا ما أكده ابن بطوطة عند حديثه عن هذه المدرسة، حيث قال: "وبها يسكن قاضي القضاة المالكية وعوده للأحكام" (٣٧) وقال في موضع آخر: "وأما قاضي المالكية، فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم ... وهو شيخ شيوخ الصوفية ... ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية ... (٣٨)

هكذا أدت المدرسة الصمصامية دورها في تثقيف أبناء مدينة دمشق وتعليمهم الفقه المالكي، وكذلك كان لها دور رائد في القضاء، حيث جلس فيها القاضي القضاة المالكية للنظر فيما يعرض عليه من قضايا، وكانت هذه المدرسة أيضًا بمثابة دار الضيافة أو سكن خاص لقاضي قضاة المالكية .

وهناك مدرسة لا تقل أهمية عن المدرسة الصمصامية في تعليم ودراسة فقه الإمام مالك ألا وهي المدرسة الشرايشية هذه المدرسة التي اكتسبت أهمية خاصة بسبب نزول وإقامة ابن بطوطة بها أثناء زيارته لمدينة دمشق - كما سنرى .

#### (٢) المدرسة الشرايشية:

تعتبر المدرسة الشرايشية إحدى أهم مدارس المالكية التي وجدت في مدينة دمشق عصر دولة المماليك البحرية، وتوجد هذه المدرسة في منطقة عرفت بدرب الشعارين بالقرب من حمام صالح (٣٩) داخل باب الجابية (٤٠)

ولا نعرف من خلال المصادر التي بين أيدينا على وجه التحديد - أول من بناها، لكن ابن بطوطة ذكر أن الذي عمرها شهاب الدين الشرايشي التاجر (٤١) وهو أحمد ابن نور الدولة علي

(٣٧) مصدر سابق: ص ٦٩ .

(٣٨) مصدر سابق: ص ٦٧ .

(٣٩) لم يذكر أحد المؤرخين من أصحاب المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن صاحب هذا الحمام ولا عن سبب شهرة هذا الحمام .

(٤٠) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٧ .

(٤١) مصدر سابق : ص ٦٩ .

ابن أبي المجد بن محاسن الشرايشي المعروف بالتاجر السفار - يبدو أنه كان كثير السفر والترحال لذلك وصف بهذا الوصف، كان له همة ونشاط وتودد إلى الناس<sup>(٤٢)</sup> ومن ما يسترعي الانتباه التصميم المعماري لهذه المدرسة، فقد نزل فيها ابن بطوطة، وأقام بها عند زيارته لمدينة دمشق، وهذا معناه أن المدرسة ملحق بها مكان معد لضيافة وإقامة من يأتي إلى المدينة من كبار العلماء والرحالة ولاشك أن ابن بطوطة كان واحداً منهم، وهذا يجعلنا نتصور ونتخيل الشكل المعماري لهذه المدرسة وأنها بنيت على طراز معماري فريد ومنظم يرقى إلى درجة بناء أحدث دور الضيافة الملحقة بالجامعات في وقتنا الحاضر.

وهذا إن دل، فإنما يدل على مدى الاهتمام الكبير الذي شهدته المؤسسات التعليمية في العمارة والبناء وخاصة المدارس، وما يلحق بها من أماكن خاصة لإقامة القضاة والعلماء و كبار الزوار الذين قصدوا مدينة دمشق .

كذلك الشيء الآخر الذي يلفت الانتباه أن الذي اهتم بالإتفاق على هذه المدرسة وتعميرها وجعلها غاية في الروعة والجمال المعماري هو أحد تجار مدينة دمشق وهو المعروف بالشرايشي . وهذا إن دل، فإنما يدل على مدي وعي وثقافة بعض تجار دمشق بأهمية المشاركة في النهضة التعليمية والثقافية التي حدثت في مدينه دمشق من بناء مؤسسات تعليمية وتعمير وإصلاح ما يحتاج إلى ذلك من هذه المؤسسات .

وهذا يدل أيضاً على مدى التكامل والتعاون بين طبقات و فئات المجتمع في مدينة دمشق فلم يكن التجار في هذه المدينة بعيدين عن قضايا و شؤون التعليم والثقافة، بل إن التجار أرادوا أن يكون لهم دورهم في هذا المجال وذلك من خلال إسهاماتهم في النهضة الثقافية والتعليمية التي حدثت في مدينتهم، فسعوا إلى ذلك من خلال بناء مدارس وتعميرها والعناية بها. و خير شاهد على ذلك ما فعلته ما فعله التاجر الشرايشي الذي كان له همة ونشاط في هذا الشأن، فقام بتعمير المدرسة الشرايشية التي نسبت له وكانت خاصة بتعليم الفقه المالكي، وقد أدت هذه المدرسة دورها الثقافي ورسالتها السامية في تعليم الفقه المالكي مما ساعد علي انتشار هذا المذهب في ربوع مدينة دمشق .

(٤٢) النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

### (٣) المدرسة النورية:

وقد ذكر ابن بطوطة مدرسة أخرى للمالكية وهي المدرسة النورية، ولكن لم يذكر من الذي بناها بل ذكر أن الذي عمرها هو الشهيد نور الدين محمود<sup>(٤٣)</sup> وهذا يدل ويؤكد على أن الشهيد نور الدين محمود علي الرغم من أنه كان حنفي المذهب وقام ببناء مدرسة خاصة لتدريس الفقه الحنفي، وكان له اهتمام كبير بمذهب الإمام أبي حنيفة النعمان إلا أنه قام بالإتفاق على تسمير مدرسة خاصة بتدريس الفقه المالكي وهي المدرسة التي عرفت بمدرسة النورية نسبة له وتقع هذه المدرسة في منطقة حجر الذهب<sup>(٤٤)</sup>

### (د) مدارس الحنابلة :

وكان للإمام أحمد بن حنبل في مدينة دمشق اتباع ومريدون وطلاب اهتموا بدراسة فقهه، ولم يذكر ابن بطوطة أثناء رحلته وزيارته إلى مدينة دمشق من مدارس الحنابلة إلا مدرسة واحدة وهي المعروفة بالمدرسة النجمية<sup>(٤٥)</sup> ولم نعرف من خلال المصادر التي بين أيدينا شيء عن هذه المدرسة من الذي بناها ؟ وأين مكانها ؟ فكل ما ذكره ابن بطوطة اسمها فقط وأنها تختص بدراسة الفقه الحنبلي .

هذا كل ما أشار إليه ابن بطوطة من مدارس فقهية اهتمت بدراسة وتعليم الفقه على المذاهب الأربعة : المذهب الشافعي والمذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الحنبلي . وقد أدت هذه المدارس دورها في تعليم أبناء مدينة دمشق المذاهب الفقهية على اختلاف أقسامها حتى يتسنى لهم معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية، والاختلافات الفقهية في المسائل الفرعية في أبواب الفقه المختلفة من أبواب خاصة بالعبادات والمعاملات وسائر أبواب الفقه الأخرى مما يسر على الناس إقامه وتأدية الشعائر والعبادات الدينية ببسر وسهولة، وتتظم أيضاً للناس سائر المعاملات فيما بينهم من حفظ الحقوق و أداء الواجبات مما يضمن لكل فرد من أفراد المجتمع حياة كريمة تقوم على التعاون والتراحم وإعلاء قيم العدل والمساواة والخلق الرفيع في التعامل بين كل أفراد المجتمع، وهذا هو أهم مقاصد الشريعة الإسلامية .

(٤٣) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٩ .

(٤٤) ابن عساكر : مصدر سابق، ص ٧٧ .

(٤٥) ابن عساكر : مصدر سابق، ص ٦٩ .

وننتقل إلى نوع آخر من المدارس التي رآها ابن بطوطة، وهذا النوع من المدارس هو أهم ما يميز الحياة الثقافية في مدينة دمشق، وتعتبر مدينة دمشق قد سبقت غيرها من المدن في هذا النوع الخاص من المدارس إلا وهي المدارس الخاصة بتعليم الكبار، فالاهتمام بتعليم الكبار يوضح مدى العناية والاهتمام بتعليم كل فئات وطبقات المجتمع في كل المراحل العمرية حتى من فاته التعلم في الصغر لأي سبب، فمن هنا وجدت مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق .

#### (هـ) مدارس تعليم الكبار :

إن الاهتمام بتعليم الكبار و محور أميتهم في مدينة دمشق لخير دليل على وعي كبير لدي متقفي مدينة دمشق، وتعتبر مدينة دمشق من رواد المدن التي اهتمت بإقامه مثل هذا النوع من المدارس بهدف محور الأميه وتعليم الكبار، وهذا ما لم نسمع عنه إلا في وقتنا الحاضر . ونشر التعليم بين فئات كبار السن في المجتمع يعود أثره بشكل كبير على استقرار وسلامة المجتمع، فالمجتمعات ذات الثقافة العالية أرقى بكثير من المجتمعات التي يسود فيها التخلف والجهل، فبالعلم ترقى الأمم وتختفي فيها الفواحش وتقل فيها الجرائم، فالمجتمع المثقف يعرف ابناءه كيف يتعايشون ويحيون فيما بينهم حياة كريمة، فمن هنا كان الاهتمام بإقامة مدارس تعليم الكبار في مدينة دمشق، وهذا ما لاحظته ابن بطوطة، فيقول في شأن مدارس تعليم القرآن الكريم لكبار السن بمدينة دمشق: " وبالجهة الشمالية منها - من مدينة دمشق - روض الصالحية وهي مدينة عظيمة، لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها مدرسة ابن عمر، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول، وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملبس". ويداخل البلد أيضًا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجي . وهذا القول لابن بطوطة يشتمل على تفصيل تام لكل ما يجب معرفته عن مدارس تعليم القرآن الكريم لكبار السن بمدينة دمشق ومدى اهتمام دولة المماليك البحرية بالمعلمين والمتعلمين في هذه المدارس - كم سنوضح .

فرغم أن ابن بطوطة ذكر مدرستين فقط اهتمتا بتعليم الكبار في مدينة دمشق، فمما لا شك فيه أن هناك مدارس أخرى أقيمت و تأسست لهذا الغرض .

وهاتان المدرستان اللتان ذكرهما ابن بطوطة لتعليم الكبار بمدينة دمشق إحداهما عرفت باسم مدرسة ابن عمر وتقع هذه المدرسة في مدينة الصالحية شمالي دمشق وتابعة لها، وهذه المدرسة خاصة بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم لكبار السن ومن فاته التعلم في الصغر<sup>(٤٦)</sup> وثانيهما مدرسة عرفت بمدرسة ابن منجي، وتقع أيضًا بمدينة الصالحية<sup>(٤٧)</sup> وأنشئت لنفس الغرض وهو تعليم القرآن الكريم لكبار السن .

وتشجيعًا لكبار السن وتحفيزًا لهم لكي يقبلوا على الالتحاق بهذه المدارس لتعلم القرآن الكريم بها، فقد أعطت دولة المماليك البحرية كل من يقبل على التعلم في هذه المدارس ما يكفيه من المأكل والملبس بأن قررت له مرتب ثابت من الدولة لينفق منه على نفسه وأهل بيته بشراء كل متطلبات حياته اليومية، فهي بذلك تكون قد كفته مؤنته وكل ما يشغل باله من أمور المعيشة، وذلك لكي يفرغ ذهنه ويقبل بهمه ونشاط وذهن صافي على تعليم القرآن الكريم، فهذا ما قامت به دولة المماليك البحرية من جهد ووقوفها بجانب كبار السن لكي يتعلموا القرآن الكريم<sup>(٤٨)</sup>

أما عن وقوف الدولة بجانب معلمي القرآن الكريم لكبار السن؛ نظرًا لما يعانيه من جهد ومشقة أكثر من تعليمه للصغار، فقد قامت دولة المماليك البحرية بتشجيع المعلمين لكي يقبلوا على تعليم الكبار وذلك بأن انفق عليهم من الأموال الشيء الكثير وأجزلت لهم العطاء بما يكفيهم مؤنتهم ويوفر لهم حياة كريمة، فتكفلت لمعلمين الكبار بكل ما يحتاجون من شؤون الحياة من مأكل وملبس، وخلاف ذلك وكل ما من شأنه أن يشغل بالهم من شؤون حياتهم؛ وذلك تشجيعًا لهم وحثهم على أن يقبلوا على تعليم القرآن الكريم لكبار السن بهمة ونشاط وتحمل مشقة هذا النوع من التعليم<sup>(٤٩)</sup> بالإضافة إلى أن هذه المدارس رغم أنها مدارس لتعليم القرآن الكريم، فهذا معناه أن الذين يلتحقون بهذه المدارس كان يتعلمون القرآن الكريم بطريقة التلقين، ولكن كان

<sup>(٤٦)</sup> ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

<sup>(٤٧)</sup> ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

<sup>(٤٨)</sup> ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

<sup>(٤٩)</sup> ابن عساكر: مصدر سابق، ص ٧١ .

لا بد أن يتعلموا مبادئ القراءة والكتابة، وهذا مطلب أساسي لتعلم القرآن الكريم، فمحو الأمية بهذا الشكل من تعليم القراءة والكتابة ثم تعليم القرآن الكريم، فهذا يتطلب بذل جهد أكبر من معلمي هذه المرحلة من كبار السن؛ لأن طريقة التلقين قد توتي ثمارها بشكل كبير مع صغار السن، أما الكبار، فيصعب عليهم التعلم بالتلقين .

وما بين التعلم بالتلقين أو تعلم مبادئ القراءة والكتابة في كل مدارس دمشق سواء من المدارس الفقهية أما مدارس تعليم الكبار تتعدد طرق وأساليب التعليم كما سنرى .

### ثانياً : طرق وأساليب التعلم في مدارس مدينة دمشق

الطريقة أو الأسلوب الذي يتبعه المعلم مع تلميذه يعد من أهم الأسباب التي تعين المتعلم على فهم واستيعاب ما يلقي إليه من دروس العلم .

وقد تعددت طرق التعلم في مدارس دمشق حسب المادة العلمية التي تدرس وأيضا حسب المرحلة العمرية للمتعلم، ففي المرحلة العمرية المبكرة وهي مرحلة الصبا، حيث يتعلم الصبيان القرآن الكريم في هذه المرحلة يتم اتباع طريقة التلقين .

وعن هذه الطريقة يقول ابن بطوطة: "يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى، وإنما يقرعون القرآن تلقيناً"<sup>(٥٠)</sup> ويعلل ابن جبير استخدام هذه الطريقة وعدم كتابة القرآن الكريم في ألواح بقوله "وتعليم الصبيان للقرآن الكريم إنما هو تلقين ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو"<sup>(٥١)</sup>

### ولنا مع هذه الآراء وقفه :

إن تعلييل ابن جبير وابن بطوطة لعدم كتابة القرآن الكريم في ألواح بالنسبة للصبيان في تحفيظهم للقرآن الكريم وأن ذلك خوفاً من ابتذال الصبيان للقرآن الكريم بالمحو أو الإثبات هذا تعلييل يوجد ما هو أفضل منه، فمن الأفضل أن نقول تعليلاً لعدم كتابة القرآن الكريم في الواح

(٥٠) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٧ .

(٥١) ابن جبير : مصدر سابق، ص ٢٢٠ .

للصبيان ليس خوفاً من ابتذال الصبيان للقرآن الكريم؛ بل لأن طريقة التلقين هي الأنسب للمرحلة العمرية للصبيان؛ لأن تعلم القراءة والكتابة لهم صعب في هذه المرحلة، فالتلقين هو الأفضل لهم في هذه المرحلة .

بالإضافة إلى أن القرآن الكريم لقراءته الصحيحة لابد من السماع من الشيخ إذ إن السماع قاعدة أساسية و طريقه لتحفيظ القرآن الكريم .

وليس هناك سمة مشكلة حقيقية في أن يكتب القرآن الكريم في ألواح ولا ينقص ذلك من عظمة و قدسية القرآن الكريم شيئاً إذا كتب في ألواح، ولكن هذا يكون في مرحلة لاحقة بعد أن يكبر الصبي وتتسع مداركه لتعلم أصول القراءة والكتابة الصحيحة، أما في مدارس الفقه، فالتعليم فيها يكون بإلقاء المعلم الدرس على طلابه وشرحه جيداً ثم يقوم المعيد بإعادة وتوضيح كل ما شرحه المعلم .

وتعتبر مدينة دمشق من أسبق المدن الإسلامية التي ظهر فيها تعيين معيد أو أكثر لكل مادة دراسية، فوظيفة المعيد التي انتشرت في جامعتنا المعاصرة لم تكن وليدة العصر الحاضر، فقد سبقت إلى ذلك مدينة دمشق العريقة التي تعتبر من أسبق المدن الإسلامية في الاهتمام بتعيين معيد ليعيد للطلاب من شرحه المدرس . (٥٢)

يقول الدكتور سعيد عاشور: لقد جرت العادة- في مدينة دمشق- على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ليعيد للطلاب ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى شرح (٥٣) فإنن، دور المعيد أن يجلس مع الطلاب قبل الدرس أو بعده لمساعدتهم في استيعاب دروسهم، فدور المعيد في العملية التعليمية دوراً تكميلياً لما يقوم به المدرس من ألقاء الدروس وتفهم الطلاب حتى يصل الطلاب إلى درجة عالية من الفهم لمسائل الفقه المختلفة التي تحتاج إلى شروح وإعادات كثيرة حتى يتم استيعاب مسائل الفقه؛ لأن قضايا ومسائل الفقه من الأهمية بمكان.

(٥٢) النعمي: الجزء الاول، ص ٣٦٨؛ أحمد رمضان: مرجع سابق، ص ١٤٨ .

(٥٣) مرجع سابق: ص ٣٤٤ .

فمدرس الفقه كالتبيب، فإذا كان الطبيب يرشد الناس إلي ما يصلح أبدانهم ويشفي علمهم الجسدية، فإن مدرس الفقه يرشد الناس إلي ما يصلح دينهم وعقيدتهم، فمدرس الفقه وطالب الفقه لا بد أن يتحلى بصفات عديدة كالفهم والنكاء الشديد وصفاء الذهن ليستوعب كل ما يلقيه عليه المدرس والمعيد من مسائل تهتم بالقضايا الفقهية التي تهتم كل أفراد المجتمع الإسلامي .

وإذا كانت مدينة دمشق قد سبقت غيرها من المدن الإسلامية في وجود وظيفة ما يعرف بالمعيد تلك الوظيفة التي لها أهمية كبرى في العملية التعليمية حيث إن المعيد يكون عوناً للطلاب في شرح وتوضيح لما يقاه المدرس من مسائل فقهية .

فإن مدينة دمشق أيضاً قد سبق غيرها من المدن الإسلامية في جعل وقت الدراسة اليومي اختياري للمدرس، حيث إن اليوم الدراسي يبدأ من طلوع الشمس إلى آذان العصر، وعلى المدرس أن يختار الوقت المناسب أثناء النهار على أن تكون فترة الدراسة الفعلية لمدة ثلاث ساعات فقط<sup>(٥٤)</sup>

وهنا يجب على المدرس التعاون مع الطلاب في اختيار وقت الدراسة المناسب لهم؛ لأن هذا ادعي لتحقيق الفائدة العلمية والنفع المطلوب، فاختيار توقيت الدراسة من الأهمية بمكان، حيث أن هناك أوقات تكون فيها درجة الاستيعاب لدى الطلاب أكثر من أوقات أخرى . أما أيام الدراسة، فكانت من ٤ إلى ٥ أيام فقط في الأسبوع حسب ما تقتضيه العملية التعليمية<sup>(٥٥)</sup>

وعرفت مدينة دمشق الإجازة السنوية (العطلات الدراسية) للطلاب والمدرسين وهذه الإجازات تكون في شهر رجب وشعبان ورمضان والعشرين من شوال .<sup>(٥٦)</sup>

<sup>(٥٤)</sup> محمد محمد أمين: الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، دط، سنة ١٤١١ هجرية / ١٩٩٠ ميلادية، ص ٨٥٤ .

<sup>(٥٥)</sup> محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ٨٥٤ .

<sup>(٥٦)</sup> محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ٨٥٥ .



وأرى أن الهدف من اختيار هذه الأشهر لتكون إجازة سنوية لمدارس دمشق قد يكون لتفرغ الطلاب والمدرسين معاً للإكثار من الأعمال الصالحة من عبادات وغيرها والتعرض للنفحات الربانية في هذه الأشهر المباركات التي يكون ثواب العبادة والعمل الصالح فيها أفضل من غيرها، فهذه الشهور هي من أفضل الشهور عند الله سبحانه وتعالى .

وبعد أن رأينا كيف تعددت طرق وأساليب التعلم في المدارس الفقهية بمدينة دمشق لتحقيق الثمرة المرجوة من التعلم وهي تنقيف طلاب مدينة دمشق وتعليمهم ليكونوا علماء كبار في المذاهب الفقهية المختلفة، ولكي يصبح الطالب عالماً لا بد من إثبات ذلك من شيخه، بأن هذا الطالب أصبح بارعاً في أحد فروع الفقه المختلفة وهذا الإثبات هو ما عرف بالإجازات العلمية التي يمنحها الشيخ أو المدرس لطلابه - كما سنرى .

### **ثالثاً : الإجازات العلمية بمدينة دمشق**

بعد أن يصل الطالب إلى مبتغاه من تحصيل قدر معين من العلم في بعض المسائل الفقهية يجني الطالب ثمار جهده وتعبه بأن يحصل من مدرسه أو شيخه على إجازة في فن معين من فنون الفقه المختلفة تجعله قادراً على الفتيا وإلقاء الدروس في هذا النوع من العلوم، ولا يتأتى له ذلك إلا بالحصول على الإجازات العلمية التي تعتبر المؤهل الحقيقي للجلوس لإلقاء الدروس في مذاهب الفقه المختلفة.

وإذا أردنا التعرف على الإجازات العلمية التي صدرت في المدارس الفقهية بمدينة دمشق فأنا سنذكر بعض فقهاء كل مدرسة؛ لأن هؤلاء الفقهاء هم من أصدروا هذه الإجازات العلمية لطلابهم.

فمن أشهر فقهاء المدرسة العادلية : القاضي الفقيه جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني<sup>(٥٧)</sup>، وجمال الدين المصري الذي كان يحضر مجلسه السلطان وأيضاً قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خليل الخوي<sup>(٥٨)</sup>

<sup>(٥٧)</sup> ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٦ .

<sup>(٥٨)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٦٢ .

ومن أشهر فقهاء المدرسة الظاهرية : الشيخ رشيد الدين أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود<sup>(٥٩)</sup>، والشيخ علاء الدين بن بنت الأعز<sup>(٦٠)</sup>، ومن أشهر فقهاء مدرسة الشهيد نور الدين محمود التي كانت للأحناف القاضي الفقيه عماد الدين الحوراني<sup>(٦١)</sup>، والقاضي شمس الدين الزرعي<sup>(٦٢)</sup> والشيخ صدر الدين سليمان<sup>(٦٣)</sup>

ومن أشهر فقهاء المدرسة الصمصامية : شرف الدين خطيب الفيوم<sup>(٦٤)</sup>، والفقيه نور الدين علي بن عبد النصير المالكي وكان يحضر مجلسه القضاة والأعيان<sup>(٦٥)</sup> والفقيه شمس الدين غبريال الأسمرى<sup>(٦٦)</sup>

ومن أشهر فقهاء المدرسة الشرايشية : وهو أول من درس بها تاج الدين عبد الرحمن الزواوي<sup>(٦٧)</sup> والقاضي جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن عبد السلام بن عمر الزواوي الذي كان قائد المالكية بجانب أنه مدرس الفقه المالكي بالمدرسة الشرايشية<sup>(٦٨)</sup>

ومن فقهاء مدرسة النورية : بهاء الدين بن العقاده وهو أول من درس بها<sup>(٦٩)</sup> وبرهان الدين بن مسعود الدمشقي<sup>(٧٠)</sup> و تاج الدين بن سوار<sup>(٧١)</sup>

<sup>(٥٩)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥١ .

<sup>(٦٠)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥٢ .

<sup>(٦١)</sup> ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٨ .

<sup>(٦٢)</sup> محمد كردي على : مرجع سابق، ص ٩٥ .

<sup>(٦٣)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٣٥١ .

<sup>(٦٤)</sup> ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٧ .

<sup>(٦٥)</sup> النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

<sup>(٦٦)</sup> النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

<sup>(٦٧)</sup> النعيمي : الجزء الثاني، ص ٨ .

<sup>(٦٨)</sup> النعيمي : الجزء الثاني، ص ٥ .

<sup>(٦٩)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٦١٨؛ جمال محمد سالم خليفه : فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي (٤٩١- ٦٩٠ هجرياً/ ١٠٩٧ - ١٢٩١ ميلادياً)، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة

الأولى، سنة ١٤٢٧ هجرياً/ ٢٠٠٦ ميلادياً، ص ١٩٩ .

<sup>(٧٠)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٦١٩ .

<sup>(٧١)</sup> النعيمي : الجزء الأول، ص ٦٤٩ .

ومن فقهاء مدرسة الحنابلة: القاضي عز الدين بن مسلم<sup>(٧٢)</sup> والفقهاء شرف الإسلام عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الحنبلي عبد الواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي<sup>(٧٣)</sup> وهؤلاء الفقهاء هم من تولوا إصدار الإجازات العلمية في مدارسهم، وكانوا كل فقيه يكتب في الإجازة أن الطالب اتم دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، ويكتب أيضاً في الإجازة اسم الطالب واسم شيخه ومذهبه وتاريخ إصدار الإجازة وقد حصل ابن بطوطة في أثناء وجوده بدمشق على إجازة عامة من فقهاء وعلماء مدينة دمشق ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد المقدسي ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي وغيرهم وذلك في سنة ٦٢٦ هجرياً<sup>(٧٤)</sup> وكانت قيمة الإجازة ومكانتها العلمية تتوقف على سمعة الفقيه الذي أصدرها ومكانته العلمية وشهرته بين علماء مذهبه<sup>(٧٥)</sup>؛ لأن هذه الإجازة إقرار خطي يكتبه الفقيه ويعترف فيه بأن حامله قد قرأ عليه وأصبح مؤهلاً لتعليم غيره، وكانت هذه الإجازة تشبه في وقتنا الحاضر شهادة الماجستير أو الدكتوراه التي تتوقف قيمتها بشكل كبير على مكانه المعلم المشرف العلمية وشخصيته وحسن سيرته العلمية والعملية والاجتماعية.

هذا كلما وفقنا الله أن نستخلصه مما ذكره ابن بطوطة من وصف لمدارس الفقه في مدينة دمشق، وما تضمنه هذه المدارس من فقهاء وعلماء برعوا في كل المذاهب الفقهية المختلفة، واخلصوا في أداء رسالتهم بشتى الطرق والأساليب مما نتج عنه وجود جيل من الفقهاء من أبناء دمشق أصبح لهم باع طويل في قيام نهضة ثقافية في مدينة دمشق.

<sup>(٧٢)</sup> ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٨ .

<sup>(٧٣)</sup> النعمي: الجزء الثاني، ص ٣٨ .

<sup>(٧٤)</sup> ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٧٧ .

<sup>(٧٥)</sup> القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، (د.ت) ص ٣٢٢ - ٣٢٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: مرجع سابق، ص ٣٤٤ .

### الخاتمة

الحمد لله الذي بفضلته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم وبعد

فمن خلال هذه الدراسة التي تناولت مدارس دمشق ودورها الثقافي من خلال وصف ابن بطوطة نتضح لنا عدة نتائج أهمها :

- أن كل ما ذكره ابن بطوطة عن مدارس دمشق وما تلقاه هذه المدارس من عناية ورعاية من جانب سلاطين المماليك حتى غدت واحدة من أرقى المدن الثقافية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت يعطينا رداً قوياً على من وصف عصر المماليك بالتخلف العلمي والجمود الفكري
- تعتبر مدينة دمشق من أسبق المدن في تعيين معيدين بمدارسها لمعاونة ومساندة المدرسين في أداء رسالتهم، فدور المعيد هو شرح أو توضيح أو إعادة لما ذكره المدرس إذا احتاج الطلاب ذلك، فلمعيد دور حيوي في العملية التعليمية
- كذلك اهتمت مدينة دمشق بتعليم الخط العربي، فبهذا تكون قد سبقت غيرها في وضع أسس مدارس الخط العربي والزخرفة الإسلامية التي انتشرت فيما بعد في ربوع العالم الإسلامي
- عرفت كذلك مدينة دمشق التخصص في المذاهب الفقهية فعلى الرغم من انتشار جميع المذاهب الفقهية في دمشق إلا إنه كان لكل مذهب طلاب ومريدين لهم كل الحرية في اختيار المذهب الذين يدرسونه و يتقنون في مسأله
- كذلك اهتمت مدينة دمشق في إلحاق سكن للعلماء والطلاب في كل مدرسة وهذا أشبه في وقتنا الحاضر باستراحات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات المعاصرة بالنسبة للمدرسين وأشبه بالمدن الجامعية في وقتنا الحاضر بالنسبة للطلاب

- حرص أبناء دمشق على دراسة المذاهب الفقهية المختلفة والحرص أيضًا على الحصول على إجازات علمية تثبت للطالب حصوله على قدر معين في دراسة بعض المسائل الفقهية على مذهبه الذي اختاره بإرادته وتعطيه الحق في الجلوس لإلقاء دروس هذا المذهب والفتيا في مسائله أيضًا؛ لأن هذه الإجازة إقرار من شيخه الذي درسه

### التوصيات

إذا كان ابن بطوطة في أثناء زيارته إلى مدينة دمشق قد اهتم بذكر المدارس الفقهية فقط والتي انتشرت في مدينة دمشق، فإن هذا لا يعني أن مدينة دمشق لم يكن فيها إلا مدارس الفقه، بل أن مدينة دمشق كان فيها مدارس القرآن الكريم ومدارس الحديث الشريف ومدارس للتخصصات العلمية مثل مدارس الطب والصيدلة والهندسة وغيرها .

وإذا كنا قد عشنا مع ابن بطوطة ووصفه لمدارس الفقه بمدينة دمشق ودورها الثقافي، فإن مجال المدارس في مدينة دمشق موضوع كبير يحتاج إلى العديد من الأبحاث العلمية لذا أوصي الباحثين إلى التنقيب والبحث في أنواع المدارس الأخرى التي انتشرت في مدينة دمشق من حيث دراسة الاوقاف الخاصة بها ورحلات العلماء من و إلى مدينة دمشق والتفاعل الثقافي بين مدينة دمشق ومدن العالم الإسلامي الأخرى من حيث التأثير والتأثر، كذلك الشكل المعماري لهذه المدارس وما تحويه من إيوانات ومسكن للمدرسين والطلاب وما تضمه من مسجد ومكتبة .

### قائمة المصادر والمراجع

#### أولاً : المصادر :

- ابن بطوطة: (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، سنة ٧٧٠ هجرياً / ١٣٦٨ ميلادياً)
- (١) تحفه النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، كتاب التحرير، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هجرياً / ١٩٦٦ ميلادياً .
- البغدادي : ( صفي الدين عبد المؤمن، ت ٧٣٩ هجرياً / ١٣٣٨ ميلادياً )
- (٢) مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الجزء الثاني، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٥ هجرياً / ١٩٥٥ ميلادياً .
- الجبرتي: ( عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين، ت ١٢٤٠ هجرياً / ١٨٢٥ ميلادياً )
- (٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ط، سنة ١٤١٨ هجرياً / ١٩٩٧ ميلادياً .
- ابن جبيرابو: (أبو الحسن محمد بن أحمد الكناي الاندلسي، ت ٦١٤ هجرياً / ١٢١٧ ميلادياً)
- (٤) رحلة ابن جبير، بيروت، سنة ١٣٨٤ هجرياً / ١٩٦٤ ميلادياً .
- ابن حجر العسقلاني: ( شهاب الدين أبو الفضل أحمد، سنة ٨٥٢ هجرياً / ١٤٤٨ ميلادياً )
- (٥) إنباء الغمر بأبناء العمر، الجزء الأول، دن، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٦ هجرياً / ١٩٩٢ ميلادياً .
- ابن رسته: ( أبي على أحمد بن عمر من أهل القرن الثالث الهجري )
- (٦) كتاب الاعلاق النفسية، المجلد السابع، دن، مدينة ليدن، سنة ١٣٨٧ هجرياً / ١٩٦٧ ميلادياً .
- الصفدي: ( صلاح الدين خليل بن ابيك، ت ٧٦٤ هجرياً / ١٣٦٢ ميلادياً )
- (٧) تحفه ذوي الأبواب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثاني، تحقيق : إحسان بنت سعيد خلوصي - وزهير حميدان الصمصام، وزارة الثقافة - سوريا - دمشق، د.ط، سنة ١٤١٣ هجرياً / ١٩٩٢ ميلادياً .

- عبد الله محمد البديري : (المصريي الدمشقي من علماء القرن التاسع عشر)  
(٨) نزوه الأتام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٤١ هجرية / ١٩٢٢ ميلادية.
- ابن عساكر: ( على ابن الحسن من هبه الله بن عبد الله الشافعي د.ت )  
(٩) تاريخ مدينة دمشق، المجلد الثاني، القسم الأول، خطط الشام، تحقيق : صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، سنة ١٣٧٤ هجرية / ١٩٥٤ ميلادية .
- القلقشندي: ( أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هجرية / ١٤١٨ ميلادية )  
(١٠) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع عشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت .
- ابن كثير: ( عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤ هجرية / ١٣٧٢ ميلادية )  
(١١) البداية والنهاية، المجلد السادس، بيروت، الجزء الرابع والجزء الثاني عشر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت .
- المقريزي: ( تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٦ هجرية / ١٤٤٢ ميلادية )  
(١٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨ هجرية / ١٩٩٧ ميلادية .
- النعمي: ( عبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي، ت ٩٢٧ هجرية / ١٥٢٠ ميلادية )  
(١٣) الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الأول والثاني، تحقيق: جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ط، سنة ١٤٠٩ هجرية / ١٩٨٨ ميلادية .
- ياقوت الحموي: ( شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، سنة ٦٢٦ هجرية / ١٢٢٨ ميلادية )  
(١٤) معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، سنة ١٣٧٧ هجرية / ١٩٥٧ ميلادية .

**ثانياً : المراجع العربية :**

**أحمد رمضان: ( دكتور)**

(١) المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، د.ت، د.ن .

**أنور زقلمة: ( دكتور)**

(٢) الممالك في مصر، مطبعة مندبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً.

**بروكلمان: ( دكتور)**

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٧ هجرياً / ١٩٤٨ ميلادياً .

**جمال محمد سالم خليفة: ( دكتور)**

(٤) فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي (٤٩١ - ٦٩٠ هجرياً / ١٠٩٧ - ١٢٩١ ميلادياً) عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٧ هجرياً / ٢٠٠٦ ميلادياً.

**حسام الدين الحذوري: ( دكتور)**

(٥) الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، سنة ١٤٣٢ هجرياً / ٢٠١١ ميلادياً .

**رانيا الهاشم: ( دكتور)**

(٦) قصة وتاريخ الحضارات العربية، الجزء السابع عشر، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٠ هجرياً / ١٩٩٩ ميلادياً .

**سعيد عبدالفتاح عاشور: ( دكتور)**

(٧) العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦ هجرياً / ١٩٩٥ ميلادياً.



محمد عيسى الحريري: (دكتور)

(٨) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المديني، دار القلم للنشر، الكويت الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧ هجريا / ١٩٩٧ ميلاديا.

محمد كرد علي: (دكتور)

(٩) خطط الشام، الجزء الخامس، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٣ هجريا / ١٩٨٣ ميلاديا.

محمد محمد أمين: (دكتور)

(١٠) الأوقاف والتعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، د.ط، سنة ١٤١١ هجريا / ١٩٩٠ ميلاديا .

محمد مختار باشا: (دكتور)

(١١) التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة (دكتور)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠ هجريا / ١٩٨٠ ميلاديا.

ويستفقد:

(١٢) جدول السنين الهجرية وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة: عبدالمنعم ماجد (دكتور) وعبدالمحسن رمضان (دكتور)، الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١ هجريا / ١٩٨٠ ميلاديا.

**الطعام واللباس في رحلة السلطان الأشرف قايتباي  
للحج سنة ١٤٨٠هـ/١٤٨٠م من خلال رحلته المدونة  
في المجموع الظريف في حجة المقام الشريف**

**د. ريم بنت معيض عايض الحربي**

استاذ التاريخ الإسلامي المشارك

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة



**المخلص:**

يهدف هذا البحث إلى دراسة الهدايا والإعطيات وإكرام المستقبلين والزائرين بالطعام واللباس في رحلة السلطان الأشرف قايتباي للحج سنة ١٤٨٠هـ/١٤٨٠م من خلال رحلته المدونة في المجموع الظريف في حجة المقام الشريف التي دونها أبو البقاء بدر الدين ابن الجيعان، وتسجل جانباً حضارياً مهماً في رحلة السلطان، وقد تناولت الدراسة سيرة موجزة للمؤلف وأهمية تدوين رحلته، ثم تناولت السماط السلطاني والأطعمة المشتملة عليه، كما تطرقت الدراسة إلى اللباس من خلال الخلع المهداة من الأشرف قايتباي لأعيان الدولة، وتبع ذلك خاتمة بينت فيها أبرز نتائج البحث، وملاحق، وقائمة المصادر والمراجع.

## Abstract

This Study aims to research food and clothing used in the Hajj pilgrimage journey of Sultan Al-Ashraf Qaytbay that took place in 884AH/1480AD. The Study will analyze this journey through records available in the book titled "Al-Majmou Al-Zarif Fi Hajjat Al-Maqam Al-Sharif" by Abu Al-Baqa Badreddin Al-Jaian; a book that is considered to be an important record of the cultural aspect in the trip of the Sultan. The Study provides a brief biography of the author and the importance of recording his journey, then proceeds to demonstrate the Sultan's dining table along with types of food served. The Study also sheds light on the nature of clothing through gifts given by Sultan Al-Ashraf Qaytbay to the notables of the state. The Study concludes with the main findings of the research along with appendices and a list of sources and references.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.  
من القضايا الحيوية المتجددة في الدراسات التاريخية دراسة الرحلات عبر العصور، واستنباط الصور التي دونت في كل عصر، وتكاد لا تخلو رحلة من انطباعات ومشاهدات تقدم للدراسات التاريخية قيمة للعصر المعني بالدراسة، ووجوه الثقافات المختلفة بين الأقاليم المتعددة ونقاط الالتقاء والاختلاف.

ولقد كان الحج إلى بيت الله أحد مجالات توثيق الرحالة رحلاتهم، وسبباً في تأصل فن كتابة الرحلة، بتسجيل مشاهداتهم ومرئياتهم، ورسم صورة حية للمجتمع الإسلامي، ورصد أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ونقل القارئ لتلك الحقبة التي دونها.

وتميز كتاب المجموع الظريف أن مؤلفه ليس من الرحالة، فلم يكن هدفه تقديم معلومات عن محطات الحج التي نزل بها، أو وصف مكة المكرمة والمدينة النبوية من كافة الجوانب العمرانية، أو الحياة الاجتماعية، أو الأحوال الاقتصادية والثقافية التي شاهدها، كما لم يشر لذكرياته ومشاهداته لكافة التفاصيل التي وقف عليها بشأن الحج عامة.

فكانت رحلة السلطان الأشرف قايتباي ( ٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) التي كتبها محمد بن يحيى بن شاطر المعروف بابن الجيعان مثالا لرحلات السلاطين للحج في العصر المملوكي؛ لأنها تمثل رحلة متكاملة وصلت إلينا، فقد سجل لنا كاتب الرحلة صاحب المجموع الظريف معتمداً على مشاهداته، موجهها عدسة رؤيته نحو السلطان فقط، منذ صدور الأمر بإعداد قافلة الحج، وتنظيم الركب الخارج من مصر وفق مراسم خاصة، وتعيين أمراء الحج، وكيفية الإعداد لقافلة الحج المصري والمرافقين فيها، ومنازل وقوف القافلة، وما أمر به السلطان الأشرف قايتباي من وضع السباط السلطاني لكل من يأت لاستقباله من الأمراء وكبار رجال الدولة، وما يتطلبه من إجراءات تسبقه، وما وهبهم من خلع متمثلة في اللباس والركاب والمال والهدايا، مما لها دلالاتها الاجتماعية ورموزها الثقافية.

وجاءت هذه الدراسة لأهمية الرحلة التي دونها الكاتب المرافق للسلطان في رحلته؛ إذ تعد أنموذجاً لما كُتب عن الحج في العصر المملوكي، حيث لم يصلنا عن حج السلاطين سوى ماتفرق

في بطون المصادر<sup>(١)</sup>، فاشتملت على الكثير من المصطلحات والكلمات المستخدمة في تلك العصر من الرتب العسكرية، وأنواع الأطعمة، واللباس والمراسم - البرتوكول - المتبع وغير ذلك. وتناولت الدراسة إحدى محاور الجوانب الاجتماعية المتمثلة في الطعام واللباس، ما يعد توثيقاً مهماً آنذاك، متضمنة مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة وملاحق وفق الآتي:

**سيناقش المبحث الأول ترجمة المؤلف وأهمية تدوين رحلته، ويتطرق المبحث الثاني للسماط السلطاني والأطعمة المشتملة عليه، والمبحث الثالث يتحدث عن اللباس من خلال الخلع المهداة من الأشرف قايتباي لأعيان الدولة، ثم خاتمة بينت فيها أهم نتائج الدراسة، تلاها ملاحق، وستنيل بقائمة المصادر والمراجع بمشيئة الله.. ونسأل الله العلي العظيم أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يسهم في خدمة المجال الذي كتب فيه.**

### المبحث الأول:

#### أولاً: كاتب المجموع الظريف:

أبو البقاء بدر الدين محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني بن شاكر<sup>(٢)</sup> بن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب<sup>(٣)</sup> بن الجيعان، أصله من مدينة دمياط<sup>(٤)</sup>، من أعيان دولة المماليك، فهو من أسرة قبطية مسيحية<sup>(٥)</sup>، سكنت في حارة عرفت باسمهم الجيعانية أو حارة أولاد الجيعان<sup>(٦)</sup>، وفي

- (١) مما ورد في خبر سفر السلطان للحج: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٥، ص ٤٣٤؛ وجيز الكلام ج ٣، ص ٨٩٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢، ص ٧١٠-٧١٤؛ العليمي: الأئس الجليل، ج ٢، ص ٣٢٢؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥١٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٦٩٣، ٦٩٤؛ الجزيري: نثر الفرائد، ج ٢، ص ٣٦٨-٣٧٣؛ القرماني: أخبار الدول، ص ٢١٧؛ العصامي: سمط النجوم، ج ٤، ص ٥٦-٥٩، ٢٩١؛ السنجاري: منائح الكرم، ج ٣، ص ٨٦-٨٩.
- (٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١١، ص ٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٨٧٢.
- (٣) السيوطي: نظم العقيان، ص ١١١.
- (٤) السيوطي: نظم العقيان، ص ١١١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦٧٠؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٥٨.
- (٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣١١، ج ٥، ص ١١٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٦١، ٣٨٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦٧٠؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٥٨.
- (٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٠٣؛ ج ٣، ص ٣٥٣، ج ٦، ص ٣١٣، ج ١٠، ص ٤٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٤؛ أمين: فيض خاطر، ج ٣، ص ١٧١.

بداية القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي) أسلمت وحسن إسلامها<sup>(١)</sup>؛ فحفظ بعض أفرادها القرآن الكريم، وابتنى بعضهم المساجد والمدارس في القاهرة، ووقف بعض أملاكهم في وجوه الخير، مستفيدين من ثرائهم<sup>(٢)</sup>.

كما أصبحت الأسرة ذات مكانة اجتماعية لما يربو على قرن من الزمان<sup>(٣)</sup>، ومن كبار المقربين من السلاطين المماليك<sup>(٤)</sup>، من خلال عمل بعض أبنائهم لسبعة عشر سلطانا في الدولة المملوكية مايقارب مئة وعشرين عامًا، وشغل العديد منهم بعض المناصب الإدارية كالعامل في ديوان الجيش<sup>(٥)</sup>، ونظارة الخزانة الشريفة وكتابتها<sup>(٦)</sup>، ونيابة كتابة السر<sup>(٧)</sup>، فصاهرهم كبار رجال الدولة من الأعيان

- (١) ابن الجيعان: القول المستطرف، مقدمة المحقق، ص ٨، ٩.
- (٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٨؛ حوادث الدهور، ص ٤٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٧، ٢٨، ٨٥، ١٧٩، ٣١١، ٣٣٠، ج ٦، ص ١٣٥، ج ١٠، ص ٧١، ٩٨، ١٧٥، ج ١١، ص ٣، ٨، ٩، ٢٤١، ٢٤٢؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ١٩٢، ج ٨، ص ٢٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦٧٠، ٨٠١، ٨٧٢؛ دراج: تراجم كتاب السر في العصر المملوكي، مجلة البحث العلمي، ص ٣٤٥.
- (٣) ينظر: شجرة الأسرة ملحق رقم (١).
- (٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٧، ج ١١، ص ٨، ٩؛ العليمي: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦١٤، ٦٧٠، ٧٣٨، ج ٢، ص ١٧١٦؛ العصامي: سمط النجوم، ج ٤، ص ٣٢١.
- (٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٠١، ج ١، ص ٢٤١؛ السيوطي: نظم العقيان، ص ١١٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ١٩٢، ٢٦١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢٦، ٦٧٠، ٨٧٢.
- (٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٢؛ حوادث الدهور، ص ٣٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٤١، ٢٤٢، ج ٤، ص ٨٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٨٣٥، ج ٢، ص ١٧١٦، ٩٦١.
- (٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣٩، ٨٥، ١٩٠، ٢٨٤، ٣٣٠، ج ١٠، ص ٧٢، ج ١١، ص ١١٧؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٠٣، ٣٨٥، ٣٨٦؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص ٣٢٧، ٣٣٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢٦، ٦٧٩، ٧٣٨، ٨٠٥، ج ٢، ص ٩٤٢، ٩٤٤، ٩٦٠، ١٠٨٦؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٢١، ١٥٨، ٣٠٤؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ١٣٩.
- كاتب السر: منصب مهم يتولى صاحبها قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، =

وأصحاب المناصب العليا<sup>(١)</sup>، وأثنى المؤرخون<sup>(٢)</sup> والشعراء على بعضهم، ومن ذلك<sup>(٣)</sup>:

بيت بني الجيعان بيت العلا      شاكرهم وفتى النجى حقه  
كم أهمهم في الوجود مرتزق      فنال من معروفهم رزقه<sup>(٤)</sup>

وكان والد المؤلف أبو زكريا شرف الدين يحيى بن الجيعان مستوفياً بديوان الجيش<sup>(٥)</sup> بمصر<sup>(٦)</sup> بعد وفاة والده سنة ٨٨٢هـ / ٤٧٧م الذي عرف أنه كان " رئيساً حشماً وجيهاً عند الملوك والسلاطين " <sup>(٧)</sup>.

وكان شرف الدين يحيى " عالماً فاضلاً رئيساً حشماً، وله اشتغال بالعلم والفرائض "<sup>(٨)</sup>، و وصفه السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ٤٩٦ م) بأنه: "ممن فاق ذكاء، وحفظاً، وخطاً، بل تقدم في فنون، وترقى للإقراء، والإفتاء، والخطابة، وتزاحم الفضلاء عنده، مع سرعة الإدراك، والفصاحة، وحسن العبارة، ومزيد التواضع، والأدب، والعقل، والاحتمال، والذرية، والسياسة،

= وأخذ خط السلطان عليها، وتسفيرها، وتصريف المراسم وروداً وصدراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. (العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص٤٥٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص١٣٨، ج٤، ص١٩٥؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٢٦؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٩٨، ٩٩؛ دهمان: معجم الألفاظ، ص١٢٧).

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص١٧٢، ١٧٨، ٢٠٤، ج٢، ص٢١٥، ٢٢٣، ج٤، ص١٧٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٣٠٣، ٣١٣، ج٥، ص١٠١، ١٠٥، ج١٠، ص٣٢١، ٣٣٧، ج١١، ص١٩٦، ٢٤٧، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٠.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٨٥، ج٥، ص١٠١، ج٦، ص١٣٥، ج١٠، ص٧٢، ج١١، ص٤، ٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٦٧٠، ٧٠٠، ٧٣٨، ج٢، ص١٧١٦.

(٣) السيوطي: نظم العقيان، ص١١١.

(٤) وهو ثناء الشاعر محمد بن حسن النواجي (ت ٨٥٩هـ / ٤٥٥ م) لعلم الدين شاكر بن عبد الغني ابن شاكر بن ماجد ابن الجيعان (ت ٨٨٢هـ / ٤٧٧ م). (السيوطي: نظم العقيان، ص١١١).

(٥) مستوفي ديوان الجيش: موظف كبير يشرف على ديوان الجيش المصري والشامي. واختصاصاته: ضبط الديوان، ومصادر الإنفاق على الجيش. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٦٥، ج٤، ص١٨؛ البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣١٠).

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٧٠٠.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٦٧٠.

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٧٠٠.

والتودد لأحبابه، سيما الفضلاء منهم، والإحسان إليهم بالمال والجاه، والمثابرة على التهجد، والتحري في الطهارة والنية، والإعراض عن اللهو واللغو جملة، والمحاسن الوافرة، بحيث كان جمال الممالك، وكنت عنده بمكان، وتأسفنا على فقده" (١)، له عدد من المؤلفات (٢)، توفي عام ٨٨٥ هـ / ٤٨٠ م (٣).

أما المؤلف أبو البقاء بدر الدين محمد بن الجيعان، فقد ولد سنة ٨٤٧ هـ / ٤٤٣ م، ونشأ في كنف والديه، وحرص والده على تحفيظه القرآن الكريم وعدة كتب، وسمع لعدد من العلماء، حتى تمكن لتمييزه " بحسن نكاته، وقوة فاهمته" (٤)، و كان " من نوابغ أولاد ابن الجيعان" (٥)، ولو تفرغ للعلم " لكان من نوابغ زمانه وزواهر وقته وأوانه" (٦) إلا إنه " قام بالمهمات السلطانية بما لم يبرمه غيره" (٧)، وكلف مستوفيا بديوان الجيش (٨)، وسافر بتكليف من السلطان الأشرف قايتباي إلى المدينة النبوية والقدس، وغيرهما (٩)؛ إذ كان مقرباً منه، ف " رقي في أيامه، وانتهدت إليه الرئاسة، وفاق عدداً ممن تقدمه من أقاربه" (١٠)، وكانت له مآثر معمارية، وبر صدقات (١١). وقد توفي بدر الدين بن الجيعان مقتولا سنة ٩٠٢ هـ / ٤٩٧ م من قبل بعض المماليك (١٢)، عن عمر يناهز خمسة وخمسين عاماً.

- (١) السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩١١.  
 (٢) الزركلي: الأعلام، ج٨، ص ١٤٩؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٤، ص ٩٧؛ زيدان: تاريخ آداب اللغة، ص ١١٨.  
 (٣) ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص ٢٦١؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩١١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٧٠٠، كحالة: معجم المؤلفين، ج٤، ص ٩٧.  
 (٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص ٩.  
 (٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٨٧٢.  
 (٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص ٩.  
 (٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص ٩.  
 (٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٨٧٢.  
 (٩) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص ٤٥، ج١١، ص ٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٧٤٣، ٧٤٧.  
 (١٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٨٠١، ٨٧٢.  
 (١١) ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص ٣٦٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٨٧٢.  
 (١٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٨٧٢؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص ١٢١؛ زيدان: =



### ثانياً: كتاب المجموع الظريف:

يعد كتاب "المجموع الظريف في حجة المقام الشريف الملك الأشرف أبي النصر قايتباي" أحد كتب الرحلات المهمة التي وصلتنا عن الأحوال المصاحبة لحج السلاطين في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، فلم تكن رحلة رحالة من العامة يوثق ويصف ما يراه، وإنما رحلة أعلى سلطة في الهرم السياسي لدولة المماليك من القاهرة لمكة ذهاباً وإياباً، فاستمد الكتاب قيمته من قيمة الشخصية التي تدور حولها أحداث الرحلة، فتضمن - رغم صغر حجمه - معلومات قيمة تنصب في المراسيم والنقائيد السلطانية، والفخامة في الأسمطة والتشريف<sup>(١)</sup> المصاحبة للرحلة، ورجال الدولة من الأمراء والأشراف والقضاء والعلماء المعاصرين للرحلة، إلى غير ذلك من الإشارة إلى بعض المراسم المرعية - البروتوكولات - والجوانب الاجتماعية، وأصحاب المناصب الإدارية، وبعض من منازل الحج. وقد ألف بدر الدين ابن الجيعان كتابه في عهد الملك الأشرف قايتباي<sup>(٢)</sup>، ووجدت نسخة الكتاب الأصلية في دار الكتب المصرية رقم (٨٤٥ جغرافية)، ونشرها الشيخ حمد الجاسر (ت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، في مجلة العرب التي تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر في الرياض<sup>(٣)</sup>، ورجح كتابة الكتاب بخط المؤلف نفسه، والذي كتبه للملك الأشرف قايتباي؛ لحرص ابن الجيعان على "إيضاح الكلمات بالشكل مع المبالغة في تحسين الكتابة وإيضاحها"<sup>(٤)</sup>، وكان الهدف من كتابه توثيق رحلة الحج سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م؛ لنشر محاسن السلطان وهيبته في الإطعام والإكساء، وهو مجمل ماتضمنه وصف الرحلة.

= تاريخ آداب اللغة، ص ٩٨١.

(١) التَّشْرِيف: ما يمنح من ملابس خاصة لكبار رجال الدولة على اختلاف طبقاتهم، وفق ما تقتضيه رتبهم في المناسبات. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٦٠-٥٤؛ ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ٦٥؛ الكيلاني: مصطلحات تاريخية، مجلة التراث العربي، ص ٣٩).

(٢) يستدل على ذلك من أسلوب الكاتب عند ذكر السلطان طوال الرحلة مثل: "ثم حضر المقام الشريف نصره الله تعالى". ص ٦٦٥.

(٣) مجلة العرب، مج ١٠، ع ١٠٤، ٩، (إبريل/ربيع الثاني)، ١٩٧٦م، ص ٦٥٩-٦٩٦.

(٤) ص ٦٦١.

وقد نسب حمد الجاسر الكتاب لأبي البقاء شهاب الدين أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، معتمداً على ماورد في طرة نسخة دار الكتب المصرية التي ورد فيها: "كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، الملك الأشرف أبي النصر قايتباي وضعه أبو البقاء بن الجيعان في حج الملك الأشرف المذكور سنة ٨٨٤هـ"<sup>(١)</sup>، وهذه النسبة ذكرها كل من: البغدادي<sup>(٢)</sup>، والزركلي<sup>(٣)</sup>، وكحالة<sup>(٤)</sup> وهي غير صحيحة، فالكتاب لوالده بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن الجيعان.

ويعزى سبب الخلط بين اسم المؤلف الحقيقي واسم غيره من بني الجيعان، إلى عدم التصريح نهائياً باسم المؤلف سواء على نسخة دار الكتب المصرية التي نقل منها حمد الجاسر، وعدم ذكر المؤلف اسمه الصريح، واكتفى بكنيته فقط بين ثنايا الكتاب. وقد أدرك البعض هذا الخلط فأوردوا ترجمتهم لأبي البقاء بن يحيى بن الجيعان دون ذكر اسمه، والاكتفاء بالكنية والوالد والعائلة<sup>(٥)</sup>.

وتقوى الحجة في أن المؤلف هو بدر الدين أبو البقاء محمد من خلال تتبع سيرة أبناء شرف الدين يحيى، فقد صرح مؤلف المجموع الظريف فيه باسم والده: "ومن المباشرين"<sup>(٦)</sup>: المملوك أبو البقاء، وأخوه أبو البركات، ولدا يحيى بن الجيعان"<sup>(٧)</sup>، وكرر كنيته وكنية أخيه: "ورسم للملوك أبي البقاء بن الجيعان ولأخيه سيدي أبي البركات أن يسبقا"<sup>(٨)</sup>، وقد نُكِرَ أن أبا البقاء بن الجيعان خرج في رحلة الحج تلك السنة ومعه "نحو من مائتين وخمسين جملاً محملة أنواع الأزواد والمأكّل، وكان السلطان قد بعث إليه بثلاثين ألف دينار، وأمره بأن يجهز

(١) المجموع الظريف، مقدمة الناشر، ص ٦٦٠، ٦٦١.

(٢) هدية العارفين، ج ٥، ص ١٤٠؛ إيضاح المكنون، ج ٤، ص ٢٥٤.

(٣) الأعلام، ج ١، ص ٢٧٠.

(٤) معجم المؤلفين، ج ١، ص ٣٢٣.

(٥) الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٢١؛ زيدان: تاريخ آداب اللغة، ص ٩٨١.

(٦) المباشر: الموظف الإداري في الدواوين مثل: الناظر والمستوفي والشاد. (البقلى: التعريف

بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٩٥؛ الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٣٨٦).

(٧) ص ٦٦٧.

(٨) ص ٦٧٢.

له جماله<sup>(١)</sup>، وتأكيداً على ذلك، صرح السخاوي بلقبه وكنيته بقوله فيمن رافق الأشرف قايتباي في الحج: "وممن كان معه: البدر أبو البقاء بن الجيعان، وله في مقدمات سفره ولواحقها وما بينهما من التدبير الناشيء عن يقظته وفطنته ما زاحم به أباه وجده وأخوه نائب كاتب السر الولوي أبو البركات"<sup>(٢)</sup>.

وكان لشرف الدين يحيى ثلاثة أبناء أشقاء خدموا السلاطين المماليك، قال السخاوي: "إن للشرفي يحيى من الأبناء البدر أبو البقاء محمد ثم الولوي أبو البركات أحمد<sup>(٣)</sup> ثم الصلاحي أبو المعالي

محمد<sup>(٤)</sup><sup>(٥)</sup>، وكان لابنه بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن الجيعان نافذاً في الدولة، ومقرراً من السلطان قايتباي، ويعتمد عليه بانتدابه للمهام الجليلة<sup>(٦)</sup>.

وأحمد بن يحيى هو ولي الدين أبو البركات المرافق لأخيه في رحلة الحج كما ذكر ذلك المؤلف نفسه<sup>(٧)</sup>، أما أحمد المتوفى شنفا سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م الذي نسب إليه الكتاب، فهو شهاب الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن شرف الدين يحيى، تولى نيابة كتابة السر<sup>(٨)</sup>، وتقرر في استيفاء الجيش، والتكلم في الخزانة السلطانية عوضاً عن عمه صلاح الدين محمد بن

(١) ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص ٢٤١.

(٢) السخاوي: وجيز الكلام ج٣، ص ٨٩٩.

(٣) أبو البركات ولي الدين أحمد بن يحيى بن شاكر، من أخصاء السلطان، تولى نيابة كتابة السر، توفي سنة ٨٨٩هـ / ١٤٤٨م، وهو في الثلاثين من عمره. (السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص ٢٤٢، ج١١، ص ٣، ٤؛ وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٥٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص ٣٨٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٧٣٨).

(٤) أبو المعالي صلاح الدين محمد بن يحيى بن شاكر، ولد سنة ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م، أسندت إليه نيابة كتابة السر بعد وفاة أخيه أبي البركات أحمد، توفي بعد سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م. (السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص ٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٧٣٨، ج٢، ص ٩٤٢، ٩٦٠، ٩٦١).

(٥) الضوء اللامع، ج١، ص ٢٤٢.

(٦) ابن الجيعان: القول المستطرف، ص ٤٦، ٤٩؛ السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص ٩٤٨، ٩٥٩؛ السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص ٧١٥؛ العليمي: الأئس الجليل، ج٢، ص ٣٢٥؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٧، ص ٢٥٥، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٧٤٣، ٧٤٧.

(٧) ص ٦٦٧، ٦٧٢.

(٨) الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص ١٥٨؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج١، ص ٣٢٣.

يحيى، وهو آخر نائب لكتابة السر للمماليك؛ إذ عاصر سقوط دولتهم واستيلاء العثمانيين على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، فتوالت عليه صعوبات شتى ذكرها ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣هـ) في تاريخه<sup>(١)</sup> حتى وفاته شقاً<sup>(٢)</sup>.

ومما يلاحظ أن المؤرخين المعاصرين وقريبي العهد بأبناء الجيعان لم ينسبوا لهم مؤلفات عند ترجمتهم<sup>(٣)</sup>، وتنبه لذلك الزركلي بقوله في ترجمة شرف الدين يحيى بن شاعر بقوله: "أفاض السخاوي في الثناء عليه، ولم يذكر له تأليفاً"<sup>(٤)</sup>، وقال في ترجمة الحفيد شرف الدين أحمد: "أورد ابن إياس كثيراً من أخباره، وأوجز النجم الغزي في ترجمته، ولم يذكر له تأليفاً. وقال صاحب هدية (العارفين) إنه صنف كتباً"<sup>(٥)</sup>، منها: طوابع البذور في تحويل السنين والشهور، و قوانين الدواوين، ونزهة الناظر وطرار الدفاتر، والقول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف، المسمى: تاريخ قايتباي، والمجموع الظريف في حجة المقام الشريف الملك الأشرف أبي النصر قايتباي وضعه ابن الجيعان في حج الملك الأشرف سنة ٨٨٤هـ<sup>(٦)</sup>، والتحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية<sup>(٧)</sup>، ورجح الزركلي أن التحفة السنوية من تأليف شرف الدين يحيى بن شاعر؛ لوجود مخطوطات من الكتاب في عدة مكتبات باسمه<sup>(٨)</sup>، وتبعه في ذلك

(١) بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٦٩٦، ١٧٠٤، ١٧١١، ١٧١٥-١٧١٨، ١٧٣٦، ١٧٤١.

(٢) الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٢١، ١٥٨، ٣٠٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٢٦، ج ١١، ص ٨، ٩؛ وجيز الكلام، ج ٣، ص ٩١١؛

ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٦١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٧٠٠، ٨٧٢؛

الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ١٥٨.

(٤) الأعلام، ج ٨، ص ١٤٩.

(٥) الأعلام، ج ١، ص ٢٧٠.

(٦) البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ١٤٠؛ إيضاح المكنون، ج ٤، ص ٨٨، ٢٥٤، ٦٤٢؛

كحالة: معجم المؤلفين، ج ١، ص ٣٢٣.

(٧) البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ١٤٠.

(٨) الأعلام، ج ١، ص ٢٧٠، ج ٨، ص ١٤٩، المتن وحاشية رقم (١).

كحالة وآخرون<sup>(١)</sup>، كما رجح نسبة كتاب: القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف له بقوله: "ولعل من تأليفه"<sup>(٢)</sup>، وهو ما أكده محقق الكتاب<sup>(٣)</sup>.

أما صاحب رحلة الحج، فهو الملك الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري ولد سنة ٨٣٦هـ/٤٢٣م، وترقى في المناصب حتى وصل إلى السلطنة سنة ٨٧٢هـ/٤٧٣م، فكان الملك السادس عشر من ملوك الجراكسة (٧٨٤-٩٣٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، والأربعين من سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) عامة. ويعد من أعظم وأكفأ ملوك المماليك البرجية؛ لطول مدة حكمه التي بلغت تسعة وعشرين عامًا، توفي سنة ٩٠١هـ/٤٩٦م<sup>(٤)</sup>، وصف بأنه "واقر العقل، سديد الرأي، عارف بأحوال المملكة، يضع الأشياء في محلها"<sup>(٥)</sup>، وهو آخر من حج من الحكام، ووصفه السهمودي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عند لقائه به في المدينة بأنه "ملك مطاع محظوظ، صبور غير عجل، كثير الحياء والوقار والمهابة، إذا حاول أمرًا لا يتسرع فيه بل يتأنى كثيرًا، ويعظم أهل العلم ويجلهم"<sup>(٦)</sup>، عني بالأعمال الخيرية وبالمشآت المعمارية ما بين إنشاء وتجديد<sup>(٧)</sup>.

ويتناول الكتاب بالوصف رحلة الحج للسلطان قايتباي التي استغرقت شهرًا وعشرين يومًا؛ إذ بدأت يوم الخميس ٢٣/١١/٨٨٤هـ<sup>(٨)</sup> الموافق ٥/٢/٤٨٠م، وانتهت يوم الأحد ١٤/١/٨٨٥هـ<sup>(٩)</sup> الموافق ٢٦/٣/٤٨٠م، وهي المدة المتعارف عليها للرحلة من القاهرة إلى مكة والتي تنراوح بين ٤٥ إلى ٥٠ يومًا<sup>(١٠)</sup>.

(١) كحالة: معجم المؤلفين، ج٤، ص٩٧.

(٢) الأعلام، ج٨، ص١٤٩.

(٣) ابن الجيعان: القول المستظرف، مقدمة المحقق ص١٣، ١٤.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٥، ص٤٣٢، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٥٥٨، ٨٤٠؛ العيدروسي: تاريخ النور السافر، ص١٥؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣١٥، ج٨، ص٦.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٨٤٠.

(٦) وقاء الوفا، ج٢، ص٧١٧.

(٧) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٥، ص٤٣٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٨٤٠.

(٨) ص٦٦٧.

(٩) ص٦٩٢.

(١٠) أنكاوي: الحج إلى مكة، مجلة الفنون الشعبية، ص٦١، ٦٢.

واشتملت الرحلة على بابين وخاتمة كما يلي:

الباب الأول: حول بعض مشاعر الحج وأخباره القديمة.

الباب الثاني: في ذكر من حج من ملوك الترك وأولادهم.

الخاتمة: في ذكر أربعين حديثاً عن النبي ﷺ فيما يتعلق بالحج والحاج.

ولم ينشر الناشر جميع محتويات الكتاب؛ إذ اكتفى بنشر الباب الثاني فقط؛ لأن هدفه أنصب على تحديد وإيضاح منازل الحج التي أشار إليها المؤلف، ولم ير في نشرهما أية فائدة تعود للقارئ<sup>(١)</sup>.

أما الباب الثاني الذي بين أيدينا فتضمن بين دفتيه التجهيز للحج بالسرية التامة في شهر جمادى الأولى سنة ٨٨٤هـ/ الموافق شهر أغسطس سنة ١٤٧٩م<sup>(٢)</sup>، حتى دخول السلطان مصر شهر المحرم سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م<sup>(٣)</sup>، وبدأ الكتاب ببدء مراسم الحج بالتوصية بأخذ المؤلف معه، واختياره لتجهيز مايلزم من الزاد والمتاع لرحلة الحج، وإعطاء الإذن لمن أراد الحج في شهر رمضان، وذكر أمر المسايرة بمدينة القاهرة وفق ماجرت عليه العادة<sup>(٤)</sup>.

وفي يوم ١٦/ شوال الموافق ٣١/ ديسمبر، طلع أمراء الحاج والموكلون معهم من أعيان الدولة بالحج للقلعة<sup>(٥)</sup>؛ لتوديع السلطان ولبس التشاريف، وكانت معهم لوازم السفر من طعام وشراب وخيام وكافة ما يحتاجون إليه<sup>(٦)</sup>.

(١) ص ٦٦١، ٦٦٢.

(٢) ص ٦٦٣.

(٣) ص ٦٩٢.

(٤) ص ٦٦٣-٦٦٥.

(٥) القلعة: أي قلعة الجبل التي تقع في القاهرة بمنطقة القلعة عند سفح جبل المقطم، وأصبحت منذ بنائها مقراً للدواوين السلطانية، ولا تزال قائمة إلى الآن. (العمري: مسالك الأبصار، ص ٨٦، ١٤٠؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٢١؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٠١؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٦).

(٦) ص ٦٦٥.

وقد أشار المؤلف بين ثنايا الرحلة عامة إلى منازل الحج دون تفصيل، وحرص على تحديد مواقع نزول السلطان، وذكر أسماء من صحبه من العلماء والوجهاء والأمراء، وغيرهم في بعض المواقع، ووصول بعض أمراء الأشراف ومن معهم لاستقباله في مواضع أخرى.

وتناول أيضاً دخول الأشراف قايتباي المدينة لأداء واجب الزيارة في ٢٢/ ذو القعدة الموافق ٤/ فبراير دون تفصيل عام، مع ذكر صدقاته العامة، وإكرامه للقضاة والعلماء، ثم خروجه منها مروراً بأبيار علي<sup>(١)</sup>، والإحرام منها، ووصوله لعدد من المواقع وملاقاته لمستقبليه واصفاً السباط الذي وضع في بدر<sup>(٢)</sup> للسلطان وضيوفه، وما تلا ذلك. حتى دخوله مكة المكرمة في موكب فخم، وملاقة الناس له، و ذكر بعض ما وقع له من المحاسن بمكة حتى خروجه منها يوم السبت ١٤/ ذي الحجة الموافق ٢٦/ فبراير، بعد أن أدى مناسك الحج وتصدق وأهدى، وذكر بعض المنازل التي وقف بها حتى وصوله إلى بركة الحاج<sup>(٣)</sup> وملاقة الأمراء والناس له في موكب مشهود، ثم دخوله قلعة الجبل.

(١) أبيار علي: تقع في الجنوب الغربي من المدينة ضمن امتداد وادي العقيق، وهي ميقات أهل المدينة ومكان الإحرام لكل من مرّ بالمدينة حاجاً أو معتمراً، ويمتد اليوم إليها عمران المدينة (ابن حجر: فتح الباري، ج ٣، ص ٣٨٦؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج ٤، ص ١١٩٣؛ البلادي: على طريق الهجرة، ص ١٠٥، ١٠٦).

(٢) بدر: تقع بدر في الجزء الغربي من المدينة، وتبعد عنها بحوالي ١٥٠ كلم ٢، وهي اليوم إحدى محافظات منطقة المدينة المنورة. (الحري: المناسك، ص ١٧٤، ١٧٥؛ الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٥٧؛ البلادي: على طريق الهجرة، ص ١٨٧، ١٨٨).

(٣) بركة الحاج: تقع شمال القاهرة، عرفت بذلك لنزول الحجاج بها ذهاباً وإياباً، وهي اليوم تتبع قسم المطرية في القاهرة. (الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٤٥؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٨٩؛ السخاوي: البلدانيات، ص ١٠٤).

ثم أشار المؤلف بإيجاز لمن حج من ملوك الترك وأولادهم: وهم: الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) <sup>(١)</sup> وحج سنة ٦٦٧هـ/٢٦٩م، والناصر محمد بن قلاوون <sup>(٢)</sup> (٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م) وحج ثلاث مرات: الأولى سنة ٧١٢هـ/١٣١٣م، والثانية سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، والثالثة: سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.

وقد حرص المؤلف على ترتيب الأحداث زمنياً، وإبراز إحسان الأشرف قايتباي بما أولاه من عطايا ومنح ومواهب وخلع للأشراف والأعيان وأمراء الحج التي قد تكون عيناً، أو مالاً أو لباساً <sup>(٣)</sup> وهو الغالب في الرحلة، إلى غير بيان أنواع الأطعمة في السماط السلطاني. وتبدو أهمية توثيق بدر الدين ابن الحيعان للرحلة من خلال ما أشار إليه بكتابة السلطان الأشرف قايتباي "مراسيم شريفة بالوصية بحمله" <sup>(٤)</sup> معه في الرحلة، ومرافقته له، والقيام "بخدمة المقام الشريف" <sup>(٥)</sup> فكان السلطان المحور الذي بني عليه الكتاب، بإبراز صورة من صور أبهة الملك بالجوهر والعطاء له على نحو يحقق التأثير الوجداني نحوه، فنشاهد من خلالها رصد الواقع باستقبال أعيان الدولة وإكرامهم، ونستقرئ البيئة التي شاهدها، ونتعرف على صور ومشاهد نابضة بطبيعة ذلك العصر، فقدم معلومات مهمة لا يتم الحصول عليها من عامة الكتب التاريخية والجغرافية.

(١) الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي، ولد في بلاد القفجاق في العشر الثالث بعد الستمائة، من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٦، ٤٧، ٤٧٣؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٣٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٤٤٧).

(٢) الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون، ولد سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، ثبت قواعد الدولة ورتب أمورها، توفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م. (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٣٥٣؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٣٢٥؛ المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٦٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٩٠).

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، ص ٧٦؛ العمري: مسالك الأبصار، ص ١٣٠-١٣٣؛ الفيومي: المصباح المنير، ص ١٨٧؛ الخطيب: معجم المصطلحات، ص ١٦٥.

(٤) ص ٦٦٣.

(٥) ص ٦٦٨.



### المبحث الثاني: السماط السلطاني والأطعمة المشتملة عليه:

يُعرف السَّماط بأنه: ما يوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها، واستعمل اللفظ للدلالة على طعام المآدب السلطانية<sup>(١)</sup>؛ إذ يقال: عمل سماطاً، أي: مد طعاماً<sup>(٢)</sup>، فأطلق "على المأدبة الكبرى التي يقيمها الملك أو من يمثله في أيام معينة، ويحضرها الكثير من الأمراء والموظفين وذوي المكاة من الناس. وكانت هذه من خصائص السلطنة"<sup>(٣)</sup>.

وورد لفظ السماط في المجموع الظريف ست عشرة مرة<sup>(٤)</sup>، وأطلقت غالباً على مائدة السلطان الأشرف قايتباي التي قدمها إكراماً لمستقبله من الأمراء وكبار رجال الدولة وأعوانه وأعيان سلطنته<sup>(٥)</sup>، في أماكن نزوله في رحلته للحج، ولا شك إن لذلك بعداً سياسياً، فهو عنوان من عناوين أبهة الملك، من أجل تأكيد المروءة والكرم والعطاء والعز والشرف للسلطان، وكان السماط فرصة لذلك.

وتبدأ مراسم الإعداد لمحتويات مائدة السماط منذ الاستعدادات في القاهرة لرحلة الحج في شهر جمادى الأولى بتجهيز أحمال الأطعمة براً وبحراً خفية من مصر<sup>(٦)</sup> والشام<sup>(٧)</sup>، ويصل رجال السلطان والتجهيزات قبيل وصوله للمقر المحدد، ومعهم كافة العاملين في المطبخ السلطاني من "الجلبي"<sup>(٨)</sup> واللفاف والبيطار والجبان والبطيخي والفاكهاتي والخازن والدجاج والحلواني<sup>(٩)</sup>. فعندما خرج الأشرف قايتباي من المدينة أصدر مرسوماً لأبي البقاء بن الجيعان

(١) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ١١٠؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٨٥؛ ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ١١٦؛ دهمان: معجم الألفاظ، ص ٩٢؛ الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٢٥٧.

(٢) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج ١، ص ٨٦٧؛ الزبيدي: تاج العروس، ج ١٩، ص ٣٨٦.

(٣) دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج ٦، ص ١٤٧.

(٤) ص ٦٧٣-٦٧٩، ٦٩٢.

(٥) ينظر: ملحق رقم: (٢).

(٦) ص ٦٦٣، ٦٦٤.

(٧) ص ٦٧٤.

(٨) الجلبي: الجلب: الذين يجلبون الأغنام والإبل للتجارة. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٢٦٨؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٢٨).

(٩) ص ٦٦٨.

وأخيه أبي البركات بن الجيعان أن يسبقا الركب إلى بدر؛ "ليشرعا في عمل سماط للسيد الشريف محمد بن بركات"<sup>(١)</sup>.

وفي بدر "أرسل إليهم فطوراً، هو ما بين سكر وحلوى ومخبوز وسواقة"<sup>(٢)</sup>، وفاكهة، وأجبان مقلي ومقدسي، وقريشة ومخللات، وبطيخ صيفي، وعجمية<sup>(٣)</sup> ومجرودة وكعك. وغير ذلك، وليس يخفى على أحد ما يعمله المقام الشريف من الأسطة والفطور وغير ذلك"<sup>(٤)</sup>.

وعندما وصل السلطان أقيم سماط للغداء "بين يديه، وكان به من اللحم نحو ألف رطل"<sup>(٥)</sup> مصري، ومن الدجاج مائة طائر، ومن الإوز نحو العشرة أزواج، ومن الدجاج المعلوف<sup>(٦)</sup>. القديد<sup>(٧)</sup>، والإوز المعلوف القديد جانب كبير، ومن السكر

(١) ص ٦٧٥، ٦٧٦.

جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رُمَيْتَةَ بن أبي نُمَيِّ محمد الحسن، ولد سنة ٤٨٤٠هـ/٤٣٦م، أمير الحرمين والحجاز منذ ٨٥٩هـ/٤٥٥م، إلى أن توفي سنة ٩٠٣هـ/٤٩٧م. (ابن فهد: إتحاف الوري، ج٤، ص ٣٤٨، ٣٤٩؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٦، ص ١٦٨؛ عبد العزيز بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص ٥٠٦؛ السنجاري: منائح الكرم، ج٣، ص ٩٨).

(٢) السويق: من الأطعمة المنتشرة في الحجاز، يصنع من الشعير والحنطة ويضاف إليه السمن والعسل أو السكر. (ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص ١٧٠؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٢٥، ص ٤٨٠؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج١، ص ٤٦٥).

(٣) عجمية: حلوى تصنع من السمن والدقيق المحموس والمكسرات المجروشة، ويضاف إليها العسل.

(٤) ص ٦٧٦.

(٥) الرطل: معيار يوزن به، يختلف وزنه باختلاف البلاد، والرطل المصري يساوي: ٤٤٩،٢٨ غراما. (ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص ٢٨٥؛ الفيومي: المصباح المنير، ص ٢٣٠؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج١، ص ٣٥٢؛ الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٢١٠).

(٦) المعلوف: العلف: طعام الحيوان، دجاج معلوف: أي: أطمع علفا بما فيه الكفاية. (ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص ٢٥٥؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٢٤، ص ١٨١؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج٢، ص ٦٢١).

(٧) القديد: اللحم المقدد: يقطع اللحم طولا ويملح ويجفف في هواء الشمس. (ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص ٣٤٤؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٩، ص ١٦؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج٢، ص ٧١٨).



والمأمونية<sup>(١)</sup>، والخلوى زيادة عن قنطارين<sup>(٢)</sup>، وعمل غالب الأصنفة وقبب الحلوى، وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

وإذ لم يَقم السماط بحضرة السلطان يرسل لضيوفه مَأدبتهم إليهم، فعندما وصل الأشرف قايتباي إلى فساقى طاز<sup>(٤)</sup>. حضر إليه أمير المدينة الشريف قسيطل بن زهير<sup>(٥)</sup>، وشيخ الحرم السيفى إينال الإسحاقى<sup>(٦)</sup>، وقضاة المدينة الشريفة، وفقهاؤها، فأرسل إليهم سماطاً، وفاكهة، وحلواً، وبطيخاً صيفياً<sup>(٧)</sup>.

(١) المأمونية: من مَأكل الملوك، وقيل: تنسب للخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م)، وهي حلوى تصنع من سميذ وسمن وسكر أو عسل. (الغزالي: سر العالمين، ص ٢٤؛ الظاهري: الإشارات في علم العبارات، ص ٨٤٤؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢١١).

(٢) القنطار: من الأوزان، يعادل مائة رطل، في مقداره اختلاف باختلاف العصور. (مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٦٨؛ الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٣٥٥؛ محمد: المكايل والموازين، ص ٢٤، ٢٥).

(٣) ص ٦٧٦.

(٤) فساقى طاز: جمع فسقية، وهي أحواض ماء، ويراد بها برك عملها سيف الدين طاز بن قطاج (ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م)، أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهو من الأمراء البارزين في عصر دولة المماليك البحرية، تقع في الروحاء بين المسجد والفريش. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠٥؛ ج ٥، ص ٣١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥؛ الجزيري: درر الفرائد، ص ٢، ج ٦٥؛ دهمان: معجم الألفاظ، ص ١١٨).

(٥) قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة بن جماز الحسيني، أمير المدينة سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، وظل حتى عودة زبيرى بن قيس لإمارة المدينة سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م. (ابن فهد، إتحاف الورى، ج ٤، ص ٦٣٥، ٦٣٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٦، ص ٤٤٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٢١؛ عبد العزيز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٣١، ٥٤٠).

(٦) إينال شيخ الإسحاقى الظاهري جقمق، شيخ الخدام بالمسجد النبوي، توفي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م. (ابن فهد، إتحاف الورى، ج ٤، ص ٦٣٥، ٦٣٦؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ١٠٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ١٥٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٧١٠).

(٧) ص ٦٧٤.

كما يتم التجهيز من السماط إلى مخيم ضيوفه، ففي مكة زاره الجناح<sup>(١)</sup> الصارمي إبراهيم بن منجك<sup>(٢)</sup> أمير الركب الشامي، وبعد ضيافته وأكله من السماط، أمر بأن يجهز له من المأدبة وإرسالها إلى خيمته؛ لإطعام رفقته<sup>(٣)</sup>. ولا يقدم السماط باسم السلطان إذا كان في نفسه شيء على الضيف، فعندما حضر إليه ضيوف من أمراء المقر<sup>(٤)</sup> الناصري ابن عثمان صاحب الروم<sup>(٥)</sup>، عمل السماط لهم المقر صاحب<sup>(٦)</sup> الزيني خشقدم<sup>(٧)</sup>، وكان "لائقا بهم، وجمعهم حسب ما أنن له في تلك من زيادة"<sup>(٨)</sup> وكان للجلوس على السماط مراسم معلومة، وتراتب تعكس التراتيب الاجتماعية في موائد السلاطين، وهذه من السمات المشتركة في الأسمطة الملكية للعرب والعجم باعتبار المراسم مظهرًا من مظاهر إبراز عزة الملك وعظمته ومدى فخامته<sup>(٩)</sup>. ففي مأدبة الغداء في بدر "أحضر السيد الشريف، محمد بن بركات، وأجلسه عن يمينه، و مولانا قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة"<sup>(١٠)</sup>. عن يساره، وولدى السيد

- (١) الجناح: من ألقاب أرباب السيوف والأقلام فيما يكتب به عن السلطان وغيره من النواب. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٤؛ البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٩١).
- (٢) إبراهيم بن محمد بن منجك، توفي سنة ٤٨٣/هـ ١٠٨٨م. (ابن طولون: مفاهمة الخلان، ج ١، ص ٦٢).
- (٣) ص ٦٧٩، ٦٨٠.
- (٤) المقر: لقب شرف يمنحه السلطان لكبار أرباب الوظائف الديوانية. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٣؛ البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٢٢؛ الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٤٨٩).
- (٥) صاحب الروم: أي الدولة العثمانية بآسيا الصغرى، وسلطانها آنذاك محمد الثاني الفاتح (٨٥٥-١٤٥١هـ/١٤٥١-٤٨١م). (ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ٢٨٧، ٢٩٢؛ زلمبور: معجم الأسرات، ص ٢٣٩).
- (٦) الصاحب: يطلق على من يصاحب السلاطين في تنقلاتهم. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٧؛ الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٣٦٧).
- (٧) زين الدين خشقدم الظاهري جقمق الرومي، الوزير الأحمدي الطواشي، تولى العديد من الوظائف، توفي سنة ٤٨٩/هـ ١٠٩٤م. (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٧٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ١٦٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٧٨٩).
- (٨) ص ٦٨٠.
- (٩) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٢٧٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٦٠١-٦٠٣.
- (١٠) برهان الدين ابن ظهيرة، إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة، القرشي المخزومي المكي الشافعي، ولد سنة ٤٢٢/هـ ١٠٢٥م، وكان عالمًا مفتيًا محدثًا، توفي سنة ٤٨٦/هـ ١٠٩١م. (السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٨٨؛ السيوطي: نظم العقيان، ص ١٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٧٦٢؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٣٥٠).

الشريف<sup>(١)</sup> بجانب أبيهما، وأخا القاضي وولده بجانبه، ثم بقية جماعة السيد الشريف بأجمعهم، الكبير والصغير بحسب مراتبهم"<sup>(٢)</sup>.

كما كان لتقديم الطعام مراسم معلومة، إذ قدم للضيوف بعد وجبة الغداء الشراب<sup>(٣)</sup>، وهو ماجرت به العادة<sup>(٤)</sup>، ثم قدمت لهم " حلوى سكرية، شغل ساعتها، وفاكهة تفاح وكُمثري، وبطيخ صيفي"<sup>(٥)</sup>.

فكان بجانب المراسم للسماط الإبهار وإبراز الثراء بالأطعمة المقدمة ووفرتها وتفرّد المائدة السلطانية بها؛ إذ "دهش جماعة السيد الشريف في أمر هذا السماط"<sup>(٦)</sup>، ولا عجب من ذلك إذا علمنا حرصه على جلب الثلج من بلاد الشام؛ لتبريد المشروب الذي يقدم لضيوفه<sup>(٧)</sup> وذلك " إكمالاً لحال الرفاهية وإظهاراً لأبهة الملك"<sup>(٨)</sup> بإبهار الحاضرين بطرق متنوعة بدءاً من مكان إقامة السماط ذاته، حيث تنصب الخيام الكبيرة مكان نزول السلطان في الطريق، وقبيل وصوله، وتعرض الأطعمة على السماط وتعرض الحلوى بأشكال مبهرة كالقريب.

فالسماط يجب أن يعكس عظمة السلطان وكرمه ومروعته؛ إذ "إن همة كل شخص ومروعته بقدر عظمتهم وسيادتهم؛ ولأن السلطان سيد العالم كله والملوك جميعاً مناصعون إليه، يجب أن تكون عظمتهم وهمته ومروعته وخوانه وصلاته متناسبة مع قدره وجلاله وأفضل من سائر الملوك وأكثر، وفي الخير أن إغداق الخبز والطعام على خلق الله عز وجل،

(١) هزاع بن محمد بن بركات، توفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م. (عبد العزيز بن فهد: غاية المرام، ج٣، ص٨٣، ١١٦؛ عبد العزيز بن فهد: بلوغ القرى، ص١٢٥؛ مركز أبحاث المدينة، أعلام المدينة، ص١١١).

(٢) ص ٦٧٧.

(٣) ص ٦٧٧.

(٤) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص١١٧.

(٥) ص ٦٧٧.

(٦) ص ٦٧٧.

(٧) ص ٦٧٤.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٤٠. للمزيد في موضوع الثلج ونقله ينظر: العمري: التعريف، ص٢٥٦-٢٥٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٤٠-٤٤٤؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٧، ١١٨، ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص١٩، ١٢١).

يزيد في دوام العمر والملك والدولة»<sup>(١)</sup>، وهذا مايفسر كثرة ما يتم عرضه وتقديمه من الأطعمة وتتوع الأصناف في ولائم السلاطين والملوك والأمراء في كافة العهود والبلدان، وما يتم صرفه بشأنها<sup>(٢)</sup>.

وأكرم شريف مكة الأشرف قايتباي بتقديم "بعض نياق وجمال وبطيخ وموز وحلوى و كل واشكر" عندما استقبله في بدر<sup>(٣)</sup>، فقبله السلطان وأمر بتوزيعه بعد أن أكل منه<sup>(٤)</sup>، وشكر الشريف محمد بقوله: "كثر الله خير السيد الشريف، أكلنا وشكرنا"<sup>(٥)</sup>.

وسبق شريف مكة ركب السلطان بأمر منه حتى وصل لوادي مر<sup>(٦)</sup>، ونصب مخيما واستقبل مع ابنه والقضاة والفقهاء والخطباء وأعيان مكة الأشرف قايتباي، وأكرمه بـ "سماط عظيم"<sup>(٧)</sup>، وتبع ذلك في مكة بوضع سماط لليلتين متتاليتين، وفي الليلة الثالثة قدم السماط من قبل قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة<sup>(٨)</sup>، وذلك في موضع مدرسته الشريفة<sup>(٩)</sup> صباحًا ومساءً<sup>(١٠)</sup>.

(١) الطوسي: سير الملوك، ص ١٦٥.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٠، ٢١١؛ ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ١١٧.

(٣) ص ٦٧٧.

كل واشكر: صنف خاص من المعمول مخبوز. (الجزيري: درر الفرائد، ج ٢، ص ٣٧١).

(٤) ص ٦٧٧.

(٥) ص ٦٧٧.

(٦) وادي مر: واد كبير من أودية تهامة خصب وفير الماء وبه العديد من القرى، يسمى قديما ب: بطن مر، ومر الظهران ويسمى اليوم بوادي فاطمة يتبع منطقة مكة المكرمة. (الحربي: المناسك، ص ٢٢٠؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٤٥؛ السلمي: أسماء جبال تهامة، ص ٢٦؛ البادي: على طريق الهجرة، ص ١١، ١٢).

(٧) ص ٦٧٧، ٦٧٨.

(٨) ص ٦٧٩.

(٩) المدرسة الأشرفية: وتعرف أيضًا بمدرسة قايتباي، بنيت سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م بأمر من السلطان قايتباي؛ لتدريس المذاهب الأربعة. (ابن فهد: إتحاف السورى، ج ٤، ص ٦١٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٨٤٤؛ إسماعيل: مدرسة السلطان قايتباي، مجلة العرب، ص ٨٧-٩٢).

(١٠) العصامي: سمط النجوم، ج ٤، ص ٥٨.

### المبحث الثالث:

#### اللباس من خلال الخلع المهداة من الأشرف قايتباي لأعيان الدولة:

لتحقيق البعد السياسي الذي حرص السلطان الأشرف قايتباي على إبرازه في رحلة الحج من خلال تقديم هدايا ظاهرها التشريف وجوهرها الإبهار بعزة الملك، فكان مد الأسمطة مقرونا بالتشريف والجرايات<sup>(١)</sup> والصدقات والكساوي الفاخرة، لأمرء الأشرف وكبار رجال الدولة وأعيانها و أمرء الحج من الأقاليم الأخرى<sup>(٢)</sup>.

وجهزت التشريف المهداة من مصر وفق ماجرت به العادة<sup>(٣)</sup>، فقد جلب الأشرف قايتباي معه "من الدواب والخلع والأموال ما لا يحصره عد ولا يحويه حد"<sup>(٤)</sup>، ويكلف بها من بعدها، ويجهزها، وفي ذلك صدر الأمر بتجهيز "جمال وهجن"<sup>(٥)</sup> وقماش، على وجه الإنعام<sup>(٦)</sup>، مع بدر الدين ابن الجيعان "وأن يتأخر مصنفة إلى حضور الركاب الشريف بسبب الخلع وما يحتاج إليه"<sup>(٧)</sup> مما حوته من "السلاح المذهب والثياب الحرير الفاخرة والخيول المسومة والذخائر والركاب الملبسة بأنواع الذهب والحلية النظيفة والسيوف المسقطة"<sup>(٨)</sup>.

وقد حرص سلاطين المماليك في المناسبات المختلفة في منح ثياب التشريف للمعنيين بالمنحة، ولم يمنح الجميع الخلعة نفسها، إذ كان هناك ثمة مقياس طبقا للمقام والشخصية المقدم لها التشريف "حسب ماتقتضيه الرتبة علواً وهبوطاً"<sup>(٩)</sup>،

(١) الجراية: الجاري من النفقات والأرزاق والأعطيات. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ١٤٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ج ٣٧، ص ٣٥٠).

(٢) ص ٦٧٣.

(٣) ص ٦٧٣.

(٤) العصامي: سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٩١.

(٥) هجن: نوع من النوق خفيفة الجسم، سريعة الحركة. (الزمخشري: أساس البلاغة، ص ٦٩٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣، ص ٤٣٢).

(٦) ص ٦٦٤.

(٧) ص ٦٧٦.

(٨) العصامي: سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٩١.

(٩) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٣، ٥٥.

فاختلفت تشاريف أمراء الأشراف عن تشاريف علماء الدين أو الموظفين<sup>(١)</sup>، فكل له لباسه الخاص؛ إذ خلع على أمراء الأشراف أطلسا<sup>(٢)</sup> متمرا<sup>(٣)</sup>، وكاملية<sup>(٤)</sup> مخمل<sup>(٥)</sup> مفريّة سمور<sup>(٦)</sup>، أما رجال الدين من القضاة والخطباء فخلع عليهم جنّادات صوف مفرية سنجابا<sup>(٧)</sup>، وخلع على أمراء الحج<sup>(٨)</sup> أطلسيات متمرا، باستثناء قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة وشيخ الحرم، إذ خلع عليهما كاملية صوف مفرية سمور<sup>(٩)</sup>. وخلع على كبار أعيان الدولة كوامل مخملا مفرية سمور<sup>(١٠)</sup>،

(١) ينظر: الملاحق رقم: (٣-٧).

(٢) **أطلس**: نسيج رقيق ناعم لماع من حرير أو قطن، ويكون في لونه طلسة، وهي العُبرة إلى السواد. (ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص١٢٤؛ الرازي: مختار الصحاح، ص١٦٦؛ مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٦٧).

(٣) **مُتمّر**: يصنع من حرير منسوج بالذهب في الإسكندرية. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٥٤؛ المقرئ: الخطط، ج٢، ص٢٢٧، ٢٢٨).

(٤) **الكاملية**: ثوب للطبقة الرفيعة من رجال الدولة، يخلعها السلاطين على خاصتهم، له مظهر فخم، ويصنع من قماش فخم، ويحيطها الفراء، وقد يكون له قلابات من الفراء، يلبس فوق القباء به فتحة من منتصف الظهر حتى أسفل حافة الذيل، وقد يبطن بفرو، وينسب للملك الكامل محمد الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٨م). (عاشور: العصر المماليكي، ص٤١٣؛ ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج٢، ص٧٢؛ العناني: طرز الأزياء، ص٦٨).

(٥) **المخمل**: كل ثوب له خمل أي: وبر من أي شيء كان. (ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٢٢٢؛ إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج١، ص٢٥٧؛ ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج٢، ص٦٨).

(٦) **مفريّة سمور**: أي من فراء السمور، وهو حيوان من الثدييات في شمال آسيا، كان يتم صيده للحصول على فروه عالي القيمة. (ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٣٨٠؛ الزبيدي: تاج العروس، ج١٢، ص٨١؛ ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج٢، ص٦٨).

(٧) ص٦٧٥.

(٨) ص٦٧٩، ٦٨٠.

(٩) ص٦٧٥.

(١٠) ص٦٧٨، ٦٧٩.

سنجاب: قماش له شعر من حيوان السنجاب. (ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج٢، ص٦٨).



وخلع على صناع العمارة فوقانيات<sup>(١)</sup> بطرز<sup>(٢)</sup>، وجماعة مع أمير مكة فوقانيات<sup>(٣)</sup>، وخلع على الشادين<sup>(٤)</sup> الصغار توريزيات بسنجاب<sup>(٥)</sup>. وارتبطت التشاريف بعد لقائهم بالسلطان وتناول السماط الذي وضع لهم<sup>(٦)</sup>، أو زيارة مقر<sup>(٧)</sup>، أو وداعه<sup>(٨)</sup>. وكانت الخلع تمنح للشخص نفسه أكثر من مرة بعد كل لقاء، ومن ذلك منح أمير ينبع<sup>(٩)</sup> الشريف سبع<sup>(١٠)</sup> أطلسين متمرين عند لقائه به في الحوراء<sup>(١١)</sup>، وبعد بضعة أيام التقى به في

(١) فوقانيات: هي ثياب خارجية علوية واسعة تلبس فوق الثياب التحتانية، بلا اختلاف كبير في الطول والأكمام. (ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج٢، ص٧٥؛ العناني: طرز الأزياء، ص٦٧، ٦٨، ٧٦).

(٢) ص ٦٧٩.

(٣) ص ٦٧٨.

(٤) الشاد: شاد العماره: يشرف متوليها على تنفيذ ما يأمر السلطان بتجديده أو إحداثه من المنازل والمساجد والقصور. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٣؛ الكيلاني: مصطلحات تاريخية، ص ٥٠).

(٥) ص ٦٧٩.

(٦) ص ٦٧٢-٦٧٨.

(٧) ص ٦٧٩.

(٨) ص ٦٨١، ٦٨٢.

(٩) ينبع: تقع في الجزء الغربي من المدينة، على طريق الحج القديم من مصر إلى مكة، ويطلق هذا الاسم على مدينتين إحداهما داخلية، وتسمى ينبع النخل، والأخرى ساحلية، وتسمى ينبع البحر، وينبع النخل هي التي وصفها معظم الجغرافيين القدامى. (السلمي: أسماء جبال تهامة، ص١٣؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٩، ٤٥٠؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٦؛ الجاسر: ينبع، ص١٠-١٢).

(١٠) أميرها: الشريف سبع بن خنافر من بني هجار، ولاة السلطان الأشرف قايتباي عليها سنة ٨٧٥هـ/٤٧٠م، وعزله سنة ٨٧٩هـ/٤٧٤م، وفوضها لرأي شريف مكة، ثم أعادها إليه سنة ٨٨٣هـ/٤٧٨م، وعزل سنة ٨٨٧هـ/٤٨٢م، وفي سنة ٩٠٣هـ/٤٩٨م ولي ابنه يحيى بن سبع عليها. (السخاوي: وجيز الكلام، ج٣، ص٩٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص٦٨٣؛ العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص٣٠١؛ الجاسر: ينبع، ص٣٢).

(١١) ص ٦٧٢.

الحواراء: منزلة بطريق حجاج مصر، وهي ميناء على البحر الأحمر شمال أملج، درست اليوم. (الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣١٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤٥؛ الجزيري: درر الفرائد، ج٢، ص٥٦؛ الجاسر: ينبع، ص٧٢، ٧٨، ١٨١).

طريقه إلى ينبع، وأنعم عليه بالتشريف المجهزة صحبة الحاج على العادة<sup>(١)</sup>، كما أنعم الأشرف قايتباي على أمير مكة الشريف محمد بن بركات أطلسين متمرين عند لقائه به في بدر<sup>(٢)</sup>، وعندما مثل بين يديه في وادي مر أنعم عليه بكاملية مخمل أحمر مفرية سمور<sup>(٣)</sup>، وفي يوم دخوله مكة أنعم عليه بأطلس متمر<sup>(٤)</sup>، وفي نفس اليوم زار السلطان مدرسته الأشرفية فألبس الأمير فوقانيا كمخا<sup>(٥)</sup> بطرز زركش طويل فوق الأطلسين<sup>(٦)</sup>، وبعد طواف الوداع الموافق ١٤/ذوالحجة الموافق ٢٥/فبراير ألبسه بكاملية مخملا أحمر تماسيح ذهب مفرية سمورا<sup>(٧)</sup>، وأنعم على ابنه بركات<sup>(٨)</sup> يوم دخوله مكة أطلسا متمر<sup>(٩)</sup>، وعند رؤيته بعد طواف الوداع منحه كاملية مخملا أحمر مفرية سمور<sup>(١٠)</sup>.

كما حظي عدد من الأعيان بالإتعام عند كل لقاء ومن ذلك: أنه أنعم على قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة عند لقائه به في بدر بكاملية صوف مفرية سمور<sup>(١١)</sup>، ويوم دخوله مكة كاملية مفرية سمورا<sup>(١٢)</sup>، وبعد طواف الوداع أنعم عليه بكاملية صوف مفرية سمورا<sup>(١٣)</sup>.

(١) ص ٦٧٣.

(٢) ص ٦٧٦.

(٣) ص ٦٧٨.

(٤) ص ٦٧٨.

(٥) كمخا: قماش من قطيفة. (ماجد: نظم سلاطين دولة المماليك، ج ٢، ص ٦٨).

(٦) ص ٦٧٩.

(٧) ص ٦٨١.

(٨) زين الدين بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني، ولد سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م، تولى إمرة مكة سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، توفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٥م. (السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٤؛ عبد العزيز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٣٥؛ العيدروسي: النور السافر، ص ٣٣٩؛ دخلان، خلاصة الكلام، ص ٤٦).

(٩) ص ٦٧٨.

(١٠) ص ٦٨١.

(١١) ص ٦٧٦.

(١٢) ص ٦٧٨.

(١٣) ص ٦٨١.

كما تضمنت بعض التشاريف أسلحة ومالا وسروجًا ومأكلا وغير ذلك، وكانت خاصة، إذ أنعم على أمير مكة يوم زار مدرسته الأشرفية بفرس وسرج وكنبوش<sup>(١)</sup>، وفي اليوم التالي الموافق ٣/ذوالحجة الموافق ١٤/١ فبراير وهبه هدايا متعددة شملت " من أنواع الملبوس والمأكول، والأقمشة.....والشرب، وما أشبه ذلك من تحف ودهن وبلسان<sup>(٢)</sup> وغير ذلك"<sup>(٣)</sup>، وأنعم على قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة، والخوaja جمال الدين محمد الظاهر<sup>(٤)</sup> بأنواع اللباس والأقمشة مختلفة الخامات والمأكول والشرب، وتحف ودهن وبلسان وغير ذلك<sup>(٥)</sup>، وأنعم على شيخ الحرم بالمدينة أبنال الإسحافي كاملية صوف مفرية سمور، ومالا وقماشًا وسلاحًا وحلوى ودقيقًا وغير ذلك<sup>(٦)</sup>، وأنعم على نائب جدة أبي الفتح<sup>(٧)</sup> في مكة كاملية مخملا أحمر مفرية سمور<sup>(٨)</sup>، ومنحه نفس الخلعة بعد طواف الوداع<sup>(٩)</sup>.

(١) ص ٦٧٩.

**كنبوش:** كساء أو ثوب يوضع تحت سرج الفرس، ويستتر به مؤخر ظهر الفرس وكفله، وتارة يكون من الذهب المزركش وتارة يكون من الفضة الملبسة بالذهب وتارة يكون من الصوف المرقوم، ويختص بأعيان الدولة. (القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج ٢، ص ١٤١، ١٤٤؛ البقلي: **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، ص ٢٨٩؛ دهمان: **معجم الألفاظ**، ص ١٣١؛ الخطيب: **معجم المصطلحات**، ص ٣٧٢).

(٢) **بلسان:** أو بيلسان وهو: شجر أبيض الزهر صغير كهيئة العناقيد، يستخرج العطر من بعض أنواعه. (ابن منظور: **لسان العرب**، ج ٦، ص ٣٠؛ القحطاني: **موسوعة جابر**، ج ٢، ص ٨٦).

(٣) ص ٦٧٩.

(٤) محمد بن علي بن عمير الكيلاني المكي. (السخاوي: **الضوء اللامع**، ج ٣، ص ٢٢).

(٥) ص ٦٧٩.

(٦) ص ٦٧٥.

(٧) الدوادار الكبير أبو الفتح يوسف بن علي المنوفي كاتب المماليك، ونائب جدة، توفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. (ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج ١، ص ٦٨٣، ٨٧٦؛ العصامي: **سمط النجوم**، ج ٤، ص ٥٦، ٣٦١، ٣٦٣).

(٨) ص ٦٧٩.

(٩) ص ٦٨١.

ولم تقتصر الإنعامات على الأمراء وكبار أعيان الدولة بل أنعم على أبنائهم وإخوتهم بتشاريف مثل: الأطلس المتمر<sup>(١)</sup>، وكوامل حمراء مفرية سمورا<sup>(٢)</sup>، وأنعم على عبد أمير مكة مفتاح المغربي بكاملية مفرية سمورا<sup>(٣)</sup>

وكانت الأقمشة المقدمة متنوعة الخامات بما "يكفي من إظهار الأبهة"<sup>(٤)</sup>، تناسب فصول السنة مثل ألبنسة الشتاء<sup>(٥)</sup> من الصوف<sup>(٦)</sup> والمخمل<sup>(٧)</sup>، أو الفرو المقدم لكبار أعيان الدولة<sup>(٨)</sup> من السمور<sup>(٩)</sup>، والسنباب<sup>(١٠)</sup>، والقاقم<sup>(١١)</sup> إلى غير القماش الإسكندري<sup>(١٢)</sup> والمغربي<sup>(١٣)</sup>، بألوان مختلفة كالأحمر والأخضر<sup>(١٤)</sup>.

ولم يخلع الأشرف قايتباي على من لم يرض عنهم، ومن ذلك أنه حضر "جماعة من أمراء المقر الناصري ابن عثمان صاحب الروم.... وكان مولانا المقام الشريف . نصره الله تعالى . قصد قبل حضورهم أن ينعم عليهم ويعطيهم ويلبسهم تشاريف، تليق بالمقام، فلما بلغه عنهم ما وقع منهم من الظلم في ركب الحاج.... لم يجتمع بهم، ولم يرسل إليهم شيئا من ذلك"<sup>(١٥)</sup>

وفي طريق عودة السلطان لمصر بعد انتهاء موسم الحج، ينعم على من يقابله من قاصديه؛ إذ أنعم بمرسول المقر السيفي الأمير يشبك أمير سلاح وأمير دوا دار بكاملية مفرية

(١) ص ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٨.

(٢) ص ٦٧٦.

(٣) ص ٦٨٢.

(٤) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٨٨.

(٥) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ٧٤.

(٦) ص ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٨١.

(٧) ٦٧٦-٦٧٩، ٦٨١.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٩) ص ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨١.

(١٠) ص ٦٧٦، ٦٧٨، ٦٧٩.

(١١) القاقم: فرو أبيض ثمين، مستخرج من حيوان القاقم يشبه السنباب في شمال آسيا. (ماجد:

نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ٦٨).

(١٢) أي المصنوع في مدينة الإسكندرية. (ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ٦٧).

(١٣) ص ٦٧٩.

(١٤) ٦٧٦-٦٧٩، ٦٨١.

(١٥) ص ٦٨٠.

سمورا، ونفقة<sup>(١)</sup>، كما أمر أثناء سيره بـ "بتهيئة الخلع للقصاد المحضرين بالإقامات<sup>(٢)</sup> و غيرهم"<sup>(٣)</sup>، فأنعى على جميع من حضر إليه بالإقامات بتشاريف شريفة ونفقة<sup>(٤)</sup>، وخص الأمير سيباي<sup>(٥)</sup> نائب غزة<sup>(٦)</sup> بفرس وسرج وكنبوش<sup>(٧)</sup>.

وبوم دخوله القاهرة وصل إلى القلعة و"ألبس أركان دولته ومن كان في خدمته تشاريف شريفة..... ثم حضرت إليه التقادم<sup>(٨)</sup> فأعاد غالبها بل جميعها . ثم رسم بتفرقة الهدايا في الإنعام جميع عسكره وجماعته وأركان دولته بحيث أن أنواع القماش من كل نوع كانت في غاية الغلو<sup>(٩)</sup> بواسطة زيادة الإنعام"<sup>(١٠)</sup>.

وبذلك حقق الأشرف قايتباي في رحلته للحج شرف الإكرام والعطاء والهباء، مع حظوته بتعدد مآثره الدينية العمرانية في الحرمين الشريفين فـ"قد أجري على يديه من الخيرات ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله"<sup>(١١)</sup>.

(١) ص ٦٨٦، ٦٨٧.

(٢) الإقامات: من الألفاظ الدراجة لدى العامة في العصر المملوكي، وتعني: مظاهر الزينة التي كانوا يقومون بها للاحتفال بمرور موكب الملك أو الأمير، تعبيراً عن الفرح وحسن الاستقبال. (الخطيب: معجم المصطلحات، ص ٣٧).

(٣) ص ٦٨٨.

(٤) ص ٦٨٩-٦٩١.

(٥) سيباي بن بخت بن خجا، من رجال الأشرف قايتباي، أعتقه وترقى في الخدمة، تولى نيابة غزة سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م حتى سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م، توفي سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م. (ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٧، ص ١٤٥، ٣٠٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٤٣٧).

(٦) غَزَّة: مدينة قديمة جنوب الشام على ساحل البحر المتوسط، وهي اليوم في أقصى جنوب ساحل فلسطين. (الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٠٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٦٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٧٣؛ شراب: معجم بلدان فلسطين، ص ٥٦٧).

(٧) ص ٦٨٩.

(٨) التقادم: لفظ تداولته العامة منذ العصر الأيوبي للدلالة على الهدايا. (الخطيب: معجم المصطلحات، ص ١٠٩؛ الكيلاني: مصطلحات تاريخية، ص ٣٩).

(٩) الغلو: جاوز فيه الحد. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ١٣٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ج ٣٩، ص ١٧٨).

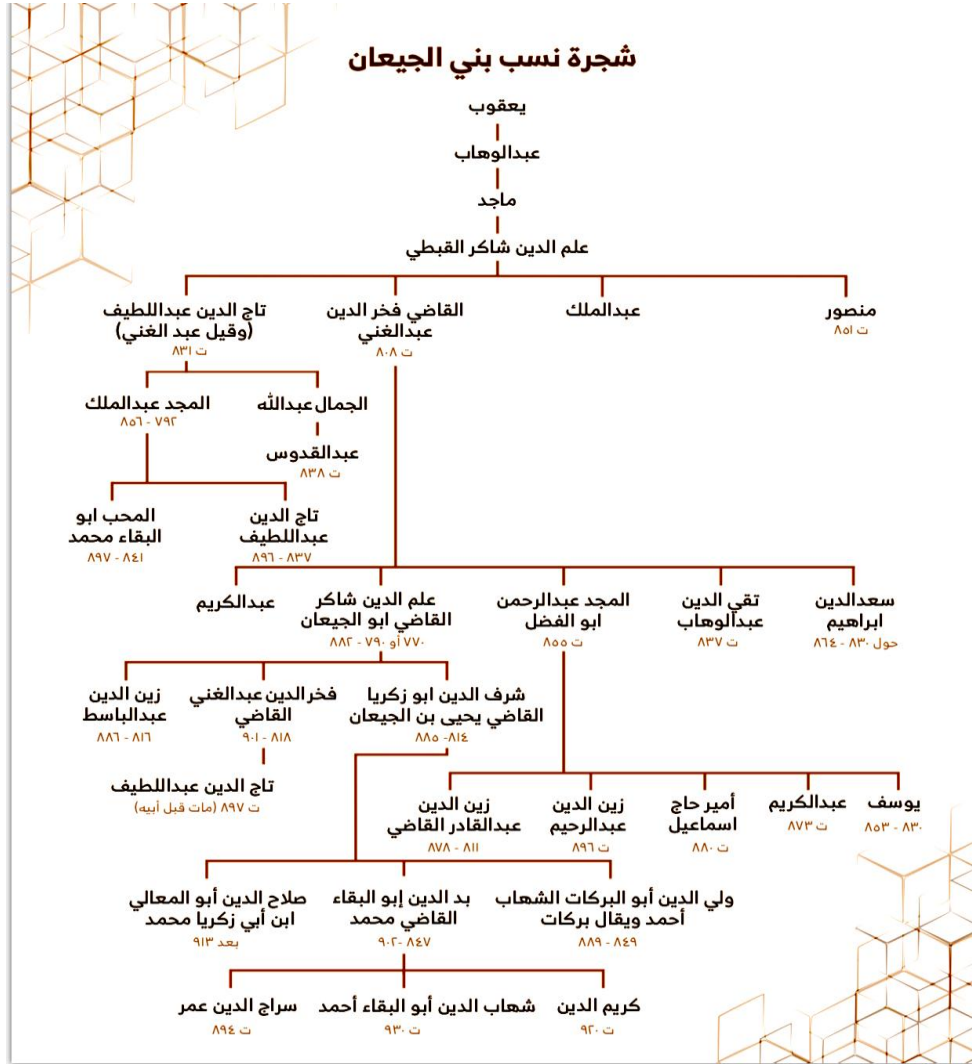
(١٠) ص ٦٩٢.

(١١) السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢، ص ٧١٥.

### وفي ختام هذه الدراسة نخلص إلى ما يأتي:

- أن كاتب الرحلة هو بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى ابن شاكر بن الجيعان المتوفى سنة ٩٠٢هـ/٤٩٧م، والد من نسبت إليه الرحلة من قبل الناشر، وفي معاجم المؤلفين.
  - لم يكن الهدف من كتابة الرحلة تصوير الحج ومشاهدته، وأماكنه والمعالم التاريخية وغيرها مما يدونها الرحالة؛ إذ حدد النمط الذي وثقت فيه الرحلة من خلال إبراز هيبة السلطنة المملوكية، وإبراز سخاء السلطان الأشرف قايتباي في منح الهبات والأعطيات، ومد الأسطة بأنواع الأطعمة.
  - دامت دولة المماليك (٢٧٥) سنة، تسلمن خلالها (٤٨) سلطاناً، لم يحج منهم سوى ثلاثة، وآخر من حج صاحب الرحلة السلطان الأشرف قايتباي.
  - لم توثق رحلات السلاطين المماليك للحج منفردة سوى رحلة السلطان الأشرف قايتباي، ويبدو هذا حرصاً منه على توثيق سيرته، والشاهد على ذلك توثيق رحلته إلى الشام سنة ٨٨٢هـ/٤٧٧م للمؤلف نفسه، وسماها: (القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف).
  - اهتمام سلاطين المماليك بالقيام بكل ما يؤكد زعامتهم للعالم الإسلامي وبسط نفوذهم وسيادتهم على الحجاز وتكريم أمراء الأشرف وأقربائهم وكبار أعيان الدولة.
  - حظي السلطان قايتباي بشرف تعدد مآثره، وسخائه في رحلته إطعاماً وعطاءً وفق مرسوم سلطاني.
  - ألقت الرحلة بالضوء على جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية، لم تظهرها كتب التاريخ أو الجغرافيا بشكل مباشر.
  - تفنن المماليك في إعداد الموائد وتنسيقها وترتيبها مع خلال بيان أشهر أصناف الأطعمة المعروضة في السماط السلطاني، والمراسم المعلومة فيه كما ورد في المجموع الظريف.
  - بيان أنواع الخلع المهداة من قبل السلطان الأشرف قايتباي لأمراء الأشرف وكبار موظفي الدولة. وأخيراً، فإنه إذا كان ثمة توصية فهي موجهة للباحثين من ذوي الاختصاص لتحقيق مخطوط (المجموع الظريف في حجة المقام الشريف)، وتقديم دراسة مفصلة عن أسرة بني الجيعان، ورسم صورة مكتملة عن المخطوط وصاحبه.
- وأرجو من الله العليّ القدير أن أكون وقيّت في خدمة الموضوع، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقني لخدمة العلم . آمين .
- هذا والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه الكرام.

ملحق رقم (١)  
أسرة بني الجيعان<sup>(١)</sup>



س ر م

(١) ابن الجيعان: القول المستطرف، ص ١٢٩.

أنواع الأطعمة  
أصناف المعروضات على السماط السلطاني في المجموع الظريف

م	المائدة	المحتوى
١	الطعام	إوز، دجاج، دجاج معلوف قديدا، إوز معلوف قديدا، أغنام معاليف، فول، أنواع من الأجبان (مقلي، مقدسي، قريشة)، مخللات
٢	الحلويات	سكر، سواقة، كعك، مجرودة، عجمية، مأمونية، كل واشكر
٣	الفواكه	بطيخ صيفي، تفاح، كمثرى، موز، قصب سكر، قاوون
٤	الشراب	لبن، قصب السكر، ماء النيل تبرد بالثلج



ملحق رقم (٣)

تشاريف الأشرف قايتباي لأمرء الأشراف

م	الشخصية	الوظيفة	نوع الخلعة	العدد	الموقع	التاريخ	
١	الشريف سبع	أمير ينبع	أطلس منمر	٢	الحوراء	الخميس ١٤/١١/٨٨٤هـ	
			تشاريف	-	ينبع	الاثنين ١٨/١١/٨٨٤هـ	
٢	يحيى بن سبع	ابن أمير ينبع	أطلس منمر	٢	الحوراء	الخميس ١٤/١١/٨٨٤هـ	
			تشاريف	-	ينبع	الاثنين ١٨/١١/٨٨٤هـ	
٣	أخ الشريف سبع		تشاريف	-	ينبع	الاثنين ١٨/١١/٨٨٤هـ	
٤	الشريف قسطل	أمير المدينة	أطلس منمر	٢	المدينة	الجمعة ٢٢/١١/٨٨٤هـ	
٥	محمد بن بركات	أمير مكة	أطلسين متمرين	٢	الطريق إلى بدر	الثلاثاء ٢٦/١١/٨٨٤هـ	
			كاملية مخمل أحمر مفرية سمورا	١	وادي مر	الأحد ١/١٢/٨٨٤هـ	
			أطلسيات منمرا	-	مكة	الاثنين ٢/١٢/٨٨٤هـ	
			فوقانيا كمخا بطرز زركش طويلا فوق الأطلسين	١	المدر سة الأشد رفية بمكة	الاثنين ٢/١٢/٨٨٤هـ	
					المدرسة	١	فرس
					الأشرافية	١	سرج
					بمكة	١	كنبوش
			أنواع الملبوس أنواع المأكول	-	مكة	الثلاثاء ٢/١٢/٨٨٤هـ	
						-	



		-	أقمشة كالصوف والسمور، والسنجاب، والقاقم، والسكندري والمغربي			
		-	والشرب			
		-	تحف			
		-	دهن			
		-	بلسان			
		-	غير ذلك			
السبت ١٤/١٢/٨٨٤هـ	مكة	١	كاملية مخملا أحمر تماسيح ذهب مفرية سمورا			
الثلاثاء ٢٦/١١/٨٨٤هـ	الطريق إلى بدر	٢	كاميلتين مخملا أحمر مفريين سمورا	ابن أمير مكة	هزاع بن محمد بن بركات	٦
الثلاثاء ٢٦/١١/٨٨٤هـ	الطريق إلى بدر	٢	كاميلتين مخملا أحمر مفريين سمورا	ابن أمير مكة	هيزاع بن محمد بن بركات	٧
الاثنين ٢/١٢/٨٨٤هـ	مكة	-	أطلسيات منمرا	ابن أمير مكة	بركات بن محمد بن بركات	٨
السبت ١٤/١٢/٨٨٤هـ	مكة	١	كاملية مخملا أحمر مفرية سمورا			
الاثنين ٢/١٢/٨٨٤هـ	مكة	-	جندات مفرية سنجابا	-	السيد الشريف التحاري	٩

ملحق رقم (٤)

الهدايا والخلع للقضاء وموظفي الحرم

م	الشخصية	الوظيفة	نوع الخلعة	العدد	الموقع	التاريخ
١	زين الدين قاسم بن زباله	قاضي	تشاريف	-	ينبع	الاثنين ١١/١٨/١٤٤١هـ
٢	أينال الإسحاقى	شيخ الحرم	كاملية	-	المدينة	الجمعة ١١/٢٢/١٤٤١هـ
			صوف مفرية			
			سمور			
			مبلغ مالى			
			فماش			
سكر						
حلوى						
دقيق						
٣	-	القاضي الشافعي	جندات صوف مفرية سنجابا	١	المدينة	الجمعة ١١/٢٢/١٤٤١هـ
٤	-	القاضي الحنفي	جندات صوف مفرية سنجاب	١	المدينة	الجمعة ١١/٢٢/١٤٤١هـ
٥	-	القاضي المالكي	جندات صوف مفرية سنجاب	١	المدينة	الجمعة ١١/٢٢/١٤٤١هـ
٦	-	ناظر الحرم	جندات صوف مفرية سنجاب	١	المدينة	الجمعة ١١/٢٢/١٤٤١هـ
٧	برهان الدين بن ظهيرة	قاضي القضاة	كاملية	١	الطريق إلى بدر	الثلاثاء ١١/٢٦/١٤٤١هـ
			صوف مفرية			
			سمور			
			كوامل مفرية		مكة	الاثنين ١٢/٢/١٤٤١هـ
			أنواع		مكة	الثلاثاء

٥٨٨٤/١٢/٢			الملبوس			
			أنواع			
			المأكول			
			أقمشة			
			كالصوف			
			والسمور، والسنجاب، والقاقم، والسكندري والمغربي،			
والشرب	-					
تحف	-					
دهن	-					
بلسان	-					
غير ذلك	-					
السبت ٥٨٨٤/١٢/١٤	مكة	١	كاملية صوف مفرية سمور			
الثلاثاء ٥٨٨٤/١١/٢٦	الطريق إلى بدر	١	كاملية صوف مفرية سمور	قاضي جدة	الخطيب فخر الدين أبو بكر	٨
الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢	مكة	١	كاملية مفرية سمور			
الثلاثاء ٥٨٨٤/١١/٢٦	الطريق إلى بدر	١	كاملية صوف مفرية سمور	ابن قاضي القضاة	الجمالي أبو السعود	٩
الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢	مكة	١	كاملية مفرية سمور			
الثلاثاء ٥٨٨٤/١١/٢٦	الطريق إلى بدر	١	كاملية صوف مفرية سمور	أخو قاضي القضاة برهان الدين	الفخري أبو بكر بن ظهيرة	١٠



١١			كاملية مفرية سمور	١	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٢	جمال الدين	نائب القاضي الشافعي	جندات مفرية سنجاب	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٣	القضاة	-	جندات مفرية سنجاب	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٤	الخطباء	-	جندات مفرية سنجاب	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٥	القاضي أبو الفتح	نائب جدة	كاملية مخملا أحمر مفرية سمور	-	مكة	الخميس ٥٨٨٤/١٢/٥
			كاملية مخملا أحمر مفرية سمور	١	مكة	٥٨٨٤/١٢/١٤

ملحق رقم (٥)

الهدايا والخلع لشخصيات مختلفة

م	الشخصية	الوظيفة	نوع الخلعة	العدد	الموقع	التاريخ
١	جماعة مع أمير مكة	-	فوقانيات	-	وادي مر	الأحد ٥٨٨٤/١٢/١
٢	أمراء الحج	أمراء الحج	أطلسيات متمررات	-	مكة	الاثنين ٥٤٤٨/١٢/٢
٣	بيبرس البالش	-	كاملية مفرية سمور	١	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
٤	الشمسي سنقر الجمالي	شاد العمارة الشريفة	كاملية مفرية سمور	١	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
٥	لخوaja الشيخ محمد القاوان	-	كوامل مفرية سمور	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
٦	والخوaja شمس الدين بن الزمن	-	كوامل مفرية سمور	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢



٧	أخ شمس الدين بن الزمن	-	كوامل مفرية سمور	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
٨	والسيزاوارى الهندي	-	كوامل مفرية سمور	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
٩	صناع العمارة بالمدرسة الشريفة	-	فوقانيات بطرز	١٠	المدرسة الأشرفية بمكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٠	الشادين الصغار	-	تورييزات سنجاب	-	المدرسة الأشرفية بمكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١١	والخواجا جمال الدين محمد الظاهر	-	أنواع الملبوس	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
			أنواع المأكول			
			أقمشة كالصوف			
			والسمور،			
			والسنجاب،			
			والقاقم،			
والسكندري						
والمغربي						
والشرب						
دهن						
بلسان						
غير ذلك						
١٢	نور الدين علي أخو الخواجا محمد الظاهر	-	كوامل مفرية سمور	-	مكة	الاثنين ٥٨٨٤/١٢/٢
١٣	عبد الباسط الصيرفي	-	كاملية صوف مفرية سمور	١	مكة	الخميس ٥٨٨٤/١٢/٥
١٤	الجناب الصارمي إبراهيم بن منجك	-	أطلسين متمرين	أمير الركب الشامي	مكة	الخميس ٥٨٨٤/١٢/٥
١٥	مفتاح المغربي	-	كاملية مفرية سمور	عبد السيد الشريف محمد بن بركات	المحجر	الاثنين ٥٨٨٤م ١٢/١٦

ملحق رقم (٦)  
هدايا وخلق السلطان الأشرف قايتباي في طريق عودته للقاهرة

م	الشخصية	الوظيفة	نوع الخلعة	العدد	الموقع	التاريخ
١	قصاد المقر الأميري الأتابكي والمقر السيني أمير سلاح وأمير دودار والمقر السيفي أمير أخوركبير ، والسادة المباشرين ، وجميع من حضر بالإقامات	-	تشاريف شريفة ونفقة	-	العقبة	السبت ٥ / ١ / ٨٨٥هـ
٢	الأمير سيباي	نائب غزة	فرس	١	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ
			سرج	١		
			كنبوش	١		
			نفقة	-		
٣	قانسوه	أمير كبير بغزة	تشاريف شريفة	-	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ
٤	-	كاتب السر بغزة	تشاريف شريفة	-	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ
٥	القاضي برهان الدين	ناظر الجيش بغزة	تشاريف شريفة	-	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ
٦	الأمير ناصر الدين محمد بن عجلان	-	تشاريف شريفة	-	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ
٧	من معهم	-	تشاريف شريفة	-	العقبة	الأحد ٦ / ١ / ٨٨٥هـ

٨	قاصد المقر السيقي	أمير سلاح	كاملية سمور نفقة	١	وادي نخل	الاثنين ٨٨٥/١/٧هـ
٩	قاصد أمير دودار	-	كاملية مفرية سمور نفقة	١	عجروود	الخميس ٨٨٥/١/١٠هـ
١٠	المقر السيقي أزيك اليوسفي	أحد مقدمي الألوف	كاملية صوف أخضر مفرية سمورا	١	بركة الحاج	الجمعة ٨٨٥/١/١١هـ
١١	والزبن فرج بن المرحوم ينم نائب الشام	-	كاملية مخمل تماسيح قصب مفرية سمور	١	بركة الحاج	الجمعة ٨٨٥/١/١١هـ
١٢	أحمد بن طفيش	-	كاملية مخمل أحمر حلبي مفرية سمور	١	بركة الحاج	الجمعة ٨٨٥/١/١١هـ

ملحق رقم (٧)  
هدايا وخلع السلطان الأشرف قايتباي في القاهرة

م	الشخصية	الوظيفة	نوع الخلعة	العدد	الموقع	التاريخ
١	لم تحدد الأسماء	أركان دولة الأشرف قايتباي	تشاريف شريفة وأنواع القماش من كل نوع كانت في غاية الخلو	-	القلعة	الأحد ١/١٤ ٨٨٥هـ <sup>(١)</sup>
٢	لم تحدد الأسماء	من كان في خدمة الأشرف قايتباي				
٣	لم تحدد الأسماء	العسكر				

(١) ورد أنه "صلى الصبح يوم السبت الثاني عشر وقيل الثالث عشر"، مما يزيد أو ينقص يوم عن الأيام الموثقة أعلاه، ص ٦٩٢.



### ثبت المصادر والمراجع

#### أولاً: المصادر المطبوعة:

- الإبريسي : محمد بن محمد الحسني ( ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ) :  
-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.  
ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي ( ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م ) :  
-بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .  
ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م):  
-تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي الكتاني، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ.  
ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م ) :  
-المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م .  
-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، (ب.ت.).  
الجزيري: عبد القادر بن محمد الأنصاري (ت ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م):  
-الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.  
ابن الجيعان: أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م):  
- القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق: عمر تدمري، جروس برس، ١٩٨٤ م.  
ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ( ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م ) :  
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م - ١٩٨٢م.  
ابن حجر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ( ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م ) :  
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ضبطه وصححه: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .  
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (د.ت.).

- الحربي** : إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م):  
- المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- الحموي** : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ) :  
- معجم البلدان، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- الحنبلي** : أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م ) :  
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت) .
- ابن خلكان** : أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢ م) :  
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- الرازي** : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٧٢١ هـ/١٣٢١ م) :  
- مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٨م.
- الزيدي** : محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) :  
- تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ، (د.ت).
- السخاوي** : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م):  
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- البلدانيات، تحقيق: حسام محمد القطان، دار العطاء، السعودية، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت).
- وجيز الكلام في الذيل على نول الإسلام، تحقيق: بشار معروف، والحريستاني، أحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- السمهودي**: علي بن أحمد (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م):  
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد بن عبد الحميد، ط٣، دارالباز، مكة المكرمة، دار إحياء التراث، بيروت- لبنان، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م .

- السنجاري: علي بن تاج الدين (ت ١١٢٥هـ/١٧١٣م):  
- منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم، تحقيق: ملك محمد خياط، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥ م):  
- تاريخ الخلفاء تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).
- ابن شاهين: غرس الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م):  
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، الطبعة الثانية، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٨م.
- الإشارات في علم العبارات، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- ابن شاهين: عبد الباسط بن خليل (ت ٩٢٠هـ/١٥١٤ م):  
- نيل الأمل في الدول، تحقيق: عمر تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الصفدي: صلاح الدليل خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م):  
- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- الطوسي: نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م):  
- سير الملوك (سياسة نامة)، ترجمة: يوسف بكار، وزارة الثقافة، الأردن، (د.ت).
- ابن طولون: محمد بن علي بن خمارويه الصالحي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م):  
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ابن عبد الظاهر: محي الدين عبد الله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢ م):  
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- عبدالعزیز بن فهد، عبد العزیز بن عمر (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م):  
- غایة المرآة بأخبار سلطنة البلاد الحرام، تحقیق: فهیم محمد شلتوت، جدة، دار  
المدنی، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.  
- بلوغ القرى فی ذیل إتحاف الوری بأخبار أم القرى، تحقیق: صلاح الدین خلیل، عبد  
الرحمن أبو الخبیر، علیان المحلبی، دار القاهرة، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.  
العصامی: عبد الملك بن حسین (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م):  
- سمط النجوم العوالی فی أبناء الأوائل والتوالی، تحقیق: عادل أحمد عبد الموجود،  
علی محمد معوض، بیروت، دار الکتب العلمیة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.  
العلمی: عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م):  
- الأئس الجلیل بتاريخ القدس والخلیل، مكتبة دننیس، عمان، ١٤٢٠هـ.  
عمر بن فهد: محمد بن محمد بن محمد بن فهد (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م):  
- إتحاف الوری بأخبار أم القرى، تحقیق: فهیم محمد شلتوت، مكتبة الخانجی، القاهرة،  
١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.  
العمری: أحمد بن یحیی بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م):  
- مسالك الأبصار فی ممالك الأمصار (دولة الممالیک الأولى)، تحقیق: دوروتیا  
کرافولسکی، المركز الإسلامی للبحوث، بیروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.  
- مسالك الأبصار فی ممالك الأمصار ممالك الشرق والترک ومصر والشام والحجاز،  
ج ٣، تحقیق: أحمد الشاذلی، المجمع الثقافی، أبو ظبی، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٥م.  
- التعریف بالمصطلح الشریف، تحقیق: محمد حسین شمس الدین، دار الکتب  
العلمیة، بیروت - لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.  
العیدروسی: عبد القادر بن شیخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م):  
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الکتب العلمیة، بیروت، ١٤٠٥هـ.  
الغزالی: محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م):  
- سر العالمین سر العالمین وكشف ما فی الدارین، تحقیق: محمد إسماعیل وأحمد  
المزیدی، دار الکتب العلمیة، بیروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- الغزي: محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م):  
-الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- أبي الفداء: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):  
-تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م):  
-القاموس المحيط، طبعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، (د.ت.).
- الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقرئ (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م):  
-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، (د.ت.).
- القرماتي: أحمد بن يوسف بن أحمد (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م):  
-أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، (ب.ن)، (ب.ت.).
- القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):  
-صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: عبدالقادر زكار، دمشق، ١٩٨١م.
- المقرئزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م):  
-المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت.).
- ابن منظور: جمال الدين بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م):  
-لسان العرب، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م):  
-ذيل مرآة الزمان، تصحيح: وزارة التصحيحات الحكيمة والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ثانيا: المراجع العربية والأجنبية المترجمة إلى العربية:  
أمين: أحمد:  
-فيض خاطر، دار المحرر الأدبي، بيروت، (د.ت.).

الباشا : حسن :

-الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار الفنية، القاهرة، ١٤٠٩ هـ /  
١٩٨٩م.

البغدادي : إسماعيل باشا بن محمد أمين:

-إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٥١م .  
-هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مكتبة المثني ، بغداد، ١٩٥١م .

البقلي : محمد قنديل :

-التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،  
١٩٨٣م.

البلادي : عاتق بن غيث :

-على طريق الهجرة، دار مكة، مكة المكرمة، (د.ت).

الجاسر : حمد:

-بلاد ينبع، دار اليمامة، الرياض، (د.ت).

الخطيب : مصطفى عبد الكريم :

-معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦ هـ /  
١٩٩٦م .

دهمان : محمد أحمد :

-معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان  
، دار الفكر، دمشق - سوريا ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

دوزي: رينهارت:

- تكلمة المعاجم العربية: ترجمة، محمد النعيمي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة  
والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

الزركلي : خير الدين :

-الأعلام، الطبعة التاسعة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٩٠م.

زلمباور: إدوارد فون :

-معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، سيدة إسماعيل كاشف ، حافظ أحمد حمدي ، أحمد محمود حمدي ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥١ م .

زيدان: جرجي:

- تاريخ آداب اللغة العربية، دار المحرر العربي، بيروت، (د.ت).

شراب : محمد محمد حسن :

- معجم بلدان فلسطين، الطبعة الثانية، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن - عمان ، ٢٠٠٠ م .

عاشور: سعيد عبد الفتاح :

- العصر المماليكي في مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

القحطاني: جابر سالم :

- موسوعة جابر لطب الأعشاب، الطبعة الثانية، العبيكان، الرياض، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨ م .

كحالة : عمر رضا :

- معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

ماجد : عبد المنعم :

- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩م-١٩٨٢م .

محمد : علي جمعة :

-المكاييل والموازن الشرعية، الطبعة الثانية، القنس للنشر والإعلان، القاهرة، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

مصطفى: إبراهيم و الزيات : أحمد و عبد القادر: حامد و النجار : محمد:

-المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، (د.ت).

**ثالثاً: الدوريات :**

**إسماعيل: إسماعيل أحمد:**

-مدرسة السلطان قايتباي في المسجد الحرام، مجلة العرب، دار اليمامة، مج ٤، العدد ١، ٢، (شعبان - يوليو ١٩٧٩م).

**أنكاوي: عبدالله:**

-الحج إلى مكة في العصر المملوكي، ترجمة محمد الشال، مجلة الفنون الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد ٣٥، ٣٦، (يونيو ١٩٩٢م).

**الجاسر: حمد:**

-المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، مجلة العرب، السعودية، المجلد ١٠، العدد ١٠، ٩، (إبريل ١٩٧٦م / ربيع الثاني).

**دراج: أحمد:**

-تراجم كتاب السر في العصر المملوكي، مجلة البحث العلمي - جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد الرابع، (١٤٠١هـ).

**العناني: ريهام يوسف:**

-دراسة تاريخية تحليلية لطرز الأزياء في العصر المملوكي، مجلة الإسكندرية للتبادل العلمي، المجلد ٣٥، العدد الأول، (يناير - مارس ٢٠٤م).

**الكيلاني: إبراهيم:**

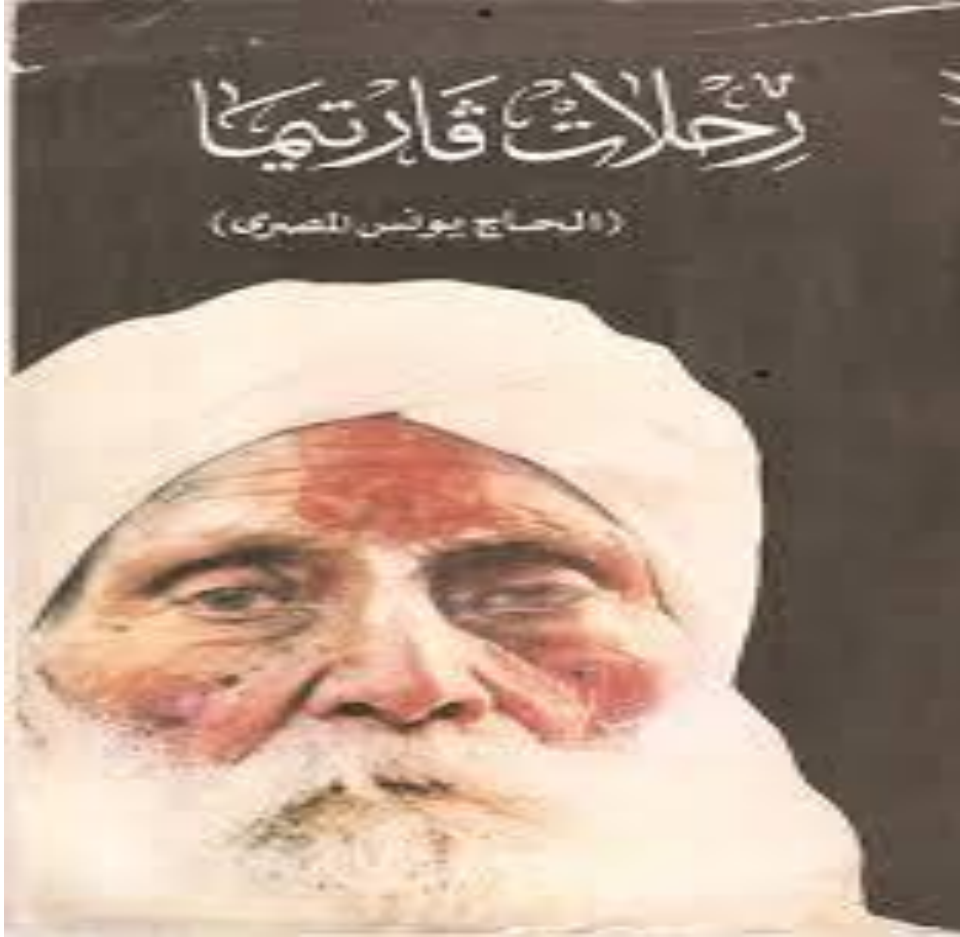
-مصطلحات تاريخية مستعملة في العصور الثلاثة الأيوبي والمملوكي والعثماني، مجلة التراث العربي، مج ١٣، العدد ٤٩، (ربيع الأول - أكتوبر ١٩٩٢م).

\*\* \*\* \*



**المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما  
(الحاج يونس المصري) بين القاهرة ودمشق:  
قراءة في سفره الأول من رحلاته**

أ.د. إبراهيم بن محمد بن حمد المزيني  
أستاذ الدراسات الحضارية وتاريخ العلوم عند المسلمين  
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية  
المملكة العربية السعودية



## ■ المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛  
فأيها الحضور الكرام والحاضرات الكريمات السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وطيب الله أوقاتكم بكل خير.

يطيب لي أن أكون بينكم في هذا اللقاء العلمي المبارك، وفي رواق من أروقة العطاء العلمي والإثراء الفكري في عالمنا العربي، وتحديدًا في قاعة مؤتمرات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، حيث تلقى الأوراق العلمية للندوة السنوية لاتحاد المؤرخين العرب لهذا العام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م تحت عنوان: (الوطن العربي في كتابات الرحالة والجغرافيين).

واسمحوا لي بدايةً أن أقدم رسالة شكر وعرفان بالجميل للقائمين على هذا الاتحاد والداعمين له، والمحضرين لهذا اللقاء العلمي السنوي. هي رسالة ممزوجة بوافر الثناء والدعاء على تفضلهم بعقد مثل هذه اللقاءات العلمية المتتابعة، التي تترك آثارها العلمية على مختلف الأصعدة، ضمن رسالة اتحادنا المبارك.

وعلى بركة الله، أبدأ ورقتي هذه، وهي بعنوان: «المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيميا (الحاج يونس المصري) بين القاهرة ودمشق: قراءة في سفره الأول من رحلاته».

وهذه الورقة التي أتقدم بها لهذا المؤتمر هي محاولة لاستجلاء أبعاد السفر الأول من رحلة المستشرق والرحالة الإيطالي لودفيكو دي فارتيميا ( Ludovico Di Varthema) الذي جال في عديد من المدن العربية مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ووثق مشاهداته وانطباعاته وملاحظاته في أسفاره الثمانية التي مثلت كتابه، بين القاهرة ودمشق قبيل رحلته إلى الجزيرة العربية، باعتباره من

أوائل الرحالة المستشرقين الذين دخلوا المدينة المنورة ومكة المكرمة. وقد سبق أن أعددتُ دراسة منشورة عن السفر الثاني من رحلته بين دمشق ومكة المكرمة.<sup>(١)</sup>

وقصدتُ السفر الأول من رحلته باعتباره باكورة رحلاته وطريقه الحتمي لتحقيق عزمه ومبتغاه برحلته نحو مكة. وقد أسماها ملاحظات عابرة؛ لأنها فعلاً عابرة، لم يتوقف خلالها كثيراً. ومع هذا فهي وفتاتٌ وملاحظاتٌ لا تخلو من فوائدها العلمية، ومؤشراتها التي تستحق رصدها هنا بما يناسب مقاصد البحث وأهدافه، وبما يليق بالمناسبة التي يُقدّم فيها.

سائلاً المولى القدير أن أوفق في إلقاء بعض الضوء على ما تستحقّه هذه الرحلة ضمن موضوعها المحدد، وأن يكون عملي هذا منطلقاً إلى مزيدٍ من الدراسات والأبحاث المتصلة بالموضوع بما يستحقه من طرح وتناول.

ولعله يناسب في مستهل هذه الدراسة أن أشير إلى أنه نظراً لاتساع المادة العلمية التي يمكن أن تندرج ضمن هذا الموضوع، وحرصاً على حصر مادته بما يناسب الحال، ورغبة في تجنبه الحشو والإطالة، فقد عمدتُ إلى عرضه وفق المحاور الأربعة الآتية:

---

(١) كان عنوان تلك الدراسة: «وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتينا ٩٠٨هـ / ١٥٠٣م» تمّ عرضها في الملتقى العلمي الثامن عشر لأبحاث الحج والعمرة والزيارة لمعهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة/ جامعة أم القرى - مكة المكرمة: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. وقد اعتمدت عليها هذه الدراسة كثيراً فيما يتصل بمقدمات البحث وحياة فارتينا، والتعريف برحلته وكتابه، وتمّ نشر ذلك البحث عبر الرابط التالي:

### ■ المحور الأول: رحلات الأوربيين إلى بلاد العرب: البدايات والأهداف:

وأشير بداية هنا إلى أن اهتمام الغرب ببلاد العرب قد بدأ منذ القرن الخامس قبل الميلاد، في كتب هيرودوتس وثيوفراست تلميذ أرسطو، ولاحقاً في القرنين الأول والثاني للميلاد عند الجغرافي اليوناني سترابون، والمؤرخ الروماني بليني. بعد ذلك لم يضاف الكثير على ما كتب آنذاك، حتى جاء القرن الخامس عشر الميلادي وبدأ تدفق الرحالة الأوربيين إلى الجزيرة العربية.<sup>(١)</sup>

وقد شهدت بلادنا العربية والإسلامية بعمومها، وعبر عصورها التاريخية، مجيء عدد من الرحالة الأوربيين، تزامناً مع بدايات ظهور الإمبراطوريات الغربية والصراع فيما بينها، بهدف احتلال أجزاء من العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا، والسيطرة على الممرات المائية الحيوية في البحر الأحمر والخليج العربي وجزر المحيط الهندي؛ بغرض تأمين الحاميات البحرية وقوافل التجارة. ومن تلك القوى البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون.

وقد تنوعت أهداف هؤلاء الرحالة ودوافعهم، الذين وجدوا الدعم والتشجيع من دولهم. فمنهم من جاء لهدف تنصيري مكشوف. ومنهم من كانت رحلته لأغراض سياسية واقتصادية. ومنهم من جاء لأهداف علمية وحب للمغامرة والاكتشاف، ودراسة أحوالهم المعيشية والسياسية، فيستفيد من هذه الدراسات مختصون ينتمون إلى مجتمعات، متطورة تملك القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية تُقدّم لهم بنظام التقارير.<sup>(٢)</sup>

(١) خالد الطويلي. الحج والحجاج في كتب المستشرقين. نُشر في مجلة المعرفة العدد (١٦٥) في: ٢٨/١٢/١٤٢٩هـ / ٢٦/١٢/٢٠٠٨م. تمت الاستفادة في ٢٦/١٢/١٤٤٠هـ - ٢٧/٨/٢٠١٩م على الرابط التالي:

[http://www.almarefh.net/show\\_content\\_sub.php?CUV=350&Model=M&Sub Model=138&ID=171&ShowAll=On](http://www.almarefh.net/show_content_sub.php?CUV=350&Model=M&Sub Model=138&ID=171&ShowAll=On)

(٢) أغسطس رالي. مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى/ نقله إلى العربية حسن سعيد غزاله، راجعه وعلّق عليه: محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا. - الرياض: دار الملك عبدالعزيز، (١٤٣٠هـ). - ص ٢٥.

ولم يكن من الشائع أن يتحدث الرحالة عن الأسباب الحقيقية التي تدفعهم إلى ركوب مثل هذه المغامرات. ولذلك كان لا بدّ من غطاء لمثل هذه الرحلات التي تهدف في الأغلب إلى جمع المعلومات ودراسة عادات الشعوب. ذلك أنه حينما نتحدث عن تلك الدوافع التي دفعت مجموعة من هؤلاء الرحالة إلى التوافد على بلاد مصر والشام دون الجزيرة العربية، خاصّة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) فسنجد أنّ معظمهم من رجال الدين النصارى الذين حرصوا على الحج إلى بيت المقدس، ثمّ توجهوا إلى مصر، حيث المزارات المسيحية المشهورة، ولكن على الرغم من انطباق هذا الدافع على مجموعة منهم إلا إنه وجد من بين هؤلاء الرحالة السياسي والعسكري والجغرافي والفنّان، وغيرهم ممن تباينت دوافع رحلاتهم.

أما في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادي) فقد تركزت معظم رحلات الأوربيين على ما يمكن تسميته برحلات التجسس ومهمات كتابة التقارير، الممهدة للاستعمار واستغلال خيرات هذه البلاد.<sup>(١)</sup>

وقد اهتمّ الرحالة الغربيون - بدرجات متفاوتة بحسب ما يقتضيه تنفيذ أهداف كل منهم - بطوبوغرافية الأرض العربية ومظاهرها الطبيعية، فوصفوها ورسموا مسالكها ودروبها، وأحصوا قبائلها ومسالكها، وحققوا في قوة كل قبيلة وعلاقتها بالأخرى وبما يجاورها من قرى ومدن. وكان الاهتمام بكل ما يمسّ الإسلام من قريب أو بعيد، في القرى والحواضر وفي البادية أيضًا اهتمامًا شاملاً لم يغفل عنه أيّ منهم، مهما كانت هويته والأهداف التي ساقته. ويرتبط بهذا السياق ما يتصل بالرق وبالمراة العربية التي شغل موضوعها كل رحلة غربي.<sup>(٢)</sup>

(١) إلهام ذهني. رؤية الرحالة الأوربيين لمصر بين النزعة الإنسانية والاستعمارية. - ط ١. - القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. - (سلسلة التاريخ: الجانب الآخر: إعادة قراءة للتاريخ المصري). - ص ٩-١٠.

(٢) عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم. روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية. - ط ١، بيروت: دار الساقى. - ٢٠١٣م. - ج ١: ١٧.

لقد ارتحل هؤلاء الرحالة من كلِّ العواصم وتحت كلِّ الذرائع. كان بينهم من أوفدته الحكومات لدراسة طبيعة الأرض. وكان بينهم من أرسل لدراسة القبائل. وكان بينهم من أرسل فيما بعد لتقصي الإمكانات النفطية لاحقاً. وكان بينهم من أرسل لأغراض سياسية، وكان بينهم - بكل مباشرة - المعتمدون السياسيون. وكان بينهم النساء اللواتي ذهبن منفردات إلى البادية. وكان بينهم من أرسل لإثارة الفتن. وكان بينهم الأبرياء. لكنهم جميعاً تركوا لنا شيئاً اسمه أدب الرحلات التي لها فوائدها التي لا تخفى. (١)

ذلك أنَّ لهؤلاء الرحالة مشاهداتهم وجولاتهم التي سجلوا من خلالها انطباعاتهم التي لا تخفى من خلالها معتقداتهم، بما ترك أثره على ثقافتهم ونظرتهم للآخر. ومع هذا فإنها رحلات لا تخلو من وجود معلومات، يمكن أن يُستأنس بشيء منها عن الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية عن تلك المواقع التي وقفت عليها تلك الرحلات واعتنت بوصفها بما أكسبها قيمة علمية مناسبة، في تفاوت فيما بينها من حيث القيمة العلمية.

وكان نصيب مصر وبلاد الشام وافراً عن طريق مجموعة من هؤلاء الرحالة الذين قصدوها ومروا بهما، وربما مكثوا بعض الوقت، فقاموا بتسجيل مشاهداتهم ومعلومات رحلاتهم وآرائهم وانطباعاتهم، وربما ميولهم باختلاف دوافع رحلاتهم بما يستحق منا التوقف عند مجموعة من هذه الرحلات لتأملها ومناقشتها؛ إذ منها ما هو علمي اتسم في غالبه بالموضوعية والإنصاف، ومنهم صاحب التجارة المحايد. ومنهم ممتهن الجاسوسية الذي يقصر اهتمامه حول زواياً محددة انتدب من أجلها. ومنهم المتعصب الذي يصدر أحكامه وفقاً لمنطقه. وكلٌّ من هؤلاء ينطلق من منطق ومحرك لرحلته. ويحتفظ أدب الرحلات بمجموعة من هذه الأسماء الذين وفدوا إلى المنطقة العربية بمختلف ميولهم وأهدافهم، يجتذبهم هدف عام يتصف بإرضاء رغبة الاستطلاع وإشباع فضول الاكتشاف لديهم.

(١) سмир عطا الله. قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ - ١٩٥٠م)، ط ١ - الرياض: مكتبة العبيكان. - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م - ص ٢٠.

وضمن أدب هذه الرحلات وأهدافها يسجل أسعد فارس رأيه بقوله: «إن أدب الرحلات الغربي وآثار رحلاتهم يعدُّ امتدادًا لحركة الاستشراق والمستشرقين. والاستشراق بحد ذاته هو تراث الإمبراطوريات الغربية التي كانت وما تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى. وحتى الرحلات العلمية ذات الطابع الأكاديمي كانت مرتبطة في السياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة. ونادرًا ما حادت عن أهدافها السياسية بالإضافة إلى الأهداف العلمية»<sup>(١)</sup>.

ولئن مثلَّ المشرق العربي والجزيرة تحديدًا مصدر إلهام للعديد من الأدباء الأوربيين، فإنَّ الرحلة إليها كانت حلمًا تنتوق نفس الأوربي إلى تحقيقه؛ نظرًا إلى ما نقل عن هذه المناطق من أخبار، نَسَجَ الخيالُ أغلبها سواء بعد الحروب الصليبية أم من خلال بعض كتب الأدب والرحلات، أم من خلال ما تناقله التجَّار والمغامرون من أخبار تداخل فيها الواقع مع الأسطورة. ومهما يكن من أمر، فإنَّ المشرق العربي بقيمته الاستراتيجية له تأثيره المباشر في السياسة والاقتصاد بين طرفي العالم شرقه وغربه، سيما في ظل هيمنة الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى وتنافسها على المنطقة. ومن هنا نفهم تعدُّد أسباب هذه الرحلات وتتنوع أهدافها بين الديني التنصيري، ومنها السياسي والاقتصادي، والعلمي أيضًا<sup>(٢)</sup>.

لقد كان الهدف الديني هو الغالب على رحَّالة القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بداية من رحالتنا (الرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما) مبعوث الحكومة البرتغالية إلى كلِّ من مصر والشام ثمَّ إلى الحجاز معلِّنًا إسلامه بما مكَّنه

---

(١) أسعد عيد الفارس. الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، (دراسة ضمن سجل ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية)، ط١، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص ٥٥٧.

(٢) محمد بن عبد الهادي الشيباني. أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية (دراسة ضمن سجل ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية)، ط١، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص ٥١٥. ٥٥٣.

من دخول المدينة ومكة مع الحجاج. ويمكن أن يندرج ضمن هذا الهدف البحار البرتغالي (قريقرينو داقودرا) الذي قدم إلى الحج برفقة أمير عدن سنة (١٥١٦م)، والذي كشف مقصده في رحلته. وعاد إلى البرتغال سنة ١٥٢٠م ليلحق بدير من الأديرة هناك.<sup>(١)</sup>

وما صرّح به (بيترينت) في كتابه (رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب) يرسخ مجموع هذه الأهداف حينما قال: «إن الأشخاص الذين ذكرناهم كانوا العيون والآذان التي استطاع الغرب الحصول بها على المعلومات عن بلاد العرب وشعبها، فنحن نرسل الكشّافين، ونبني الصّور عن الطريقة التي تسير بها الأمور، ونستعين بالتقارير التي يجلبونها لنا، وحين تتكون لدينا مثل هذه الصور فمن الصعب تغييرها».<sup>(٢)</sup> ومثل هذه الشهادة تؤكد تلك الأهداف السياسية والاقتصادية لعديد من رحلات الأوربيين إلى المنطقة العربية حين اشتد صراع تلك القوى وتنافسها على مصالح المنطقة.

ومهما يكن من أمر هذه الرحلات وتفاوت أهدافها ومقاصدها وغاياتها، إلا إننا لا ننكر تلك القيمة التاريخية للنصوص والمشاهدات التي سجلوها ضمن رحلاتهم، والتي يمكن أن نستخلص منها مجموعة من الفوائد والمعارف والمعلومات. وهي مجالات خصبة للدراسة والتحقيق والتمحيص، لما تحويه رحلاتهم من معلومات، تختلط فيها الانطباعات بالعواطف والميول بتخالط المعتقدات. فكان لزاماً الالتفات لهذا النتاج؛ ليكون ضمن مصادر دراسة بلادنا العربية، بما حوته من مواد علمية رغم تفاوت قيمها.

(١) عبد الرزاق بن حبيب الحمّامي. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون (دراسة نماذج)، ط١، المدينة المنورة: سلسلة إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ (٢٠١٥م)، ص ١٣ . ١٤.

(٢) عبد الرزاق بن حبيب الحمّامي. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون، ص ١٤ . ١٥.



ولعل اختياري للرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيمافا بتفاصيلها أنموذجاً لهؤلاء الرحالة سنكتشف لنا مثل هذه المقاصد وغيرها، وبخاصة بما يتصل بانطباعاته عن أحوال المسلمين الدينية والاجتماعية، وكذا أحوال النصارى في البلاد التي مرَّ بها.

#### ▪ المحور الثاني: حياة لودوفيكو فارتيمافا:

مهم أن أشير هنا إلى أنه على الرغم من أهمية هذه الرحلة التي دونها الرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيمافا (الحاج يونس المصري) إلا أننا لا نكاد نعرف عن حياته سوى النزر اليسير؛ إذ إنَّ المعلومات المتوافرة عنه قليلة ونادرة، وخاصة عن بدايات حياته الأولى كالولادة والنشأة. فمصادر التراجم الأجنبية والعربية لم تحدد لنا بدقة مكان ولادته وسنتها، سوى ما ذكر في الموسوعة البريطانية من ترجيح سنة مولده بين سنتي ١٤٦٥ - ١٤٧٠م الموافق (٨٦٩ . ٨٧٤ هـ).<sup>(١)</sup>

وهو ما أكدته المستشرق الإنجليزي بيرسي بادجر «Badger»<sup>(٢)</sup> من أنه لا يعرف عن حياة فارتيمافا سوى القليل. ومن خلال اطلاعه على المراجع الإنجليزية والإيطالية والفرنسية التي يحتمل وجود شيء فيها عنه، وأوضح أنه لم يجد فيها شيئاً يذكر. وقد بيَّن بادجر أنه لم يجد في موسوعة التراجم العالمية في القديم والحديث، المطبوعة في

(١) Encyclopedia Britannica , Micropaedia , Vol. 12, Art: Vartema ,

Lodovico do نقلاً عن عبدالرحمن عبدالله الشيخ، «لودوفيكو دي فارتيمافا، الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م»، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، الآداب (٢)، ١٤١٢ هـ (١٩٩٢م)، ص ٥٦٥.

(٢) هو: المستشرق بادجر جورج برسي ولد سنة ١٨١٥م. وتلقى العلم في معهد جمعية المرسلين في ايسلنجتون بلندن وقضى شطراً من شبابه في مالطة، وقد زار الجزيرة العربية، وعين مرشداً دينياً لمنشأة بمباي التابعة لشركة شرقي الهند، ومرشداً لجيش السير جيمس أوترام، وقد أوفد إلى زنجبار. كانت وفاته سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨م). (نجيب العقيلي. المستشرقون: موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، ط٤، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٢، ص٥٨).



باريس سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧م)، إلا نصًا قصيرًا عن فارتيما لم يستوضح منه سوى أنه رحالة إيطالي قام برحلته في القرن السادس عشر الميلادي الموافق للقرن العاشر الهجري دون تحديد السنة. وقد تعجب بادجر من أن المراجع التي كتبها المؤلفون الإيطاليون أغفلت ذكر فارتيما رغم أهميته. وأعطى لذلك أمثلة منها المؤلف الإيطالي زورلا «Zurla»، حيث إنّه لم يذكر فارتيما ضمن أشهر الرحالة الإيطاليين في كتابه الذي نشر في البندقية سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨م). أما المؤرخ الإيطالي فاننوزي «Fantuzzi» فلم يتعرض لفارتيما إلا من خلال أسطر قلائل، شكا في مطلعها من قلة المعلومات عنه، وأنها بالتشكيك في عودته إلى إيطاليا.<sup>(١)</sup>

ويعلّل مترجم رحلته إلى اللغة العربية من اللغة الإنجليزية عبدالرحمن الشيخ ذلك بقوله: «إنّ فارتيما لم يكن فيه من إيطاليا سوى أنها موضع مولده، ومصدر لغته، أما فيما عدا ذلك فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال، الذي مَوّل رحلته، والذي قدّم له نائبه في الهند براءة الامتياز والفروسية، وضمه لجيوشه المحاربة أحيانًا. لذلك فبعض المصادر تشير إلى أنه رحّالة برتغالي، تمامًا مثل كولومبس الذي تعارف الناس أنه رحالة إسباني مع أنه من أصول إيطالية».<sup>(٢)</sup>

وبضيف عبدالرحمن الشيخ قائلاً: «إنّ إهمال المؤرخين الإيطاليين لفارتيما عند حديثهم عن رجالات وطنهم ليس أمرًا مستغربًا، فالرجل يكاد يكون غير إيطالي، حيث عرف بأنّه برتغالي. ولعل ولاءه الشديد لملك البرتغال كان واضحًا في معظم صفحات رحلته. ولذا نجد أنّ المؤرخ جون ونتر جونز "John Winter Jones" الذي قام بالترجمة الكاملة لرحلات فارتيما إلى اللغة الإنجليزية قد أورد في أثناء سرده لطبعات

(١) فارتيما، لودوفيكو دي. رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) // ترجمة وتعليق عبدالرحمن

عبدالله الشيخ. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م. - ص ١٠.

(٢) رحلات فارتيما. - ص ١٠.

رحلة فارتيما باللغات المختلفة عنوان كتاب فرنسي نشر سنة ٩٦٣هـ (١٥٥٦م)، شمل جانباً من رحلة فارتيما، أدرج ضمن مجموعة رحلات الرحالة البرتغاليين. وكان عنوان ذلك الكتاب كما أورده جون ونتر جونز هو (وصف أفريقيا، ثالث أجزاء العالم). والجزء الثاني كان عن رحلات الرحالة البرتغاليين وأدرج فارتيما معهم.<sup>(١)</sup>

كما يضيف عبدالرحمن الشيخ أنه مع كل هذا الغموض الذي يحيط بحياة رحالتنا، فهناك إجماع على أنه ولد في بولونيا «Bologna» بإيطاليا، وأنه رحل منها إلى البندقية، وأنه ذكر هو في رحلته أن والده كان طبيباً. ويميل بادجر أنه كان عسكرياً؛ لاهتمامه الكبير في رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية، كما نعلم من حديثه أنه كان زوجاً وأباً.<sup>(٢)</sup>

ومع هذا التأكيد لمترجم الرحلة عن أصله البولوني، إلا إن عبدالعزیز عبدالغني في تناوله لحياة فارتيما ضمن كتابه يُشكك في نسبته لبولونيا بقوله: «والرجل - في ما تقول العديد من مراجعنا - مجهول الأصل يرده البعض إلى روما، ويرده آخرون إلى بولونيا. والأرجح عندنا أنه من مواطني مدينة روما. أما ادعاء الأصل البولوني، فنرده إلى أنه حين تنكر في زيّ المسلمين وادعى أنه مسلم ليدخل مكة، كان عليه أن ينتمي إلى بعض مناطق شرق أوروبا مثل بولونيا التي كانت من المراكز المعروفة بإسلامها، وذلك حتى لا ينكشف أمره».<sup>(٣)</sup>

ولندرة المعلومات عن فارتيما أصلاً، فإنه لا توجد مؤلفات أخرى لفارتيما سوى رحلات فارتيما هذه المشهورة باسمه، بل إنه يوجد غموض حتى في نهاية حياته.

(١) عبدالرحمن عبدالله الشيخ، «لودوفيكو دي فارتيما، الحاج يونس المصري» مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، ص ٥٥٩.

(٢) رحلات فارتيما - ص ١٠.

(٣) عبدالعزیز عبدالغني إبراهيم. روايات غريبة عن رحلات في شبه الجزيرة العربية. - ج ١: ٧٤.

وليس هناك معلومات سوى ما أفادت به الموسوعة البريطانية التي حددت سنة وفاته في عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)، دون تحديد المكان الذي توفي فيه.<sup>(١)</sup> ويشير روبن بدول بأنه قد يكون قُتل بعد عودته لإيطاليا؛ بسبب طموحاته الكبيرة أكبر من مستواه، على حد قوله حيث قال: «لقد رجع فارتيتا إلى روما في شتاء ٩١٣ - ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م - ١٥٠٩ م) وظهر كتابه هناك. وقد أهداه إلى دوق إيطاليا. وبعد ذلك لم نسمع عنه شيئاً. وربما يكون قد قتل؛ بسبب طموحاته إلى مستوى أعلى من مستواه».<sup>(٢)</sup> ولذلك لم يكن لنا مصادر نستفيد منها عن فارتيتا سوى رحلته وبعض من المعلومات النادرة التي ذكرها عنه بعض الباحثين المحدثين.

إنَّ الرحلة التي قام بها فارتيتا هي رحلةٌ طويلةٌ حول العالم، استمرت ما يقارب ست سنوات، قدّم فيها نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربي وبلاد فارس، باعتباره (الحاج يونس المصري أو يونس المملوك المصري). أمّا في بلاد الهند فقد قدّم نفسه باعتباره (الحاج يونس العجمي/ الفارسي)، وذلك بمعاونة صديق له فارسي كان قد تعرّف به في مكة المكرمة.<sup>(٣)</sup>

#### ▪ المحور الثالث: التعريف برحلته وكتابه:

وضمن هذا المحور أشير إلى أن الرحالة لودوفيكو دي فارتيتا الذي جال في كثير من بلاد العرب والمسلمين مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وهي المرحلة التي كانت تواجه فيه دولة المماليك عدة تحديات خارجية

(١) Encyclopedia Britannica , Micropaedia , Vol. 12, Art: Vartema , .

Lodovico do نقلاً من عبدالرحمن الشيخ، لودوفيكو دي فارتيتا "الحاج يونس المصري "

مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، ص ٥٦٥.

(٢) روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: د. عبدالله آدم نصيف، د.ط،

الرياض: مطبعة جامعة الملك سعود، ١٤٠٩ هـ (١٩٨٩ م)، ص ٢٥.

(٣) فارتيتا. رحلات فارتيتا، ص ٩، مقدمة المحقق.



خطيرة، بما فيها التحدي البرتغالي في البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي. وتسبب هذا الخطر البرتغالي مع اكتشاف رأس الرجاء الصالح في تأثر التجارة المملوكية، ومن ثم ترنح الاقتصاد المملوكي. وهي تكشف مدى الاستعلاء الذي كان يميّز النظرة الغربية في تلك المرحلة. ولعل ذلك عائدٌ إلى ظهور فكرة القومية البرتغالية في ذلك الحين، وأثر الصراع البرتغالي/الإسباني ضد المسلمين، وأثره على العالم الإسلامي. ذلك أنه على الرغم من جنسية فارتيمّا الإيطالية إلا أنه كان يعمل لحساب ملك البرتغال، لذلك فإن بعض المصادر تشير إليه على أنه رحالة برتغالي، تماماً مثل كولمبس الذي تعارف الناس أنه رحالة إسباني مع أنه من أصول إيطالية.

**وهنا أشير إلى رحلة فارتيمّا بالتحدث عن دوافعها، وتاريخها وفق الآتي:**

أما دوافع الرحلة، ووفقاً لما سجله ضمن تفاصيل الرحلة ومضامينها، فإنّ الهدف الأساس منها هو تجسسه لحساب البرتغال، في العصر الذي بدأت فيه دولة البرتغال محاولات التوسع والسيطرة على بقاع عدة في العالم وخاصة الإسلامي منه.

وأضاف عبدالرحمن الشيخ مترجم الرحلة للعربية بأنّ رحلة فارتيمّا هي الجناح البري لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامّة، وجهودهم كذلك في تطويق العالم الإسلامي، استمراراً لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد، وأنها تزامن رحلة فاسكو دي جاما البحرية. وكما نجح الأخير في كشف طريق رأس الرجاء الصالح فقد نجح فارتيمّا في كشف الطريق من أوروبا حتى الهند براً مروراً بحواضر المسلمين الكبرى وهو عمل شديد الخطورة، مهد لخطوات استعمارية تركت أثراً بعيد المدى في تاريخ العالم الإسلامي أجمع.<sup>(١)</sup>

وأجدني أوافق عبدالعزيز عبد الغني تماماً في إشارته إلى أنّ البرتغال قد عمدت بعد طرد المسلمين من الأندلس إلى إرسال الرحّالة في إثرهم لدراسة مسالك الشرق؛

(١) رحلات فارتيمّا. - ص ٩.

للعمل على دق عصب الاقتصاد الإسلامي القائم على التبادل التجاري، والعمل على السيطرة على تلك الدروب واستغلالها لاستنزاف مصادر ذلك الاقتصاد وتحويله؛ ليصبَّ في مصلحة اقتصاداتهم.<sup>(١)</sup>

ويناقش عبدالرحمن الشيخ في مقدمة ترجمته للرحلة تلك الظروف التاريخية التي تمت خلالها الرحلة فيقول: «أما عن الظروف التاريخية التي تمت خلالها الرحلة، فمعرفة من الأمور الضرورية، لفهم هذه الرحلة والاستمتاع بها في آن. لقد كان لا بد لأوروبا في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر أن تعيد تقويم معارفها عن العالم الإسلامي، وأن تعيد ترتيب أوراقها لمواجهة بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة. بالإضافة إلى أسباب عملية ملحة تلحَّ على الأوروبيين، لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي خاصة. فالتاريخ الأوربي الحديث - كما يذكر لورد أكتون (Acton) - يبدأ تحت مطارق العثمانيين المسلمين. فالدور الإسلامي في تشكيل التاريخ الأوربي لم ينته بنهاية العصور الوسيطة، وإنما استمر فاعلاً مؤثراً في التاريخ الحديث. فقد أسهم المسلمون في تشكيل التاريخ الأوربي - في أوروبا ذاتها - بقدر قريب من إسهام الأوروبيين في تشكيل تاريخنا الحديث».<sup>(٢)</sup>

ويواصل عبدالرحمن الشيخ حديثه عن القرصنة في البحر الأبيض المتوسط التي ظهرت بعض سقوط غرناطة، ويناقش تأثيرها على اقتصاديات بعض الدول الأوربية مثل إيطاليا وأسبانيا والبرتغال. كما يبين الشيخ أنَّ فارتيميا كان يقسم المسلمين إلى مسلمين ومماليك. ويعني بالمماليك هؤلاء البيض الذين تحولوا إلى دين الإسلام. ويعزي الشيخ ذلك إلى تعصّب فارتيميا وثقافته. كما يتحدث الشيخ عن تغلغل المسلمين

(١) عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم. روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية. - ج ١: ٢١.

(٢) فارتيميا، رحلات فارتيميا، ص ١٠-١١.

العثمانيين في عمق القارة الأوربية، ويبين أن المسلمين واليهود الذين طردوا من الأندلس وجدوا ملاذًا آمنًا لدى الدولة العثمانية.<sup>(١)</sup>

وفي عدن اتهم فارتيما صراحة بالتجسس لصالح البرتغاليين. وذلك يوضحه النص الآتي: «وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا أقبل أربعون أو ستون شخصًا من المسلمين - كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم - يهرولون نحو القصر. وكان المهرولون قد هربوا من قبضة البرتغاليين بأن وصلوا سباحة إلى قرب الشاطئ. وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا قدمنا إلى عدن كجواسيس، وبسبب ذلك أقبلوا نحو القصر وهم في حالة هياج هائل، وأسلحتهم في أيديهم - لقتلنا - ولكن الحراس أسرعوا بإغلاق الأبواب».<sup>(٢)</sup>

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا ومتواترة في رحلته إلى الهند وغيرها من البلاد الإسلامية. والدليل الأقوى على أن فارتيما كان يعمل لحساب البرتغال أنه قدّم في نهاية رحلته تقريرًا كاملًا عن هذه الرحلة وما جرى فيها إلى ملك البرتغال. وقد أبقاه ملك البرتغال في بلاطه أيامًا عدة. وقد سجّل هو نفسه ذلك حينما وصل لشبونة في النص الآتي: «وعندما وصلت إليها ذهبت لتقبيل يد عظمته الذي أحاطني برعاية فائقة منه، واستبقاني عدة أيام في بلاطه لسمع مني عن أمور الهند. وبعد بضعة أيام أظهرت له براءة وثيقة الفروسية التي منحني إياها نائب الملك (نائبه) في الهند، متوسلاً إليه . إذا رغب . أن يعتمدها، ويوقعها بيده ويختمها بختمه. وعندما رآها ذكر لي أنه يسعده ذلك، وتناول مني الوثيقة التي خطت على الجلد الرقيق (رق Parchment) ووقع عليها بيده ووضع عليها ختمه. وتم تسجيلها. ومن ثم استأذنت عظمته في الرحيل، ووصلت إلى مدينة روما».<sup>(٣)</sup>

(١) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ١١.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٦٨.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما، ص ٢١٤.

وقد أُصدر كتابه الذي يعد الوحيد من نوعه المكتوب بلغة أوروبية عن الجزيرة العربية آنذاك. وطبع كتابه بالإيطالية في روما عام ١٥١٠م و ١٥١٧م، (٩١٥ و ٥٢٢هـ) وفي البندقية عام ١٥١٨م و ١٥٣٥م (٥٢٣ و ٩٤١هـ)، وفي عام ١٥٦٣م (٩٧٠هـ). وجاءت أول ترجمة للإنجليزية عام ١٥٧٦. ١٥٧٧م (٩٨٤هـ) في تاريخ الرحلات لريتشارد إيدن. وظهرت مقتطفات من كتابه في كتاب بورتشاس "رحلة الحج" عام ١٦٢٥. ١٦٢٦م (١٠٣٥هـ) وفي نسخة "جمعية هاكلوت" للكاتب جي دبليو جونز وجي بي بادجر عام ١٨٦٣م (١٢٧٩هـ).<sup>(١)</sup>

وظل هذا الكتاب هو الوحيد في أوروبا حتى عام ١٧٠٤م (١١١٥هـ) حين نشر الرحالة الإنجليزي جوزيف بتس (الحاج يوسف) كتابه (رحلة جوزيف بتس الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة).

#### ▪ المحور الرابع: مسار الرحلة وأحداثها:

ويمكن أن أبسط الحديث في هذا المحور حول مسار هذه الرحلة وأحداثها في أقسام تتابعية ثلاثة على النحو الآتي:

#### • القسم الأول: بين الإسكندرية والقاهرة:

في مبتدأ حديثه في هذا السفر يبسط فارتيميا في سطورهِ الأولى من رحلته ذلك الدافع الذي دفعه للارتحال إلى ما أسماه (ممالك العالم المختلفة)، فيقول: «إنَّ الرغبة التي دفعت الآخرين لمشاهدة ممالك العالم المختلفة هي نفسها التي دفعتني للقيام برحلاتي هذه. ولما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا. فقد فكرت في أنه يجب على أن أرى البلاد التي لم يرها أهل البندقية، أو لم يترددوا عليها

---

(١) ريغينالد هيو كيرنان. كشف اللثام عن جزيرة العرب: قصة الترحال والكشوف في أنحاء الجزيرة، ترجمة بشر العظمة، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، ط. ١. أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة: دار الكتب الوطنية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م)، ص ٧٩.



كثيراً. ولذا نشرنا أشرعتنا في يوم ذي ریح مواتية، طالبين من الله المساعدة، وأسلمنا أنفسنا للبحر. وعندما وصلنا للإسكندرية، إحدى مدن (موانئ) مصر، تطلعت لكل جديد. وكنت كظمان طال انتظاره للماء العذب. وسرعان ما غادرت الإسكندرية فهي معروفة للجميع. وعن طريق النيل اتخذت سبيلي للقاهرة»<sup>(١)</sup>.

#### القاهرة:

ثمَّ يواصل حديثه بعد وصوله للقاهرة بما خالف توقعه، وما وصل إليه من تقارير عن مساحة القاهرة رغم إشادته بكثرة مساكنها مقارنة بروما، فيقول: «عند وصولي للقاهرة وجدتها ليست كبيرة جداً كما أخبرتنا التقارير عنها قبل ذلك، إخباراً كان يثير دهشتنا. فمحيط القاهرة يساوي تقريباً محيط روما. إلا إنها على أية حال تضم مساكن أكثر بكثير من روما، كما إن سكانها أكثر عدداً. ومنشأ الخطأ هو وجود قرى صغيرة مختلفة خارج أسوار القاهرة، مما جعل بعض الناس يظنها ضمن دائرة القاهرة ذاتها. ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك على أية حال؛ لأن هذه القرى الصغيرة تبعد حوالي مليون أو ثلاثة، كما إنها تمثل قرى منفصلة»<sup>(٢)</sup>.

ويعلق محقق رحلته على هذا الظن بقوله: «اعتبر فارتيما القاهرة هي تلك الحدود الداخلة في حدود السور، لكنه لم يحدد لنا أي سور يقصد. ويذكر بادجر في تعليقه على هذه الأفكار التي أوردها فارتيما أن الأوربيين يخطون الأمر، فيعتبرون مصر العتيقة (حي مصر القديمة أو العتيقة الآن) هي القاهرة الأصلية. وقد يقصد فارتيما بالقرى المنفصلة هنا، حي بولاق الكبير. وإن كان هذا ما يقصده فإنه - أي حي بولاق - داخل في زمام القاهرة»<sup>(٣)</sup>.

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٣.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٣.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٣. هامش (٢) للمحقق.

بعد هذا التحديد المساحي يتحدث فارتيما عن سكان مصر ومن يحكمها في زمن رحلته، فيقول: «ولن أتحدث طويلاً عن عقائد المصريين وعاداتهم، فكل الناس يعرفون أن مصر يقطنها المسلمون Moors والمماليك، ويحكم مصر السلطان الكبير، الذي يخدمه المماليك. والمماليك بدورهم سادة (حكام) للمسلمين (العرب) Moors».<sup>(١)</sup>

وهنا وقفة تعليق أوردتها محقق الرحلة على إطلاق فارتيما لاصطلاح (Moors) على المسلمين، فذكر أن الأوربيين الذين تطلُّ بلادهم على البحر المتوسط (جنوب أوروبا عامة) أطلقوا لفظ البربر (Moors) على العرب والمسلمين بشكل عام. وأرجع ذلك إلى قيام سكان شمال أفريقيا والمسلمين المطرودين من الأندلس بالمطالبة بحقوقهم التي سُلبت منهم. ولما كان هؤلاء بربراً مسلمين أطلق أهل أوروبا على كل المسلمين لفظ (بربر) من باب إطلاق اسم الجزء على الكل.<sup>(٢)</sup>

واعتر في نهاية حديثه عن القاهرة عن عدم توسعه في الحديث عن ثراء القاهرة وجمالها وسلطينها؛ بحجة أنه أمرٌ معروفٌ لأهل بلده ولا يخفى عليهم.<sup>(٣)</sup> ومثل هذا التصريح يؤكد على اهتمام الغرب ببلاد العرب والمسلمين، ومتابعتهم لأخبارها وأحوالها عن طريق التقارير التي تُقدِّم لهم بصفة مستمرة، كما صرَّح بذلك فارتيما نفسه في مستهل حديثه عن مشاهداته في القاهرة.

#### • القسم الثاني: بين القاهرة ودمشق:

وبعد فراغه من الحديث عن القاهرة وضع فارتيما عنواناً عن رحلته إلى بيروت وطرابلس وحلب استهله بقوله: «لقد أبحرت إلى سوريا، ورسوت إلى ما رسوت في

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٣-٢٤.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٤. هامش (٣) للمحقق.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٤.

بيروت بعد مسافة استغرقت ٥٠٠ ميل. ومكثت فيها بضع أيام. وهي مدينة مزدحمة جداً بالسكان المسلمين. وتزخر بالبضائع المختلفة، ويضرب البحر أمواجه في سورها، وإن كان عليك أن تعرف أن منطقة بيروت ليست محاطة إحاطة كاملة بالأسوار، وإنما في بعض أجزائها فقط، وبالتحديد من ناحية الغرب ومن ناحية البحر». (١)

ولم يُحدّد فارتيما زمن وصوله إلى بيروت ولا مقامه فيها، ولم يتوسّع في وصفها؛ لأنها يبدو لم تأت ضمن اهتماماته. فمروره فيها عابراً فقط. بل لم يلفت نظره فيها سوى مبنى مندثر تحاك حوله بعض الأساطير التي أخبر عنها بقوله: «ولم أر في بيروت ما يستحق أن أسجله خلا مبنى قديم يقولون إنه كانت تسكنه ابنة الملك، عندما أراد التنين the dragon افتراسها، فقتله القديس جورج St. George. وهذا المبنى القديم مخرب تماماً». (٢)

ويواصل فارتيما حديثه عن رحلته بقوله: «وقد غادرت بيروت متخذاً طريقاً إلى طرابلس Tripoli في سوريا التي تستغرق الرحلة إليها من بيروت يومين صوب الشرق». (٣) (وتبلغ قرابة ٨٥ كم).

ويواصل فارتيما وصفه لطرابلس بقوله: «وطرابلس تتبع سلطان الكبير (في القاهرة) وكل سكانها من المسلمين. وتضم طرابلس من كل شيء (مختلف البضائع)». (٤)

ثم يصف رحلته إلى حلب، وحال حلب في زمنه فيقول: «وقد غادرتها - يعني طرابلس - متجهاً الى حلب في رحلة برية استغرقت ثمانية أيام (وهي الآن تبلغ ٢٨٥ كم). وهي مدينة جميلة، وتخضع لسلطان القاهرة. (٥) وسكانها مسلمون. وهي سوق

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٤.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٤-٢٥.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٥.

(٤) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٥.

(٥) ويقصد هنا الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م).

لتركيا وسوريا. وهي ممر عظيم للبضائع خاصةً الفارسية التي تصل إلى هنا. وتعتبر حلب هي الطريق المؤدي إلى تركيا وسوريا بالنسبة لأولئك القادمين من بلاد العجم Azemia»<sup>(١)</sup>.

ويواصل فارتيما وصفه لرحلته بعنوان جانبي أسماه (حماة ومنين Menin) بقوله: «وقد غادرت حلب متجهًا إلى دمشق في رحلة استغرقت عشرة أيام. وفي منتصف الطريق كانت توجد مدينة حماة، تنمو بها كميات كبيرة من القطن وفواكه طيبة جدًا. وبالقرب من دمشق، وعلى بعد ستة عشر ميلاً وجدت منطقة أخرى هي منين Menin،<sup>(٢)</sup> تقع على قمة الجبل، ويسكنها مسيحيون تابعون للكنيسة اليونانية وهم التابعون لسيد (حاكم) دمشق. وتوجد بها كنيستاتان جميلتان جدًا، يقال إن هيلينا، أم قسطنطين، هي التي أنشأتها. وتنمو الفاكهة الممتازة هنا، وخاصة العنب. كما توجد بساتين رائعة وينابيع. ولقد غادرت هذا الموضع متجهًا إلى المدينة الشهيرة دمشق»<sup>(٣)</sup>.

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٥. ويعلق المحقق على هذه التسمية (Azemia) بأن بادجر يذكر أن الإيطاليين يستخدمون الحرف Z بدلاً من الحرف J. لذا ففارتيما يقصد بالعموم (Azem) العجم، ثم جمع الكلمة على النسق الإيطالي فصارت (Azemia). وقد وجدنا هذه الطريقة في الكتابة في أكثر من موضع في رحلته، فهو يكتب جدة (Zida) زدا، أي أنه أحل Z محل J.

(٢) ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان بأنها قرية في جبل سنير من أعمال الشام، وقيل من أعمال دمشق، ونسب إليها جمعًا من العلماء. (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م. معجم البلدان. - بيروت: دار صادر، دار بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. - ج ٥، ص ٢١٨). وهي بلدة تتبع لمنطقة النل، وتقع ضمن سلسلة جبال القلمون في محافظة ريف دمشق.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٦.

• القسم الثالث: فارتيفا في دمشق:

ويأتي المسار الثالث من رحلته في هذا السفر بوصوله إلى دمشق ووصفه لها. وهو الوصف الأوسع ضمن هذه الرحلة، عنوانه بدمشق. وقد أمضى دي فارتيفا زمناً في دمشق يتعلم اللغة العربية، ويدرس طباع أهلها، ويسير معهم على ضفاف «بردي»، كما فعل ابن بطوطة قبله بقرنين. وفي ختام إقامته في دمشق تعرّف على «أمير الحج»، الذي وافق له على السفر مع القافلة تحت اسم «يونس» الجندي الهارب إلى خدمة المماليك، لتبدأ رحلته إلى الجزيرة العربية، التي زار من خلالها المدينة المنورة ومكة المكرمة، ليعدّ من أوائل من وطأت قدماه المدينتين المقدستين.<sup>(١)</sup> وابتدأ وصفه لدمشق بانبهار حين قال: «ليس من الممكن - حقيقة - أن أصف جمال دمشق وامتيازها. تلك المدينة التي مكثت فيها بضع أشهر؛ لأتعلّم اللغة العربية (لغة المسلمين Moorich language)، لأن سكان هذه المدينة من العرب Moors والمماليك والمسيحيين اليونانيين. وفي هذا الصدد يجب أن أعطي نبذة عن حاكم دمشق التابع لسلطان القاهرة».<sup>(٢)</sup>

ثم أخذ يصف قلعتها ونسبتها بحديث مصدره (يقال) حين قال: «يجب أن تعرف أنه في مدينة دمشق هذه توجد قلعة قوية جداً وجميلة يقال إن مملوكا فلورنسيا (من فلورنسا) هو بانيها على نفقته الخاصة. وقد كان حاكماً لهذه المدينة (دمشق) وأكثر من هذا. ففي كل زاوية من زوايا هذه القلعة يتجلى الفن الفلورنسي منحوتاً في الرخام. وتحيط بهذه القلعة خنادق عريضة. وللقلعة برجان، وجسران يمكن سحبهما. وتوجد بها مدفعية ممتازة ودائمة. ويعسكر بها بشكل دائم خمسون مملوكاً [تابعين] للسلطان المملوكي الكبير - ويقومون مع حاكمها (حاكم القلعة). وكان هذا الفلورنسي

(١) سمير عطا الله. قافلة الحبر. - ص ٥٩.

(٢) فارتيفا، رحلات فارتيفا. - ص ٢٦.

مملوكًا للسلطان الكبير. ويقال إنَّ هذا السلطان الكبير قد دُسَّ له السم وقت وجود هذا المملوك الفلورنسي، وإنَّ أحدًا لم يستطع علاجه من آثار السم إلى أن هبَّ الله له الشفاء على يد مملوكه الفلورنسي المشار إليه، فكافأه السلطان بأن ولاه حكم دمشق، فشيّد فيها هذه القلعة. وبعد ذلك توفي هذا المملوك الفلورنسي في دمشق فبكاه الناس ووقروه توقيرًا شديدًا باعتباره وليًّا من أولياء الله الصالحين أوتي علمًا وافرًا. ومنذ ذلك الوقت كانت هه القلعة دائمًا في قبضة السلطان»<sup>(١)</sup>.

ويواصل حديثه عن طبيعة الحكم في دمشق في زمن مروره بها، مع ملاحظة أنه ينقل عن سماع؛ فيقول: «فعندما ينجح أحد السلاطين المماليك في الوصول للسلطنة يأتيه أحد أمرائه ليقول له: "سيدي لقد خدمتك كعبد لك ردحًا طويلًا من الزمن، فأعطني دمشق، وسوف أقدم لك سيدي مائة ألف أو مائتي ألف أشرفي"<sup>(٢)</sup>

(١) فارتيميا، رحلات فارتيميا. - ص ٢٦-٢٧. ولا أعلم أي حاكم يقصد في نسبة القلعة إليه؛ فقلعة دمشق تُنسب لتاج الدين تتش بن ملكشاه دمشق وملكها سنة ٤٧١ هـ (١١٧٩م) بنى بها قلعة حصينة جعلها دار إمارة له وسكنها وبنى لولده رضوان دارًا بالقلعة تعرف بدار رضوان. (ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٢، ق ١ (قسم دمشق) نشر وتحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦م)، ص ٣٧. ومن هذا المنطلق وعطفًا على هذه المعلومة عن القلعة وغيرها كثير مما ورد في أسفار رحلاته، فأنتني لم أجد لها أصلًا.

(٢) الأشرفي هو عملة ذهبية تُنسب للسلطان المملوكي الأشرف برسباي، أمر بضربها عوضًا عن الدينار المشخّص (الإفرنتي) سنة ٨٢٩ هـ (١٣٢٥م)، تزن (٣.٤٥ غرام) متساوية في الحجم مع الإفرنتي. ومنذ ذلك الحين جرى التعامل بها في سائر أمصار الدولة الإسلامية حتى صار هو النقد الرائج والمطلوب في المعاملات. (ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي. - ت ٨٧٤/٤٦٩ هـ. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ تحقيق جمال محمد محرر وفهيم محمد شلتوت. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. - ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م. - ج ١٤: ٢٨٣-٢٨٤).

ذهبًا *teraphim of gold* ". عندئذ يمنحه سيده السلطان هذا الشرف. ولكن يجب عليك أن تعرف أنه إذا لم يرسل حاكم دمشق ٢٥,٠٠٠ أشرفي ذهبًا في غضون عامين فإنه - أي السلطان - يسعى لقتله بالسلاح أو بأي طريقة أخرى. أما إذا قدم للسلطان المبلغ الذي ذكرناه فإنه يبقى في الحكم. ويوجد دائمًا مع حاكم دمشق عشرة حكام فرعيون أو اثنا عشر *lords & barons*. فعندما يريد السلطان مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف أشرفي ذهبًا من حاكم دمشق أو من تجارها - الذين لا يلقون منه معاملة عادلة، وإنما يوقع الفتن بينهم ويعرضهم للسلب والاعتقال. فالمسلمون بشكل عام يعيشون تحت حكم المماليك كما يعيش الحمل في ظل الذئب *Like the Lamp under the Wolf* - فإنه - أي سلطان - يرسل خطابين لأهل القلعة، يذكر في أحد الخطابين - ببساطة - أن يجمع في القلعة الأمراء أو التجار. وعندما يجتمعون يبدأ حاكم القلعة في قراءة الخطاب الثاني. ويقوم بتنفيذ الأوامر الواردة به فورًا، سواء كانت هذه الأوامر تقضي بشر أو تقضي بخير. وبهذه الطريقة يجمع حاكم القلعة ما يراد من المال. وفي بعض الأحيان يكون حاكم دمشق قويا بدرجة كافية تجعله لا يذهب للقلعة (لا يطيع الأمر بالتوجه للقلعة). وإذا ما أحسَّ الأمراء والتجار *barons & merchants* بالخطر، ركبوا خيولهم، وولوا ووجوههم هاربين إلى تركيا (آسيا الصغرى). إنني لن أتحدث أكثر من هذا عن ذلك الموضوع، إلا إنه بقي أن أقول إن الرجال المنوط بهم حراسة هذه القلعة والمقيمين في أبراجها الأربعة الضخام - يكونون دائمًا يقظين ويراقبون، ولا يصدر عنهم أي صياح أثناء الليل، وإنما لكل منهم طبله *a*

drum على هيئة نصف صندوق، يدق عليها بعصا دقا شديداً، ويقوم الآخرون بالإجابة على دقه بدق مماثل. فإذا ما تأخر أحدهم في الرد بمقدار ما يستغرق الدق For the space of paternoster سجن لمدة عام»<sup>(١)</sup>.

ولا أعلم لمثل هذه الروايات أصلاً، ولم أفق عليها وعلى ما هي بشاكلتها في مصادر العصر، ولعلّ هذا من مصادره التي أكثر من النقل عنها وأسندها بقوله: (يقال ويقولون). ثم يواصل دي فارتيما حديثه عن دمشق بمشاهدات وانطباعات عن مجتمع دمشق وغلاتها وصناعاتها ومنازل أهلها. وهي انطباعات لا تخلو من المبالغة والتعميم، فيقول: «الآن وقد رأينا ما يتعلق بحكام دمشق لا بد أن أذكر بعض الأمور المتعلقة بهذه المدينة العامرة بالسكان والثروة. إنه من المحال أن نتصور روعة الصناعات وأناقته هنا.

وفي دمشق تجد وفرة هائلة في الغلال واللحوم، والمنطقة كلها (قد يقصد الشام) زاخرة بالفاكهة التي لم أر مثيلاً من قبل خاصة العنب الطازج، المتوفر في كل المواسم. وسأذكر الفاكهة الطيبة والفاكهة الرديئة التي تنمو هنا. فالرمان والسفرجل من الأنواع الطيبة، واللوز والزيتون ذو الحب الكبير في غاية الروعة. وتنمو هنا الورود الحمراء رائعة الجمال والتي لم يسبق أن رأيت لروعتها مثيلاً. ويوجد هنا أيضاً تفاح وخوخ وكمشرى، إلا إن مذاقها سيء جداً، ويرجع ذلك إلى أن دمشق تكثر فيها المياه. فالقنوات تجري خلال المدينة. وغالب مساكنها بها نوافير جميلة من الفيسفساء Mosaic work. والمنازل الدمشقية قذرة من الخارج، إلا إنها جميلة جداً من الداخل، كما إنها (من الداخل أيضاً) مزينة بأعمال رائعة من المرمر والرخام السماقي «marble & porphyry»<sup>(٢)</sup>.

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٨ - ٢٩.





وهنا تتكرر إطلاقات فارتيما غير اللاتقة عن بعض انطباعاته بما يمثل رؤيته التي لا يمكن أن تصل إلى أكثر من كونها انطباعات بدت لمن شاهدها ضمن مروره السريع بالمدينة. بعد هذا ينتقل فارتيما إلى وصف الجامع الأموي بدمشق بقوله: «وفي دمشق مساجد كثيرة. وأحد هذه المساجد - هو المسجد الجامع أو المسجد الرئيس، تبلغ مساحته مساحة كنيسة القديس بطرس في روما St. peter's at Rome. وصرح هذا المسجد غير مسقوف، إلا أن الأروقة المحيطة بالصحن مسقوفة. ويقال إنهم يحتفظون هنا برفات القديس زكريا Zachariah النبي. وأنهم يوقرونه توقيراً شديداً. ولهذا المسجد أربعة أبواب رئيسة من المعدن. كما يضم عديداً من النافورات (الفسقيات). fountains. ومرة أخرى نرى أين توجد أضرحة (أو رفات) القديسين المسيحيين التي لا يزال يوجد عليها كثير من أعمال الفسيفساء»<sup>(١)</sup>.

وينتقل بوصفه لبعض مواضع النصارى وأضرحتهم بدمشق بإسلوبه المعهود الذي تغلب عليه العاطفة والأسطورة والمبالغة وبعبارات (يقال ويقولون)، وذلك بما نصه: «ومرة أخرى رأيت الموضع الذي يقال إن المسيح عليه السلام قال فيه للقديس بولس saint Paul ما نصه: "saute saule. Cur me persequieries". إنهم يدفنون هناك كل المسيحيين الذين وافتهم منيتهم في المدينة المذكورة. وثمة نصب (ضريح) في سور دمشق يقال إن القديس بوليس كان محبوساً به. وقد أعاد المسلمون بناءه مرات عدداً، لكنهم كانوا يجدونه إذا ما أشرق الصباح مهدماً. فالملاك حطمه عندما كان يسحب القديس بوليس ليخرجه من محبسه. وقد رأيت أيضاً المنزل الذي ذبح فيه قابيل أخاه هابيل (كما يقولون)، ويبعد ميلاً عن المدينة (دمشق) في الجانب المقابل لها عند سفح تل في وادٍ عميق جداً»<sup>(٢)</sup>.

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٩.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٢٩. وهذه حكايات شعبية وأساطير مسهبة في كثير من المصادر.

وهذا نمط من أنماط انطباعاته التي تغلب عليها الأسطورة والمبالغة غير المعتمدة على حقائق ثابتة، ومصدره في ذلك (يقال ويقولون)، وهذا من المآخذ المتكررة على رحلته.

بعد ذلك يُخصّص جانباً من حديثه عن أوضاع المماليك، وما يتمتعون به من امتيازات في دمشق بدأه بقوله: «المماليك هم أساسهم مسيحيون تركوا المسيحية. كان السلطان قد اشتراهم. ومن المؤكد أن وقت هؤلاء المماليك لا يضيع هدراً، فهم يتدربون دائماً، إما على سلاح وإما على فن الكتابة وتحصيل العلم؛ وذلك بغية تحقيق الامتياز في كلا المجالين. ويجب أن تعلم أن كل مملوك، صغر أم كبير، يتقاضى ستة أشرفيات Six Saraphi كل شهر، بالإضافة إلى نفقاته ونفقات حصانه ونفقات أسرته. إلا إن ما يُصرف له يزيد في حالة انضمامه إلى تجريدة عسكرية ذاهبة للحرب»<sup>(١)</sup>.

وهذا تشخيص قريب من الواقع لحال المماليك وامتيازاتهم في دمشق زمن رحلته. وليس فيه غرابة، إلا إن مما يُسجّل ضمن شطحات دي فارتيتما في حديثه عن مجتمع المماليك في دمشق ما أورد نصه هنا مع تحفظي في قبول روايته، وذلك بقوله: «وعندما يذهب المماليك إلى المدينة يكونون دائماً في صحبة بعضهم البعض، أي في مجموعات من ثلاثة إلى اثنتين مخافة أن يتعرضوا للخزي disgrace إن كانوا فرادى. فإن حدث أن التقوا بفتاتين أو ثلاث، انتهزوا هذه الفرصة واهتبلوها. وإذا لم يلتقوا بهن كمنوا لهن في أماكن مخصوصة كالخانات الكبيرة. فإذا مرت الفتيات أو النسوة أمام الباب أمسك كل مملوك بواحدة منهن من يدها وسحبها للداخل، ثم يأتيها كيف شاء. إلا إن الفتاة تقاوم إن أراد المملوك أن يعرف من هي (أن يرى وجهها)؛ ذلك لأن كل النساء منقبات هنا. ولذا فهن يعرفننا إلا إننا لا نعرفهن. ويقول المملوك لمن هم بها إنه يريد أن يعرف من هي وأن يرى وجهها، وعندئذ تقول له المهموم بها: (أخي، ألا يكفي أن تفعل معي ما تريد وأن تكتم

(١) فارتيتما، رحلات فارتيتما. - ص ٣٠.

رغبتك في معرفة من أنا؟ ثم تستعطفه كثيراً كي يتركها لتذهب لشأنها (بعد أن يكون قد أتاها). وفي بعض الأحيان يظن الممالك أنهم قد اقتتصوا ابنة الحاكم وأنهم سينعمون بمضاجعتها، بينما يكونون في حقيقة الأمر قد اقتتصوا زوجاتهم؛ (نظراً لأن كل النسوة منقبات). وقد حدث ذلك بينما كنت في دمشق. إن النسوة في دمشق يجئن ويرحن، وقد ارتدين أثواباً حريرية جميلة، فوقها عباات صوفيه بيضاء ورقيقة ولامعة كأنها حرير. كما إنهن جميعاً يلبسن صنادل Buskins بيضا أو أحذية حمراء أو أرجوانية، ويضعن حلياً كثيرات حول رؤوسهن ومعاصمهن وفي آذانهن. وعندما تتزوج الواحدة منهن - ولا يكون ذلك إلا برغبتهن ومشيتتهن - فإنها لا ترغب في البقاء مع زوجها مدة طويلة، لذا فهي تذهب للقاضي طالبة الطلاق. وبعد أن يتم لها ما تشاء تتزوج بعلاً آخر، ويتزوج زوجها السابق بامرأة أخرى. ورغم أنهم يقولون المسلم يتزوج خمس نسوة أو ستاً. إلا إنني شخصياً لم أر مسلماً في هذه المناطق قد تزوج أكثر من امرأتين أو ثلاث على الأكثر»<sup>(١)</sup>.

وهنا توكيدٌ على أن ما لفت نظره في هذا الأمر هو كون الطلاق لديهم في أوروبا كان محرماً، وخاصةً لدى طائفة الكاثوليك منهم. مع العلم أن قوله إن المسلم يتزوج خمساً أو ستاً من النساء هو حديثٌ فيه مغالطة، فالشرع لا يبيح للمسلم الزواج بأكثر من أربع. وهنا تظهر هشاشة خلفيته الدينية.

وضمن حديثه عن بعض المظاهر الاجتماعية في المأكّل والمشرب وملابس الرجال بدمشق يذكر دي فارتيمما ما نصه: «ويأكل المسلمون في غالبهم في الطرقات، حيث تباع الملابس. فهم يطبخون طعامهم على مرأى من الناس، ويأكلونه وهم جلوس في الطريق. ويوجد هنا خيل بأعداد كبيرة جداً. بالإضافة للجمال والجواميس والأغنام والماعز. وفي دمشق جبن طازج وطيب بوفرة. وإذا أردت أن تشتري حلياً فثمة أربعون وخمسون من الماعز يمر بها راعيها عبر طرقات المدينة كل صباح (ولهذه الماعز آذان طويلة يبلغ طول الأذن منها

(١) فارتيمما، رحلات فارتيمما. - ص ٣٠-٣١.

ما يزيد على الشير). ويقوم الراعي بإحضار بعض الماعز إلى غرفتك حتى لو كنت تسكن في الطابق الثالث، ثم يقوم بحلبها في حضورك - وفقا للكمية التي تريدها - في إناء معدني جميل. ويوجد هنا الكثير من الماعز المحلوبة. وتباع هنا أيضا كميات كبيرة من الكمأة (القعق)، ففي بعض الأحيان يصل إلى هنا خمسة وعشرون أو ثلاثون جملاً محملة بها. وسرعان ما تنفد الكمية في غضون ثلاثة أيام أو أربعة. وترد هذه الكمأة من أرمينيا وآسيا الصغرى (تركيا)». (١)

ثم يختم حديثه بوصف لباس المسلمين في دمشق، ومكانة المماليك فيها، فيقول: «ويسير المسلمون وهم يرتدون عباة طويلة وواسعة دون أحزمة من الحرير أو القماش. ويرتدي غالبهم سراويل صوفية وأحذية بيضاء. وعندما يلتقي أحد المسلمين (يقصد من أهل البلاد) بأحد المماليك حتى لو كان (أي هذا المسلم) تاجراً مرموقاً ذا مكانة. فلا بد له أن يظهر الاحترام الفائق للمملوك، ولا بد أن يتحى ليوسع له الطريق، ولا بد أن يتخلى عن مكانه له، وإذا لم يفعل ذلك ضرب بالعصا». (٢) وهو هنا يؤكد صيغ المبالغة في وصف انطباعاته للوهلة الأولى باعتبارها حقائق واقعة تستحق لفت النظر.

ثم عاد ليصف ثروات نصارى دمشق، ويشتكى من سوء معاملتهم بقوله: «ويمتلك المسيحيون هنا مخازن ومحلات كثيرة غاصّة بالملابس والحرير والساتان والمخمل والأواني النحاسية وكل البضائع المطلوبة. ومع هذا فإنهم يلقون معاملة غير حسنة». (٣) وهنا وقفة تؤكد ما نزع إليه فارتيما من محاولة تمجيد بني قومه وإظهارهم مظهر المظلومين الممتهنة حقوقهم كلما سنحت له الفرصة في سائر رحلاته.

(١) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٣١.

(٢) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٣١-٣٢.

(٣) فارتيما، رحلات فارتيما. - ص ٣١-٣٢.

### الخاتمة:

وبعد: وفي ختام هذه الورقة التي آمل من خلالها أنني تمكنت من إيضاح جانب مما كتبه هذا الرحالة الإيطالي (لودفيكو دي فارتيما)، في السفر الأول من رحلته المتصل بزيارته لمصر وبلاد الشام قبيل توجهه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، حين ترك لنا وصفاً مكتوباً لا يخلو من تخالط الانطباعات والمشاهدات والدلالات، التي يمكن تسجيلها في الآتي؛ لتكوّن أبرز نتائج هذه الورقة:

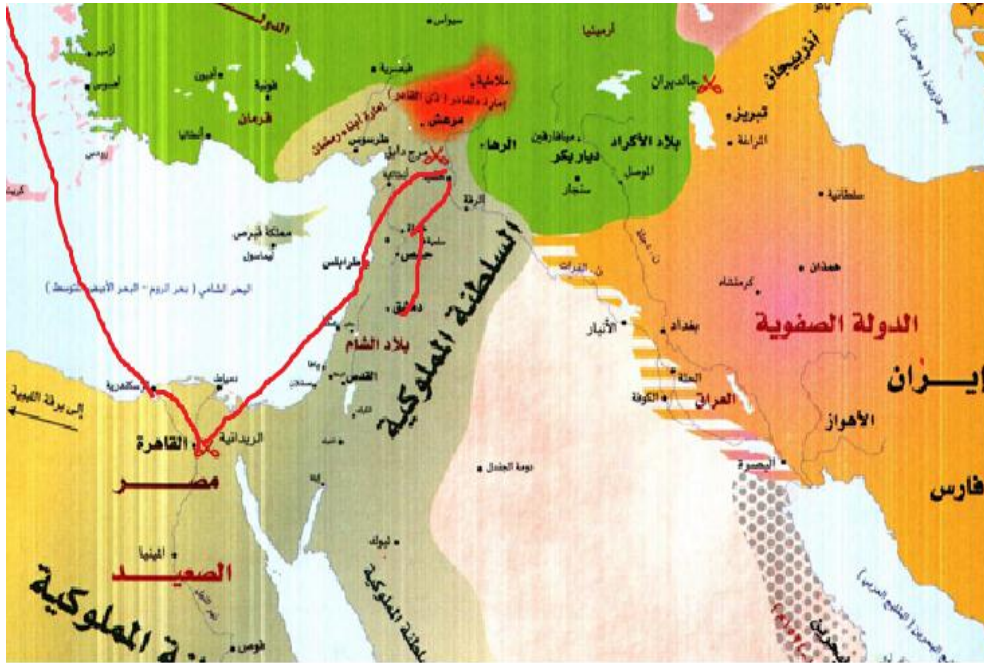
- الأهمية التي حظيت بها بلاد العرب والمسلمين منذ القدم لدى الغرب، مما دفع مجموعات من الرحّالة والمستشرقين إلى الحرص على زيارتها والوقوف عليها، أو المرور بها أثناء رحلاتهم، على اختلاف في أهدافهم ودوافع رحلاتهم.
- أنه على الرغم من أهمية هذه الرحلة التي دونها الرحالة الإيطالي لودفيكو دي فارتيما إلا إنّ حياته ونسبته ونهايته يكتنفها الكثير من الغموض، فلا نكاد نعرف عن حياته سوى النزر اليسير، إذ إنّ المعلومات المتوافرة عنه قليلة ونادرة، وخاصة عن بدايات حياته الأولى كالولادة والنشأة.
- أنّ رحلة فارتيما مثّلت بحق بداية استراتيجية جديدة في الفكر الاستعماري الغربي الذي كان أساسه يقوم على استخدام القوة العسكرية. وتميزت تلك الاستراتيجية بدراسة حال الشعوب العربية والإسلامية، والتغلغل في معرفة أحوالها، ليسهل الدخول إليها بسلمية وأمان. ونجاح هذه الرحلة بهذه الاستراتيجية الجديدة كان دافعاً لكثير من الأوربيين لتكرار التجربة.
- حرص فارتيما كغيره من الرحالة على تعلّم اللغة العربية واللهجات المحلية؛ للاندماج أو التسنُّر في البلدان العربية. وبدل هذا على دأبه وتفانيه من أجل الوصول إلى مبتغاهم. وقد تمكن فارتيما من التكيف مع اللغة العربية بسرعة مذهلة ليفهم ما يدور من حوله.

- لم يُعر فارتيما وصف الأماكن جغرافياً اهتماماً يُذكر، بل لم يُعط وصفاً دقيقاً للأماكن التي مرّ بها في رحلته بصورة دقيقة ومنتظمة. إضافة إلى أنه لم يعر الوقت أو التاريخ الحركي لرحلته أي اهتمام.
- ارتباط هذه الرحلة . كغيرها الكثير من الرحلات الغربية . بالدوافع الاستعمارية والتنصيرية المكشوفة. ويمكن أن يوسم بعضها بأنه يندرج ضمن رحلات التحامل المكشوف على الإسلام والمسلمين بتصويرهم بحال لا توافق حالهم؛ محاولة لنقدهم وانتقاصهم. ورحالتنا هذا لم ينفك عن خلفيته الدينية، بل كان انطباعه إفراراً تاماً لمعتقدده. فهو يُمجد بني قومه ومؤسساتهم الدينية في بلاد المسلمين. وهذا ظاهر بتركيزه على مواقع التعبد عند النصارى، وكذا ذكره للكنايس ودور العبادة الأخرى كلما سنحت له الفرصة لذلك.
- رغم ما حوته هذه الرحلة وصاحبها من روح المغامرة واكتشاف المجهول بالنسبة له إلا إنها لا تخلو من المبالغة، التي قد تكون مؤثرة فيمن كتبت له الرحلة. ولذلك لم يكن مفاجئاً وجود غمز ولمز وشم وكراهية وجهل بعقائد المسلمين، ومع ذلك فهو لا يتورّع عن ذكر بعض الخرافات والمبالغات والادعاءات.
- يُرجّح أن يكون فارتيما قد خدم في بلاده عسكرياً قبل رحلته هذه؛ لأنه كان يلفت نظره أي شيء له ارتباط بالجيش والعسكرية. يؤيد هذا توسعه في الحديث عن قلعة دمشق ووصفه لها.
- في الواقع أنّ رحلة فارتيما . مع أنها كانت تجسّية لصالح البرتغال على البلدان العربية والإسلامية وغيرها من بلاد الشرق، إلا إنّها أمدتنا بمعلومات يمكن أن يُستأنس بشيء منها عن الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية عن مقصد هذه الورقة في سرفها الأول بما أكسبها قيمة علمية مناسبة. وهذا ينسحب على كثير من كتب الرحالة مما يدخل في حقل أدب الرحلات. حينما تمدنا بمعلومات

تاريخية وحضارية وآثارية عن بلادنا العربية والإسلامية التي زارها مجموعة من هؤلاء الرحالة، بما تستحقّ المزيد من القراءة والتأمل.

وبعد، وبعد: فإنني أرجو في ختام هذه الورقة أن أكون قد وفقت في تناول أبعاد موضوعها بما يستحقه، وأن تكون هذه الدراسة نواة لدراسات أوسع وأشمل بما يخدم أدب الرحلات الأجنبية الوافدة إلى بلادنا العربية بتجلية أهدافها وأبعادها ونواتجها.

والله هو الموفق والمعين، وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



خط سير رحلة فارتينا في سفره الأول من الإسكندرية لدمشق  
من كتاب أطلس تاريخ العصر المملوكي لسامي المغلوث.

■ مصادر الورقة ومراجعها:

- إبراهيم، عبدالعزيز عبدالغني. روايات غريبة عن رحلات في شبه الجزيرة العربية. - ٣. مج. - بيروت: دار الساقى، ط١، ٢٠١٣م.
- بدول، روبن. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية/ ترجمة. عبدالله آدم نصيف، د.ط، الرياض: مطبعة جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م).
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي. - ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ تحقيق جمال محمد محرر وفهيم محمد شلتوت. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. - ١٣٩١هـ (١٩٧١م).
- الحمامي، عبد الرزاق بن حبيب. المدينة المنورة والرحالة الأوربيون: (دراسة نماذج). - ط١، المدينة المنورة: سلسلة إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ المدينة المنورة، ١٤٣٦هـ (٢٠١٥م).
- ذهني، إلهام. رؤية الرحالة الأوربيين لمصر بين النزعة الإنسانية والاستعمارية. - ط١، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. (سلسلة التاريخ: الجانب الآخر: إعادة قراءة للتاريخ المصري).
- رالي، أغسطس. مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى/ نقله إلى العربية حسن سعيد غزاله، راجعه وعلّق عليه محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا. - الرياض: دار الملك عبدالعزيز، (١٤٣٠هـ).
- سامي بن عبدالله المغلوث. أطلس تاريخ العصر المملوكي. - الرياض: مكتبة العبيكان. - ١٤٣٣هـ.
- ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ج٢، ق١ (قسم دمشق) // نشر وتحقيق: سامي الدهان، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م).



- الشيباني، محمد بن عبد الهادي. أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية (دراسة ضمن سجل ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية)، ط ١، الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.
- الشيخ، عبدالرحمن عبدالله. «لودوفيكو دي فارتيمما، الحاج يونس المصري الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م»، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع، الآداب (٢) ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
- الطويلي، خالد. الحج والحجاج في كتب المستشرقين. نُشر في مجلة المعرفة العدد (١٦٥) في . ١٤٢٩/١٢/٢٨هـ / ٢٠٠٨/١٢/٢٦م. تمت الاستفادة في ٢٠١٩/٨/٢٧م.

[http://www.almarefh.net/show\\_content\\_sub.php?CUV=350&Mod=el=M&SubModel=138&ID=171&ShowAll=On](http://www.almarefh.net/show_content_sub.php?CUV=350&Mod=el=M&SubModel=138&ID=171&ShowAll=On)

- عطا الله، سمير. قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ - ١٩٥٠م). - ط ١. - الرياض: مكتبة العبيكان. - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- العقيلي، نجيب. المستشرقون: موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، ط ٥، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦م.
- فارتيمما، لودوفيكو دي. رحلات فارتيمما (الحاج يونس المصري) / ترجمة وتعليق عبدالرحمن عبدالله الشيخ. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- الفارس، أسعد عيد. الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، (دراسة ضمن سجل ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية)، ط ١، الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ.
- كيرنان، ريغينالد هيو. كشف اللثام عن جزيرة العرب: قصة الترحال والكشوف في أنحاء الجزيرة/ ترجمة بشر العظمة، تحرير وتعليق: أحمد إيبش، ط ١. . أبوظبي:

- هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ١٤٣٣هـ (٢٠١٢م).
- المزيني، إبراهيم بن محمد بن حمد. «وصف مكة ومظاهر الحج في رحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتيما ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م». الملتقى العلمي الثامن عشر لأبحاث الحج والعمرة والزيارة لمعهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة/ جامعة أم القرى - مكة المكرمة: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.  
[https://drive.uqu.edu.sa/\\_/hajj/files/multaqa/143918.pdf](https://drive.uqu.edu.sa/_/hajj/files/multaqa/143918.pdf)
  - ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م). معجم البلدان. - ٥ مج. - بيروت: دار صادر، ١٩٨٤هـ/ ١٤٠٤م.





## الأهمية الاقتصادية لمدينة القدس الشريف في العهد العثماني

(١٥١٦-١٩١٧م)

د. نصير خير الله محمد

أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة تكريت / العراق

### الملخص:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،  
تحل مدينة القدس مكانة متميزة لدى أتباع الأديان السماوية، وخاصة الدين الإسلامي، وذلك لوجود المسجد الأقصى الذي أسري منه الرسول محمد ﷺ، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين. وقد قامت هذه الدراسة على دراسة تاريخ مدينة القدس الاقتصادي والذي يعتبر من الأهمية بمكان، وذلك لما حباها الله من خيرات، إذا احتوت على خيرات كثيرة جعلها تعتمد على نفسها اقتصادياً في كثير من الأحوال فأرضها صالحة لزراعة ومحاصيلها متعددة وموقعها متميز تجارياً، مما أسهم في قيام صناعات تسد بمتطلبات الحياة، على الرغم من كونها بسيطة، إلا أنها سدت الحاجة في كثير من الأحيان.

### Abstract

ise be to God alone, and prayers and peace be upon the one after whom there is no prophet.

This study addressed the topic: **The economic importance of the Holy City of Jerusalem in the Ottoman period.**

The city of Jerusalem occupies a distinguished place among the followers of divine religions, especially the Islamic religion, due to the presence of the Al-Aqsa Mosque from which the Prophet Muhammad was held captive ρ, the first of the two qiblah, and the third of the Two Holy Mosques.

This study was based on studying the economic history of the city of Jerusalem, which is of great importance, because of God's blessings of goodness, if it contains many good things that made it depend on itself economically in many cases. Industries that meet the requirements of life, although they are simple, but they often meet the need.

### المقدمة:

تحتل مدينة القدس مكانة مهمة في نفوس المسلمين جميعاً وباقي أتباع الديانات السماوية، ولذلك حباها الله بمنزلة عالية وحباها بخيرات كثيرة، وأم المنتبغ لتاريخ العريقة يجد أن تاريخها الاقتصادي من الأهمية بمكان، إذا احتوت على خيرات كثيرة جعلها تعتمد على نفسها اقتصادياً في كثير من الأحوال، فأرضها صالحة لزراعة محاصيل متعددة وموقعها متميز تجارياً، مما أسهم في قيام صناعات تقي بمتطلبات الحياة هناك، على الرغم من كونها بسيطة إلا إنها سدت الحاجة في كثير من الأحيان.

البحث دراسة لأوضاع مدينة القدس الاقتصادية في العهد العثماني، وتطرق في فيه إلى الجوانب الزراعية في المدينة، وأهم المحاصيل التي تزرع فيها ولاسيما الزيتون التي اشتهرت فيها المدينة، فضلاً عن تتبع ملكية الأراضي الزراعية وأنواع تلك الأراضي وطرق سقيها. كما درس البحث أهم الصناعات التي ظهرت في المدينة ولاسيما تلك الصناعات الحرفية التي تدخل في الطقوس الدينية لمختلف الطوائف كالشموع والبخور والملابس وغيرها من الحرف والصناعات التي اشتهرت بها المدينة.

ونظراً لأهمية موقع مدينة القدس، فإن التجارة سواء كانت الداخلية أو الخارجية كان لها نصيبها في هذا البحث الذي تطرق لطرق التجارة الداخلية والخارجية، وأهم البضائع التي تصدرها المدينة وتلك التي تستوردها سواء مع مدن فلسطين الأخرى أو على الصعيد الخارجي مع الدول والبلدان المجاورة والبعيدة.

ومن خلال متابعة الجانب الاقتصادي للمدينة في العهد العثماني، وجدنا أن هناك نشاط اقتصادياً جيداً قياساً لبقية المدن العربية التي كانت تخضع للدولة العثمانية في ذلك الوقت، وقد أسهمت القنصليات الأجنبية في جانب كبير ومهم، من ذلك النشاط بتشجيع رعاياها من مختلف الجنسيات على العمل في الجوانب الاقتصادية مستفيدين من نظام الامتيازات التي منحته الدولة العثمانية لرعايا الدول ولاسيما الأوروبية منها.

أتمنى أن أكون قد وفقت في تتبع وتغطية هذا الموضوع الواسع والمهم في تاريخ هذه المدينة العريقة، والله ولي التوفيق.

### المبحث الأول: الزراعة

مثلت الزراعة جانباً مهماً من جوانب الأوضاع الاقتصادية في القدس منذ أن خضعت هذه المدينة للسيطرة العثمانية في مراحلها الأولى، وكانت امتداداً للفتوحات العثمانية في بلاد الشام، وقد حافظت الإدارة العثمانية في مدينة القدس على كافة النواحي الإدارية والاقتصادية والأطر الحياتية التي كانت متبعة سابقاً، لاسيما أن هذا التقليد الذي اتبعه العثمانيون كان الغرض منه عدم إثارة البلبلّة في المناطق التي تمت السيطرة عليها أثناء فتوحاتهم، والتي يمكن أن ينتج عنها انتشار الفوضى والاضطرابات<sup>(١)</sup>.

وقد اشتملت الحياة الاقتصادية في القدس على جوانب ومجالات عديدة كانت هي الأساس في الجانب الاقتصادي ومنها الزراعة التي مثلت جزءاً من المكون الاقتصادي لمجتمع القدس، وللقدر مناخ ملائم للإنتاج الزراعي ونجاحه، فضلاً عن خصوبة الأراضي التي تتنوع فيها الزراعة حسب تنوع تضاريسها ما بين جبال وسهول، مما جعل المنطقة الجبلية أكثر إنتاجاً للأشجار المثمرة على عكس المناطق السهلية الواسعة الملائمة لزراعة المحاصيل الأخرى كالحبوب وغيرها<sup>(٢)</sup>.

وفيما يخص الأراضي الزراعية كان العثمانيون يقومون بإجراء عمليات واسعة وشاملة لمسح جميع الأراضي المفتوحة بعد فترة من تأكيد النفوذ السياسي على المنطقة، بعد أن ألغى السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) النظام الإقطاعي المملوكي، واستحدثت سجلات جديدة لتنظيم وإعادة توزيع الأراضي الزراعية، وقد بينت سجلات محكمة القدس الشرعية أن نظام المغارسة الزراعي<sup>(٣)</sup>، وقد اعتمدت زراعتهم على مياه الأمطار والري بالطرق التي كانت مستخدمة آنذاك وأهمها الآبار<sup>(٤)</sup>.

(١) بشارة دوماني: إعادة اكتشاف فلسطين، أهالي نابلس (١٧٠٠-١٩٠٠م)، ترجمة: حسني زينة، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٢٢.

(٢) أحمد سوسة: مفصل العربي واليهود في التاريخ، ط٥، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١م، ص ٧٨.

(٣) نظام المغارسة الزراعي: هو أن يشترك أكثر من شخص في زرع الأرض، بحيث يقدم أحدهم الأرض والآخر العمل. أحمد جدي: نظام ملكية الأرض في فلسطين في العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان، ١٩٩٢م، ص ١٠٦.

(٤) أحمد جدي: نظام ملكية الأرض في فلسطين في العهد العثماني، ص ١٠٦.



وعلى الرغم من المناخ الملائم وخصوبة التربة، إلا إن الزراعة في القدس باتت تفتقر إلى المشاريع الإروائية الضخمة والأنهار التي تُعد من مقومات الزراعة المهمة<sup>(١)</sup>، إذ اعتمدت على العيون التي لا تقي بالحاجة والآبار المنتشرة فيها هي الأخرى؛ إذ حاول سكان القدس التأقلم مع تلك الأوضاع البدائية في الجانب الزراعي بغية تطويرها في أزمة لاحقة<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من كل هذه الظروف ونقص المربودات الزراعية، إلا إن مدينة القدس بدأت تنشط في جوانب أخرى ساعدتها على نشوء حياة اقتصادية جديدة لم تقتصر على الزراعة فقط<sup>(٣)</sup>، وكان مناخ البحر المتوسط له الأثر الواضح على القدس الشريف لتعرضه إلى رياح عكسية غربية في فصل الشتاء تؤدي إلى سقوط الأمطار والتلوج بصورة منقطعة، بينما في فصل الصيف تتعرض إلى رياح شمالية شرقية جافة، وقد ساعد هذا المناخ في فصل الشتاء على زراعة الحبوب والخضروات كونها تعتمد بالدرجة على مياه الأمطار، فإذا قلَّت الأمطار، قلَّ إنتاج هذه المحاصيل، في حين إن أكثر محاصيل المنطقة الجبلية هي الزيتون والتين كونها تتحمل الجفاف في الأيام الحارة، فضلاً عن أنواع أخرى من أشجار الفواكه، ويُعدُّ شجر الزيتون من أكثر الأشجار انتشاراً في المدينة، وذلك لملائمة المناخ لزراعته، ويُعدُّ المادة الرئيسة لغذاء السكان ولاستعماله في أغراض أخرى كصناعة السبح والتحف والصابون الذي اشتهرت به مدينة القدس<sup>(٤)</sup>.

وبعد زراعة الزيتون التي كانت منتشرة بشكل واسع تأتي زراعة الحمضيات بالمرتبة الثانية في مدينة القدس والمناطق الأخرى المجاورة لها، فضلاً عن انتشاره في مدينة يافا وما حولها في السهل الساحلي بعد أن دخل الاقتصاد الفلسطيني بعد عام ١٨٣٠م في عهد جديد أصبحت فيه يافا ميناء النقل والعبور بدلاً من عكا<sup>(٥)</sup>؛ إذ جذبت إليها كبار التجار من مختلف

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٢) صابر موسى: نظام ملكية الأراضي في فلسطين في أواخر العهد العثماني، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٩٥)، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤.

(٣) قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، (د.ن)، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٣٢.

(٤) أحمد جدي: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٥) محمد جميل بيهم: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٥٣.



المناطق، فدفعت ذلك تجار يافا إلى استثمار أموال طائلة إلى جانب تجار الاستيراد والتصدير، في زراعة أشجار البرتقال وإنشاء مقاطعات واسعة أعدتها لزراعته لتتصدر هذه الزراعة الاقتصاد الفلسطيني<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٨٧٠م، استطاعت مدينة يافا من تصدير كميات كبيرة من محصول الحمضيات إلى الدول الأوروبية مثل فرنسا، وألمانيا، وروسيا، لاسيما بعد تحسن وسائل التصدير كالتعبئة ومصانع التغليف للحفاظ عليه خلال عمليات النقل واشتمل التصدير على نوعية معينة من الحمضيات ذات القشرة السمكية لتحملها مسافات طويلة أكثر من غيرها كالبرتقال المحلي وهو أصغر حجماً والذي يستهلك في الأسواق المحلية الداخلية<sup>(٢)</sup>.

كما تحلل زراعة التين مرتبة كبيرة إلى جانب هذه المحاصيل في مدينة القدس، لما لها من أهمية عند سكان القدس؛ إذ يعتنون به عناية كبيرة، وكانوا يتغذون عليه ويجففونه لأيام الشتاء، لاسيما إن هناك عدداً كبيراً من القرى في القدس قد اشتهرت بزراعته ومنها: جبال ظاهر القدس، وبيت لم، والمالحة، وعادة ما يزرع إلى جانب أشجار العنب التي كانت منتشرة هي الأخرى، وقد زرعت منها أنواع عديدة في مدينة القدس وقراها، ومن أهم الأنواع: الحلواني، والملون، والحمداني، والعبيدي، والغزي، ومن أهم المدن التي اشتهرت بزراعة العنب هي: الخليل، وبيت جالا، وبيت لحم، وطبليّة، وعين كارم وغيرها من القرى الأخرى، كما زرع في المناطق المجاورة لأسوار مدينة القدس كالبيمارستان والبقعة ومنجك<sup>(٣)</sup>.

كان لانتشار زراعة كروم العنب أثر واضح في تصدير كميات كبيرة منه إلى أوروبا بعد أن لقي رواجاً لدى البعض من التجار الأوروبيين الذين استعملوا في صناعة المشروبات الروحية، وكان من أكثر مزارعي كروم العنب هم النصارى أكثر من المسلمين، وهم من

(١) إبراهيم أبو رميس: الزراعة في القدس وكراها في القرن التاسع عشر، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ٢٠١٢م، ص ٢٦.

(٢) محمود بزيك: برتقال يافا وأثره في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عشر، عمان، ٢٠١٢م، ص ٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦.



يقومون بتسويقه إلى مصانع محلية وتحويله إلى مشروب النبيذ المحرم في الدين الإسلامي<sup>(١)</sup>، كما اهتموا أيضاً بصناعة الدبس من كروم العنب، ولاسيما مدينة بيت لحم، وكذلك كان السكان يجففونه، فيصبح زيبياً كغذاء لهم، وبعد أن ازدادت الضرائب الباهظة على التصدير، قام أغلب المزارعين من النصاري بزراعة كميات يكتفون بها لصناعة استهلاكهم من النبيذ والزبيب؛ وذلك بسبب الجشع الواقع عليهم بفرض الضرائب<sup>(٢)</sup>.

ومن المنتجات الزراعية الأخرى التي ظهرت في وقت متأخر في القرن التاسع عشر ألا وهي زراعة التبغ والتي ازدهرت بسرعة كبيرة في مدينة القدس، لاسيما إن هذه المادة تنافست العديد من الدول الأوروبية على زراعتها والاهتمام بها بشكل واسع، وخصصت مبالغ كبيرة لتطوير زراعتها ودعم إنتاجها لتشكل مصدراً مهماً في اقتصادها<sup>(٣)</sup>.

كان لمدينة القدس دور حيوي ومهم في إنتاج محاصيل أخرى مثل الذرة والحنطة والشعير والعدس وباقي الخضروات، إلا إن هناك ظروفًا أدت إلى انحسار وضعف الإنتاج الزراعي فيها بسبب طبيعتها الجغرافية الوعرة التي أدت إلى هدر مساحات واسعة منها<sup>(٤)</sup>، لذلك سعى غالبية سكان هذه المناطق إلى نحت صخور المناطق الجبلية على شكل مدرجات واستبدال تربتها وزراعة أشجار ملائمة لتلك الطبيعة الجغرافية، والتي لها القدرة على التحمل والمقاومة في مثل هذه الظروف، كما عانت الزراعة في القدس من مشكلات لها علاقة بحقوق الملكية وسيطرة الإقطاع، وكذلك فرض رسوم وضرائب، فضلاً عن ظاهرة الجفاف التي أثرت بشكل سلبي على الإنتاج والآفات الزراعية التي رافقت هذه المشاكل والتي لا شك أنها من العوامل التي تؤدي إلى تدهور الإنتاج الزراعي الذي له انعكاساته على الأوضاع الاقتصادية بالقدس<sup>(٥)</sup>.

(١) يوسف سامي اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهل، دمشق، ١٩٨٩م، ص ٨٣.

(٢) موسوعة المدن الفلسطينية، ط ١، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٤٤.

(٣) فاطمة الطراونة: الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوروبي فيها في العصر

الحديث والمعاصر، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص ٤٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) إبراهيم أبو رميس: الزراعة في القدس، ص ٢٦.





ساهمت مدينة القدس، لاسيما المناطق السهلية المنبسطة في زراعة محاصيل مهمة بالنسبة للسكان وأهمها الحنطة والشعير، والذي يعتمدان في زراعتهما على مياه الأمطار، إذ يُعدُّ هذان الحاصلان من العناصر الرئيسة للغذاء كالثقوب الذي يصنع منه الخبز وأنواع أخرى من الحلويات، وكذلك الشعير الذي انتشرت زراعته في مناطق واسعة، ومن أهم هذه المناطق: قلندية، وبيت سوريك، وصور، وبيت سامور، والمالحة، وأريحا<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ بأن الاهتمام المتزايد من قبل السكان بزراعة هذه المحاصيل يعود إلى اعتمادهم الرئيسي عليهم في غذائهم وغذاء ماشيتهم، وبما إن هذه الزراعة تعتمد بالدرجة الأساسية على الأمطار، نلاحظ أن غالبية الفلاحين قاموا بزراعة جزء من الأرض وترك الجزء الآخر إلى السنة القادمة؛ وذلك بسبب عدم وجود الإمكانيات من تغطية هذه المساحات بالكامل، فضلاً عن فرض رسوم وضرائب من قبل أمراء الأولوية، وعادة ما تكون هذه الضرائب باهظة أحياناً في بعض مواسم الزراعة، وحسب إنتاج هذه الأراضي للمحاصيل<sup>(٢)</sup>؛ وبسبب هذه العوامل، فقد أدرك بعض المزارعين عدم الجدوى لإنتاج تلك الأراضي، مما أدى إلى هجرة بعضهم إلى مناطق قد تكون أفضل في مواسم أخرى<sup>(٣)</sup>.

ومن المحاصيل الأخرى التي اهتم سكان المدينة بزراعتها هو الفول والعدس والفاصوليا والحمص، وهذه المحاصيل لم تنتشر زراعتها على نطاق واسع في المدينة سوى مناطق محددة ومنها: العيسلوية، وقرى كفر عانة، وجبعة، والرام، وبيت دجن، وعناتة، ولم يكتف السكان بسد حاجته من هذه المحاصيل في بعض الأحيان؛ بسبب تذبذب نسبة الإنتاج نتيجة الظروف البيئية وسوء الإدارة أحياناً<sup>(٤)</sup>.

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٩م، ص٧٨.

(٢) ليلى الصباغ: ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني، ندوة الحياة الاقتصادية في الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦م، ط١، ص٩٨.

(٣) وليد العريض: المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية، ندوة القدس، جامعة آل البيت، عمان، ١٩٩٧م، ص٦٤.

(٤) محمود عامر: الأوضاع العامة في القدس في ظل الإدارة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد (٥٩)، ١٩٩٧م، ص١٠٣.



كما إن هناك محاصيل مهمة اهتمت بزراعتها في هذه المدينة، وساهمت في زيادة الدخل الوارد إليها، ألا وهي محصول القطن الذي كان من أجود الأنواع والذي يتم تصديره إلى فرنسا، في حين كانت القدس تستورد القماش الصوف من فرنسا في عام ١٧٨٥م، أدى ذلك إلى زيادة الإنتاج في مادة القطن لغرض تسويقها إلى دول أوروبية أخرى سد حاجة البلد المحلية من هذه المادة ومن أكثر المناطق التي اشتهرت بزراعته هي منطقة الخليل والمناطق الأخرى الممتدة حتى مدينة القدس<sup>(١)</sup>.

أما محصول الذرة، فقد كان يزرع في مناطق محدودة مثل أريحا، التي اهتمت أيضاً بزراعة نبات الوسمة التي تستخدم في صناعة الأصباغ، والذي تستخرج من بذورها وأوراقها وسيفانها مادة النيلة الزرقاء، وكانت هناك صناعات محلية اعتمدت على محصول السمسم في صناعتها لماد الطحينية والحلاوة التي اشتهر في صناعته لواء القدس، ومن المناطق التي اشتهرت واهتم بزراعة محصول السمسم هي: صور باهر، وبيت لحم، وبيت نوبا، ويالو<sup>(٢)</sup>.

#### ملكية الأراضي:

أولى العثمانيون اهتماماً كبيراً أثناء توسعاتهم العسكرية إلى الأراضي التي يسيطرون عليها لاسيما توسعاتهم في بلاد الشام؛ إذ عمدوا إلى سيطرتهم وتأكيد نفوذهم عليه، وتعد مدينة القدس من المناطق المهمة والحيوية التي بسطت سيطرتها عليها الدولة العثمانية في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، كما اتبع العثمانيون سياسة التهدئة ومحافظتهم على الأساليب التي كانت متبعة من قبل في جميع النواحي الإدارية والاقتصادية والأوضاع الاجتماعية، وفيما يخص الأوضاع المفتوحة من قبلهم ضمت مساحات واسعة دعت العثمانيين إلى إجراء مسح عام لهذه الأراضي، وفتح سجلات خاصة بها، عكس ما كان

(١) مجموعة من المفكرين العرب: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٦٨م، ص٨٨.

(٢) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون (١٥١٦ - ١٧٩٨م)، ط٢، (د.ن)، دمشق، ١٩٦٨م، ص٧٧.

مُتَّبِعًا من نظام إقطاعي أيام الحكم المملوكي، وأدخلت هذه الأراضي ضمن سجلات الإدارة العثمانية وتوزيعها بشكل جيد حسب متطلبات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسكان مدينة القدس، والتي تخدم الولاة والأمراء القائمين على إدارة هذه الإقطاعات الشاسعة من الأراضي<sup>(١)</sup>.

**ومن هذه التقسيمات لأراضي القدس هي:**

**أولاً: الأراضي الأميرية:**

وتشتمل هذه الأراضي التي تُعدُّ ملكاً للدولة، وتتصرف بها كيف تشاء، ومنها الأراضي التي لم يتعرف عليها، وهي لا أحد يملكها، وبعد فتح القدس لم يعرف أصحابها، فلذلك ألحقت عائدتها إلى الدولة جميعها؛ إذ إن الدولة كانت تمنح هذه الأراضي للأشخاص الذين يقدمون خدمات جليلة من موظفي الدولة سواء أكانوا من العسكر أم من المدنيين، وعادة ما يتم توزيعها على شكل إقطاعات منتظمة<sup>(٢)</sup>.

ويمكن تقسيم الأراضي الأميرية إلى:

**أ - أراضي الخاص السلطاني:**

وهي التي تكون في تصرف السلطان، وعادة ما تكون هذه الأراضي هي التي غنمها السلطان العثماني من المماليك بعد أن فتح البلاد، وبذلك تكون قد انتقلت ملكيتها إلى السلطان، ولا يحق لأحد أن يتصرف بها ما عدا السلطان؛ إذ يمنح منها الإقطاعات للعسكريين حسب ما يريده، وفي بداية الأمر كانت إدارة هذه الأراضي بأيدي موظفين يتقاضون رواتب خاصة بدلاً من قيامهم بأعمال جمع الضرائب والواردات<sup>(٣)</sup>، ثم أصبح الملتزمون يقومون بجمع هذه الأموال فيما بعد، وأشارت بعض المصادر إلى أن الأراضي السلطانية هي: «أراضي أميرية ولا يختلف وضعها الشرعي عن وضع الأراضي العشرية

(١) محمود عامر: الأوضاع العامة في القدس، ص ١٠٤.

(٢) عبد الكريم محمود غرابية: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م، ص ٥٩.

(٣) خالد تحسين علي: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، ط ٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٨٣.



الخاصة؛ وذلك لأنها أراضٍ تعود رقبتهما أي عائدتها إلى الدولة، بينما يتمتع أصحابها بحقوق واسعة للتصرف بها، على إنه بعد إخفاق ثورة علي بن جانبولاط<sup>(١)</sup>، بدأت السلطات العثمانية تضع يدها عليها ضمن جهود توخت إلحاقها بنظام إقطاعي تعود أسسه إلى العصر العباسي، بحيث يضمن شكلاً من الاستثمار يقوم على ضريبة سنوية يدفعها المرؤوس الذي يتصرف بالأرض إلى رئيسة، وكانت التسمية المحلية لهذا النظام بـ(المقاطعة)، ولم يرتب عليها التزامات عسكرية، ولكنها كانت قائمة على دفع الخراج»<sup>(٢)</sup>.

وقد منح قسم كبير من هذه الأراضي كتيمارات لبعض القادة؛ إذ بلغ عدد المزارع الخاصة ما يقارب (٧٢) مزرعة، و(٦) قطع خاصة جديدة، فضلاً عن (١٢) قطعة أرض أيضاً، والتي اشتملت على أراضٍ واسعة من أراضي القدس الشريف<sup>(٣)</sup>.

#### ب - الإقطاعات العسكرية:

تعدُّ هذه من الأراضي التي أدخلت في النظام الجديد للأراضي، الذي أعدته الإدارة العثمانية في القدس الشريف، وهي صنف من أصناف الدولة، وعادة ما تمنح هذه الأراضي للعسكر مقابل ما يبذلونه من جهود في الحروب، وقد احتفظ السلاطين العثمانيون بأجودها لأنفسهم، وتضم مساحات كبيرة مميزة، وكذلك تم اقتطاع أراضٍ واسعة لتوزيعها على الوزراء والقادة والجنود الذين قدموا خدمات كبيرة خلال عملهم وإدارتهم في القدس<sup>(٤)</sup>.

(١) هو علي بن أحمد بن جانبولاط بن قاسم الكردي القصيري، وجده جانبولاط المشهور بابن عربوا أمير لواء الأكراد في حلب، ووالي سنجقية المعرة وكلس واعزاز، وكان له صيت شائع وهمة التمرد على الدولة العثمانية وحاربها، فقامت بالقضاء عليه في عام ١٦٠٦م. ينظر: نجم الدين محمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعياد المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م، ٣/١٦٤.

(٢) محمد أنيس: العالم العربي في العصر العثماني (١٥١٦-١٩١٤م) في كتاب المجتمع العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٤٩؛ فتحي أبو عيانة: دراسات في جغرافية السكان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨م، ص٣١.

(٣) عماد الجواهري: الأوضاع الاقتصادية في فلسطين في العصر الحديث، مطبعة النهضة، بغداد، ١٩٨٣م، ص٥٢.

(٤) عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦م)، ص٧٤.

## وتصنف أراضي الإقطاعات العسكرية إلى:

### ١ - خاص أمير اللواء:

وهي الأراضي التي تعطى بدلاً من الراتب للسنجق بك، والتي عدت من أراضي الميري التي يستخدمها الولاية لغرض الاستفادة منها هم وأتباعهم تعويضاً بهم عن دفع المرتبات وبدلها هذه الأراضي كهبات ومكافئات لهم كانت على نطاق واسع من أراضي القدس التي خضعت لأغلب حكام الألوية للقس الشريف<sup>(١)</sup>، وكانت هناك مساحات كبيرة من المزارع قد مُنحت إلى مير الآلايات (الآلاي بك) على اعتبارها أراضي أقطاع برتبة خاص ميرلوا، وقد وجدت البعض من هذه الإقطاعات تعود إلى أراضي الموقف ولم يغير من وضعها شيء، كما عرفت مناطق منها خصصت إلى ميرلوا ومنها مثل قرية كفر مالك من ضمن عربات المزاريق، والتي خضعت لها رسوم وضرائب خاصة بها في حدود تلك الألوية<sup>(٢)</sup>.

### ٢ - الزعامت:

انتشرت قرى كثيرة في القدس عرفت بأراضي الزعامت وهو ما يزيد عن عشرين ألف أفجة، وعادة ما تمنح هذه الأراضي لكبار الموظفين وضباط الجيش من القادة والأعيان مثل الفتردارية ومن يطلون مناصب مهمة في البلاد، ومن القرى الممنوحة إقطاع الزعامت في القدس: قرية ببيرو، وقرية بيت ساحور النصارى، وقرية خربة بني سباع، وقرية حوسان، وقرى أخرى كثيرة؛ بسبب امتلاك بعض القادة العسكر لإقطاعات واسعة في هذه القرى<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - التيمار:

شمل هذا النوع من الإقطاع قرى كبيرة في القدس، ويُعدُّ من أكثر الإقطاعات انتشاراً في القدس؛ إذ اشتمل على أكثر من (٥١) قرية، و(٣٩) مزرعة، ومساحات أخرى من

(١) الصنصافي أحمد موسى: الدولة العثمانية والولايات العربية، مجلة الدارة، العدد (٤)، السنة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٦.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافية والإسلامية، إسطنبول، ١٩٩٩م، ١٥٤/٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٥٤/٢.



الأراضي التابعة للقدس، وكانت هناك تيمارات بنوعين وهي تيمار بتذكرة، وتيمار بدون تذكرة (تذكرة سز)، ومن أهم القرى التي كان متبعاً فيها هذا النوع من الإقطاع هي: قرية بيت سامور الواردي، وبيت صفاصفا، وقرية قلندية، وقرية صبعا البطيخ، ودير السودان، وتل أبو زعرور، وكفر كوت، وأم طوبى، ونحالين<sup>(١)</sup>، وإلى جانب هذه القرى مقاطعات أخرى كبيرة عائدة للقدس، وأغلب الذين منحوا هذه التيمارات من الأراضي هم من أصحاب الرتب العسكرية الكبيرة مثل مصطفى مير الآي لوي لجون، والبعض الآخر ممن منحوا أراضي التيمارات هم الأشخاص العاديون من المدنيين والعسكر، وكذلك منحت لقسم من الزعامات العشائرية والوجهاء من سكان أهل القدس<sup>(٢)</sup>.

كانت تسجل هذه التيمارات في سجلات خاصة من قبل موظفي الإدارة العثمانية في القدس، وثبت به مقابل كل تيمار اسم الشخص المسجل باسمه التيمار ونوعية المحصول الذي يعود به، ويفرض على أصحاب هذه التيمارات بدفع مبالغ قدرها: (١٥٠) قرشاً سنوياً مقابل كل تيمار، وتعود هذه المبالغ إلى خزينة الدولة العثمانية، واشترطت الدولة على أصحاب هذه التيمارات الحضور سنوياً أمام الدوائر بالتسجيل للاطلاع والمداولة فيما يخص أراضيهم، ولا يحق لأحد منهم أن يتخلف عن الحضور خشية معاقبته بسحب أراضي التيمار منه ومصادرتة<sup>(٣)</sup>، وفي الوقت نفسه أن أصحاب هذه التيمارات أوكلوا على هذه التيمارات من يمثلهم لغرض إدارتها المباشرة وتعيين مكن يقوم بزراعتها من الفلاحين مقابل ربع المحصول أو أقل، وغالباً ما تحدث الخلافات بين الفلاحين وأصحاب هذه الإقطاعات من التيمارات بسبب تقاسم الحصص فيما بينهم<sup>(٤)</sup>.

(١) عماد الجواهري: الأوضاع الاقتصادية في فلسطين في العصر الحديث، ص ٥٢.

(٢) عبد الكريم رافق: دراسات في تاريخ العرب الحديث (بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ - ١٧٩٨م)، ط ٢، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٨٤.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠١٠م، ١/١٣٤.

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن: مصر وفلسطين في العصر العثماني من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ط ١، عمان، ١٩٨٣م، ٣/٨٦.



ومن ناحية أخرى حاول بعض الملاك لهذه التيمارات من المتنفذين بالسلطة من تحويل ملكية هذه التيمارات إلى ملكيتهم الخاصة بهم مدى الحياة، لكي تصبح أراضي خراجية حتى لا تدفع للدولة سوى العشر من ما تنتجه بعد أن حاولوا الاستعانة بالقوانين الإسلامية بخصوص الأراضي الخراجية وامتلاكهم لها مدى الحياة، وغالباً ما تكون هذه الإقطاعات العسكرية، وفي أوقات متأخرة انتبه بعض السلاطين العثمانيين إلى هذا الأمر، وأصدروا أوامر بإيقاف تحويل هذه الأراضي المملوكة للدولة إلى أراضي ملكية خاصة حرصاً منهم على الاحتفاظ بها لخزينة الدولة واستثمارها بالشكل الذي يساعد على زيادة النشاط الاقتصادي للدولة<sup>(١)</sup>.

ومن الجدير بالذكر، إن هذا النظام الإقطاع له آثار سيئة على الفلاحين من قبل صاحب الإقطاع وتعسفه، مما أدى إلى ترك كثير من الإقطاعات من قبل الفلاحين؛ بسبب قلة ما يحصلون عليه من المتأتي من واردات هذه الأراضي المسيطر عليها من قبل السيد الإقطاعي الذي كان سبباً في هجرة العديد من الفلاحين وتركهم هذه الإقطاعات، لاسيما إن هذه الإقطاعات كان لها دور كبير في إنتاج عناصر متعددة من المحاصيل الزراعية سواء على المناطق السهلية أو الجبلية<sup>(٢)</sup>.

### ج - الأراضي المشاعة:

تعود ملكية هذه الأراضي إلى بيت المال، وتسمى الأراضي الأميرية وعادة ما تكون ملكيتها جماعية، أي من حق أي شخص من سكان القرى والفلاحين الانتفاع بها دون تمييز، وكان أكثر هذا النوع من الإقطاع سائداً في القدس وما جاورها مكن القرى: مثل بيت لحم، ولفتا، وعين كارم، وهذا ما يخص القرى الزراعية، أما داخل مدينة القدس تقتصر الأراضي المشاعة على الذي يسكنها المواطنون من أهل المدينة<sup>(٣)</sup>.

(١) أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ١٥٤/٢.

(٢) عماد أحمد الجواهري: حياة الأراضي في فلسطين في العهد العثماني، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد (٢٥) بغداد، ١٩٧٧م، ص ١٢.

(٣) عماد أحمد الجواهري: حياة الأراضي في فلسطين في العهد العثماني، ص ١٢.

#### د - الأراضي المتروكة:

سميت بهذه التسمية المتروكة، أي لا يجوز التصرف بها لأغراض الزراعة والبناء، وإنما جعلت أراضي عامة يمكن الاستفادة منها من قبل الجميع<sup>(١)</sup>، ولا يجوز تملكها بأية صيغة من صيغ الملكية سواء أكانت ملكية خاصة أم غيرها، وتقسم هذه الأراضي إلى قسمين: الأول: وهي الأراضي المتروكة لعام الناس مثل الأراضي التي تقع فيها المقابر والتي تُشَيِّد فيها الجسور والطرق والساحات العامة، أما القسم الآخر (الثاني) وهو ما خُصَّص للمراعي ومناطق الغابات والأحراش والتي يستفاد منها عامة الناس كالحطب وغيره، وكذلك تلحق بها أراضي الأسواق العامة وغيرها<sup>(٢)</sup>.

#### هـ - أراضي الموات:

عادة ما تكون هذه الأراضي قليلة ومحدودة في القدس؛ إذ تشتمل على أراضي خالية من العمران بعيدة عن مركز المدن والنواحي، وتتمثل بالأراضي الجبلية والتلال والصحراوية التي عادة ما تكون ذات أهمية للرعي، وهذه الأراضي لا يسمح بملكها إلا بإذن من السلطان، إلا في حالة إحيائها من قبل السكان بعد أن كانت ميتة<sup>(٣)</sup>.

#### و - الأراضي الملك:

إن هذه الأراضي لا تشمل إلا نسبة صغيرة من أراضي القدس، وتكون هذه الأراضي ملكاً خاصاً لأصحابها، وتشتمل على أجزاء كبيرة من الأراضي التي تُشَيِّد عليها بيوت أهالي مدينة لواء القدس، والتي تكون ماحطة بمساحات محدودة من الأراضي التي تزرع فيها بعض أشجار الفواكه والخضروات، وكان يطلق على هذه المساحات المحدودة والضيقة بالحواكير<sup>(٤)</sup>،

(١) المصدر نفسه.

(٢) محمد سليمان: قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في أرض فلسطين، مجلة صامد الاقتصادية، العدد (٣٣)، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٨.

(٣) وليد العريض: تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، العدد (١)، المجلد (٢٤)، ١٩٩٧م، ص ١٣.

(٤) سيار كوكب الجميل: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٩٤.





فضلاً عن وجود أملاك للأهالي من المقدسين قريبة من الحرم القدسي كالمحلات والدكاكين الصغيرة والحمامات، وقد توزعت حول بيت المقدس أحياء صغيرة تعود لمليكتها للسكان الأصليين من أهالي القدس يقارب أكثر من ثلاثين محلة وخان، وعلى الرغم من التنوع السكاني في هذه المناطق إلا إن الغالبية العظمى منها للمسلمين<sup>(١)</sup>.

#### ز - أراضي الملكيات الفردية:

بعد الفتح العثماني، تركت هذه الأراضي بيد أصحابها على شرط دفع ضريبة العشر، أو الخراج عنها، والمقصود بالأراضي المملوكة أي الحق لأصحابها بالتصرف في بيعها أو وقفها أو توريثها، وقد قسمت إلى قسمين من الأراضي سُميت الأولى بالأراضي العشرية وهي التي تم توزيعها عند الفتح العثماني، أما القسم الثاني: سمي بالأراضي الخراجية أي يدفعون عنها الخراج، وعادة ما تبقى هذه الأراضي في أيدي أصحابها من سكان المدينة طالما ظلوا محافظين عليها لغرض زراعتها والاستفادة منها<sup>(٢)</sup>.

#### ح - أراضي الوقف:

من حيث العموم، فإن الأراضي الوقفية تقسم إلى قسمين، القسم الأول: يسمى المسقوفات، ويقصد بها الأراضي المشيد عليها الأبنية المخصصة للوقف، والقسم الثاني: تسمى المستغلات، والمقصود بها الأراضي التي يتم استخدامها لأغراض الزراعة بصورة عامة، أما من الناحية الشرعية، فقد قسم الوقف إلى قسمين أيضاً، ويسمى الأول: أراضي الوقف الصحيح، وهي التي كانت مملوكة ثم أوقفت وفقاً شرعياً<sup>(٣)</sup>، وتعود هذه الأراضي إلى الشخص الواقف وله حق التصرف بها فقط عن طريقة مباشرة أو من يقوم بتحويله، وأما

(١) عماد الجواهري: حيازة الأرض، ص ١٢.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط ٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ص ٤٧-٤٨.

(٣) وليد العريض: تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، ص ١٣.

الثاني: فيسمى أراضي الوقف غير الصحيح، وهو ما أوقفه السلطان للأعمال الخيرية من الأراضي الأميرية التي تكون عائدتها لبيت المال<sup>(١)</sup>، وأن مساحات واسعة من هذه الأراضي في فلسطين موقوفة من هذا النوع من مناطق متعددة، ولها أهمية من الناحية الاقتصادية، ومنهم من قسم أراضي الأوقاف إلى أراضي أوقاف خيرية، وهي التي تدفع العشر إلى الخاص السلطاني، ومنها ما يسمى بأراضي الوقف الذري، وهي أيضاً تدفع العشر، وهذه الصيغة من الوقف موجودة في نظام الأوقاف في كافة بلاد الشام من قبل الفتح العثماني، سوى الأراضي المحبسة والموقوفة على الحرمين الشريفين، فإنها تعفى من ضريبة العسر<sup>(٢)</sup>.

### الضرائب والرسوم:

اهتم العثمانيون بموضوع الضرائب وطرق جبايتها في المناطق التي خضعت لسيطرتهم، لكون موضوع الضرائب كان المورد الأساسي لخزينة الدولة، فضلاً عن أن هذه الضرائب هي الدليل على الاعتراف بالسيادة العثمانية على الذين يدفعونها، وقد تنوعت تلك الضرائب والرسوم التي كان يؤديها أهالي لواء القدس للدولة ومنها ما كان يفرض على الأراضي والمحاصيل الزراعية، ومنها ما يفرض على الأشخاص، ومنها ما كان على الحيوانات والبضائع<sup>(٣)</sup>، أما الرسوم، فكانت تفرضها الدولة على المعاملات المختلفة، ومن الملاحظ أن الدولة العثمانية قد أولت هذا الموضوع اهتماماً خاصاً كونه مورداً أساسياً للخزينة، ولا يستثنى منه سوى سكان مدينتي القدس والخليل وإعفائهم من أنواع الضرائب أحياناً، لما إلى هاتين المدينتين من قدسية عند المسلمين عامة<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) أحمد تحسين عبد: القدس في العهد العثماني (١٥١٦-١٦٤٠م) دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م، ص ٧٧.
- (٢) المصدر نفسه: ص ٧٧-٧٨.
- (٣) فلاديمير لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة: عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١م، ص ١٤-١٥.
- (٤) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، ط ١، الدار الوطنية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٠٢.

ويمكن تقسيم هذه الضرائب والرسوم إلى عدة أنواع:

#### ١ - الضرائب المفروضة على الأراضي:

تقسم الضرائب المفروضة على الأرض إلى قسمين، الأول: الخراج، ويقصد به الضريبة المفروضة على ما تنتجه الأرض من محاصيل وعادة ما تدفع هذه من قبل الفلاح إلى سيده الإقطاعي، والذي يقوم بدوره ودفعها لخزينة الدولة، أما القسم الثاني: فهو ما يسمى العشر: ويقصد به هو الضريبة التي يدفعها المسلم من مزروعاته أي ما يعادل نسبة ١٠% من ناتج الأرض<sup>(١)</sup>.

#### ٢ - الضرائب المفروضة على المحاصيل الزراعية:

تنوع تحصيل الضرائب والرسوم حسب تنوع المحاصيل الزراعية في لواء القدس، وكانت تجبى الضرائب من قبل موظفين خاصين بهذا الشأن<sup>(٢)</sup>، وقد اشتهر لواء القدس بمحاصيل متنوعة، ومنها الحبوب مثل القمح والشعير وتدفع (٤) أقباجات عن كل حمل جمل، وأقبجتين عن حمل البهيم (والبهيم هي الحمير التي تنقل الأحجار)، وتسمى هذه الرسوم رسوم عرصة الغلال<sup>(٣)</sup>، ويستوفي عند التسويق.

أما ضريبة الزيتون، تكون على شكل نظامين في استحصال الجباية حسب نوعية الزيتون، فالزيتون الروماني يكون (٥٠%) من المحصول للإقطاعي، و(٥٠%) للفلاح<sup>(٤)</sup>، أما بقي أشجار الزيتون والتي تسمى الإسلامي فتدفع كل شجرتين أقبجة واحدة، وكذلك العنب، فكان يدفع عن كل مائة شجرة من العنب (٤) أقباجات في مزارع المسلمين و(٦) أقباجات عن كل مائة شجرة يزرعها غير المسلمين من الفلاحين في لواء القدس، وهناك ضرائب تدفع عن

(١) فلاديمير لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ص ٢٦.

(٢) محمد سهيل طقوس: العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (١٢٩٩ - ١٩٢٤م)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٦٦.

(٣) عرصة الغلال: ساحة الغلال. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة منقحة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٤٤٦.

(٤) كامل العسلي: القدس تحت حكم العثمانيين، الحلقة الأولى، مجلة القدس الشريف، العدد (٥٦)، السنة الرابعة، ١٩٨٩م، ص ١٨.

أشجار التوت والتين لكل أربع أشجار أفجة واحدة، أما الضرائب عن أشجار الجوز المثمر والمشمس فتدفع أفجتان عن كل شجرة جوز، وعن كل خمس أشجار مشمس أفجة واحدة<sup>(١)</sup>.

### ٣ - الضرائب المفروضة على الفلاحين:

اختلفت الضرائب المفروضة على الفلاحين من منطقة إلى أخرى، وتفرض هذه الضرائب على الناس من الفلاحين الساكنين في الأراضي الزراعية من المتزوجين، وتسمى (البنك) والنوع الآخر منها يسمى ضريبة المجرى في الأعزب؛ إذ تفرض على المتزوج مقدار (١٢) أفجة والأعزب (٦) أفجات سنوياً<sup>(٢)</sup>، وهناك ضرائب فرضت على أهالي القرى وبعض القبائل البدوية الذين لم يستقروا في أماكن معينة أحياناً، وتختلف من فصل إلى فصل، وبلغت (٦) أفجات للمتزوج و (٣) أفجات بالنسبة للأعزب، وكانت تؤخذ أيضاً من أصحاب قطعان الماشية، والذين يستخدمون المراعي لأغراض الرعي في الأراضي السباهية، فإنهم يدفعون رأس غنم عن كل مائة رأس سنوياً أو ما يعادلها<sup>(٣)</sup>.

### ٤ - الضرائب المفروضة على الحيوانات:

كانت الضرائب التي تفرض على الحيوانات التي يستخدمونها للركوب والنقل مثل الجمال والحمير والخيول والبغال، والحيوانات التي يربونها مثل الماشية، وتدفع عن كل رأس غنم نصف أفجة، والماعز كذلك، أما الجواميس والأبقار، فتدفع ضريبتهما بمعدل (٦) أفجات عن كل رأس من الأبقار أو الجاموس، وكذلك كانت هناك ضريبة تدفع عن تربية خلايا النحل من السكان، والتي بلغت أفجة واحدة عن كل خلية نحل، إلا إن هذه الضرائب بدأت تتخفف في النصف الأول من القرن السادس عشر؛ وذلك بسبب تهرب السكان من دفع هذه

(١) عبد العزيز محمد عوض: القدس وسياسة الدولة العثمانية (١٨٧٤م - ١٩١٨م)، من بحوث ندوة

القدس بين الماضي والحاضر، جامعة البتراء، الأردن، ٢٠٠١م، ص ٢٣.

(٢) إبراهيم رضوان الجندي: التجارة والرسوم الكمركية في فلسطين، مجلة آفاق عربية، العدد (٦)، السنة السادسة، ١٩٨٠م، ص ٥.

(٣) محمد حسين محاسنة وآخرون: تاريخ مدينة القدس في العهد العثماني، مكتبة الفلاح، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٨٨.

الضرائب؛ وسبب هذا التهرب من دفع الضرائب هو التناقص الذي حصل في قطاع المواشي وقلة تربيتها من قبل السكان، أما المواشي والحيوانات المستخدمة للركوب والنقل، فكانت معفاة من الرسوم والضرائب، ما عدا الحمير عند بيعها والطيور كذلك<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - الضرائب المفروضة على المنشآت في الأراضي الزراعي:

هناك ضرائب تفرض على بيوت الفلاحين ومنازلهم المشيدة على أراضي تعود ملكيتها للدولة، وتسمى رسم المزرعة<sup>(٢)</sup>، والتي تؤدي عن كل دار أو مزرعة أو عائلة والأرض التي تقوم بفلاحتها، وعادة ما تكون هذه الرسوم ما يقارب (٥-٨) أجرة سنوياً، ومن هذه الضرائب أيضاً ضريبة الطواحين (رسم أسباب) تجبي عن الطواحين المائية والهوائية ومعاصر الزيت<sup>(٣)</sup>، وتؤخذ منهم حسب المواسم الزراعية وتتراوح من (١٥-٦٠) أجرة سنوياً، وهناك ضريبة أو رسم يؤخذ من السكان ويسمى رسم الزواج عند زواج الفلاح من ابنه السباهي يدفعه العريس نقداً، ويقدر ذلك حسب حالة العروس إن كانت أرملة أو بكرًا وكانت مسلمة أو غير مسلمة أو جارية أو حرة، وذلك يقدر حسب الحالة الواقعة<sup>(٤)</sup>.

ومما سبق، نلاحظ تمكن سكان القدس من التغلب على كل جميع المشكلات التي مرت بهم في المجال الزراعة ولاسيما قلة مشاريع الري، مما ولد لديهم تحدٍ كبير أسهم في قيام حركة زراعية نشطة معتمدين على مياه الآبار والعيون التي حفروها، كذلك اعتمادهم على الظروف المناخية السائدة في مدينتهم وطبيعة الأرض؛ الذي أدى بطبيعة الحال إلى تنوع المحاصيل الزراعية في المدينة.

(١) شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠١م، ص ١١٨.

(٢) عبد العزيز محمد عوض: القدس وسياسة الدولة العثمانية، ص ٢٣.

(٣) رضا عبد الحميد عرابي: الكافي في تاريخ القدس، دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر، دار الأوائل دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٨٢.

(٤) جاسر علي العناني: القدس دراسات قانونية وتاريخية، منشورات أمانة عمان الكبرى، الأردن، ٢٠٠٠م، ص ٥٣.



### المبحث الثاني: الصناعة

كان للصناعة الأثر الواضح على النشاط الاقتصادي في القدس، وبدل ذلك على أنه من المؤشرات الإيجابية لمجتمع القدس وطبيعة توجيهاته، وقد اعتمدت الصناعة في القدس على المواد الخام التي تدخل في الصناعة والمتواجدة في المدينة والقرى المجاورة لها؛ إذ قامت هذه الصناعات على ما تنتجه أراضي القدس من عدة نوعيات مختلفة من المنتجات الزراعية كالزيتون والسّمسم والعنب والحبوب وغيرها من النباتات التي لها علاقة بالصناعات الأخرى كالأعشاب الطبية<sup>(١)</sup>، فضلاً عن تملك بعض التجار لمصانع صغيرة بدائية لها علاقة بالمنتجات الغذائية التي يقومون بصناعتها في القدس، مما يجعلهم يستوردون بعض المواد مثل الحديد والنحاس الذي يدخل في صناعة أواني تصنيع زيت الزيتون ومعامل الصابون، والمطاحن، ومصانع الجص، ومن الملاحظ أن هذه الصناعات قد تعددت، فمنها ما يصنع لسد الحاجة والاستهلاك المحلي كصناعة المواد الغذائية وغيرها من الصناعات الحديدية والخشبية، والقسم الآخر ما يصنع للتصدير ومن أهمها صناعة الصابون الذي ازدهرت صناعته بشكل ملحوظ في القدس، والذي يعتمد بالدرجة الأساس على مادة زيت الزيتون ومادة البلس التي تستورد من الدول المجاورة مثل الأردن وغيرها وهي عنصر أساس في صناعة الصابون<sup>(٢)</sup>.

وقد ساعد انتشار ووفرة الثروة الحيوانية في المدينة على ازدهار صناعة الألبسة لوفرة المواد اللازمة من أصواف هذه الحيوانات واستخدامها في الصناعات النسيجية والتي وفرت الكثير على هذه الصناعات واعتمادها على المنتج المحلي في مدينة القدس<sup>(٣)</sup>.  
ومن الجدير بالذكر، إن هناك صناعات أخرى في مدينة القدس الشريف، وقد تكون لهذه الصناعات علاقة بقدسية هذه المدينة، حيث يوجد المسجد الأقصى المبارك ومسجد قبة

(١) فاضل بيات: دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، دار

المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٨٤.

(٢) رضا عبد الحميد عرابي: الكافي في تاريخ القدس، ص ٨٣.

(٣) عماد الجواهري: حيازة الأرض، ص ١٢.



الصخرة وكنسية القيامة، التي ساهمت في ظهور صناعات محلية تتلاءم مع أذواق الحجاج من زوار مدينة القدس من المسلمين والنصارى واليهود كالمسابح وأنواع الصدفيات التي اشتهرت بها المدينة المقدسة<sup>(١)</sup>.

ومن أهم هذه الصناعات هي:

أولاً: صناعة الأغذية:

أ - صناعة زيت الزيتون والصابون والتحف والصدفيات:

تعتمد هذه الصناعة بالدرجة الأولى على شجرة الزيتون التي انتشرت زراعتها في مدينة القدس الشريف والقرى المجاورة، ومن عوامل نجاح هذه الصناعة هي وفرة كميات كبيرة من مادة زيت الزيتون، والذي يستخرج على نطاق واسع من المدينة وقراها، وتدخل في صناعة الصابون كمادة أساسية هي زيت الزيتون، ومادة القلي المستوردة من البلقاء في الأردن وتسمى مادة (البلس)، ونستخرج هذه المادة من أعشاب يطلق عليها (الاشناق)، إذ كانت تجمع هذه المادة وتحرق في أماكن خاصة بها، ويستخدم رمادها بإضافة على مادي أخرى تسمى الملح والصودا التي تستورد من البحر الميت، وعادة ما توضع مواد أخرى عطرية لتعطي لهذه المنتج رائحة زكية كالمسك وغيرها، وعلى الرغم من أن هذه الصناعة كانت بدائية وتقتصر على معامل محلية، إلا أنها اشتهرت ليس محلياً، فحسب بل اشتهرت في بلدان مجاورة عن طريق الحجاج، وكذلك تصدير هذه المادة عن طريق التجار<sup>(٢)</sup>.

انتشرت مصانع الصابون في مدينة القدس، وكانت تسمى (المصابين)، التي لم يتجاوز عددها التسع مصابن، وتعود ملكية هذه المصابن لأوقاف القدس وبعض كبار التجار والموظفين، والبعض الآخر منها يعود إلى أبناء المنتفذين من أهالي مدينة القدس، ومن

(١) نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦ - ١٥٧٤م)، ترجمة: يوسف عطا الله، ط١، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٢٣.

(٢) أحمد محمد الربابعة: الصناعات في فلسطين في العصور الحديثة، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام - فلسطين، ط١، عمان، ١٩٩٣م، ص ١١٧.



العائلات المعروفة التي تمتلك هذه المصانع مثل مصبغة محمد أمين الدقاق في سوق الزيت ومصبغة مصطفى خليل عبدالنبي في زقاق دير السلطان، وفي باب العمود مصبغة محمد شاهين وغيرها أعداد أخرى<sup>(١)</sup>، ومن أشهر المصابين هي المصبغة الباشوية في حارة السيدية في القدس، وتمتلك مثل هذه المصانع الأولوية وهي عائلة الخالدي وعائلة الدجاني وعائلة الحسيني، وفي عام ١٧٧٣م تطورت هذه الصناعة مما جعل البعض من أصحاب هذه المصابين من استيراد مصانع جديدة ومتطورة الغرض منها زيادة وتحسين الإنتاج المحلي لهذه المادة، والتي تمثلت بعائلة أحمد أفندي وفيض الله أفندي<sup>(٢)</sup>.

والى جانب هذه الصناعة ظهرت صناعات أخرى لها علاقة أيضاً بشجرة الزيتون والاستفادة من أخشابها وهي صناعة التحف والصدفات والتي لا تزال منتشرة إلى عصرنا هذا، ومنها المسابح (السيح) والتحف الكبيرة وصناديق الزينة ولعب الأطفال والصلبان المصنعة من أخشاب الزيتون التي اقتصت بها بعض الأديرة في مدينة القدس، مثل مناطق بيت سامور وبيت لحم، وكانت لهم هذه الصناعة مصدر كبير بالنسبة للواردات من هذه الصناعة للنصارى، ولما لهذه المدينة من قدسية، فإن أغلب الوفود التي تأتي للزيارة إلى القدس يقتنون هذه التحف لأجل التبرك بها، فضلاً عن أنها تصنع من أشجار الزيتون المباركة<sup>(٣)</sup>.

وكانت تصنع أشياء أخرى في هذه المدينة من أشجار الزيتون مثل التماثيل التي تمثل السيدة العذراء والصلبان الكبيرة؛ إذ يعدونها من الأشياء المقدسة عندهم وتباع للأديرة والكنائس بأسعار عالية<sup>(٤)</sup>.

(١) أحمد محمد الربابعة: الصناعات في فلسطين في العصور الحديثة، ص ١١٧.

(٢) ليلى الصباغ: فلسطين بشرياً اقتصادياً اجتماعياً، ط ١، دار المصائر، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٩٣.

(٣) سميح فرسون: فلسطين والفلسطينيون، ترجمة: عطا الله عبد الوهاب، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٦٢.

(٤) رؤوف سعد: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين (١٩-٢٠م)، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٢١.





### ب - صناعة زيت السمسم والدبس والخمور والزبيب:

تتحصر هذه الصناعات الغذائية في أهم موردين من المحاصيل الغذائية وهي السمسم والعنب، ويرتبط بمحصول السمسم عدة صناعات وأهمها زيت السمسم والحلاوة والطحينية، وأن أغلب مزارع السمسم موجودة خارج مدينة القدس؛ إذ يقوم أصحاب معاصر السمسم بنقله إلى هذه المعاصر قرب المدينة، تتكون المعصرة من مخزن لتخزين هذه المادة وساحة وتور لتحميص السمسم ثم المعصرة التي تقوم بعصر مادة السمسم، ويسمى الشخص الذي يعمل بالمعصرة المعصراني، وأن أغلب مباني هذه المعاصر تعود لأوقاف القدس حسب ما موجود في سجلات مدينة القدس<sup>(١)</sup>، وهناك حارات اشتهرت بوجود هذه المعاصر وهي: حارة باب العمود فيها معصرة الحاج هير الدين عبدالرزاق، ومعصرة محمد ابن الحموي، وكذلك حارة اليهود فيها معصرة الحاج يوسف الدقاق، وحارة القطنين فيها معصرة الحاج خليل شيخ طائفة المعاصرة في باب القطنين، وحارة الريشة فيها معصرة الحاج محمد الداقر ومعصرة الحاج أحمد الدقاق، وحارة النصارى فيها معصرة الحاج عثمان بن موسى ومعصرة الحاج صلاح بن صبيحة، كما انتشرت صناعة الحلاوة التي تعتمد في صناعتها على مادة السمسم بالدرجة الأولى، وكانت هناك محلات ودكاكين منتشرة في مدينة القدس تعود معظمها للأوقاف وبعض الأشخاص المنتقذين في المدينة مثل الشيخ خليل الدين والفتيانى زاده عبداللطيف زحيان، وأن أغلب هذه المعاصر تنتشر في حارة اليهود وحارة الريشة في المدينة القديمة في القدس<sup>(٢)</sup>.

وهناك صناعات ارتبطت بالعنب مثل الخمور والتي انتشرت صناعتها في مناطق محدودة لاسيما حارات النصارى واليهود، وكان من أفضل أنواع العنب الذي يستخدم في صناعة الخمر هو من منطقة الخليل التي كثرت فيه هذه النوعيات، وقد عمل أهل الذمة من النصارى واليهود فقد ذكرت سجلات إدارة القدس أن هناك بيتاً يملكه شخص نصراني أطلق عليه بيت العصاره، وهي تسمية تطلق على أهل الذمة الذي يقومون بهذه الصناعة<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد محمد الربابعة: الصناعات في فلسطين في العصور الحديثة، ص ١١٩.

(٢) محمود عبد الفيصل: الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٨١.

(٣) عبد العزيز محمود: الخانات والأسواق في فلسطين - عرض تاريخي - اقتصادي - عمراني، مجلة البيان، العدد (١)، المجلد (٢)، عمان، ١٩٩٩م، ص ٨.



وكذلك اهتم أهل القدس بصناعات أخرى مثل الدبس والزبيب، كانت هذه الصناعة قد بدأت في مناطق مختلفة من القرى المجاورة لمدينة القدس، واعتمدت على العنب لاستخدامه في استخراج الدبس الذي يُعدُّ مادة أساسية يستهلكها السكان لاسيما في أيام الشتاء، والتي يعتمد عليها جسم الإنسان بأخذ سرعات حرارية لازمة للجسم، وكانت تسمى هذه الأماكن لصناعة الدبس بـ (المدايس)، التي كان يصنع بها الزبيب الأحمر ويهرس في أحواض ويستخرج منه الدبس، وكان عدد المدايس في المناطق المجاورة للقدس عدد (٩)، واقتصرت مدينة القدس في المركز سوى مصنع واحد لهذه الصناعة، كما إن لكروم العنب استفادة أخرى في صناعة العصائر والمشروبات المثلجة التي اشتهرت في القرن السابع عشر الميلادي<sup>(١)</sup>.

### ج - صناعة الحبوب والحلويات:

تُعدُّ الحبوب من المصادر الرئيسة والمهمة لسكان مدينة القدس، وانتشرت هذه الصناعة في القدس والمدن المجاورة لها، ألا وهي طحن الحبوب لاسيما مادة القمح، التي تُعدُّ عنصراً أساسياً في صناعات محلية كثيرة لا تنحصر بنوع معين، إلا إن أبرزها هي صناعة الحلويات واقتصرت مطاحن الحبوب في مدينة القدس على أبناء العائلات المقدسية المعروفة وكبار الموظفين والتجار والأوقاف، وقد تركزت هذه الصناعة في أحياء البلدة القديمة من القدس وبعض الخانات التي تعود ملكيتها للأوقاف، ومن هذه الأماكن مثل باب العمود، وباب حطة، وحارات اليهود الأخرى وحارات النصارى، ظلت هذه الصناعة لها طابعها الخاص والتميز في مدينة القدس، وفي بداياتها الأولى، استخدمت الحيوانات مثل الأبقار والحمير والجمال في هذه المطاحن، إذ كانت تدار المطحنة بواسطة هذه الحيوانات إلا إنها تطورت في أزمنة لاحقة من حيث الآلية وطريقة العمل<sup>(٢)</sup>، وتركزت في مناطق أهمها السوق الكبير في القدس القديمة ومنطقة باب العامود وهي المغاربة وغيرها كثير مثل حارة النصارى، وقسم

(١) فاطمة الطراونة: الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية، ص ٤٣.

(٢) حسين سلمان سليمان: الحرف الصناعية الشعبية في صيدا منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام (١٥١٦ - ١٨٣٢م)، مجلة تاريخ العربي والعالم، العدد (١٢٣ - ١٢٦)، السنة (١١)، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٦٣.



كبير يعود للأوقاف، ومن أشهر مطاحن المدينة التي بلغ عددها ما يقارب السبعين مطحنة، هي مطحنة المعلم أبو الخير الطحان في السوق الكبير وطاحونة الحاج خليل بن طعمة في باب العامود، وطاحونة المغاربة في حي المغاربة، وطاحونة القلعة في مركز المدينة قلعة القدس، وعلى الرغم من قلة المطاحن في القرى المجاورة لمدينة القدس أخذ سكان هذه القرى بجلب الحبوب إلى مركز المدينة لغرض طحنها والاستفادة منها لأغراضهم المنزلية، فضلاً عن أصحاب الأفراد والمخابز المتوزعة في المدينة واستخدامهم لمادة الطحين التي تدخل في صناعات عديدة<sup>(١)</sup>.

وقد اعتمدت الأفراد والطواحين على مادة الطحين الذي يصنع منه الخبز على اعتباره المادة الأساسية ومن الضروريات لسكان القدس، وتتنوع هذه الأفراد في إنتاجها لأنواع مختلفة من الخبز ومنها الخبز الطابوني والخبز الماوي والخبز الأرمني وخبز الفطير والساموني وغيرها كثير من الأنواع، وقد حرصت السلطات العثمانية على التزام أصحاب الأفران بتوفير مادة الخبز لسد حاجة سكان أهل المدينة يومياً؛ إذ إن هذه الأفران توزعت في حارات ومحلات وأسواق المدينة، وأحياناً تكون ملحقة ببعض البيوت، ومن أبرز هذه المناطق التي اشتهرت بها هذه الأفران، ومنها: فرن المعلم أبو رمضان في حي المغاربة، وفرن وطابونة المعلم خليل الديبك في السوق الكبير، وفرن وطابونة الحاج عمر بن عباس، وطابونة المعلم إسماعيل بن شيخ السوق أيضاً في السوق الكبير، وفرن ناصر الطحان في حي المغاربة، وفرن السعدية في حارة السعدية، وفرن عائلة الخالدي في حارة اليهود، وقد بلغ عدد هذه الأفراد ما يقارب (٤٠) فرنًا، وعادة ما تنتشر الأفران في المدن، أما النوع الآخر من الأفران والذي يُسمى الطابون ينتشر غالباً في القرى والأرياف لكون صناعته تعتمد على الحطب في أشجار الشاي وغيره، ونتيجة لانتشار هذه الأفران، تزايد الطلب على إنتاج مادة الطحين المحلية وتزويد ما يسد الحاجة المحلية لمركز المدينة وأطرافها<sup>(٢)</sup>.

(١) خالد تحسين علي: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٨٦.

(٢) محمد صبحي وآخرون: الموارد الاقتصادية في الوطن العربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٤٣.



### ثانياً: صناعة الألبسة:

اعتمدت هذه الصناعة في بدايتها على مواد القطن والصوف والكتان، وقد اقتصرت على عملية الحياكة في مناطق محددة من مدينة القدس الشريف، مثل حارة باب العمود، وحارة باب حطة، وحارة المغاربة، وحارة النصارى، ومحلة الصمصام، وتُعدُّ مدينة القدس من أقدم المدن في فلسطين والتي اشتهرت في صناعة المنسوجات القطنية والصوفية، وقد ساعد على انتشار هذه الصناعة وفرة مواد القطن والصوف والكتان في القدس نتيجة جلبها من مزارع القدس والقرى المجاورة لها، ولهذه الأسباب تركزت صناعة النسيج في القدس، واشتهرت بها، وأصبحت ملابس السكان هناك متنوعة عكست مظاهر التمايز الاجتماعي مثل نوع الملابس وجودتها وأسلوب حياكتها، واتخذت منها مقاييس للتمييز بين ملابس الفقراء والأغنياء<sup>(١)</sup>، وقد قيل إن الأغنياء في القدس يلبسون القنباز المصنوع من الجوخ الأصلي الذي يعتمد على مادة الصوف بالدرجة الرئيسية، ومن الملابس التي اشتهر بها الثياب المنسوجة من الصوف والتي تعرف بالجلالي، وفي القدس القديمة يقع سوق القطانين وسوق الحلاجين الذي يعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن، ولم تقتصر هذه المهمة على فئة معينة من الناس، بل عمل بها المسمون وأهل الذمة من النصارى، وكذلك دكاكين الحياكة والغزل التي هي من أشهر المهن في المجتمع المقدسي، وكانت الآلة المستخدمة في هذه المهمة تسمى (النول) وهي الخشبية التي يلف عليها المنسوج<sup>(٢)</sup>.

والى جانب هذه المهنة، ارتبطت بها صناعة أخرى وهي مهنة الصباغة؛ أي صبغ الأقمشة المصنوعة بالألوان المختلفة، وكانت تعتمد على مواد أولية تستخدم في الصباغة محلية الصنع مثل حبوب العفص والورس والزعفران وقشور الرمان، والنيلة، وغالباً ما يستخدم معها الماء ومحاليل أخرى<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد محمد الربابعة: الصناعات في فلسطين في العصور الحديثة، ص ١١٢.

(٢) بهجت حسين صبري: لواء القدس تحت الحكم العثماني (١٨٤٠م - ١٨٧٣م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م، ص ٨٦.

(٣) حسين سلمان سليمان: الحرف الصناعية الشعبية، ص ٦٣.



أما الصبغة الرئيسية التي كانت تستخدم في هذه الصناعة ألا وهي صبغة النيلة ذات اللون الأزرق وهي الأكثر شعبية في مدينة القدس؛ إذ يتزايد الطلب عليه، وكانت تجلب هذه المادة (النيلة) من مصر وبكميات محدودة ولعدم احتكارها من قبل أصحاب المصانع فقد اتفقوا على توزيعها بالتساوي فيما بينهم، وقد بلغ عدد أماكن صيغ الأقمشة والمنسوجات في مدينة القدس في عام ١٦٩٠م ما يقارب (١٤) مصبغة؛ إذ توزعت على أماكن مختلفة من الخانات، مثل: مصبغة خان الفحم، ومصبغة خان الشعارة، ومصبغة رجب خليل جاويش في حارة اليهود، ومصبغة زغول الصباغ<sup>(١)</sup>.

لقد كانت هذه المصابغ توفر مجال عمل لأعداد كبيرة من الناس من أهل القدس، وغالب هذه الأماكن تعود إلى أوقات مسجد قبة الصخرة وأوقات المدرسة الكريمة في السوق القديم، وهناك مصبغة موسى خليل بحارة اليهود ضمن أوقاف المدرسة الصلاحية في السوق القديم، وتشير المصادر بأن اليهود هم أول من امتهنوا صناعة الصباغة منذ القرن الثاني عشر حتى العهد العثماني، وكان من أمهر الصباغين اليهود موسى بن داود والنصراني أنيس ولد أوسغد الأرمني، وإلى جانب مهنة الحياكة والصباغة، اتخذ البعض من يقومون بهذه المهنة وهي القصار، وهي تنقية القماش من الأوساخ والألوان العالقة به ثم يقصر لونه أي يبيض ويترك معرضاً لأشعة الشمس والهواء حتى يجف لغرض صباغته بألوان أخرى مختلفة وعرضه في الأسواق<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: صناعات منزلية:

تنوعت النشاطات الاقتصادية في صناعة المواد المنزلية وهي من الحاجات الضرورية في حياة المجتمع المقدسي، والتي عدت من السلع المنزلية الاستهلاكية، والتي لم تقتصر على نوع معين من البضائع، وهذه الصناعات تطورت مع التطور السكاني لمدينة القدس وحسب الحاجة إليها.

(١) حسين سلمان سليمان: الحرف الصناعية الشعبية، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.



## ومن أهم هذه الصناعات:

### أ - الصناعات المعدنية:

اهتم سكان القدس من الحرفيين بهذه الصناعة التي شكلت عنصراً مهماً ضمن الصناعات التي انتشرت في مدينة القدس، وقد استخدم أهالي القدس النحاس في صناعة الأدوات النحاسية والأواني المنزلية مثل الصحون والصواني النحاسية وحل الماء التي تستخدم في الحمامات، كما استخدم النحاس في صناعة القدور التي تستخدم كأواني طبخ عامة والتي تكون أنواع متعددة الأحجام من القدور ودلات القهوة، كما استخدموا النحاس في صناعة الأواني الكبيرة التي تستخدم في الصناعات المحلية في المعامل الصغيرة، كمعامل الصابون والمعاصر التي انتشرت في هذه المدينة، كما اشتهر البعض من سكان القدس بمهنة النقش والطرق على النحاس والزخرفة، بأشكال مختلفة على النحاس، وإلى جانب هؤلاء النحاسين، وجدت مهنة ترتبط بصناعة النحاس وهي تبييض النحاس، وسُميت بطائفة المبيضين الذين يقومون بتبييض الأواني بين آونة وأخرى للحفاظ عليها من الصدأ والتآكل، وكان عدد من عمل بمهنة تصنيع وتبييض النحاس ما يقارب (٢٥) شخصاً أغلبهم من المسلمين والبقية من النصارى<sup>(١)</sup>.

وهناك جِرف أخرى مهمة ارتبطت بصناعة المعادن، وهي صياغة الذهب والفضة، ومن أكثر ما اشتهر بها من أهالي القدس هم اليهود والنصارى الذين اهتموا بإنتاج نماذج مختلفة وعديدة من معادن الذهب والفضة مثل الأساور والخواتم والسلاسل الذهبية والخلخيل والأقراط، وقد امتهن هذه الصنعة عدد محدود في مدينة القدس، إلا إن هناك من اشتهر بها على وجه الخصوص، وهم: عيسى جرجيس النصراني وحاييم خضر من اليهود، وكانت لهم دكاكين في المدينة القديمة في القدس تعود ملكيتها لأوقاف قبة الصخرة، ومن المعروف بأن صياغة مدينة القدس هي من أفضل ما تم صناعته، وقد اشتهرت بذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) عبدالكريم رافق: مظاهر التعليم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد (٤)، دمشق، ١٩٨٠م، ص ٣٩.

(٢) أحمد محمد الربابعة: الصناعات في فلسطين، ص ١١٢.



ومن الصناعات الأخرى التي اهتم بها أهالي مدينة القدس والتي لها علاقة بالتعددين الصناعات الحديدية كصناعة السيوف والسكاكين والخناجر، وهناك جانب آخر وهو صناعة الشبائيك والأبواب التي لها علاقة في عملية البناء للمنازل وغيرها، كما اهتم بصناعة الأغراض الزراعية مثل المحاريث والمجاريث والفأس، فضلاً عن صناعة أواني وخزانات كبيرة تتعلق بخزن المياه، وأكثر من اشتهر بهذه الصناعة هم النصارى الذي احترفوا هذه الصنعة، وكانت لهم أماكن انتشرت في مدينة القدس مثل حارة النصارى وحارة التبانة وغيرها، ومن الذين اشتهروا بهذه المهنة، هم: جرجيس ولد خليل النصراني، وسليمان ولد إيسان من النصارى أيضاً<sup>(١)</sup>، إلا إن مهنة السيوف والسكاكين اختص بها صناع مسلمون مثل درويش بن إبراهيم السيوفي، وهذه الصناعة كانت موجودة في عهود قديمة في القدس، إلا إنها تطورت وازدهرت أيام الدولة العثمانية من خلال نقل الخبرات الصناعية والعمرائية وتطويرها في مدينة القدس، والتي اتخذت طابعاً إسلامياً في الغالب من خلال الزخارف والفن العمراني الممزوج بالأوروبي<sup>(٢)</sup>.

#### ب - الصناعات الفخارية:

اشتهرت مدينة القدس في الصناعات الفخارية والتي كانت تستخدم لأغراض متعددة في منازل المقدسيين وغيرهم، ولم تقتصر على نوع معين من الصناعات الفخارية، وكان يسمى المكان الذي تصنع به الفخاريات بـ (الفاخورة)؛ إذ اعتمدت صناعة الفخار على مادة التراب وهو من نوعيات خاصة تستعمل في هذه الصناعة، وكان يصنع منه الصحن والمعاجن وأنايب المياه والأباريق والجرار وأواني أخرى، مثل: الأواني التي تزرع فيها الأزهار على أشكال مختلفة، وانتشرت في أماكن محددة في المدينة لا يتجاوز عددها عشرة فاخورات ومنها فاخورة البديري في حارة السعدية، وفاخورة البطامي في حارة باب حطة، وفاخورة الحرمة صفية في محلة السعدية، وكان على رأس هذه الطائفة الغواطيرية هو الشيخ صلاح الدين محمد الفاخوري، وهذه الألقاب جاءت نسبة إلى الصنعة التي يزاولونها<sup>(٣)</sup>.

(١) إحسان النمر: امتياز ولاية الشام في عهد آل عثمان، مطبعة الاقتصاد، نابلس، د.ت، ص ٩٣.

(٢) إحسان عباس: الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر الميلادي، مجلة المستقبل العربي، العدد (٦)، السنة الثالثة، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٤.

(٣) عبد العزيز نوار: التاريخ الحديث للشعوب في بلاد الشام في العهد العثماني، ص ٣٩.

ومن الملاحظ أن مدينة القدس اشتهرت بصناعة الفخار القاشاني، وهي عبارة عن ألواح من الطين تفخر وينقش عليها بالألوان الزجاجية المختلفة، وأقيم أول مصنع في القدس من قبل حرفيين وصنّاع ماهرين نقلوا هذه الخبرات عن طريق خبرات من إيران التي هي اشتهرت أيضاً بهذه الصناعة، وكان يستخدم هذا النوع من الفخار القاشاني لتعمير القباب والمنابر والواجهات في المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، ومساجد مدينة القدس الأخرى<sup>(١)</sup>.

### ج - صناعة الشمع:

كانت هذه الصناعة من الجرف التي عدّها المقدسيين من الصناعات المهمة في المدينة، وكان استخدامها رائجاً في ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، ويُعد الشمع المقدسي من أفضل الأنواع لاسيما عند الزوار والحاج النصارى الذي يعدوها مباركاً لما لهذه الأماكن من قدسية عندهم، فضلاً عن استخدامه في الكنائس والأديرة كإضاءة إلى جانب القناديل التي كانت تسرج بالزيت سواء كانت بالمساجد أو الكنائس، وكثير استخدام الشمع أيضاً في المنازل للإضاءة والزينة في المناسبات والاحتفالات الدينية والأعياد، وقد انقسم إلى نوعين، الشمع الدهني والشمع العسلي، ويُعد الشمع الدهني من أفضل أنواع الشمع كونه يصنّع من شحوم الأبقار والأغنام على اعتبار أن الدهون تضاعف النور، أما الشمع العسلي فيصنع من خلايا النحل التي كانت تنتشر في مدينة القدس أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أهمية هذه الصناعة إلاّ إنها لم تنتشر بشكل واسع في مدينة القدس سوى شماعتين في المدينة وسط السوق القديم في القدس، كان يملكها صنّاع نصارى وهم: إبراهيم بن خليل موسى، ومخائيل ولد خليل الذي كان هو شيخ طائفة الشماعين في مدينة القدس<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد الكريم رافق: مظاهر التعليم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني، ص ٣٩.  
(٢) أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، ط ١، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٦٥.  
(٣) حسين سلمان سليمان: الحرف الصناعية الشعبية، ص ٦٣.



#### د - صناعة الجلود:

اعتمد صناعة الجلوس بالدرجة الأساس على الثروة الحيوانية التي اهتم بها أهالي القدس والاعتماد على جلودها في صناعات عديدة لهذه الجلوس مثل صناعة الأحذية والأحزمة وسروج الخيل، وقد انتشرت صناعة الأحذية في مدينة القدس، بحيث كانت تصنع أجود أنواع الأحذية وإلى يومنا هذا وسُمي صانعوها بالإسكافية والبوابجية، وإلى جانب هذه الصناعة، ارتبطت بها مهنة الدباغة التي هي أساس هذه الصنعة، وقد وجد في مدينة القدس مدينتان تدبغ فيها الجلوس باستخدام ورق السماق الأحمر المطحون، كانت المدبغة الأولى في محلة النصارى، أما المدبغة الثانية في السوق القديم في الزردخانه، يقوم الدباغون بالاهتمام بجلود الحيوانات وتفتيحها لمدة ثلاثة أسابيع ثم تنقل إلى أماكن صناعة الأحذية وسروج الخيل وغيرها<sup>(١)</sup>.

أما سروج الخيل اقتصرت صناعتها على عناصر رومية لاسيما في عام ١٥٥٥م، كان من أشهرهم الحاج يوسف بن عبدالله السراج، في حين كان عدد الدباغين في عام ١٥٦٤م لا يتجاوز (١٥) شخصاً، كما انتشرت في القدس صناعة القباقيب المصنوعة من الجلود والخشب، ويسمى صانعوها بالقباقي، وفي الغالب، فإن هذه المدابغ تقع بالقرب من مصادر المياه كونها تعتمد بالدرجة الأساس على المياه؛ إذ تقع عادة قرب العيون والآبار، ولا يحق للشخص ممارسة هذه الحرفة إلا بالمكان المخصص له، وتستخدم في هذه الأماكن ما عدا الجلود آلات القطع والمواد التي تستخدم للدباغة والأوعية الكبيرة لاستيعاب كميات كبيرة من الجلود<sup>(٢)</sup>.

ونلاحظ أن الاعتماد الكلي في الصناعة على المواد الخام الزراعية الموجودة في المدينة الذي أدى إلى نشاط الحرف والصناعات المحلية التي كان يستخدمها السكان. وقد قامت

---

(١) رؤوف أبو جابر: المسيحية العربية في القدس متى بداية الحكم المصري في عام ١٨٣١م، عرض تاريخي موجز، أبحاث ودراسات في التاريخ العربي مهداة إلى ذكرى مصطفى الحيارى، عمان، ٢٠٠١م، ص ١٨٠.

(٢) عادل مناخ: أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠-١٩١٨م)، ط ٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٩٤.



الصناعات المختلفة من أجل سد الحاجة المحلية للسكان كصناعة الملابس أو المواد الغذائية والمنظفات؛ وذلك بالاعتماد على الموجود في المدينة من مواد خام.

### المبحث الثالث: التجارة

تعد التجارة في مدينة القدس هي من أهم الجوانب الاقتصادية، وهي عصب الحياة للأهالي من سكان المدينة لارتباطها بعدة أنماط استهلاكية، وكانت هناك ظروف وعوامل ساعدت على ازدهار التجارة أدت إلى الاهتمام من قبل التجار في مدينة القدس، ومن أهمها الموقع الجغرافي للمدينة والذي كان له الأثر الكبير في هذه الجانب التجاري المتميزة وهو وقوع القدس على طريق القوافل التجارية بين القاهرة ودمشق والحجاز، فضلاً عن السيطرة الكلية واستتباب الأمن من قبل السلطات في المدينة، وهذا الأمر أدى إلى الانتعاش الاقتصادي للقدس، كما اهتم العثمانيون بمدينة القدس وقيامهم بأعمال الصيانة والترميم لعدد كبير من المخازن والخانات الواقعة في المراكز التجارية والتي تستقبل أعداد من التجار الوافدين وحماية بضائعهم، كما إن لسياسة التسامح الديني التي استخدمها العثمانيون مع أبناء الطوائف الأخرى غير المسلمة له الأثر الواضح في تعايش أبناء هذه الطوائف واشتغال غالبية سكان المدينة في التجارة<sup>(١)</sup>.

#### أولاً: التجارة الداخلية في القدس:

اتسمت التجارة الداخلية لمدينة القدس والمناطق المجاورة لها بالانتعاش خلال العهد العثماني، واعتمدت في تجارتها على البضائع والسلع والمنتجات المختلفة التي تأتي من القرى والمدن المجاورة للمدينة، وشكلت القدس مركزاً تجارياً واسعاً يفد إليه التجار من هذه القرى والمدن لبيع منتوجاتهم الزراعية كالفواكه والخضراوات والمواشي والسمك والفحم، إلا إن الحنطة تجلب للمدينة من مناطق البدو المجاورة للقدس، أما البن والزجاج من مدينة الخليل، والبنور والأرهار وقسم من الفواكه من بلدة أريحا<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد حسين محاسنة وآخرون: تاريخ مدينة القدس، ط١، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م، ص٨٤.

(٢) سميح فرسون: فلسطين والفلسطينيون، ص٦٢.



وهناك أنواع مختلفة من البضائع والسلع المحلية تتوفر في أسواق القدس مثل زيت الزيتون والسيرج والحبس والحبوب والبهارات، ومن الفواكه المجففة كالزيت واليقطين، كما إن هناك صناعات محلية أخرى تعتمد على المنتجات الحيوانية مثل: الأجبان والألبان بكافة أنواعها، كانت تسوق مادتها الأساسية من القرى المجاورة للقدس لغرض تصنيعها إلى أنواع مختلفة، وعادة ما توضع هذه المنتوجات في أواني فخارية مختلفة ومناسبة لكل من هذه الأنواع لاسيما الزيت والسمن، فضلاً عن الحبوب مثل الأرز والحنطة والبهارات فتوضع في أواني مخصصة تسمى القفف، ومنها ما يوضع في علب خاصة أو أكياس مصنوعة من خيوش الخيش<sup>(١)</sup>.

فضلاً عن هذه الصناعات، فقد اهتم تجار مدينة القدس بتجارة بعض المواد التي تستخدم في بناء المنازل وتبييضها من الداخل وتسمى بمادة الشيد (البورك)، وكذلك اهتموا أيضاً بتجارة الأخشاب التي تستخدم في صناعات عديدة في المنازل وتصنيع التحف وغيرها، وكذلك نشطت تجارة الجلود في المدينة وغالبها من جلود الأغنام والإبل والبقر، وتجار جلود الماعز والجواميس لحاجة صناعة الأحذية إليها<sup>(٢)</sup>.

لم تنحصر تجارة مدينة القدس على المواد الغذائية ومواد البناء أو غيرها، بل اختص البعض من اليهود بتجارة العطور في المدينة، وغالبية هذه العطور يستورد من أماكن أخرى، والقسم الآخر يتم تصنيعه محلياً، أما النصارى فقد اقتصروا بتجارة الشمع الذي يتم تصنيعه في مدينة القدس، وكانت تجارة رائحة في ذلك الوقت لاستخدامه كمصدر للإضاءة، فضلاً عن استعماله في الكنائس والأديرة إلى جانب صناعات أخرى كان يمتنها النصارى مثل صناعة الصليبان والسيح والصدفيات والتحف المنزلية التي كان لها رواج في مواسم الزيارات والمناسبات الدينية والحج، وتنتشر أماكن بيع هذه المنتجات بالقرب من الأماكن التي لها قدسية سواء كانت للمسلمين أو النصارى أو اليهود مثل الدكاكين والمحال البدائية<sup>(٣)</sup>.

(١) مجلة المهدي: القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ق.م - ١٩١٧م)، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١٤٨؟  
(٢) حبيب السيوفي: سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها مشاهير الغربيين، (د.ن)، صيدا، ١٩٤٩م، ٧٣/٢.  
(٣) محمد عبد المنعم الحميدي: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٢٢.



وقد تبين من خلال حجم النشاط التجاري الداخلي لأهالي مدينة القدس بأن تلك الأسواق العامة والتركات كانت تعود لعائلات مقدسية مثل: المحال التجارية والمحامص والمقاهي، كعائلة الحسيني والدقاق والعلمي والعسلي والدجاني، وقد عرفت بأن هذه العائلات هي من أكثر العائلات استثماراً لأموالها في التجارة الداخلية في مدينة القدس وما جاورها، وتشير بعض المصادر أنه في عام ١٦٨٢م كان عدد الدكاكين ما يقارب الألفي دكان (٢٠٠٠) في القدس كلها مبنية من الحجارة والعقود المقنطرة، توزعت هذه المحال إلى عدة أسواق، ومنها: سوق الحلاجين، سوق السلطان، وسوق الغلال، والسوق الطويل، وسوق البزازين، وسوق الحرير، وكانت هذه الأسواق تدهش كل من يزورها وكانت عامرة بالخيرات لاحتوائها بكل ما يحتاجه الناس من حاجيات وبضائع اعتاد السكان على ارتياد تلك الأسواق<sup>(١)</sup>.

لم تقتصر التجارة الداخلية في مدينة القدس على أبناء التجار وغيرهم من الملاكين، فقد عمل في هذه التجارة بعض الشخصيات الدينية العلمية المقدسية مثل الشيخ محمد الخليلي عالم القدس الجليل، فقد عمل منذ صباه في تجارة السيرج والزيت بمدينة الخليل، فقد كان له نشاط واسع في هذا المجال إلى جانب وظيفته الرسمية؛ إذ كانت له محال ودكاكين استأجرها في سوق القطنين بالقدس الشريف، فضلاً عن أماكن أخرى كان يستأجرها في باب العمود للتجارة، وكان يمتلك معملًا للحياكة ومصبنة لصناعة الصابون وبيعه في مدينة القدس<sup>(٢)</sup>.

وكانت هناك تجارة أخرى انتشرت في القدس وهي تجارة العقارات، وهي من أهم التجارة الداخلية، والتي شكلت مصدرًا مهمًا في حياة المقدسيين وجني الثروات من خلال هذه التجارة، وقد سيطرت العائلات المقدسية على امتلاك العديد من العقارات السكنية والصناعية والزراعية والتجارية في أماكن متعددة في القدس الشريف، ومن هذه العائلات هي: عائلة الخالدي، وعائلة النمري، وعائلة الدقاق، وعائلة اللطفي، وعائلة الحسني، وكان من أكثر هذه العائلات امتلاكاً للعقارات في القدس هي عائلة الحسيني<sup>(٣)</sup>.

(١) عماد الجواهري: حيازة الأرض، ص ١٢.

(٢) أن. بولياك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كريم، مطبعة دار

الكشوف، بيروت، ١٩٤٨م، ص ٨٨.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٨.



وقد اختلفت هذه العقارات من حيث أسعارها، فكانت أسعار العقارات الصناعية أعلى من أسعار العقارات الأخرى، مثل المعاصر تباع بأسعار أعلى من الأراضي المشيد عليها الدكاكين والأفران، كما إن للموقع أهمية بالنسبة للعقار، وكذلك نوعية البناء كأن يكون البناء جديداً أو قديماً، وهذا له علاقة بتحديد قيمة البناء، ومن أماكن هذه العقارات في القدس توزعت على شوارع وحارات المدينة، ومنها حارة الجوالدة، وحارة اليهود، وحارة المغاربة، وحارة الحيادة، وحارة الشرف، وحارة الريشة، وحارة عقبة الست، وحارة التبانة، وحارة باب العامود، وحارة عتبة القيامة، وأصبحت هذه الحارات مناطق استقرار للعائلات المقدسية مما أدى إلى ارتفاع أسعارها<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: التجارة الخارجية للقدس:

لم تنحصر التجارة في مدينة القدس في العهد العثماني على التجارة الداخلية فقط، وإنما كان لتجارة القدس الخارجية نشاط فعال، لاسيما في استيراد وتصدير البضائع، وقد ازدهرت هذه التجارة؛ بسبب ارتباطها بالولايات العثمانية الأخرى، فضلاً عن الدول الأوروبية التي تبادلت التجارة مع مدينة القدس، وكانت مدينة القدس تصدر السلع والبضائع الفائقة عن حاجتها، فصدرت العديد من البضائع إلى الدول المجاورة مثل تصديرها للصابون إلى مصر عبر ميناء غزة، والذي تجاوز كميته إلى (٩٦) ألف رطل من الصابون<sup>(٢)</sup>.

وقد اشتهرت القدس بهذه التجارة على مر العصور ومن أشهر تجارها هو محمد الدجاني، وموسى العسلي، كانوا من أهم من تاجر بالصابون إلى مصر خلال الحكم العثماني، ولم ينحصر التصدير إلى مصر فقط، ولكن تم تصدير هذه المادة إلى إيطاليا واليونان، كون الصابون المقدسي كانت له شهرة في بعض البلاد الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

- 
- (١) زياد عبد العزيز المدني: سجلات محكمة القدس الشرعية (١٨٠٠ - ١٨٣٠م) دراسات في مصادر تاريخ العربي الحديث، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٨م، ص ٤٨.
- (٢) الرطل: كلمة يونانية الأصل (Litron) والرطل القدسي كان يعادل (٢.٥) كيلو غرام، وهو نوع من الموازين كان يساوي (٩٠٠) درهم في السنة ١٦٤٣م.
- (٣) ليلي الصباغ: فلسطين بشرياً اقتصادياً اجتماعياً، ص ٤٠.



كذلك اهتم تجار مدينة القدس الشريف بتجارة الحبوب الخارجية إلى الدول المجاورة مثل مصر ورودرس وديروفينك عن طريق ميناء يافا، كما صدرت القدس مادة القطن التي كانت تزرع بمساحات شاسعة منه، مما زاد عن الحاجة وتصديره إلى مصر وفرنسا، كما ساهمت مدينة القدس في تصدير بضائع متنوعة إلى دول مجاورة ومنها الأقمشة الحريرية والقطنية، والصمغ العربي، والبن، والسنامكي وهو من النباتات العشبية التي تتكاثر في مدينة القدس وله استخدامات في طب الأعشاب<sup>(١)</sup>.

ومن البضائع الأخرى التي كانت تصدرها القدس إلى استانبول وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا مثل التحف والسبح والمطرزات والصلبان والتمائيل وما شابه ذلك من المواد التي كانت تصنع من الخشب، فضلاً عن الصناعات الأخرى مثل الحرير والمرجان والذهب والفضة، ولهذا كانت هذه التجارة يعمل بها العديد من التجار سواء أكانوا من المسلمين والمسيح أم اليهود الذي كان لهم دوراً بارزاً في ذلك الأمر في التجارة الخارجية إلى الدول الأوروبية<sup>(٢)</sup>.

لم تقتصر تجارة القدس الخارجية على التصدير فقط، بل كانت هناك بضائع يتم استيرادها من دول مجاورة بقدر حاجة مدينة القدس لهذه البضائع ومنها استيراد الأرز والأقمشة الكتانية، كما استوردوا البشوت والعباءات الشامية والأقمشة الصوفية المطرزة والقهوة من دمشق الشام، كما استوردوا من مصر مثل بعض الأقمشة وبعض البذور التي يستخدموها في الزراعة مثل اللوبيا وبنرة الروم عن طريق ميناء يافا، واستوردوا أيضاً السكر والرز والحرير والبنادق والمواشي من حلب وبغداد، كما كانوا يستوردونه العباءات الحجازية من الحجاز عن طريق الحجاج أثناء موسم الحج<sup>(٣)</sup>.

(١) محمود علي عطا الله: وثائق الطوائف الحرية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي، ط٢،

جامعة النجاح الوطنية مركز والتوثيق والمخطوطات، نابلس، ١٩٩٢م، ٧٢/١.

(٢) رجا فوقان: القدس في ظل الحكم العثماني (١٧٠٠ - ١٧١١م) دراسة في الأوضاع الداخلية من خلال

سجلات المحكمة الشرعية في القدس، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية،

العدد (٣)، ١٩٩٩م، ص ٥٨.

(٣) ليلي الصباغ، فلسطين بشرياً اقتصادياً اجتماعياً، ص ٤٠.



ومن البضائع والسلع الأخرى التي استوردها من الهند مثل الشالات وبعض الأقمشة الهندية والبهارات وأنواع أخرى من التوابل، كما استوردوا من إستانبول المنسوجات الكتانية والبسط الرومية ومن أزمير أقمشة الجوخ والحديد، ومن العراق استوردوا العبادات العراقية واللحاف العراقي البغدادي، كما استوردوا من الصين مثل الزجاجيات والأواني الأخرى التي كانت تصنع من الزجاج لأغراض أخرى، كما استوردوا من بعض الدول الأوروبية الأقمشة الصوفية والحريير والأجواخ واللوز والورق والقصدير والرصاص<sup>(١)</sup>.

كانت أغلب هذه البضائع المستوردة والمصدرة تمر بميناء يافا؛ إذ يعد هذا الميناء هو الشريان الحيوي لمدينة القدس، إلا إن البعض من تجار القدس يتعرضون أحياناً للابتزاز من العسكر والموظفين في الدولة؛ بسبب فرض الرسوم على بضائعهم أدت إلى ابتزازهم من قبل هؤلاء، إلا إن والي القدس أمر بمنع هذه الظاهرة من قبل العسكر وكبار الموظفين وعدم التعرض للتجار في مدينة القدس الشريف<sup>(٢)</sup>.

ونلاحظ مما سبق أن الموقع الجغرافي لمدينة القدس أسهم بشكل كبير في ازدهار التجارة سواء الداخلية أو الخارجية؛ كونها حلقة وصل بين مدن الشام المختلفة؛ كما لا نغفل دور استناباب الأمن في مدينة القدس الذي أدى إلى انتعاش التجارة فيها.

---

(١) محمد أحمد سليم: ناحية القدس الشريف في القرن السادس عشر الميلادي، ط١، عمان، ١٩٨٩م، ص٥٢.

(٢) تيسير جبارة: تاريخ فلسطين، ط١، دار عمان للنشر، عمان، ١٩٩٨م، ص١٤٤.



### الخاتمة

توصلت من خلال بحثي هذا إلى جملة استنتاجات منها:

- ١ - إن سكان القدس تمكنوا من التغلب على كل الظروف الصعبة التي كانت تحيط بهم في المجال الزراعي، ولاسيما قلة مشاريع الري، مما ولد لديهم تحدٍ كبير أسهم في قيام حركة زراعية نشطة معتمدين على مياه الآبار والعيون التي حفروها، كذلك اعتمادهم على الظروف المناخية السائدة في مدينتهم.
- ٢ - تنوع المحاصيل الزراعية تبعاً للظروف المناخية وطبيعة الأرض في المدينة؛ لذلك نجد أن أجزاء في المدينة تشتهر بزراعة محاصيل زراعية، وقسم آخر يشتهر بزراعة الفواكه بمختلف أنواعها.
- ٣ - لم تولِّ السلطات العثمانية اهتماماً بالجوانب الزراعية، مما أدى بالفلاحين للاعتماد على إمكانياتهم في تطوير شؤون زراعتهم.
- ٤ - تنوع الأراضي الزراعية من حيث تقسيماتها الزراعية المختلفة، ولكل نوع أناس استثمروه بما يعود عليهم بالفائدة.
- ٥ - اعتمدت الصناعة على المواد الخام الزراعية الموجودة في المدينة في قيام العديد من الحرف والصناعات المحلية التي كان يستخدمها السكان.
- ٦ - أخذت الصناعة في جانب كبير منها طابع الصناعات الدينية التي يحتاجها السكان في أداء طقوسهم الدينية.
- ٧ - العديد من الصناعات وجدت لسد الحاجة المحلية للسكان كصناعة الملابس أو المواد الغذائية والمنظفات والاعتماد على ما هو موجود في المدينة من مواد خام.
- ٨ - الموقع الجغرافي للمدينة أسهم بشكل كبير في ازدهار تجارتها كونها حلقة وصل بين مدن الشام المختلفة.
- ٩ - أسهم استناب الأمن في المدينة والمدن المحيطة بها إلى انعاش عملية التجارة.



## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

١. شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠١م.
٢. محمد عبد المنعم الحميدي: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
٣. نجم الدين محمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعياد المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م.

### ثانياً: المراجع العربية:

١. إحسان النمر: امتياز ولاية الشام في عهد آل عثمان، مطبعة الاقتصاد، نابلس، د.ت.
٢. أحمد جدي: نظام ملكية الأرض في فلسطين في العهد العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان، ١٩٩٢م.
٣. أحمد سوسة: مفصل العربي واليهود في التاريخ، ط٥، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١م.
٤. أحمد محمد الربايعة: الصناعات في فلسطين في العصور الحديثة، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام - فلسطين، ط١، عمان، ١٩٩٣م.
٥. أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، ط١، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢م.
٦. تيسير جبارة: تاريخ فلسطين، ط١، دار عمان للنشر، عمان، ١٩٩٨م.
٧. جاسر علي العناني: القدس دراسات قانونية وتاريخية، منشورات أمانة عمان الكبرى، الأردن، ٢٠٠٠م.
٨. حبيب السيوفي: سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها مشاهير الغربيين، (د.ن)، صيدا، ١٩٤٩م.

٩. خالد تحسين علي: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.
١٠. خالد تحسين علي: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣م.
١١. رضا عبد الحميد عرابي: الكافي في تاريخ القدس، دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر، دار الأوتل دمشق، ٢٠٠٩م.
١٢. رؤوف أبو جابر: المسيحية العربية في القدس متى بداية الحكم المصري في عام ١٨٣١م، عرض تاريخي موجز، أبحاث ودراسات في التاريخ العربي مهداة إلى نكري مصطفى الحيارى، عمان، ٢٠٠١م.
١٣. رؤوف سعد: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين (١٩-٢٠م)، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤م.
١٤. زياد عبد العزيز المدني: سجلات محكمة القدس الشرعية (١٨٠٠-١٨٣٠م) دراسات في مصادر تاريخ العربي الحديث، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٨م.
١٥. سيار كوكب الجميل: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٩م.
١٦. عادل مناع: أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠-١٩١٨م)، ط٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٥م.
١٧. عبد الرحيم عبد الرحمن: مصر وفلسطين في العصر العثماني من خلال وثائق المحكمة الشرعية المصرية، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ط١، عمان، ١٩٨٣م.
١٨. عبد الكريم رافق: دراسات في تاريخ العرب الحديث (بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨م)، ط٢، دمشق، ١٩٦٨م.
١٩. عبد الكريم محمود غرابية: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.

٢٠. عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٩م.
٢١. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون (١٥١٦-١٧٩٨م)، ط٢، (د.ن)، دمشق، ١٩٦٨م.
٢٢. عماد الجواهري: الأوضاع الاقتصادية في فلسطين في العصر الحديث، مطبعة النهضة، بغداد، ١٩٨٣م.
٢٣. فاضل بيات: دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.
٢٤. فاطمة الطراونة: الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوروبي فيها في العصر الحديث والمعاصر، دار الفكر، بيروت، د.ت.
٢٥. فتحي أبو عيانة: دراسات في جغرافية السكان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٦. قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، (د.ن)، بيروت، ١٩٦٩م.
٢٧. ليلي الصباغ: فلسطين بشريا اقتصادياً اجتماعياً، ط١، دار المصادر، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٨. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة منقحة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠١٢م.
٢٩. مجموعة من المفكرين العرب: دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٦٨م.
٣٠. محمد أحمد سليم: ناحية القدس الشريف في القرن السادس عشر الميلادي، ط١، عمان، ١٩٨٩م.
٣١. محمد أنيس: العالم العربي في العصر العثماني (١٥١٦-١٩١٤م) في كتاب المجتمع العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
٣٢. محمد جميل بيهم: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٣. محمد حسين محاسنة وآخرون: تاريخ مدينة القدس في العهد العثماني، مكتبة الفلاح، بيروت، ٢٠٠٣م.
٣٤. محمد حسين محاسنة وآخرون: تاريخ مدينة القدس، ط١، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م.
٣٥. محمد سهيل طقوس: العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (١٢٩٩-١٩٢٤م)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
٣٦. محمد صبحي وآخرون: الموارد الاقتصادية في الوطن العربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٧٣م.
٣٧. محمود عبد الفيصل: الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٨. محمود علي عطا الله: وثائق الطوائف الحرية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي، ط٢، جامعة النجاح الوطنية مركز والتوثيق والمخطوطات، نابلس، ١٩٩٢م.
٣٩. محمود يزيك: برتقال يافا وأثره في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة يافا ومحيطها في القرن التاسع عشر، عمان، ٢٠١٢م.
٤٠. موسوعة المدن الفلسطينية، ط١، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٤م.
٤١. يوسف سامي اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، دار الأهلي، دمشق، ١٩٨٩م.

#### ثالثاً: الأبحاث والدراسات:

١. إبراهيم أبو رميس: الزراعة في القدس وكراها في القرن التاسع عشر، المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ٢٠١٢م.
٢. إبراهيم رضوان الجندي: التجارة والرسوم الكمركية في فلسطين، مجلة آفاق عربية، العدد (٦)، السنة السادسة، ١٩٨٠م.
٣. إحسان عباس: الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر الميلادي، مجلة المستقبل العربي، العدد (٦)، السنة الثالثة، بيروت، ١٩٨٩م.

٤. بشارة دومانى: إعادة اكتشاف فلسطين، أهالي نابلس (١٧٠٠-١٩٠٠م)، ترجمة: حسني زينة، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٨م.
٥. حسين سلمان سليمان: الحرف الصناعية الشعبية في صيدا منذ الفتح العثماني إلى الحملة المصرية على بلاد الشام (١٥١٦ - ١٨٣٢م)، مجلة تاريخ العربي والعالم، العدد (١٢٣ - ١٢٦)، السنة (١١)، بيروت، ١٩٨٩م.
٦. رجا فوقان: القدس في ظل الحكم العثماني (١٧٠٠ - ١٧١١م) دراسة في الأوضاع الداخلية من خلال سجلات المحكمة الشرعية في القدس، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد (٣)، ١٩٩٩م.
٧. صابر موسى: نظام ملكية الأراضي في فلسطين في أواخر العهد العثماني، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٩٥)، بيروت، ١٩٨٧م.
٨. الصصافي أحمد موسى: الدولة العثمانية والولايات العربية، مجلة الدارة، العدد (٤)، السنة الثانية، ١٩٨٣م.
٩. عبد العزيز محمد عوض: القدس وسياسة الدولة العثمانية (١٨٧٤م - ١٩١٨م)، من بحوث ندوة القدس بين الماضي والحاضر، جامعة البتراء، الأردن، ٢٠٠١م.
١٠. عبد العزيز محمود: الخانات والأسواق في فلسطين - عرض تاريخي - اقتصادي - عمرائي، مجلة البيان، العدد (١)، المجلد (٢)، عمان، ١٩٩٩م.
١١. عبدالكريم رافق: مظاهر التعليم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد (٤)، دمشق، ١٩٨٠م.
١٢. عماد أحمد الجواهري: حيازة الأراضي في فلسطين في العهد العثماني، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد (٢٥) بغداد، ١٩٧٧م.
١٣. كامل العسلي: القدس تحت حكم العثمانيين، الحلقة الأولى، مجلة القدس الشريف، العدد (٥٦)، السنة الرابعة، ١٩٨٩م.
١٤. ليلي الصباغ: ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني، ندوة الحياة الاقتصادية في الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦م.

١٥. مجلة المهتدي: القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ ق.م - ١٩١٧ م)، ط ١، بيروت، ٢٠٠٠ م.
  ١٦. محمد سليمان: قانون التنظيمات العثماني وتملك اليهود في أرض فلسطين، مجلة صامد الاقتصادية، العدد (٣٣)، بيروت، ١٩٨١ م.
  ١٧. محمود عامر: الأوضاع العامة في القدس في ظل الإدارة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد (٥٩)، ١٩٩٧ م.
  ١٨. وليد العريض: المؤسسات العثمانية في القدس في الوثائق العثمانية، ندوة القدس، جامعة آل البيت، عمان، ١٩٩٧ م.
  ١٩. وليد العريض: تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، العدد (١)، المجلد (٢٤)، ١٩٩٧ م.
- رابعاً: الكتب المترجمة:**
١. آن. بولياك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كريم، مطبعة دار الكشف، بيروت، ١٩٤٨ م.
  ٢. أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعادوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الثقافية والإسلامية، اسطنبول، ١٩٩٩ م.
  ٣. روبرت مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، ط ١، الدار الوطنية، القاهرة، ١٩٩٣ م.
  ٤. سميح فرسون: فلسطين والفلسطينيون، ترجمة: عطا الله عبد الوهاب، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ٦٢.
  ٥. فلاديمير لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة: عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١ م.
  ٦. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط ٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١ م.

٧. نيقولاى إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦ - ١٥٧٤ م)، ترجمة: يوسف عطا الله، ط١، بيروت، ١٩٨٨ م.
٨. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠١٠ م.  
خامساً: الرسائل الجامعية غير المنشورة:
١. أحمد تحسين عبد: القدس في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٦٤٠ م) دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣ م.
٢. بهجت حسين صبري: لواء القدس تحت الحكم العثماني (١٨٤٠ م - ١٨٧٣ م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣ م.

## أسواق مدينة تونس في كتابات الرحالة الأوروبيين في العصر العثماني

**د. مي السيد السيد محمد**

وزارة السياحة والآثار

mai2181972@gmail.com

### ملخص البحث:

تعد الأسواق من المرافق الأساسية العامة في المدن الإسلامية، تطور إنشائها مع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية، وأدى تطور النشاط التجاري ونظم التجارة إلى تنوع الأسواق، ولم تشذ تونس عن هذه القاعدة؛ والتي شهدت عقب الحضور العثماني ١٥٧٤/هـ ١٥٨٣ م ازدهارا اقتصاديا، معماريا، وعمرانيا.

### هدف البحث :

يهدف البحث إلى إظهار دور الرحالة الأوروبيين التي جمع بينهم حب الرحلة، وفرقت بينهم المقاصد والأساليب للوقوف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم السياسية آنذاك.

### أهمية البحث:

إلقاء الضوء على أهمية الأسواق كمركز للنشاط التجاري وتبادل السلع وبؤرة لتبادل الأفكار والشائعات، وما يحدث من مناقشات في أمور السياسة، لذا كانت محط اهتمام الرحالة الأوروبيين بالشمال الأفريقي عامة وتونس خاصة .



### منهجية البحث:

يتناول البحث هذه الدراسة في عدة مباحث؛ يتعرض أولها: للأسواق في المدن الإسلامية "نشأتها، تطورها، أنماطها، تخطيطها، توزيعها"، بينما يستعرض المبحث الثاني دراسة أسواق مدينة تونس في العصر العثماني من خلال الناحية المعمارية للأسواق، وكيفية الرقابة عليها، وطرق البيع فيها (كالبيع بالدلالة) ، أما المبحث الثالث: فيتناول ملاحظات الرحالة الأوروبيين حول الأسواق، دوافعهم، طبيعة كتاباتهم وقيمتها .

و يختم البحث بعد ذلك بأهم النتائج و التوصيات ...



**The markets of Tunis in the writings of European travelers  
in the Ottoman era**

**Dr. Mai El-Sayed El-Sayed Mohamed**

**Ministry of Tourism and Antiquities – Egypt**

**mai2181972@gmail.com**

**An introduction:**

Markets are among the basic public facilities in Islamic cities, the development of their establishment with the development of social and economic life, and influenced by political and economic conditions, and the development of commercial activity and trade systems led to the diversification of markets, and Tunisia did not deviate from this rule; which witnessed after the Ottoman presence in 983 AH / 1574 CE. Economic, architectural and urban prosperity Research objective:

The research aims to show the role of European travelers, who combined the love of the journey, and separated the purposes and methods among them to determine the social, economic and then political conditions at the time .

**Research importance:**

Shed light on the importance of markets as a center for commercial activity and exchange of goods and a hotbed for exchanging ideas and rumors and the discussions that are taking place in policy matters.

Therefore, European travelers in North Africa in general and Tunisia in particular were the focus of attention .

Research Methodology :

The research deals with this study in several topics; the first of which is exposed: to the markets in Islamic cities "their origin, development, patterns, planning, and distribution", while the second topic reviews the study of the markets of the city of Tunis in the Ottoman era through the architectural aspect of the markets, how to control them, and sales methods In it (like selling by indication), and the third topic deals with the observations of European travelers about the markets, their motives, the nature of their writings and their value.

And then the research concludes with the most important results and recommendations ..

## مقدمة :

عدت الأسواق<sup>(١)</sup> مؤسسات اقتصادية - اجتماعية محيطها الأساسي المدن التاريخية والمركزية في العالم الإسلامي، وتعد مدينة تونس إحدى أهم هذه المدن، وقد عكف المستشرقون على دراستها، ورأى بعضهم أن الإسلام ديناً خاصاً بسكان المدن أكثر من غيرهم، من خلال بحثهم في خصائص المدن الإسلامية وعرض صورة نوعية ونموذجية لها أمثال Virat، Marcais، وشكلت الأسواق لدى الجغرافيين مركزاً اقتصادياً وعنصراً رئيساً من عناصر المدينة كالمسجد الجامع والحصن، بينما اهتم علماء الاجتماع اهتماماً كبيراً بتأثير المؤسسات الاقتصادية في مجتمع المدينة مثل الخصوصيات الاجتماعية، وأهمية مؤسسة الوقف في اقتصاد المدينة وعمارته وعمرانها، ويرى الأثاريون أن تميز الأسواق في المدن الإسلامية كان في مجمع السوق الذي هو أهم المنجزات الحضارية في المرحلة الإسلامية فلا نظير له في المشرق القديم، وأثبتت الدراسات الأثرية أن إحدى السمات الأساسية للمدينة الإسلامية هي بناؤها التجاري كمجتمعات موحدة النمط، متصلة ببعضها البعض في مساحة مضغوطة في وسط المدينة.

(١) عن التعريف اللغوي للسوق راجع : ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق : خليل إبراهيم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج ٣، ص ٤٣٥، ٤٣٥، ابن منظور، محمد بن مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرون، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط ١، ١٣٥٨ - ١٤٢٢هـ / ١٩٦٥ - ٢٠٠١م، ج ٢٥، ص ٤٧٧؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م، ج ٣، ص ١٧٧ (نسخة إلكترونية)؛ الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق : محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج ١، ص ٨٨٤؛ وعن التعريف الاصطلاحي راجع: الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق : محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ج ٩، ص ١٨٤؛ المطرزي، ناصر بن عبد السيد، المغرب في ترتيب المعرب، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص ٢٣٩، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ١٦٧ مجموعة مؤلفين، البازار في التراث الإسلامي، مقالة مسئلة من دائرة معارف العالم الإسلامي مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ١٩، ٢٠.

## الأسواق في المدن الإسلامية :

### (١-١) نشأة وتطور الأسواق :

وجدت الأسواق كظاهرة ضرورية اقتصادية واجتماعية وتجارية منذ القدم مع وجود الناس على سطح المعمورة، وقد أسهمت عدة عوامل في نشأة الأسواق ونموها؛ وتطورها كالموقع الجغرافي، وطرق المواصلات، والأنشطة الدينية وغيرها....

وقد سعت الدولة الإسلامية منذ بداية تكوينها في المدينة المنورة إلى توفير الأسواق التجارية داخل إطار حدودها<sup>(١)</sup>، وذلك لما فيه من تدعيم وتقوية اقتصادية، وتوفير فرص العمل لقاطنيها، وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع في عملية البيع والشراء، مع التزامها التام في رعاية هذه الأسواق وحمايتها والإشراف عليها، وإيجاد سبل العمل على تطويرها.

فمنذ هجرة الرسول صل الله عليه وسلم إلى المدينة، أعلن قيام السوق للدولة الإسلامية الناشئة، وحدد موضعه في أرض فسيحة، فحدده وخطة برجله، فقد روي ابن ماجه بإسناد ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أتى إلى مكان فسيح فحدده وضربه برجله ثم قال: هذا سوقكم فلا يَنْتَقِصَنَّ ولا يَضْرِبَنَّ عليه خراج"<sup>(٢)</sup>.

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بحرية السوق وإتاحة الفرص المتكافئة بين الجميع على حد سواء، جعلها حرة دون استثناء، ودون حكر الأماكن في السوق أو احتجازها لأي أحد من الناس<sup>(٣)</sup>.

(١) كانت أحد أهم شروط اختيار مواقع المدن أن تقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، انظر: ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر، (سوريه: ١٩٩٦م)، ص ٢١.

(٢) ابن ماجه، عبد الله محمد، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (د.ت) كتاب التجارات، باب الأسواق، ج ٢، ص ٧٥١، حديث رقم ٢٢٣٣؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق لجنة حفظ التراث، بيروت: ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٥١؛ السمهودي، نور الدين أبو الحسن، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: ١٩٧١م، ج ٢، ص ٧٤٧.

(٣) أكد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك بقوله: "الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه"؛ كاظم الجناني، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، خاصة في العصر الأموي، الجامعة المستنصرية، بغداد: ١٩٩٧م، ص ٨٦.



كذلك أظهر الخلفاء الراشدين اهتمامهم الخاص بالأسواق لكونها من أهم مؤسسات الدولة الاقتصادية، ولم يبدأ التطوير بالبناء في الأسواق إلا في بداية العصر الأموي وكانت المحاولات الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان<sup>(١)</sup> مع توفير الخدمات اللازمة لها وإعطاء الأسواق المساحة الواسعة<sup>(٢)</sup>، وتكرر هذا النمط التخطيطي في مدن الأمصار وأنشئت الأسواق على هذا النهج في بغداد بعد إنشاء الرصافة والكرخ وتعددت أمثلتها، واختلفت أهميتها كانعكاس لانفصال المحلات السكنية وتباين قوة القبائل ونشاطها، ويلاحظ أنها كانت تقع على أطراف المحلات، أي إنه كان هناك نوع من الانفصال بين المنطقة السكنية والسوق، ولعل مرجع ذلك إلى أسباب دفاعية واجتماعية<sup>(٣)</sup>، وانطلاقاً من تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدن الإسلامية، وتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية المتتابعة، وتطور نظم التجارة وغيرها حرص الولاة على تعدد الأسواق وتنوعها وتخصصها، وتصنيفيتها وذلك بجعل كل مهنة لها سوق متخصصة فيها، وجعلوا تعاملاتها متوافقة مع الأحكام الإسلامية السمحة<sup>(٤)</sup>، وحددت مواضع الأسواق في وسط المدينة بالقرب من دار الإمارة والمسجد مع عدم السماح لأحد بالبناء فيها أو تغيير مساحتها وبناء الحوانيت الخاصة بكل سوق<sup>(٥)</sup>، وقد اتسمت مظاهر تطور الأسواق في العصر الأموي بالبناء في سوق المدينة المنورة وكان البناء عبارة عن بنائين: الأول دار القطران، والثاني دار النقصان وتم تأجيرهما<sup>(٦)</sup>. تلا ذلك سوق الفسطاط، وفي عهد عبد الملك بن مروان؛ بنى والي مصر آنذاك عدة قيساريات منها قيسارية البز، قيسارية الحبال، قيسارية الكباش، قيسارية العسل<sup>(٧)</sup> أما الشمال

(١) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨ م، ص ٥٨.

(٢) الأزرقي، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق عبد الملك بن عبد الله دهيش، مكة المكرمة، مكتبة الأسد، ط ٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ٢، ص ٧٥٢؛ البيهقي، البلدان، ص ٣١، ابن رسته، أحمد بن عمر، الأعلام النفسية، شركة نوايع الفكر، ط ١، القاهرة: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١٣٣.

(٣) السامرائي خليل، محمد تأثر حامد، المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة، الموصل: ١٩٨٤، ص ٢٦.

(٤) الكبيسي، حمدان عبد المجيد، أسواق العرب التجارية، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٤٢.

(٥) ابن زبالة، محمد بن الحسن، أخبار المدينة، تحقيق: صلاح عبد العزيز سلامة، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة، ط ١، المدينة: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٣٩؛ البيهقي، البلدان، ص ٥٩-٦١ في صدر الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط ١، عمان: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ١٧٩-١٨٠.

(٦) السمهودي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٥٠.

(٧) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، القاهرة: ١٩٦١، ص ١٣٦.



الأفريقي، فحدثنا البكري عن مدينة القيروان ذاكراً السوق المجاور للمسجد من ناحية القبلة، ووصف السوق بأنه كان له سقف يضم كل الحوانيت والحرف وأمر هشام بن عبد الملك بإعادة بنائها في ١٠٥هـ<sup>(١)</sup>، كذلك اهتم بإنشاء الأسواق بهذا النمط المسقوف في مدن الأمصار، فبنى في الفسطاط قيسارية كبيرة باسمه، وأقام عامله على العراق خالد القسري الأسواق وسقفها وحدد مواضع لكل من البائعين في تجارة معينة، وعني بعمارة سوق المدينة وتطويره وأشار ابن زبالة إلى شكل البناء بقوله "يتكون من طابقين: الأرضي استخدم كحوانيت تؤجر للتجار والبائعين، والعلوي يؤجر للسكني" وكرر هشام إنشاء مبنى مشابهة في بقية الزبير، وكان له أبواب قام بتأجيرها<sup>(٢)</sup>، ومن ثم يمكننا حصر التطور في الأسواق خلال العصر الأموي في بناء أسواق وتغطيتها بهيئة معمارية كفلت وجود حوانيت للتجارة ومساكن تعلوها أجرت للراغبين في السكن، وإقرار مبدأ تأجير البناء التجاري، وتبلور تصنيف التجار في مجموعات لكل مجموعة متخصصة في تجارة بعينها موضع بذاته، ويعد اهتمام الأمويين بالأسواق في إطار سياسة الدولة التي وجهت إلى تعمير المدن دفعاً للتطور الاقتصادي<sup>(٣)</sup> وتوازياً مع تأمين التجارة وقوافلها، وإنشاء الخانات على امتداد الطرق التجارية، وتعريب السكة<sup>(٤)</sup>.

أما العصر العباسي، فقد شهد تطوراً ملحوظاً في الأسواق بداية من عهد المنصور الذي اهتم بتوفير سوق في كل ربع من أرباع مدينة بغداد وأشار اليعقوبي لذلك بقوله حدد لكل اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الأئرع، ولمن معه من أصحابه وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربح، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون لكل ربح سوق جامعة تجمع التجارات<sup>(٥)</sup>. وحرصاً من المنصور على أمن بغداد ونظافتها وهدوتها إنشاء الكرخ ليضم التجار وحدد لكل أهل تجارة مكاناً لهم يختصون بتجارتهم، وأمر ألا تتاجر فئة فيما تتاجر فيه الفئة الأخرى وفصل بين أهل التجارات والحرف في تصنيف دقيق وخصص لكل حرفة منطقة خاصة بها<sup>(٦)</sup> وأنشئت أسواق سامراء على النسق ذاته بحيث صار إنشاء الأسواق المتخصصة نمطاً تقليدياً في المدينة الإسلامية.

(١) البكري، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر: ١٩٥٧م، ص ٥٢.

(٢) السهمودي، ج ٢، ص ص ٧٥٠-٧٥٢.

(٣) حجاب، منير، الدعاية السياسية في العصر الأموي، مؤسسة سعيد للطباعة، القاهرة: ١٩٨٦م، ص ٥٣، ص ٢١٥؛ بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، ط ١٩٨٦ م، ص ٣٩.

(٤) عبد العزيز الدوري، مقدمه في تاريخ صدر الإسلام، ص ص ٨٣ - ٨٤.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٤٢.

(٦) اليعقوبي، المرجع السابق، ص ١٨.

مما سبق عرضه، يتضح أن تطوير الأسواق في المدن الإسلامية كان على يد الدولة سواء أكان بالإتشاء كما حدث في الكوفة وبغداد، أم بالإضافة والتعديل والإصلاح والتطوير مثلما حدث في الفسطاط والقيروان وغيرها<sup>(١)</sup>.

### (٢-١) أنماط الأسواق في المدن الإسلامية:

من السمات الرئيسية للمدن الإسلامية أنها ذات طابع تجاري، ويرى بعض الباحثين أن السبب الرئيس لنشأة المدن كونها مراكز للتبادل التجاري لإنشائها عند ملتقى طرق التجارة<sup>(٢)</sup>، ونظراً لكون الأسواق مركز النشاط التجاري بصورة ومراحلها المختلفة فقد انعكس ذلك على نمطية الأسواق وأنواعها انعكاساً مباشراً ففي الإطار المكاني المحدد الموضع والمساحة، وجدت الأسواق الكبيرة كذلك الموجودة خارج المدن قريبة من أبوابها وأسوارها، وكانت تقام أسبوعياً، وتتسع للقادمين من مدن مجاورة، فضلاً عن الأسواق داخل المدن المتنوعة الموضع والمساحة حسب الخدمة والنشاط الذي تؤديه منها ما يخدم المدينة كلها، ومنها ما يختص بتلبية احتياجات يومية لقطاع صغير في المدينة. ونظراً لصغر حجمها وتحديد وظيفتها، سميت سويقات لصغرها عن تلك التي تخدم المدينة كلها، بالإضافة إلى انتشار نوعيات معينة من الحوانيت<sup>(٣)</sup> والمخابز لتفي بالحاجات المستمرة. وفي الإطار الزمني، وجدت الأسواق السنوية<sup>٤</sup> الموسمية كذلك التي كانت للعرب قبل الإسلام واندثرت فيما بعد، والأسواق الأسبوعية، كسوق الثلاثاء في بغداد، وسوق الأحد في دمشق، وسوق الخميس في فاس ومراكش<sup>(٥)</sup>، وسوق الأربعاء في الموصل، وسوق الأثنين في مكناس.

(١) Hathloul, S.A, Tradition, continuity and change in the physical Environment the arab muslim city . Phd. Submitted to the department of architecture at M.I.T.1981,P.72.

(٢) عرفان سامي، نظريات العمارة العضوية، مؤسسة طباعة الألوان المتحدة، القاهرة: ١٩٦٨م، ١٢٨؛ بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: ١٩٨٣، ص ١٣٩

(٣) ليو الأفريقي، وصف إفريقية، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، دار العرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٣، ص ٢٤٣.

(٤) ليو الإفريقي، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٥) Chalmeta (P.), Market in Islamic city. Market in Islamic held city. Edited by R. Serjeant unesco, selected papers from the colloquium held at middle east center Faculty of oriental studies, Cambridge, united kingdom, 1976, P.107



### (٣-١) التكوين المعماري وتخطيط الأسواق في المدن الإسلامية :

اتخذت الأسواق والمنشآت التجارية في المدينة الإسلامية نمطين رئيسيين من ناحية التخطيط والتكوين المعماري، جاء النمط الأول عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة مكشوفة في الوسط وظهرها إلى الخارج، وتعلو هذه الحوانيت وحدات سكنية كانت تؤجر لمن يرغب في السكن<sup>(١)</sup>، وقد تنوعت المنشآت التي سارت على هذا النمط من التخطيط وعرفت هذه العمائر بعدة مسميات منها الخانات والفنادق والقياسر والوكالات والسماسر<sup>(٢)</sup>، أما النمط الثاني في تخطيط وتكوين عمارة السوق فكان عبارة عن مجموعة حوانيت مترابطة على جانبي الشارع الرئيس والشوارع الفرعية المتسعة وارتبط وجود هذا النمط بالشوارع النافذة، ويمكننا القول أن النمط الأول في المنشآت التجارية كان الأكثر تطوراً في التكوين المعماري وأسهم في ذلك التجارة في مجالات الصناعة، فقد كان التوجيه أن يجعل لأهل كل صنعة منهم سوق يختص بهم<sup>(٣)</sup>.

### (٤-١) توزيع الأسواق في المدن الإسلامية :

حددت معايير ضابطة لتنظيم توزيع الأسواق لمنع الضرر لأصحاب الأسواق أو للعامّة من سكان المدينة<sup>(٤)</sup>، وقد انعكس توزيع الأسواق والحوانيت على مسميات الأحياء في بعض المدن الإسلامية التي سُميت أحيائها بأسماء نوعيات منتجاتها ومتاجرها، كالنحاسين والصاغة والفحاميين والشاميين والسراجين والسكاجين؛ ونظراً لتشابه أسواق المدن الإسلامية وأتباعها القواعد نفسها بصفة عامة، فقد تكررت مسميات الأسواق فيها، كالقاهرة ودمشق وتونس وبغداد وحلب والقيروان وفاس وقرطبة.

(١) السموهوي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٥٢-٧٥٣، البيهقي، المرجع السابق، ص ٧١ البلازدي، فتوح البلدان، ص ٢٨٤؛ ماسينيون، لويس، خطط الكوفة، ترجمة نثى المصعبي، صيدا، ١٩٣٩، ص ٢٢.  
(٢) الحداد، محمد حمزة اسماعيل، العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية، الخليج العربي للطباعة والنشر ٢٠٠٩، ص ١١٩.  
(٣) الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة الظرفية في طلب الحسبة الشريفة، مصر: ١٩٤٦، ص ١٠.  
(٤) الشيرزي، المرجع السابق، ص ١١؛ ابن الأخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص ٩٩؛ الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المنهاج، جدة ١٤٣٢ هـ، ج ٢، ص ٢٩٧ المقريزي، تقي الدين أحمد، المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار، ج ٢، ص ٩٤، ١٠٦، الشيرزي، ص ١٧، ص ١١٦.

## ٢- أسواق مدينة تونس في العصر العثماني :

لم يشذّ تخطيط مدينة تونس عن نمط المدن الإسلامية المخططة عقب ظهور الإسلام، والتي روعي أن يتوسط المسجد الجامع المدينة، ومن ثم ينطلق بقية التخطيط حوله، فكانت أول المنشآت التي تحيط بالجامع هي الأسواق، وأثرها بُنيت الدور السكنية، وفي آخر المطاف الأسوار (شكل-١،٢)، ومنذ إنشاء الجامع الأعظم بمدينة تونس حُطت من حوله الأسواق<sup>(١)</sup>، وتحكمت اعتبارات متعددة في ترسيخ طابع مميز لأسواق مدينة تونس يمكننا أن نطلق عليها صفة المهن النظيفة أو النبيلة"، أما المن الملوثة مثل الصباغين والفحامين، فقد استقرت قرب باب الجزيرة، والحدادين قرب الباب الجديد وحي باب السويقة، وانحدرت بعض المهن إلى أطراف المدينة أو خارج أسوارها.

### (١-٢) أسواق مدينة تونس من الفتح العربي حتى القرن السابع الهجري :

شَحَّت المصادر التاريخية بالمعلومات حول نشأة الأسواق في مدينة تونس، و آمدنا أبوالعرب في طبقاته بأول نص حول وجود الأسواق بداية القرن الثالث الهجري، مشيراً إلى وجود صناعات متخصصة في النسيج قرب الجامع الأعظم<sup>(٢)</sup>، كذلك ما قام به الولي الصالح محرز بن خلف<sup>(٣)</sup> من إضافات في سوق "السويقة"<sup>(٤)</sup> بالربض الشمالي للمدينة خلال القرن ١٠هـ/١٠م مما يدل على وجود السوق قبل تلك الفترة الزمنية، وربما انتقلت الأسواق إلى أطراف المدينة بداية من العهد الأغلبي؟

(١) عن أهمية السوق في التشريع والفقهاء الإسلامي راجع؛ الحبيشي، أبو عبدالله محمد، البركة في فضل السعي والحركة، مطبعة الفجالة الجديدة، مصر (د.ت)، ص ٢٦

(٢) أبو العرب، محمد بن أحمد، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي - تونس: ١٩٦٨م، ص ٢٢٦

(٣) الفارسي، أبو الطاهر مناقب محرز بن خلف، إصدار تونس: ١٩٥٩

(٤) تصغير السوق ومعناها التجارة، ابن منظور : لسان العرب، بيروت : ١٩٦٨، ج ١٢، ص ٣٢؛ الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، القاهرة : ١٩٥٦، ج ٤، ص ١٤٩٨ .

ومن أقدم الأسواق داخل المدينة العتيقة حول الجامع الأعظم سوق الفكه (سوق الفواكه المجففة والمكسرات) وموصغه في مواجهة الباب الشرقي للجامع الأعظم، ولا يزال يقوم بوظيفته إلى الآن، وتعد أسواق المدينة القديمة مركزاً أساسياً لاستقطاب التجارة ومجالاً حيويًا للنشاط الاقتصادي رغم تحول بعض الأسواق إلى الرضيين الشمالي والجنوبي<sup>(٥)</sup>، فلم تفقد السوق المحيطة بالجامع الأعظم أهميتها. وارتبطت تسمية كل سوق بالبضاعة التي تشتهر ببيعها، كذلك صنعت بعض البضائع المعروضة في الأسواق في عين المكان كأسواق البلاغجية والنحاسين، والسراجين، والصاغة وقسم من أعمال الشاسيه، وصناعة الجلد، وبعض صناعات النسيج التي لا يتطلب أعدادها الآت ضخمة أو مساحات واسعة، وكانت تصنع مباشرة من الحرفي ومساعديه في الحانوت نفسه، فلم يكن الغرض من إنشاء الأسواق تجاريًا بحتًا، إنما كان وجود الصناع أمرًا مهمًا، وظهرت بوضوح في صناعة الشموع والطور والحري والأحذية والسروج والكتيبين، وتلى ذلك جمع كل فئة من الحرفيين أو التجار ضمن تجمعات، واختص كل سوق في نوع من الصناعات دون غيرها.

#### (٢-٢) أسواق مدينة تونس قبيل العصر العثماني :

اتخذت مدينة تونس شكلها الحالي خلال فترة الحكم الحفصي ١٣/٥٧م، وتشير المصادر إلى أن الأسواق استقرت بهيئتها ومظهرها الحالي خلال عهد أبي زكريا الأول<sup>(١)</sup>، حيث عني بتطوير الأسواق، ووسع فيها بالإضافات والتحسينات وصار معلوم متى أسس كل قسم من أقسام السوق ونوعيته وتخصصه، وتلا ذلك مرحلة تراجع اقتصادية صناعية وتجارية لغزو الإسبان مدينة تونس ١٥٣٥/٩٤١م، دخلت آنذاك مدينة تونس من سكانها<sup>(٢)</sup> وتراجعت الأسواق وتكرر الأمر

<sup>(٥)</sup> أسواق باب الفلة وباب الجزيرة والحلفاوين وسوق سيدي محرز أما اسواق القرانة والطويلة الأملحية فلم تختص في تجارة خاصة، انظر؛ السعداوي(أحمد)، تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى الإصلاح؛ العمارة والفنون في العصر الحديث، ج٢، تونس: نسخة إلكترونية، ص ٢٥٣ .

<sup>(١)</sup> ابن الشماخ، أحمد، الأدلة البيئية النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: عثمان الكحاك، تونس: ١٩٦٣م، ص ٥٧ .  
<sup>(٢)</sup> ابن أبي الضياف، تحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس: ١٩٦٣-١٩٦٦ - ج٢، ص ١٣؛ الوزير السراج، أبو عبد الله محمد، الحلل السننسية في الاخبار التونسية، ج١، مج ٣، ص ١٠٩٥ .



١٥٧٣/هـ ١٩٨٠م<sup>(٣)</sup> وأغلقت المتاجر أبوابها وحل الخراب ببعض الأسواق<sup>(٤)</sup>. حتى بدأت تونس في الاستقرار بداية من عهد عثمان داي<sup>(٥)</sup>، ومن بعده يوسف داي<sup>(٦)</sup>.

### (٢-٣) التكوين المعماري لأسواق مدينة تونس في العصر العثماني:

اقترن إنشاء الأسواق بسياسة دايات وبايات تونس ورؤيتهم حول ربط الاستقرار السياسي بتنمية الأنشطة الاقتصادية والتجارية اعتماداً على عائدات الأحباس، وأدمجت الأسواق في إطار مشاريع معمارية متكاملة، إذ تحبس ريع كراء حوانيت الأسواق، والفنادق، والخانات والحمامات المتواجدة في الأسواق للإتفاق على أوجه الصرف في الجوامع والمدارس والترب مما يدعم الحياة الدينية والتعليمية، بالإضافة لإسهامات الأسواق في تنشيط الحرف والصناعات، فأنشئ يوسف داي سوق الترك<sup>(١)</sup> (لوحة-١) والبركة<sup>(٢)</sup> (لوحة-٢) والبشامقية<sup>(٣)</sup> (لوحة-٣)، واصطفت الحوانيت على جانبي

<sup>(٣)</sup> ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨.

<sup>(٤)</sup> المرابطي (ابن أبي لحية المنتصر): نور الأرماش في مناقب أبي الغيث القشاش مخطوط محفوظ بدار الكتب الوطنية تونس، رقم ١٦٤٠٨، والمعهد الوطني للآثار والفنون نسخة من الأصل برقم ٦٥٠.

<sup>(٥)</sup> من كبار الدايات الأوائل ١٠٠٣-١٠١٩هـ / ١٥٩٤ - ١٦١٠م، أداريا حانقاً، مسك بغان السلطة برياطة جاش وأزاح منافسية من أجل نفاذ كلمته، شرع في ضبط دواخل البلاد نجعل ماضيه قبل قومه لتونس إلا إنه من الثابت انخرطه في سلك الاكثارية، وصفه الرحالة دي يراف ١٦٠٦م بقوله "متوسط القامة، بدين، قوى البنية رفيع الهمة، متعالى الهيبة، نظرتة حادة، محياء ملي، ورغم مكانته فالمعلومات حول شخصيته قليلة متضاربة وتوجد تربته بزقة المدرسة الشماعية للاستزادة: توفيق بشروش، موسوعة مدينة تونس، ص ٣٢٤ - ٣٢٥، المستنصر بن يحيى المرابطي، مرجع سابق؛ حسين خوجه: ذيل بشائر الإيمان في فوحات ال عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس: ١٩٧٥، ص ٩٢.

<sup>(٦)</sup> تولى الحكم ١٦٠١/هـ ١٦٠١م واستمر ثمانية وعشرين عاماً وجه اهتمامه للتوحي الاقتصادية والعمرانية والأمنية عرف بالأمير الصالح أبو الخير، اتسم عهده بالأزهار بنى أربعة أسواق ومجموعة معمارية، ولقب بسلطان تونس ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية، ص ١٩٣ - ١٩٥، ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣ حموده بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، المخطوط، دار الكتب الوطنية برقم ١٧٩٤، ورقه ٢٤٥.

<sup>(١)</sup> جمع تركه وهو ما يتركه المبيت، كانت تخاط به بعض الملبوس التونسي كالحبايب، والفرملة، الصدرية المنتان ابن

ابي دينار: المؤنس، ص ٢٠٥

<sup>(٢)</sup> خصص لبيع العبيد السود، ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ٢٠٦

الشوارع بطول الأسواق مما أضفي طابعاً معمارياً متشعباً بنظام دقيق (شكل-٢)، وامتد سوق الترك بطول مائة متر واتساع ستة أمتار ليتصل بأسواق الجامع الأعظم كسوق القماش (الرمادرة) والقطارين والكبابجية<sup>(٤)</sup> والعبيد، وضم هذا الشريان ما يقرب من مائة حانوت<sup>(٥)</sup> واستكمالا لهذه الأسواق أنشئ حموده باشا المرادي<sup>(٦)</sup> سوق الصاغة بحوانيته وورشه ومستودعاته اللازمة لهذه الحرفة، وسوق الربع المكون من سبعة عشر حانوتاً، وخصص لبيع الثياب للأثرياء من نساء الأتراك، وامتد ليصل لسوق القماش، كذلك أنشئ سوق الباي المشرف على ساحة القصبية (شكل ٣)، وهياً حفيده محمد باي أسواق سيدي محرز والحوت والقرانة والشاشية (شكل-٤) وشيد على باشا سوق المر بربض باب الجزيرة<sup>(٧)</sup>، ونقل على باي سوق الدباغين من داخل المدينة إلى خارج باب البحر<sup>(٨)</sup>، وبنى يوسف صاحب الطابع السوق الجديد بالحلفاوين<sup>(٩)</sup> (لوحات، ٤ - ٥) وكان عبارة عن طرق مسقوفة بالأخشاب أو مغطاة باقبية طويلة يتخللها فتحات للتهوية والإنارة، أو مكشوفة وتصطف على جوانبها الحوانيت الصغيرة نسبياً، حيث تتراوح مساحة الحانوت نحو أربع

(٣) جمع البشامقي : صانع الحذاء الرهيف الذي يلبسه الفقهاء والقضاة والأئمة في العصر العثماني.

(٤) لصنع كبة الخيط والقيطن ورحر الجبّه وهي من الألبسة التقليدية، وقد اختص اليهود في هذه الصنعة.

(٥) Sebeg (P.); Tunis au xviii siècle, une cite barbaresque au temps de la course, l'Harmattan, paris, 1989, P.156.

(٦) مؤسس الدولة المرادية كان أبوه مملوكاً وتولى أمر البلاد بعد أبيه، كان خبيراً بشئون الحكم والإدارة واستحوذ على المنصب بجدارة واستحقاق للاستزادة: ابن أبي دينار، المؤنس، ٢١٥؛ ابن أبي الضياف، ج ٢، ص ١٦٩-١٧٠.

(٧) أحمد السعداوي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٨) Raymond (A.), Le déplacement des tanneries, 1977, P. 192.200

(٩) اشتمل على ٥٣ حانوت وله بابان: شمالي وجنوبي وثيقة أحباس المجموعة المعمارية ليوسف صاحب الطابع من مخلفات المرحوم محمد بن الخوجة مستشار الحكومة التونسية وانتقلت لرصيد الحكومة تحت رقم ٢١٧٦٠ منقولة عن الأصل ومكتوبة في أوراق يومية مؤرخة ٢ محرم ١٣٠٤ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨٨٦ م.



أذرع في مثلها، ومستوى أراضيها مرتفعة عن منسوب أرض الطريق في البناء نحو ذراع، وبعضها أبوابه من خشب غير منحوت (مصنوع) وهي قطع مفرقة يضع صاحبها لوحة حذو أخرى إلى أن يمتلىء عرض الباب فيجعل قفلا على الوسطى من تلك الألواح يمسكها بالعواضد في الجزء التي تدخل منها الألواح ويكون المسك بواسطة حلق صغيرة بعضها من الألواح وبعضها في العتبة بالمخالفة في الوضع، ويدخل القفل في تلك الحلق ثم يقفل بالمفتاح<sup>(١)</sup>، ومن الناحية التاريخية، فقد شاع وجود هذا النمط من التكوين المعماري للأسواق في العصر البيزنطي<sup>(٢)</sup>.

#### (٢-٤) الرقابة على الأسواق بمدينة تونس، والبيع بالدلالة:

خضعت الأسواق لإشراف المحتسب ومن يعاونه من الأمناء المتخصصين<sup>(٣)</sup> في مراقبة كل تجارة والذين هم نقباء المهن، ووجدت لهم مقار بالقرب من الأسواق وكان يستجد بهم لردع المخالفين، ولم يكن يعين الأمين من قبل البايات، بل كان ينتخبه أهل الصنعة ويراقب مباشرة من شيخ المدينة، وكانت خطة الأمين في بعض الحالات وراثية، وكان من يتولى هذه الخطة يعد في قمة سلم الحرفيين ومن بين أثرياء المدينة، وعندما دخلت مؤسسة الأمناء طي الإهمال، فقدت الأسواق تماسكها والبضاعة جودتها، هذا وقد عرف في العديد من الأسواق التونسية البيع بالدلالة؛ كسوق الترك، وسوق العصر بالحلفاوين وباب بنات، وسوق الكتبيين، و كثر البيع بالدلالة<sup>(٤)</sup> في سوق اللفة (لوحة -٦) ولم يبق من العدد الكبير للدلالة بهذا السوق إلا شخص واحد أصيل في جزيرة جربة وفي عام ٢٠٠٢ كان عمره قد تجاوز الخمس والسبعين عامًا ويمارس المهنة بالسوق صباحًا فقط.

(١) محمد بيرم الخامس، صفة الاعتبار، ج ٢، صص ١٣٣-١٣٤.

(٢) Hathoul, op. cit. P. 72.

(٣) Ridha Tlili, "De la coporation artisanale au syndicalisme Patronal en tunise" Tunis : 1978, P.P. 54-72

(٤) Lallemand(Ch.), Tunis et ses environs, Paris, 1890, P. 147.

محمد الباجي بن مامي، أسواق مدينة تونس، أفريقية، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية المعهد الوطني للتراث، عدد ١٢،

١٩٩٨م، ص ٥٠

وتُعد أسواق الشواشية، والقطارين، البلاغجية، الصوف والجبه، القماش، النساء، الربيع، اللفة، السكاجين، السراجين (لوحة-٧)، البلاط، السلاح، الكتبيين، الفكة البشامقية، الترك، البركة، الباي، الكبابجية، النحاس أهم أسواق مدينة تونس خلال القرنين ١٧، ١٨م وقد خُصص لكل حرفة مجال وانتظمت الأسواق من المركز في اتجاه الأطراف وفق تنظيم يمنع الضرر.

### ٣- كتابات الرحالة الأوروبيين عن أسواق مدينة تونس:

#### (٣-١) اهتمام الرحالة الأوروبيين ودوافعهم :

بدأ اهتمام الرحالة الأوروبيين بالشمال الأفريقي في القرن ٩هـ / ١٥م، فعقب الحروب الصليبية كان لا بد للأوروبيين استكشاف بلاد المسلمين مدفوعين بعدد من الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولا يمكن إنكار وجود رحالة كانت أهدافهم فضول معرفي؛ ورغبة في التعرف على تفاصيل الحياة الاجتماعية في المغرب الإسلامي بشكل عام والبلاد التونسية بشكل خاص، ولكن لا يمكننا كذلك تجاهل وجود غايات استعمارية خلال تلك الفترة، هذا ونالت أسواق مدينة تونس لغيرها من أسواق مدن المغرب الإسلامي اهتمام الرحالة الأوروبيين، وعُدت كتاباتهم وأشاراتهم عن أسواق المدينة جد مهمة لما احتوت عليه من أوصاف للأحوال العامة؛ كتنظافة الأسواق وحمائيتها وكيفية حزن البضائع وأنواع التجارة والبيع والشراء والطرق التي تسلكها القوافل، وتخصص الأسواق في تجارة بعينها أو صنعة بذاتها ومما شك حول أهمية مدوناتهم العلمية ومنهجيتها الأمر الذي يؤكد الباحث العلمي لرحلاتهم وتركيزهم على الجغرافيا الاقتصادية للبلاد التونسية.

#### (٣-٢) ملاحظات الرحالة الأوروبيين حول أسواق مدينة تونس:

لم تقيّدنا المصادر العربية بشكل واضح وصريح عما كان المسئول عن إصلاح الأسواق وترميمها ونظافتها، إلا إن الرحالة "Adorne" حدثنا عن أن أسواق مدينة تونس عرفت بأنظف الأسواق العربية خلال القرون الماضية مؤكداً على أنه وجد عمال مكلفين بالسهر على كنس السوق وجمع الفضلات وإزالة الأتربة في المساء بعد إغلاق المتاجر، وكان يتم تخزين البضائع في شارع السوق حتى تبقى طازجة<sup>(١)</sup>..

(١)R. Brunshwig, Deux recits de voyages en Afrique du nord au xve siècle, Paris : 2001, P. 203

كذلك رصد الرحالة "Lallemand" أن الأسواق تفتح أبوابها باكراً لتكون القلب النابض للمدينة ويهجرونها أصحابها مساء عند غسق الليل، ويبقى بها الحراس رفقة كلابهم الأوفياء، فيحولون دون وقوع أي مكروه من سرقة أو سطو، وكذلك يفطنون لأي حادث عارض كالحرائق<sup>(٢)</sup>، كذلك أشار كل من "Leon 'l'Africain, Adorne" إلى جمع كل من الحرفيين أو التجار ضمن تجمعات واختصاص كل سوق في نوع من الصناعات دون غيرها<sup>(٣)</sup>، ونوه "Lallemand" إلى وجود مشرف لكل سوق للمتابعة يتم اختياره من زملاء<sup>(١)</sup> مهنته ولا يعين من قبل الباي، ولاحظ انتشار البيع بالدلالة في أسواق الترك والعصر وباب بنات<sup>(٢)</sup> أما الرحالة "Michel Leon, Fleury", فقد ألفت مدونهم الضوء على صناعة وسوق الشاشية أجل الصناعات التي اشتهرت بها حاضرة تونس منتبعين دخول صناعة الشاشية إلى حاضرة تونس قادمة من الأندلس عبر هجرات موريسكية بلغ عددها في ١٠١٧ هـ / ١٦٠٨ م حوالي ثمانين ألف نسمة، وجعلوا من هذه المهنة أهم الصناعات في البلاد التونسية، واكتسبت منها بعض العائلات التونسية ثروات طائلة<sup>(٣)</sup>، والمكانة الاجتماعية المحققة للمعلم في سوق الشواشية والتي لامثيل لها بين التجار، وأنه في قمة الهرم الاجتماعي وأن له ختمه الخاص الذي يسمى النيشان، ومن بين هؤلاء عائلات (كالسنوسي والرصاص وابن مامي)،

---

(١). Lallemand(Ch.), Op.cit, P.39

(٢)R. Brunschwig, Adone,Op,cit, P. 186

= Leon l'African, Description de l'Afrique, edit. Scherge, Paris, 1895, T. III, P. 187

(١)Lallemand,(Ch.),Op,cit, P. 146

(٢) Ibid, P. 147

(٣) Fleury, L'industrie tunisienne des Sasiyas, in Revue du commerce et de l'Industrie, Paris, 1895, P. 73.





وقدم "Michel Leon" تسلسل صناعة الشاشية، مبتدأ باستخدام الزيت للصوف، ثم يتولى العمل "القرداش"، وهو الشخص المختص في التقريش ويعينه في عمله الزلاق<sup>(٤)</sup>، بعد ذلك يأتي دور النسوة التي تسمى بالكباسه<sup>(٥)</sup> أي الشغل بالأبر ثم بطان طبرية<sup>(٦)</sup>، وتسمى هذه الخطوة بالتبطين أو التلييد بدواليب البطان، وكانت توجد غرف بها صناديق للغسيل تتخذ شكل مثلث أو ملولب، وتوضع فيها الشواشي وتملاً بالماء الساخن المخلوط للغسيل تتخذ شكل مثلث أو ملولب وتوضع فيها الشواشي وتملاً بالماء الساخن المخلوط بالصابون الأخضر المذاب، وينحدر عليها الماصور أو المعصار، فيضغطها ويعصرها، وتنبلد الشاشية وتأخذ حجمها الأخير قبل أن يتم المرور على عملية القرشة بالكرضون<sup>(٧)</sup> تليها الصباغة<sup>(٨)</sup> وآخر مراحل صناعة الشاشية، هي وضع المعلم ختمه عليها، وترص في المتجر على ألواح متساوية معلقة على الجدران يطلق عليها العساكر، وكانت أغلب المتاجر تحتوى في أعلاها على سده لوضع الشواشي، وفي آن واحد الكرضون وأسفل السدة مقصورة المعلم تحفها يميناً ويساراً مصاطب يسميها أهل الصنعة "شينتو"، وكان يسمى رئيس الصناع "كابيساباسكو" أي كبير الأسطاوات، وهو الذي يفقد إتقان الصناعة<sup>(٩)</sup>

ويؤكد "Michel Leon" على أن الشاشية التونسية كانت تصدر للعديد من الدول الأفريقية وتركيا<sup>(١)</sup> وعُدت من أهم الصناعات التونسية<sup>(٢)</sup> بعد الحرير والنسيج في العصر الحفصي وبلغ عدد

(٤) اشتهر بدو ورغمة بهذا العمل .

(٥) اشتهرت نساء أريانة بهذا العمل .

(٦) غسل الشاشيه في بلدة الجديدة لوقوعها، على أهم أودية البلاد وادى مجردة وأستخدم أندفاع الماء لتدبير نواليب غسل البطان .

(٧) تخصصت بها بلدة العالية .

(٨) كانت لاتتم الأ بزغون حتى ١٨٩٥ تم بناء مصنع بتونس قرب نهج دار الجلد .

(٩) Leon Michel, Tunis, Paris, 1883, (deuxieme edition) P. 97

(١) Leon Michel ,Op,cit, P. 97.

(٢) Lallemand (Ch.) . Op,cit, P.118.



العاملين بصناعة الشاشية أكثر من ٢٠٠٠٠ عامل بهذه المهنة<sup>(٣)</sup>، مما أدى إلى أنتعاش الاقتصاد التونسي نتيجة لأهمية الصناعة وتضاعف الثروات وبلغت تجارة الشاشية درجة من الانتشار حتى أنها تجاوزت حدود السوق المخصصة لها، فأصبحت تُباع في نهج سيدي بن عروس ونهج القصبية وبعض الأسواق الأخرى، أما سوق العطارين والذي يمثل جزءاً آمناً من الممر الرئيس الرابط بين القصبية وباب البحر وملاصق للجامع الأعظم من الجهة الشمالية نكرو الرحالة آدورن في ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م بقوله تصنع فيه عطور جيدة لا يوجد مثيل لها في أي مكان آخر، ويتم إنتاجها من زهور وأعشاب مختلفة يحتفظ بها تجار الرياحين في حوانيتهم داخل قنينات مزخرفة ومزدانه بالألوان وتمتاز بعنقها الضيق ورقبتها الطويلة، وأكد على أن أهل تونس يعشقون العطور الجيدة ويفضلون منها ذات الرائحة القوية النفاذة<sup>(٤)</sup>.

ويشير "Leon L'Africain" بعد نصف قرن عن أهمية سوق العطارين لنساء تونس مما جعل تاجر العطور هو آخر من يغلق أبواب متجرة بالسوق للإقبال عليه بصفة متواصلة<sup>(٥)</sup>، ونوه "Filippi Conte" في ١٨٣٠م إلى أعجابه بمصانع العطور خاصة التي نستخرج فيها الرياحين كالنسرين الذي أتى به الأندلسيون واعتبره أهل تونس أرقى العطور، وأكد "Filippi" على أن التونسيين برعوا بصفة مطلقة في تقطير العديد من العطور الأخرى وأن الكمية المستخرجة التي توفرها الزهور التونسية تعتبر ضعف الكمية المستخرجة من نفس النوع في أوروبا<sup>(٦)</sup>، وأحصى "Lallemand" عدد متاجر العطور بالسوق بثمانين حانوتاً في ١٨٩٠م<sup>(٧)</sup>.

<sup>(٣)</sup>Grinvile T. Temple (Sir), Excursion in the Mediterranean Alger and Tunis, London, 1835, P.24.

<sup>(٤)</sup>R. Brunschving, Deux recits, Adorne, Op,cit, PP 202 – 203.

<sup>(٥)</sup>Leon L'African, T.III,Op.cit, P. 148.

<sup>(٦)</sup>Filippi et calligaris (1788–1829–1834), Paris , P.98.

<sup>(٧)</sup>Ch. Lallemand, Op–Cit, P. 103.

واعتبر "Michel Leon" تجار العطور من أثرى الطبقات الاجتماعية، ووصفهم من أعيان البلد لما كانت تدره عليهم تجارتهم من أرباح طائلة<sup>(٨)</sup>. وظهر ثراهم بوضوح في اختيارهم لملابسهم بعناية<sup>(٩)</sup>، ومن ملاحظات "Lallemand" أن السوق خُصص للمتاجر فقط وليس لصناعة العطور، وأن الورش المخصصة لتجهيز العطور متواجدة في نابل والحمامات<sup>(١)</sup> ومن خصائص سوق العطارين صغر الحوانيت خاصة تلك الموجودة بجدار الجامع الأعظم بالإضافة إلى وجود الحاجيات الخاصة بالأفراح في نفس السوق كالحناء والشموع والمياه المقطرة ومختلف أنواع البخور والعنبر والعود والجوي والوشق والداد واللويان والسواك والكحل<sup>(٢)</sup>

وقارن "Lallemand" بين تغطيات الأسواق وبين طريقة تغطية سوق العطارين بقوله أن السوق كانت مسقوفة في بداية الأمر بالخشب ثم أعيد تغطيتها بالطابوق "الآجر" ووصف أقيية الأسواق بأحد خصائص العمارة التونسية<sup>(٣)</sup>.

أما الرحالة القديس "Gervais"، أكد على أن صناعة البلغة والكنتره أهم الصناعات في ١٧٥٣م<sup>(٤)</sup>، وصدق "Michel" في ١٨٦٧م على ما ذكره "Gervais" بقوله أن البلاغجية يشكل سوقاً لانهاية له ولا يمكن إحصاء عدد المشتغلين في هذه المهنة، حيث تجاوزت متاجر البلاغجية السوق المخصص لها وموجودة في العديد من أنحاء مدينة تونس<sup>(٥)</sup> واحتوت هذه الصنعة على أربع مجموعات الأولى صناعة "البشمق" وانقرضت تماماً والثانية "الشبرلة" أحذية للنساء تصنع من جلد المعز، وهي إحدى التأثيرات الأندلسية وانقرضت هي الأخرى، أما الثالثة، فهي "الكنتره"، وعُرفت بالكنتره وتصنع بسوق الكناترية، والرابعة صناعة البلغة، وهي الأكثر انتشاراً بين عامة الناس وتصنع بجميع أنواع الجلد (الخروف، البقر، المعز، الناقة).

(٨) Leon Michel, op. cit P. 102.

(٩) Ibid, P. 103.

(١) Ibid, P. 104.

(٢) Ibid, P. 103.

(٣) Ibid, P. 100 ; Saint Gervais (Bernard le Boiger), Memoure et correspondance du archal de catinat, P. 60.

(٤) L'Leon Michel, Op. cit, P. 99.

(٥) Leon L'Africain, Op. cit, P. 138.

كذلك من الصناعات التي استرعت انتباه الرحالة صناعة الحرير والتي تُعد من أهم الصناعات التي عرفت بها مدينة تونس، وكان لها رواج عظيم داخل البلاد وخارجها ويفيدنا "Leon L'Africanin" أن أغلب سكان مدينة تونس كانوا مختصين في صناعة النسيج ووصفه بأنه جيد وبيع في العديد من البلدان الأخرى، ويؤكد "Lallemand" على أن عدد الحريرية كان من الأهمية بمكان أن بلغ ١٢٠٠ معلم، و ٦٠٠٠ عامل في هذا الميدان في ١٨٩٠م وقدم وصفاً لبعض الثياب بقوله "ومن بين ما كان يصنع : "التقارط" الحرير الملونة وكذلك التقارط" الشعالة وهي حزام من حرير مزركش يحتوي على مربعات ملونة، إضافة إلى أحزمة الرجال والقوطة الحرير بأنواعها".<sup>(١)</sup> أما "Michel" أكد على أن أهم ما يصنع هو "السفاري" <sup>(١)</sup> الذي لبسته النسوة، وكان أروج

الصناعات ويجلب الحرير لصنعه من مدينة "ليون" الفرنسية ومن "قرنة" بإيطاليا

وأشار "Lallemand" إلى أن عدد فنادق الحرير تقلص إلى ثلاثة فقط بعدما كانت تعج بها أسواق، وأنهج المدينة العتيقة خاصة قرب الحفلاوين و باب سويقه بالريض الشمالي لمدينة تونس<sup>(٢)</sup> وهم فندق الدولاتي والوردية والطويل والطاحونة.

واشتهر سوق اللفة بنسج الصوف والذي برع فيه أهل الجنوب، وعرف أول السوق من ناحية الجامع الأعظم بسوق الجربة نسبة إلى أهالي جزيرة جربة الذين اشتهروا بحقهم للتجارة بصفة عامة<sup>(٣)</sup> ومثله كأغلب الأسواق له أبواب تغلق بعد اغلاق الحوانيت ويبقى عليها حراس لحمايتها،

أما الرحالة الفرنسي "Dunant" والذي زارتونس ١٨٥٨م أبدى إعجابه الشديد بصنع السروج في سوق السراجين بقوله خاصة عند تجميع الذهب والفضة والحرير على القماش أو الجلد لصنع سرج بديع مع وضع طبقات من الفضة التي يطلق عليها فضة "ضرب مطارق" طبقاً لما أورده دونان وأحصى عدد المستغلين في صنع السروج في ١٨٥٨م، حيث بلغ عددهم مائة وخمسين سراجاً إضافة إلى أكثر من خمسمائة صانع ينتمون إلى عائلات ميسورة الحال في المجتمع التونسي<sup>(٤)</sup>،

<sup>(١)</sup>Ibid , P. 110.

<sup>(٢)</sup>Leon Michel, op. cit, PP. 95-96.

<sup>(٣)</sup>Lallemand (Ch.), op. cit P. 112.

<sup>(٤)</sup>Ibid , P. 98.

<sup>(٤)</sup>JH. Dunant, Notes su la Regence de Tunis, Greneve, 1858, P.33.

وتحدث الرحالة " Michel " ١٨٦٠م عن تخصص بعض الفتيان في خياطة ونقش الجلد المخصص لصنع السروج<sup>(٥)</sup> مما يدل على أن صفة السراجين كانت تعد من الأعمال الراقية. ونسب " Lallemand " سوق البلاط لفرش أرضية السوق بالبلاط، وهو من الأسواق القديمة التي نقود للفترة الأغلبية، ولم يكن مخصصاً لبيع سلعة بعينها إلا إن أكثر حوانيت السوق تبيع الأعشاب الطبيعية والعقاقير، وأرتبط بسوق العطارين إذا كان تجار العطور يشترون العديد من أنواع الأعشاب من سوق البلاط لصنع العطور والرياحين، أما سوق السلاح، فكان منصب أمين السوق يستثنى من الانتخاب، ويعين مباشرة من قبل أمير البلاد أمين سوق السلاح، لكن كان ذلك كمن يعين قائداً عسكرياً لا يوجد وراءه جند إذا كان في ١٨٦٠م اثنا عشر معلماً، ولم يبق منهم في ١٨٩٢م سوى واحد فقط، نظراً لأن البندقية المحلية الطويلة الشكل التي كان يطلق عليها المكحلة فقدت أهميتها أمام البنادق القالمة من بلجيكا وفرنسا لجودة نوعيتها وقلة سعرها بالمقارنة بالتي تصنع في تونس.

وهذا ما قد أفاد به الرحالة " Michel "، أما القراييل، فهو السلاح الذي بقي في السوق، وهي نوعية أقل طويلاً من البندقية، وتتسم فوهتها بالأنساع، ولا تستخدم في الحروب، وتعباً بكمية من البارود، ويصدر عن طلقاتها صوت صاخب وتستعمل في الإفراح والمناسبات وكانت هذه البنادق تحلّى بخيوط من الفضة والذهب<sup>(١)</sup>. وقد أسهم في صنع هذه البندقية ثلاث مجموعات من الصناع الأول: يطلق عليه الجعايدية والثاني: الزنايدي والثالث: السرايري الأول يصنع الفوهة، الثاني يصنع زنود البنادق، والثالث سرير البندقية المصنوع من الخشب، وقد ظل لسوق السلاح أهمية قصوى من الفترة المرادية وحتى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

وخلال تجول الرحالة " Lallemand " في مجموعة أسواق يوسف داي، علق على صناعة البشمق بقوله: "إن هذه الصناعة انقرضت، ولم يبق أي أثر للسوق المجانية لجامع يوسف داي وأحصى عشرين حرفي في هذه الصناعة ١٨٩٠م

<sup>(٥)</sup> Leon Michel, P. 98., Lallemand (Ch.), P.99

<sup>(١)</sup> Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 100; Leon Michel, P 89; Leon Michel, PP. 100-101, Lallemand(Ch.),Op,cit, P.120 ; Lallemand(Ch.)Op,cit, P. 128.

أما سوق البركة، والتي كانت مخصصة لبيع العبيد السود المجلوبين من نشاط القراصنة، والتي تحولت حوانيتها إلى بيع المصوغات والمجوهرات، وكان المشتغلين بهذه المهنة يهوداً، وأحصى عددهم بمائة وعشرين يهودياً<sup>(٢)</sup>.

وحرص "Adorne" على التأكيد على تغطية سوق الترك بقبو طولي مشابه لأغلب الأقبية المسقفة للأسواق المحيطة بالجامع الأعظم<sup>(٣)</sup>، كذلك أفاد "Lallemand" بتخصص سوق الكبابجية في بيع الزرابي في ١٨٩٠ ورغم أن السوق موازية لسوق البركة إلا إنها لا تلقى نفس الإقبال من المشتريين، لذلك تعد أقل الأسواق حركة؛ معللاً ذلك بموقعها بين سوق اللفة وسوق الترك لايلفت الانتباه إليها<sup>(٤)</sup>.

وسمي سوق نهج جامع الزيتونة خلال فترة الحماية الفرنسية بنهج الكنيسة لاحتوائها على كنيسة من ناحية باب البحر<sup>(٥)</sup>، ولم تحدد لنا المصادر على نحو من الدقة أنشطة هذه السوق، وهل كان لها اختصاصات متميزة؟ وكل مانعرفه أن قسماً منها كان مخصصاً خلال القرن ١١هـ / ١٧م في صنع السلاح، وقد بقيت هذه السوق مركزاً مهماً ومنتوعاً للعديد من صفوف التجارة والصناعة التقليدية، وهي ظاهرة اختلفت بها هذه السوق على مر التاريخ، فبعكس الأسواق الأخرى التي عرفت كل واحدة منها بنشاط أختص بها، يبدو أن نهج جامع الزيتونة، هي الوحيدة التي لم يكن لها اختصاص<sup>(٦)</sup>

ويذكر "Lallemand" أنه لا يشعر بأنه في المدينة العتيقة إلا عند الوصول إلى الممر المسقوف<sup>(٧)</sup>، وبذلك نختم حديثنا عن ملاحظات الرحالة الأوروبيين عن أسواق مدينة تونس.

(٢)Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 128.

(٣)R. Brunshwig, deux recits, Adorne, P.203.

(٤)Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 129-130.

(٥) وهي المعروفة بكنيسة Sainte Croix، وهي أول كنيسة أنشئت بمدينة تونس وبنيت في ٦٦٢م بمعرفة القسيس Jean Le vacher

(٦)Lallemand(Ch.) Op.cit., P. 100 .

(٧)Ibid , P. 39, P.100.

### النتائج :

- أبرزت الدراسة اهتمام الرحالة الأوروبيين بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد التونسية.
- كل ملاحظاتهم الواردة أما عن أهم الصناعات وطرائق الصناعة أوخطواتها وأنواع المنتجات.
- شرح لبعض الصناعات وإحصاء بعدد العاملين في المهن والحرف والأدوات المستخدمة في هذه المهن
- تقديم وصف معماري للأسواق وأنماطها وطرق تغطيتها ومواد وعناصر البناء، ووصفاً مختصراً للحوانيت ومساحتها وطريقه تبليطها وتغطيتها ومحتواها .
- الإشارة إلى النظام الأمني والرقابي على الأسواق وكيفية اختيار نقباء المهن

### التوصيات :

- ضرورة الحفاظ على منطقة الأسواق العتيقة بمدينة تونس ، والحرص على استمرار وجود الصناعات التقليدية والحرفية فيها.

### **قائمة المصادر والمراجع**

#### **أولاً - المخطوطات والوثائق :**

- المرابطي (المستنصر بن أبي لحية) : نور الأرماس في مناقب أبي الغيث القشاش، مخطوط محفوظ بدار الكتب الوطنية بتونس، برقم ١٦٤٠٨، ونسخة من الأصل في المعهد القومي للآثار والفنون.
- وثيقة أحباس المجموعة المعمارية ليوسف صاحب الطابع من مخلفات المرحوم محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية، وانتقلت لرصيد الحكومة التونسية تحت رقم ٢١٧٦٠ منقولة عن الأصل مكتوبة في أوراق يومية مؤرخة ٢ محرم ١٣٠٤ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨٨٦م.

#### **ثانياً - المصادر العربية :**

- ابن أبي دينار (محمد بن القاسم)، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق وتعليق: محمد شمام، (تونس : ١٩٦٧م)
- ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، تحقيق : عارف أحمد عبد الغني - دار كنان للطباعة والنشر، (سورية : ١٩٩٦م).
- ابن أبي الضياف (أحمد)، أتحاف أهل الزمان لأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (تونس ١٩٦٣ - ١٩٦٦م)
- ابن رسته (أحمد بن عمر)، الأعلام النفسية، شركة نوايع الفكر (القاهرة : ٢٠٠٩م)



- ابن زباله (محمد بن الحسن)، أخبار المدينة، تحقيق: صلاح عبد العزيز سلامه، مركز بحوث ودراسات المدينة ط١، (المدينة : ٢٠٠٣م)
- ابن سيد الناس (محمد بن محمد)، عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق : لجنة حفظ التراث (بيروت : ١٩٧١).
- ابن سيده (أبي الحسن علي)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، (بيروت : ١٩٩٦م)
- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن عبد الله) فتوح مصر والمغرب، (القاهرة : ١٩٦١م).
- ابن الشماخ (أبو عبد الله محمد)، الأداة البيئية النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: عثمان الكعك، (تونس : ١٩٦٣م).
- ابن فارس (أحمد بن فارس)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٨م
- ابن ماجه (عبد الله محمد)، السنن، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، (بيروت : د.ت)
- ابن منظور (محمد بن مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج وآخرون - مطبعة حكومة الكويت، ط١، (الكويت : ٢٠٠١م)
- ابن منظور (محمد بن مكرم)، معجم لسان العرب، طبعة دار صادر (بيروت : ١٤١٤م)
- ابن الأخوة (محمد بن محمد)، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق، محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة: ١٩٧٦م).
- البكري (عبيد الله أبي مصعب)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، (الجزائر: ١٩٥٧م)
- البلاذري (أحمد بن يحيى)، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار النهضة المصرية (القاهرة : ١٩٥٧م)
- الجوهري (اسماعيل بن حماد)، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، (القاهرة: ١٩٥٦م)
- الحبيشي (أبو عبد الله محمد)، البركة في فضل السعي والحركة، مطبعة الفجالة الجديدة، (مصر د.ت).



- الخامس (محمد بيوم)، صفة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي بن الطاهر الشنوني، رياض المرزوقي عبدالحفيظ منصور، مج ٢، طبعة وزارة الثقافة، (تونس: ١٩٩٩م).
- الزمخشري (نور الدين أبو الحسن) وفاء الوفاء بإخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت: ١٩٧١م).
- الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر) نهاية الرتبة الظرفية في طلب الحسبة الشريفة، (مصر: ١٩٤٦م)
- الغزالي (أبو حامد) إحياء علوم الدين، دار المنهاج، (جدة: ١٤٣٢هـ)
- القبروني (أبو العرب) طبقات علماء إفريقية، (تونس: ١٩٦٨م)
- المطرزي (ناصر بن عبد السيد) المغرب في ترتيب المغرب، دار الكتاب العربي (بيروت: د.ت)
- المقرئزي (تقي الدين أحمد)، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار، جزأين، طبعة بولاق، (القاهرة: ١٢٧٠هـ)
- الأزرق (محمد بن عبد الله)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله دهيش، ط ٢ مكتبة الأسد، (مكة المكرمة: ٢٠٠٨م).
- الأزهر (محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ط ١، (بيروت: ٢٠٠١م)
- الوزير السراج، (أبو عبد الله محمد الأندلسي)، الحل السنسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيله (تونس: ١٩٧٠ - ١٩٧٣م).
- يعقوبي (أبي العباس) البلدان في صدر الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط ١ (عمان: ٢٠٠٩م).
- بحشل (أسهل بن سهل الرزاز الواسطي)، تاريخ واسط، ط ١، كوركيس عواد، عالم الكتب، ١٩٨٦م

### ثالثاً- المراجع العربية :

- الجنابي (كاظم)، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، خاصة في العصر الأموي، الجامعة المستنصرية، (بغداد: ١٩٩٧م)
- الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية، الخليج العربي للطباعة والنشر، (القاهرة: ٢٠٠٩م)



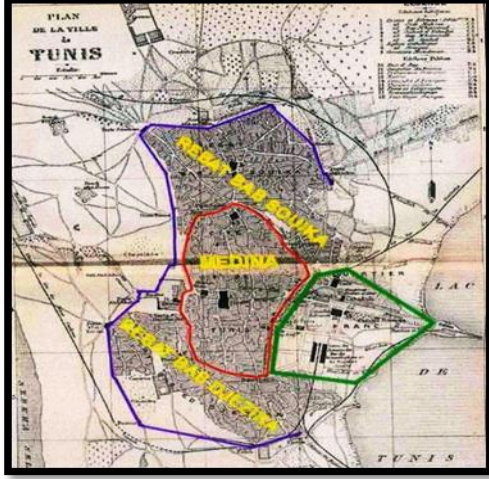
- الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة، ط١، (بيروت: ٢٠٠٥م)
  - السامرائي (خليل)، محمد (ثائر حامد)، المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة، (الموصل : ١٩٨٤م)
  - السعداوي (أحمد)، تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى حركات الإصلاح، العمارة والفنون في العصر الحديث، ج٢، تونس "نسخة إلكترونية"
  - الكبيسي (حمدان عبد المجيد)، أسواق العرب التجارية، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، (بغداد: ١٩٨٩م)
  - بشروش (توفيق)، موسوعة مدينة تونس، موسوعة مدينة تونس، السلسلة التاريخية، عدد ٨، (تونس: ١٩٩٩م).
  - بن مامي (محمد الباجي)، أسواق مدينة تونس، أفريقية، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية، المعهد الوطني للتراث، عدد ١٢، (تونس : ١٩٩٨م)
  - حجاب (محمد منير)، الدعاية السياسية في العصر الأموي، مؤسسة سعيد للطباعة، (مصر : ١٩٨٦م)
  - خوجه (حسين) ذيل بشائر الإيمان في فتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم : الطاهر المعموري ، (تونس ١٩٧٥م)
  - سامي(عرفان)، نظريات العمارة العضوية، مؤسسة طباعة الألوان المتحدة، (القاهرة: ١٩٦٨م)
  - عثمان (محمد عبد الستار)، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: ١٩٨٨م)
  - مؤلفين (مجموعة)، البازار في التراث الإسلامي، مقالة مسئلة من دائرة معارف العالم الإسلامي مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، (نسخة الكترونية).
- رابعا - المراجع الأجنبية العربية:**
- الأفريقي (ليو)، وصف أفريقيا، جزآن، تعريب وتحقيق : محمد حجي، محمد الأخضر دار الغرب الإسلامي، (بيروت : ١٩٨٣م)
  - فارب (بيتر)، بنو الأتسان، تعريب : زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عدد ٦٧، (الكويت : ١٩٨٣م)
  - ماسينيون (لويس)، خطط الكوفة، تعريب : تقي المصعبي، (صيدا : ١٩٣٩م)



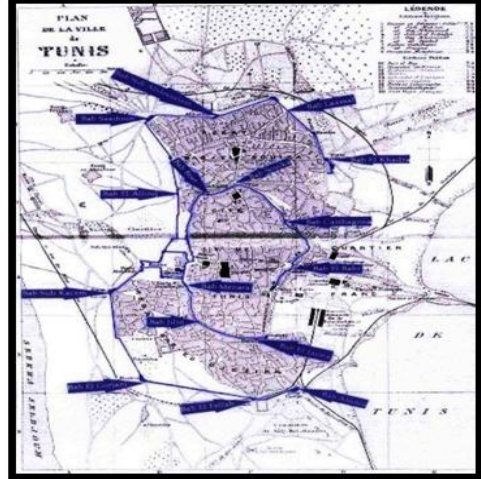
### خامساً- المراجع الأجنبية :

- Brunshving (R.) Deux recits de voyages en Afrique du nord au xve siècle, (Paris : 2001).
- Chalmers (P.) Market in Islamic held city. Edited by R. Serjeant unesco, selected papers from the colloquium held at middle east center . F.O.O.S. (Canbridge, U.L. : 1976).
- Dumant (J.H.), Notes sur la Regence de Tunis, (Geneve: 1858).
- Fleury, L'industrie Tunisienne des Sasiyas, in Revue du Commerce et de L'Industrie, (Paris : 1895)
- Gevais (S.) Bernard le Bouger, Memoire et Correspondence du marechal de Catinat.
- Grinvile T. Temple (Sir), Excurision in the Mediterranean Algier and Tunis, (London : 1835).
- Hathloul (S.A), Tradition, Continuity and change in the physical Environment, the arab muslin city. PhD. Submitted to the department of architecture at M.I.T. 1981.
- Idriss (H.R.) P.U.F., Maher ben Khalaf, (Paris : 1959).
- Lallemand (Ch.), Tunis et ses environs, (Paris : 1890)
- L'Africain (L.), Description de L'Afrique, edit. Scherger, (Paris : 1895).
- Michel (L.), Tunis, (Paris : 1883).
- Monchicourt (Ch.), Document Historiques sur la Tunisie, Relation indites : Nyssem, Filippe et Calligaris (1788-1829-1834) (Paris : 1929),.
- Raymond (A.), Le deplacement des tanneries a Alep, au Caire et a Tunis, dans R.H.M., 1977.
- Sebeg (P.), Tunis au xviiiie siècle, une cite barbaresque au temps de la cource, L' Harmattan, (Paris : 1989).
- Tlili (R.), De la coporation artisanale au syndicalisme Patronal en Tunisie (Tunis : 1978).

## الأشكال واللوحات



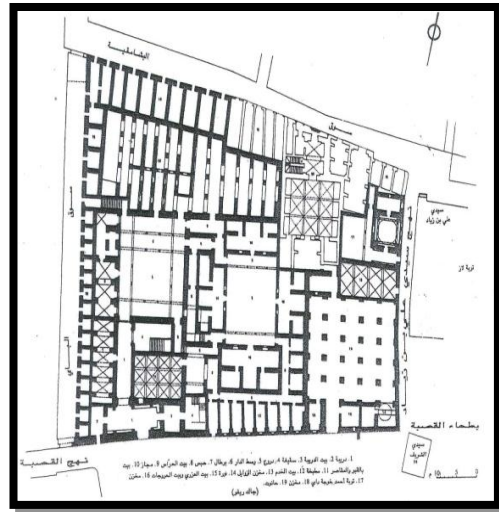
شكل-٢ منطقة الاسواق (عن كولان)



شكل-١ اتخطيط (مدينة تونس)



شكل -٤ (أسواق يوسف داي)



شكل -٣ أ(سواق الباي)

(عن مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية) (عن جمعية صيانة المدينة بتونس)



لوحة (١) سوق الترك



لوحة (٢) سوق البركة

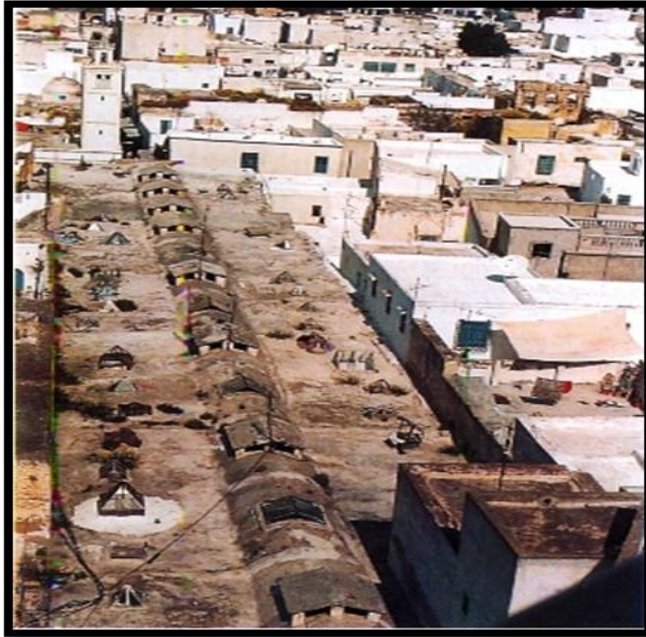


لوحة (٣) سوق البشمق أسفل و حول جامع يوسف داي

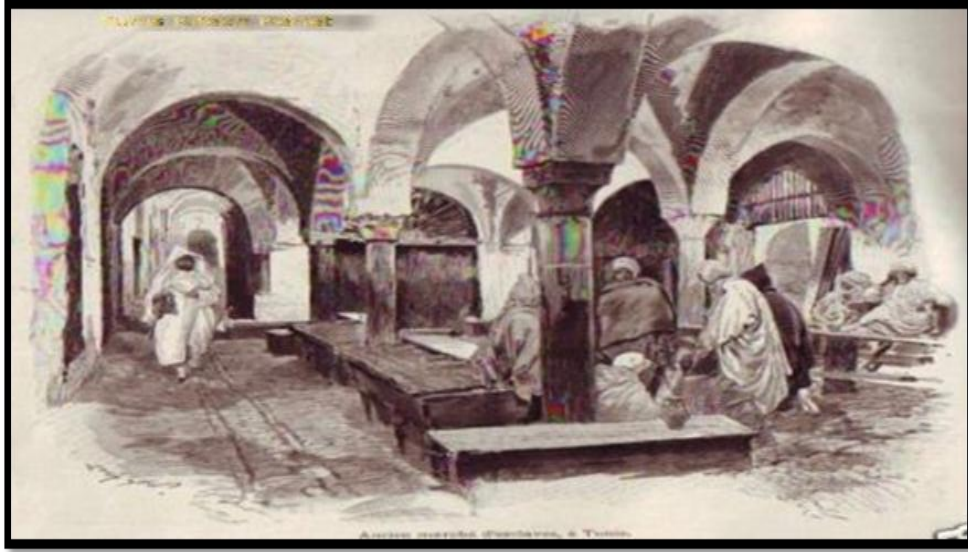
( مجموعة صور وثائقية عن جمعية صيانة المدينة بتونس )



لوحة (٤) مدخل السوق الجديد



لوحة (٥) تغطيات السوق الجديد



لوحة ٦- سوق اللفة



لوحة ٧- سوق السراجين

## الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني (دراسة تاريخية)

د/ سامح إبراهيم عبد الفتاح عبد العزيز  
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد  
كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر بالمنصورة

### ملخص البحث :

يتناول البحث الممارسات العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية البرية خلال العصر العثماني خلال مدونات الرحالة أنفسهم. فهناك عدد من العلماء رحلوا ضمن القوافل، ودونوا مذكراتهم ومشاهداتهم عن الطريق أثناء السير أو التوقف في المحطات، فتركوا لنا كمًا زخرفًا من المعلومات انصب جلها على الأنشطة العلمية من التدريس وحضور مجالس العلم في محطات القوافل، وزيارة العلماء والفقهاء في بيوتهم وما وقع من مناظرات بينهم خلال هذه اللقاءات وما تحصلوا عليه من أسانيد، وما أنجزوه من مصنفات تتوافق مع فريضة الحج وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم. فمدونات هؤلاء الحجاج وثيقة علمية تضمنت أنواع الأنشطة العلمية وأسماء العلماء الذين خرجوا مع الركب، وعلماء المراكز العلمية، كما أوضحت أنواع العلوم وأسماء الكتب التي تصلح للتدريس أثناء السفر والمؤلفات أنجزوها والتي يتم شرحها في دروس نظامية لطلاب يستكملون مسيرتهم العلمية ويستثمرون الوقت الطويل الذي يقطعونه في الرحلة صحبة شيوخهم، إضافة إلى دروس دعوية لعموم الحجاج في تعليم مناسك الحج والعمرة وآداب الزيارة ليصبحوا مؤهلين لتأدية الفريضة. وبذلك تصبح القافلة وكأنها مدرسة متنقلة على الطريق تتوفر لها أدوات ووسائل العلم ويتسابق الطلاب والعلماء في نشاط دائم يتعبون في محراب العلم وهم متلبسون بفريضة الحج يجمعون مع شرف طلب العلم شرف الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية(عربي): الحركة العلمية - قوافل الحج المغربية - العصر العثماني.





## **Scientific Movement Accompanying Moroccan Pilgrims Convoys during Ottoman Era (Historical Study)**

**Dr. Sameh Ibrahim Abdel Fattah Abdel Aziz**

Assistant Professor of Modern and Contemporary  
History / Faculty of Arabic Language,  
Al Azhar University, Mansoura

**Keywords (Arabic):** Some scholars – Moroccan pilgrimage caravans– Ottoman era)

### **Research Summary (English)**

The Research addresses the scientific practices accompanying the overland Moroccan Pilgrims Convoys during the Ottoman Era through the blogs of the travelers themselves.

Some scholars traveled in the Convoys and wrote down their diaries and observations on the road while walking or stopping at the stations, leaving us with a plenty of information, most of which focused on scientific activities such as teaching, attending science councils at Convoys stations, visiting scientists and jurists in their homes, and the debates that took place among them during these meetings, the evidence they obtained, and the compilations they accomplished in line with the obligatory Hajj and a visit to the Mosque of the Prophet (May God Bless Him And Grant Him Peace).

Blogs of these pilgrims constitute a scientific document that included the types of scientific activities and the names of the scientists who accompanied the people, the scientists of the scientific centers, as well as the types of science and the names of books that are suitable for teaching while traveling and the books they authored and explained in regular lessons for students who complete their scientific path and invest the long time they spend on the journey with their leaders, in addition to religious lessons for all pilgrims in teaching Hajj and Umrah rituals and the etiquette of the visit, so that they become qualified to perform the same.

Thus, the Convoy seems to be a mobile school on the road having the tools and means of knowledge. Students and scholars compete in constant activity and receive education in their way to perform Hajj, and they combine between the honor of seeking knowledge and the honor of time and place.

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وخاتم المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، عكف كثير من المؤرخين على دراسة الحياة السياسية في البلاد العربية خلال العصر العثماني وأغفلوا في المقابل الأنشطة العلمية والثقافية التي صورها لنا المؤرخون الغربيون على أنها كانت جموداً، جاء بعده الاحتلال الغربي برسائلته الحضارية التي عمّرت هذا الخراب؛ وإن كنا لا ننكر التراجم الذي أصاب الثقافة العربية الإسلامية تلك الفترة لا سيما في العلوم التجريبية كالرياضيات والكيمياء إلا أن العلوم الشرعية والعربية (علوم الجادة في ذلك العصر) كانت واسعة الانتشار مع أن العثمانيين لم يطوروها كما إنهم لم يعوقوها.

إن التاريخ الثقافي في الولايات العربية إبان العصر العثماني قد طاله كثير من التشويه؛ بسبب اعتماد مؤرخينا على المصادر الأجنبية دون تمحيص، وإهمال مصادرنا العربية البعيدة عن هيمنة الفكر الغربي، والتي كتبها أصحابها خلال ذلك العصر خاصة المخطوط منها، ومن بين هذه المصادر مدونات الرحالة المغاربة المعاصرين، وهي تشتمل على قدر كبير من المعلومات التاريخية والجغرافية عن بلادهم والبلاد التي مروا بها في طريق ذهابهم وعودتهم لأداء فريضة الحج، بالإضافة إلى تفاصيل الأنشطة العلمية على طريق الحج المغربي؛ وصفوا فيها المراكز العلمية بما تحويه من مؤسسات ومدارس تنتظم فيها الدروس في الحلقات ويتم خلالها النقاش، وتمنح فيها الإجازات، وتؤلف المصنفات، وتتوثق الأسانيد، فهي تجارب الرحالة ومن رافقهم من أهل العلم.

ويلاحظ إبداع المغاربة في تدوين الرحلات الحجازية خاصة، فهناك عدد كبير من العلماء والكتّاب رحلوا إلى الحج ودونوا مذكراتهم ومشاهداتهم عن الطريق، وما حدث خلال السير فيه وما دار أثناء مقامهم بكثير من المحطات تدويناً مفصلاً، فتركوا لنا كما زاحراً من المعلومات الأساسية عن الأنشطة العلمية سواء ما كان يحدث منها أثناء سير الرحلة أو عند التوقف في المراكز العلمية التي مروا بها.



كما إن هناك رحلات علمية خالصة، كان الدافع لصاحبها هو طلب العلم مثل: رحلة ابن عابد الفاسي الذي خرج في العشرين من عمره يطوف على مشايخ المراكز العلمية بداية من مراکش وطنجة وتونس والقيروان ومصر وبلاد الحجاز، واستقر به المقام في حضرموت من بلاد اليمن<sup>(١)</sup>. ولأن هؤلاء الرحالة من أهل العلم والشأن السياسي لا يلامس رحلاتهم الدينية والعلمية بشكل مباشر، فإن أخبار العلماء والفقهاء والطلاب وحراكمهم العلمي مبعوث في كتاباتهم بشيء من التفصيل، فالممارسات العلمية من تدريس وتصنيف وقراءة ومناظرات ومناقشات وسماع الروايات وجمع الأسانيد وحمل الإجازات ونسخ المخطوطات وجمع المصنفات العلمية أثناء السير في الطريق من وقت خروجهم حتى عودتهم، كما ضمت نصوصاً كثيراً من الإجازات التي حصل عليها هؤلاء من شيوخ المناطق التي مروا بها أو التي أجازوهم بها، وهي مصدر معين لمن يؤرخ للحركة العلمية بما اشتملت عليه من أسماء العلماء، وأنواع العلوم والمؤلفات، وطرق التحمل، وغير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها، والتي لا تكاد توجد بهذا الزخم في غيرها من المصادر التاريخية الأخرى<sup>(٢)</sup>.

لا شك، إن الأنشطة العلمية على الطريق كانت متفاوتة من رحلة إلى أخرى حسب عدد من خرج فيها من العلماء ومدى اهتمامهم بالتدريس والتثقيف والتأليف، فالسفر للحج فرصة لالتقاء العلماء بالطلاب في رحلة دينية علمية يعايش بعضهم بعضاً ويلتقون بأقرانهم من علماء ومشايخ الطريق؛ يحضرون مجالسهم لفترة تطول أو تقصر، يستفيدون ويفيدون تدریساً وتأليفاً ومناظرة وإجازة، فالرحلات وثيقة علمية وسجلات تاريخية، تضمنت أسماء العلماء والفقهاء الذين خرجوا من بلاد المغرب، وأسماء علماء وفقهاء المناطق التي مروا بها والذين التقوا بهم على الطريق في: الجزائر - تونس - طرابلس الغرب - مصر - بلاد الحجاز، وأحياناً بلاد الشام.

(١) يوسف بن عابد بن محمد الحسيني الفاسي المغربي (ت ١٠٤٨هـ): رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، حقق نصها وعلق عليها: إبراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص ٦.

(٢) عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية الموسومة بنزهة الأقطار في فضل علم التاريخ والأخبار من تأليف سيدي الحسين بن محمد الورثياني ١١٢٥-١١٩٣ (هجري)، دراسة تم إعدادها لمؤتمر جامعة فيلادلفيا، الأردن حول ثقافة التواصل، نوفمبر، ٢٠٠٩، ص ٩.



كما أوضحت أنواع العلوم التي تصلح للتدريس أثناء السفر وأسماء الكتب والمؤلفات التي يتم شرحها للطلاب على هيئة دروس علمية نظامية في الفقه والحديث والتفسير حتى يستكملوا مسيرتهم العلمية ويستثمروا الوقت الطويل الذي تستغرقه الرحلة صحبة مشايخهم وأقرانهم، هذا بخلاف الدروس الوعظية والدعوية، بالإضافة إلى قراءة الأوراد القرآنية والأذكار الراتبة لعوام الحجاج؛ لتعليمهم مناسك الحج والعمرة وآداب زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وحثهم على الطاعة والأخلاق الحسنة ليصبحوا مؤهلين لتأدية الفريضة التي يصعب على أحدهم أن يرجع إليها مرة أخرى في حياته؛ نظراً لبعد الشقة وصعوبة السفر وقلة أدواته ووسائله<sup>(١)</sup>.

كما زدنا الرحالة بكثير من المعلومات عن لقاءاتهم وزياراتهم للعلماء في بيوتهم يتناقشون معهم في المسائل وينظرونهم في النوازل، ويتبادلون الخبرات وينقلون نوازل المخطوطات.

كما كان وجود العلماء المغاربة ضمن الركب فرصة لمن لم يقدر على الرحلة إليهم من أهل البلاد التي يمرون بها، فيجد ضالته بالجلوس بين أيديهم في هذه الأيام القليلة أو السويغات البسيطة التي يقيمون فيها ببلادهم، ولذا نجد عبارة " وتتقف بالوافدين عليها " موجودة في تراجم الكثيرين من المشايخ في طرابلس الغرب، فكانوا كما وصفهم الورثياني: "إذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه"<sup>(٢)</sup>.

والجدير بالذكر أن النشاط العلمي ظل ملازماً لقوافل الحج المغربية من وقت خروجها إلى عودتها بطريقة مرتبة منظمة حسب خطة موضوعة مسبقاً في بعض الأحيان، فالركب

---

(١) يذكر العياشي أن الركب المرافق له ضم وجوه الناس من العلماء والفقهاء والمؤننين وأنهم كانوا يختمون القرآن كل ليلة ختمة في أخبيتهم بخلاف الحزب الراتب. أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي: (١٠٣٧ - ١٠٩٠ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٧٩ م): الرحلة العياشية (١٦٦١ - ١٦٦٣ م)، تحقيق: د / سعيد الفاضلي، و د/ سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبوظبي الإمارات، ٢٠٠٦ م، ١ / ١٦٠.

(٢) حسين بن محمد الورثياني: نزهة الأنتظار في فضل علم التاريخ والأخبار، أو الرحلة الورثيانية، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيروفونتانة الشرقية، الجزائر، (د - ت)، ص ١٩٧.



المصاحب لابن عبد القادر الفاسي<sup>(١)</sup> بدأ النشاط العلمي له منذ خروجه من مدينة فاس ولم يتوقف حتى عودته إليها<sup>(٢)</sup>.

وأما عن فرضية هذا البحث وإشكاليته، فهو يجيب عن عدة أسئلة منها: لماذا تنشط الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربي خلال العصر العثماني؟ وما أنواع الأنشطة العلمية التي مارسها الحجاج على الطريق؟ وسوف يجيب البحث عن هذه التساؤلات من خلال التمهيد والمباحث التالية:-

### التمهيد : عوامل ازدهار الحركة العلمية على طريق الحج المغربي:

هناك مجموعة من العوامل التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال فترة الدراسة منها.

١- اشتغال هذه القوافل على عدد كبير من العلماء والطلاب الذين فضلوا مواصلة مسيرتهم العلمية على طريق الحج وفي منازلهم بشكل شبه منتظم، الأمر الذي يجعلنا يمكن أن نتصور في بعض الرحلات أنها كانت بمثابة مدارس متنقلة طرق أبوابها الطلاب والعلماء والتقوا في رحابها، فأسهمت في تعميق ثقافتهم، وأنتجوا التراث المائل بين أيدينا نستقي منه ونعتمد عليه في دراستنا التاريخية<sup>(٣)</sup>.

(١) أبو العباس أحمد بن عبد القادر الفاسي: فقيه ومدرس كان حياً سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م، من بيوت فاس العلمية، تتلمذ على علماء عصره، ثم رحل إلى المشرق وطلب العلم في الأزهر، رافق الثعالبي في مجلس الخفاجي، وهو صاحب الرحلة المنسوبة إليه من فاس إلى الحجاز. أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي: رحلة من مدينة فاس إلى مكة والمدينة (سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ - ١٧٩٧ م)، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٤ جغرافياً، ميكروفيلم ٧٥٢٦، عبد النبي بن المجذوب بن عبد الحفيظ بن أبي مدين الفاسي، لوحة ٤٦ / أ، ب؛ محمد عبد الحَيِّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإبريسي، الكتاني (ت: ١٣٨٢ هـ): فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢ م، ٧٠٨ / ٢.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٣ / ب.

(٣) خرج مع العياشي قاضي مراكش الشيخ أحمد الخطيب، بينما ضمت رحلة الفاسي مجموعة من العلماء منهم الفقيه محمد بن عبد السلام الناصري، وأما رحلة الإسحاق، فضمنت الفقيه بلقاسم بن سعيد العميري وغيره. العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٣٣١؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٤٩ / ب؛ الإسحاق: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٥٩.



٢- بُعد المسافة التي يقطعها الراكب من المغرب الأقصى إلى الحرمين الشريفين في الذهاب والعودة وطول المدة الزمنية التي كان الطريق يستغرقها الأمر الذي حدا بأهل العلم من الحجاج استثمارها في التدريس والتأليف وحدا بالطلاب استثمارها في التحصيل حتى لا يفوت هذا الوقت الطويل بلا فائدة<sup>(١)</sup> وحتى يحافظ أهل العلم على المداومة في الطلب لا ينقطعون عنه<sup>(٢)</sup>.

٣- مرور الراكب المغربي بكثير من الحواضر العلمية المشهود لها في الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، ومصر، وبلاد الحجاز، مما أتاح لهم فرصة لقاء مشاهير العلماء فيها، على أن اللقاء الأعظم في الحرمين الشريفين؛ إذ يجتمع فيهما العلماء من كل بلاد المسلمين، فالرحالة كانوا يستعدون ويتأهبون للقاء هؤلاء، ويحرصون على مجالستهم، قال العياشي: "وأعددت لفوائد الرحلة عددًا كثيرة، فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضرة الأديباء، ومجالسة الظرفاء"<sup>(٣)</sup>.

٤- كما إن اهتمام الرحالة بالعلم على طريق الحج كان له دوافع شرعية، فهم يحتسبون الأجر ويتواصلون بإخلاص النية في الطلب قال الوريثاني عن آداب الحاج: "وينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلاً"<sup>(٤)</sup>.

٥- نظرة الاحترام والقداسة المتوارثة للمشرق الإسلامي في نفوس أهل المغرب، حيث استقر في أذهانهم أهمية الأخذ عن علماء هذه الجهة التي جاءهم الإسلام وتعلموا لغته وعلومه منها حتى أنهم أحسوا أن علومهم لا تتعمق وترسخ إلا بمخالطة علماء المشرق

(١) كانت الرحلة من الجزائر تستغرق فقط في الذهاب ما بين خمسة إلى ستة أشهر. عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الوريثانية...، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) كان أهل العلم يتواصلون فيما بينهم بعدم التوقف عن التدريس. العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١ / ١٧٤.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١ / ٥٣.

(٤) الوريثاني: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٤٦.



والاطلاع على تراثه وكتبه<sup>(١)</sup>، هذه النظرة عمقها علماء المغرب في أذهان المقبلين على الحج، ذكر الإسحاق<sup>(٢)</sup> أن العلامة محمد بن أبي بكر الدلائي خطيب المسجد الكبير في فاس خطبهم بمناسبة توديع الركب وحثهم على العلم وشوقهم للمعاهد العلمية في المشرق حتى "هفت نفوسهم وذرقت عيونهم جميعاً شوقاً"<sup>(٣)</sup>.

٦- اقتداء اللاحق من المغاربة بالسابق، حيث حرص طالب العلم على الاستزادة من العلوم في طريق الحج وهو متجه إلى الحرمين الشريفين أو متلبس بفريضة الحج، لتحصيل التأسي والاقتداء بأسلافه من العلماء، كما صرح بذلك المقري في قوله: "واقفيت في ذلك سنن بعض سلفي الأخيار"<sup>(٤)</sup>.

٧- الحرية التي كفلتها الدولة للعلماء في الحركة والتنقل والتدريس والإفتاء ونشر العلم في مختلف الولايات الخاضعة لها سواء من رعايا السلطان أو من غيرهم من العلماء المسلمين المشهود لهم بالعلم والبعيد عن إثارة الفتنة وهو ما يجب أن يقف عنده المؤرخون ملياً، ويعيدوا صياغة ما كتبه عن تلك الفترة من التاريخ الإسلامي الحديث التي طالما نعوتها بالظلم والاستبداد<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ص ١٤٩؛ إمام قرود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن ١١هـ / ١٧م، من خلال ثلاثة نماذج: أحمد المقري، عيسى الثعالبي، يحيى الشاوي النائلي، منكرة غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص العلاقات بين المشرق والمغرب في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، العام الجامعي ١٤٣٠-١٤٣١هـ / ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م، ص ٧١.

(٢) محمد الشرقي بن محمد الإسحاق: ينتسب لأيت إسحاق، كان كاتباً للمولى إسماعيل العلوي ومن رجاله المقربين، حج عدة مرات آخرها عام ١١٤٣هـ مع الأميرة خنائة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل وأم ولده السلطان عبد الله ومعها حفيدها الأمير محمد بن عبد الله. يراجع: محمد الشرقي بن محمد الإسحاق: الرحلة (سنة ١١٤٣هـ) "صحبة الأميرة خنائة بنت بكار زوجة مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى" مخطوط بالخرزانة الملكية بالقصر الملكي في مدينة الرباط، المملكة المغربية، تحت رقم ١١٨٦٧، ص ص ١٥٦ - ١٦٠؛ الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ٢/ ٩٣٥، ١١٥٧.

(٣) الإسحاق: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٤) أحمد المقري: مقتطف من أزهار الرياض في أخبار عياض، ج ١، مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، محفوظ تحت رقم ٢٩٦١، لوحة ٣.

(٥) إمام قرود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ١١٦.



٨- عنايتهم العامة بوصف كل مظاهر الحياة وجوانبها على طريق الحج؛ لتكون عُدّة وذخراً ينتفع به الحجاج والرحالة اللاحقين، حتى إن بعضهم أفرد هذا الغرض بمؤلف خاص مثل العياشي في كتابه: "التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز" والحياة الثقافية كانت من أولويات ما وصفوه ضمن هذه المظاهر<sup>(١)</sup>.

### المبحث الأول : التدريس على طريق الحج المغربي وفي منازلهم:

اقترن النشاط العلمي بالركب المغربي منذ الوهلة الأولى عندما يخرجون من بلادهم، فبيئة العلم مهياة بصورة كبيرة، حيث يضم الركب المتخصصين من فقهاء ومحدثين ولغويين ومؤرخين ومعهم طلابهم الذين خرجوا للحج يحملون أدواتهم الدراسية، والوقت طويل لا يشغلهم عن بذل العلم لهم شاغل، ويمرون بالمراكز العلمية العتيقة يتزودون بما يحتاجون من المؤلفات، وشملت الحركة العلمية غير المتخصصين من عوام الحجاج، حيث رتبت لهم كتب تسرد على مسامعهم في السنة والشمال النبوية، وحلقات قرآنية كانوا يتابعون فيها تلاوة القرآن وبعض الأذكار بصورة دائمة لا ينقطعون<sup>(٢)</sup>.

### أ- التدريس على طريق الحج المغربي:

من الجدير بالذكر، إن الركب المغربي ضم بين أفرادهم بعض العلماء الذين برعوا في كثير من العلوم ومعهم طلابهم الذين يدرسونهم في الطريق، كما بلغ خبرهم طلاب العلم في المشرق، لكن بعد الثقة حال بينهم وبين التلمذ علي هؤلاء الأعلام، فلما مروا بهم في طريق

(١) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي : (١٠٣٧ - ١٠٩٠ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٧٩ م): التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، المملكة المغربية، ضمن مجموع تحت رقم ٤٣ ك.، والعياشي مر على الطريق عدة مرات، وهو يؤدي فريضة الحج في سنوات ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م، ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣ م، ١٠٧٣ هـ / ١٦٦١ م، وسجل رحلته التي جمعت مشاهداته فيها جميعاً وجل من جاء بعده نقل عنه، ولذا فهي من أهم مصادر الدراسة العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٢٩.

(٢) لا شك أن هذه الفترة كان الحجاج المغاربة وغيرهم يمارسون بعض الأشياء غير المتوافقة مع المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فوجب التنبيه وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.





ذهابهم وعودتهم للحج خرجوا واستقبلوهم ورحبوا بهم<sup>(١)</sup> واغتنموا الفرصة وجلسوا بين أيديهم وتلقوا عنهم ما تخصصوا فيه واشتهروا به من العلوم، وطلبوا منهم الإجازة، ومع ضيق الوقت إلا إن أغلب هؤلاء العلماء أجابوهم وشاركوا في حلقات الدرس<sup>(٢)</sup>.

وقد بدأ العلماء المغاربة تدريسيهم على طريق الحج من وقت خروجهم مباشرة لطلابهم، فالقاضي أحمد الخطيب المراكشي قاضي مراكش الذي كان مرافقاً للعايشي، والفييه محمد بن عبد السلام الناصري الذي كان مع الفاسي، والشيخ بلقاسم بن سعيد العميري وكان مع الإسحاقى وغيرهم ممن يصعب حصرهم قطعوا الطريق ذهاباً وإياباً يدرسون طلابهم المرافقين لهم<sup>(٣)</sup>.

ونظراً لظروف الترحال والنزول، فإن التدريس أثناء السير على الطريق اتجه في معظمه ناحية طريقة السرد التي تتناسب وطبيعة السفر والفريضة التي يتلبسون بأدائها، فلم تكن هناك فرصة لجلوس الطلاب حول شيخهم في حلقات علمية يقوم التدريس فيها على التفصيل والمناقشة والنقد والتحليل، فاختاروا طريقة السرد بتلاوة بعض الكتب مع الشرح البسيط لها، ومن الكتب التي كان الحجاج يسردونها فرادى أو جماعات على الطريق كتاب : الشمائل للترمذي وفيه تنكير بشمائل النبي صلى الله عليه وسلم للحجاج قبل زيارته لمعرفة حقه، بدأه الركب المرافق لابن عبد القادر الفاسي عند خروجهم من طرابلس متجهين ناحية المشرق وختموا مع وصولهم بنغازي<sup>(٤)</sup>.

(١) نال هؤلاء العلماء مكانة طيبة في المراكز العلمية وحازوا احترام حكامها حتى إن يوسف باشا القرماني والي طرابلس الغرب كان يخرج بجنده ليرحب بهم، وكذلك خرج والي مصر العثماني ومن حوله الأعيان والعلماء لاستقبالهم وتقديم الهدايا لهم. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٢٢ / أ ؛ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ٦١/١.

(٢) ربيعة قريزة : علماء جزائريين بمصر في الفترة العثمانية (القرن ١١ - ١٢ هـ / ١٦ - ١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١٠ - ٢٠١١م، ص ٢٣.

(٣) العياشي : الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٣٣١؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٤٩ / ب ؛ الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٤) بنغازي مدينة تقع غربي مدينة طرابلس على مسافة كان الركب يقطعها في ١٤٠ ساعة بالسير المعتاد، كانت زمن الدراسة ذات بناء متسع لكنه غير متقن وفيها ميناء ترسو فيه السفن القادمة من طرابلس وتونس وغيرها من بلاد الدولة العثمانية تأتيه بالفواكه والسلع، وأرضها أرض زراعية وتربية ماشية وأهلها وقتند كانوا يميلون إلى البداوة. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (٢٧ / أ).



ويبدو أن كتاب الشمائل من الكتب التي كانت تلازم الركب المغربي في ذهابه وعودته، وهو يناسب الحج وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ففي العودة كانوا أيضاً يداومون على قراءته، كلما انتهوا منه، استأنفوه من جديد إذ يذكر ابن عبد القادر أنهم استفتحوا سرده في العودة عند خروجهم من مصر وختموه في قصبة أولاد علي على حدود مصر الغربية مع ولاية طرابلس الغرب<sup>(١)</sup>.

والظاهر أن الغرض من تكرار سرد الكتاب وترديده على الطريق هو تثبيت حفظه حتى إذا تيسر الأمر في أحد المراكز العلمية تدارسوه مثلما عقد العياشي له مجلساً لشرحه في المسجد النبوي بجوار صاحب الشمائل صلى الله عليه وسلم مستعيناً بشرح المناوي على الكتاب وهو شرح مبسط يناسب الحال، قال العياشي: "وهو من أحسن ما رأيت من الشروح"<sup>(٢)</sup>.

وأما صحيح البخاري فهو أهم الكتب التي عني بها علماء الركب المغربي يستمرون في سرد منتهه والتعليق عليه وقراءة بعض شروحه واستنباط الأحكام منه طوال الطريق، وكان يوم ختمه يوماً مشهوداً يقيمون حفلاً يليق بالصحيح، فالشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر انتهى من البخاري وهو في واحة سيوة المصرية على طريق القنوم من المغرب واجتمع له أعيان الركب يتقدمهم شيخه وكبار الشخصيات وكثير من الطلاب، وبدأت مراسم الاحتفال بتعليقات للشيخ ضمنها الكثير من الفوائد الفقهية واللغوية ثم ختم بالدعاء<sup>(٣)</sup>.

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن قراءة البخاري حتى في المنازل التي كانوا يستريحون فيها ولو ليوم واحد، وكان بعض أهل العلم في المحطات المذكورة يحضرون معهم وربما علق أحدهم بشرح أو خلافة، مثلما حدث في توزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي حيث حضر طلاب المدينة ومعهم بعض الفقهاء عند ركب الإسحافي في يوم إقامتهم وشاركوهم

(١) إذا علمنا أن خروجهم من القاهرة كان يوم ٩ جماد الأولى ١٢١٢ هـ، ووصولهم عند قصبة أولاد علي يوم ٥ جماد الآخرة ١٢١٢ هـ، فإن هذا يعني أن سرد الشمائل كان يستغرق حوالي ٢٧ يوماً لا تزيد. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (٢٦ / أ)؛ (١٢٩ / أ).

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٤٢٨ / ١.

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (٤١ / ب - ٤٢ / أ).



قراءة الصحيح وكان الإسحاقي هو الذي يسرده ويعلق عليه من فقهاء توزر المذكورة الفقيه محمد بن منصور التوزري<sup>(١)</sup>، ثم واصلوا تلاوته فلما نزلوا مصراتة<sup>(٢)</sup> توافق أنهم بلغوا : باب الحج، فتعمدوا مواصلة القراءة عند علمائها حتى يثبت لهم أجر السماع منهم<sup>(٣)</sup>.  
ومن هنا يتضح أهمية كتب الحديث عامة وصحيح البخاري خاصة لطلاب العلم وعموم الحجاج على الطريق للتفقه في مناسك الحج والعمرة قبل التلبس بهما وغير ذلك من أعمال الزيارة.

ومن أهم الشروح التي عني بها المغاربة على البخاري لفهمه أثناء الرحلة شرح القسطلاني وإذا لم تكن جميع أجزاء الكتاب متوفرة معهم ربما استعاروه في الطريق، حيث طالعنا الإسحاقي بأنهم استعاروا جزءاً من هذا الشرح من الفقيه محمد منصور سابق الذكر في توزر على أن ينتهوا منه في المسافة بين توزر وبين طرابلس ثم يردونه لصاحبه مع القوافل العائدة من هناك<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا دليل على ندرة هذا الكتاب وقلة عدد النسخ المتوفرة منه، كما يدل على همة العلماء والطلاب العالية في هذه الرحلة خاصة إذا علمنا أن المسافة المذكورة تقطع في عدة أيام فقط.

ومن الكتب التي كانوا يعتنون بها في الطريق شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو؛ فالإسحاقي ومن معه في الرحلة كانوا يسردون هذا الشرح ويتناقشون في مسائله على الطريق فلما اختلفوا في بعض المسائل أجلوا النقاش حتى يصلوا القاهرة وي طرحوها على نحاة الجامع الأزهر<sup>(٥)</sup>.

(١) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) مسراتة أو مصراتة: مدينة ليبية تقع على مسافة ٢١٥ كم شرق طرابلس، وهي مركز علمي سكنها الشيخ زروق وفيها مساجد عامرة بالدروس، وقد اشتهر أهلها بالنشاط التجاري. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (٢٨ / أ)؛ الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، (ص: ٣١٧).

(٣) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٤) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٥) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٥٧.



من بين الأنشطة العلمية التي تلازم عموم الحجاج المغاربة على طريق الحج تلاوة القرآن والأذكار وبعض الأدعية وهو نشاط علمي وديني كان يناسب حالة السفر لهذه الشعيرة بحيث يستطيع الراكب على دابته أن يحدد له ورداً من القرآن الكريم أو كتب الأذكار يقرأه بطريقة مرتبة كلما انتهى من قراءة ختمة بدأ غيرها، يذكر العياشي أن الحجاج في الركب المرافق له كانوا يختمون القرآن كل ليلة ختمة في أخبيتهم بخلاف الحزب الراتب<sup>(١)</sup>.

ويحدد ابن عبد القادر الفاسي، في استفتاح رحلته القدر الذي يقرأه الحاج من القرآن طوال مرافقته للركب في الذهاب والعودة، حيث لا يقل ورد الركب كل يوم عن حزب في الصباح ومثله بعد صلاة المغرب، يتخللهما أوراد وأذكار مرتبة يزداد عليها وينقص منها في بعض مراحل الطريق<sup>(٢)</sup>.

#### ب- التدريس في منازل ومحطات الطريق:

إذا رافقنا الركب المغربي نجده يمر بمجموعة من المركز العلمية المهمة ينزل الحجاج بها، كل يبحث عن غايته، وأن أهل العلم ركزوا في نزولهم على المدارس والمساجد التي كانت تتأهب لاستقبالهم يلتقون فيها العلماء وينتظرهم الطلاب ممن لم تتح له فرصة السفر للأخذ عنهم في بلادهم، فيغتمون هذه السويغات القليلة أو الأيام المعدودة في ذهابهم وإيابهم، يلقون عليهم بعض الدروس<sup>(٣)</sup>. ففي الجزائر نزلوا وادي خالد ببلاد الزاب<sup>(٤)</sup>، وبسكرة<sup>(٥)</sup>،

(١) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ١٦٠.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٤ / ب، ٥ / ب .

(٣) الجدير بالذكر أن النابغين من علماء المغرب كانت لهم مكانة في نفوس علماء وطلاب المشرق يتجلى ذلك من كلام أبي راس : "وفي سنة أربع ومائتين وألف، ذهبت إلى الحج، فقامت لي علماء المشرق على ساق" محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس : فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق : محمد بن عبد الكريم الجزائري، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ١٩٨٢م، ص ١١٠.

(٤) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحات (٨ / أ - ٩ / ب).

(٥) الورثياتي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ١١٥، ١٢٢.



وقسنطينة<sup>(١)</sup>، وتلمسان<sup>(٢)</sup>، وعقدوا بعض اللقاءات في مساجدها وألقوا الدروس وأحسن الطلاب استقبالهم وأبدوا استعدادًا وحرصًا على الاستفادة من وجودهم، وفي تونس كانوا ينزلون جامع الزيتونة الشهير يصلون فيه ويلتقون بالعلماء ويجلس لديهم الطلاب أمثال القاضي محمد الطوي والشيخ مصطفى الواردي الحنفي وكلاهما من الخطباء المفوهين أتى ابن عبد القادر على علمهما وبلاغتهما<sup>(٣)</sup>.

كما كانت مدينة توزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي ضمن منازل الركب التي يلتقون بطلاب العلم فيها، فالإسحاقى يذكر أنهم لما مروا بها دخلوا أحد مساجدها الصغيرة غير الجامعة وجدوا حلقين الأولى للفقير محمد بن منصور، والأخرى للفقير السيد بو رمضان فتكلموا معهما وأثاروا بعض المسائل في الفقه والنحو وعندها تصدّر لهم من علماء الركب الفقير العربي بن محمد يدرّسهم ويجيبهم عما يريدون<sup>(٤)</sup>.

والجدير بالذكر أن عناية علماء طرابلس بالفقهاء المغاربة المرافقين للركب كانت فاتحة مثل الشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر الذي حاز عنايتهم وخصوه بحفاوتهم فالتف طلابهم حوله وظلوا ملازمين له مدة إقامته بالمدينة يستفيدون من علمه حتى ودّعوه وكان من آخر أهل الركب خروجاً بسبب انشغاله معهم الأمر الذي علق عليه ابن عبد القادر بقوله: " إذ لا ينبغي إهمال مثل هذا الفقير المذكور وعدم الاعتناء به"<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٥٧/أ، ب.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٦١/ب. وتلمسان كانت حاضرة من أهم حواضر الثقافة الإسلامية في الغرب الجزائري طوال العصر العثماني، وهي قريبة من البحر المتوسط في أقصى الشمال الغربي من البلاد، على الحدود الجزائرية المغربية، وإلى الجنوب الغربي من وهران، مثلت نقطة تنازع بين السعديين في المغرب الأقصى والعثمانيين، محمد بن عمرو الطمار: الروابط الثقافية بين تلمسان والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ٢٣٨.

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٥٣/ب، ١٥٥/ب.

(٤) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٥) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (لوحة رقم ٢٣/ب).



وأما مصر التي كانت قبلة العلم في ذلك العصر، فقد استهوت النابهين من علماء الركب للتدريس؛ فنالوا شهرتهم في أزهرها ومدارسها الأخرى، من هؤلاء المقري<sup>(١)</sup> الذي نزل بها لأول مرة في طريقه إلى الحج ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م، ومارس التدريس في الإسكندرية ورشيد، وأعجب بالقاهرة أيما إعجاب، وأقام بها شهرين زار خلالها الأزهر، فلفت أنظار أهل العلم إليه بحافظته القوية وعلمه الغزير، وتصدر في الجامع الأزهر لتدريس العقائد وعلوم الحديث، فلاقت دروسه إقبالا شديداً من الطلاب والعلماء على حد سواء ولما اقترب موسم الحج سافر إلى الحجاز<sup>(٢)</sup>.

وبعدما أدى فريضة الحج تألق نجمه في حلقات التدريس بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى القاهرة في المحرم ١٠٢٩ هـ / يناير ١٦٢٠ م، ولازم تدريس صحيح البخاري مرة ثانية بالأزهر، وظل يتردد بين مصر وبلاد الحجاز حتى اكتمل له خمس حجّات عاد بعدها إلى القاهرة ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨ م واستقر في الأزهر<sup>(٣)</sup>.

ونكر الطيب الفاسي أنه أثناء مروره بالقاهرة في طريق العودة ١١٤٠ هـ - ١٧٢٨ م، حضر لهم جماعة من طلاب العلم بالقاهرة وأحضروا مجموعة من الكتب منها: "الشمائل المحمدية" و "الأربعين النووية" ليقرأها بمسجد الغورية، فاجتمع الطلاب في درس حافل، وفي

---

(١) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني المغربي ينحدر من أسرة علمية عريقة ولد في حدود عام ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ونشأ في تلمسان ثم رحل إلى فاس، وأقام بها خمس سنوات، تقلب خلالها بين التدريس والإفتاء، ومر بمصر في طريقه للحج عام ١٠٢٨ هـ، له عدة مؤلفات أهمها نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وكتاب الرحلة إلى المشرق والمغرب. ربيعة قريزة: علماء جزائريين بمصر...، مرجع سابق، ص ٧٧ - ٨٠.

(٢) أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠٠٤ م، ص ٤٣، ٧٠؛ إمام قروود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٧٠؛ أحمد المقري: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨ م، ١ / ٥٦، ٥٧.



يوم الختم أكثروا له من الطيب وماء الورد وماء الزهر والند والعود الذي لا مثيل له ولا ند وكانت ختمة جميلة<sup>(١)</sup>.

ولم يكن هذا الدرس مقتصرًا على المغاربة فحسب، بل حضره غيرهم من الطلاب أبرزهم العلامة الزبيدي<sup>(٢)</sup>، والشيخ محمد الشنواني القيم على جامع الغورية، والشيخ محمد بن منصور السقطي<sup>(٣)</sup>.

وأما التاودي ابن سودة<sup>(٤)</sup> فيصف حرص أهل العلم في مصر من طلاب وعلماء على أخذ الحديث الشريف منه وربط سندهم به بقوله: "فطمحت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء وفي الأخذ عن مشايخ المغرب رغبة أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، وإن كنت في الحقيقة على جناح سفر فأجبتهم بعد الاستخارة وموافقة القدر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر"، وقد لقي هذا المحدث قبول الأزهريين، فرحبوا به واجتمعوا على درسه واتسعت حلقاته<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو عبد الله الطيب الفاسي: رحلة الفاسي...، مصدر سابق، لوحة ١١٥/ب، ١١٦/أ.

(٢) محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى ١١٤٥هـ / ١٢٠٥هـ (١٧٣٢-١٧٩٠م): ورد إلى مصر سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م وأخذ عن علمائها المقدسي، وأحمد الملوي، والجوهري، والصعيدي، وغيرهم، واشتهر في مصر، وخارجها، وكان يرأسه ويهائيه ملوك الترك، والحجاز، والمغرب، وغيرهم بالهدايا والتحف، وكان أكثر الناس حياً له المغاربة، له مشاركة في علوم اللغة والحديث والرجال والأسباب، أشهر مؤلفاته "تاج العروس" عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: أ د / عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن، منشورات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨م، ٢/ ٢٨٨-٣١٢؛ الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ١/ ٣٩٨.

(٣) أبو عبد الله الطيب الفاسي: رحلة الفاسي...، مصدر سابق، لوحة ١١٧/أ، ب.

(٤) هو أبو عبد الله المري الفاسي تلقى علومه في فاس وخاصة الحديث والتفسير، حج سنة ١١٨١ هـ - ١٧٦٧م، ألقى دروساً هناك، ثم ورد إلى مصر وتباحث مع علمائها، وله مؤلفات منها: حاشية على البخاري، وأخرى على الرزقاني، توفي ١١٩٤ هـ - ١٧٨٠ م. الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ٢/ ٣٦١ - ٣٦٤.

(٥) محمد التاودي بن محمد الطالب بن سودة المري: الرحلة، وفيه سند التاودي بموطأ مالك وصحفي الإمامين، نسخة في قسم المخطوطات، مكتبة الحرم النبوي بالمدينة المنورة عن المكتبة الأزهرية، تحت رقم ٨٨٦ تاريخ، ورقم ٥٣٥٨٢ مصطلح حديث، لوحات (٢/ أ، ب).



وقد أشاد الجبرتي بهذا المحدث وبدرسه المذكور بقوله: " ألقى درساً حافلاً بالجامع الأزهر برواق المغاربة، فقرأ الموطأ بتمامه، وحضره غالب الموجودين من العلماء، وأجاد في تقريره "(١).

وأما بلاد الحجاز وهي مأوى لمجاوري الحرمين الشريفين من أهل العلم، فقد شهدت جهوداً طيبة قام بها النابغون من العلماء المغاربة لنشر العلم وتصدر مجالس الدرس ضمن الأنشطة العلمية المصاحبة للرحلة، ففي المدينة المنورة عقد العياشي درساً في المسجد النبوي من بعد العصر إلى قريب من المغرب لمدة شهر درّس فيه مختصر خليل في الفقه المالكي من أول الكتاب وحتى فصل الأذان ثم حال المرض بينه وبين طلابه(٢)، ولما أحس بالعافية بدأ درساً جديداً في شرح شمائل الترمذي بعد صلاة الصبح بباب النساء مستعيناً بشرح المناوي للشمائل، فأفاد الطلاب كثيراً من هذا الدرس، غير أن المرض خال بينه وبين ختم الكتاب أيضاً(٣)، كما درّس القرطبية في الفقه المالكي، وألفية ابن مالك في النحو ومختصر العصامي في الاستعارة وغير ذلك من الكتب(٤).

ومن الكتب التي درّسها العياشي في المسجد النبوي أيضاً مقدمة السنوسي، ونقاية السيوطي طلبها منه أحد الطلاب من السودانيين المجاورين، والنقاية مختصر في عدة علوم، ومن الغريب أن هذا الطالب السوداني طلب من العياشي أن يدرّسهم الطب والتشريح في الحرم النبوي وألح عليه غير أنه رفض لعدم معرفته بهما(٥).

(١) الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١/٣٦٢.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٢٧.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٢٨.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٣٠.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٣٠.





وكانت للثعالبي<sup>(١)</sup> زيارات سنوية للمدينة المنورة يعقد خلالها حلقات علمية في المسجد النبوي يدرس المعجم الصغير للطبراني، والأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً لتقي الدين الفاسي<sup>(٢)</sup>، وكتاب الشمائل وكان مجلسه في الروضة فيما بين القبر الشريف والمنبر<sup>(٣)</sup>. وفي المسجد النبوي أيضاً أملى المقرئ الحديث الشريف من داخل الروضة؛ ونظراً لمكانة الشيخ العلمية فقد حضر دروسه بعض أئمة الحرم النبوي الشريف<sup>(٤)</sup>.

كما لقي الإسحاقى ثلة من أهل العلم بالمدينة المنورة وجالسهم منهم الفقيه محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي وأخويه السيد يوسف والسيد عبد الرحمن، وهم من بيت علم من بقايا بيوت الأنصار، ومنهم السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام والمدرس بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>.

(١) عيسى بن محمد بن أحمد الجعفري: ينتسب إلى جعفر الطيار رضي الله عنه الثعالبي نسبة إلى موطن أجداده الثعالبة، ولد ونشأ في الجزائر وتلقى على علمائها الأفاضل أمثال الشيخ المحدث سعيد قنورة الذي تأثر به كثيراً، فركز منذ وقت مبكرة على الحديث وروايته حتى أصبح شيخ المحدثين، خرج إلى الحج في سنة ١٠٦١هـ / ٦٥٢م، وجاور المسجد الحرام سنتين سكن خلالها بخلوة رباط الداودية عند مدخل باب حزورة، ثم جاء إلى مصر وأقام بها سنتين آخرين، ثم عاد بعدها إلى مكة المكرمة ليجاور أربعة عشر عاماً هي بقية حياته التي انتهت في رجب ١٠٨٠هـ / ٦٧٠م. محمد أمين المحيي (ت ١١١١هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، د - ت، ٣ / ٢٤٠ - ٢٤٣؛ محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣١١؛ محمد حاج سعيد: مساجد القصبة في العهد العثماني، تاريخها، دورها، عمارتها، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص حضارة إسلاميين، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة، جامعة الجزائر ١، ١٤٣٥-١٤٣٦هـ / ٢٠١٤-٢٠١٥م، ١٢٩، ١٣٠.

(٢) تقي الدين أحمد بن محمد بن علي الفاسي (ت: ٨٣٣هـ)، فقيه مالكي نزل مكة وجاور البيت الحرام، ولي قضاء المالكية، من مؤلفاته: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. مخلوف: شجرة النور الزكية... المصدر السابق، ص ٣٦٣.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٦٧؛ ربيعة قريظة: علماء جزائريين بمصر...، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤) المقرئ: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٧٠؛ أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ١/٥٦، ٥٧.

(٥) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٨٣، ٣٨٤.



وأما مكة المكرمة فكما كانت قبلة الصلاة ومقصد الحج فهي أيضاً وجهة العلم والمسجد الحرام مكانته وقديسيته التي جعلت العلماء المغاربة يحرصون على أن يتعبدوا الله فيه بتدريس العلم النافع فيما أُتيح لهم من وقت قبل الحج وأثناء الموسم وبعده، فالمقري مكث في مكة المكرمة قبل الحج مدة شهرين منتظراً الفريضة كان خلالها مشغولاً بالتدريس فتجمع حوله الطلاب وأملى عليهم دروساً عديدة في الفقه والحديث والتفسير والشمائل المحمدية<sup>(١)</sup>.

وفي المسجد الحرام، تصدر الثعالبي لتدريس المعجم الصغير للطبراني بحضور فقهاء المذاهب المختلفة وكلما وقف على دليل فقهي وقف عنده وبين حجبه ووجه الاستدلال منه الأمر الذي أعطى دروسه أهمية فالتف حوله المجاورون<sup>(٢)</sup>.

ومن المغاربة من كان يعرج على بلاد الشام بعد تأدية الفريضة يزور بيت المقدس ويلتقى بالعلماء في مساجد وحواضر الشام العريقة أمثال المقري الذي خرج بعد تأدية الحج للمرة الخامسة في رجب ١٠٣٧هـ / مارس ١٦٢٨م، وهناك ألقى دروساً في المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة والحرم الإبراهيمي، ثم توجه إلى دمشق فاستقبله أهل العلم فيها بما يليق بمنزلته ومكانته، وأخذ يدرسهم تاريخ الأندلس ويحدثهم عن أعلامها وحضارتها فطلب منه أعيان الشام وعلمائه أن يترجم للسان الدين ابن الخطيب وبعض ملوك وعلماء وأدباء عصره الأمر الذي شجعه على تأليف كتابه المشهور : نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب<sup>(٣)</sup>.

أقام المقري في دمشق أشهراً معدودات أملى خلالها في الجامع الأموي صحيح البخاري، وقد لقي درسه إقبالاً كبيراً، وكان يوم الختام يوماً مشهوداً حضره أعيان دمشق وطلابها حتى

(١) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٧٠؛ أحمد المقري: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ١ / ٥٦، ٥٧؛ محمد أمين المحبي (ت ١١١١هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، د - ت، ١ / ٣٠٤.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٤٦٧؛ ربيعة قرينة: علماء جزائريين بمصر .. مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) المقري: نفع الطيب...، مصدر سابق، ١ / ٥٦؛ المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١ / ٣٠٤.



ضاق المسجد بالحاضرين، ثم رحل منها عائداً إلى القاهرة في شوال ١٠٣٧ هـ / يونيو ١٦٢٨ م<sup>(١)</sup>.

مما سبق يتضح اهتمام علماء المغرب بالتنقل بين الحواضر الإسلامية والمراكز العامرة بالعلوم، واهتمامهم بتدريس ما عندهم من علوم ومعارف لمن طلب منهم كلما أتحت لهم الفرصة سواء في المدارس أو المساجد.

### المبحث الثاني: حضور مجالس العلم في المراكز العلمية:

أكدت مدونات الرحالة حرص الطلاب والعلماء المرافقين للقوافل على الإفادة من مركز العلم المهمة التي يمر بها الركب على الرغم ضيق الوقت، والانشغال بتهيئة أسباب السفر والتزود بما يحتاجون لبقية مراحل الطريق، إلا إن هذا لم يمنعهم من مواصلة نشاطهم العلمي، بحضور مجالس وحلقات الدرس في طريق ذهابهم وعودتهم لعلماء وشيوخ في منازل الركب<sup>(٢)</sup>، ففي تازة، وتونس، وطرابلس الغرب، ومصر، وبلاد الحجاز والشام داوم علماء الركب المغربي وطلابه على حضور المجالس العلمية في المساجد والمدارس الكبرى، ولعل هذا يفسر لنا أن أغلب مشاهير علماء المغرب الذين برزوا في هذه الفترة سافروا إلى المشرق للعلم خاصة أو طلبوا العلم خلال رحلتهم للحج.

فبعد خروج الإسحاقى من فاس وعندما نزل مدينة تازة جلس إلى الشيخ عبد القادر بن الفقيه الذي وصفه بالمتانة في الدين والنجابة في الفقه يقول: "ذاكرته في مسائل أنبأنا فيها"<sup>(٣)</sup>. وخلال رحلته إلى الحج، نزل الثعالبي في تونس، وأخذ عن شيخها المحدث أبي بكر بن تاج العارفين البكري إمام جامع الزيتونة (ت ١٠٧٢ هـ/١٦٦٢ م)، وكان له مجلساً مهيباً يدرس فيه طلابه صحيح البخاري<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئ: فح الطيب...، مصدر سابق، ١/ ٦١؛ المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٠٥.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٢/ ٤٧٤.

(٣) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٥.

(٤) محمد بن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس،

١٩٦٧ م، ص ٣٧١؛ مخلوف: شجرة النور الزكية...، المصدر السابق، ص ٣٠٥، ٣٠٦.



وفي طرابلس الغرب كانت تتفاوت مدة إقامة الركب المغربي طولاً وقصراً حسب الحاجة والأحوال<sup>(١)</sup>، لكنهم يلقون خلالها ترحيباً كبيراً من علماء المدينة أمثال الشيخ محمد بن أحمد بن مساهل<sup>(٢)</sup> الذي لقيه العياشي واستفاد منه ومن ابن أخيه الفقيه شعبان بن مساهل وكان مؤرخاً له معرفة بنوادر التواريخ، وأما ابن عبد القادر الفاسي فقد أفاد من ابن مساهل الكبير<sup>(٣)</sup>.

وممن لقيهم العياشي أيضاً الشيخ محمد بن محمد المكني (ت ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م) تلميذ ابن مساهل ومفتي البلاد من بعده، ووصفه بالشاب الفقيه اللوذعي خطيب وإمام الجامع الكبير<sup>(٤)</sup>.

ومن مساجد طرابلس العلمية مسجد درغوث باشا وهو مسجد كبير حضر فيه الرحالة مجالس العلم، نزل به الإسحاقى وذكر من لقيهم وأخذ عنهم أمثال: الفقيه محمد التونسي المقيم في طرابلس، والمفتي محمد بن مقبل الطرابلسي، والفقيه السيد محمد بوقلال المغربي<sup>(٥)</sup>، وهنالك حضر الورثياني مجالس لابن مقبل أيضاً وللفقيه المدرس عبد العزيز الذي لم يفصح عنه<sup>(٦)</sup>.

(١) مكث العياشي فيها شهراً في الذهاب وأما الورثياني فلم يزد عن عشرة أيام بينما كانت ثمانية فقط أقامها ابن عبد القادر في المدينة. العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ١٣٥؛ الورثياني: الرحلة...، مصدر سابق، (ص ص ١٧٣، ١٧٤)؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (لوحة رقم ٢٣ / ب).

(٢) كان ابن مساهل من خيرة علماء عصره في هذه الولاية تولى وظيفة الإفتاء والقضاء لمدة أربعين سنة ثم استغنى منها ولازم داره ومسجده وتفرغ للمطالعة والتدريس والتأليف حرص المغاربة على زيارته والاستفادة من علمه. العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ١٣٧-١٤٢؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٢٤ / ب.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ١٣٥؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٢٤ / ب.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ١٤٥.

(٥) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، (ص ٩٤).

(٦) الورثياني: الرحلة...، مصدر سابق، (ص ص ١٧٣، ١٧٤).



وفي المسجد المذكور حضر ابن عبد القادر في طريق عونته دروس العلامة الشيخ محمد الرمشاني في موطأ مالك وكانت طريقته حسنة تدل على مشاركته في العلوم<sup>(١)</sup>؛ ويرجع السبب في ذلك أنه كان قد أمضى مدة إقامته في طريق الذهاب يداوم على درس الشيخ محمد الصقلاني في التفسير بمسجد يوسف باشا<sup>(٢)</sup> ولما دخل طرابلس عائداً وأراد إكمال الدرس عند الشيخ المذكور وجده مات فتوجه لمسجد درغوث باشا وسمع الموطأ من الرمشاني<sup>(٣)</sup>.

وعن أهمية مصر العلمية للمارة والحجاج قال أبو بكر بن أحمد التتبيكتي: "إنه لا معنى لعالم يذهب للحج دون أن يعرج على مصر ويستأنس بعلمائها"<sup>(٤)</sup>.

لذلك تقلب المغاربة في حلقات العلم بالأزهر وغيره ما بين دروس النحو والفقه وعلوم العقيدة<sup>(٥)</sup>، فالعياشي حرص أن يكون سكنه قريباً من الأزهر ليتردد عليه ومن اليوم التالي لوصوله مباشرة حضر مجلس الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة الفجر مباشرة، وكان الشيخ لا يدرس إلا في رجب والشهرين التاليين له وغالب تدريسه في علوم الحديث<sup>(٦)</sup>، وحضر بعد العصر للشيخ موسى القليوبي وكان يقرأ الجامع الصغير للسيوطي<sup>(٧)</sup>، وداوم على درس الشيخ إبراهيم الميموني الشافعي<sup>(٨)</sup> وهو ممن انفرد

(١) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٣٧ / ب .

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٢٣ / ب.

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٣٧ / ب.

(٤) أحمد بابا التتبيكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه مجموعة من طلاب كلية الدعوة الإسلامية، إشراف وتقديم: عبد الرحمن بن عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م، ص ٢٣١.

(٥) الإِسْحَاقِي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٥٦ - ١٦١.

(٦) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٢٢٩ .

(٧) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٢٣٠ .

(٨) الشيخ إبراهيم الميموني الشافعي المصري، كان حياً سنة ١١٤٠هـ من علماء القراءات والتفسير البارزين عاصر الشهاب القليوبي، وعبد السلام اللقاني، نال ثقة طلاب الأزهر ومجاوريه فتتلمذ عليه عدد كبير في علوم القرآن. محمد خليل المرادي الحسيني (ت: ١١٧٣ - ١٢٠٦هـ / ١٧٦٠ - ١٧٩١م): سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار البشائر الإسلامية، ودار ابن حزم ط ٣، ٤ / ٢٦٦، الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١ / ١٢٠، ١٤١.



بتحقيق علمي البلاغة والقراءات في الأزهر وكان درسه هذا في تفسير البيضاوي<sup>(١)</sup>. وكذلك حرص على مجالس أبي الحسن علي الشيرازي<sup>(٢)</sup> في جامع المغاربة القريب من بيته وهو يدرس شرح المواهب اللدنية للقسطاني<sup>(٣)</sup>.

وبالجملة لم يترك العياشي في القاهرة أحداً من أهل العلم يستحق إلا أخذ عنه عدا الشيخ سلطان المزاحي<sup>(٤)</sup>، سمع منه حديثاً واحداً من أول البخاري وكان من أفاضل الرجال علماً وعملاً إلا إن حدة طبعه وشراسة أخلاقه (رحمه الله) منعت بعض الطلاب ومنهم العياشي من الانتفاع به<sup>(٥)</sup>.

وبعد عودته من الحج مكث الثعالبي في القاهرة عامي (١٠٦٤ - ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٣ - ١٦٥٤ م)، أخذ فيهما عن أعلام وشيوخ الأزهر أمثال شيخ المالكية نور الدين علي الأجهوري<sup>(٦)</sup>، وقاضي قضاة الحنفية شهاب الدين الخفاجي<sup>(٧)</sup>، وأبي الحسن إبراهيم الميموني،

(١) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٦.

(٢) نور الدين أبو الحسن علي الشيرازي الشافعي القاهري ولد بشيرا ملس في الغربية، وحفظ القرآن بها، ثم وفد على القاهرة سنة ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩ م) ولزم علماء كثيرين منهم: البابلي، والحلبي، ودرس بالأزهر وتلمذ علي يديه علماء أجلاء منهم: عبد الرحمن المحلي، و البشبيشي وله مؤلفات كثيرة، توفي ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م). المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٣/ ١٧٤ - محمد بن أحمد الحضيكي (ت ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م) : طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦ م، ٢/ ٤٧٤، ٤٧٥.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٢٥٣.

(٤) سلطان بن أحمد بن سلامة من كبار علماء الشافعية بالأزهر عاش في الفترة ما بين ٩٨٥ - ١٠٧٥ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٦٤ م وهو شيخ مشايخ القراءات والتجويد بالأزهر بلا منازع، المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٣١ - ٣٣٤؛ ٢/ ٢١٠، ٢١١؛ القادري: نشر المثنائي...، مصدر سابق، ٤/ ١٥٢٦؛ الحضيكي: الطبقات...، مصدر سابق، ٢/ ٥٧٠.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٣؛ المصدر نفسه: ٢/ ٤٧٣.

(٦) هو زين العابدين الشيخ علي بن محمد القادري (ت ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م): ينسب إلى أجهور الورد بريف القليوبية، أخذ عن شيوخ كثيرين أمثال الرملي والكرخي حتى أصبح شيخ المالكية بالأزهر وأخذ عنه البابلي والشيرازي، له مؤلفات كثيرة أشهرها ثلاثة شروح على مختصر خليل. المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ١٥٧ - ١٦٠؛ محمد بن الطيب القادري: نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٩٨٦ م، ٢/ ٨١.

(٧) أحمد بن محمد بن عمر الملقب بشهاب الدين (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م)، المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٣١ - ٣٣٤.



وسلطان المزاحي، والشبراملسي وغيرهم ممن أثنوا عليه<sup>(١)</sup>؛ ولم يكتف الثعالبي بهؤلاء الموجودين في القاهرة، بل رحل إلى الصعيد في أوائل سنة (١٠٥٦هـ / ١٦٥٥م) للأخذ عن الشيخ علي العدوي الصعيدي، فقرأ عليه بعض المصنفات وسمع منه الحديث الشريف<sup>(٢)</sup>.  
وممن رافق العياشي في التردد على مجالس هؤلاء العلماء ابن الطيب وأكثر مرافقته له كانت إلى مجلس الخفاجي<sup>(٣)</sup>.

والورثياني كغيره التقى بالعديد من علماء الأزهر مثل: الشيخ الحفناوي<sup>(٤)</sup>، والشيخ الجوهري<sup>(٥)</sup>، وتفقد من بالأزهر من المغاربة واجتمع مع شيخ رواقهم...<sup>(٦)</sup> والقائمة طويلة من أسماء علماء مصر الذين تقلب في مجالسهم وناقشهم في مسائل الفقه أو التفسير أو المنطق وعلى رأسهم الشيخ علي الصعيدي العدوي<sup>(٧)</sup> الذي قال عنه: "إليه النظر في وقتنا هذا في

(١) المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٣ / ١٥٧، ١٦٠؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ...، المصدر السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤؛ العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ٢ / ١٢٦.

(٢) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق، ٢ / ٥٩.

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٢٢٣؛ ابن الطيب: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٤٦/ب.

(٤) الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي (ت ١١٨١ هـ / ١٧٦٧م)، أحد النبهاء في علم الفقه والمنطق. الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١ / ٣٧٢، ٣٩٣.

(٥) أحمد بن حسن بن عبد الكريم الجوهري الخالدي عاش في الفترة من ١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ / ١٦٨٨ - ١٧٦٨م، أخذ عن علماء عصره في الأزهر أبرزهم النفراوي والكنكسي والتطاوني، له مؤلفات أشهرها حاشية على شرح جوهرة اللقاني. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ١ / ٩٧؛ الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١ / ٣٦٤.

(٦) الورثياني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٣٨. ورواق المغاربة من أقدم أروقة الجامع الأزهر، يستقبل فيه طلاب المغرب الإسلامي وزادت أهميته خلال العصر العثماني حيث أصبح وكأنه مؤسسة تعليمية واجتماعية يستمد مصادره المالية من أوقافه الخاصة والتي يديرها شيخ الرواق. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، (١٥١٧ - ١٧٩٨م) منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ص ٩٩، ١٠٠.

(٧) الشيخ علي بن أحمد بن مكرم الله العدوي المالكي الأزهري الشهير بالصعيدي (١١١٢ - ١١٨٩هـ): أحد الأئمة الأعلام تتلمذ على النفراوي والكنكسي والتطاوني والملوي والسجيني والأسقاطي والنفري ومحمد البناني الفاسي والفيومي، حتى صار أحد صدور المالكية بالأزهر وأغلب مؤلفاته حواشي على متون، منها حاشية على شرح الجوهرة للشيخ عبد السلام، وحاشية على شرح السلم للأخضري. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ٣ / ٢٠٦.



الجامع الأزهر بل وإليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب، وقد بلغ صيته و علمه مشارق الأرض و مغاربها<sup>(١)</sup>.

وأما الطبيب الفاسي الذي ظل طوال فترة مكثه في القاهرة يتردد على المساجد العلمية الأزهر وجامع الحسين يتلمس مجالس العلم وقرآناً<sup>(٢)</sup>.

وممن استهواه من العلماء الشيخ داود القليعي، وكان مجلسه في علم الحديث بالأزهر وقت الضحى حيث لازمه لم يتخلف عنه مدة إقامته، وكان الشيخ يجمع في قراءته بين جامع الترمذي وبين إحياء علوم الدين للغزالي، وعلى الرغم من قصر المدة إلا إنه استفاد كثيراً فسمع منه إضافة إلى ما سبق مقدمته في الاستعارة المسماة بافتضاض البكارة في أمثلة الاستعارة من أولها إلى آخرها وأجازه فيها، وسمع منه الأربعين النووية من أولها إلى آخرها، وطرفاً من صحيح البخاري، وطرفاً من الشرائع الترمذية، وتفسير بعض الآيات القرآنية<sup>(٣)</sup>.

كما قصد التاودي ابن سودة الشيخ أحمد المنهوري الشافعي<sup>(٤)</sup> في بيته ببولاق وجالسه أكثر من مرة وأملى عليه الكثير من المسائل الفقهية ثم أنشئ عليه ابن سودة بقوله : "بحر لا ساحل مثله وشيخ ما لقيت مثله"<sup>(٥)</sup>، ثم قرأ على مفتي الحنفية الشيخ حسن الجبرتي<sup>(٦)</sup> من كتاب الكنز للنسفي في الفقه الحنفي، وتذاكر معه في مسائله لكن السفر أعجله عن إتمامه

(١) الورثياتي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٤١.

(٢) أبو عبد الله الطبيب الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٥٢/أ ، ٩٩/ب.

(٣) أبو عبد الله الطبيب الفاسي : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٦/أ .

(٤) الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد المنعم المنهوري شيخ الأزهر (ت: ١١٩٢ هـ - ١٧٧٨م)، تلقى العلم في الأزهر على أكثر من ثلاثين من علماء المذاهب الأربعة وتعلم العلوم الحديثة كالطب والهندسة والرياضيات والمساحة والفلك والتكعيب له كثير من المؤلفات حتى لقب بأنه سيوطي عصره... إلخ . محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٨/أ ، ١٨/ب؛ الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١٠٠/٢ .

(٥) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٧/أ .

(٦) والد المؤرخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (١١١٠ - ١١٨٨ هـ/١٦٩٨ - ١٧٧٤م)، توفي أبوه شاباً لم يتجاوز الستة عشر عاماً، بينما لم يتجاوز المترجم الشهر من عمره فنشأ في كنف والدته وجدته، فحفظ القرآن وعمره عشر سنوات، وحفظ المتون وتدرج في العلم حتى أصبح مقنياً للحنفية وشيخاً لرواق الجبرت بالجامع الأزهر . الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ٥٠٦/٢ - ٥١٣.





(١)، وقرأ كذلك على مفتي الحنابلة أبو البركات أحمد بن عوض المقدسي كتاب دليل الطالب<sup>(٢)</sup>.

وأول من قرأ عليهم العياشي في المدينة المنورة الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الديبع الزبيدي (ت ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م) وهو فقيه محدث قارئ للقرآن له فضل كبير على العياشي، فهو الذي عرفه بجل علماء المدينة وكتب إليهم يوصيهم به، قرأ عليه ختمة بقراءة ابن كثير المكي وعلى الرغم من تراحم الطلاب عليه إلا إنه قدّم الوافدين فحدد للعياشي وقتاً معلوماً من فجر يوم ٤ صفر ١٠٧٣هـ / ١٩ سبتمبر ١٦٦٢م، ثم زاده وقتاً آخر بين الظهرين حتي أتم ختمته في سبعة عشر يوماً، كما قرأ عليه المقدمة الجزرية في مجلسين فقط<sup>(٣)</sup>، الأمر الذي يدل على همة هؤلاء واستثمارهم للوقت.

ثم حضر العياشي مجلس الثعالبي في الروضة، وكان مجلساً نافعاً أشاد به الرحالة<sup>(٤)</sup>، وممن حضر مجالسهم في المدينة الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهراني<sup>(٥)</sup> قرأ عليه شرح الجرجاني لمنظومة "الهداية إلى علوم الدراية" لمحمد بن الجزري في الحكمة قراءة تحقيق وتبديل وكان مجلسه حافلاً<sup>(٦)</sup>.

والجدير بالذكر أن العياشي الذي تتلمذ على الكوراني وأخذ عنه بعض العلوم كان متفوقاً عليه في علوم أخرى طلبها منه الشيخ فأجازه بها مثل علم الحديث الذي كانت رغبة الشيخ

(١) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٩ / أ .

(٢) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ٢٠ / أ .

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٥ .

(٤) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٤٦٧ .

(٥) ولد ونشأ في شهران من بلاد الأكراد، وتعلم العربية ودرس المعاني والبيان والفقه والتفسير وبعض العلوم العقلية كالهندسة والهيئة بها، ثم زار بغداد وأمضى فيها عامين، ودمشق ومكث فيها أربع سنوات ومنها ذهب إلى مصر مروراً بالقدس والخليل، ولقي من علماء مصر المشهورين الخفاجي، والمزاحي، ثم غادرها إلى الحجاز فحج وأقام بالمدينة المنورة، كان يتمتع بحافظة قوية يجيد العربية والفارسية والتركية إضافة إلى لغته الكرية، يدرس الطلاب كل بلغته وأغلب مؤلفاته بالعربية. العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٤٧٩، ٤٨٥ .

(٦) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١ / ٤٧٩، ٤٩٣ .



في تحصيل أسانيد قوية، فلما جلس مع العياشي طلب منه أن يحدثه بالحديث المسلسل بالأولية<sup>(١)</sup>، ومن شيوخ العياشي بالمدينة الشيخ عبد الصمد بن محمد بن الفضل الخراساني سمع منه صحيح مسلم<sup>(٢)</sup>.

كما حضر الإسحاقي ومن رافقه مجالس العلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مجلس السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup>.

وفي المسجد الحرام، كانت مجالس العلم حافلة بالطلاب والعلماء لا سيما في مواسم الحج، فانخرط فيها المغاربة المرافقون للركب وتعلموا على يد علمائها مغتتمين أفضلية الزمان والمكان مع أفضلية وشرف طلب العلم، فمن شيوخ العياشي الذين حضر مجالسهم في مكة المكرمة الشيخ يونس بن يحيى العباسي<sup>(٤)</sup>.

والإسحاقي يعدد العلماء الذين حضر مجالسهم في المسجد الحرام منهم الشيخ عمر البار باعلوي الحسيني أخذ عنه هو ومن معه من الطلبة المغاربة وسألهم عن بعض علماء المغرب ممن له بهم سابق معرفة<sup>(٥)</sup>، ومنهم المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد عقيلة الذي قرأ عليه أوائل كتب الحديث كالبخاري والشافعي في ما تيسر لم من الوقت<sup>(٦)</sup>، والشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الشافعي الشهير بالطبري إمام مقام الخليل إبراهيم وهو عالم ناسك لا يكاد يبرح الحرم عاكف على العبادة والتصنيف<sup>(٧)</sup>، وأبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن المفتي الحنفي بالحرم، يقول الإسحاقي عنه: "واستمطرناه في العلم فوجدناه صيباً

(١) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٩ - ٤٩٢.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٥٠٦ - ٥٠٧.

(٣) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٨٤.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٥٠٧.

(٥) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٦) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٨٧، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٧) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٩٥.



مدراراً، وسألناه أول ما جلسنا إليه<sup>(١)</sup>، ومنهم الفقيه الأديب السيد عبد الله بن المرحوم يحي أفندي بن جعفر الواعظ وهو من أهل الوجاهة بالحرم<sup>(٢)</sup>، كما انتفع بمجالسة الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين، كان له دار في مكة وأخرى في المدينة يتردد بينهما<sup>(٣)</sup>.

وممن تكررت مجالسة الإسحاقى له في المسجد الحرام الفقيه العلامة محمد بن سليمان الروداني السوسي وكان مقيماً في دار قرب المسجد الحرام<sup>(٤)</sup>.

كما ذكر أبو راس<sup>(٥)</sup> الشيخ عبد الرحمن التادلي المغربي الذي لقيه في المسجد الحرام وختم عليه شرح ابن عباد على الحكم قراءة تحقيق وتدقيق تحت ميزاب الرحمة داخل الحجر<sup>(٦)</sup>.

ولم يهمل الحجاج حلقات الدرس حتى في أيام منى فالعياشي لقي فيها الشيخ سليمان بن عبد العزيز الحبيشي وهو من مدينة الأحساء، وكانت له حلقة في مسجد الخيف ليالي منى، استفاد منه العياشي وحصلت بينهما ألفة طوال أيام الإقامة بمكة<sup>(٧)</sup>، ومن ذلك اجتماع الورثياني بالشيخ محمد أكرم بن عبد الرحمن مفتي الهند، وهو علم له مؤلفات على رجال

(١) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٧.

(٢) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٩٨.

(٣) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٤) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ٣١٠، ٣١١.

(٥) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس الناصري الجزائري ١١٦٥ - ١٢٣٨هـ/ (١٧٥١ - ١٨٢٣م): ولد وبدأ

حياته العلمية بناحية المعسكر وأصبح في وقت وجيز من أنشط علماء الجزائر بدأت رحلاته بعد الخمسين

من عمره رحل إلى المغرب والمشرق للعلم والحج الذي أداه عام ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م، له أكثر من مائة

مؤلف أشهرها رحلتان دون مشاهداته فيهما الأولى هي: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته،

والأخرى عجائب الآثار. مشوشة سمير: ابن حمدوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات

التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن ١٨م، بحث منشور في مجلة المعارف للبحوث والدراسات

التاريخية، مجلة نورية نولبية محكمة، العدد ١٢، ص ٢٩٣.

(٦) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط،

تحت رقم ٢٣٣٢، لوحة ٥٧.

(٧) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١ / ٣٣١.



البخاري وله مختصر جمع فيه متن الصحيح في مجلد بعد حذف الأسانيد فتباحث معه الورثياني في منى في بعض المسائل واستفاد منه<sup>(١)</sup>.

ومنهم من بحث عن العلماء وحضر مجالسهم في مدارس ومساجد مكة الأخرى خارج المسجد الحرام مثل العياشي الذي ذهب للشيخ جمال الدين الهندي (ت ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م)، وجلس إليه في المدرسة الداودية<sup>(٢)</sup>.

### المبحث الثالث : لقاء العلماء والفقهاء في بيوتهم:

حرص أهل العلم من الحجاج المغاربة المرافقين للركب على لقاء العلماء والاجتماع بهم في المراكز العلمية التي كانوا يمرون منها سواء بحضور مجالسهم في حلقاتهم داخل المساجد والمدارس العلمية، أو بزيارتهم في بيوتهم وتلبية دعوة من استضافهم في بيته، ولا شك أنهم أفادوا من هذه الزيارات في القراءة، فبيوت العلماء كانت بمثابة أندية ثقافية تلقى فيها الدروس، وتقام فيها الندوات والمناقشات ويتبادلون الرأي، ويبدو حرص هؤلاء على هذه الزيارات بامتنالهم لرغبة مشايخهم وتلبية دعوتهم، بل أوصى السابق منهم اللاحق ونبيه على أهميتها<sup>(٣)</sup>.

وبمطالعة مدونات هؤلاء الرحالة تبين أن علماء الأزهر في مصر كانوا حريصين على دعوة الحجاج المغاربة من أهل العلم لضيافتهم وإكرامهم أمثال: الشيخ إبراهيم الميموني الذي استضاف العياشي وجماعة ممن معه في بيته وقدم لهم طعام الإفطار ليلة السابع والعشرين من رمضان<sup>(٤)</sup>، والميموني ممن انفرد بتحقيق علمي البيان والمعاني، وكان له درس في مختصر السعد ابتداء قبيل رحيل الركب المغربي بأيام في صحن داره فحضره أكابر الطلبة

(١) الورثياني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٤٥٩ .

(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣٣.

(٣) أوصى التاودي صديقه الفقيه أحمد السوسي إذا مر بمصر أن يزور الشيخ المنهوري في بيته، ورغبه أن يسمع منه ويقراً عليه وأكد عليه ذلك بعدما حدد له مكان بيت الشيخ في القاهرة وأنه لا ينزل منه إلى الأزهر غير مرة واحدة في الأسبوع في يوم الجمعة. محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٨/ أ .

(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٨ .



خاصة ولازمه العياشي هذه الأيام على الرغم من شواغل الإعداد للسفر ولم يترك منه حرفاً واحداً<sup>(١)</sup>.

كما استضافهم شيخ القراء الشيخ سلطان المزاحي وأكرمهم ودعا لهم، والمزاحي كانت أوقاته مقسمة بين العبادة والتدريس والإقراء<sup>(٢)</sup>، ولما في الزيارات من فوائد فقد ذهب العياشي بنفسه لزيارة موسى القليوبي في بيته عند باب النصر من غير دعوة مسبقة فرحب به الشيخ أيما ترحيب<sup>(٣)</sup>.

ولأهمية الزيارات العلمية في تمتين أواصر العلاقات العلمية فقد استهل التاودي رحلته بذكر جملة من لقيهم بالديار المشرقية<sup>(٤)</sup>، وفي مصر استضافه أبو العباس أحمد اليبوسي بمنزله في ناحية الحسينية بطرف القاهرة مما يلي البركة وأكرمه<sup>(٥)</sup>.

وقام بزيارة للشيخ أحمد الجوهري مفتى الشافعية في مرض موته فامتن به الشيخ كثيراً ورحب بقدمه ودعا له وأكرمه ولما حضرت صلاة المغرب قدمه الجوهري ليؤمّه في الصلاة<sup>(٦)</sup>، ولا شك أن هذه الزيارة لم تخل من فائدة علمية.

وأما عن زيارات ابن عبد القادر الفاسي للعلماء في مصر فيقول: " وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من صفر ذهبت لشيخنا العلامة المشارك ... أبي سليمان الشيخ داود بن محمد الأزهرى القلعي القاطن بالقلعة بقصد الأخذ عنه وهي أول ملاقة معه فلما قدمت عليه رحب بي غاية وهش وبش وأدخلني لداره وأحضر لي من الطعام ما حضره بالوقت وهو الخبز والعسل والجبن والماء البارد وأكل معي نفع الله به وتكلم معي في مسائل فظهرت

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٨ .

(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٩ .

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٤ .

(٤) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٠/ أ .

(٥) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٣/ ب، ١٤/ أ .

(٦) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٨/ ب .



مشاركته في العلوم المعقولة والمنقولة لا سيما علم الحديث الشريف وطلبت منه الإجازة... إلخ" (١).

وهذا يدل على عناية المغاربة بزيارة العلماء وترحيب العلماء بهم في بيوتهم وإكرامهم وفي هذا مزيد من التفرغ لهم بعيداً عن زحام الحلقات في دور العلم، فالشيخ القلعي المذكور كان له مجلس بالأزهر يأتي إليه كل يوم من حي القلعة ومع ذلك يستقبل الطلاب في بيته ويمنحهم من وقته وعلمه وماله تعليماً وإطعاماً وإكراماً وإجازة (٢).

وأما الشيخ سليمان الفيومي سليمان الفيومي (٣) الذي أرسل إلى جماعة الحجاج المغاربة ليأتوا بيته فلما قدموا عليه وكان ابن عبد القادر معهم يقول: "فرحب بهم غاية وأظهر من السرور ما يعجز عن وصفه الواصف...، وأمر خدمته أن يحضروا أنواع الطيب، فسارعوا في إحضاره من العود والند وماء الورد وغير ذلك وجعل يطيب الناس ويطيب المكان" وفي هذا اللقاء دار النقاش في مسائل علمية عديدة (٤).

وفي المدينة المنورة رحب علماؤها بأهل العلم المرافقين للركب المغربي واستضافوهم في بيوتهم وأكرموهم

فعندما زار العياشي الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني في بيته صحبة شيخه أبي الحسن علي الديبع واجده جالساً بين كتبه يطالع فيها فرحب بهما الشيخ وأكرمهما بما تيسر من كسر الكعك والملح مع الزعتر والقهوة (٥)، ثم توالى زيارات العياشي لشيخه المذكور مدة إقامته بالمدينة المنورة لم يمنعه عنه إلا فترة المرض، وكان الكوراني هو الذي يعودته خلالها (٦).

(١) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٢/ب، ٩٣/أ.

(٢) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٣/أ.

(٣) شيخ رواق القيمة بالأزهر، كان حياً عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م. سجلات محكمة جامع الحاكم: س ٧٤٦، ص ٩٠، م ١٤٠ بتاريخ غرة جمادى الأولى سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٨م.

(٤) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٦/ب، ٩٧/أ.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٨٧، ٤٨٨.

(٦) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٩٢.



ومن زيارات ابن سودة علماء المدينة المنورة زيارته للسيد محمد السمان<sup>(١)</sup> وكان بيته قريباً من المسجد النبوي من ناحية باب جبريل ليس بينهما إلا الشارع وهو ممن يحسن للغرباء<sup>(٢)</sup>، كما استقبله الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن أسعد مفتي المدينة المنورة في بيته وكان خارج المدينة فأكرمه غاية الإكرام وأجازه بكل ما عنده<sup>(٣)</sup> حيث يذكر الإسحاقى أن الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي سابق الذكر، لم يكتف بإكرامه في مكة المكرمة، بل أعطاه كتاباً موجهاً لولده بالمدينة المنورة فاستضافه بدارهم وأجزل له الضيافة والإكرام مدة الإقامة بها وعندما حان الارتحال أراد الإسحاقى أن يعطيه أربعة مثاقيل ذهباً ردها عليه وقال يا سيدي لكم الفضل في نزولكم علينا<sup>(٤)</sup>.

وممن زارهم الإسحاقى في المدينة أيضاً الفقيه محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي فقد زاره في داره المعروفة بدار أبي أيوب الأنصاري وهي دار مشهورة والشيخ عبد الكريم له وجهة وتوقير بالمدينة أحسن استقبالهم وقدم لهم التمر والماء وقال هذه ضيافة أهل المدينة، وأهدي للإسحاقى طاقية من عمل المدينة وتدارسوا معه في تحديد المزارات المستجاب فيها الدعاء بالمدينة المنورة فأخبرهم أن المدينة كلها مباركة<sup>(٥)</sup>.

ومن هؤلاء العلماء السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم "وكان دمث الأخلاق، كثير الإنفاق، متودد للواردين من الآفاق"<sup>(٦)</sup>.

(١) الشيخ محمد بن عبد الكريم المدني الشافعي القرشي الشهير بالسمان (١١٣٠ - ١١٨٩ هـ / ١٧١٨ - ١٧٧٥ م) : ولد ونشأ في المدينة المنورة أرسله والده إلى مصر سنة ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م، لطلب العلم ثم عاد وتصدر للتدريس بالمسجد النبوي حتى وفاته. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ٤ / ٦٠؛ الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١ / ٤٨٠.

(٢) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١١ / ب .

(٣) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٢ / ب .

(٤) الإسحاقى : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٠٣ .

(٥) الإسحاقى : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٨١ .

(٦) الإسحاقى : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٨٤ .



وفي مكة المشرفة كانت أغلب الزيارات بعد أداء الفريضة؛ لأن الوافدين لا يأتون من سفرهم غالباً قبيل اليوم الثامن من ذي الحجة فينطلقون مباشرة لأداء المناسك، وبعد نزولهم من منى وفراغهم من تأدية المناسك يتزاورون فيما بقي لهم من وقت الإقامة قبل أن يرحلوا من مكة فزيارة العياشي للشيخ زين العابدين الطبري<sup>(١)</sup> في داره جاءت بعد الحج، حيث أحسن الشيخ استقباله<sup>(٢)</sup>، كذا زار التاودي ابن سودة أبا عبد الله محمد بن خالد الجفري شيخ المالكية وأحد أئمة المسجد الحرام الذي لقيه واستضافه في بيته وأكرمه وأجازته<sup>(٣)</sup>.

ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عقيلة المكي ذهب إليه الإسحاقى ومعه ابن أخته الفقيه العربي بن محمد إلى منزله يقول: فلما دخلنا عليه... أجزل القرى وبالغ في التحفي بنا وأفدنا من فوائده... وذاكرته في مسائل من العلم وأطلعنا على جملة من مؤلفاته ومصنفاته وهي كثيرة<sup>(٤)</sup>.

وممن زارهم الإسحاقى أيضاً في مكة الشيخ محمد الطبري وهو عالم ناسك يلزم بيته بالفترة الطويلة فلما زاره ومن معه رحب بهم وأطلعهم على مؤلفاته في التفسير والفقه<sup>(٥)</sup>.

كما دعاهم الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي مفتي الشافعية، إلى داره وأكرمهم وأهداهم قصيدة من نظمه في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأنشده الإسحاقى قصيدة مثلها على سبيل المطارحة، فأجابه الشيخ بقصيدة عجيبة ودفعا إليها من حينه، يقول الإسحاقى: "فعببت من حسن رويته، وسرعة نجيته في الشعر وبراعته"، وأطلعته المنوفي على بعض مكاتباته عن أمراء مكة المكرمة فقرأها الإسحاقى ثم مدح أسلوبه بقوله: "قرأت قلماً عالياً، واختراعاً في الإنشاء سامياً"<sup>(٦)</sup>.

(١) زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسني المكي (ت ١٠٧٨هـ): فقيه شافعي تولى إفتاء الشافعية وإمامة المقام الإبراهيمي في الحرم المكي. المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٢/ ١٩٥.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٣) محمد التاودي ابن سودة: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ١١/ أ.

(٤) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

(٥) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٦) كان للشيخ المنوفي المذكور بيتين في المدينتين المقدستين يتردد بينهما فيبيته الأصلي في مكة ثم عرض له أن ينتقل إلى المدينة المنورة، وهو في هذه السنة قدم مكة حاجاً. الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٠٢ - ٣٠٧.





وممن زار أيضاً الشيخ عبد الله الإسكندراني الضرير في منزله قرب باب العمرة وأثناء الزيارة حدثه الشيخ بمصنفاته في الحديث وعلم الكلام وغير ذلك من العلوم<sup>(١)</sup>.  
ومن الجدير بالذكر، إن هذه الزيارات كانت تعمق العلاقات بين الحجاج المغاربة وبين العلماء في المراكز العلمية المختلفة حتى أنهم كانوا عند السفر يذهبون لتوديعهم وطلب الدعاء منهم الأمر الذي أبقى العلاقات مستمرة بعد السفر عن طريق المراسلات فابن عبد القادر الفاسي لما عزم على الرحيل من مصر قام بزيارة الجامع الأزهر لتوديع شيخه القلعي يقول: "قودعته وودعني وعالي بما نرجو من الله قبوله"<sup>(٢)</sup>.

### المبحث الرابع: المساجلات والمناظرات العلمية:

لم يكن النشاط العلمي على طريق الحج المغربي خلال العصر العثماني نشاطاً تقليدياً تلقينياً في معظمه؛ بل تميز بخروجه في كثير من الأحيان إلى دائرة النقاش والبحث والنقد لإثبات الحقائق العلمية أو نفيها.

وقد مثلت المناظرات والمناقشات جانباً مهماً من جوانب التواصل الثقافي بين المغاربة وأهل العلم على طريق الحج وفي منزله، ولم يكن الغرض منها استعراض القدرات المعرفية بقدر ما هو وسيلة من وسائل الاجتهاد الجماعي للوصول إلى الحق في بعض النوازل المعاصرة الأمر الذي جعل المناقشات تميل ناحية الفقه أكثر من غيره من العلوم، لكن تبقى حقيقة وجود مناقشات ومناظرات في علوم وفنون أخرى بعضها في العقيدة وبعضها في الحديث والتفسير والنحو.

ففي ورقلة الجزائرية عند زيارة العياشي لأمير المدينة تناقش معه في بعض المسائل الفقهية وطلب منه أن يعد له الجواب عنها مكتوباً<sup>(٣)</sup>، وفي نفزاوة من بلاد تونس اجتمع إليه جماعة من المتفهمة وأهل العلم وناقشوه في بعض مسائل فقه العبادات<sup>(٤)</sup>.

(١) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣١٠.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، (١٢٦/أ).

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/١١٧.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/١٢٧.



كما ذكر الإسحاقى أن ابن أخته الفقيه العربي بن محمد المغربي - وهو ممن صحبه في الرحلة - كان يهوى المحاورات والمناقشات العلمية مع علماء منازل الركب ففي توزر أثار الطلاب معهم بعض المسائل في الفقه والنحو فتصدر لهم وأجابهم عما يريدون<sup>(١)</sup>، وفي مصر كان يجالس العلماء في الأزهر ويتحاور معهم في بعض الأغاز النحوية، والفقهية أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وأورد أبو راس الناصري مناظرة مجلس علماء الجزائر بالجامع الأعظم<sup>(٣)</sup> في القهوة والدخان وعما يُسَف منه ويُسَم فأجاب بأنهما من المسائل المختلف فيها وأيد رأيه بما نقله الشيخ علي الأجهوري عن الحطاب<sup>(٤)</sup>، وفي طرابلس تناقش العياشي مع ابن مساهل حول طهارة حيوان الزباد العطري<sup>(٥)</sup>.

ومن أبرز المناقشات في مكة المكرمة ما دار عند حدوث الشك في رؤية هلال ذي الحجة وذهب بعض الحجاج إلى عرفات يوم الثامن خشية أن يكون هو يوم عرفة حتى لا يفوتهم الوقوف وقد وقع خلاف حول هذه النازلة فتدخل العياشي وحسم الخلاف بقوله: "إن وقوفكم على الشك لا يجزئ؛ لأنكم لم تقفوا بنية أنها عرفة فهو كمن صام يوم الشك احتياطاً فلا يجزئه، ولسنا بمأمورين باتباع الشك في مثل هذا، سيما الشك الذي لا مستند له"<sup>(٦)</sup>.

(١) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٣) يرجع تأسيس الجامع الأعظم في الجزائر إلى عام ١٠١٨م / ١٤٠٩هـ، وهو أهم مساجد المالكية في مدينة الجزائر فهو مقر مفتي المالكية، يعقد فيه مجلس كل يوم خميس يحضره علماء المذاهب على يتقدمهم مفتي المالكية ومفتي الحنفية والقاضي المالكي والقاضي الحنفي و يحضر معهم الباشا أحياناً للنظر القضايا الفقهية الشائكة التي تحتاج إلى فتاوى ويسمى المجلس الشريف. صبرانية لنور: مساجد مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (القرنين ١٧ - ١٨م)، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٣٤، آب ٢٠١٧م، ص ٣.

(٤) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس: فتح الإله ومنته...، مصدر سابق، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ١٣٧-١٤٢، والزياد: حيوان عطري مثل السنور يجلب من بلاد الهند ويستخرج منه عرق مثل الزباد له رائحة طيبة. ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، مادة: زيد.

(٦) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٣١٨.



ومثل ذلك في المدينة المنورة وقعت مناقشات بين المغاربة المرافقين للعايشي وبين طائفة المالكية عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبيز وغيره<sup>(١)</sup>، على أن أهم المناظرات العلمية التي حضرها العياشي مناظرة أحد الرافضة الذي زعم أنه شريف سني مالكي ثم أخذ يثير بعض المسائل في العقيدة داخل المسجد النبوي في الذات والصفات، فأجابه العياشي وكلما أقام عليه الحجة تعلل الرافضي بعدم معرفته اللغة العربية، لكن العياشي بالجملة نقد كل إشكالاته ويبدو أن أمر هذا الرجل افتضح في المدينة وناظره غير واحد من علمائها أمثال الشيخ بدر الدين الهندي، والشيخ الملا إبراهيم بن حسن الكوراني<sup>(٢)</sup>.

ومن هذه المناظرات الهادفة ما وقع بين العياشي وشيخه الثعالبي أثناء درس الأخير في المسجد النبوي حول وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة أو إسدالها وجرت المناقشة بين الشيخ وتلميذه في المسألة المذكورة بطريقة علمية هادفة مبنية على الدليل حيث تبنى العياشي مذهب المالكية وقدم أدلتهم من السنة الصحيحة قولاً وفعلاً<sup>(٣)</sup>.

ومنها مناظرات كانت تقع بين الطلاب الحلقات العلمية بحضور شيوخهم مثلما كان يحدث بين العياشي وبين طلاب المذهب الحنفي خلال شرح الشيخ بدر الدين الهندي لكتاب المنار في أصول الفقه الحنفي لابن الملك وكان الشيخ ينتصر لمذهبه معهم ولم يكن يحضر مجلسه مع العياشي من طلاب المالكية أحد ولا من نجباء المذاهب الأخرى حتى يساعده في الانتصار لأدلة مذاهبهم<sup>(٤)</sup>.

ولم تقتصر المناظرات على المخالفين في العقيدة كالروافض أو في المذهب الفقهي بل ناظر المغاربة من هم على مذهبهم من المالكية كالمناظرة التي وقعت بين العياشي وأحد مدرسي المالكية في المسجد النبوي، في المعاملات المالية مما يتعلق بصرف العملات بعضها ببعض وقد فصل العياشي فيها مع أنه لم يصرح باسم مناظره<sup>(٥)</sup>.

(١) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٤٠٣/١.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٤٣٤ - ٤٣٦.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٤٤٥/١.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٦٣٠/١.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٤٥٠ - ٤٥٣.



وتأخذ المناظرات العلمية سبيلاً طيباً إذا كان أحد المتناظرين تلميذاً لمناظره، فتبدو وكأنها مذاكرة بينهما ولا يلزم أن يرضخ فيها التلميذ لكلام شيخه ومن ذلك المذاكرة التي وقعت بين العياشي وشيخه أبي الحسن علي الديبع في مسألة تتابع دفن الموتى في البقيع وإعادة حفر القبور القديمة لتكرار الدفن فيها مرات أخرى وخُصت هذه المناقشة إلى أنه لا يجوز الدفن في قبر ما دام صاحبه فيه، وأرض البقيع لملوحتها ونداوتها تقني الأجساد بسرعة لا تتجاوز سبع سنين إلا وتبلى العظام ولا يبقى لها أثر وعندها فلا مانع من الدفن في قبر ليس فيه أحد<sup>(١)</sup>.

وعندما لقي التاودي ابن سودة العلامة عبد الرحمن بن مصطفى العيروس في المدينة المنورة تناقش معه فيما عَنَّ له من مسائل علمية مثل قوله: "وتكلمت معه في حديث وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه وما فيه من الإشكال فأجابني بديهية"<sup>(٢)</sup>.

إن المراجع لما سجله الرحالة عن المناظرات والمناقشات التي وقعت بينهم وبين أترياهم على طريق الحج يدرك مدى حرص هؤلاء العلماء على اتباع آداب الحوار الراقي الذي هدفه الوصول إلى الحق في المسائل المطروحة على مائدة النقاش بالإقناع المعتمد على الدليل والحجة.

ومما يحسن ذكره أيضاً من الآداب احترام الطرف الآخر وانتقاء الألفاظ الحسنة في وصفه والاعتراف بفضله والدعاء له، وهذا كله يؤكد أن هذه المناظرات كانت سجلاً علمياً خالصاً لا غرض من ورائه لتشويه المتناظرين ولا التقليل من مكانتهم العلمية، ففي مناظرة العياشي مع الرافضي سألته الذكر بين العياشي فساد معتقد مناظره لكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بمعرفته للعلوم العقلية، حيث قال عنه: "له مشاركة حسنة وقوة في بحث المعقولات"<sup>(٣)</sup>.

وأما عن مناظرة العياشي لشيخه الثعالبي، فقد أبدى فيها أدباً جماً واحتراماً فعلى الرغم من أن الشيخ ضعّف جواب تلميذه إلا أن الأخير لم يزد على أن كتب عبارة: "ومن أنصف

(١) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٧٧، ٤٧٨.

(٢) محمد التاودي ابن سودة: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ١٢/ب، ١٣/أ.

(٣) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٣٥.

علم أنه لا ضعف في الجواب" ولم يرقه مراجعة الشيخ في المجلس الذي يحضره مع طلبة العلم بعض العوام ممن لا معرفة لهم بالفروع الفقهية يقول العياشي: "ولكن كرهت مراجعة الشيخ بمثل ذلك في المجالس الغاصة الحافلة بأهلها، فأعرضت<sup>(١)</sup>.

ولم تكن المناقشات مقتصرة على المجالس العلمية في منازل الطريق، بل كانوا يتسامرون في محاوراتهم العلمية يمضون نهارهم ويقطعون ليلهم خلال السير في المراحل المختلفة مثلما حدث بين العياشي وبين شهاب الدين المصري الذي لقيه في بيت المقدس وصحبه في طريق العودة إلى مصر فأمضى الطرفان وقتاً طويلاً في محاورات ومذاكرات حتى افترقا في دمياط فخرج الطرفان بفوائد جمة<sup>(٢)</sup>.

وفي الجملة، فإن هذه المناظرات تؤكد مدى التفاعل بين العلماء وكثرة اطلاعهم وقوة استنتاجاتهم في تقييم الأدلة التي يستشهدون بها ويرجعون على أساسها.

#### المبحث الخامس : الإجازات والأسانيد العلمية المتبادلة:

الإجازات العلمية من المبتكرات العربية الإسلامية تقوم على إنز يقمه العالم لطالب قرأ عليه أو سمع منه ونثب من إتقانه، يسمح له بالرواية عنه وتدريس ما تلقاه عليه من مصنفات، وهي تقابل الشهادات الجامعية التي تؤهل حاملها للتدريس<sup>(٣)</sup>.

ولعل من دلالات أهمية كتابات الرحالة المغاربة ما تضمنته من معلومات تؤكد أن علاقاتهم بعلماء المشرق ظلت وثيقة متننتها الإجازات والأسانيد المتبادلة التي كانوا يحرصون على تسجيل نصوصها في رحلاتهم مما أتاح لنا ثروة مصدرية كبيرة تغطي هذه الناحية من التواصل العلمي على طريق الحج المغربي.

ومن خلال تلك النصوص تبين للباحث أن أهل العلم في منازل الركب تابعوا المرافقين للقوافل من مشاهير العلماء فاستقبلوهم وانتفعوا بما لديهم من علوم وتحملوا عنهم الأسانيد

(١) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٢/ ٤٦٨.

(٣) عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٥م، ١/ ١٣٤؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق، ١/ ٥٥.



والإجازات، فالمقري عندما شاع خبر خروجه إلى الحج بين علماء وطلاب منازل الركب بادروا بملاقاته ومنهم من كتب إليه بالإجازة قبل أن يصل إليهم، فمجرد ركوبه البحر من الجزائر صوب تونس تطاير الخبر إليها فبار علمائها يطلبون إجازته بما لديه من أسانيد فأجاز منهم إمام جامع الزيتونة الشيخ محمد بن أبي بكر التونسي (ت ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م)، بإجازة مكتوبة (١).

وعندما وصل مصر التف حوله من طلاب الأزهر وعلمائه من أملى عليهم الحديث ولقنهم العقائد وأجاز منهم : محمد بن سالم السنهوري، وأحمد بن محمد القاضي (٢)، ونور الدين الأجهوري (٣) ومحمد نور الدين الرشيدى (٤).

كما التقى في مصر بعلماء من خارجها تصادف مجاورتهم بالأزهر، فأجاز منهم محمد المسراتي القيرواني (ت ١٠٦٥هـ / ١٦٥٥م) (٥)، وعبد الباقي الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٧١هـ / ١٦٦١م) (٦)، وعبد القادر بن غصين الغزي (ت ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) (٧).

وكما أجاز المغاربة علماء مصر وطلابها استجازوهم أيضاً ببعض العلوم والمؤلفات التي حرصوا على تحملها عنهم واعتروا بهذه الإجازات ورصعوا رحلاتهم بنصوصها. فالمقري المغربي على علو منزلته إلا إنه طلب الإجازة في مصر فأجازته الشيخ أحمد الصديقي المالكي إجازة عامة (٨).

(١) محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ص ص ١١٦،

١١٧؛ قروود: الدور الثقافي ... مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر ... مصدر سابق، ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المقري: الرحلة ... مصدر سابق، ص ص ١١١ - ١١٦.

(٤) المقري: الرحلة ... مصدر سابق، ص ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٥) المقري: الرحلة ... مصدر سابق، ص ١٧٦؛ مخلوف: شجرة النور ... مصدر سابق، ص ٣٠٥.

(٦) المحبي: خلاصة الأثر ... مصدر سابق، ٢/ ٢٨٣ - ٢٨٥.

(٧) المحبي: خلاصة الأثر ... مصدر سابق، ٢/ ٣٤٧.

(٨) إجازة مؤرخة في ١٢ ربيع الأول ١٠٢٩هـ / ١٨ فبراير ١٦٢٠م، والصديقي المالكي كان موسوعياً أخذ عن

كبار علماء عصره توفي ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م). المقري: الرحلة ... مصدر سابق، ص ٨٣؛ المحبي:

خلاصة الأثر ... مصدر سابق، ١/ ٢٣٤ - ٢٣٦.



وممن كانت له عناية بالإجازات الأزهرية التاودي ابن سودة الذي وثق علاقته بكبار علماء الأزهر أمثال شيخ المالكية علي الصعيدي، حيث أجاز كل واحد منهما صاحبه بما لديه من أسانيد<sup>(١)</sup>، وأجازه شيخ الشافعية أحمد الدمنهوري بكل ما لديه من مسموع ومقروء وبما أخذه دراية ورواية<sup>(٢)</sup>، وأما مفتي الحنفية حسن الجبرتي فأجازه بكتب المذهب بعد أن قرأ عليه طرفاً منها، كذلك أجاز مفتي الحنابلة أحمد المقدسي بعد أن قرأ عليه<sup>(٣)</sup>.

ويصرح الورثياني بأسماء من أجازته في مصر مثل الشيخ خليل المغربي ت ١١٧٧ هـ - ١٧٦٣ م والشيخ الصعيدي<sup>(٤)</sup>.

وفي بلاد الحجاز نال العلماء المرافقين للركب المغربي حظوة وكانت لهم مكانة بين علماء وطلاب الحرمين ففي المدينة المنورة أجاز العياشي وأجيز أيضاً فممن أجازته شيخه الثعالبي، وأجازته قارئ المدينة أبو الحسن الديبع في القراءات بأسانيده عن شيوخه<sup>(٥)</sup>. وكذلك أجازته الكوراني إجازة عامة<sup>(٦)</sup>، وفي الوقت نفسه أجاز الكوراني بالحديث المسلسل بالأولية<sup>(٧)</sup>. وممن أجاز الورثياني في المدينة المنورة خطيب الحرم المدني الشيخ إسماعيل قال عنه: "أجازني بخط يده في سائر العلوم"<sup>(٨)</sup>.

كما أجاز الشيخ السمان، التاودي ابن سودة بصحيح البخاري، وأجازته الشيخ إبراهيم بن أسعد مفتي المدينة بكل ما عنده<sup>(٩)</sup>.

(١) التاودي ابن سودة: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ١٤/ب.

(٢) إجازة مؤرخة في ٢٦ جماد الآخر ١١٨٢ هـ / ٨ نوفمبر ١٧٦٨ م موهورة بتوقيع الدمنهوري رحمه الله. التاودي ابن سودة: الرحلة، مصدر سابق، لوحة ١٧/أ.

(٣) التاودي ابن سودة: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ١٩/أ، ٢٠/أ.

(٤) الورثياني: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٥٨٤.

(٥) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٦٧؛ ١/٤٧٦، ٤٧٧.

(٦) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٩٧.

(٧) ونص الإجازة موجود مفصلاً في الرحلة. العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٨٩ - ٤٩٢.

(٨) الورثياني: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٤١.

(٩) التاودي ابن سودة: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٦/أ؛ ١٢/ب.



وفي مكة المكرمة كانت لهم إجازات لمن أخذ عنهم من الحجازيين أو المجاورين أو حتى الواردين للحج من الأقطار المختلفة، مثلما أجاز المقرئ مفتي دمشق الحنفي الشيخ عبد الرحمن<sup>(١)</sup>؛ كما أجاز من أئمة الحرم المكي عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، وتاج الدين أحمد بن إبراهيم المكي، وحنيف بن عيسى، في الصحاح والمسانيد بعدما سمع من بعضهم<sup>(٢)</sup>. وفي الوقت نفسه طلب علماء وطلاب المغرب الإجازات من علماء البلد الأمين ومجاوري بيت الله الحرام حيث أخذ الثعالبي الحديث عن تاج الدين المالكي، وعبد العزيز الزمزمي، وزين العابدين الطبري وأجازوه<sup>(٣)</sup>.

وبعدما قرأ الإسحاقى على المحدث محمد بن عقيلة أوائل كتب الحديث طلب منه أن يجيزه فأجابته الشيخ وكتب له الإجازة، وأجازته محمد بن فضل الله الطبري بإجازة كتبها على ظهر أحد مؤلفاته التي أهداها له، وبعدما سمع من محمد تاج الدين المفتي الحنفي بالحرم أخذ منه إجازة بسنده المتصل بعبد الله بن عمرو بن العاص إلى النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>.

#### المبحث السادس: التأليف:

ومن الأنشطة العلمية التي اشتغل بها العلماء المغاربة على طريق الحج وفي محطاته التأليف، فتركوا تراثاً علمياً معتبراً من المؤلفات في السيرة والمدائح النبوية وفي الفقه لا سيما ما يخص الحج وبعض النوازل والرفائق والأذكار، وغير ذلك من فروع العلم والمعرفة، وتطالعنا مدونات هؤلاء الرحالة بأسماء المؤلفات التي انتجتهم قرائحهم على الطريق وفي المحطات خلال مواسم الحج في فترة الدراسة.

(١) المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٢/ ٣٨٠ - ٣٨٩؛ المقرئ: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٢/ ٣٦٩، ٤٥٧، ٤٦٤؛ المقرئ: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٢٦ - ١٢٨.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٢؛ ٢/ ٤٢٦، ٤٢٧؛ ٣/ ١٦١ - ١٦٦؛ العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ٢/ ١٢٨.

(٤) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ٢٩٤ - ٢٩٨.





وأول من يطالعنا المقري المغربي بعدد من المؤلفات على طريق الحج منها "فتح المتعال في مدح النعال" (١) بدأه في مصر وأتمه في المدينة المنورة في رمضان ١٠٣٣هـ / يناير ١٦٢٤م، وقد ذكر أن فكرة تأليف هذا الكتاب وردته أثناء رحلته من المغرب إلى مصر عند لقائه ببعض العلماء جرى بينهم حديث عن نعال النبي صلى الله عليه وسلم الأمر الذي دفعه لهذا التأليف الذي تناول فيه النعال النبوية وفضلها مع جمع ما قيل في مدحها من قصائد (٢).

ومنها كتاب : "النفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية" وهذا الكتاب يعتبر المسودة التي جمع فيها المرويات المتعلقة بشأن النعل النبوي في القاهرة سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م، ثم اعتمد عليها في المدينة المنورة عند تدوين كتابه الذي "سماه فتح المتعال في مدح النعال وهو لا شك أكبر وأشمل" (٣).

وأما كتاب "أزهار الكمامة في أخبار العمامة" وهو تأليف عن عمامة المصطفى صلى الله عليه وسلم كتبه في المسجد النبوي عند الحجرة النبوية وفي اتجاه رأسه الشريف وختمه بأشعار جميلة وكان انتهاؤه منه في شوال ١٠٣٣هـ / يوليو ١٦٢٤م، ومن كتبه أيضاً "الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين" (٤) وهو عبارة عن أرجوزة شعرية في السيرة النبوية جمع فيها أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم يقال أنه ألفها في الحرمين الشريفين (٥).

ومن أهم مؤلفات المقري كتاب "روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعابنة والتكليم"، ويظهر من خلال العنوان أنه أيضاً في السيرة النبوية ويرجح أن تأليفه كان في الحجاز أو القدس الشريف وهو من المفقودات (٦).

(١) أحمد المقري : فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ٢٢٠٢، لوحة رقم ١.

(٢) إمام قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٣) القادري : نشر المثاني...، مصدر سابق، ٢ / ١٢٩٦.

(٤) لا يزال مخطوطاً ومنه نسخة في دار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٢٦٦ ن .

(٥) المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١ / ٣٠٣؛ محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣٠٠.

(٦) الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ٢ / ١٤.



كما ألف المقرئ عدة مؤلفات في علوم اللغة منها "التحفة المكية في شرح الأرجوزة الألفية"، وهو أرجوزة في النحو وضعها في المسجد الحرام<sup>(١)</sup>، وله عدة قصائد منظومة في "مناسك الحج" افتتحها بمدح الحرم المكي ثم أعقب ذلك بشرح مفصل للمناسك من دخول مكة مروراً بطواف القدوم، والسعي وصولاً إلى جبل عرفات والنفرة منه نحو مزدلفة ثم منى ورمي الجمرات حتى العودة<sup>(٢)</sup>.

وفي القاهرة نظم "إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة" وهو مؤلف في العقيدة يتكون من ٤٧٢ بيتاً، كما نظم "القصيدة المقرية" وهي تزيد عن مائة بيت ذكر في بدايتها أحوال الناس في الدنيا بين السعادة والشقاوة ثم عرج على الأندلس وما حدث فيها مما لا تكاد تصدقه العقول حيث ذهب بهم الزمان وتحولت أحوالهم<sup>(٣)</sup>.

ولا يسعنا أن نغفل الكم الهائل من القصائد التي نظمها المغاربة في مكة والمدينة شوقاً لهما قبيل الوصول أو توديعاً عند المغادرة والخروج أو ما يخص المدائح النبوية وهي كثيرة منها قصائد للعايشي في مدح المدينة المنورة وساكنها عليه الصلاة والسلام<sup>(٤)</sup>.

وهناك بعض المؤلفات التي كتبها العلماء المغاربة بسبب نازلة نزلت أو خلاف وقع في مسألة، فعندما وقع الخلاف بين العلماء المغاربة المرافقين للسيدة خاتمة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل العلوي<sup>(٥)</sup> وأم السلطان عبد الله بن إسماعيل وبين المجاورين في مكة

(١) إمام قرود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) المقرئ: الرحلة إلى المغرب والشرق...، مصدر سابق، ص ٦٦؛ إمام قرود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٣) عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية...، مرجع سابق، ص ٩.

(٤) العياشي: الرحلة...، مصدر سابق، ١/٤٦٨ - ٤٧٠.

(٥) تولى سلطنة العلويين في المغرب الأقصى لمدة سبع وخمسين سنة وكان قبلها نائباً عن أخيه الرشيد سبع سنين. فهو صاحب أطول مدة من بين حكام هذه السلطنة، إلا إن أيامه كانت مثلاً من ناحية الأمن وتنام الضبط فلم يجد أهل الفساد مجالاً خلال فترة حكمه من ١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ. أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥ هـ): الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء، د - ت، ٧/٤٥، ٩٩.



وتكلموا في شأن الدار التي اشترتها وأوقفتها على طلاب العلم لتدريس البخاري وغيره في المسجد الحرام وقال بعض المغاربة المجاورين لا يجوز شراء بيوت مكة ولا بيعها، فأرسلت السيدة المذكورة إلى الإسحاقى تسأله أن يبين لها وجه الصواب فكتب لها رسالة بالجواز وفق ما جاء في كتب الفقه المعتمدة عند المالكية والشافعية<sup>(١)</sup>.

ولما ورد على ابن الطيب أثناء مقامه في مكة سؤال يتعلق بالقهوة وأحكامها، جمع في ذلك تأليفاً مستقلاً حافلاً سماه "الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المتعلقة بالقهوة" ورتبه على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، لكنه ضاع عندما تعرض الرحالة للسرقة و أخذه السارق<sup>(٢)</sup>.

كما ألف الإسحاقى أيضاً مختصراً في فقه الحج، عرف فيه الحج لغة وشرعاً وذكر أدلة فرضيته من الكتاب والسنة والإجماع، وأركانه، ثم أوضح فوائد بيان الأخطاء الموجبة لذبح الهدى، ثم عقد فصلاً عن حدود الحرم، وختمه بمجموعة من الأسئلة والأجوبة في مسائل الحج<sup>(٣)</sup>.

(١) الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ٣١٦ - ٣٢٠.

(٢) أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي (ت ١١٧٠هـ): رحله الفاسي ١١٣٩هـ - ١١٤٠هـ مخطوطة "بقسم المخطوطات في المكتبة المركزية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وهو نسخة عن الأصل الموجود في دار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة، تحت رقم ١٤٠٣ تاريخ تيمور، لوحة ٥٧/أ، ب

(٣) سجل الإسحاقى هذا المختصر الفقهي الرحلة. الإسحاقى: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ٣٢٠ - ٣٤٧.

### الخاتمة

بعد هذا العرض للأشطة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني، يمكن أن نقرر أن القوافل كانت بمثابة مدارس متحركة مزدهرة بأنشطتها المختلفة من تدريس أو سماع في حلقات الدرس بالمراكز العلمية أو مناظرات ومساجلات.

وقد توصلت الدراسة إلى بعض النتائج التي يمكن سردها في النقاط التالية:

١- إن قوافل الحج المغربية كانت في الأغلب بمثابة مدارس متحركة مزدهرة بأنشطتها المختلفة من تدريس أو سماع في حلقات الدرس على الطريق أثناء السير وفي المراكز العلمية.

٢- حرص الحجاج على استثمار الوقت الطويل الذي تستغرقه رحلة الحج في تحصيل العلم.

٣- من لم تسعفه المجالس العامة في منازل القوافل قام بزيارة العلماء في بيوتهم للاستفادة منهم بصورة منفردة بعيداً عن زحام الحلقات ووضوء المجالس ومزاحمة العوام.

٤- اهتم الطلاب والعلماء بالأسانيد والإجازات توثيقاً لما يقومون به من أنشطة؛ ولتقوية الأواصر العلمية فأجازوا وأجيزوا وضمنوا مدوناتهم هذه الإجازات على اختلاف أنواعها.

٥- لا يجانبني الصواب إذا قلت بأن جميع المرافقين للركب كان يعود إلى بلاده مسروراً بتحصيل المعارف سروراً لا يقل عن فرحته بأداء الفريضة، وأن هذه الرحلة كانت فرصة بما توفر فيها من علماء وما دار خلالها من لقاءات وما حصل من كتب وإجازات وأسانيد قلما تجتمع في غيرها.

٦- مما يثير العجب تفرغ بعضهم عقلياً وتفتح ذهنياً لتصنيف بعض المؤلفات التي تناسب مقتضى الحال في الطريق وبعض المحطات، حيث أنتجت قرائحهم بعض المؤلفات وجاءت في أغلبها تتويجا لما نزل بهم من نوازل أو دار بينهم من مناقشات ومساجلات خلال الطريق وفي منازلهم.

٧- حرص العلماء على اتباع أدب الحوار الراقي الذي هدفه الوصول إلى الحق في المسائل المطروحة على مائدة النقاش بالإقناع المعتمد على الدليل والحجة.

وأخيراً، فقد رصدت هذه الدراسة ذات الصفحات المتواضعة النشاط العلمي على طريق الحج المغربي خلال الفترة المذكورة، معتمدة بالمقام الأول على ما كتبه المراقفون للركب من العلماء المشاركين في أنشطة هذه الحركة العلمية في مدوناتهم المخطوط منها والمطبوع فهي التي أمدتنا بالنصوص التي أثرت هذا العمل ووثقته بالإضافة إلى بعض المصادر والمراجع الأخرى التي ساهمت في استكمال الصورة.

### قائمة المصادر والمراجع

#### أولاً المصادر العربية المخطوطة:

- (١) الإسحاقى. محمد الشرقي بن محمد. رحلة الإسحاقى صحبة الأميرة خناثة بنت بكار زوجة مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى (سنة ١١٤٣هـ/١٧٣١-١٧٣٢م) مخطوط بالخرزانة الملكية بالقصر الملكي في مدينة الرباط، المملكة المغربية، تحت رقم ١١٨٦٧.
- (٢) التاودي. محمد الطالب بن سودة المري: الرحلة، وفيه سند التاودي بموطأ مالك وصححي الإمامين، نسخة في قسم المخطوطات، مكتبة الحرم النبوي بالمدينة المنورة عن المكتبة الأزهرية، تحت رقم ٨٨٦ تاريخ، ورقم ٥٣٥٨٢ مصطلح حديث.
- (٣) أبو راس. محمد بن أحمد بن عبد القادر. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالخرزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٢٣٣٢ .
- (٤) أبو العباس الفاسي. أحمد بن محمد بن عبد القادر رحلة من مدينة فاس إلى مكة والمدينة (سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦-١٧٩٧م)، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٤ جغرافيا، ميكروفيلم ٧٥٢٦ .
- (٥) العياشي . أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (١٠٣٧- ١٠٩٠هـ / ١٦٢٨- ١٦٧٩م): التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، مخطوط بالخرزانة العامة في الرباط، المملكة المغربية، ضمن مجموع تحت رقم ٤٣ ك.

(٦) ابن الطيب الفاسي. أبو عبد الله محمد (ت ١١٧٠هـ): رحله الفاسي ١١٣٩هـ - ١١٤٠هـ "مخطوطة" بقسم المخطوطات في المكتبة المركزية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وهو نسخة عن الأصل الموجود في دار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة، تحت رقم ١٤٠٣ تاريخ تيمور.

(٧) المقرئ. أحمد بن محمد. فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٢٢٠٢.

(٨) المقرئ. أحمد بن محمد. مقتطف من أزهار الرياض في أخبار عياض، ج ١، مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، محفوظ تحت رقم ٢٩٦.

#### فانياً المصادر العربية المطبوعة:

(١) البغدادي. إسماعيل بن محمد (ت ١٣٩٩هـ): هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، نيل على كشف الظنون ج ٢، وكالة المعارف الجليّة في مطبعتها البهية إستانبول ١٩٥١م، نسخة بالأوفست لدار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د - ت.

(٢) التتبيكي. أحمد بابا. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه مجموعة من طلاب كلية الدعوة الإسلامية، إشراف وتقديم: عبد الرحمن بن عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م.

(٣) الجبرتي. عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ). تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: أد - عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن، منشورات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، ج ١، القاهرة ١٩٩٨م.

(٤) الحضيكي. محمد بن أحمد (ت ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م). طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.

(٥) ابن أبي دينار. محمد. المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م.



- (٦) أبو راس. محمد بن عبد الكريم بن عبد القادر الجزائري. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٢م.
- (٩) العياشي. عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أبو سالم (١٠٣٧-١٠٩٠هـ / ١٦٢٨-١٦٧٩م). الرحلة العياشية (١٦٦١ - ١٦٦٣م)، تحقيق: د / سعيد الفاضلي، د / سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبوظبي الإمارات، ٢٠٠٦م.
- (١٠) الفاسي المغربي. يوسف بن عابد بن محمد الحسيني (ت ١٠٤٨هـ). رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، حقق نصها وعلق عليها: إبراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- (١١) القادري. محمد بن الطيب. نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٦م.
- (١٢) الكتاني. محمد عبد الحَيّ (ت: ١٣٨٢هـ): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج١، بيروت، ١٩٨٢م.
- (١٣) المرادي. محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني ١١٧٣ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٩١ م. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٤، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- (١٤) المحبي. محمد أمين الحموي الدمشقي (ت ١١١١هـ). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت د-ت.
- (١٥) مخلوف. محمد بن محمد (الشيخ). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م.



- (١٦) المقرئ. أحمد بن محمد. رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠٠٤م.
- (١٧) المقرئ. أحمد بن محمد. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.
- (١٨) ابن منظور الإفريقي. محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ). لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.
- (١٩) ابن ناصر الدرعي. أحمد بن محمد. الرحلة الناصرية، ج١، طبع بالمطبعة الحجرية بفاس سنة ١٣٢٠هـ.
- (٢٠) الناصري. أحمد بن خالد (ت ١٣١٥هـ). الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء، د - ت.
- (٢١) الورثياني. حسين بن محمد. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، أو الرحلة الورثيانية، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيروفونتانة الشرقية، الجزائر، (د - ت).

#### ثالثاً المراجع العربية:

- (١) التازي. عبد الهادي (دكتور). رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٥م.
- (٢) سعد الله. أبو القاسم. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- (٣) سعد الله. أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
- (٤) الطمار. محمد بن عمرو. الروابط الثقافية بين تلمسان والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م.





- (٥) عبد الرحيم. عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، (١٥١٧-١٧٩٨م) منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م.
- (٦) محفوظ. محمد. تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

**رابعاً) الرسائل الجامعية غير المنشورة:**

- (١) قرود. إمحمد. الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن ١١هـ / ١٧م، من خلال ثلاثة نماذج: أحمد المقرئ، عيسى الثعالبي، يحيى الشاوي النائلي، مذكرة ماجستير غير منشورة، تخصص العلاقات بين المشرق والمغرب في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م.
- (٢) قريزة. ربيعة. علماء جزائريين بمصر في الفترة العثمانية (القرن ١١ - ١٢هـ / ١٦ - ١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١٠ - ٢٠١١م.

**خامساً) بحوث الدوريات والندوات:**

- (١) سمير. مشوشة. ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن ١٨م، بحث منشور في مجلة المعارف الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، مجلة دورية دولية محكمة، العدد ١٢، الجزائر.
- (٢) عزي. عبد الرحمن (دكتور). التواصل القيمي في الرحلة الورثيلائية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار من تأليف الحسين بن محمد الورثيلائي ١١٢٥-١١٩٣ (هجري)، دراسة تم إعدادها لمؤتمر جامعة فيلادلفيا، الأردن حول "ثقافة التواصل" نوفمبر ٢٠٠٩م.

## بلاد الشام في عيون الرحالة الروس

### ” قسطنطين بازيلي نموذجاً ”

أ.د/ أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس

أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر

بجامعة عين شمس

#### مقدمة :

تعد كتابات الرحالة، من المصادر التي تحتوي على معلومات مهمة دونت من قبل رجال قصدوا الحقيقة و راحوا يجوبون أرجاء العالم، و كانت تلك المعلومات الأساس الذي بني عليه المؤرخون نظرياتهم و آراءهم. ويمثل أدب الرحلة لوناً أدبياً له بواعثه و خصائصه وأهدافه، يتنافس في ميدانه التاريخ والأدب والفنون وعلوم أخرى<sup>(١)</sup>.

تعد كتابات الرحالة من أهم مصادر كتابة التاريخ، فهي تعتمد على الإدراك الحسي المباشر للأحداث، ولا تعتمد على النقل و السماع فقط، مما يجعل منها شهادة حية للوقائع التاريخية<sup>(٢)</sup>. وتتميز كتب الرحلات بأنها من أهم المصادر التاريخية والجغرافية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وممتعة ومسلية. وتختلف كتب الرحلات عن كتب التاريخ، حيث تعني كتب التاريخ بالحقائق فقط، ومحاولة تقديم صورة موضوعية مجردة بقدر المستطاع، بعيداً عن الميول الذاتية، ومع أن كتب الرحلات تحتوي على الكثير من الحقائق إلا إنها لا تخلو من الانطباعات الشخصية والانفعالات التي تملئها الظروف والمواقف المتباينة.

والفرق بين المؤرخ و الرحالة، أن المؤرخ يستقي معلوماته في غالب الأمر من الكتب والمستندات والوثائق، بينما يستقي الرحالة معلوماته من التجوال والتأمل والاستماع والمشاهدة<sup>(٣)</sup>.

والحقيقة، إن كتابات الرحالة عن بلاد الشام تعد مصدرًا مهمًا من المصادر التي يمكن أن يستفاد منها في بعض المجالات التاريخية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية والفولكلورية. وتمثل مادة علمية تساعد الباحثين في التعرف على جوانب كثيرة من الحياة و الثقافة في بلاد الشام و الصراعات السياسية والدينية التي شكلت وعي الإنسان و ثقافته بما فيها من عادات و تقاليد و تصورات شعبية .

وسوف نتناول في هذا البحث أحد الرحالة الروس وهو قسطنطين بازيلي وهو كاتب ومؤرخ ودبلوماسي.

من أوائل الدبلوماسيين الروس الذين وصلوا إلى بلاد الشام في أواخر عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، واستقر في بيروت متجولاً في رحلات متتالية في أنحاء بلاد الشام (فلسطين ولبنان وسورية) استمرت بضع سنوات تمخضت عن كتاب مهم هو "سورية و فلسطين تحت الحكم العثماني". وهو من أهم كتابات قسطنطين بازيلي بصفة خاصة ، بل ويُعد من أهم المراجع الأساسية في تاريخ بلاد الشام بصفة عامة .

#### وأهم النقاط الرئيسية التي سوف نتناولها في هذا البحث ما يلي:

- نبذة عن حياة قسطنطين بازيلي.
- دوافعه من تدوين هذا الكتاب.
- أهم الوقائع التي تناولها في كتابه.
- زيارة قسطنطين بازيلي لمصر.
- القيمة العلمية للكتاب.

#### تعريف بـ قسطنطين بازيلي:

قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيلي دبلوماسي Basile Mikhalovich Constantine

وكاتب ومؤرخ ومستشرق روسي، يوناني الأصل، كان يهوى الرحلات.

وكان قسطنطين بازيلي أحد القناصل الروس البارزين لدى الدولة العثمانية، والذي تمتع بثقافة تاريخية و أدبية عالية، ممن عالجوا الوجود الروسي في فلسطين من خلال اهتمامه بتاريخ سورية و فلسطين و الذي تجلّى في كتابه " سورية و فلسطين تحت الحكم العثماني " .

ولد قسطنطين م. بازيلي في ٣ فبراير ١٨٠٩م في مدينة استانبول Istanbul الأسرة يونانية غنية. كان جده مالكا عقارياً كبيراً، إلا إنه جرد من أملاكه بسبب مساعدته للألبان في نضالهم ضد السلطات العثمانية في عام ١٧٧٢م، وحكم عليه بالإعدام غيابياً. وحينما بدأت الثورة اليونانية في عام ١٨٢١م، كان أبوه ميخائيلوفيتش على صله بالقوميين اليونانيين فحكم عليه بالإعدام أيضاً، إلا إن أسرة بازيلي استطاعت بمساعدة السفير الروسي الكونت ستروغانوف Stroganov الهرب سراً من إستانبول إلى أوديسا Odessa (٤).

تلقى قسطنطين م. بازيلي تحصيلاً عميقاً في العلوم الإنسانية، في مدرسة العلوم العالية في مدينة "نيجين" Negin الأوكرانية التي قبل في قسمها الداخلي عام ١٨٢٢م، ومن ثم في مدرسة "ليسيه ريشيليه" Lycee Rachelet في أوديسا التي أصبحت فيما بعد "جامعة نوفو روسيا" Novorassia University والتي تخرج منها عام ١٨٣٠م، كما تخرج منها فيما بعد كُتاب و فنانون و علماء مشهورون، وفي المدرسة عقد أواصر الصداقة بين بازيلي و نيكولاي جوجول Nikolai Gogol (٥) الكاتب الروسي الشهير (٦)، وأصبح بازيلي مساهماً في حلقة جوجول الأدبية. وبعد تخرج بازيلي، سافر إلى اليونان و عمل مترجماً لدى قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط الأدميرال ريكورد (٧).

وفي أواخر عام ١٨٣٣م عين في الخدمة الفعلية في القسم الآسيوي لوزارة الخارجية الروسية، في سان بطرسبورج ST PETERBURG، وأثناء عمله قام بتأليف ثلاث مؤلفات أدبية هي :

- الأرخيبيل واليونان في عامي ١٨٣٠-١٨٣١م، جزءان، نشر في سان بطرسبورج عام ١٨٣٤ م .
- مقالات عن القسطنطينية، جزءان، نشر في سان بطرسبورج عام ١٨٣٦ م .
- اليوسفور ومقالات جديدة من القسطنطينية، جزءان، نشر أيضاً في سان بطرسبورج عام ١٨٣٦ م .

في ٢٤ ديسمبر ١٨٣٨م عينته وزارة الخارجية الروسية قنصلاً في يافا، تابعاً لقنصل روسيا العام الموجود في مدينة الاسكندرية<sup>(٨)</sup>، ثم نقل إلى بيروت، حيث مركز التجارة ومقر القنصليات الأوروبية الأخرى، وفي بيروت تم نقل المركز القنصلي الروسي إليها في عام ١٨٣٩م ، وأصبح بازيللي القنصل العام عام ١٨٤٣م و مسئولاً عن جميع ممثلي القنصلية في سوريا، و منهم ممثل القنصلية في القدس<sup>(٩)</sup>.

وتلقى بازيللي تعليماته من قبل الحكومة الروسية، والتي أوصت بالعمل على إقامة علاقات وطيدة مع بطريرك القدس، والسلطات الكنسية المقيمة في سورية وفلسطين، وأن يولي الاهتمام بمصالح المسيحيين والكنيسة الشرقية، وإقامة علاقات ودية مع رؤساء الطوائف المسيحية الأخرى، ومساعدة الحجاج الروس<sup>(١٠)</sup>.

ومن الاقت للنظر أن جميع التعليمات التي أعطيت لقسطنطين بازيللي تعليمات للاهتمام بالجانب الديني أكثر من السياسي ، باعتبار أن روسيا كانت تعتبر نفسها جامعة للكنيسة الشرقية والمذاهب الأرثوذكسي بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣م، فقد كانت روسيا تطمح في أن تقوم بدور مماثل لما كانت تقوم به فرنسا وإنجلترا لحماية المسيحيين الكاثوليك في هذه المنطقة التي كان المسيحيون العرب يشكلون آنذاك نسبة غير قليلة من السكان .

و ظل بازيللي يشغل هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاماً في الفترة (من ١٨٣٨ إلى ١٨٥٣م)، وقد جاء ثمره هذه السنوات كتاب بعنوان "سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني" وقد نشر في مدينة أوديسا الروسية عام ١٨٦١م، ويعد هذا الكتاب من أشهر وأهم مؤلفاته ، وقد ترجم هذا الكتاب للعديد من اللغات من بينها العربية<sup>(١١)</sup>. والكتاب على الرغم من أن عنوانه (سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني) إلا إن صاحبه يؤرخ لفترة حكم محمد علي باشا حاكم مصر (١٨٠٥-١٨٤٨م) وعلاقته ببلاد الشام إبان عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد استضاف بازيللي في منزله في بيروت العديد من الكتاب و الأدباء الروس منهم أندرية مورافيوف A. Muravyov والارشمندرت يورفيوريوس أوسيينسكي U. Ospenski والكاثب نيكولاي جوجول Nikolai Gogol، والمؤرخ كونداكوف Kondakov والشاعر ب. فيازيمسكي P. Vyazemsky وغيرهم كثيرون<sup>(١٢)</sup>.

يقع كتاب بازيلي في حوالي ٣٥٨ صفحة من القطع المتوسط، و قد اتسم هذا الكتاب بطابع الدراسة التاريخية؛ إذ تناول فيه مؤلفه الأحداث التاريخية التي مرت بها بلاد الشام منذ منتصف القرن الثامن عشر، وعلى امتداد ما يقرب من قرن من الزمان، وقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً مهماً بالنسبة لكثير من الأدباء الروس<sup>(١٣)</sup>. وهو كتاب بالغ الأهمية لا يعادله أي كتاب استشراقي آخر حول تاريخ بلاد الشام في تلك الفترة<sup>(١٤)</sup>.

هذا الكتاب المهم يصور منطقة بلاد الشام منذ أن وصل قسطنطين بازيلي إلى بيروت في ١٨٣٩/١١/٢٠م أي بعد خمسة أشهر من إندلاع حرب الشام الثانية بين محمد علي باشا حاكم مصر، والسultan العثماني محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) ،ومكث بها حتى عام ١٨٥٣م، أي مع بداية حرب القرم التي نشبت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية . وبذلك يعد قسطنطين بازيلي شاهد عيان على أهم الأحداث السياسية والعسكرية التي حدثت في بلاد الشام خلال فترة إقامته .

**أهم الوقائع التي تناولها قسطنطين بازيلي في مؤلفه:**  
يتكون هذا الكتاب من أربعة وعشرين فصلاً<sup>(١٥)</sup> :

**الفصل الأول:** تناول عناصر المجتمع السياسي العربي في سورية والنظام الإقطاعي في الشرق، وتحدث عن الأمراء والشيوخ والعائلات الحاكمة (اليمنيين والقيسيين)، والغزو العثماني لبلاد الشام، ثم نظام التزام الإدارة المالية، ثم الحملة العثمانية الأولى على لبنان، كما تناول عائلتا (المعنيين والشهابيين)، ومغامرات فخر الدين المعني، وممتلكاته و نفوذه و ختم الفصل بالصراع بين العنصر العربي ضد العنصر التركي.

وقد تناول في **الفصل الثاني:** عهد الشهابيين في لبنان و معركة عين داره و آثارها، ونشوء حزبي (اليزيكيين والجنبلانيين) والانسائس العائلية وبدء نفوذ الموارنه. كما تطرق للحديث عن الوهابيين في شبه الجزيرة العربية و المماليك في مصر، و العلاقات بين الروس و المماليك و وفاة علي بيك الكبير و وفاة ظاهر العمر، والغطرسة التركية في سورية.

**أما الفصل الثالث:** تناول الاضطرابات في لبنان، وأحمد الجزائر ومكائده، والفتن بين الأمير يوسف وأخوته، وتمردات المماليك، وتنازل أمير لبنان وانتخاب الأمير بشير، انتفاضة الجبليين، فرار البشير، انتقام الجزائر، والحملة الفرنسية على الشام ١٧٩٨م واستيلاءهم على يافا، وحصار عكا، والانتطباع الذي أحيطه حملة الفرنسيين، ومخططات بونابرت لم تتحقق، ثم ختم الفصل بتوضيح الاختلاف بين مصر و سورية.

**الفصل الرابع:** تناول الحالة السياسية في سورية، علاقات الأمير بشير بالإنجليز، صلح الجبليين والحرب على الجزائر، والإجراءات التي اتخذها الباب العالي للاستيلاء على عكا، كما تناول اعتناق الشهابيين المسيحية لاعتبارات سياسية و دينية، فقد كان الأمير بشير الشهابي حاكم لبنان درزيًا مع الدرّوز، ومسيحيًا مع المسيحيين ، ومسلمًا مع المسلمين .

**الفصل الخامس:** تناول الحالة الداخلية للدولة العثمانية بعد الحرب ضد روسيا عامي ١٨٢٨-١٨٢٩م، كما تناول مآرب محمد علي تجاه سورية، وحملة إبراهيم باشا، ونجاحات المصريين في سورية، واستيلاء إبراهيم باشا على عكا.

**الفصل السادس:** تناول الأسباب الأساسية التي أدت لضعف الدولة العثمانية، وحملة المصريين على آسيا الصغرى، كما تناول تدخل روسيا في شئون الشرق، وموقف الدول الأخرى، ووصول الأسطول والجيش الروسيين إلى البوسفور، وختم الفصل بمعاهدتي كوتاهية، وهنكار أسكله سي.

ومن المعروف أن معاهدة كوتاهية والتي أبرمت في مايو ١٨٣٣م وبمقتضاها صارت حدود مصر الشمالية تصل عند مضيق كوك بجزال طوروس، وبذلك انتهت الحرب السورية (حرب الشام الأولى) بتوسيع نطاق نفوذ مصر في سورية وأضنة وتأييد سلطتها على كريت وشبه الجزيرة العربية. وقد وقع السلطان العثماني محمود الثاني، على هذه المعاهدة مرغماً، ولذا سعى لنقض هذه المعاهدة عندما وقع معاهدة سرية مع روسيا تعرف بمعاهدة (هنكار أسكله سي) في ٨ يوليو ١٨٣٣م والتي تخول لروسيا بسط نفوذها على مضيقي البوسفور والدرنيل، والمعاهدة الأخيرة لم يبرمها السلطان العثماني على ما فيها من مهانة للدولة العثمانية إلا ليسعى لنقض معاهدة كوتاهية<sup>(١٦)</sup>.

**الفصل السابع:** تناول تأثير الإصلاحات في سورية وآسيا الصغرى، وحملة الأتراك على كورديستان، ومحمد علي وإصلاح النظام المالي في سورية، وإيرادات ومصروفات محمد علي في سورية، وبعض الإنشاءات مثل الكرنينيات (الحجر الصحي) و الشرطة والبريد.

**الفصل الثامن:** تناول التجنيد في سورية، و تناول تمردات اليهودية والدروز، والامتيازات الممنوحة للمسيحيين، كما تناول التسامح الديني والآثار التي ترتبت عليه ، وختم الفصل ببقوية الجيش المصري في سورية.

**الفصل التاسع:** تناول تقييد الحقوق الإقطاعية في سورية و ملاحقة الأعيان، والنظام الإداري للأمير بشير، ثم بداية الامتيازات اللبنانية ، ثم ختم الفصل بالعلاقات المتبادلة بين الباشا محمد علي و الأمير بشير الشهابي.

**الفصل العاشر:** تناول الأوضاع في سورية في مستهل عام ١٨٣٩م ، ثم استعدادات السلطان محمود الثاني الحربية، وطموحات محمد علي بالاستقلال بحكم مصر وموقف الحكومات الأوروبية منهما.

**الفصل الحادي عشر:** تناول مرض السلطان العثماني محمود الثاني و تبوء السلطان عبد المجيد العرش ( ١٨٣٩-١٨٦٠م) ، ومعركة نصيبين أو نزيب يونيو ١٨٣٩م انتصارات إبراهيم بن محمد علي باشا.

**الفصل الثاني عشر:** تناول القلق في استانبول من انتصارات إبراهيم بن محمد علي، ومطامع محمد علي في حقوق السلطان العليا، والمباحثات بين الدول الكبرى، الأساطيل في الدردنيل، الوعود بالتسامح الديني.

**الفصل الثالث عشر:** تناول افتتاح مؤتمر لندن في مايو ١٨٤٠م، مبعوث محمد علي، وظهور الأسطول الإنجليزي في بيروت، آخر انتصارات محمد علي، وختم الفصل بحملة الدول الأوروبية ضد محمد علي .

**الفصل الرابع عشر:** تناول العلاقات بين الدول الأوروبية الكبرى، تعهدات الدول الكبرى، بإعلام محمد علي بقرارات الدول الكبرى، مذكرة القناصل، رفض محمد علي لها و اعتماده على مساندة فرنسا.



**الفصل الخامس عشر:** تناول الأوضاع في سورية في اعقاب معاهدة لندن ١٨٤٠م، نجاحات الدول الأوروبية، احتلال الساحل السوري، تراجع جيش إبراهيم باشا، ثم تسليح الجبلين، والانتفاضات المتلاحقة للقبائل السورية، الفوضى في فلسطين، حشد الجيش المصري في دمشق، ثم خروج إبراهيم باشا من دمشق.

**الفصل السادس عشر:** تناول مخططات الباب العالي للقضاء على محمد علي، التغيير في سياسة فرنسا وتخليها عن محمد علي، واضطرار محمد علي للرضوخ، الحل النهائي للمسألة المصرية Question Egypt، ومعاهدة المضائق ( مضيق البسفور والدرينيل).

**الفصل السابع عشر:** تناول انسحاب الجيش المصري من سورية (بلاد الشام)، مرض إبراهيم باشا و عودته إلى مصر.

**الفصل الثامن عشر:** تناول مصير سورية السياسي و الديني (اليهودية و المسيحية والإسلام)، ثم تدهور سورية، وختم الفصل بمحاولة الإنجليز بعث الطرق التجارية القديمة.

**الفصل التاسع عشر:** تناول عودة نفوذ السلطان العثماني إلى سورية، اضطهاد المسيحيين، تقسيم سورية، ثم تناول تطبيق بنود معاهدة التجارة لعام ١٨٣٨م؛ وتصفية الاحتكارات، ونظام الإدارة الجديدة، و أخيراً تأثير الإصلاح و الغزو في التطور المعنوي للقبائل السورية.

**الفصل العشرون:** تناول نبذة تاريخية عن مآثر كوجوك علي أوغلو (خليل بيك) الصدر الأعظم الذي انعم عليه السلطان سليم الثالث (١٧٨٨-١٨٠٧م) بلقب باشا، وعن ابنه (دده بيك، ومستيك بيك).

**الفصل الحادي والعشرون:** تناول حالة بلاد الشام في ظل تنظيم السلطة الجديد، أمير لبنان بشير القاسم، دسائس الأعيان اللبنانيين و تطلعات الشعب، مآرب رجال الدين الكاثوليك ومساعي المنصرين البروستانت، الاسقفية البروستانتية في القدس، أسباب النزاعات اللبنانية.

**الفصل الثاني والعشرون:** تناول الاضطرابات في بلاد الشام؛ قلاقل في مدينتي نابلس و اليهودية، أول حرب داخلية بين الموارنه (المسيحيين) والدروز (المسلمين) في عام ١٨٦٠م، انتصار الدروز، عزل أمير لبنان، الدسائس الدينية الداخلية والخارجية، الاضطراب في لبنان، عصيان الدروز.

**الفصل الثالث والعشرون :** تناول نظام الإدارة الجديد في لبنان، سقوط الشهابيين، مصائب مسيحي جبال لبنان الشرقية، ادعاءات الدول الكاثوليكية، اضطرابات جديدة بين الموارنة بصدد انتخاب البطريرك ، ثم ختم الفصل بالحديث عن شئون البدو.

**الفصل الرابع والعشرون الأخير:** تضمن تخوفات الباب العالي، قدوم شكيب أفندي وزير الخارجية إلى بيروت، دخول الفيلق العسكري الجبال، اعتقال الشيوخ، نزع سلاح الجبلين، التنظيم النهائي للإدارة اللبنانية، إعادة الهدوء إلى سورية، و أخيراً أهمية القضية اللبنانية بالنسبة إلى القانون الدولي.

هكذا نجد مدى قدرة قسطنطين بازيلي في رصد الأحداث التاريخية في بلاد الشام، والصراعات السياسية والزخم السياسي الذي انتاب المنطقة طوال القرن التاسع عشر الميلادي ، ويتضح من هذا العرض مدى قدرة الدبلوماسي قسطنطين بازيلي على التأريخ لأحداث المنطقة، سواء في الأحداث التي عاصرها بنفسه خلال فترة عمله، أو في الأحداث التي لم يعاصرها بنفسه ورجع لمصادر تاريخية استقى معلوماته منها.

أما عن أهم الأحداث التي عاصرها قسطنطين بازيلي بنفسه، ما تضمنه الكتاب من وثائق منذ فتح القنصلية الروسية الأولى في بيروت، وكذلك الكثير من المواد حول النشاط التعليمي لروسيا في فلسطين وسورية، وتأسيس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية في القدس عام ١٨٤٦م والتي تعد محطة مهمة في التاريخ الروسي - الفلسطيني، حيث بدأت مع تأسيس هذه الجمعية مرحلة مهمة في تاريخ علاقة روسيا بفلسطين و الأرض المقدسة.

واتسم بازيلي بالعداء تجاه البعثات التنصيرية الأوروبية البروتستانتية التي قامت بها فرنسا وبريطانيا، و قدم بها شكوى لحكومته بخصوص أن القنصل البريطاني في دمشق يقدم المساعدات لهذه البعثات التي تعمل على تحويل المسيحيين الأرثوذكس إلى المذهب البروتستانتية، فقام نيسلورد (Nesslord ١٧٨٠-١٨٦٢م) وزير الخارجية الروسي برفع هذه الشكوى إلى أبردين Aberdeen وزير خارجية بريطانيا (١٧٨٤-١٨٦٠م)، وسرعان ما قام الأخير بتوجيه إنذار إلى القناصل البريطانيين في دمشق وبيروت وغيرها يحذرهم من إثارة العداء الروسي في الأماكن المقدسة<sup>(١٧)</sup>.

كما تضمن الكتاب وثائق مهمة حول تأسيس اللجنة الفلسطينية التابعة لقسم آسيا في وزارة الخارجية الروسية التي نشطت في مجال البناء و التعمير في فلسطين.  
وتضمن الكتاب أيضاً المواد والمراسلات بين وزير الخارجية الروسي "تيسلورد" مع البعثة الروسية في القسطنطينية.

ووصف قسطنطين بازيلي موقف إبراهيم باشا من مواجهة ثورة النصيرية<sup>(١٨)</sup> في أكتوبر عام ١٨٣٤م، وثورة حوران ١٨٣٧م من إخماد هذه الثورات ونزع السلاح وتجنيد نحو أربعة آلاف من أهل البلاد، بالتجنيد الإجباري الذي انتهجه الذي أدى إلى تدخل القنصليات وقناصل الدول الأوروبية لإنقاذ المسلحين الهاربين الذين طلبوا الحماية منهم، وكان أكثر الهاربين من المسيحيين الإرتونكس<sup>(١٩)</sup>.

و بازيلي شاهد عيان على المنازعات الداخلية الدموية التي شهدتها لبنان خلال الأعوام (١٨٤١-١٨٤٥م)، و خلال فترة إقامته زار مختلف مدن و مناطق بلاد الشام، و تعرف عن قرب على أحوال سكانها<sup>(٢٠)</sup>، عموماً الكتاب لم يترك شاردة ولا واردة عن بلاد الشام إلا وتناولها بالتفصيل.

ويُعد هذا الكتاب من أهم ما كتب عن بلاد الشام و خاصة عن فترة إبراهيم باشا وحملته على فلسطين، وتحول مدينة نابلس إلى عاصمة الانتفاضة ضد إبراهيم باشا، حيث تحدث الفصل الثامن من كتابه عن انتفاضة جبل النار مبيناً الأسباب و الدوافع التي كانت من وراء تمرد منطقة جبال نابلس على إبراهيم باشا، وتحرك والده (محمد علي) بإرسال المساعدات لإنقاذها.

اتسم قسطنطين بازيلي بعنائه للدولة العثمانية العدو اللدود لروسيا، وبعنائه لمحمد علي باشا، فقد خاضت روسيا حروباً عديدة ضد الدولة العثمانية، وكذلك حروباً عدة ضد سياسة محمد علي باشا ، فقد كانت الدولة العثمانية تهيمن على مضيق البسفور والدرنيل التي كانت روسيا تأمل في السيطرة عليهما للخروج من المياه الباردة والمياه الدفيئة ، وفي الوقت نفسه كانت روسيا تخشى من استيلاء محمد علي على إستانبول التي كان القياصرة الروس يطمحون في الاستيلاء عليهما.

وعلى الرغم أن بازيلي أنجز هذا الكتاب في أواسط عام ١٨٤٧م إلا إنه لم ينشر إلا في عام ١٨٦١م، أي بعد ثماني سنوات من مغادرة بازيلي لعمله القنصلي في بلاد الشام ١٨٥٣م<sup>(٢١)</sup>. و بعد أربعة عشر عامًا من الانتهاء من تدوين الكتاب.

ويبدو أن التأخير في إصدار الكتاب يرجع إلى أن الرقابة في وزارة الخارجية الروسية لم تسمح بنشر الكتاب؛ بسبب أن بازيلي شخصية رسمية، وأن الكتاب يمس القضايا السياسية الخارجية الروسية آنذاك.

### زيارة قسطنطين بازيلي لمصر:

وفي أغسطس ١٨٣٩م، زار قسطنطين بازيلي مصر، بناءً على تعليمات تلقاها من السفير الروسي في استانبول "إيفان بيتروفيتش بوتينيف" Ivan Petrovich Botiniv بالتوجه إلى الإسكندرية ليقيم نفسه إلى القنصل الروسي العام في الإسكندرية الكونت "الكسندر ميديم" Alexander De Medm (١٨٣٧-١٨٤٠م) الذي كان يخضع له في ذلك الحين القناصل و الوكلاء الروس المقيمون في بلاد الشام<sup>(٢٢)</sup> باعتبار أن القنصلية الروسية في الإسكندرية قنصلية عامة بينما بقية القنصليات الأخرى في بلاد الشام قنصليات فرعية تابعة لها.

وخلال هذه الزيارة، اقترح بازيلي على ميديم نقل المركز القنصلي الروسي من يافا إلى بيروت التي كانت قد ترسخت فيها حينذاك قنصليات الدول الأوروبية، وتحويل قنصلية بيروت من قنصلية فرعية إلى قنصلية عامة مثل قنصلية الإسكندرية، و بذلك يسهل نشر بلاغات دائرة اختصاص قنصلية بيروت إلى سائر الوكالات القنصلية الروسية<sup>(٢٣)</sup> الموجودة في بلاد الشام<sup>(٢٤)</sup>.

ولاشك أن هذا التعديل كان يهدف إلى تحسين أداء التمثيل القنصلي الروسي في بلاد الشام، ويرفع من شأن القنصل الروسي بين ممثلي السلك القنصلي الآخرين في بيروت، وقد أقرت المراجع العليا في سان بطرسبورج هذه الاقتراحات.

ونفذت خطة بازيلي كاملة في عام ١٨٤٣م، و حولت قنصلية بيروت إلى قنصلية عامة وأصبح بازيلي قنصلاً عاماً<sup>(٢٥)</sup>. وهو بذلك يعد أول قنصل عام روسي في بلاد الشام.

ولذا ارتبط النشاط القنصلي وتنظيم القنصلية الروسية في بيروت باسم بازيلي، وليس مصادفة أن يأتي إلى فلسطين في ذلك الوقت ١٨٤٣م المستشرق يورفيربوس أوسبنسكي الذي أسس فيما بعد أول بعثة دينية لروسيا في القدس ١٨٤٦م تحت إشرافه لحماية السكان الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ومجابهة السياسة الدينية الفرنسية والإنجليزية التي كانت تطمح في فرض حمايتها على الكاثوليك و البروتستانت<sup>(٢٦)</sup>.

وبإبان زيارة بازيلي لمصر في أغسطس ١٨٣٩م تقابل مع محمد علي باشا و تحدث معه حول التغييرات التي شهدتها مصر خلال سنوات حكم محمد علي (١٨٠٥-١٨٣٩م) وكانت أهمية هذا اللقاء ترجع إلى أنها جاءت في أعقاب الحرب المصرية العثمانية عام ١٨٣٩م، التي تعرف باسم حرب الشام الثانية والتي وقفت خلالها روسيا إلى جانب الباب العالي في نزاعه ضد محمد علي.

انتقد قسطنطين بازيلي في كتابه "سورية و فلسطين تحت الحكم العثماني" تصرفات محمد علي الذي قال عنه: "اعترف بأنه جرى من الأحاديث عن هذا الإنسان الشهير في كل الرحلات و في كل المدونات السياسية المعاصرة، و صدر من سير محمد علي ما جعلني اعتبر أن من حقي الامتناع عن أن أقدم للباشا الشيخ هذه الفريضة التي قدمها الكتاب من كل الشعوب الذين زاروا مصر أو عكفوا على قضايا الشرق في العشرين عامًا الأخيرة<sup>(٢٧)</sup>، ولعل فارق السن بين محمد علي وقسطنطين بازيلي لأكثر من أربعين عامًا كانت أحد العوامل التي جعلت بازيلي لا يرتاح لأعمال وإنجازات وأفكار محمد علي ولاشك أن ذلك اختلاف سياسات واختلاف أجيال .

أشار بازيلي إلى أنه اقتصر في حديثه مع محمد علي باشا، على صفة واحدة، صفة تعبر بما فيه الكفاية عن ميله الداخلي و رغباته التي كانت تشغله في تلك الفترة، أن الباشا (محمد علي) وقد أبلغه قنصلنا العام الكونت ميديم بوصولي، حدد لي موعداً في إحدى حدائق قصوره بالإسكندرية التي كان من عادته أن يجري فيها المقابلات. يقول بازيلي : " وجدناه بين محبوبيه المعروفين، توسيتا Toseta " القنصل العام لليونان " والصيرفين (زيزيني Zizina و بريغس Briggs)، و الكثير من الحاشية. كان الباشا جالساً على الديوان مقابل حوض من الماء، تحت الأوراق الفاخرة لشجيرات الموز. كان أميراله المسن "موتوش باشا" Motosh Pasha، أحد



مرافقي شبابه المقحام، يقف أمامه باحترام و يربط الهواء بمروحة عريضة من ريش النعام ويطرد الباعوض و الذباب عن شخصه الفائق الوقار. و كان أرتين بك Artin<sup>(٢٨)</sup>، الذي أصبح ناظرًا للشئون الأفرنجية / الخارجية فيما بعد، يعمل مترجمًا. في ذلك الحين لم يعد محمد علي يرتدي العمامة، و لكنه لم يتقبل البدلة التركية الجديدة بعد، كان يغطي رأسه بطربوش بسيط بشرايبية زرقاء متدلّية إلى الخلف، وكانت رقبته مكشوفة على الطراز القديم، و كان يرتدي دراعه من الجوخ الأزرق مطرزة بشرائط حريرية ومفصلة على الطريقة التركية، وسروالاً عريضاً من اللون نفسه، وخفين أحمرين، بالإضافة إلى سيف برباط أحمر، و يحمل بيديه سبحة من الكهرمان تنتهي بها بدلته التي اعتمدها في الجيش والأسطول والبلاط والإدارة المدنية مع اختلاف حسب الرتبة في الخياطة ولون السترة، وفي شارة الصدر التي قد تكون من الذهب أو الألماس<sup>(٢٩)</sup>.

لا شك أن وصف بازيلي و تصويره لمجلس محمد علي وحاشيته بالتفصيل، تبين مدى الدقة التي تمتع بها بازيلي ومدى اهتمامه بشخص محمد علي . ويضيف بازيلي أن ملامح محمد علي باشا تعرب عن الوقار والهدوء أكثر مما تعرب عن روح المراس التي اتسم بها عمله<sup>(٣٠)</sup>. ثم يذكر " بازيلي " أنه، بعد التحيات المألوفة اقترح عليّ محمد علي باشا، أن أتفقد قبل كل شيء؛ مخزن الأسلحة، وليده المفضل، وترسانات السفن والمصانع والقصور وزيارة الآثار التي تتمتع بها مدينة الإسكندرية خاصة عمود بومبايوس والدياميس وغيرها<sup>(٣١)</sup>.

فقد كان محمد علي يفخر أمام الرحالة والدبلوماسيون الأجانب بما أنجزه في مصر، فهو بحق يعتبر مؤسس الإسكندرية الجديدة، بل و مؤسس مصر الحديثة نفسها، وتفاخر محمد علي كان يُعطي لفته مع الدبلوماسي الروسي بازيلي أهمية سياسية، ولاسيما إنه جرى في أعقاب الحملة السورية الثانية (١٨٣٩م) التي وقفت روسيا خلالها إلى جانب الباب العالي في نزاعه ضد محمد علي، ومن ثم يريد أن يظهر أمام بازيلي بمظهر القوة.

وقد استرعت اصلاحات وإنجازات محمد علي انتباه الرحالة والمستشرقين والدبلوماسيين الروس، ففقدوا المقارنات العديدة بينه و بين الحكام العظماء، فما هو بازيلي يعقد مقارنة بينه و بين الإسكندر المقدوني - فقد كان بازيلي يعلم أن محمد علي يجب أن يتشبه بالإسكندر الأكبر،

ويفخر بأن بلديهما "مقدونيا" واحدة - يذكر بازيلي أنه " قال للباشا - يقصد محمد علي - أن من بين كل ما صنعه العبقري المقدوني في العالم الذي أخضعه، بقيت الإسكندرية وحدها جديرة بذكره، و أن العناية الإلهية قدمتها، وكأنما بحق الوراثة إلى أحد مواطني مقدونيا ليجدد هذا الأثر الرائع<sup>(٣٢)</sup>. فقد كان إعجاب محمد علي بالإسكندر الأكبر يستأثر لبه وتفكيره، ويضيف بازيلي لقد "دغدغت ملاحظتي غرور الباشا إلى أقصى حد، فأخذ يتحدث برغبة عن مدينته الأم قوله"<sup>(٣٣)</sup>.

ورغم استقرار محمد علي باشا في ولاية مصر، إلا إنه ظل مرتبطاً بمسقط رأسه، فأشار بازيلي "ظلت ذكرى مسقط رأسه عزيزة عنده ولطالما أظهر عاطفته نحو الربوع التي درج فيها طفولته.

وبالمناسبة، لم يقتنع بازيلي على غرار الكثير من معاصريه بالصبغة الوطنية لادعاءات محمد علي تأسيس دولة عربية، لأن هذه الدولة لم تتأسس نتيجة لتطور داخلي يفتح للشعب "عهداً جديداً"<sup>(٣٤)</sup>.

الراجح الذي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد علي كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر، تضم إليها البلاد العربية في أفريقيا وآسيا، ففي أفريقيا قد استقل بمصر وضم السودان، وفي آسيا قد دخل معظم شبه جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية وبطموحه إلى بلاد الشام، أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبيرة<sup>(٣٥)</sup>.

ويؤيد هذه الفكرة رجحان بعض تصريحات فاه بها إبراهيم باشا خلال حرب الشام الأولى ١٨٣٢م عندما سئل إلى أي مدى تصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا؟ فقال، ما معناه إلى مدى ما يتكلم الناس باللسان العربي<sup>(٣٦)</sup>.

إن، مشروع تأسيس دولة عربية كبرى تكون مصر نواتها لم يكن ادعاء، فقد كان محمد علي يهدف إلى ذلك، وكان إبراهيم ابنه هو الأداة لتنفيذ هذا المشروع إلا إن إبراهيم توفي في حياة أبيه؛ أما إن هذه الدولة لم تتأسس نتيجة لتطور داخلي فاتفق في ذلك مع رأي بازيلي؛ لأنه من الخطأ أن نبرر ذلك؛ لأن محمد علي أدخل المدنية في مصر؛ ولأن المدنية نتاج لسلسلة من العمليات المتتابعة، ولا يمكن أن تأتي ارتجالاً في غضون عدة سنوات، ولا بد أن تكون المدنية نابعة من داخل المجتمع، وليست وافدة عليه من الخارج فحسب.

وإذ رأى بازيلي أن من المستحيل أن يغطي محمد علي بموارد مصر المحدودة نفقات معظم شبه الجزيرة العربية و بلاد الشام و السودان و سواحل الحبشة والصومال، و لذا يبحث عن الذهب في باطن الأرض<sup>(٣٧)</sup>.

إن موقف بازيلي السلبي من محمد علي، على الرغم من إعجابه بالكثير من مستحدثاته وإنجازاته مرده إلى إدراك التنافر بين تحولات محمد علي و الإمكانيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمصر، و كراهية الهدف الرئيس لمحمد علي، أي إثرائه الشخصي و إثراء أسرته والمقربين إليه، و كذلك على ما يبدو كان هذا هو موقف الحكومة الروسية من محمد علي خاصة أن هذه الزيارة جاءت في أعقاب حرب الشام الثانية ١٨٣٩م. والعلاقات بين محمد علي وروسيا لم تكن علاقات طيبة.

كما بالغ بازيلي في انتقاده لمحمد علي إذ ذكر في كتابه " ... يبدو أن المحفوظ العجوز أجهده توتر قواه الذهنية، ونزوات الخيال التي حكمت المخططات الطموحة لابن الروملي " يقصد (البلقان)<sup>(٣٨)</sup>. وبضيف " ... كان العاهل المعذب يعيش على جرعات الأفيون وحدها"<sup>(٣٩)</sup>، و أنه " ... لجأ في سن الشيخوخة و هو على حافة القبر، إلى تقاليد الفوضى القديمة، و على غرار الانكشارية، الذين كانوا يطالبون في العهود الغابرة بتغيير الوالي و الولاة، لم يقتصر في هذه الحالة على الطمع في الفوائد له ولأسرته، و لكنه تناول على حقوق السلطة العليا، مطالب بعزل الصدر الأعظم، و في الوقت نفسه انتهك حقوق السلطان الدينية بوقاحة"<sup>(٤٠)</sup>.

يبدو إن انتقاد بازيلي لشخص محمد علي ونعته بهذه الكلمات الساخرة التي تخلو من الدبلوماسية واللياقة والموضوعية، ترجع إلى تزامن زيارة بازيلي لمصر في عام ١٨٣٩م في أعقاب حرب الشام الثانية التي وقعت فيها روسيا والدول الأوروبية ضد محمد علي هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتقد أن نفسية محمد علي لم تكن على ما يرام بسبب وقوف الدول الأوروبية ضده وتصديها لانتصاراته والوقوف أمام طموحاته، ولعل رؤية بازيلي لمحمد علي، وهو على هذه الحالة السيئة هي التي جعلته يصفه بهذه الصفات السلبية. فلم يكن محمد علي يعيش على جرعات الأفيون - وإنما كان يعالج من أمراض الشيخوخة - وإلا ما استطاع أن يقوم بكل هذه



الإنجازات في مصر، ولم يتناول محمد علي على حقوق السلطان الدينية، وإنما كان يهدف إلى الاستقلال بحكم مصر. وكان بازيلى بلا شك يمثل رؤية بلاده في التصدي لمحمد علي آنذاك.

### القيمة العلمية لكتاب قسطنطين بازيلى:

قيمة كتاب قسطنطين بازيلى لا تنحصر في تفكيره في المواضيع التاريخية العامة عن بلاد الشام، و لا حتى في آرائه حول تاريخ الدولة العثمانية، و عدائه لها مع أنه أعرب في هذا الصدد عن جملة من الملاحظات العميقة، و لكن في المادة العلمية القيمة والغنية بالأحداث، وفي التحليل الملموس للأحداث التي كان شاهداً لها، بل و مشاركاً في صناعتها باعتباره المسئول الأول الممثل للجانب الروسي في بلاد الشام. وفي كونه استطاع أن يبعث من جديد جو و روح العصر على نحو مميز و برؤية علمية .

و قد أصبح هذا الكتاب مرجعاً مهماً ورئيساً بالنسبة لكثير من الأدباء الروس، وهو بالغ الأهمية لا يعادله أي كتاب استشرافي آخر حول تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر الميلادي.

كما ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن قسطنطين بازيلى كان أحد القناصل الروس البارزين لدى الدولة العثمانية، وممن عالجوا الوجود الروسي في بلاد الشام من خلال اهتمامه بتاريخ سورية وفلسطين، كما تمتع بازيلى بثقافة تاريخية وأدبية عالية جعلته موضع اهتمام كل من زار بلاد الشام من العلماء والكتاب والشعراء ورجال الدين الروس.

هكذا، عاش قسطنطين بازيلى حياة حافلة بالعمل الدبلوماسي والحياة الأدبية طوال حياته حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٨٨٤م بعد عمر ناهز الخمسة وسبعين عاماً .

## الهوامش

- (١) منصور إبراهيم الحازمي : رحلات العرب في جزيرة العرب، "بلاد العربية" ١٩٠١-١٩٧٢م، مجلة الدارة، ربيع الآخر ١٤٠٠هـ/مارس ١٩٨٠م، ع٣، ص٣٠.
- (٢) محمد بن ميمون العاصي التوزاني: رحلة محمد بن ميمون العاصي التوزاني، تحقيق عبد الله عاصم (دار النشر المغربية)، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٤.
- (٣) منصور إبراهيم الحازمي : بلاننا في عيون الرحالة عهد الملك عبد العزيز (١٣١٩-١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢-١٩٥٣م) ، الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، ص ٢٨.
- (٤) أوديسا، أكبر ميناء بحري روسي، و تقريبا الميناء الوحيد في العهد القيصري الذي كان يتم عبه نقل البضائع و الركاب. انظر: جينادي جور باتشكين: مصر في الارشيفات الروسية ، ترجمة إيمان يحيى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م ، ص ١٧.
- (٥) نيكولاي جوجول، كاتب روسي شهير، يعد من أشهر أبناء الألب الروسي، ولد في أول أبريل ١٨٠٩م ، و من أعماله الأكثر شهرة رواية "النفوس الميتة" و قصته القصيرة "المعطف" ، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين " المقش العام" ، " وخطوبه".
- (٦) قسطنطين بازيلي: سورية و فلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م ، ص٤.
- (٧) محمد حبيب صالح : الدبلوماسية في مصر و بلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٦٧ ، ٦٨ ، ١٩٩٩م ، ص ٢٤٩.
- (٨) الإسكندرية، من أهم المدن الساحلية في مصر، اتخذها محمد علي باشا مقراً للبعثات الأجنبية ، واعتبرت الإسكندرية حتى القرن التاسع عشر مدينة " الخواجات" حيث كان يسكنها عدد كبير من الجاليات الأجنبية . انظر: أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس: الرحالة والمستشرقون الروس ورؤيتهم لمصر إبان فترة حكم محمد علي باشا، مكتبة الآداب، القاهرة ، ٢٠١٥م، ص ٢٩.
- (٩) م. ريجنكوف، أ. سيمليا تسكليا سوريا و لبنان و فلسطين في النصف الأول من القرن ١٩، منكرات رحلة و تقارير علمية و اقتصادية نقله للعربية يوسف عطا الله ترجمة مسعود ضاهر، دار النهار للنشر ، بيروت، ١٩٩٣م ، ص ٣٣٥.

(10) Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine, review by tibawi, A:I, middle east. Journal, Vol. 24, No, 3, 1970. PP. 18-19.

(١١) قسطنطين بازيلي: المصدر السابق ، ص ٥ ، و قد ترجمه للعربية المترجم طارق معصراني و نشر في دار التقدم بروسيا عام ١٩٨٩م.

(12) Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine, review by tibawi, A:I, middle east. Journal, Vol. 24, No, 3, 1970. PP. 18-19

(١٣) بيرمنيوف: الروس في بلاط محمد علي، بحث في كتاب نحن و العرب، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٨م ، ص ١٧٩.

(14) <http://www.almutawaset.org/ara/indexphp?view=articlecatid=8%>

(١٥) قسطنطين بازيلي: المصدر السابق، ص ص ٢٤-٣٥٧.

(١٦) Ar .m.wikimedia.ORG وانظر أيضًا: أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس : تاريخ مصر الحديث ، مكتبة الآداب ، القاهرة، ٢٠١٨م، ص ص ١٤٤-١٤٦.

(١٧) النصيرية ، مدينة شرق اللاذقية في بلاد الشام ، ينتمون للمذهب الشيعي الأثنا عشري وتعد هذه الطائفة من غلاة الشيعة الذين ادعوا الألوهية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مؤسس هذه الطائفة هو محمد بن نصير البصري النمري (توفي عام ٢٧٠هـ) وقد اطلق عليهم الأتراك اسم النصيريين نسبة إلى الجبال التي كانوا يسكنونها ولذا عرفوا باسم "النصيرية" وبعد ذلك سمو باسم " العلويين" تمويهاً على الناس وتغطية حقيقة مذهبهم وهم يحرصون على هذا الاسم الآن . انظر: سليمان الحلبي (الدكتور) : طائفة النصيرية ، المطبعة السلطانية ، القاهرة ، (د.ت) ، ص ٩٥ . والنصيريون لهم عداة للإسلام والمسلمين وقاموا بثورات كثيرة وخروج على الحكام المسلمين السنة ولذا قام العسكر من الديار المصرية لنصرة أهل الشام . انظر: محمد أمين غالب الطويل : تاريخ العلويين ، اللاذقية ، ١٩٢٤م ص ٣٩١.

(١٨) قسطنطين بازيلي: المصدر السابق ، ص ص ٣٣١-٣٣٢.

(١٩) نفسه.

(٢٠) نفسه، ص ٤.

(٢١) نفس المصدر و الصفحة.



- (٢٢) كان لروسيا وكالات قنصلية في كل من حلب و اللاذقية و بيروت و صيدا، وكان يتولى أمر هذه الوكالات وكلاء قنصل و كان أغلبهم من التجار المحليين و التجار الأوروبيين المقيمين في بلاد الشام، و كان أداء هؤلاء الوكلاء أداء رديء ومن هذا جاد اقتراح التغيير. انظر: قسطنطين بازيلى: المصدر السابق، ص ٥.
- (٢٣) نفسه، ص ٦.
- (٢٤) نفس المصدر والصفحة.
- (٢٥) نفسه، ص ص ٥، ٦.
- (٢٦) نفسه، ص ٢٠٨.
- (٢٧) أرتين بك، من تلاميذ البعثة الأولى (١٨٢٦م) التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسة الحقوق و الإدارة الملكية و عين وكيلاً لمدرسة المهندس خانة ببولاق، ثم سكرتيراً أول و ترجماناً لمحمد علي باشا، و قد صار ناظرًا للتجارة و الخارجية خلفاً لباغوص بك، و هو والد يعقوب أرتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية سابقاً. انظر: عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العلمية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٤٨٥.
- (٢٨) قسطنطين بازيلى: المصدر السابق، ص ص ٢٠٨، ٢٠٩.
- (٢٩) نفسه، ص ٢٠٩.
- (٣٠) نفس المصدر و الصفحة
- (٣١) نفسه، ص ص ٢٠٩، ٢١٠.
- (٣٢) نفسه، ص ٢١٠.
- (٣٣) نفسه ٢١٠، ٢١١.
- (٣٤) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ، ص ٢٢٣.
- (٣٥) نفس المرجع والصفحة .
- (٣٦) قسطنطين بازيلى : المصدر السابق ، ص ١٨١؛ وانظر : بيرمنيوف ، المرجع السابق ، ص ١٨٣.
- (٣٧) قسطنطين بازيلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨؛ وانظر : بيرمنيوف ، المرجع السابق ، ص ١٨١.
- (٣٨) قسطنطين بازيلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨.
- (٣٩) نفسه ، ص ص ٢٠٧، ٢٠٨.
- (٤٠) نفسه ، ص ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

**جوانب من الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز  
كما دونها الرحالة شارل ديبييه من خلال رحلته الموسومة  
بـ"رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة  
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م"**

**د/نهلة بنت شحات عمر محبت**

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصم - المشارك  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة  
المدينة المنورة

**المخلص :**

تُعد رحلة المستشرق الفرنسي شارل ديبييه المعنونة بـ "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م" مصدرًا مهمًا ومُلهمًا لجوانب الحياة الاجتماعية لبلاد الحجاز في تلك الفترة الزمنية التي قَدِم فيها شارل ديبييه لزيارة الشريف عبد المطلب الذي كان يقيم آنذاك في مدينة الطائف، ومن الجوانب الاجتماعية التي تعرض ديبييه لذكرها في كتابه؛ الحديث عن سكان مدن الحجاز التي زارها وتركيبتهم السكانية، ثم الألبسة التي كانوا يرتدونها، وكذلك الأطعمة والأشربة التي كان يتناولها أهل الحجاز، كما تعرض ديبييه للحديث عن المسكن الحجازي وبعض من تفصيلاته المعمارية، وشدرات من العادات والتقاليد الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: شارل ديبييه، الشريف عبد المطلب، الحجاز، الوجه، ينبع، جدة، الطائف، السكان، الأطعمة والأشربة، اللباس، السكن، العادات والاحتفالات.

**Abstract:**

Charles Didier's journey was considered an inspiring and important source for many aspects of the social life of the country at that time, when Charles came to visit Al-Sharif Abdulmutalib, who was staying in Taif. One of the social aspects that Charles has mentioned in his book was about the people of AL-Hijaz cities, and way they used to dress, as well as describing the food and drink in that area. Charles also talked about the Hijazi housing and its architectures.

Keywords: Charles Didier, Al-Sharif Abdulmutalib, Al-Hijaz, Alwajh, Yanbu, Jeddah, Taif, Food and drink, clothing, housing, Traditions and celebrations.

## المقدمة :

داعب حُبُّ المغامرة والترحال مَحْبِلَةً كثير من المستكشفين المستشرقين الأوروبيين؛ فدفعهم حب المغامرة للسفر إلى أماكن كثيرة لم يشاهدوها من قبل، ولم يدر يَخْلُد بعض منهم الوصول إليها. ورغم أننا نجزم بأن غالبية هؤلاء المغامرين من الأوروبيين كانوا مندفعين بدوافع عدة؛ دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية صرَّح بها بعضهم، وأخفاها البعض الآخر وظلت في طَيِّ السِرِّ والكتمان، إلا إنَّ ذلك لا ينفي أن عدداً منهم قدموا يُحَفِّزُهُم حب المعرفة وشغف الاطلاع. والبحث المُعَدُّ بصدد الحديث عن رحلة الرحالة الفرنسي شارل ديبييه الموسومة بـ "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م"، والتي لَبَّى صاحبها دعوة صديقه البريطاني القس هاملتون Abb Hamilton في مشاركته هذه الرحلة إلى بلاد الحجاز (١).

ولمَّا كانت هذه الرحلة تتناول بين طيات أوراقها معلومات وأخبار عن حياة مجتمع الحجاز، فقد برزت أهمية دراسة الموضوع للأسباب الآتية:

- عدم وجود دراسة علمية مستقلة -في حدِّ علمي وبحثي- تناولت الجانب الاجتماعي في رحلة ديبييه للمدن التي زارها في بلاد الحجاز مجتمعة.
- القيمة العلمية لرحلة ديبييه في تناولها لجوانب من الأوضاع الاجتماعية لبلاد الحجاز مثل : السكان، المسكن، الأطعمة، الألبسة والأزياء، العادات والتقاليد، والاحتفالات التي تونها في كتابه.
- معاينة صاحب الرحلة للأحداث التي تونها في كتابه؛ وخاصة ما يخص الجوانب الاجتماعية منها.
- دقة الوصف وشموليته وموضوعيته في بعض الجوانب التي تناولها ديبييه في رحلته.
- إلقاء نظرة على جوانب من حياة المجتمع في تلك الفترة الزمنية التي كانت بلاد الحجاز تتضوي تحت لواء الحكم العثماني.

وتنقسم خطة البحث إلى: المقدمة؛ التي تتضمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومبحثين وخاتمة.

**المبحث الأول :** التعريف بالرحالة شارل ديبييه وأهمية رحلته .

(١) ديبييه، رحلة، ص ٢٩، وفي ذلك يقول الناشر الفرنسي للرحلة: "لقد طلب المؤلف -يقصد شارل- أربع وعشرين ساعة للتفكير، ولكن ميوله للترحال دفعه لاتخاذ قرار عاجل، فلم تمض ساعة حتى كان موافقا على ما عرضه عليه البريطاني".

**المبحث الثاني :** جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما وصفها الرحالة ديبويه ويتضمن المحاور التالية:-

أولاً: السكان والتركيبية السكانية.

ثانياً: السكن والمرافق الاجتماعية.

ثالثاً: الأطعمة والأشربة.

رابعاً: الأزياء والملابس.

خامساً: العادات والتقاليد.

سادساً : الاحتفالات والمناسبات.

الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

**المبحث الأول :** التعريف بالرحالة شارل ديبويه وأهمية رحلته .

(أ) التعريف بالرحالة شارل ديبويه :

يُعدُّ شارل ديبويه Charles Didier رمزاً من رموز الأدب الفرنسي، كما أنه أحد رجالات الصحافة والإعلام، وُلد هذا الأديب والشاعر والصحفي المنحدر من أصول فرنسية في مدينة جنيف سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثم تجنس بالجنسية السويسرية، وتلقى تعليمه في معاهد العلم ومراكز الثقافة بجنيف؛ فدرس علم النبات والرياضيات والقانون، ثم عاد إلى عاصمة بلاده باريس واستقر فيها (١).

وقد لعب شارل ديبويه دوراً في شؤون السياسة والإدارة؛ فأوفدته حكومة فرنسا سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٨م في مهمات رسمية إلى بولندا وألمانيا، فاكتسب خبرة ودراية بأحوال تلك البلاد (٢).

---

(١) ديبويه، رحلة، ص ١٥ مقممة المترجم بجريس، القول المكتوب، ج(١٣)، ص ٥١؛ مُعَيَّر، الرحلات، ج(١)، ص ٣٧١؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٨٨؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٢) ديبويه، رحلة، ص ١٥ مقممة المترجم مُعَيَّر، الرحلات، ج(١)، ص ٣٧١؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٨٨؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.



أظهر شارل ديبييه اهتمامًا بحب الترحال والسفر، ودفعه شغفه بالرحلة إلى زيارة عدد من البلدان العربية والآسيوية والأفريقية والأوروبية؛ فزار المغرب العربي سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، وتنتقل في أرجاء بلاد مصر، كما وصل إلى سنّار (١) بالسودان، وفي أوربا تتقل بين بلاد إيطاليا وأسبانيا ثم دفعه حبه للاكتشاف والمغامرة لزيارة شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م (٢) .

عمل ديبييه في ميدان الصحافة الفرنسية، فأنشأ سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م صحيفة *Etat*، كما أشرف ديبييه على صحيفة لوكوربيه دولمان *Le courrier du Le man*؛ وهي صحيفة سياسية وأدبية، كما تعاون مع الروائية الفرنسية جورج صاند *George Sand* (١٢١٩هـ-١٢٩٣هـ/١٨٠٤-١٨٧٦م) في إصدار جريدة العالمين *les deux mondes* (٣) .

ترك ديبييه رصيماً من المؤلفات والكتابات كان من أبرزها مذكرات رحلاته ومنها: "سنة في إسبانيا" و"حملة على روما" و"جولة في المغرب" و"خمسون يوماً في الصحراء"، و"خمسائة فرسخ على النيل" و"ليالي القاهرة"، ورحلة إلى رحاب الشريف الأكبر التي تمركز هذا البحث حول جوانبها الاجتماعية (٤)، كما أصدر ديبييه كتاباً سماه "زيارة لوق بورديو" *une visite M. le Duc de* (٥).

توفي شارل ديبييه سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م في باريس بعد أن أقدم على الانتحار، وكان قد أصيب بالعمى وقعد بصره (٦)، وقد صرح بذلك أثناء مغادرته للطائف قائلاً: "إن نظري الذي أكاد أفقده تماماً لحظة إملاء حكاية آخر رحلاتي كان حينئذٍ في أسوأ حال" (٧)؛ مما يدل على أن شارل قد أملى رحلته ولم يكتبها بنفسه.

- (١) سنار: مدينة في وسط جمهورية السودان على النيل الأزرق، كانت عاصمة لمملكة الفنج الإسلامية ونجح حكامها من الفنج في مدّ حدودها من عطبرة حتى النيل الأبيض في القرن ١٦م ثم انهارت في القرن ١٧م فضمته مصر لها سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م. بُني على مقربة من سنار سد على النيل الأزرق ليروي أراضي الجزيرة. (غريال، الموسوعة العربية، ج(١)، ص١٠١٨؛ حسين، السودان، ج(١)، ص٣٨، ٧٨.
- (٢) ديبييه، رحلة، ص ١٦ مقدمة المترجم؛ جريس، القول المكتوب، ج(١٣)، ص ٥١؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٨٨.
- (٣) ديبييه، رحلة، ص ١٦ مقدمة المترجم .
- (٤) ديبييه، رحلة، ص ١٧ مقدمة المترجم؛ معبر، الرحلات، ج(١)، ص ٣٧١ .
- (٥) ديبييه، رحلة، ص ١٦ مقدمة المترجم؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٨٨ .
- (٦) ديبييه، رحلة، ص ١٧ مقدمة المترجم؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٨٨؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.
- (٧) ديبييه، رحلة، ص ٢٦٣ . وقد أعرب ديبييه عن مدى تقديره لتعاطف الشريف عبدالمطلب معه حول وضعه الصحي وعبر عن ذلك بقوله: "وقد أظهر لي الأمير بأصدق العبارات تمنياتي بصحة أفضل وأعرب عن تعاطفه معي" ص ٢٦٣ .

### (ب) أهمية رحلة شارل ديبييه:

بدأ شارل ديبييه رحلته بتاريخ ٦ ايناير ١٨٥٤م (١) من مصر، وكان شارل أثناء وجوده بمصر يُعدُّ عدته للعودة إلى أثينا ومنها إلى بلاده، ولكن صديقه البريطاني هاملتون اقترح عليه أن يصحبه في رحلته إلى الحجاز فوافقه الرأي وخرج معه (٢).

تميزت بعض كتابات شارل ديبييه بملامسة جوانب حضارية واجتماعية؛ بالتعمق في دراسة أحوال السكان في المناطق التي زارها، ووصفٍ شديداً من أنماط أحوالهم المعيشية؛ متناولاً عاداتهم في الطعام والشراب واللباس والاحتفال، وكان ديبييه قد طبق هذه الكتابة الوصفية في كتابه "خمسائة فرسخ على النيل" حيث أفاض في الحديث عن مشاهداته في الخرطوم وسنار، وله رواية "روما تحت الأرض" أيضاً قَمَّ فيها صوراً حيّة عن الحياة السياسية والاجتماعية في إيطاليا (٣).

ويستمر هذا القلم الوصفي لديبييه في كتابه "رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر..." فيجد القارئ المتمحص بين ثنايا صفحاته صورةً حيّةً للمجتمع الحجازي في المدن الحجازية التي زارها؛ بدءاً بميناء الوجه فينبع، ومروراً بجدة، وانتهاءً بمدينة الطائف التي كانت هدف رحلته الأسمى، حيث كان يُقيم فيها شريف مكة عبدالمطلب؛ غير متجاهل الدروب والطرق التي قطعها، والقرى والأرياف التي مرَّ بها، والمحطات التي توقف للاستراحة عندها معطياً كلاً منها نصيبه من السرد والوصف والمعاناة متفاوتاً بين الإطالة والتفصيل، والاقتضاب والإيجاز، مما جعل القارئ والباحث قادراً على استخراج مادة علمية عن السكان وأصولهم التي ينتمون إليها، وأصناف الأطعمة والأشربة التي يتناولونها، والألبسة التي كان يرتديها عامة أبناء المجتمع وخاصتهم من الرجال والنساء، ثم إن هناك إشارات داخل سطور الرحلة عن تفاصيل المسكن الحجازي وتقسيماته، ولم يغفل قلم شارل ديبييه عن تسطير بعض الشذرات عن عادات وتقاليد المجتمع الحجازي وجوانب من الاحتفالات التي كان يقيمها أبناؤه.

وسيجد القارئ المتمعن خلال الصفحات القادمة في هذا البحث حصراً وتفتيحاً للجوانب الاجتماعية واستبعاداً مما عده من الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية التي تضمنتها الرحلة مما هو ليس مجال الحديث عنه.

(١) توافق ١٦ / ٤ / ١٢٧٠هـ.

(٢) ديبييه، رحلة، ص ١١ مقدمة المترجم؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٣) ديبييه، رحلة، ص ١٨ مقدمة المترجم.

وحتى يتسنى للقراء الإحاطة بتلك الجوانب الاجتماعية، فقد جاءت الدراسة مقسمة إلى عدد من المحاور التي تجمع ما تفرق في صفحات الرحلة عند كل عنصر من عناصر الحديث عن الحياة الاجتماعية، وبمعنى أرق فقد أثر البحث أن يجمع ما كتبه ديبييه عن السكان في رحلته في جميع المدن التي زارها أثناء دخوله للحجاز وآراءه وأقواله. ثم ينتهج المنهج نفسه والطريقة ذاتها في بقية الطرح. وتجدر الإشارة إلى أن السيد دوكيه M . Dequie قد رافق ديبييه في رحلته من جدة إلى الطائف - وهو مُترجم للقنصلية الفرنسية في جدة وموثق العقود فيها- وكان القنصل الفرنسي في جدة قد طلب من دوكيه أن ينوب عنه في مرافقة شارل بسبب مرضه، وقد أبدى دوكيه استعداداه لأداء الخدمات ومدّ يد العون والمساعدة (١)، كما رافقه صديقه البريطاني هاملتون ولكنه للأسف لم يقدم لشارل ماقدّمه دوكيه من العون والخدمة (٢).

### **البحث الثاني: جوانب الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز كما وصفها الرحالة ديبييه.** **أولاً: السكان والتركيب السكانية:**

لكل مجتمع من المجتمعات المدنية سمات وخصائص تميزه عن غيره من المجتمعات، ولما كانت بلاد الحجاز تضم الحرمين الشريفين؛ فقد تنوعت الفئات البشرية التي تعيش بداخلها ما بين سكانها الأصليين الذين تشبثت جنورهم في هذه الأرض المباركة، وما بين الوافدين الذين آثروا الإقامة في هذه الرحاب الطاهرة، فقد اجتنب الحرمان الشريفان قلوب المسلمين وعقولهم من كافة أنحاء المعمورة لنيل شرف المجاورة بها ومن أبرز العناصر البشرية التي نكرها ديبييه في رحلته:

أ- القبائل العربية:

شكّلت القبائل العربية القاعدة العريضة في مثلث هرم التركيبة السكانية لشبه الجزيرة العربية عامة ومجتمع الحجاز خاصة، ولذلك اعتبرت شبه الجزيرة موطناً للعناصر العربية الأصيلة التي لم تحاول الاختلاط بغيرها من العناصر الخارجية بل حافظت على ملامحها وصفاتها، وكانت كل قبيلة تستحوذ على منطقة من الأرض تحرص أن تكون قريبة من موارد الماء والكلأ ولا يشاركها غيرها فيها، وينوذ أبناء القبيلة عنها بأرواحهم وأموالهم؛ ولذا كانت الحروب والمنازعات تقوم حول ما يمكن اعتباره مقومات الحياة الرئيسية، وكثيراً ما أبيت قبائل أو قبّيت خلال تاريخ تلك الصراعات، وكثيراً ما يقع تحالف بين قبيلة وأخرى للسيطرة عليها أو تنضوي قبيلة تحت جناح قبيلة أخرى أقوى منها (٣).

(١) ديبييه، رحلة، ص ٢١٦ .

(٢) ديبييه، رحلة، ص ١٦٣، ٢٤، ٢٩، ١٩ .

(٣) الشريف، جغرافية المملكة، ج (٢)، ص ٨١، السيف، الحياة الاقتصادية، ص ٢١٩؛ الشريف، مكة والمدينة، ص ٣٠، ٢٥؛ العلي، الحجاز، ص ١٧٧ .



وكان قَوْلُ اقتصاد قبائل بادية الحجاز قائماً على الرعي الذي يُعدُّ مصدراً رئيساً لأغلب منتجاتهم الغذائية من الألبان ومشتقاتها؛ كالجبن والسمن والزبد والأفط ثم اللحوم. وقامت على الثروة الحيوانية صناعات محلية بسيطة مثل الصناعات الجلدية كالأحذية والأحزمة وقرب الماء والدلاء (١).

ولمَّا كان ديبية قد تصدى في كتابه هذا لذكر أحوال مجتمع الحجاز فقد تحدث عن بعض قبائل الحجاز؛ فكانت مدينة الوجّه (٢) أول مناطق اليايسة التي وطأتها أقدام ديبية في بلاد الحجاز، وكان سكانه -كما ذكر- أعراباً من قبيلة بلي (٣).

وبعد أن تحركت السفينة التي كانت تُقلُّ ديبية ورفاقه من الوجه سارت بين أمواج البحر الأحمر حتى توقفت عند ميناء ينبع (٤)، فكان لشارل كتابات عنها أبرزت جانباً من ملامح حياتها الاجتماعية، فقد أشار ديبية إلى أن قبيلة جهينة (٥) كانت تشكل الغالبية العظمى من سكانها،

- (١) الشريف، جغرافية المملكة، ج(٢)، ص ٨١، ٨٢؛ نواب، كتب الرحلات، ص ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦.
- (٢) الوجه: مدينة حجازية على ساحل البحر الأحمر، تقع شمال مدينة ينبع وشمال مصب وادي إضم، وقد وردت عدة أقوال في تسميتها بالوجه منها: أن أرضها منبسطة ومرتفعة عن سطح البحر، ومنها أن الوجه أول ما يواجه الحجاج القادمين من مصر وأفريقيا من أرض الحجاز، وكان ميناء الوجه يقوم تصدير الأغنام والسمن والفحم لمصر في السابق، وقد أنشأت فيها حكومة المملكة العربية السعودية سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م محطة لتحلية مياه البحر، كما عملت حكومة المملكة على تزويدها بكافة الخدمات شأنها شأن غيرها من المدن السعودية التي حققتها يد الإصلاح والنهضة الشاملة من مدارس ومستشفى ومحكمة ومطار جوي ومسكن حديثة، كذلك عملت على ترصيف الشوارع وإنارتها، وتعدُّ اليوم الوجه محافظة من محافظات منطقة تبوك تبعد عنها ثلاثمائة كيل (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٩)، ص ١٢٩، ١٣٠؛ الرويثي، الموانئ السعودية، ص ٤٢٠، ٤٢١.
- (٣) ديبية، رحلة، ص ١١٦؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص ٩٣، ويلي: والنسبة اليهم بلوي، وتنتشر ديارهم شمال الحجاز حول بلدة الوجه، وتمتد شرقاً حتى مدينة العلا ونواحيها، وفي أطراف حرة العويرض، ولهما جُمان كبيران هما: مَخْلَد، وخزالم. (الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص ٢٢؛ أوبنهايم وآخرون، البنو، ج(٢)، ص ٥٠٦.
- (٤) ينبع: تقع محافظة ينبع في منتصف الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، غرب المملكة العربية السعودية، مع ميل نحو الجنوب الغربي، فوق بقعة من الأرض يلتقي فيها سهل تهامة بالبحر الأحمر، وهي منطقة ساحلية محصورة بين شرم ينبع في الشمال ومصب وادي الفرعة في الجنوب، وتتبع إدارياً منطقة المدينة المنورة التي تبعد عنها (٢٤٠) كيلاً في الجنوب. (بكر، الملامح الجغرافية، ص ١٤١؛ عامر، حكاية اسم (ينبع)، ص ٦٤؛ الأحمد، مدينة ينبع، ص ٢٤؛ البلاغ، السياحة في ينبع، ص ٤٩.
- (٥) جهينة: قبيلة عربية؛ قحطانية النسب من قبائل قضاة اليمن، وينسبون لجهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة، وهي قبيلة كبيرة تسكن الحجاز حول وادي إضم الذي يصب في البحر الأحمر، وقد تفرقوا بينع ويدر ويواط والحوراء وودان، وتمتد قرى الجهنيين المستقرين من ينبع النخل حتى عمق المناطق خلفها، ويعمل كثير من أبناء جهينة في صيد الأسماك واللؤلؤ، ولهم بقايا في مصر، وقد عرف منهم عدد كبير من صحابة الرسول ﷺ. (أوبنهايم وآخرون، البنو، ج(٢)، ص ٥١٤، ٥١٥؛ هيئة التحرير بمجلة العرب، جهينة، ص ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢١٩، ٢١٧.



وكان شيخ قبيلة جهينة يسكن في إحدى قرى ينبع النخل (١)؛ والتي بلغ عددها حين زار شارل ديدييه ينبع اثنتي عشرة قرية (٢).

ومن فئات القبائل العربية التي تحدث عنها شارل ديدييه أيضاً أثناء رحلته من ينبع إلى جدة أفراد من بني زبيد (٣) من حرب وهم -كما ذكر- ممن عدلوا عن حياة التنقل والترحال ومالوا إلى حياة التحضر والاستقرار؛ فعملوا بالصيد والملاحة وركوب البحر، مما جعل مكانتهم الاجتماعية تهبط في نظر غيرهم من القبائل العربية (٤).

وقد أجاد ديدييه في وصف أحد الصيادين الزيديين المهرة الذي عرض عليهم بعضاً من السمك الذي اصطاده إلا إن ديدييه وأفراد قافلته تعذر عليهم شراؤه مقايضة بما كان يطلبه صاحبه من القمح والتبغ وهو مما لم يكن متوفر معهم (٥).

(١) ينبع النخل : يطلق هذا الاسم على جهة واسعة تقع على الجانب الشرقي من ينبع البحر، وهي في شكل عقد من القرى ينتظم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي. وهذه القرى عامرة بالسكان وعيون المياه والبساتين وأشجار النخيل، ومن أشهر العيون بها الجابرية والبنثة وخيف حسين وغيرها، وينبع النخل تتبع إمارة منطقة المدينة المنورة التي تبعد عنها ٢٨٠ كيلاً مرتبطة معها بطريق إسفلتي يمر بينبع البحر وينبع الصناعية متخللاً وادي الصفراء. وقد كانت ينبع النخل تمثل محطة مهمة من محطات طريق الحاج المصري. ثم مرت بفترة ركود بعد تحول الطريق إلى ينبع البحر، وقد شملتها النهضة الحضارية بالمملكة العربية السعودية؛ فأنشأت بها المدارس الحكومية بمختلف مراحلها والمركز الصحية وفروع للدوائر الحكومية. (صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، ص ١٥٢، ١٥٣؛ بكر، الملامح الجغرافية، ص ١٤٠؛ النزوي، ينبع النخل، ص ١٠-١٢).

(٢) ديدييه، رحلة، ص ١٢٨. وقد انتشرت قبيلة جهينة على الساحل الشمالي للبحر الأحمر، وعُرف من استقر منها في ينبع باسم المستوطنين أو الينبعا وبين. (بوركهارت ترحال، ج(٢)، ص ٢٠٩؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٥؛ محبت، ينبع، ص ٥٥٥).

(٣) زبيد : والنسبة إليهم زيدي، قبيلة من مسروح من حرب تسكن ساحل البحر الأحمر جنوب جدة، وتتقسم زبيد اليوم إلى العزرة وزبيد الشام، ويسكنون المنطقة المحيطة برايح إلى قرب بدر شمالاً ومنهم آل مبيريك والغوانم، ثم القسم الثالث الصخاف والنسبة إليهم صحفي ومنهم العنبان في أسفل وادي عزان مما يلي خليص. (الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص ١١٤).

(٤) ديدييه، رحلة، ص ١٣٤، وقد أشار أوبنهايم إلى أن كثيراً من أبناء قبيلة زبيد يعملون بصيد الأسماك، ولذلك تعتبرهم بقية حرب أنى مكانة. (الببو، ج(٢)، ص ٥٣٧).

(٥) ديدييه، رحلة، ص ١٣٤، ١٣٥.



وفي جدة التقى ديبويه بالأمير خالد بن سعود (١٢٥٥-١٢٥٧هـ/١٨٣٨-١٨٤١م) (١) بعد القضاء على حكمه في نجد على يد عبد الله بن ثنيان واستمر بجدة حتى وفاته سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م (٢).

وخلال إقامة الأمير خالد في جدة كان يَفِد عليه أفراد من قبيلة الهواجر (٣) المناصرين له ولحكمه، ولذلك سرَّ ديبويه برؤية هؤلاء الأعراب (الأقحاح)؛ إذ إن أغلب من شاهدتهم في جدة هم من الأتراك والهنود واليونانيين، وكان له رغبة ملحة في رؤية العرب، وقد تردد ديبويه على لقاء خالد، كما اجتمع معه في منزل السيد دوكيه (٤).

ومن القبائل العربية التي ورد ذكرها ضمن رحلة شارل قبيلة عتبية (٥) التي كانت كانت تسكن وتنتشر في الجبال الممتدة جنوب الطائف حتى المدينة المنورة، واتصف بشدة مراسها وحبها للقتال؛ غير إنه أثناء مرور ديبويه ومرافقيه عند ربيع الزلالة (٦) الذي

(١) خالد بن سعود : بن عبد العزيز بن محمد بن سعود أمير من أمراء الدولة السعودية الأولى، نشأ في مصر، ولما أشد أمر الإمام فيصل بن تركي في نجد أرسل له محمد علي باشا والي مصر قوة عسكرية بقيادة خالد سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م لقتاله، فدارت بينهما معارك عدة انتهت باستسلام الإمام فيصل في رمضان سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٨م وإرساله لمصر، وكانت هذه فترة حكمه الأولى، فحكم الأمير خالد نجد حتى تار عليه الأمير عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود فرحل خالد إلى المنطقة الشرقية سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م ثم إلى الكويت ومنها إلى مكة المكرمة، وتوفي بجدة محمومًا. (ابن بشر، عنوان المجد، ج(٢)، أحداث ١٢٥٤هـ إلى ١٢٦٧هـ؛ الحنبلي، مثير الوجد، ص١٢٧، ١٢٨).

(٢) ديبويه، رحلة، ص ١٧٥.

(٣) الهواجر: (بنو هاجر)، ومفردها هاجري: قبيلة قحطانية اشتهر أفرادها بالكرم والنخوة، وهي بطن من عبدة كانت منازلهم بالقرب من سُرّة عبيد ثم انتقلوا إلى ساقلة نجد ومنها إلى الأحساء، كما تفرق عدد منهم في قطر والكويت وبقية بلدان الخليج العربي، وينقسمون إلى آل مخضبة وآل محمد وآل يزيد. (الجاسر، معجم قبائل المملكة، ج(١)، ص٣٤٠-٣٤٢).

(٤) ديبويه، رحلة، ص١٧٦، ١٧٧؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص٩٧-٩٨.

(٥) عتبية: من أشهر قبائل شبه الجزيرة العربية وأكثرها بطوناً وأفخاداً؛ تمتد مسكنها من جبال الطائف الجنوبية حتى حتى أم العُطُط وسنّام في نجد، ويرجح أنهم يرجعون إلى بني سعد؛ وهم بطن من بطون هوازن ولايزالون يعرفون بهذا الاسم حتى اليوم، ومن فروع عتبية بالحجاز بنو سعد والطفحة وشملي وبرقاء، وديارهم لايشاهيها ديار قبيلة أخرى لسعتها وكبر رقعته، ويجاورهم من الشمال والغرب ثقيف وهذيل ومطير وحرب، ومن الجنوب والشرق بلحارث والبقوم وسبيع وقحطان نجد، (الزبيدي، قبائل الطائف، ص٦٨، ٦٩).

(٦) ربيع الزلالة: وهو الربيع الذي تخرج فيه من السيل الكبير إلى الطائف، وهو أول المناقب مما يلي مكة المكرمة، والسيل الكبير هو الموضع الذي يحرم منه النجديون من قرن المنازل. (البلادي، معجم معالم الحجاز،

كانت عتبية تهاجم فيه من يَمُرُّ به لم يتعرضون لأي أذى منهم (١).  
وعند وصول ديدبيه وأفراد قافلته إلى قمة جبل كَرَا (٢) أرسل لهم الشريف  
عبدالمطلب (٣) اثنين من الأشراف لاستقبالهم لإكرامهم وضيافتهم، وكان أحد هؤلاء  
الشريفين هو الشريف سليم الذي قدم لاستقبالهم ومعه ستون رجلاً من أبناء قبيلة  
هُذَيْل (٤) الذين عُرف عنهم صفات البطولة والشجاعة؛ ولذا أقبلوا وهم متسلحون

ج(٤)ص١٣٧.

(١) ديدبيه، رحلة، ص ٢٧٣.

(٢) جبل الكرا : بالفتح والقصر ؛ جبل ضخم يصعده المتجه من مكة المكرمة إلى الطائف كان طريقاً وعر المسالك  
لا تصعده إلا الحمير والجمال المدرية، حتى تم تنليل عقباته وتعييده في العهد السعودي سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م  
لتسيير عليه السيارات، تسيل منه صدور وادي نعمان وفي رأسه مما يلي الطائف فرعة تسمى الهدأة، وهي اليوم  
من أجمل مصائف المملكة العربية السعودية، وبأسفله قرية الكُرّ ومنه ينحدر وادي الكر ووادي عَلق، (البلادي،  
معجم معالم الحجاز، ج(٧)، ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) الشريف عبدالمطلب بن غالب: بن مساعد الحسني من أمراء مكة المكرمة ولد بها سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م تولى  
إمارة مكة لثلاث فترات كان مجموعها ثمان سنوات امتدت الفترة الأولى خمسة أشهر من سنة ١٢٤٣هـ/  
١٨٢٧م، توجه بعدها إلى إستانبول ومكث بها حتى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م، حيث بدأ فترة حكمه الثانية حتى  
سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م وقعت خلالها فتنة بمكة المكرمة كان سببها عدم بيع الرقيق، وتوجه أيضاً بعد عزله  
للمرة الثانية للإقامة في إستانبول إلى أن شهدت سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م إعادته للإمارة للمرة الثالثة حتى  
١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، حيث فصل عنها. توفي بمكة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م، (بحلان، تاريخ أشراف الحجاز،  
ص٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٦٣، جارشلي، أمراء مكة، ص١٥٩-١٦٦؛ غوري، حكام  
مكة، ص٣١١-٣١٣.

(٤) هذيل : واحد هم هُذَلِّي تنتمي إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وهذيل بلادها حول مكة  
المكرمة والطائف في وادي نخلة اليمانية والشامية وفي الجعرانة، وفي وادي فاطمة وجبل ككب وفي عرفات  
وأودية نَعْمَان ورُهْجَان وضيم ورفاق إلى يَلْمَم السَّعْدِيَّة، ومنهم من يسكن سراة الطائف، وما أشرف منها غرباً  
ومايسال من أوديتها إلى تهامة، ولهذا تقسم هذيل باعتبار منازلها إلى هذيل الشام، وهذيل اليمن ؛ فالأولى تقع  
ديارهم شمال مكة المكرمة وشرقها والثانية ينتشرون جنوب عرفات وادي نعمان، ومنهم هذيل الطائف، وقد  
اشتهرت هذيل بفصاحتها ووضوح بيانها وكثرة شعرائها؛ فكانت باديتها منتجاً للأبناء والفقهاء وطلاب  
اللغة، (الجاسر، معجم قبائل المملكة، ص٣٤٥، ابن سرور، قبائل الطائف، ص٣٥؛ الزبيدي، قبائل  
الطائف، ص٤٨.

بالخناجر والرماح والبنادق ذات الفتيلة، ولعل هذا المنظر المهيب لهم جعل ديبويه يصفهم بأنهم أمهر رماة الصحراء، وقد أظهروا التقدير والاحترام لشارل ورفاقه (١). وعند وصول ديبويه إلى الطائف، تحدث عن قبيلة تَقَيْفٍ (٢) التي كانت تشكل غالبية سكان الطائف الذين ترك غالبيتهم حياة التنقل والترحال، وامتحنوا بعض المهن التي عرفها أهالي المدن؛ كالصناعة والتجارة فأصبح لهم باعٌ في صناعة الأسلحة؛ كالسيوف والأحزمة الخاصة بهم وصناعة الجلود، والسجاد المغزول من وبر الجمال، وبعض المجوهرات التي تترين بها نساؤهم (٣).

### (ب) الموظفون العثمانيون:

دخلت بلاد الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م؛ وذلك عندما نجح السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) من تفويض أركان دولة المماليك وإعلان السيادة العثمانية على البلاد العربية التي كانت تحت السيادة المملوكية، ولمّا كانت بلاد الحجاز تتبع تلك السيادة، فقد بادر شريف مكة المكرمة آنذاك بركات الثاني بن محمد (٩٠٣-٩٣١هـ/١٤٩٧-١٥٢٥م) بقبول الحكم العثماني، فدخلت الحجاز سلماً في كنف الدولة العثمانية؛ التي بادرت بتنظيمها إدارياً عبر بعض الإجراءات الإدارية التي تنظم شؤونها الداخلية؛ فإلى جانب الإبقاء على منصب شريف مكة المكرمة، أوجدت منصب الوالي العثماني في جدة، كما حرصت الدولة العثمانية على نشر حاميات عسكرية ترابط في القلاع والتكنات المخصصة لها، وتنتشر في الأماكن التي ستدعي وجودها فيها لحفظ الأمن، وتعيين شيوخ الحرم والقضاة والأئمة والمفتين، وعدد من موظفي الإدارة والمالية مثل الدفتردار والمكتوبجي ومدير البريد وغيرهم، ولاشك أن هؤلاء الموظفين العثمانيين كانوا يحتلون جزءاً من قطاع المجتمع الحجازي (٤). وقد التقى ديبويه ببعض هؤلاء الموظفين، وتحدث عن بعضهم الآخر في ثنايا رحلته وكان ممن أشار إليهم :

(١) ديبويه، رحلة، ص ٢٣٣، وقد وصفهم أونيهايم بأنهم غزاة موهوبون قَمَّوا فرسانهم إلى ساحات الوغى في حروب الدولة السعودية الأولى. (البدو، ج(٢) ص ٥٥٩ .

(٢) تَقَيْفٍ : قبيلة عربية، إحدى قبائل قيس بن عيلان المعروفة بالقبائل القيسية، ونسبها إلى تَقَيْفٍ بن منبه بن بكر بن هوازن حتى ينتهي إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومن أشهر فخذها عوف وبنو مالك والحمدة وبنو سفيان وطوبيرق والثمور وبنو سالم وغيرهم، كانت تَقَيْفٍ تقيم منذ عصور ما قبل الإسلام في الطائف ومحولها من المناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وقد أسلم وفد الطائف من تَقَيْفٍ في السنة التاسعة من هجرة المصطفى ﷺ، (الطيب، موسوعة القبائل، مج(٥)، ص ٨٩٥؛ أونيهايم، البدو، ج(٢)، ص ٥٦٣، ٥٦٤؛ الزبيدي، قبائل الطائف، ص ٤٦، ٤٧.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ٢٥٣ .

(٤) أنيس، الدولة العثمانية، ص ١٢٩، ١٤٢؛ يوسف، الحجاز، ص ٦٥-٧٩؛ الخالدي، الإدارة العثمانية، ص ٤٦-





رجال الحامية العسكرية العثمانية التي شكلت جزءاً من المجتمع الحجازي آنذاك، فعند نزول ديبييه وأفراد قافلته إلى بلدة الوجه، كان في استقبالهم بعض أفراد جنود الحامية العثمانية، وكان أحد هؤلاء الجنود يجيد التحدث باللغة الفرنسية، وهو الأمر الذي جعل ديبييه يدي شيئاً من الارتياح بل والسعادة لوجود من يتخاطب معه دون الحاجة إلى وسيط؛ وهذا مادفعه لإمضاء بعض من الوقت معه وتناول القهوة سوياً؛ لاسيما أن هذا الضابط العثماني قَمَّ لأفراد الرحلة خدمات وتسهيلات عند نزولهم ميناء الوجه (١).

وعندما وصل ديبييه ورفاقه إلى ميناء ينبع التقى بعدد من أفراد الحامية العثمانية الذين حاولوا إظهار شجاعتهم وبراعتهم القتالية بحملهم للغدرات (٢) الطويلة، وكان أفراد تلك الحامية من عناصر عدة؛ فمنهم الباشي بوزق (٣) والأرناؤوط (٤) والأكراد، وأما حاكم بلدة ينبع، فكان أيضاً من الأتراك العثمانيين ممن يحملون لقب أفندي (٥). وأما الحامية العسكرية العثمانية في جدة، فقد كانت تُقيم في التكنة العسكرية التي بناها محمد علي باشا (٦) بالقرب من باب

٤٨؛ المطوع، إمارة المدينة، ص ٩٤، ٩٣.

(١) ديبييه، رحلة، ص ١١٦.

(٢) الغدرات: الغدرة: لفظ فارسي هندي؛ وهو سلاح على شكل حربة تشبه السيف إلا إنها عريضة وثقيلة، طرأ عليها بعض التحوير في المعنى، فأصبحت تطلق على سلاح ناري يعرف بالطنبجة، وهو بين المسدس والبنديقية. (الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٣٠.

(٣) الباشي بوزق: لفظ تركي أطلق على القوات غير النظامية (الجيش الشعبي أو المليشيات)، تطوعوا أثناء الحرب ثم التحقوا بالجيش النظامي وعُهد إليهم بالحفاظ على الأمن داخل المدن وفي الواحات ومرافقه محمل الحج وجباية الضرائب، ومن أشهر قادة باشي بوزوق؛ محمد علي باشا والي مصر (١٢٢٠-١٢٦٤هـ/١٨٠٥-١٨٤٨م) الذي توجه لمصر على رأس جيش باشي بوزوق لإخراج القائد الفرنسي نابليون بونابرت منها. (صابان، المعجم الموسوعي، ص ٥٦.

(٤) الأرناؤوط: أو الأرناؤود: وأصل الكلمة أرناؤوس وهي كلمة يونانية حُرِفت إلى التركية أرناؤوط، وهو اسم يطلق على سكان ألبانيا، وبعد الفتح العثماني للبلاد العربية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م هاجر كثير من الأرناؤوط إلى الولايات العربية واستقروا بها وانتمجوا مع بقية عناصر السكان، ولاتزال بعض العائلات في بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز وبلاد المغرب تحتفظ بهذا الاسم. (مفالكو، الألبانيون، ص ٦٧٧، ٦٨٢.

(٥) ديبييه، رحلة ص ١٣١؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٨. والأفندي: كلمة ذات أصول بيزنطية تسربت إلى الأتراك، فاندمجت في التركية، وقد أطلقها العثمانيون في القرن ٩هـ/١٥م على المتعلم وحلت محل كلمة جلبي، وفي القرن ١٣هـ/١٩م أطلقت على الأمراء العثمانيين والموظفين وصغار ضباط الجيش، وفي أواخر العهد العثماني كانت تضاف إلى الاسم للاحترام والتبجيل، ولإزالة هذا التعبير من الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس في بلاد الشام، (الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٦؛ المصري، معجم الدولة العثمانية، ص ٣٤، ٣٥.

(٦) محمد علي باشا: بن إبراهيم أغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير، مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، من أصل ألباني، ولد في بلدة قولة التي تتبع الدولة العثمانية، وهي تتبع اليونان حالياً، وذلك سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م، جاء لمصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة من قولة تساعد في اعتداءات الفرنسيين على مصر، أصبح والياً على مصر سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، انتدبته الدولة العثمانية لمحاربة الدولة السعودية الأولى، وشارك في حرب



المدينة المنورة (١) خلال حربه مع الدولة السعودية الأولى (١١٥٧-١٢٣٣هـ/١٧٤٤-١٨١٨م)، وكان قائد هذه النكبة عند زيارة شارل ديدييه هو إسماعيل بك؛ وهو بنباشي (٢) تركي أتتى ديدييه على كرم أخلاقه وضيافته له بالقهوة والشيشة (٣).  
وبالقرب من هذه النكبة، كانت توجد أماكن لسكن الجنود غير النظاميين، وقد كانت عبارة عن طولحين بناها محمد علي لقواته ثم أصابها الإهمال بعد رحيله (٤).

ومن الشخصيات العسكرية البارزة التي شاهدها ديدييه في جدة السنجق (٥) كرد عثمان آغا؛ وهو قائد للخيلة غير النظامية التي كانت تعسكر على طريق مكة المكرمة على بعد فراسخ (٦) من جدة، وكان عدد هؤلاء الخيالة يصل إلى ألف فارس أو يزيد إلى ألف ومئتي، ورغم أنه عهد إليهم بحفظ الأمن في مدينة جدة ومحولها إلا إنهم كانوا يقومون بإثارة الفوضى والشغب

المورة، واستولى على سورية ولكن الدولة العثمانية انتزعتها منه بعد أن جعلت له حكم مصر وراثياً سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م، واعتزل أمور الحكم لابنه إبراهيم ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، وأقام بالإسكندرية إلى أن توفي بها سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، ودفن بالقاهرة، (الزركلي، الأعلام، ج(٦)، ص٢٩٨، ٢٩٩؛ العجلاني، تاريخ البلاد العربية، ج(٤)، ص٣١٨-٣٢٠؛ عمر، دراسات في تاريخ مصر، ص١٩٤، ١٩٦، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٥.  
(١) باب المدينة المنورة: أحد أبواب سور جدة الطيني الثمانية التي كانت تُفتح فجراً وتُغلق بعد صلاة العشاء لحماية حاراتها الثلاث، وهي حارة اليمن في الجزء الجنوبي، وحارة الشام في الجزء الشمالي وحارة المظلوم بينهما، وكان باب المدينة يقع في حارة باب الشام ويستخدم للوصول إلى النكبة العسكرية، كما كان هذا الباب يُستخدم لدخول العربات المحملة بالحجارة من المناقب المستخرجة من شمال جدة، والطين المستخرج من بحيرة الأربعين لبناء البيوت، (جدة التاريخية ثمانية أبواب تحمي حاراتها الثلاثة، جريدة الشرق الأوسط، الأحد ٢٥ رجب ١٤٢٥هـ/ ٢٥ مايو ٢٠١٤م، العدد ١٢٩٦٢).

(٢) بنباشي (بيكاشي): كلمة تركية وتعني رأس الألف، وهي رتبة عسكرية في الدولة العثمانية، استخدمت كذلك في البلاد العربية ثم استبدلت بها رتبة مقدم، ولا تزال تستخدم في الجيش التركي حتى الوقت الحالي. (دهمان، معجم الألفاظ، ص٣٧؛ صابان، المعجم الموسوعي، ص٦٦).

(٣) ديدييه، رحلة، ص١٤٥.

(٤) ديدييه، رحلة، ص١٤٥.

(٥) السنجق: كلمة تركية فارسية تعني العلم أو الراية، ويعرف حامل السنجق بحامل العلم أو الراية، أصبح في العصر العثماني يطلق على منطقة إدارية؛ باعتبار أن حكام المناطق كانوا يتخذون رايات أو أعلاماً تميزهم عن بعضهم، ثم أطلق لفظ سنجق على المنطقة التي يحكمونها، وقد طرأ تغيير على التقسيم الإداري للدولة العثمانية، فبعد أن كان السنجق هو الوحدة الإدارية الرئيسة عقب فتح القسطنطينية ١٤٥٣هـ/١٤٥٣م أصبحت السنجقية وحدة إدارية تابعة للولاية، والسنجق موظفاً إدارياً يأتي في الأهمية بعد الوالي ويحمل لقب السنجق بك. (الخطيب، معجم المصطلحات، ص٢٥٩؛ حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع ص١٢٠).

(٦) فراسخ: الفرسخ: لفظ فارسي أصله فرنسك، وهي مسافة معلومة اتفق على تقديرها بأنه إذا مشاها الرجل قعد واستراح، فُدرت عند البعض بـ٦ أميال وقدرها الفقهاء المسلمون بـ٣ أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع هاشمي. (الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٣٧).



واضطراب الأمن إذا تأخر صرف الرواتب لهم (١)، ولحفظ الأمن، كان هناك رئيس للشرطة في جدة التقى به شارل ديبييه أثناء وجوده بها وهو عبدالله آغا (٢).

ويظهر أنه انتشرت في جدة خلال تلك الفترة التي زارها ديبييه الفرق العسكرية غير النظامية من المتطوعين أو المرتزقة (٣)، فوجد شارل ديبييه يشير إلى رئيس فرقة متطوعة في جدة وهو أحمد بيك، وكان هذا الرجل في الأصل تاجرًا ثريًا من أصول هندية، ثم خلع ثوب التجارة واكتسى ثوب الحرب، واستطاع أن يجمع تحت إمرته ألف رجل من المتطوعين يأترون بأمره، كما إنه قام بتسليحهم بأنواع الأسلحة المختلفة، كما كان هو نفسه يرتدي حزامًا مملوءًا بترسانة كاملة من الأسلحة وسيف تركي محذب، وقد أبدى أحمد بيك وفرقته العسكرية استعدادهم للمشاركة في حرب الدولة العثمانية - كما ذكر ديبييه (٤).

ولعل ماجعل ديبييه يستقيض في الحديث عن أحمد بيك وفرقته المتطوعة؛ أن مسكنه كان بالقرب من مسكن شارل، وكان شارل يدافع الفضول - كما ذكر - يراقب تحركاتهم وأفعالهم واحتفالاتهم العسكرية التي يصاحبها أصوات طلقات البنادق (٥).

ومن الموظفين العثمانيين أيضًا رجال الجمارك العثمانيين الذين شكلوا عنصرًا من عناصر المجتمع في ينبع، وقد أشار إليهم شارل ديبييه في معرض حديثه عن سكان ينبع من الجهنيين

(١) ديبييه، رحلة، ص ١٦٦ .

(٢) ديبييه، رحلة ص ١٧٥؛ اليافي، جدة، ص ٤٥ .

(٣) كان ظهور الجند المرتزقة أو المتطوعة - وهم الذين كانوا يتقدمون للخدمة العسكرية مقابل مبلغ من المال - بسبب فساد نظام الجند السباهية (الفرسان) والجند الإكتشارية (المشاة)، ولذا اعتمد بعض حكام الولايات العثمانية على هذا النوع الثالث من الفرق العسكرية بل وحتى بعض الأمراء المحليين، وكانوا يتجمعون حول شخص يسمى بكباشي وينخرطون في سلك الجيش، وعندما سنت الدولة العثمانية نظام التجنيد الإجباري، ألغت نظام التطوع. (ياغي، الدولة العثمانية، ص ٩١؛ أوزتونا، موسوعة الإمبراطورية العثمانية، ج (٣)، ص ٤٠٩.

(٤) ديبييه، رحلة ص ١٧٢، ويشير ديبييه هنا إلى الحرب التي جرت بين الدولة العثمانية ودولة روسيا، والتي عرفت بحرب القرم، وكان سببها رفض السلطان عبدالمجيد الأول (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٩-١٨٦٠م) حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية، فقامت روسيا بإعلان الحرب على الدولة العثمانية واحتلال جزء من أراضيها، ولم تنته الحرب إلا بعد وساطة الدول الأوربية (فرنسا إنجلترا النمسا بروسيا) وعقد معاهدة باريس ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م والتي تخلت فيها روسيا عن الأراضي التي احتلتها، (حليم بك، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢١٤، ٢١٥؛ ياغي، الدولة العثمانية، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٥) ديبييه، رحلة، ص ١٧٢ .

الذين كانوا يعملون بالملاحة والتجارة مع موانئ القصير والسويس المصرية ويقعون في خلاقات مع موظفي الجمارك في ينبع بسبب تهريبهم لبعض السلع والبضائع (١).

وكذلك الباشا العثماني في جدة (٢)، وكان يرسل من إستانبول ويقيم في جدة؛ لوجود الجمارك التي كانت تمثل مورداً هاماً من الموارد الاقتصادية في بلاد الحجاز، ووقت زيارة ديبية كان أحمد عزت باشا (٣) هو نائب جدة، وقد ذهب ديبية لزيارته في منزله فاستقبله استقبالا حسناً وأكرم ضيافته بتقديم الشاي والقهوة والشراب والحلويات والشيشة، وأجلسه في غرفة مظلة على البحر تتوفر فيها وسائل الراحة من السجاد والوسائد (٤).

وكان لوالي مصر عباس باشا (١٢٦٤-١٢٧٠هـ/١٨٤٩-١٨٥٤م) (٥) قائم بأعماله وتجارته في الحجاز وهو أمين بك عينه محمد علي باشا وأبقاه عباس باشا في منصبه، وكان كولونيل (٦) سابق في المدفعية وهو على علاقة ليست بوفاق مع شريف مكة المكرمة (٧).

(١) ديبية، رحلة، ص ١٣٠؛ الفايد، ينبع، ص ٣١٧؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٧، ٢٩٩، وقد أشار بوركهارت لذلك قبل ديبية. (ترحال، ج (٢) ص ٢١٢؛ محبت، ينبع، ص ٥٦٥.

(٢) طبقت الدولة العثمانية سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م في بلاد الحجاز نظام ثنائية الحكم والذي يجعل السلطة مقسمة بين والي في جدة والشريف في مكة المكرمة وذلك للحد من نفوذ الأشراف وتوسيع نفوذ والي العثماني وسلطته، (اليزيدي، عوامل الهجرات ص ١٧٣؛ الخالدي، الإدارة العثمانية، ص ٧٣، ٧٤، ٧٧.

(٣) أحمد عزت باشا : كان أميراً لقاظة الحاج الشامي ومن أصدقاء الشريف عبدالمطلب، ولذا تحايل الشريف لعزل الباشا السابق (آفة باشا) واستصدار أمر سلطاني بتعيين أحمد باشا سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٣م، وقد بنى أحمد باشا داراً بالزاهر في مكة وجعلها منتزهاً له، ثم لم يلبث أن اختلف الشريف عبدالمطلب مع أحمد باشا فأصدر السلطان أمراً بعزله وتولية كامل باشا في رجب من سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م. (السباعي، تاريخ مكة، ج (٢)، ص ٦٠٠.

(٤) ديبية، رحلة، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٥) الخديوي عباس باشا: بن طوسون بن محمد علي : ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر، ولد بجدة سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ونشأ بمصر، وتولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا وألخر سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٩م، أنشئت في أيامه المدرسة الحربية في القاهرة، قتل سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م على يد ملوكين أرسلتهما عمته نازلي بنت محمد علي من إستانبول لخلاف بينهما على الإرث، (الزركلي، الأعلام، ج (٣)، ص ٢٦١.

(٦) كولونيل (colonel): جنرال (general) رتبة عسكرية رفيعة المستوى من رتب ضباط هيئة الأركان العامة بالقوات المسلحة توازي أو تلو رتبة الجنرال حسب الدولة المانحة للرتبة، وقد شاع استخدامها في روسيا وكوريا الشمالية. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، استرجع بتاريخ ٨/١٢/١٤٤٠هـ-٩/٨/٢٠١٩م.

(٧) ديبية، رحلة، ص ١٦٩، ١٧٠.

كما كان يستقر بجدة طبيب عسكري من إستانبول يدعى عطا بيك ربطت بينه وبين ديبويه علاقة طيبة لاسيما وأن هذا الطبيب كان يتحدث الفرنسية (١).

### (ج) القناصل (٢):

خلال فترة إقامة شارل ديبويه في جدة، كان هناك القنصل الفرنسي روشيه ديبيكور Roch et D'hericourt الذي توفي بعد فترة قصيرة من الوقت في ٩ مارس ١٨٥٤م وشارك ديبويه في مراسم دفنه، والقنصل البريطاني كول M. Cole الذي كان أيضاً وكيلاً تجارياً لشركة الهند الشرقية؛ وهي الوظيفة التي تطلب وجودها لكثرة عدد المواطنين البريطانيين من الهنود المقيمين في جدة، وكان منزل ديبويه ملاصقاً لمنزل كول مما جعله يذهب لزيارته ويقدم له رسالة من بيرتون. كما ذكر ديبويه وجود عدد كبير من الهنود الذين هم مواطنون بريطانيون في جدة (٣).

### (د) عامة السكان :

تفردت بلاد الحجاز عن أنحاء شبه الجزيرة العربية بمكانة دينية مرموقة؛ فقد حوت أرضها المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة، ولما كانت قلوب المسلمين قد تعلقت بهما حباً وشوقاً، حجاً وعمرةً وزيارةً، فقد أثر عدد كبير من أبناء المسلمين ممن قدموا لبلاد الحرمين الشريفين لغرض أو الحج أو العمرة أو الزيارة أو للمتاجرة وطلب العلم البقاء بها والعيش فيها، ولما كانت مدينة جدة تمثل ميناء الحجاز الأهم، فقد رغب بعض من الوافدين إليها الإقامة الدائمة بها، فلا عجب أن يضم المجتمع كافة الأجناس والأعراق، وبمرور الوقت وزيادة عدد الوافدين، أصبحوا يشكلون شريحة كبيرة من شرائح المجتمع (٤).

(١) ديبويه، رحلة، ص ١٧٥؛ اليافي، جدة، ص ٤٥.

(٢) عرفت بلاد الحجاز التمثيل السياسي الأجنبي سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م حين وصل أول قنصل بريطاني إلى جدة لمباشرة أعمال القنصلية هناك، فاتخذ داراً خاصة رفع فوقها راية البريطانيين، ولم يكتمل القرن ١٣هـ/١٩م حتى تعدد التمثيل السياسي الأجنبي في جدة، وأصبح هناك قناصل لفرنسا وروسيا. (السباعي تاريخ مكة، ج(٢) ص ٥٢٥.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ٢٢، ٢٣، ١٥٦، ١٥٧؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٤) البيزدي، عوامل الهجرات، ص ٥٠، ٤٩؛ الخالدي، الإدارة العثمانية، ص ٣١، ٣٠؛ محبت، الحياة الاجتماعية، ص ٢٥٥.

وبعد انتقال ديبويه إلى جدة وتنقله بين أحيائها وشوارعها وأسواقها، قدر عدد سكانها ما بين ١٥ إلى ٢٠ ألف نسمة (١)، وأعطى شارل تصوراً دقيقاً عن التعدد العرقي الذي ينتمي إليه مجتمع جدة، وخاصة عند ارتياده لسوق جدة التجاري الذي يحاذي البحر ويموج بالنشاط التجاري وحركة البيع والشراء، فقد آوى هذا السوق عمالة من جنسيات مختلفة من أهل النوبة وأهل حضرموت ومن العبيد الأفارقة، وكذلك من القوقازيين (٢)، وتجار البصرة ومسقط والشام وتركيا ومصر والهند واليونان بل وحتى الماليزيين واليابانيين (٣).

وبحكم الموقع الجغرافي لمدينة جدة كميناء حجازي على ساحل البحر الأحمر ولقربها من مكة المكرمة؛ فقد تبوأ مركزاً تجارياً مرموقاً في قدوم التجار إليها من شتى أنحاء الأرض مما جعلها سوقاً رائجةً لمختلف السلع والبضائع؛ ولذلك عندما شاهدها ديبويه لأول وهلة ذكر بأنها جديرة على كل المستويات أن تحمل الاسم الذي تعرف به وهو "ميناء مكة" (٤)، وقد أفصح ديبويه عن هذا التنوع البشري لسكان جدة بقوله: "إن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية وهم نشيطون وخبراء" (٥).

أسهم أبناء اليمن من الحضارمة في رسم ملامح مجتمع مدينة جدة التي امتزجت فيها ألوان بشرية متعددة أخرجت لوحة فنية متعددة الألوان والأجناس جمعتهم المصالح المتبادلة، وكان غالب هؤلاء الحضارمة الوافدين قادمين بدافع العمل في التجارة ومزاولة البيع والشراء في أسواق جدة ومناجرتها التي بلغت شأواً بعيداً في المجال التجاري، وبمرور الوقت، كونت تلك الجالية الحضرمية عنصراً من عناصر المجتمع، وأصبحوا يسيطرون على التجارة (٦)، ولذا جاء وصف

(١) ديبويه، رحلة، ص ١٣٨؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص ١٠٢.

(٢) ديبويه، رحلة، ص ١٣٩.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ١٣٩؛ مؤمنة، الأهمية التاريخية، ص ٢٢٥، وكان موريس تاميزيه الذي زار الحجاز سنة ١٢٤٩م/١٨٣٤م مرافقاً لحملة محمد علي باشا على عسير قد أشار لهذا التنوع البشري الذي يعيشه المجتمع في جدة. (انظر: رحلة في بلاد العرب، ص ٩٦، ١٠٢، ١٠٣.

(٤) ديبويه، رحلة، ص ١٣٧.

(٥) ديبويه، رحلة، ص ١٤٣.

(٦) تعددت الدوافع التي جعلت بعض أبناء الشعب اليمني من الحضارمة يهاجرون من بلادهم في العصر الحديث، ومنها أسباب اقتصادية للبحث عن لقمة العيش؛ ولأسيما إذا شهدت البلاد أزمات كالحروب الأهلية والمجاعات، ومنها النشاط التجاري لهؤلاء الحضارمة عبر مؤائهم الرئيسة مثل: قنا والشحر، والتي أغرت بعض تجار الحضارمة بالإقامة الدائمة في البلاد التي يتاجرون معها مثل شرق أفريقيا وجزر أندونيسيا وبلاد

وصف ديبييه معبراً عن هذا الاحتكار وتلك السيطرة بقوله : "يكاد الحضارمة والهنود على وجه الخصوص يسيطرون على التجارة في جدة؛ الحضارمة شعب مترمت، لكنه حرقى" (١). وقد أفصحت عبارة ديبييه هذه أيضاً عن شريحة أخرى من الشرائح التي كونت مجتمع جدة في القرن ١٩م وهم الهنود الذين شاطروا الحضارمة العمل في التجارة حتى بلغوا درجة عالية من الثراء والغنى، ولذا نجد شارل يعبر عن هذا الثراء بقوله : "وليس نادراً أن تجد ثروة أحد الهنود بلغت ثلاثة أو أربعة ملايين فرنك" (٢)، ويكاد يكون أغناهم التاجر فراج يوسف الذي امتلك عشر سفن نوات حمولات كبيرة (٣).

وعلى النقيض من هؤلاء الهنود الأثرياء الذين بلغوا ما هم فيه من الثراء بجدهم ومثابرتهم في مجال التجارة، كان هناك عدد من أبناء جلدتهم ممن يشكلون عالة على أفراد المجتمع في جدة؛ فقد أثر هؤلاء الهنود، وكان غالبهم من الحجاج الذين قدموا لأداء فريضة الحج ونفذ ما كان معهم من المال حب التسول وطلب المال دون جهد بدلاً من العمل وكسب الرزق، وكان منظرهم مزعجاً للناظرين إليهم، ويصف ديبييه هؤلاء بقوله : "ولم يزعجني إلا المتسولون الذين انتشروا في كل أحياء المدينة ويكادون يكونون جميعاً من الهنود قدموا من أوطانهم للحج، وتقطعت بهم سبل العودة لنقص المال، ولما لم يكن لهم أي موارد فإنهم ظلوا عالة على الناس" (٤).

غير إن هذه النظرة القائمة لحجاج الهنود عند ديبييه ووصفهم بالكسل والعيش على الهبات تبدلت حين عمد إلى أحد الخياطين البارزين القادمين من كشمير في جدة مما جعله ينصف في

---

الحجاز، التي حقق فيها الحضارم نجاحات كبيرة في المجال التجاري، وقد عرف عن الحضارم الجِدُّ والمثابرة والصبر؛ فبيدأون حياتهم ببعض الأعمال المنزلية أو العمل عند أصحاب المحلات التجارية ثم يتقنوا مهارة العمل إلى أن يصبحوا هم أصحاب المحلات التجارية، وقد حققوا بذلك ثراءً مادياً كبيراً، وأصبحت الجالية الحضرمية في بلاد الحجاز ذات نفوذ اقتصادي مرتفع ومكانة اجتماعية مرموقة، كما تفوق بعض أبنائهم علمياً بل وأصبح لهم تأثير في توجيه مسار الحكم والسياسة. (الجوهي، الحضارم، ص ٣١، ٣٨، ٢٦١، ٢٦٢).

(١) ديبييه، رحلة، ص ١٧٤.

(٢) فرنك: أقم وحدة نقدية في فرنسا حيث تم اعتماده سنة ١٧٦٣م/١٣٦٠م واستخدم الذهب عيار ٢٤ في صناعته، وكان وزنه ٣،٨٨ غرام، وقد ظل الفرنك العملة الرسمية لدولة فرنسا حتى عام ١٩٩٩م/١٤٢٠م، تاريخ العملة الفرنسية، موسوعة وزي وزي، <http://www.wezwezi.com> تاريخ الاسترجاع ١٢/٢١/١٤٤٠م-٢٢/٨/٢٠١٩م.

(٣) ديبييه، رحلة، ص ١٧٤.

(٤) ديبييه، رحلة، ص ١٤٢.



عبارة أخرى هذه الفئة الجادة بقوله : "إلا إن بعضهم -يقصد الهنود- وهم قلة قليلة يمتنون مهناً حضرية مختلفة" (١)

وعلى النقيض تماماً من هؤلاء الحجاج الهنود المتسولين الذين مالوا إلى حياة الكسل والقعود عن طلب الرزق، كان هناك أشباههم من الحجاج القادمين من مصر والنوبة؛ والذين أقعدهم كذلك قِلُّ ذات اليد عن العودة لبلادهم، ولكن لم يفعلوا ما فعله حجاج الهند، بل دأبوا على التكسب وجمع المال للعودة إلى بلادهم (٢).

ويمتد التنوع البشري في جدة ليشمل جماعات من أهالي النوبة الذين استقروا خارج مدينة جدة على الطريق إلى مكة المكرمة (٣).

#### - نساء المجتمع :

لما كانت المرأة تمثل نصف المجتمع وشريكة الرجل في سائر شؤون الحياة الاجتماعية؛ فكان من البديهي أن يدون بيديه ملاحظاته على نساء المجتمع الحجازي، وإن كانت كتابته عن المرأة لم تتل نصيباً وحظاً وافراً من الوصف والحديث، ولعل لشارل ماييرر قلة كتابته عن نساء المجتمع الحجازي؛ وهو قلة من رأى منهن في الأماكن العامة وهذه الظاهرة التي لفتت أنظاره أثناء تواجده في ميناء ينبع، فخلال الساعات التي كانت تسبق إبحاره من ينبع إلى جدة، كان يقضي وقته في أحد مقاهيها الواقعة في أكثر شوارع ينبع ازدحاماً بالمارة، ويراقب المارة من الغادين والرائحين، فكان يمر المارة أمامه من الرجال دون النساء معبراً عن ذلك بقوله : "وقد سنحت لي بذلك الفرصة لأرى أمام عيني، خلال عدة ساعات مرور كل السكان الذكور ولم أر أية امرأة" (٤)

#### (هـ) العبيد والجواري (٥):

(١) بيدييه، رحلة، ص ١٤٣ .

(٢) بيدييه، رحلة، ص ١٤٢ .

(٣) بيدييه، رحلة، ص ١٤٥ .

(٤) بيدييه، رحلة، ص ١٣٠ .

(٥) ترجع جذور العلاقات الاقتصادية بين بلاد الحبشة والنوبة وبلاد الحجاز إلى العهود السابقة للإسلام، وقد ازداد نشاط هذه التعاملات التجارية بعد الإسلام حين أذن الرسول ﷺ لبعض صحابته رضوان الله عليهم بالهجرة إلى الحبشة، فكثر الطرق التجارية بينهما من طرق بحرية تربط بلاد الأحباش بموانئ الحجاز مثل جدة والجار والشعيبي وطرق برية من خلال بلاد اليمن، ومن أشهر السلع التي لقيت رواجاً بين البلدين تجارة الرقيق؛ الذين يباعون في أسواق الحجاز. (جريس، العلاقات، ص ٤٢٠-٤٢٢).



شكل العبيد قسماً لا يستهان به من شرائح مجتمع جدة، ولذا التفت إليهم شارل بقلمه؛ فذكر أن هناك بعض السفن التي حملت أعداداً من العبيد من ميناء مصوع (١) ذكوراً وإناثاً، وكان غالبيتهم أطفالاً ما بين الرابعة إلى الثامنة ما عدا فتاة حبشية بلغت من العمر ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً عرضت للبيع في السوق (٢).

ورغم موقف ديدييه من الرق المتعارض مع حرية الفرد إلا إنه أشاد بكرامة المعاملة التي كانت تلقاها تلك الجاريات داخل مجتمع جدة، ومن أرباب الأسرة التي تمتلكها حتى أن الأمر يصل بإحداهن إلى أن تصبح أحد أفراد الأسرة، ويبلغ الأمر مداه من إكرام هذه الجارية وعلو شأنها حين يجب منها سيدها أبناء، فتصبح حرة (٣)؛ وإذا كان عامة الناس في بلاد الحجاز قد حرصوا على اقتناء العبيد والجواري للقيام بأعباء الخدمة وإدارة شؤون بيوتهم ومعاونتهم في شؤون حياتهم اليومية؛ فإن هذا الحرص كان أدعى عند الخاصة من عليّة السكان وكبار أعيانها الذين كانت دورهم وسائر أملاكهم تُعج بالخدم والعبيد للأغراض ذاتها مع ما تتطلبه الحاجة من مرافقه سيدهم في تحركاته وتنقلاته وتشكيل فرقة من حرسه الخاص، فعند زيارة ديدييه لباشا جده في بيته كان العبيد والخدم ينتشرون في مدخل البيت وعلى الدرج (٤).

وتفاوت أعداد هؤلاء الخدم والعبيد وفقاً لمكانة سيدهم الذي يفتنيهم الاجتماعية ووضعه الاقتصادي؛ فحين حل ديدييه ضيفاً على الشريف عبدالمطلب في الطائف أشار للعدد الكبير من العبيد والجواري الذين كانوا ينتشرون داخل قصره حتى وصل عدد كل منهما قرابة الستين عبداً وجارية؛ وهو بلا شك دلالة على المستوى الاقتصادي والمادي المرموق الذي كان يتمتع به الشريف، وللثراء الذي يعيش فيه ذلك الشريف مامكته من اقتناء هؤلاء العبيد من الخصيان وغيرهم من الخدم الذين يقومون بأعمال مختلفة (٥)، وقد أرجع ديدييه ثراء الشريف عبدالمطلب لثروة والده والده الشريف غالب، وإلى المنحة السنوية التي كانت ترسل له من عاصمة الدولة العثمانية والتي تجاوزت ٤٠٠ ألف فرنك، أما المصدر الثالث لثروة الشريف غالب -فوفقاً لما ذكره شارل- أن

(١) مصوع : ميناء على ساحل البحر الأحمر من جهته الغربية المطل على قارة أفريقيا من الجهة الشرقية، وتقع مصوع حالياً في أرتيريا شرق مدينة أسمرة التي تبعد عنها ١٠٠ كيلاً، وتعد مدينة مصوع من المدن الصناعية في البلاد وخاصة في صناعة المواد الغذائية والحبوب والبن، كما توجد بها مصانع للنسيج. (أحمد وحسام الدين عثمان، الموسوعة الجغرافية، ج(٤) ص ١٧٧ .

(٢) ديدييه، رحلة، ص ١٥٢، ١٥١ .

(٣) ديدييه، رحلة، ص ١٥٣، ١٥٤ .

(٤) ديدييه، رحلة، ص ١٦٣ .

(٥) ديدييه، رحلة، ص ٢٤٥ .



الشريف عبدالمطلب عند إعادة بناء قصر والده الذي هدمه محمد علي باشا وجد بئراً مليئة بالذهب كان قد أخفاه جده الشريف مساعد داخل البئر (١).

ويؤكد ديبيه في موضع آخر على هذا العدد الكبير من الخدم الذين يعج بهم قصر الشريف عبدالمطلب؛ فعند دخولهم القصر كان في استقبالهم وكبير الخدم وبقية العاملين في قصر الشريف (٢).

### ثانياً : السكن والمرافق الاجتماعية:

غلب على الطابع العمراني لمدن بلاد الحجاز بساطة البناء، ومحدودية أدوات البناء والعمارة التي كانت متواجدة غالباً في البيئة المحلية من الحجارة والطين والأخشاب، ولكن ذلك لم يمنع من وجود بعض المباني العمرانية التي تجلت فيها فخامة البناء واتساع مساحته ولاسيما دور الأشراف وقصورهم، وقد أشار ديبيه في رحلته لكلا النمطين المعماريين للمباني والدور والمرافق العامة.

### (أ) الدور والمنازل:

رغم إن بلدة الوجه كانت أولى البلدان الحجازية التي نزل بها ديبيه إلا إنه لم يرسم ملامحاً للمساكن في بلدة الوجه، ولم يعط تفاصيل عن النظام العمراني السائد هناك، وكل ما ذكره في أسطر رحلته وجود قصر يحمل اسم الوجه على بعد فرسخ أو فرسخين إلى داخل البلدة (٣)، ولكن عندما زار ديبيه ينبع وتجول في شوارعها أفاض نوعاً ما وصف البناء العمراني لمساكنها ذاكراً بأن تلك المساكن قد اعتراها الخراب وتهدمت بعض أجزائها دون أن يعير أصحابها هذا الأمر اهتماماً منهم بمحاولة ترميمها وإصلاحها، وهي في ذلك تتشابه مع بعض مدن البلاد العربية التي زارها ديبيه مثل: مصر وطرابلس الغرب والمغرب وسوريا، ولاشك إن لمنظر هذه المنازل تأثيره السلبي، في إضفاء منظر كئيب على الناظر إليها (٤).

وقد بلغت عمارة بيوتات ينبع الميناء حداً من السوء جعلت ديبيه يفضل عليها بيوت ينبع النخل التي بنيت بالحجارة الصلبة (٥)، وهي على حد قوله: "إن صح التعبير أحسن بناء من بيوت المدينة نفسها -يقصد ينبع البحر- ولكن ليس بدرجة كبيرة" (٦)، ولكن ديبيه حين تطرق

(١) ديبيه، رحلة، ص ٢٤٥.

(٢) ديبيه، رحلة، ص ٢٤٦.

(٣) ديبيه، رحلة، ص ١١٦.

(٤) ديبيه، رحلة، ص ١٢٥؛ الفايدي، ينبع، ص ٣١٥، ٣١٧؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٤؛ عبدالحמיד، الأوضاع الاقتصادية، ص ٤١٥.

(٥) ديبيه، رحلة، ص ١٢٨.

(٦) ديبيه، رحلة، ص ١٢٨.

الحديث عن بيت حاكم ميناء ينبع جاء وصفه له مغايراً عن وصف بيوت العامة من السكان التي عبر عن تواجدها ورداعتها، أما بيت الحاكم، فقد عدّه شارل بأنه أجمل بيت في المدينة أقيم في مكان متميز قرب البحر (١).

وحيث تحدث عن ينبع النخل ذكر أن الأغنياء من السكان يحرصون على اقتناء مساكن ريفية لهم وحدائق يسرون إليه بالحمير ويقضون فيها شهراً في السنة وقت موسم التمر (٢).  
انتاب ديبية شعور بالدهشة والانبهار حين وقع ناظره على مدينة جدة لأول وهلة، فقد رسم ديبية في مخيلته من خلال ما تردد على مسامعه في القاهرة أن جدة لا تعدو أن تكون حياً صغيراً، ولذا عبّر عن هذه الدهشة بقوله: "كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت على العكس مدينة جميلة مكيئة البناء جيدة التأسيس تعج بالسكان نابضة بالحياة" (٣)، وحين تجول ديبية في جدة، أعطى وصفاً لمساكنها وبيوتها مغايراً لوصفه لمساكن ينبع وبساطتها، وكانت تلك البيوت تنتظم وسط أحياء متعددة كان أكبرهما حي الشام، وهو يقع على الشمال في الطريق إلى بلاد الشام، وحي اليمن ويقع في الجنوب باتجاه المتجه إلى اليمن؛ فقد جاءت بيوت جدة قوية البنين متينة الأركان متعددة الطوابق، وأبواب الدور مبنية من الحجر على شكل أقواس ذات مظهر جميل، ويكتمل جمال الفن العماري للبيت الحجازي في جدة بوجود تلك النوافذ الواسعة ذات الغطاء الخشبي المقسم إلى فراغات تسمح بدخول الهواء والضوء إلى داخل البيت (٤)، ولتضفي خصوصية تتناسب مع تعاليم الشريعة الإسلامية بالحفاظ على من بداخل البيت من النساء من أن يراهن من بخارج الدار من الرجال غير المحارم، في حين أن تلك النوافذ تمكن من بداخل

(١) ديبية، رحلة، ص ١٣٢.

(٢) ديبية، رحلة، ص ١٢٨.

(٣) ديبية، رحلة، ص ١٣٧، وقد وصف عمارة جدة تميزه وأعجب بسعة وتخطيط شوارعها ونظافتها. (رحلة في بلاد العرب، ص ٩١، ٩٢).

(٤) عرف هذا النوع من الأعمال الخشبية التقليدية باسم الرواشين، وانتشر استخدامه بكثرة في بلاد الحجاز في القرنين ١٣-١٤هـ، وكلمة روشان فارسية وأصلها روزنة بمعنى منفذ الضوء، ويقصد بها الكتلة الخشبية التي تُعطي فتحة واسعة في جدار البيت نافذة أو شرفة لتسمح بدخول الهواء والضوء إلى داخل البيت، ولتحجب رؤية من بداخل البيت، وكان من أهم وظائف الروشان توفير الخصوصية لأهل البيت، وقد أبدع المعماريون المسلمون في زخرفة هذه الرواشين بأشكال وطرق متعددة منها الأشكال النجمية المتشابكة وزخرفة المفروكة العلة وزخرفة الطبق النجمي ذي الثماني كندات والزخارف النباتية؛ كزهرة السوسن وأشكال سعة النخل بطرق التجميع والتفريغ والتعشيق والحفر والخراط والسدائب. (خطابي، الأعمال الخشبية، ص ١٩٦).



البيت من رؤية من خارجه والنظر إلى الشارع المُطلّ عليه الدار، وقد شبهَ بيديه نوافذ تلك البيوت بشرفات القاهرة ومشربياتها(١).

وتجدر الإشارة إلى أن نظام الرواشين انتشر في بيوتات المدن الحجازية، ولم يكن قاصراً على جدة ولاسيما في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وبعض البلاد العربية، وذلك لذات الفوائد التي كان يحققها ذلك الروشان لأهل البيت القاطنين به، يضاف لذلك أن بعض هذه الرواشين حوت بروزات خارجية بها فتحات لوضع شراب الماء بها ليصبح الماء بارداً بدخول الهواء إليه، كما إن بعض هذه الرواشين أُضيف لها أرفف من أعلاها لتخفيف حرارة الشمس الساقطة عليها في الصيف وحمايتها من المطر في الشتاء، كما إن بعضها حوى مرابز لتصريف مياه الأمطار . وقد استمر هذا التقليد المعماري في بلاد الحجاز إلى وقت قريب وعاد في العصر الحديث بشكل جمالي وتقليد تراثي في بعض البيوت الحديثة التي بنيت في مدن الحجاز حديثاً، كما أُضيف لها بعض قطع الزجاج الملون (٢)، وقد أشار بيديه إلى أن تلك النوافذ الخشبية قد طُليت بألوان زاهية تتناسق مع اللون الأبيض الذي طُليت به جدران البيوت(٣).

ويتعمق بيديه في وصف تلك الحواجز الخشبية التي امتدت لتحيط بأسوار بعض أسطح البيوت في جدة شأنها شأن النوافذ الخشبية، وكانت النساء تصعد لتلك الأسطح لاستنشاق الهواء الطلق دون أن يقع نظر أحد غريب عليهن، وضرب شارل مثلاً على تلك الأسطح بالمنزل الذي كان يسكنه أحد أشرف مكة المكرمة(٤).

وخلال إقامة بيديه في جدة أقام في منزل قريب من باب المدينة في منطقة مرتفعة من حي الشامي : وهو منزل أقام فيه قبل ذلك قنصل فرنسا السابق، ولكنه يبدو أنه أصبح مهجوراً وسكناً للعصافير كما ذكر بيديه، وهذا المنزل يمتلكه أحد الرجال المقيمين بمكة المكرمة وتم استجاره من خلال وكيله في جدة، وقد تمكن بيديه ورفاقه من الانتفاع بغرفتين منه للإقامة بها مستغلين ما كان معهم من فرش وسجاد؛ أما الطباخ المرافق لهم (غاسبارو) فقد عمد إلى الاستفادة من المطبخ الموجود في سطح المنزل في حين اختار الخدم المكان المناسب للإقامة منه(٥).

(١) بيديه، رحلة، ص١٣٨؛ إسماعيل، جدة، ص٥٦،٥٥؛ وقد أوربت المؤلفة تاريخ قوم بيديه لجدة ١٢٣١هـ والصواب ١٢٧٠هـ؛ اليافي، جدة، ص٤٤؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٢،١٠٣.

(٢) للتوسع في هذا الموضوع انظر: خطابي، الأعمال الخشبية، ص١٥٦.

(٣) بيديه، رحلة، ص١٣٨؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٣.

(٤) بيديه، رحلة، ص١٣٩؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص١٠٣.

(٥) بيديه، رحلة، ص١٤٩.

وعلى مقربة من سكن ديبية كان هناك منزل لإقامة علماء كان غالبهم من الأفارقة السودانيين القادمين إلى أداء فريضة الحج، وكانوا يؤدون طقسهم بشيء من الأغاني الموسيقية مثل الطبل والناي (١).

وعلى الجانب الآخر من إعجاب ديبية بتلك البيوت الحجازية في جدة، وعلى بعد مسافة قصيرة منها خارجها وبتجاه باب مكة (٢)، دون شارل وصفاً معاكساً لما شاهده من الأكواخ المصنوعة من القش وسعف النخل وجذوعه والتي انتشرت على طول الطريق الصحراوي، وقد اتخذها أهالي النوبة سكناً لهم ممن يعملون في الميناء والسوق ويشاركهم في ذلك بعض الأسر الفقيرة، والنساء الفقيرات وهي تتشابه مع الأكواخ التي رآها في السويس والطور وينبع (٣).

أما الطائف، فقد عرفت فخامة البناء والعمارة الذي تجسد في قصر الشريف عبدالمطلب مما جعل ديبية يستفيض في وصفه وصفاً دقيقاً لأغلب تفصيلاته ابتداء من المدخل الذي يرتقى إليه بسبع أو ثمان درجات (٤)، ثم الدخول إلى مجلس صغير فرش بالسجاد النفيس والأرائك المصنوعة من الحرير الأخضر الموشح بخيوط الذهب؛ وهي تتشابه مع الموجود في منزل التاجر محمد شمس الدين، وقد علق على أحد جدرانه سيفاً تركياً مرصعاً بالأحجار الكريمة أهداه السلطان للشريف (٥).

ثم أشار ديبية لنموذج آخر من فخامة البناء اتضح في منزل شريف مكة السابق ابن عون (٦) والذي كان تخطيطه المعماري مقارنة بغيره من المنازل يرتقي لأن يُسمى قصرًا (١).

(١) ديبية، رحلة، ص ١٥٠.

(٢) باب مكة المكرمة: أحد أبواب سور جدة الثمانية يقع في وسط جدة (منطقة جدة التاريخية) ويعد بوابة جدة الشرقية، كان معبراً للجنازات المتجهة إلى مقبرة شيخ الأسد في تلك الناحية خارج السور. (باب مكة المكرمة) بويكيبديا الموسوعة الحرة، استرجع بتاريخ ٢١/١٢/٢٠١٤ هـ - ٢٢/٨/٢٠١٩ م.

(٣) ديبية، رحلة، ص ١٤٥، كذلك أشار موريس تاميزبيه سابقاً إلى رداءة بناء هذه الأكواخ، وعدم ملائمتها لسكنى بني البشر. (رحلة في بلاد العرب، ص ١٣٧).

(٤) ديبية، رحلة، ص ٢٤٦.

(٥) ديبية، رحلة، ص ٢٤٦.

(٦) ابن عون: محمد بن عبدالمعين بن عون بن محسن، من أمراء مكة وأشرفها من بني الحسن، وهو جد الأشراف الأشراف من ذي عون ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٠٤ هـ/ ١٧٩٠ م ونشأ بها، وانتقل للإقامة بمصر زمن ولاية محمد علي باشا عليها فتشفع له عند السلطان العثماني ليوليه إمارة مكة المكرمة فتم لك سنة

وعند خروج ديبية وأفراد قافلته من الباب المقابل (٢) للباب الذي دخلوا منه، وهو باب الربيع أشاد بقصر شبرا التاريخي (٣) وهو مثل اسم قصر خالد باشا الذي يبعد عن القاهرة ثلاثة أميال، وكان كما وصفه قصرًا ضخمًا أبيضًا تحيط به حدائق خضراء كثيرة الأشجار (٤). وعندما عقد شارل مقارنة بين بيوت مكة المكرمة والطائف وتجول بالمنزل الذي نزل فيه وهو منزل شمس الدين نكر أن هناك تشابهًا في الأنماط المعمارية لئور كلتا المدينتين إلا إن بيوت الطائف كانت أكثر رونقًا ومنانةً، ويتألف البيت الذي سكنه ديبية من ثلاثة طوابق؛ حُصص الطابق الأول لاستقبال الزوار والطابقان الآخران لسكن الحريم والخدم، وأما السطح، فقد النف حوله جدار على شكل داريزين (٥) يطل على المدينة بأسرها (١)، وهو هنا يتشابه مع أسطح منازل جده التي نكرها ديبية آفاً عند زيارته لها .

١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، ثم عزل عنها وعاد إليها فاستمر بها حتى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م وعزل فتوجه لإستانبول للإقامة بها حتى سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م؛ حيث أصدر السلطان العثماني مرسومًا بإعادته لشرافة مكة وبقي بها حتى وفاته سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م. (رفعت باشا، مرآة الحرمين، ج(١)، ٣٦٦؛ غوري، حكام مكة، ص ٣٠١-٣٠٣).

- (١) ديبية، رحلة، ص ٢٥٠، ٢٥١.
- (٢) نكر مترجم الرحلة أن اسمه باب الحزم وهو الباب الذي يؤدي لقصر شبرا. (ص ٢٧٠ حاشية رقم (١)، وكان للطائف ثلاثة أبواب باب الربيع وباب الحزم وباب ابن عباس.
- (٣) قصرًا شبرا: يقع قصر شبرا التاريخي خارج سور الطائف القديم، إلى الشمال الشرقي منه، وشبرا هي المنطقة الممتدة على شكل مستطيل يفصلها من الناحية الشمالية حي الفيصلية، الطريق الممتد بين المطار وشارع الجيش، وحدها الجنوبي يطل على ميدان باب الحزم وقصر النياحة، أما الحد الشرقي فيبدأ بالمرتفعات المقابلة لحي الفيصلية من الجهة الجنوبية، ومن الجهة الغربية فإن شارع شبرا الرئيسي يفصل حي العقيق وحي العزيزية، وكان اختيار موقع القصر آنذاك يعود إلى خصوبة الأرض المحيطة به وتوسطه بين بساتين شبرا، وامتاز القصر بمقربة من ثلاث أبيار: بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة، كان قصر شبرا أحد القصور التي سكنها الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله لإدارة شؤون الحكم من هذا القصر أثناء إقامته لموسم الصيف ثم اشتراه الملك فيصل بريحه الله فأصبح من أملاك الدولة، وهو الآن تابع لهيئة السياحة ليكون مقرًا لمتحف الآثار في محافظة الطائف، يتكون القصر من طابق قبو تعلوه أربع طوابق إضافة لملاحق خارجية وحدائق ويضم حوالي ١٥٠ غرفة، كما يضم القصر متحفًا يحوي أيضًا على مجموعة من القطع الحجرية والفخارية ولوحات من النقوش والكتابات الصخرية. (القناني، تاريخ الطائف، ص ٦٨؛ مقال بالصور قصرًا شبرا، صحيفة المواطن الإلكترونية، ١٠/٧/٢٠١٥م، <http://www.almowaten.net> استرجع بتاريخ ١١/١٠/١٤٤١هـ.
- (٤) ديبية، رحلة، ص ٢٧١؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص ١٠٨.
- (٥) داريزين: لفظ فارسي يطلق على الحاجز المصنوع من قضبان الحديد المثبتة بشكل متعامد على أطراف السلام (الدرج) والشرفات كحاجز وقائي، (الخطيب، معجم المصطلحات، ص ١٧٧).

ويبدو من خلال وصف ديبيه لبقية منازل الطائف أن يد الإهمال والخراب قد أعملت فيها؛ فهي كما نكر مئات من البيوت ليست ضخمة ونصفها مهدم وبُنيت حول ساحة مربعة تخترقها شوارع ضيقة غير منظمة (٢).

في قرية سولة (٣) وهي من المحطات التي توقفت عندها قافلة ديبيه كان منزل الشريف حامد، ولما كان الشريف حامد أحد مرافقي تلك القافلة، فقد استضافهم في منزله الذي كان يَحُدُّ إليه بعيداً عن أعباء العمل في مكة المكرمة ويأمن بالاسترخاء فيه لفترة من الوقت، وقد أعطى ديبيه تفاصيلاً واضحة لمنزل الشريف حامد الذي كان أشبه ما يكون بعدد من البيوت المنفصلة التي تفصل بينها جدران وأبنية خصص أحد هذه البيوت للحريم، والآخر للخدم من الرجال والثالث، كان بمثابة ديوان لجلوس رب الأسرة فيه في النهار واستقبال الضيوف والزائرين وهو المكان الذي اختاره شارل للمبيت فيه، وكان يتألف من غرفة في الطابق الأول ومصطبة فوقها، وحول الغرفة ديوان للجلوس، وهناك قطع من البورسلين والزجاج الأبيض في طاقات محفورة في الحائط، وخمسة عشر سجادة مفروشة (٤).

وفي الهدا (٥) نزلت قافلة ديبيه في منزل كان قد قام ببنائه أحد الضباط الروس (٦)، وقد أبدى ديبيه غرابته من بساطة البناء العماري لهذا البيت الذي لم يحاول بانيه أن يظهر فيه تأثير العمارة الأوربية، وقد استخدمت الحجارة في بنائه، وكانت مساحته صغيرة لا تتجاوز عدد من

(١) ديبيه، رحلة، ص ٢٥٠؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص ١٣٩.

(٢) ديبيه، رحلة، ص ٢٥٠.

(٣) سولة: وتتطوق اليوم بفتح السين المهملة؛ عين جارية بأسفل وادي نخلة اليمانية، وسكانها من الزواهرة بطن من زييد من حرب نخل في هنبل، وجبل ملكها للأشراف، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج (٤)، ص ٢٥٤.

(٤) ديبيه، رحلة، ص ٢٨٣.

(٥) الهدا: الهدأة: من الهدوء، فرعة واسعة على ظهر السراة بين مكة المكرمة والطائف، تبعد عن الطائف ١٨ كيلاً غرباً، وتشتهر الهدا بجمال جوها؛ فصيفها بارد وشتاؤها قارس، ولذا تعد من أجمل مصائف المملكة، وتشهد اليوم نهضة عمرانية متواكبة مع نهضة البلاد من تعبيد للطرق وإنارتها وإنشاء المدارس والمستوصفات والفنادق والحدائق والمنتجعات السياحية والعديد من الخدمات الأخرى، ولها إمارة تابعة للطائف وسكانها من تقيف وقريش. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج (٩)، ص ١٦٢؛ جريس، القول المكتوب، ج (١٣)، ص ١٠٤.

(٦) كان هذا الضابط الروسي قد فرّ من القيصر نيقولا بعد أن تورط في فتنة عسكرية سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م، ثم فرّ إلى إستانبول ولكنه خشي على نفسه فأعلن اعتناقه للإسلام، وفرّ إلى الحجاز ليعيش بها فترة طويلة ثم عاد إلى إستانبول فمات بها. (ديبيه، رحلة، ص ٢٣٤.

الغرف الرئيسية في الطابق الأرضي التي غُطيت أرضيتها بالبسط، وأمام البيت مسطبة (١)، ويحيط به عدد الأفنية التي تطل الغرف عليها (٢).

كان المنزل الذي نزل فيه دبييه في الطائف يحمل بعض علامات الفخامة، فأدخل إلى مجلس يطل على فناء مرصوف ببلاطات كبيرة، وفي وسطه بركة من الرخام فيها نافورة مياه، وقد فرش المجلس بسجاد أحمر وأسود جميل وانتشرت فيه أرائك من الحرير الأخضر المطرز بخيوط ذهبية، وكانت هناك أربعة قناديل مضاءة تتدلى من السقف وشمعدانان ضخمان للشموع (٣).

ثم تم تقديم ضيافة لهم تتشابه مع عادات الأوربيين في الجلوس على مائدة وكراسي وصحون وسكاكين وشوكات وملاعق وقدم لهم الخروف المحشي (٤). وكانت الغرفة التي أُعدت له ذات تنظيم وترتيب وتحوي أسرة أوربية والمنزل ملك تاجر هندي اسمه محمد سيد شمس الدين كان قد غادره لمنزل آخر (٥).

#### - حصن الشريف غالب بالطائف:

وقد بنى الشريف غالب (٦) مقرًا له في الطائف له أربعة أبراج تحصينية في جهاته الأربعة، الأربعة، وقد اتخذها محمد علي سكنًا له عند قدومه إلى الطائف (٧).

(١) مصطبة يقصد بها المنصة التي يقف عليها السلطان أو الحاكم عامة أثناء استقبال الوفود أو استعراض القوات. (الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٩٦).

(٢) دبييه، رحلة، ص ٢٣٤.

(٣) دبييه، رحلة، ص ٢٤٠.

(٤) دبييه، رحلة، ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٥) دبييه، رحلة، ص ٢٤١.

(٦) الشريف غالب: بن مساعد بن سعيد الحسيني، من أمراء مكة المكرمة وليها بعد وفاة أخيه سرور سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م، وفي أيامه هاجمت قوات الإمام سعود بن عبدالعزيز مكة، فقالتها الشريف غالب، فهزم وتراجع إلى جدة وأظهر الطاعة للإمام سعود، فعاد لمكة أميراً عليها، واستمر في الإمارة إلى أن زحف محمد علي باشا بجيش كبير لقتال السعوديين فتحول الشريف عن ولائه لآل سعود فاستخدمه محمد علي، ثم قبض عليه وأرسله لمصر سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ثم أرسل لإستانبول فنفته الدولة إلى سلاتيك، حيث توفي بها سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م، (بحلان، خلاصة الكلام، ص ٢٦٢، ٢٦٣؛ رفعت باشا، امرأة الحرمين، ج (١) ص ٣٦٦؛ الزركلي، الأعلام، ج (٥) ص ١١٥).

(٧) دبييه، رحلة، ص ٢٥١.





أوضح ديبيه أن هناك فارقا بين بيوت مكة المكرمة عن بيوت الطائف وهو أن بيوت الطائف ليس لها طابق أرضي وإنما يستقبل الضيوف في الطابق الأول كما حدث معه عندما سكن في بيت أسرة شمس الذين انتقلوا منه لمنزل آخر لهم (١).

ويؤكد ديبيه أيضاً تخصيص الطابق الأول لإقامة الضيوف بما ذكره عند خروجه من الطائف والتوقف في قرية لقيم؛ حيث نزل أفراد القافلة في بيت رجل اسمه قاري - وهو على علاقة ليست بوفاق مع التاجر محمد شمس- من تخصيص غرفة كبيرة في الطابق الأول في بيته الريفية مفروشة بالسجاد (٢).

### (ب) المرافق الاجتماعية :

#### - الأسوار -

كان السور الذي أحاط بميناء ينبع عند زيارة ديبيه قد اعتراه الخراب بتهدم بعض أجزائه تهماً جعل ديبيه يوقن بأنه على وشك السقوط، وحتى الأبراج التي أقيمت على السور لم تكن بأفضل حالاً من بقية أجزائه (٣).

ويظهر من خلال وصف ديبيه لسور جدة أن هناك فرقاً بينه وبين ما كان عليه سور ينبع عندما شاهده؛ وقد تهدم في بعض أجزائه واعتراه الخراب، في حين أن السور الذي أحاط بجدة كان مرتفعاً مبنياً بناءً سميماً، ومصاناً صيانة جيدة وعليه أبراج حالتها جيدة كما حُفرت قبله خنادق عميقة وهو ما جعل ديبيه يعترف بفضل هذا السور في توفير الحصانة والحماية لجدة من أي اعتداءات أو هجمات خارجية، وقد دلل على كفاءة سور جدة ومقاومته خلال محاولة قوات الدولة السعودية الأولى لضم الحجاز؛ ولكن شارل أقر بأن متانة هذا السور تتجلى في الحروب الداخلية، ولكن حين يتعرض لقصف مدفعية أوربية سيكون ضعيفاً في مواجهتها (٤).

(١) ديبيه، رحلة، ص ٢٦٢.

(٢) ديبيه، رحلة، ص ٢٧١، وكان خروجه من الطائف يوم الخميس ٢ مارس الخامسة عصرًا.

(٣) ديبيه، رحلة، ص ١٢٥؛ الفليبي، ينبع، ص ٣١٦؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٠، ٢٩٤، ولعل ذلك الخراب ناتج عما تعرضت له ينبع خلال حملة محمد علي باشا على بلاد الحجاز لمحاربة الدولة السعودية الأولى بقيادة ابنه طوسون سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، فقد كانت ينبع أول ميناء حجازي وصلته تلك الحملة وقد أصعبت المنفعة ضريباً وفقاً على البلدة وساكنيها حتى فر أهلها منها، وقد صور جيوفاني فيتاني ذلك المشهد تصويراً مؤثراً؛ لاسيما أنه كان شاهد عيان على تلك الأحداث. (فيتاني، حياته ومغامراته، ص ١٠٩، ١١٠؛ محبت، ينبع، ص ٥٥٣، ٥٥٤).

(٤) ديبيه، رحلة، ص ٣٨؛ إسماعيل، جدة، ص ٤٨؛ اليافي، جدة، ص ٤٤.



ويوجد في سور جدة ثلاثة أبواب وهي : باب اليمن في الجهة الجنوبية منه، وباب المدينة المنورة في شمال جدة، وفي شرقها يقع باب مكة المكرمة، وهو أجمل تلك الأبواب الثلاثة بُنيَ عليها برجان منحوتان بمهارةٍ فائقةٍ لحراسته (١).

أما الطائف فقد أُحيطت بسور كان له عدة أبواب منها : باب الربيع الذي خرجت منه قافلة يديبيه ورفاقه بعد أن قدم لهم أفراد الحامية العثمانية التحية العسكرية (٢).

#### - الخانات والوكالات:

أشار يديبيه إلى وجود عدد من الخانات (٣) أو الوكالات (٤) في جدة التي يَأوي إليها أبناء السبيل والمسافرين للمبيت بها، وكانت تحوي مستودعات للأمتعة والبضائع (٥) وغالباً ما تكون هذه للتجار.

#### - المساجد :

كانت هناك العديد من المساجد التي ترتفع مناراتها شاهقة أمام الناظر إليها في المنزل الذي كان يسكنه شارل في جدة على مقربة من باب المدينة في حي الشامي (٦)، وكان أقربها لمنزله مسجد أنيق له رواقان (١).

(١) يديبيه، رحلة، ص ١٣٨؛ إسماعيل، جدة، ص ٤٨؛ الياقي، جدة، ص ٤٤ .

(٢) يديبيه، رحلة، ص ٢٤٤، وتجدر الإشارة إلى أنه بعد أن أتمَّ الملك بن عبدالرحمن آل سعود -يرحمه الله- ضم الحجاز إلى أرجاء دولته بدخول آخر مننه تحت سلطانه وهي مدينة جدة سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م بدأت تزفرف ربات الأمن خفاقه حتى تم الاستغناء عن تلك الأسوار التي كانت تغلق أبوابها في الليل منعاً لدخول الأعراب والمعتدين فأزيل سور المدينة وجدة سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٦م. (أبو داود، جدة، ص ٧٤؛ اللحياني، المدينة، ص ٢٨٣.

(٣) الخانات : الخان : كلمة فارسية الأصل تطلق على الأماكن التي تخصص لبيوت المسافرين من الحجاج والتجار، وهو عبارة عن بناء ضخم يضم مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، يقوم هؤلاء الحجاج والتجار بالاستراحة بالخانات ووضع أمتعتهم فيها والحصول على متطلباتهم من الطعام والشراب، وقد أنشئت الخانات على طول طرق الحاج والطرق التجارية ولكن بمرور الوقت أصبح الخان ينشئ داخل المدن، ولا يزال قسم منها بكبرى المدن التجارية الكبرى كالقاهرة ودمشق، وكان في الغالب يستقبل التجار المتقلين من مكان لآخر، (شير، معجم الألفاظ الفارسية، ص ٥٨؛ حلاق وصباغ، المعجم الجامع، ص ٨٠.

(٤) الوكالات: الوكالة لفظ متداول عن أهل مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي يقصد به الفندق أو الخان المُعدُّ لنزول التجار وبضائعهم، وقد تشتمل الوكالة على سوق مسقوفة مثل الخان أو القيسارية في بلاد الشام أو السمسرة عند أهل اليمن، (الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٤٤٣.

(٥) يديبيه، رحلة، ص ١٤٩؛ إسماعيل، جدة، ص ٦٢.

(٦) حي باب الشامي: أو حارة باب الشام، وهي المحلة التي تقع في الجزء الشمالي الغربي من مدينة جدة القديمة وكانت تقع بها بعض السفارات والقنصليات الأجنبية في السابق. (أبو داود، جدة، ص ٨٥.

وفي الطائف كان أبرز معلم ديني شاهده بديبيه هو مسجد عبدالله بن العباس عليه السلام (٢) ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تم هدم القبة المبنية على قبره خلال حكم الدولة السعودية الأولى لبلاد الحجاز، ثم أعيد بناؤه بعد انتهاء حكمهم وطلاؤه بالكلس الأبيض، وتكريماً لابن العباس فقد سمي باب الطائف القريب منه بنفس الاسم (٣).

#### - الأسواق:

حين استقر المقام بديبيه في جدة في بيت القنصل الفرنسي السابق وقع اختياره على غرفة في الطابق الثاني حوت نافذة ضخمة ذات مصراعين كان ينفذ إليه من خلالها الشمس والضوء والهواء وأصوات العصافير، وكان يرى من خلالها سوق المدينة في القسم الشمالي موازياً للبحر الذي كان يعج بأصوات الناس وجمالهم (٤)؛ وهو الرئة التي تنتفس منها مدينة جدة، ويعد سوقاً تتلاقى فيه سلع الشرق والغرب القادمة من دمشق وبغداد ومصر وفارس والهند (٥).

(١) بديبيه، رحلة، ص ١٥٠، وحين زيارة موريس تاميزيه لجدة سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م نكر أن أهم مساجدها في تلك الفترة خمسة مساجد وهي: مسجد السلطان حسن ومسجد للشافعية يقع على أطراف بولية مكة، ثم مسجد عكلت قرب البحر، ويتجاه وسط المدينة مسجد تابع للحنفية، أما المسجد الخامس فيطلق عليه اسم محمد، وهناك مساجد أخرى تم تحويلها إلى مستودعات للخزيرة بناء على أوامر محمد علي، (رحلة في بلاد العرب ص ٨٣، ٨٤).

(٢) مسجد عبدالله بن العباس: يقع وسط محافظ الطائف، وقد تم إنشاؤه سنة ١٠٩٢هـ/١٩٦٦م في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء، وسمي بذلك لوقوعه بجوار قبر عبدالله بن العباس عليه السلام الذي توفي بالطائف سنة ٦٨٨هـ/٦٨٧م، وقد جُندت عمارة في العهد العثماني عدة مرات، ثم بُني بناءً مسلحاً وتم توسعته في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز وأعقبه الملك فيصل -يرحمها الله بتوسعته حتى بلغت مساحته ١٥ ألف متر مربع، وفي موضع المسجد كان يقع موقع لمسجد ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء غزوة الطائف سنة ٦٢٩هـ/٦٢٩م، وقد كانت تقام في المسجد حلقات تحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية، كما أقيمت بجوار المنازل والمحلات التجارية حتى أصبحت الباحات حوله سوقاً للتبادل التجاري، وعرفت ببيحة العباس. (القائمي، الطائف ص ٦٧).

(٣) بديبيه، رحلة، ص ٢٥٥.

(٤) بديبيه، رحلة، ص ١٥٠.

(٥) بديبيه، رحلة، ص ١٣٩؛ إسماعيل، جدة، ص ١١٢؛ اليافي، جدة، ص ٤٥.

### - المقاهي (١):

شكلت المقاهي مكاناً يجتمع فيه تجار جدة على اختلاف حياتهم وتعدد لغاتهم لمناقشة قضاياهم التجارية (٢).

ومن المرافق العامة التي شاهدها ديبييه ودخل إليها واستأنس بالجلوس فيها أحد المقاهي الواقعة في أكثر شوارع ميناء ينبع ازدحامها بقرب المسجد (٣).

وعند خروج موكب ديبييه من جدة عبر باب مكة رافقه السيد كول على حصان ومصطفى أفندي على بغلة والأخوة ساوة حتى منطقة الرغامة (٤)، وكان يوم انطلاق الرحلة الخميس في ٢٣ فبراير، وكانت تتألف من ديبييه ورفيقه البريطاني والسيد دوكيه وستة من الخدم بينهم أوروبيان؛ والطباخ غاسبارو ثم الشريف حامد مع أحد أقرائه وأحمد حمودي رئيس جمالة الشريف عبد المطلب ثم اثني عشر عبداً أو خادماً من خدام الشريف مسلحون بالرماح والخناجر وثلاثة عشر

(١) المقاهي: انتشرت المقاهي في بلاد الحجاز على نطاق واسع وخاصة في المدن الكبرى مكة والمدينة وجدة ووزاد انتشارها مع بداية العهد السعودي وهي عبارة عن أماكن فسيحة يمتلكها أصحابها توضع بها الكراسي الشريط، ثم يلف عليها أشرطة من خوص النخل الملفوف ببعض حبال القنبار الذي يسحب على الكراسي بنسق معين تظهر فيه براعة صانعه. وتُصَفُّ الكراسي على شكل حرف L. وتوضع أمام الكراسي الطاولات الخشبية مربعة الشكل التي يُخصص بها مكان مفتوح على هيئة دائرة لوضع شربة الماء التي تقدم لمرتادي المقهى بدون مقابل، ومابقي من مساحة يوضع عليه إبريق الشاي وأكوابه ودلة القهوة وفناجيلها. وقد أنت هذه المقاهي خدمات عديدة للمجتمع الحجازي؛ وعلى رأسها الدور الخدمي (الفندقي) الذي تقوم به الفنادق في الوقت الحالي، إذ حوى البعض منها على الألفعة والمخدات استعداداً لنزول بعض المسافرين وأصحاب الحرف والعاملين والحجاج الذين يخلدون إلى الراحة والنوم بها خاصة في الأوقات المتأخرة من الليل، كما كان يعقد داخل هذه المقاهي الصفقات التجارية وعقود البيع والشراء بين أرباب العمال والحرفيين المنفذين للأعمال وإمضاء العقود وتقاضي الأجور، كما شكلت المقاهي في الحجاز جانباً من جوانب التسلية والترفيه لرجال المجتمع التي يقضون فيها جزءاً من وقتهم، وإلى جانب ذلك أنت دوراً أدبياً وثقافياً كبيراً حين كان يرتادها البعض للسمير ويحضر أحد القصاصيين أو الرواة ليسرد عليهم قصصاً من الماضي، وقد جنى أصحاب هذه المقاهي التي عُت رواقات ثقافية أرباحاً كثيرة لكثرة مرتاديها، وكثرة الطلبات التي يطلبونها من المقاهي. (الأصاري، المسفاية، ص ٨١-٨٦).

(٢) ديبييه، رحلة، ص ١٤٠.

(٣) ديبييه، رحلة، ص ١٣٠.

(٤) الرغامة: أرض رملية على يمين المتجه من جدة إلى مكة المكرمة يسيل فيها وادي عليل من الشرق شهدت الرغامة عدة أحداث بين الأشراف وآل سعود وفيها عسكر الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود لحصار الشريف علي بن الحسين في جدة سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م تعتبر اليوم جزء من جدة إلا إن العمران لم يشملها كلها. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٤)، ص ٦١).

جمالاً وهجاناً كافية لحملهم لأن المرافقين كانوا يمشون سيراً على الأقدام (١)، وقد استزلحت القافلة في مقهى الرغامة وهو المقهى الأول من بين اثني عشر مقهى منتشرة في الطريق بين مكة وجدة لتناول قهوة الوداع (٢).

ثم أكملت القافلة مسيرها حتى المقهى الثاني مقهى البياضة (٣) حيث تم المبيت فيه حتى الصباح؛ إذ إن دبيبه أصابته حمى أرجع مرافقوه سببها لتناوله القهوة مباشرة بعد تناول البطبخ (٤)، ثم وصلت القافلة بعد أن قطعت شوطاً من المسير إلى مقهى حدة (٥)؛ وهو أكبر المقاهي الأحد عشر في منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة؛ وهي عبارة عن سقيفة من أغصان الأشجار يحيط بها سقائف صغيرة وإلى الجوار منها مسجد، فاستزلحت القافلة تحت ظل تلك السقائف لشدة الحر، ثم انحرفت القافلة من مسارها باتجاه مكة المكرمة شرقاً إلى الجهة الجنوبية حيث يحظر على غير المسلمين دخول مكة، وقد أقيمت الأعلام حول مكة لتحديد حدود الأرض المقدسة بين كل مسافة وأخرى والتي يحرم على غير المسلمين دخولها، كما يحرم فيها الصيد وإراقة دم الإنسان والحيوان (٦).

ولمّا كان شارل قد عاد من طريق آخر، فقد توقفت القافلة عند مقهى حدة حيث يلتقيا طريقاً الطائف وكانت مليئة بالجرذان التي تلتف في حصر المقهى وفرشها (٧).

#### ثالثاً : الأظعمة والأشربة:

لكل مجتمع من المجتمعات المدنية أنواع وألوان من المآكل والمشارب التي يتقوى بها بدن الفرد على مشاق الحياة ومتاعبها، ولمّا كان مجتمع الحجاز كغيره من المجتمعات المدنية، فقد

(١) دبيبه، رحلة، ص ٢١٧؛ آل زلفة، الطائف، صحيفة الجزيرة الإلكترونية.

(٢) دبيبه، رحلة، ص ٢١٨.

(٣) البياضة: بفتح الموحدة وتشديد الباء الأولى؛ صدر وادي الأبطح يشملها اليوم اسم المعابدة فيها القصر الملكي، وهي قصر بناه الشريف غالب في صدر الأبطح في المعابدة، وقد تم هدمه وإزالته، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج (١) ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٤) دبيبه، رحلة، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٥) حدة : حذاء: بالفتح ثم التشديد وألف ممدودة وإد فيها حصن ونخل بين مكة المكرمة وجدة يعرف اليوم ب: حدة عاتق ٢٤١ وحذاء: جبل للجحادلة بطرف يلملم من الجنوب يقابل جبل عواهي بينما درب السيل، وحذاء: قرية في بلاد بني مالك قرب بجيلة جنوب الطائف على ١٦٠ كيلاً تقريباً، (عاتق، معجم معالم الحجاز، ج (٢)، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٦) دبيبه، رحلة، ص ٢٢٠.

(٧) دبيبه، رحلة، ص ٢٨٦.

تتوعدت فيه المطاعم والمشارب ما بين أطعمة وأشربة محلية قائمة على الإنتاج الحيواني وأطعمة من الإنتاج النباتي، فضلاً عن دخول بعض الأصناف التي عرفها سكان الحجاز من الوافدين إلى بلادهم ومجاورتهم بها، وقد تضمنت كتابات ديبييه وصفاً لهذه الأطعمة والأشربة. كانت مدينة الوجه أول البر الذي نزله ديبييه بعد عبورهم بالسفينة في البحر الأحمر وهناك قدم عليهم أفراد من قبيلة بلي التي تسكن تلك البلدة، وقدموا لأفراد القافلة البيض والحليب والخبز ولحم الخراف والأسماك، ويستنتج من كلام ديبييه أنها كانت بكميات كبيرة جعلتهم يدعمون مخزونهم من الطعام المخزن للرحلة (١).

ويبين من خلال ماتاوله ديبييه ورفاقه من أطعمة وأشربة أن غالب ما كان يؤكل ويشرب عند أهالي الحجاز قائم على الإنتاج المحلي الذي يقوم الأهالي بإعداده وتجهيزه، فلما كانت الصحراء تمثل جزءاً كبيراً من أراضي شبه الجزيرة العربية، فقد انتشرت حرفة الرعي على نطاق واسع، فأصبحت الأغنام مصدراً خصباً للحلوم والحليب ومشتقاتها من الألبان والأجبان والزبد والسمن، وقد كانت أسواق الحجاز سوقاً رائجة لهذه المنتجات المحلية التي يأتي أبناء البادية بها لبيعها في أسواق المدن الحجازية لاسيما في موسم الحج، ثم إن هناك إنتاج المدن المحلي؛ حيث قامت الزراعة في بعض المدن الكبرى التي امتازت بوفرة مياهها وخصوبة تربتها؛ كالمدينة المنورة والطائف وكذلك حول روافد الأودية وفي بطونها وحول الواحات؛ فقامت حرفة الزراعة على نطاق أوسع من غيرها من المناطق في شبه الجزيرة العربية فانتشرت زراعة النخيل التي كانت تمثل مورداً مهماً التمور بكافة أنواعها، وكذلك زراعة القمح والشعير والدخن التي أسهمت في صناعة الخبز والمخبوزات الأخرى (٢).

ولما كانت الوجه بلدة ساحلية كان من الطبيعي أن يتنوع بها شارل ورفاقه الأسماك الطازجة شأنها شأن بقية المدن الساحلية الواقعة على ساحل البحر الأحمر؛ كجدة وينبع ورايح التي كانت أسواقها تزدهر بأنواع الأسماك، وقد أشار عديد من الرحالة الذين مروا بمدن الحجاز الساحلية وقرأها بجودة الأسماك التي كانوا يتناولونها في تلك الأماكن (٣).

(١) ديبييه، رحلة، ص ١١٦.

(٢) حول معلومات أوسع عن حرفة الرعي والزراعة في بلاد الحجاز انظر: (القحطاني، الأوضاع الاقتصادية، ص ٦٥-٨٦).

(٣) من هؤلاء الرحالة: كبريت الحسيني سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م الذي زار رايح وأشار إلى توافر الأسماك بها، (رحلة الشتاء والصيف، ص ٦١ وتبعه بوركهارت سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م الذي أشاد بشهرة سكان رايح بصيد الأسماك

إن أفضل منتج غذائي وجدته دبييه في أسواق ميناء ينبع هو التمر الذي اشتهرت به المدينة المنورة كذلك، وكان طعام للسكان كما كان يقدم للدواب كالخيول والأحصنة حسب ما ذكره (١)، كما أتت على تمر المدينة بدعاء وبركة الرسول ﷺ وإن لم يوضح ما إذا كان التمر الذي مدحه هو تمر المدينة أم لا، ولكن اعتماد على ما ذكره دبييه في موضع آخر من أن داخل ميناء ينبع قد انعدمت فيه زراعة أشجار النخيل وحتى في الريف الممتد خارجها، فإنه يمكن القول بأن التمر ذا النوعية الجيدة الذي وجدته في أسواق ميناء ينبع ليس من إنتاج المدينة ذاتها "وليس في داخل المدينة إلا شجرة أو شجرتان من النخيل منفردتان أمام المسجد، وليس هناك أكثر من ذلك خارجها"، وقد خرجت من باب المدينة المنورة للقيام بجولة في الريف فلم أر شجرة واحدة ولم اكتشف إلا الصحراء العقيمة التي تمتد قاحلة وعارية من البحر إلى الجبال" (٢) وارتكازاً على ما سبق أن ذكره من امتداح تمر المدينة وقد يمتد التخمين والاجتهاد المستتب من حديث دبييه عن ينبع النخل وغناها بأشجار النخيل إلى القول بأنه سوق ميناء ينبع كان يزخر كذلك بتمر ينبع النخل، إذ عبّر عن ذلك بعد الحديث عن عدم وجود أشجار نخيل في ميناء ينبع ولا في الريف الممتد لها حيث الصحراء القاحلة من البحر إلى الجبال بقوله: "ولا نجد بعض المزروعات والمساحات الخضراء إلا على بعد ست أو سبع ساعات من المسير، وذلك في ينبع النخل، وهي تقع في وادٍ كبير مزروع بنخيل التمر والقمح" (٣).

وكان يُجنى من الجبال الواقعة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة عسل لذيذ المذاق لونه أبيض براق (٤).

وأما في جدة، فقد كان الوضع الاقتصادي يعبر عن ازدهار لحركة الملاحة والتجارة ورواج لكثير من السلع والمنتجات والبضائع القادمة إلى ميناء جدة من عدد من البلدان والمناطق المختلفة؛ فقد مثلت جدة دعامة اقتصادية مهمة لبلاد الحجاز فأصبح ميناءها فضلاً عن استقباله للحجاج القادمين للحج عن طريق البحر يستقبل كذلك أنواع السلع والمنتجات والبضائع القادمة

---

وإحضارها للأسواق لبيعها لاسيما الأسماك المملحة التي يستفيد منها البحارة لحملها في رحلاتهم الطويلة، (ترجال، ج(٢)، ص ٧٧.

(١) دبييه، رحلة، ص ١٢٥؛ عبد الحميد، الأوضاع الاقتصادية، ص ٣٩٦.

(٢) دبييه، رحلة، ص ١٢٨.

(٣) دبييه، رحلة، ص ١٢٨.

(٤) دبييه، رحلة، ص ١٣٤.

إليها ومنها تصدر لبقية مناطق الحجاز (١)، ولقد صَوَّرَ يديبيه هذا المشهد تصويراً معبراً حين ذكر أن أسواق جدة كانت تزخر بالسفن التي كانت ترسو في مرفأها محملة بمختلف السلع والمنتجات ومنها الأطعمة والأشربة؛ فقد أطل يديبيه من خلال نافذة المنزل الذي كان يسكنه على الميناء التي رست فيه ثلاث سفن محملة بالأرز والسكر (٢).

أما عن الأشربة التي تنوقها يديبيه بنفسه في جدة، فأشهرها قهوة تعرف باسم (الكسكري)؛ وتصنع من قشور الحَبِّ التي يضاف إليها حبات من القرنفل والقرفة، وقد أرجع شارل أصل هذا المشروب إلى بلاد اليمن، وعندما قُدمت له قهوة الكسكري عند زيارته التاجر الهندي الثري في جدة -فراج يوسف وابنه عبدالقادر- في شركتهما أبدى عدم إعجابه بهذا النوع من الشراب (٣).

وعند سير القافلة يديبيه من جدة للطائف توقفت في مقهى البياضة بين جدة ومكة لتناول القهوة، وقد تناول يديبيه في هذا المقهى أيضاً البطيخ، فأصيب بالحمى التي أرجعها بعض العرب إلى تناوله القهوة مباشرة بعد البطيخ (٤)، وفي مقهى حدة تناول يديبيه ورفاقه الأرز والحليب (٥). وفي بستان الحسينية الواقع أمام جبل ثور الذي استقبل فيه طاهر أفندي أحد خدام الشريف الأكبر أفراد القافلة وأدخلهم لذلك البستان مستقبليهم بحفاوة بالغة، حيث تم طبخ لك خروف ضخ مسلوق في قدر ضخم من النحاس استُخرج من القدر ووضع في جفنة ثم شُقَّ لشقين وتناوله

(١) مؤمنة، الأهمية التاريخية، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) يديبيه، رحلة ص ١٥٥، ونكر الشعفي أن تجارة الوردات في جدة بين عامي ١٢٥٦-١٣٣٥هـ/١٨٤٠م كانت تزدهر ازدهاراً كبيراً في حجمها وقيمتها إلا أنها كانت تتراجع في بعض الفترات متأثرة بالأوضاع السياسية للمناطق ذات العلاقات التجارية مع جدة، ومنها الهند فمن ميناء كلكتا الهندي كان يصل لجدة الأرز والسكر الخشن واللؤلؤ والحرير والقطن، ومن ميناء بمباي كان يرد لأسواق جدة كذلك الأرز والسكر الأبيض النقي والشالات الكشميرية والأثاث، ومن ميناء سورات كانت محلات جدة التجارية تتزين بالملابس القطنية الزرقاء والملابس الحريرية والشالات والإحرامات والبطاطين، ومن جزيرة جاوة الأندونيسية كانت تصل الملابس القطنية الزرقاء والبيضاء وأخشاب البناء والتوابل، وكانت الكوفيات القطنية تأتي من البصرة، ومن بوشهر الشالات الفارسية والتي هي تقليد للشالات الكشميرية، ومن مسقط كانت تفتد الغر والعقل، ومن مصوع كان يجلب العبيد -كما نكر يديبيه- ويسمون أحباشا ومن سواكن وزنجبار العبيد الزوج، ولذلك لاغرو أن تشهد أسواق جدة رواجاً تجارياً منقطع النظير مقارنة بغيرها من مدن الحجاز، (المزيد من المعلومات يرجع الشعفي، التجارة الخارجية لمدينة جدة، ص ٩١-٩٥.

(٣) يديبيه، رحلة، ص ١٧٥؛ اليافي، جدة، ص ٤٥.

(٤) يديبيه، رحلة، ص ٢١٨، ٢١٩. الحديث عن البطيخ انتشرت زراعة البطيخ بكثرة في بلاد الحجاز وأشار إليه العديد من الرحالة المسلمين والمستشرقين وإلى حلاوة طعمة ولذة مذاقه.

(٥) يديبيه، رحلة، ص ٢٢٠.





الجميع (١)، وقد انضم طاهر أفندي للقافلة في أثناء سيرها إلى الطائف، فقابلهم بعض الرعاة الذين قدموا لهم الحليب (٢).

وفي عرفات (٣) استراحت القافلة في مقهى عرف باسمها، حيث شرب الجميع لبناً، ثم توقفت القافلة للاستراحة في مقهى شداد أسفل جبل كرا حيث قدم للجميع شراب في صحيفة من خشب و تم استبدال دوابهم بـ ١٥ بغلاً كانت تنتظرهم في المقهى (٤).

إن أكثر مشروب تناوله يديبيه ورفاقه خلال مسيرهم وتوقفهم في المقاهي هو الحليب والذي تكرر شربه عند مقهى الكرا وهو مكان واسع مسور بالأحجار بدون طين (٥)؛ مما يؤكد من خلال هذه الشواهد وفرة وجود المواشي والأغنام لاسيما إذا هطلت الأمطار واعشوشبت الأرض، فيكثر إنتاج الماشية للحليب.

وفي المنزل الذي توقف فيه يديبيه ومن معه للاستراحة في الهدا تناولوا اللبن والأرز وخروف ضخم مشوي (٦)، ويظهر هذا أن أصناف الأطعمة تكاد تتكرر مما يؤكد أنها تشكل الأصناف الرئيسية في المائدة الحجازية؛ ولاسيما في القرى والأرياف بخلاف المدن. ومن الأشجار المثمرة التي شاهدها يديبيه بجبل كرا المشمس والدرق واللوز والعنب التي تُغزلُ غلات كثيرة ووافرة، كما شاهد حقول القمح والشعير (٧).

(١) يديبيه، رحلة ص ٢٢٤.

(٢) يديبيه، رحلة ص ٢٢٥.

(٣) عرفات وعرفة: المشعر الأقصى من مشاعر الحج، تقع على الطريق بين مكة والطائف تبعد عن مكة المكرمة ثلاثة وعشرين كيلاً باتجاه الشرق تحف بها الجبال شرقاً وجنوباً ومن الشمال الشرقي، أما في الغرب والشمال الغربي فيمر وادي عرنة، وعرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، وجبل عرفة يسمى القرين ويسمى جبل الرحمة وجبل عرفة، وقد عملت حكومة المملكة على تزويدها بكافة الخدمات تيسيراً على حجاج بيت الله الحرام الوقوف في يوم التاسع من ذي الحجة بها وعلى رأسها إعادة اعمار مسجد نمرة، وتوفير كافة الخدمات الصحية وخدمات النقل والمواصلات وتوفير المياه، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج (٦)، ص ٧٥-٧٧.

(٤) يديبيه، رحلة، ص ٢٢٨.

(٥) يديبيه، رحلة، ص ٢٣٠.

(٦) يديبيه، رحلة، ص ٢٣٤.

(٧) يديبيه، رحلة، ص ٢٣٥. وقد ذاع صيت مدينة الطائف وشهرتها في إنتاج أجود محاصيل الفواكه من الرمان والتين والعنب؛ وذلك راجع لاعتدال مناخها ووفرة مصادر المياه بها وخصوبة تربتها. (كمال، الطائف، ص ١٧-٢٠.

وفي ضيافة شريف مكة في الطائف تناول شارل طعام العشاء الذي تبين من خلال تعداده لأصنافه أنه عشاء فاخر يحتوي على الخروف المحشو بالأرز والمكسرات؛ ومنها اللوز والفسنق وهو من أساسيات المائدة الحجازية التي تقدم للضيوف، ثم حوت المائدة أصناف أخرى من الأطعمة مثل : أوراق العنب المحشوة والكباب وصدور الفراريج المطبوخة بشراب الورد، فضلاً عن الحلويات ذات الأشكال المتعددة المسماة بالفطير(١).

ويتضح من خلال تعداد شارل لهذه الأصناف الأخيرة تأثر المائدة الحجازية بأصناف الأطعمة التي لم تكن موجودة سابقاً كورق العنب والكباب الذي عرفته بلاد الحجاز من أهالي الشام وتركيا خلال توافدهم إلى بلاد الحجاز واستقرارهم بها واختلاطهم بسكانها فتسربت تلك الموروثات الاجتماعية من الأطعمة والأشربة إلى المجتمع الحجازي كما تسربت إليه المورثات الثقافية.

نلذذ دبييه أثناء إقامته في الطائف بطعام الإفطار الذي حوى الزبدة الفاخرة والجبن الطازج والعسل والفواكه والزيتون، وتشكيلة من المربيات التي تم إعدادها من قبل حريم الشريف عبدالمطلب اللاتي كنّ ماهرات في اعداد الطعام هن وجارياتهن؛ خاصة الحبشيات منهن(٢).

كانت القهوة العربية تعد المشروب الرئيس في ضيافة الضيوف؛ ولذا احتسى دبييه في الطائف القهوة مع أصناف الحلويات التي نلتها والتي كان يطاف بها طوال وقت الزيارة عند الشريف عبدالمطلب(٣).

وعند زيارة دبييه لبستان الشريف عبد المطلب في الطائف المعروف باسم الباطنة أشاد بكرة مزروعاته من أشجار التين وثماره الفاخرة وأشجار السفرجل والرمان التي لم تكن بأقل جودة من التين، وهناك أشجار الورد الجوري الذي تشتهر به الحجاز عامة(٤).

(١) دبييه، رحلة، ص ٢٤١.

(٢) دبييه، رحلة، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) دبييه، رحلة، ص ٢٤٧.

(٤) دبييه، رحلة، ص ٢٥٨.



أثنى ديدييه كثيراً على حسن استقبال أسرة شمس لهم في منزلهم الآخر الذين انتقلوا إليه بعد أن تركوا منزلهم الأساسي لديدييه ورفاقه؛ فقد بلغ الكرم والضيافة حداً بهذه الأسر جعلت ديدييه يعبر عن ذلك بأن القهوة والشراب والحلويات كانت تتابع دون انقطاع (١). وتتكرر مآدبة الطعام الغنية بالأصناف الدسمة مرة أخرى أمام ناظري ديدييه في بيت السيد حامد الذي توقفت القافلة عنده أثناء خروجها من الطائف للعودة إلى جدة حيث قدم لهم الشريف حامد في بيته الخروف المحشو بالأرز واللوز في وجبة العشاء، ولم يكن خروف الفطور والغداء أقل من وجبة العشاء الدسمة، هذا فضلاً عن أصناف الحلويات والمربيات و، كان مسك ختام الزيارة وجبة غنية بالأرز واللحم والتوابل (٢).

وبعد خروج ديدييه ورفاقه من الطائف باتجاه جدة استراحوا في قرية لقيم (٣) في منزل قاري الريفي وباتوا ليلتهم تلك بعد أن تناولوا خروف الضيافة، وعندما استيقظ وأطل برأسه من النافذة وقع ناظره على حديقة كبيرة تزينها أشجار البرتقال والليمون والرمان (٤). وعندما توقفت القافلة في وادي فاطمة (٥) أثناء عودتها من الطائف إلى جدة اصطحب الشريف حامد ديدييه إلى بستان عرفه باسم بستان (النص) أعجب ديدييه بجماله وخضرته وجريان مائه؛ وخاصة أشجار الموز التي استلقى ديدييه تحتها وتظل بأوراق أشجارها العريضة ثم

(١) ديدييه، رحلة، ص ٢٦٢.

(٢) ديدييه، رحلة، ص ٢٨٤.

(٣) لقيم : وادٍ زراعي تكثر فيه زراعة أشجار العنب والرمان والخضار وللأشراف العبدلة جُل ملك أراضي، وادي وعقب الطائف إذا تجاوز بلدة الطائف سمي لقيماً، فأعلاه لقيم الأعلى، وأسفله لقيم الأسفل. (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٧)، ص ٢٦٣.

(٤) ديدييه، رحلة، ص ٢٧١.

(٥) وادي فاطمة: مرّ الظهران وادٍ فحل من أكبر أودية الحجاز، يأخذ أعلى مساقط مياهه من السفوح الشرقية للسراة غرب الطائف، وله هناك روافد هما: نخلة الشامية ونخلة اليمانية ثم يجتمعان النخلتان فيسمي الوادي وادي الزيارة فإذا تعدى قرية أبي حصاني سمي وادي فاطمة، وفيه قرى عديدة منها الجموم وقصة الوادي وغيرهما، وبأسفله قرية حذاء بين مكة وجدة وبلدة بحرة، وتصب فيه أودية عظيمة مثل سرف وفخ، وسكانه أغلبهم من الأشراف مع فئات من حرب، ويسمى أيضاً بوادي الشريف نسبة للشريف أبانمي (٩٢٢-٩٣٢هـ/١٥٢٦-١٥٨٤م) الذي امتلك أغلب أراضي الوادي، أما تسميته بفاطمة نسبة لزوجته الشريف أو أمه الذي امتلكه، (البلادي، معجم معالم الحجاز، ج(٥)، ص ٤٧، ج(٨)، ص ١٠٠-١٠٢؛ وأبونهايم، البنو، ج(٢)، ص ٤٥١.



تتاول النارج داخل هذه الحديقة (١)، وكان وادي فاطمة من أشهر الأودية التي اشتهرت بزراعة أجود أنواع الفواكه والخضار (٢).

وعند توقف ديبويه في مقهى الرغامة أثناء عودته من الطائف بعد زيارة الشريف عبدالمطلب شرب لبناً لذيذاً منعشاً (٣).

وقيل أن يغادر ديبويه جدة نهائياً إلى مصر ومنها لفرنسا دعا عدد من رفاقه إلى طعام العشاء في سكنه المؤقت؛ وعلى رأسهم الشريف حامد والسيد كول والسيد دوكيه والأمير خالد بن سعود وتتاول الجميع طعام العشاء الذي أعده الطباخ غاسبارو، وشمل أصناف متعددة من الأطعمة غير الخروف المحشو الذي عُهد بطبخه إلى طباخ محلي مشهور في جدة بطمره في فرن محفور في الأرض (٤).

#### رابعاً : الأزياء والملابس (٥):

تعتبر الأزياء والملابس رمزاً لثقافة كل بلد وجزء من تراثه، وتتباين ألبسة الشعوب وأزيائها كل حسب ظروفه المناخية ووضعها المادي ووفرة المواد الخام التي تصنع منها، كما إن لكل فئة من فئات المجتمع زيها الخاص بها، وقد حوت صفحات كتاب رحلة ديبويه وصفا لتلك الملابس التي كان يرتديها أبناء مجتمع الحجاز.

#### (أ) لباس الرجال:

##### - لباس الأشراف:

أشار ديبويه إلى لباس شريف مكة عند زيارته له في الطائف فقد كان يرتدي ثوباً أزرق فاتحاً ويتوشح بوشاح كشميري ويضع خنجرًا مطلياً بالذهب ومرصعاً بالأحجار الكريمة اللامعة في خصره (٦).

أما عند قدوم شارل لتوديع الشريف عبدالمطلب عند مغادرته للطائف، فقد كان الشريف يرتدي عباءة خضراء كشميرية مزينة بسعفات حمراء (١).

(١) ديبويه، رحلة، ص ٢٨٠.

(٢) ديبويه، رحلة، ص ٢٧٩، ٢٨٠؛ القحطاني، الأوضاع الاقتصادية، ص ٨٠، وقد أشار إلى زراعة أشجار النخيل بوادي فاطمة والقمح والشعير والفواكه كالموز والليمون والنارج واللوز والجوز والسفرجل، وكذلك شجرة الحناء ذات الرائحة الجميلة التي تباع على الحجاج.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ٢٨٧.

(٤) ديبويه، رحلة، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

(٥) لمزيد من التفاصيل حول الملابس الحجازية يراجع: (النوسري، الملابس الحجازية، ص ٤٥-٨٩).

(٦) ديبويه، رحلة، ص ٢٤٨؛ البقاعي، قراءة في رحلة، ص ١٠٧.



وفي نهاية رحلة ديببيه من الطائف إلى جدة أكرم هو وأفراد قبيلة رئيس الجمالة بثوب أحمر لبسه على الفور من شدة فرحة به، كما تم تقديم وشاح كشميري للشريف حامد ثمنه ألفا قرش (٢).  
و حين عزم ديببيه ورفاقه مغادرة جدة إلى الطائف وكان ذلك في ٢٣ فبراير ١٨٥٤م كان يرافق الرحلة الشريف حامد بناء على أوامر من شريف مكة بتجهيز الهجن وعدد من الرجال ما بين ٥-٦ برئاسة الشريف حامد، وقد لفت ديببيه نظره لباس الشريف حامد الذي كان عبارة عن وشاح أبيض كبير يرتدي فوقه جبة أرجوانية اللون، وفي حزامه يطقان (٣) مزخرف، وكان حافياً هو ومن معه من الحراس (٤).

#### - لباس أبناء القبائل :

أفاض ديببيه في وصف لباس قبيلة جهينة التي كان أفرادها يمثلون الشريحة الأكبر في مجتمع ينبع رغم أن قبيلة جهينة تركت حياة البداوة واستقرت في المدينة، ولكنها حافظت على زيها التقليدي؛ فالجهني يرتدي ثوباً منسوجاً من الكتان (٥) أو الحرير ويخضع ذلك للمستوى المادي للفرد، ويشدُّ الخصر بحزام جلدي، ثم يلبس الجهني فوق ذلك الثوب عباءة بيضاء فضفاضة قصيرة الأكمال (٦).

ويغطي الرجل رأسه بكوفية (٧) مصنوعة من القطن المصبوغ باللون الأحمر وتوشى أطراف تلك الكوفية بالحرير الأصفر، ولها أطراف مزدانة بالأهداب تتلى على الكتفين ويثبت

(١) ديببيه، رحلة، ص ٢٦٣.

(٢) ديببيه، رحلة، ص ٢٨٩.

(٣) يطقان: لفظ تركي يطلق على الخنجر المقوس الذي يعلق على الخصر، (حلاق، المعجم الجامع، ص ٢٣٥).

(٤) ديببيه، رحلة، ص ٢١٥؛ آل زلفه، الطائف، صحيفة الجزيرة الالكترونية.

(٥) الكتان نبات برّي حولي مُعمّر من فصيلة الكتانيات من المحاصيل الزيتية موطنه شرق البحر الأبيض المتوسط والهند وأوروبا، أوراقه خضراء زاهية سنانية وتستخدم في صناعة الأقمشة والأوراق وشباك الصيد، كما يدخل الكتان في صناعة الصابون ومثبتات الشعر والأحبار الأجزاء المستخدمة منه هي الزيت والبنور وتتميز أزهاره باللون الأزرق وهو يستخدم للزينة، أما البنور فهي بنية اللون لامعة مستطيلة، (حاك، موسوعة النباتات، المعجم النباتي، ص ٢٠٤، ٢٠٥).

(٦) ديببيه، رحلة، ص ١٢٩؛ بوركهارت، ترحال، ج (٢)، ص ٢٠٩؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٦؛ محبت، ينبع، ص ٥٥٦؛ عبدالحميد، النشاط الاقتصادي، ص ٤١٨.

(٧) الكوفية: والجمع كوافي: منديل مربع يلبس فوق الرأس، طوله وعرضه ذراع واحد، تنتوع ألوان الكوفية ما بين الأحمر الداكن إلى الأخضر الزاهي ومن الأصفر كذلك الذي يكون مرقطاً أحياناً، وغالب الخامة التي تصنع منها الكوفية هو القطن غير أنه من الممكن أن يتجانس الحرير مع القطن فيشتركان في صناعتها، كما أن



على تلك الكوفية عقال مصنوع من صوف الإبل يُلف على الرأس عدة لفات، ويحمل هراوة مخفية (١)، وقد وجد دبييه أن الكوفية والعباءة ذات نفع وفائدة لمن ينتقل في ينبع فارتيدي كوفية تحت طريوشه الأحمر وعباءة لم يخلعهما إلا عند عودته للقاهرة (٢).

وحين توقفت قافلة دبييه في مقهى شداد لاستبدال الهجن بخمسة عشر بغلاً قدم عليهم عدد من أبناء القبائل المجاورة فوصف لباسهم؛ وهو عبارة عن ثياب زرقاء تُشدُّ حول الخصر بأحزمة من الجلد على هيئة ضفائر تلتف اثنتي عشرة أو خمسة عشرة لفة حول الجسد، وعليهم حمالات سيوف مزينة بصفائح صغيرة من الفضة ويضعون في أحزمتهم الجنبية، وتُغطِّي رؤوسهم الكوفيات الزرقاء التي وضع عليها العقال الأسود المصنوع من الشمع والزبدة والراتنج (٣)، وتزين حوافه الخارجية بعروق اللؤلؤ (٤).

وفي أعالي جبل الكرا حيث قدم لاستقبال دبييه ورفاقه اثنان من الأشراف أرسلهم الشريف عبد المطلب ومعهم قرابة الستين رجلاً من هذيل، وكانت ملابسهم تتشابه مع ما كان يرتديه البدو في مقهى شداد وهم مسلحون بالخنجر والرماح والبنادق ذات الفتيلة (٥).

وفي أسفل وادي جبل الكرا، كان هناك الأعراب المزارعون ينتشرون على الجبل يعملون على استخراج الماء لري أراضيهم أو سقي دوابهم، وعندما مرور القافلة بهم، تركوا أعمالهم وقدموا للسلام على الشريفين ورفاقهم؛ وهم يرتدون ثياباً قصيرة منسوجة من الكتان الخشن تاركين رؤوسهم حاسرة (٦).

كما يرتدي الرجال قمصاناً زرقاء اللون؛ فقد أفاض دبييه في وصف أبناء البادية الذين اصطفوا لتقديم التحايا للوفد المصاحب لدبييه عند دخولهم لقصر الشريف عبدالمطلب وكان

---

هناك نوع ثالث من الكوافي الحريزية المكفتة بالذهب، وهذا النوع من غطاء الرأس كان ينتشر قديماً بين سكان المدن ويلبسه الرجال خاصة، (بوزي، المعجم المفصل، ص ٣٤٦، ٣٤٥).

(١) دبييه، رحلة، ص ١٢٩؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٦.

(٢) دبييه، رحلة، ص ١٢٩؛ عبدالحميد، النشاط الاقتصادي، ص ٤١٨، حول الكوفية والعقال انظر: الدوسري، الملابس الحجازية، ص ٦٩.

(٣) الراتنج: أو الصمغ أو القفونة: مادة صلبة شديدة اللزوجة من أصل نباتي مثل اللبان والمصطكى أو حيواني كدم التتبن أو صناعي، غير بلورية يستخدم في صناعة الدهانات والمواد المانعة للتسرب وأحبار الطباعة، كما يدخل في صناعة بعض الأدوية والمسكنات. (غريال، الموسوعة العربية، ج (١)، ص ٨٥٠).

(٤) دبييه، رحلة، ص ٢٢٨.

(٥) دبييه، رحلة، ص ٢٣٣.

(٦) دبييه، رحلة، ص ٢٣٦، ٢٣٧.



عدهم يفوق الثلاثمائة، ولباسهم القمصان الزرقاء والوشاحات ذات اللون الأرجواني التي وضعت على الأكتاف، كما التف حول خصرتهم أحزمة من الجلد، أما حمائل سيوفهم، فقد زُيّنت بصفائح من الفضة وارتدوا عمائم مزينة بالأصداف، وقد شبههم شارل بعرب هذيل الذين شاهدتهم في جبل كرا، وكانوا جميعاً حفاة (١).

#### - لباس العسكر:

كانت كتابات ديبييه قد تناولت اللباس العسكري الذي كان يرتديه أفراد الحامية العسكرية في بلاد الحجاز، ففي ينبع لم يتجاوز وصفه للباس الجنود الأتراك عن كونهم يرتدون برانس بيضاء (٢)، أما في جدة، فقد كان لباس أفراد الحامية يتألف من سرّة حمراء مطرزة بالحريير، وسروال منتفخ معقود عند الركبة، وحزام عريض فيه خناجر ومسدسات (٣) وكان أحمد بيك من الهنود الذين جمعوا عدداً من المتطوعين في جدة يصل قرابة ألف رجل، وكان يرتدي برنساً أحمرًا ويضع في وسطه حزاماً قد امتلأ بترسانة كاملة من الأسلحة، ويطقانا (سيفا) تركياً محبباً (٤).

#### - لباس العامة

عند زيارة - ديبييه لجدة، تحدث عن لباس سكانها؛ فيرتدي الرجال لباساً داخلياً منسوجاً من الحرير ذي الألوان الجذابة، ويُشدُّ على الخصر بحزام كشميري ويرتدي العامة في العادة الثوب الكشميري الخشن، وعند الخروج من البيت يرتدي الرجال ثوباً صوفياً طويلاً مفتوحاً يعرف بالحبّة أو البُنْس (٥)، ويُغطي الرجل رأسه بطاقيّة بيضاء مزركشة يُلفُّ حولها عمامة من الموسلين (١).

(١) ديبييه، رحلة، ص ٢٤٥.

(٢) ديبييه، رحلة، ص ١٣١، والبُنْس أو البُنْسوس: كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة، ويرتدي عادة فوق الثوب الداخلي وخاصة في الشتاء ليقى من البرد، ويكون البرنس ضيقاً من الأعلى وواسعاً من الأسفل، وله هدبات مطرزة بالحريير، يُنسج من القطن والصوف، ويشاع ارتدائه لدى سكان المغرب العربي، وللبرنس فائدة كبيرة عند سقوط المطر بتغطية الرأس، (دوزي، المعجم المفصل، ص ٧٠-٧٣).

(٣) ديبييه، رحلة، ص ١٦٨.

(٤) ديبييه، رحلة، ص ١٧٢.

(٥) الجبة: رداء آخر مفتوح يوضع فوق الرداء الأول وهو القفطان، رداء الجبة قصيران بالنسبة لردني القفطان، ويرتدي الناس فوق الجبة إما بنشاً وأما فرجية وأما عباءة. وتلبس الجبة في مكة المكرمة - إذ ترتدي فوق البدن - وهي مصنوعة من الجوخ الخفيف - أو من نسيج الحرير الهندي، وفي أيام الحر اللاهية لا يرتديها الناس مطلقاً - ولكنهم يضعونها على الأكتاف، وترتدي النساء المترفات كذلك جبة من الجوخ ومن المخمل من

وعندما تحدث ديبويه عن أشهر تجار جدة أثناء زيارته لها وأكثرهم غنى؛ وهو التاجر الهندي فراج يوسف أشار إلى لباسه ولباس ابنه عبد القادر الذي كان عبارة عن ثوبٍ طويلٍ وعباءةٍ من الموسلين الأبيض من الحرير الهندي (٢).

ويظهر أن الرجال في بلاد الحجاز عرفوا الثياب ذات الألوان؛ فلما تحدث ديبويه عن أبناء الشريف عبدالمطلب ذكر أن أحد أبنائه كان يرتدي ثوباً حريراً ذا لون أصفر (٣)، كما وصف شارل لباس قائد السفينة المتجهة إلى جدة وكان اسمه خليل سلام فهو لم يكن يرتدي في البحر إلا قميصاً من القطن، ولكن عند النزول لليابسة كان يرتدي ثوباً جميلاً من الحرير يكسبه وجاهة (٤). وأثناء تجول ديبويه في سوق الطائف، كان مرتدياً زيّه الأوربي فيما عدا الطربوش، وارتدى فوق هذا الزي عباءة سوداء فضفاضة كان قد اشتراها من جدة (٥).

وعند مغادرة ديبويه ورفاقه الطائف، حصل ديبويه على هدية من الشريف؛ وهي عبارة عن عباءة بيضاء مصنوعة من الصوف البغدادي وموشاة بالذهب الخالص، وأما السيد بوكيه فكان نصيبه من تلك الهدايا عباءة سوداء، وحظي رفيق الرحلة البريطاني بقماش سرج موشى بالفضة (٦).

#### - لباس النساء:

رغم أن شارل ديبويه أشار إلى صعوبة وصف لباس نساء مجتمع الحجاز؛ لقلّة من رأى منهن، فقد أعطى وصفاً في رحلته للباس من شاهد من نساء جدة اللاتي كنّ يخرجن للتسوق وقضاء حاجتهن؛ متخفيات في ثوب من القطن الأزرق ومبرقعات (٧)، أما النساء الأخريات فيرتدين أثواباً من الحرير مزركشة منسوجة من حرير الهند وأسفل منها سرويل زرقاء واسعة مشغولة بالخيوط الفضية، وعندما يخرجن يغطين وجوههن بخمار أبيض أو أزرق، ويلتحن بثياب

---

الحرير، وهي مبطنة بالفراء شتاء- فهي حينئذ تأخذ اسم (فروة) وهي مفتوحة من الجهة الأمامية وواسعة سعة مفرطة بحيث يمكن طيها طيات عديدة حول الجسم. (دوزي، المعجم المفصل، ص ١٠٠-١٠٤).

(١) ديبويه، رحلة، ص ١٤٣؛ وللتوسع في لباس السكان في جدة يرجع إسماعيل، جدة، ص ١٤٥-١٤٨.

(٢) ديبويه، رحلة، ص ١٧٥؛ اليافي، جدة، ص ٤٥.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ٢٤٥.

(٤) ديبويه، رحلة، ص ١٣٣.

(٥) ديبويه، رحلة، ص ٢٤٤.

(٦) ديبويه، رحلة، ص ٢٦٦.

(٧) ديبويه، رحلة، ص ٤١؛ النوسري، الملابس الحجازية، ص ٧٦.



فضفاضة منسوجة من النقطة (١) السوداء وهو يشبه الحيرة عند المصريين (٢)، وللنساء الجداويات ولع باقتناء الذهب شأنهن شأن نساء الشرق عامة، ويحرصن على التزين بالعقود والأساور والأقراط والخواتين المتعددة ويرتدين الخلاخل الفضة في أرجلهن، كما يزين شعورهن بسلاسل من الذهب؛ وغالباً ما يكون ذلك في الحفلات والمناسبات (٣)، أما إذا كانت المرأة داخل بيتها فتكون ملابسها أبسط من ملابسها عند الخروج، وعبر ديبييه عن ذلك بقوله : "أما في بيوتهن فقد أُخبرت أنهن يتخفن من الثياب" (٤).

وإذا كان القارئ قبل ما ذكره ديبييه من أن نساء جدة يتخفن من ملابسهن داخل بيوتهن، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يتقبل وصفه للنساء بأنهن شبه عاريات وخاصة الجاريات منهن، ثم إن شارل لم يشاهد نساء البيوت بنفسه، وإنما وفقاً لما ذكره (أخبرت) فهو يعتمد على مشاهدات غيره وليس على ما وقعت عينه عليه فلا يحمل كلامه محمل الجد (٥).

ثم إن متابعة شارل لهذا الوصف للنساء المقيمت في البيوت بكشف الجزء العلوي من جسمها من خلال نظرتة إليهن من بعض النوافذ المفتوحة فيه من التساؤلات والاستقهامات، فقد أشار سابقاً إلى أن أغلب بيوتات جدة ذات نوافذ مغطاة بخشب مثقوب بحيث لا يسمح لمن خارج البيت بمشاهدة من بداخله حفاظاً على حريم البيت، فكيف يتسنى له هنا الحديث عن رؤية أولئك النساء من خلال النوافذ غير المحكمة بقوله: "وليس بالنادر أن تلمح في الأحياء التي نقل فيها الحركة عبر نوافذ لم يحكم إغلاقها سهواً أو عمداً النصف الأعلى للمرأة مكشوفاً تماماً" (٦).

وإذا سلمنا بأن تلك النوافذ لم تغلق فإنه ليس من السهل التسليم بأن النساء في بيوتهن يكشفن الجزء العلوي من أجسادهن لأسباب ومسلمات عدة قد تتعارض مع الشريعة الإسلامية، ومع عادات وتقاليد المجتمع العربي المسلم، وربما تكون حالة نادرة وقعت.

(١) النقطة : نوع من الأقمشة الثقيلة التي تتميز بلعانها وطبيعتها المتماسكة، (قماس النقطة موقع هي، <https://www.hiamag.com> استرجع بتاريخ ٢٥/١٢/١٤٤٠هـ - ٢٦/٨/٢٠١٩م.

(٢) ديبييه، رحلة ص ٤١؛ الونسوري، الملابس الحجازية، ص ٧٦، ٧٨.

(٣) ديبييه، رحلة، ص ١٤٤؛ الونسوري، الملابس الحجازية، ص ٨٤.

(٤) ديبييه، رحلة، ص ١٤٤.

(٥) ديبييه، رحلة، ص ١٤٤.

(٦) ديبييه، رحلة، ص ١٤٤.



وفي أثناء عودة ديبية والقافلة التي يسير معها من الطائف إلى جدة توقفت القافلة للاستراحة قرب قرية الزيمة، فأخذ الحليب يتدفق عليهم من نساء بدويات يرتدين أثواب قطنية زرقاء اللون، وفي هذا إشارة إلى أن نساء القبائل عرفن كذلك الثياب الملونة (١).

#### خامساً : العادات والتقاليد:

تمثل العادات والتقاليد موروثاً شعبياً لجميع شعوب الأرض يتناقلونه جيلاً بعد جيل، وتصبغ مجتمعاتهم بصبغة خاصة تحدد هويتهم وتجعلهم يتميزون عن غيرهم، وتتبع هذه العادات في الأفراح والأتراح والمناسبات والاحتفالات، ومن هذه العادات ما هو مستحسن ونافع؛ ولذلك تسعى المجتمعات لتأصيله والإبقاء عليه، ومنها ما هو مستهجن وضار لها، ولذا تسعى المجتمعات للقضاء عليه والتخلص منه. وحين تقوم ديبية للحجاز وصف بعضا من عادات سكانه، فكان من عادة أهالي ينبع وضع نقوش محفورة في الحوائط أعلى الأبواب اعتقاداً منهم أنها تدفع أذى العين، ولم يبد شارل غرايه لهذه العادة؛ إذ إنها لم تكن قاصرة على بلاد الشرق بل وجدت كذلك عند الغرب (٢).

تحدث ديبية عن سكان ينبع وأنهم كثيرو التطير (٣)، واستشهد بحادثة مرض الطاعون

(١) ديبية، رحلة، ص ٢٧٧.

(٢) ديبية، رحلة، ص ١٢٥.

(٣) التطير : هو التشاؤم بشيء مرئي أو مسموع، وهو عكس التفاؤل، وأصل التطير أن الناس كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير في خروجهم فإن رأى الرجل الطير طار جهة اليمين تقابل به، وإن رآه طار جهة اليسار تشاءم منه ورجع، ولما جاءت شريعة الإسلام أبطلت تلك العادة الجاهلية؛ لأنها شرك بالله وسوء ظن به ﷺ، وكان هدي النبي ﷺ في ذلك أنه يحب الفأل ويكره الطيرة وينهى عنها ويقول ﷺ : "إنها لاترد مسلماً، فإذا رأى أحكم ما يكره فلا يرجع عن حاجته فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك"، (ابن حجر، فتح الباري، ج (١٠)، ص ٢١٢-٢١٤؛ فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - <https://www.binbaz.org.sa> بتاريخ ١٢/٨/١٤٤٠هـ - ٩/٨/٢٠١٩م .

الذي انتشر في ينبع فكان الناس يطوفون بجمل في سائر أنحاء البلدة اعتقاداً منهم أن الوباء سيجمل عليه ثم يأخذون إلى مكان محدد ويذبحونه معتقدين بذلك أنهم يقضون على الوباء (١). أشار ديبويه أثناء زيارته إلى جدة إلى عادة تسمى عند أهالي الحجاز وهي بعادة المشالي؛ حيث يعمد الأهالي إلى تشريط وجنات أبنائهم بعد الولادة عندما يتمون أربعين يوماً إلى ثلاث شربات في كل وجنة، واثنين في كل صدغ تاركة أثرًا في وجوههم مدى الحياة، ويهدف الأهالي من هذه إيجاد هذه الندب الفائدة في وجه أبنائهم إلى تكوين علامات شرف وتوقير، كما إن بعض الأهالي كان يفعلها لتكون علامة فارقة لابنة في حالة ضياعه أو فقده، أو خوفًا عليه من السرقة (٢).

ومن عادات أهالي جدة التوجه إلى زيارة القبور في بعض أيام الأسبوع وخاصة يوم الجمعة للدعاء للموتى وتناول بعض الوجبات حتى النساء يفعلن ذلك (٣).

أما النرجلية، فقد اعتاد الرجال عليها وكانت على ثلاثة أنواع؛ الكبيرة منها تسمى الكدر؛ وهي مصنوعة من الفضة وتقوم على ثلاثة قوائم ولها أنبوب طويل يسمى اللي ويوضع فيه التبغ الشيرازي، والأصغر حجمًا منها تعرف بالشيشة، والنوع الثالث والأكثر انتشارًا فهي البوري؛ وهي عبارة عن جوزة هند مجوفة مملوءة بالماء، وتثبت فيها قصبه هوائية بدلاً من اللي ويستخدم لأنواع الثلاثة تنباك يأتي من بغداد والبصرة (٤).

وكان من عادة الداخلين إلى مجلس الشريف خلع الحذاء عند الدخول وهو ما فعله ديبويه ورفاقه عند دخول منزل الشريف في الطائف (٥).

كذلك من العادات والتقاليد أن لا يكون مع الشريف في المجلس عند دخول الضيوف إليه؛ إذ لا ينهض لأحد إلا السلطان، لذا يدخل بعد دخول الزائر حتى لا يستقبله جالساً محافظاً على أصول اللياقة ومحققاً بمكانته وهيئته (٦).

وقبل مغادرة ديبويه جدة وتوجهه إلى الطائف اجتمع مع الشريف حامد في بيت مصطفى أفندي وكيل الشريف عبد المطلب، وبعد تناولهم القهوة، قام خدم البيت بصب ماء الورد على

(١) ديبويه، رحلة، ص ١٣٠.

(٢) ديبويه، رحلة، ص ١٤٠.

(٣) ديبويه، رحلة، ص ١٤٨.

(٤) ديبويه، رحلة، ص ١٧٣.

(٥) ديبويه، رحلة، ص ٢٤٦.

(٦) ديبويه، رحلة، ص ٢٤٧.



أيديهم وثيابهم إكراماً لهم في نهاية الزيارة، وكانت هذه التقاليد المتبعة عند زيارة الضيوف لفرد من أفراد المجتمع (١).

#### سادساً : الاحتفالات والمناسبات:

عند وصول دبيبيه إلى ميناء ينبع شاهد مظهر من مظاهر الاحتفالات التي أقامها بعض الأطفال الصغار كان أحدهم يقوم بالقرع على الدربوكة (٢)، أما البقية فكانوا يرقصون متحلقين (٣).

وينقل شارل لوصف هذه الآلة التي تستخدم في الحفلات بأنها عبارة عن صحيفة مجوفة ذات شكل بيضاوي صنعت من الطين الخشن الذي غطي بقطعة من الجلد (٤). ولم يكن وجود هذه الدربوكة عند أطفال ينبع بالأمر المستغرب لديبيه إذ سبق وأن شاهد من يضرب عليها على متن أحد المراكب العائدة من القصير إلى ينبع (٥).

#### الخاتمة : كان خلاصة هذا البحث الوصول إلى النتائج الآتي نكرها:

- مثلت القبائل العربية القاعدة العريضة لهرم التركيبة السكانية للمجتمع الحجازي، وكانت الحرفة السائدة عند قبائل الحجاز الرعي، غير أن بعضاً منهم -ولاسيما أبناء القبائل الذين استقروا في المدن- عملوا بالزراعة، كما عمل من استقر منهم في المدن الساحلية بالملاحة والصيد، وقد أشار دبيبيه لأسماء بعض القبائل العربية خلال المناطق التي مرّ بها في بلاد الحجاز؛ ومنها : قبائل بلي وجهينة وزبيد وتقيف وعتيبة والهواجر، وأعطى وصفاً لجانب من تلك الأعمال التي يزولونها، والأطعمة والأشربة التي يتناولونها، والألبسة التي يرتونها.

- كان لخضوع بلاد الحجاز للحكم العثماني منذ عام ١٥١٧/هـ ٩٢٣م أثره في وجود بعض العناصر العثمانية في البلاد التي تولت مناصب الإدارة والقيادة في البلاد؛ مثل الباشا العثماني في جدة، ورجال الحاميات العسكرية، وموظفي الجمارك، وهم بدورهم شكلوا شريحة من شرائح المجتمع الحجازي.

(١) دبيبيه، رحلة، ص ٢١٦.

(٢) الدربوكة: آلة موسيقية تتكون من جسم من الفخار مشدود عليه قطعة من الجلد تصدر أصواتاً إيقاعية بنغمات مختلفة، (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، استرجع بتاريخ ٢٤/١/٢٠٢٠م - ١٤٤١هـ - ٢٣/٩/٢٠١٩م).

(٣) دبيبيه، رحلة، ص ١٢٦؛ الرفاعي، ينبع، ص ٢٩٧.

(٤) دبيبيه، رحلة، ص ١٢٦.

(٥) دبيبيه، رحلة، ص ١٢٦.

- شهدت بلاد الحجاز التمثيل الأجنبي للدول التي ربطتها علاقات ومصالح متبادلة مع الدولة العثمانية، وكان من نتائج تلك وجود سفراء وقناصل في جدة لتأكيد هذه العلاقات، وهو الأمر الذي تعرض له ديبيه في كتابه بالحديث عن القنصل الفرنسي والقنصل البريطاني، واللذين استدعى وجودهما وإقامتهما في جدة وقيامهما بالتمثيل الدبلوماسي لبلادهما ما كان يربطهما من علاقات سياسية واقتصادية خاصة أن مدينة جدة كانت تشهد وجوداً لعدد من رعايا الدولتين فيها لدواعٍ سياسية واقتصادية وغيرها.

- تشرفت بلاد الحجاز بوجود الحرمين الشريفين مما دفع بعدد كبير من المسلمين في كافة أنحاء الأرض للإقامة والمجاورة بها؛ فأصبحت موثلاً للأجناس والأعراق والألوان المتعددة، كما أثر بعض أرباب التجارة وطلاب العلم المجاورة بها، وقد سلط ديبيه في رحلته الضوء على فئات من العناصر البشرية التي قدمت إلى بلاد الحجاز واستقرت بها؛ ومنها الحضارمة والهنود والأفارقة والأتراك وغيرهم، كما قدم شارل صورة حية عن الأعمال والمناشط التي كانوا يقومون بها، وأبرز جانباً من أدوارهم التي لعبوها داخل المجتمع الحجازي؛ وعلى الأخص في ميادين التعاملات التجارية.

- لم يغفل ديبيه في رحلته الحديث عن فئة مهمة من فئات المجتمع الحجازي، وهي فئة النساء اللاتي كنَّ يمتلن النصف الآخر للمجتمع، ورغم إن شارل قدم تبييراً في كتابه عن قلة الحديث عن المرأة الحجازية لقلة من رآهن خارج البيوت وفي الأماكن العامة إلا إن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى بعض من أنواع اللباس والزينة التي كنَّ يرتدينها، ودورهن في إعداد الأطعمة، وخير مثال قومه لذلك نساء الشريف عبدالمطلب وجواريه في تجهيز موائد الطعام الغنية بالأصناف المتعددة.

- شكل العبيد والجواري قسماً لا يستهان به من شرائح المجتمع الحجازي؛ مما حدا بشارل لأن يلتفت إليهم بقلمه وقرطيسه؛ فتحدث عن الطرائق التي كانوا يجلبون بها من بلادهم إلى مدن الحجاز عبر السفن والقوارب، ثم أشار لكريم المعاملة التي كان يلقاها هؤلاء الخدم داخل بيوت أسيادهم معاملة تليق بكرامة الفرد وإنسانيته؛ ولاسيما الجاريات اللاتي كنَّ يحصلن في ظل هذا التعامل الراقي على الحرية من الرق بعد أن يتزوجها سيدها وينجب منها، مبرزاً دورهم في القيام بالخدمة ومعاونة أربابهم في شؤون الحياة اليومية، ورغم أن ديبيه لم يقدم إحصاء دقيقاً عن أعداد هؤلاء العبيد والجواري إلا إنه اتضح من خلال مقتطفاته في الحديث عنهم بأن أعدادهم ليست بالقليلة ولاسيما في بيوت الأشراف وكبار الأعيان الذين كانت قصورهم ودورهم تعج بالعشرات منهم.

- غلب على المسكن الحجازي والمرافق العامة بساطة البناء وبساطة الأتوات التي استخدمت في بنائه من الأخشاب والحجارة، غير أن بساطة البناء المعماري لمسكن الحجاز لم تمنع من وجود بعض المباني التي اصبغت بصبغة الفخامة مثل: قصور الأشراف وحصونهم، ولكن الظاهرة المعمارية والجمالية للمسكن الحجازي تمثلت في تلك الرواشين والمشربيات التي أتت وظائف وأدوار عدة تتفاوت بين الأتوار الجمالية بما حوته من زخارف ونقوش وأشكال هندسية، والوظائف الصحية بإدخال الضوء والشمس والهواء النقي لتلك الدور؛ ويسبق ذلك الدور المتلائم مع تعاليم الشريعة الإسلامية بحجب نساء تلك الدور من أن يراهن من بخارج الدور من غير المحارم.

- تخللت صفحات رحلة في رحاب الشريف الأكبر وصفاً لبعض المعالم العمرانية التي شاهدها صاحب الرحلة من المرافق العمرانية التي نزل بها وتوقف عندها أو مرَّ بها خلال سيره وتنقلاته ومنها: المساجد والأسوار والأسواق والمقاهي والبساتين والمزارع.

- تعددت المطاعم والمشارب التي كان يتناولها سكان بلاد الحجاز ، وقد غلب عليها الإنتاج المحلي من مشتقات الحيوانات مثل الأجبان والسمن والزبد واللحوم، أو ماتجود بعض الأراضي الزراعية في المناطق الخصبة من أصناف الفواكه والثمار مثل : النمر الذي أبدى ديبويه إعجابه به في ميناء ينبع، وكذلك الموز والبرتقال والنانج والتين والرمان التي جانت بها مزارع الطائف وبساتينها، ثم الأسماك الطازجة في المدن الساحلية؛ غير أن ذلك لم يمنع من دخول بعض أصناف الأطعمة إلى المائدة الحجازية كورق العنب والمشويات التي كان شارل يتلذذ بتذوقها على الموائد التي كانت تُعد له ولرفاقه في بيت الشريف عبدالمطلب وكبار الأعيان مثل : الشريف حامد والسيد محمد شمس الدين.

- تنوعت الألبسة والأزياء لسكان بلاد الحجاز، وكان لكل شريحة لباس خاص بها؛ كالقبائل والأشراف وكبار الأعيان وعمامة السكان والنساء، كما تنوعت الخامات التي كان يُنسج منها ذلك اللباس ما بين القطن والكتان والحريز، وكان للمستوى المادي دور في تحديد نوع اللباس الذي يرتديه السكان، ولعل الملفت للنظر في تلك الألبسة التي كان يرتديها العامة والخاصة أنها تتزين بألوان عدة منها الأزرق والأحمر والأخضر؛ فعند مقابلة ديبويه للشريف عبدالمطلب كان يرتدي ثوبا أزرق اللون، وحين قدم شارل لتوذيعة كان يرتدي عباءة خضراء، كما أهدى شارل رئيس الجمالة المرافق لهم ثوباً أحمر، وهو الأمر الذي يبرهن عن أن ألوان الزي للرجل كانت ذات ألوان عدة، وليس كما أصبح الوضع عليه في الوقت الحالي من غلبة اللون الأبيض على ملابس

الرجال في بلاد الحجاز، وأصبح اللباس المتعدد الألوان كنوع من أنواع التراث الشعبي، ولكن تلك الأثواب الملون بعد أن توارت بالحجاب عادت للظهور في السنوات الأخيرة في ظل مواكبة مظاهر التأنق في الزي واللباس وبخاصة عند فئة الشباب.

- أبدى أبناء المجتمع الحجازي حرصهم على ارتداء أغطية لرؤوسهم وقاية لهم من حرارة الشمس في الصيف، وبرودة الطقس في الشتاء، وكما غلب على ثياب الرجال بعض الألوان؛ فقد تزينت كوفياتهم وعمائمهم بالأصباغ الأرجوانية والحمراء والزرقاء؛ فأعراب جهينة كانوا يغطون رؤوسهم بالكوفيات القطنية الحمراء الموشاة بالحرير الأصفر، وحين توقفت قافلة شارل في مقهى شداد قدم عليهم أفراد من أبناء القبائل المجاورة وهم يغطون رؤوسهم بكوفيات زرقاء .

- لازم ارتداء أبناء الحجاز لملابسهم وثيابهم ارتداء الأحزمة التي تشد حول الخصر لوضع أسلحتهم الخاصة بها، وتشارك في الخاصة والعامة، فعند لقاء الشريف عبدالمطلب شارل كان يزين خاصرته بخنجر مطلي بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة، والشريف حامد الذي رافق شارل في سيره إلى الطائف كان في حزامه خنجر مزخرف، وأعراب مقهى شداد الذين قابلهم بيديه كانوا يضعون في أحزمتهم الجنيبة.

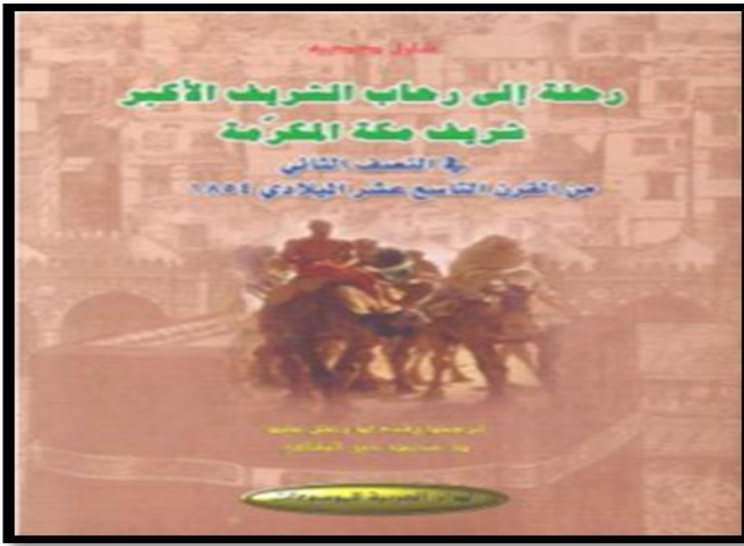
- كان لمجتمع الحجاز كغيره من المجتمعات عادات وتقاليد متوارثة أشار إليها بيديه في رحلته ومنها : عادة المشالي وعادات زيارة القبور والعادات المرتبطة بالدخول على الشريف.

- عبر أبناء مجتمع الحجاز عن احتفالاتهم بمظاهر عدة منها الغناء واستخدام بعض الآلات كالديوكة التي شاهد بيديه بعض أطفال ينبع يضربون عليها، وبعض ركاب السفينة التي أبحر عليها قادماً إلى الحجاز ينشدون بعض الأناشيد ويضربون عليها مما يدل على أنها كانت وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية وقضاء وقت من الترويح عن النفس.

## الملاحق



الرحالة الفرنسي شارل ديبييه (١)



صورة غلاف كتاب الرحلة (٢)

(١) <https://www.0ar.wikipedia.org> استرجع بتاريخ ١٤٤١/١/٢٠هـ.

(٢) <https://www.abjjad.com> استرجع بتاريخ ١٤٤١/١/٢٠هـ.





لبناء العمراني لبيوت جدة ويظهر فيها الرواشين كفن معماري أصيل (١)



المقاهي في بلاد الحجاز قديما (١)

### قائمة المصادر

#### - المصادر المطبوعة:

- ابن بشر، عثمان بن عبد الله ت ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج(٢)، ط(٤) الرياض دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن حجر، أحمد ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
- حليم بك، إبراهيم ت ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، تاريخ الدولة العثمانية (التحفة الحليمية)، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط(١) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الحنبلي، راشد علي بن جريس، ت ١٢٩٨هـ/١٩٧٨م، مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تحقيق: محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ط ١٤١٩هـ.
- دحلان، أحمد زيني ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، تاريخ أشرف الحجاز، تحقيق: محمد أمين توفيق، بيروت، دار الساقى، ط(١) ١٩٩٣م.
- رفعت باشا، إبراهيم ت ١٣٥٣هـ/١٩٥٤م، مرآة الحرمين، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط(١) ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م.
- الزركلي، خير الدين ت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط(١١) ١٩٩٥م، ٨ أجزاء .

#### المصادر المترجمة :

- بوركهارت، جون لويس ت ١٢٣٤هـ/١٨١٧م، ترحال في الجزيرة العربية، ترجمة وتقديم : صبري محمد حسن، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط(١) ٢٠٠٧م.
- تاميزييه، موريس ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، رحلة في بلاد العرب-الحجاز-، ترجمة وتعليق: محمد عبدالله آل زلفة، الرياض، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .
- جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة : خليل علي مراد، تقديم وتحقيق: عارف أحمد الغني، دمشق، دار نور حوران، ط ٢٠١٣م.



- ديبويه، شارل ت ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد خير البقاعي، الدار العربية للموسوعات.

- صبري باشا، أيوب ت ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م، مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق: أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، ط(١) ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- فيناتي، جيوفاني ت ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م، جيوفاني فيناتي حياته ومغامراته في جزيرة العرب في عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م، ترجمة: دار بلاد العرب للنشر، تقديم وتحرير ومراجعة: محمد عبدالله آل زلفة، الرياض، دار بلاد العرب، ط(١) ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

### - المراجع الحديثة:

- أحمد، مصطفى أحمد وحسام الدين إبراهيم عثمان، الموسوعة الجغرافية، القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ط(١) ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج(٤) المدن والموانئ.

- الأنصاري، ناجي محمد حسن، المسقاية من مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة، المدينة المنورة: نادي المدينة الأديبي، ط ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م، القاهرة، مكتبة الأجلو المصرية، ط ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- إسماعيل، صابرة مؤمن، جدة خلال الفترة ١٢٨٦-١٣٢٦هـ/١٨٦٩-١٨٠٩م دراسة تاريخية في المصادر المعاصرة، الرياض، دار الملك عبدالعزيز، ط ١٤١٨هـ.

- بكر، سيد عبدالمجيد، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، جدة، دار تهامة، ط (١) ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع.

• ج(١) ط(١) ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

• ج(٢) ط(١) ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

• ج(٤) ط(١) ١٤٠٠هـ/١٩٨١م.

• ج(٥) ط(١) ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

• ج(٦) ط(١) ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

• ج(٧) ط(١) ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

• ج(٩) ط(١) ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.



- الجاسر، حمد، معجم قبائل المملكة العربية السعودية، ط(١)، ١٤٠١ هـ.
- جريس، غيثان بن علي، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الطائف وأجزاء من الجنوب) ط(١) ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨م، ج(١٣).
- الجَمِيل، محمد بن فارس، الأُطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ، الكويت، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي حوليات كليات الآداب(١٧)، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الجوهي، خالد حسن سعيد، الحضارم في الحجاز ودورهم في الحياة العلمية والتجارية ١٢٥٦-١٣٣٧ هـ / ١٨٤٠-١٩١٨م دراسة تاريخية، الرياض، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها ط١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
- حايك، ميشال، موسوعة النباتات الطبيّة، مكتبة لبنان، ط(١) ١٩٩٦م، المعجم الثاني.
- حسين، عبدالله، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت.
- حلاق، حسان وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية - المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، بيروت، دار العلم للملايين، ط(١) ١٩٩٩م.
- الخالدي، داييل علي، الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣- ١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)، الرياض، إدارة الملك عبدالعزيز ط١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- الخطيب، مصطفى عبدالكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط(١) ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، دار الفكر، ط(١) ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م.
- أبو داود، عبدالرزاق سليمان أحمد ويلي صالح محمد زعزوع، جدة معطيات المكان وآفاق الزمان - الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط(١) ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م.
- الرويثي، محمد أحمد، الموانئ السعودية على البحر الأحمر دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، دار الواحة العربية، د.ت.
- زامبور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م



- السباعي، أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض، دار الملك عبدالعزيز، ط١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- ابن سرور، الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله، قبائل الطائف وأشرف الحجاز، ط(١) ١٤٠١هـ.
- السيف، عبدالله محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ط١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ، القاهرة، دار الفكر العربي، ط(٢).
- الشريف، عبدالرحمن، صادق، جغرافية المملكة العربية السعودية، ط١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج(٢) إقليم جنوب غرب المملكة.
- الشعفي، محمد بن سعيد، التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني ١٨٤٠-١٩١٦م، الرياض، ط(١) ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- صابان، سهيل، المعجم والموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- الطيب، محمد سليمان، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية تاريخية مج(٥) ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م، القاهرة، دار الفكر العربي.
- العجلاني، منير، تاريخ البلاد العربية السعودية، ع.د.ن، ط(٢) ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- العلي، صالح أحمد، الحجاز في صدر الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط(١) ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م.
- عمر، عمر عبدالعزيز، دراسات في تاريخ مصر الحديث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط١٩٨٣م.
- غريال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مصر: دار الجيل، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.
- الفايد، تنيض عواده، ينبع التاريخ - الألب - الحضارة، ط(١) ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤م .
- القحطاني، مناحي ضاوي حمود، تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، الطائف نادي الطائف الأبي، ط(٢) ١٤٠٧ هـ.
- القحطاني، حمد محمد، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (١٢٩٧-١٣٢٣ هـ / ١٨٨٠-١٩٠٥م)، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط(٢) ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٩م.
- اللحياني، فهد مرزوق، المدينة المنورة في عهد الملك عبد العزيز (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م إلى ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م)، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة، المدينة المنورة، ط ١٤٣٤هـ.
- المصري، حسين مجيب، معجم الدولة العثمانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.



- مُعَبَّر، الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي في مؤلفات غيثان بن جريس (ق٢-١٥هـ/ق٨-٢١م)، ط(١) ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨م، الجزء الأول.
- نواب، عواطف محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، الرياض، دار الملك عبدالعزيز، ط١٤٢٩ هـ.
- ياغي، إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، الرياض، مكتبة العبيكان، ط(١) ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م.
- اليافي، عدنان عبدالبيوع، جدة في شذرات الغزوي، حقوق الطبع للمؤلف، ط(١) ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠م.
- البيزدي، مها سعيد سعد، عوامل الهجرات السكانية إلى مكة المكرمة خلال العصر العثماني (٩٢٣-١٣٣٤هـ/١٥١٧-١٩١٧م)، الجوف، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ط١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- يوسف، عماد عبدالعزيز، الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦-١٩١٨م، بغداد، بيت الورق، ط٢٠١١م.
- **المراجع المترجمة:**
- أوبنهايم، ماكس فرايهر فون وآرش برونيلش وفرنر كاسكل، البدو، ترجمة: محمود كيبو، تحقيق وتقديم: ماجد شبر، لندن، دار الورق، ط(٢) ٢٠٠٧م، ج(٢) فلسطين-سنياء-الأردن-الحجاز.
- أوزونا، يلماز، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط(١) ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠م.
- نوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط(١) ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢م.
- شير، إدي، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، مكتبة لبنان، ط ١٩٨٠م.
- غوري، جيرالد دي، حكام مكة، ترجمة: رزق الله بطرس، بيروت، دار الورق، ط(٢) ٢٠١٢م.
- **الدوريات:**
- الأحمد، عبدالرحيم، ينبع مدينة الماضي الجميل والمستقبل المشرق، المجلة العربية، العدد الثامن، السنة الرابعة.
- البقاعي، محمد خير، قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: (إقامة في رحاب الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة) تأليف شارل ديبييه، الدرعية، السنة الثانية، العدد الثامن، شوال ١٤٢٠ هـ / فبراير ٢٠٠٠م، ص ص ٨٥-١١٠.



- جريس، غيثان بن علي، تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد (٨)، رجب - يناير ١٩٩٣م، ص ٤١١-٤٣٣.
- خطابي، صالح محمد، الأعمال الخشبية في العمارة التقليدية بمنطقة المدينة المنورة "الرواشين نموذجاً"، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد (٣٧)، ربيع الثاني - جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ / إبريل - يونيو ٢٠١١م، ص ١٥٥-١٩٨.
- الدوسري، نادية وليد، الملابس الحجازية وخطي الزينة والعطور في القرن ١٣هـ / ١٩م (دراسة تحليلية) مجلة الجمعية التاريخية السعودية العدد (١٤)، السنة السابعة، نو القعدة ١٤٢٧ هـ / يوليو ٢٠٠٦م، ص ٤٥-٨٩.
- الرفاعي، سعد بن سعيد، ينبع بين رحلتين "ق ١٣هـ / ق ١٩م" مجلة الأظام، المجلد (١٣)، العدد (٣٩) - (٤٠)، السنة ربيع الآخر - مارس ٢٠١١م، ص ٢٨٧-٣٠١.
- الزيدي، محمد بن منصور بن هاشم، قبائل الطائف، مجلة العرب، المجلد (١٤)، العدد (٢٠١) يوليو - شعبان ١٩٧٩م. ص ٤٢-٧٣.
- عامر، سعد، حكاية اسم "ينبع"، المجلة العربية، العدد ٣٤٥، السنة ٢٠ شوال ١٤٢٦ هـ / نوفمبر ٢٠٠٥م.
- كمال، محمد سعيد حسن، الطائف - فصل من كتاب الطائف جغرافيته تاريخه أنساب قبائله - مجلة العرب، مجلد (٤)، العدد (١)، رجب أكتوبر ١٩٦٩م.
- محبت، نهلة بنت شحات عمر .
- ينبع البحر كما وصفها رحالة غربيون في القرن التاسع عشر الميلادي - مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد (١٠) ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م. ص ٥٤١-٦١٧.
- رايغ ووصف الرحالة لها في العصر الحديث - مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد (٣٧)، السنة (١٩) ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨م، ص ٤١-١٠٨.
- المطوع، إقبال بنت عبدالعزيز عبدالله، إمارة المدينة المنورة في العهد العثماني الأول ٩٢٢-١٢٢٠ هـ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد (٢٨)، محرم - ربيع الأول ١٤٣٠ هـ / يناير - مارس ٢٠٠٩م، ص ٩٣ - ١٠٤.
- موفاكو، محمد، الألبانيون - عدة تسميات لأمة واحدة - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٦٣)، الجزء (٤)، تشرين الأول - صفر ١٩٨٨م، ص ٦٧٧-٦٨٤.



- مؤمنة، فؤاد بن محمد، الأهمية التاريخية والأثرية لمدينة جدة، مجلة الدرعية، العدد (١٣)، السنة الرابعة، محرم ١٤٢٢ هـ/أبريل ٢٠٠١م، ص ص ٢٢١-٢٣٣.
- النزوي، صالح مسعد، "ينبع النخل" بلد العيون والنخل، المجلة العربية، العدد ١٦٥، السنة ١٥ شوال ١٤١١ هـ/مايو ١٩٩١م.
- هيئة التحرير، في تاريخ القبائل العربية - قبيلة جهينة فروعها وبلادها - مجلة العرب، مج (١)، ع (٣)، كانون الأول - رمضان ١٩٦٦م، ص ٢١٧-٢٢٤.
- **المقالات الإلكترونية :**
- جدة التاريخية ثمانية أبواب تحمي حاراتها الثلاثة، جريدة الشرق الأوسط، الأحد ٢٥ رجب ١٤٢٥ هـ / ٢٥ مايو ٢٠١٤م، العدد ١٢٩٦٢.
- آل زلفة، محمد بن عبدالله، الطائف في كتب الرحالة الأوربيين - شارلز ديديه Charles Didier نموذجاً، صحيفة الجزيرة الإلكترونية، العدد ١٠١٨٥، السنة ربيع الثاني ١٤٢١ هـ / يوليو ٢٠٠٠م.
- فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن باز - يرحمه الله - <https://www.binbaz.org.sa>
- موسوعة وزبي وزبي، <http://www.wezwezi.com>
- ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
- بالصور قصر شيرا تاريخ عريق يميز مدينة الورود بجمال عمارته ومكانته، صحيفة المواطن الإلكترونية، ١٠/٧/٢٠١٥م، <http://www.almowaten.net> استرجع بتاريخ ١١/١٠/١٤٤١ هـ.
- **الندوات**
- عبدالحميد، أمال رمضان، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في ينبع في العهد العثماني من خلال كتب الرحالة ندوة ينبع عبر التاريخ كرسي الملك سلمان للدراسات تاريخ الجزيرة المدينة المنورة ٥-٦/٤/١٤٣٥ هـ، ط (١) ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦م، ص ص ٣٧٥ - ٤٥١.
- **الرسائل الجامعية:**
- البلاغ، هيفاء بنت يحيى عبيد، السياحة في محافظة ينبع : دراسة جغرافية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافيا - كلية التربية - جامعة طيبة، المدينة المنورة، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م.
- محبت، نهلة شحات عمر، الحياة الاجتماعية في ولاية الحجاز زمن الحكم العثماني في الفترة ما بين عامي (٩٢٣-١١٥٧ هـ / ١٥١٧-١٧٤٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات في المدينة المنورة، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م.





## محافظة القنفذة من كتاب الرحلة اليمانية

لشرف بن عبد المحسن البركاتي

مع التركيز على معركة عجلان الفاصلة

أ.د. أحمد بن عمر آل عقيل الزيلعي

أستاذ بكلية السياحة الآثار - جامعة الملك سعود

### مؤلف الرحلة والباعث على تأليفها:

هذه الرحلة من أشهر الرحلات في زمانها، ومؤلفها هو الشريف شرف بن عبدالمحسن بن حازم البركاتي نسبة إلى جدّه الشريف بركات الثالث بن الشريف محمد بن أبي نمي الثاني بن الشريف بركات الثاني بن محمد بن بركات الذي ينتهي به نسبه الشريف إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولد الشريف شرف في قرية أبي عروة بوادي فاطمة في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٤م، وعاش في كنف أبيه الشريف عبد المحسن الذي كان حينذاك - أميراً على وادي مَرّ الظهران، أو وادي فاطمة، وتلقى تعليمه على طريقة أهل زمانه في كُتّاب قريته الذي كان في مسجد جدّه الشريف حازم بن غالب بن حسين البركاتي، ثم في المسجد الحرام بمكة المشرفة، فضلاً عن أنه تلقى نفسه بنفسه من خلال مطالعته لكثير من الكتب المتخصصة في التاريخ والأدب، وهذا ما انعكس بوضوح على امتلاكه أسلوباً جميلاً، ولغة عربية سليمة يلحظها كل من يتتبع أسلوبه الذي صاغ به هذه الرحلة التي بين أيدينا.

كان الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي من كبار رجال الأشراف في عهد إمارة الشريف حسين بن علي (ت ١٣٥٠هـ/١٩٣١م) مكة المكرمة في أواخر العصر العثماني، وكان يوصف بجمال الخلق والخلق، وبأنه لطيف المعشر، حلو الحديث له عناية بالتاريخ والأدب، وبسعة الاطلاع فيهما.



وحيثما استقل الشريف حسين بن علي بملك الحجاز، عينه قائم مقام لإمارة مكة المكرمة في ١٠ محرم عام ١٣٣٥هـ/ ٥ نوفمبر سنة ١٩١٦م، وفي الوقت نفسه كان صاحب الترجمة يقضي بين الناس في قصر الإمارة بحضور بعض علماء مكة الشرعيين حتى تكون الأحكام التي يصدرها موافقة للشرع الشريف، وفي ٢٩ محرم سنة ١٣٣٧هـ/ ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م عين معتمداً للوكالة الهاشمية في القاهرة، ثم عين في عهد الشريف حسين أيضاً نائباً لوكالة الخارجية في ٢٠ رمضان عام ١٣٣٨هـ/ ٧ يونيو عام ١٩٢٠م. وبعد زوال دولة الأشراف عمل مؤلف الرحلة في عهد الملك عبد العزيز (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) رئيساً للمراقبة الإدارية التي تحولت إلى لجنة التحقيق والتفتيش سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، وتوفي رحمه الله في العام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م<sup>(١)</sup>. ويعدّ الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي من رجال الدولة الثقات في أثناء عمله في العهد بن الهاشمي والسعودي. وما سنديه من ملحوظات على نصّ الرحلة التي بين أيدينا، لا ينقص من مكانة الشريف شرف، ومصداقيته، ومقدرته العلمية، ولا من الأهمية البحثية والفائدة العلمية التي يجنيها كل من يطالع هذه الرحلة الرائدة في بابها، وإنما هي مراجعة علمية ومنهجية هدفها خدمة الدارسين والباحثين والمعرفة الإنسانية جمعاً. ومن واجب مؤلفها علينا أن نلتمس له العذر، فهو من رجال الشريف حسين بن علي الأفرينين، ويعدّ بمثابة مؤرخ رسمي، وما تقتضيه منه الرسمية من الرفع من معنويات عساكر الشريف، والعساكر التركية التي كان الشريف حسين يعمل - حينذاك - تحت رايته، وحرصه التام على كسب رضائهم من جهة، وتحقيق حلمه بملك الحجاز من جهة أخرى، وفضلاً عن ذلك فهو - أي مؤلف الرحلة - جديد على المنطقة، ولم يأت إليها باحثاً مدققاً، وإنما جاء إليها في مهمة حربية لعلّ هذه الرحلة كانت بمثابة تقرير رسمي عنها، ولا بدّ أن شيوخ القبائل وأعيانها الذين التقاهم لم يكونوا دقيقين في المعلومات التي استقاها منهم، إما جهلاً من جانبهم بالتقديرات، أو مبالغة في



الاعتداد بقباثلهم، وعدتّهم، وعتادهم، وهو ما أوقع المؤلف رحمه الله فيما نحن بصده من استدراقات نأمل أن تُحمل على مَحْمَل حسن النية، ومُقْتَضِيَات الأمانة العلمية. أما محافظة القنفذة، فهي من المحافظات المهمة التابعة لإمارة منطقة مكة المكرمة، وهي محافظة ساحلية تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ويحدها من الشمال محافظة الليث التابعة لإمارة مكة أيضاً، ومن الجنوب والجنوب الشرقي محافظة مَحَائِل التابعة لمنطقة عسير، ومن الشرق محافظة بَارِق، ثم محافظة المَجَارِدَة التابعتين لمنطقة عسير أيضاً، ومحافظة العُرُضِيَّات التابعة لمنطقة مكة المكرمة، ويستكمل الحدّ من الشرق والشمال الشرقي من منطقة الباحة ثلاث محافظات هي على التوالي: محافظة غَامِد الرُّنَاد، ومحافظة المَحْوَاة، ومحافظة قَلْوَة. ويحدها من الغرب البحر الأحمر.

كانت محافظة القنفذة في أثناء تلك الأحداث التي توثق لها الرحلة اليمانية تابعة لواء عسير، وبها قائم مقام تابع لمتصرف لواء عسير المقيم في أبها. وبعد زوال حكم الأتراك والأشراف أصبحت القنفذة إمارة برأسها، وتتبع مباشرة لوزارة الداخلية حتى انضمامها لإمارة منطقة مكة المكرمة في عام ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م. وبها حالياً تسعة مراكز إدارية موزعة توزيعاً جغرافياً على قطاعات المحافظة، وترتبط ارتباطاً مباشراً بمحافظ القنفذة الذي يرتبط بدوره بأمير منطقة مكة المكرمة.

أما الباعث على الرحلة، فهو قيام السيد محمد بن علي الإدريسي (ت ١٣٤١هـ/١٩٢٣م) بدعوته التي انطلقت من مسقط رأسه مدينة صَبِيَا المعروفة بمنطقة جازان الحالية<sup>(٢)</sup>، وموقف العثمانيين منها، ثم ما أفضت إليه تلك الدعوة من تكوين دولة استطاعت إجلاء الأتراك عن معظم منطقة جازان<sup>(٣)</sup>، وانتشرت دعوته ودولته في كل الاتجاهات لتصل إلى أحواز مكة القريبة منها شمالاً وشرقاً، وسيطرت على أغلب منطقة



عسير، وفرضت حصاراً على أبها حيث مقر المتصرف العثماني الذي كان - حينذاك - سليمان شفيق كمالي باشا (ت ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٦م)<sup>(٤)</sup>، فأوكلت السلطنة العثمانية التي كان على رأسها - حينذاك - محمد رشاد أو محمد الخامس (ت ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) مهمة فك الحصار عن أبها إلى أمير مكة من قبلها الشريف الحسين بن علي الذي خرج على رأس قوة من العُربان، تساندها عدة طوابير من العسكرية العثمانية النظامية على رأسها قادة عسكريون عثمانيون يحملون رتباً عسكرية سيأتي الحديث لاحقاً عن أسمائهم ورتبهم وعدد أفراد قواتهم<sup>(٥)</sup>

### السيد الإدريسي: ظهور دعوته وابتداء دولته:

تبدأ الرحلة اليمانية بمقدمة تحدث فيها مؤلفها عن نسب السيد الإدريسي بقوله: هو محمد بن علي بن العالم الجليل السيد أحمد بن إدريس (ت ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م)، صاحب الطريقة الأحمدية المشهور الذي أقام بمكة المكرمة برهة من الزمان، ثم انتجع منها إلى صَبِيَّا بمنطقة جازان، فطاب له المقام فيها حتى وفاته مخلفاً اثنين من الأبناء هما: عبد المتعال وعلي، اللذان كانا على منهج والدهما في التقوى والعلم والتصوف، فانتشر صيتهما حتى ملأ تهامة والحجاز على حد ما يذكر صاحب الرحلة. ثم تُوفي السيد علي، وترك عدة أبناء منهم كما يقول مؤلفنا: "زعيم الفتنة، ومُوجج نارها محمد بن علي الإدريسي"<sup>(٦)</sup>، ويقول عنه أيضاً: "تربى هذا الناكب عن جاده سلفه بصَبِيَّا، ثم قدم مكة عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م، وأقام بها عدة شهور، ثم قصد مصر لتلقي العلوم بالأزهر الشريف، وأقام بها ست سنين"<sup>(٧)</sup>، ويذكر أنه اختلط في مصر ببعض المفسدين الذين حسنوا له الثورة على الدولة العلية لكونها دولة إسلامية، وفي الرحلة كثير الاتهامات التي ربما كانت رائجة في ذلك الوقت، والرامية إلى إتهام الإدريسي بالشعوذة والسحر، والادعاء بأنه يُوحى إليه، وبأن له كرامات لا تجعل الرصاص يخترق



أنصاره، وأن رميهم لا يخطئ العدو مهما كان بعيداً عنهم، وأن من كراماته التي يمخرق بها على العوام أن الذئب يرعى مع الغنم دون أن يفترسها، وأن الزاني إذا ارتكب الزنا يلتصق بمن يزني بها، وأنه كان يستخدم صندوق كهرياء متصلاً بسلك إذا لمس شيوخ القبائل تختلج أعصابهم ، فإذا صاحوا مدد يا سيدنا أغثنا فصل السلك، وبطل ما كان يسببه لهم من خلجات الأعصاب، وخلاف ذلك من الادعاءات الباطلة التي قلما تخلو منها صفحة من صفحات الرحلة، وخصوصاً تلك المتعلقة بالمواجهة مع العساكر الإدريسية<sup>(٨)</sup>. كل هذه الخزعبلات التي تلصقها الرحلة اليمانية بالإدريسي لم نجد لها ما يسندها في كتابات مناوئيه، ومنهم الملك عبد الله بن الحسين (١٣٧٠هـ/١٩٥١م) ملك الأردن في مذكراته، ومتصرف عسير سليمان شفيق كمال باشا، ولا من قبل أوائل من كتب عن تاريخ المنطقة ممن عاشوا قريباً من تلك الأحداث ، وأفاضوا في الكتابة عنها، وعلى رأسهم محمد بن أحمد العقيلي (ت ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م)، ومحمد بن سعيد النعمي (ت ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م)، بل إن أشد خصوم الإدريسي وهو سليمان شفيق باشا الذي لم يذهب هذا المذهب من إتهام الإدريسي بادعاء خوارق الأمور، ولم يقبل بها بل نفاها عنه في أكثر من موقف منها في استطنبول في أثناء زيارته للصدر الأعظم ووزير الحربية والداخلية في الدولة العلية قائلاً للصدر الأعظم بالحرف الواحد: " إن ما احتوته ملفات الباب العالي من المعلومات عن عسير كلها من قبيل الأراجيف"<sup>(٩)</sup>. وحينما قدم إلى القنفذة، وعلم ممن قابلهم فيها أن الإدريسي رجل ناصح مرشد شفيق يدعو الناس إلى ما فيه خيرهم حسبة الله لا يطلب جزاءً ولا شكوراً، وأن القبائل عرفت ذلك فيه فوسطته للفصل فيما بينها من قضايا الدماء، وهو يصلح بين المختلفين برضى منهم، وينتزع ما في صدورهم من غلٍ، فأقبلت القبائل عليه في صبيا من كل حذب وصوب تبايعه وتنزل على حكمه"<sup>(١٠)</sup>. وحينما سمع المتصرف سليمان باشا ذلك القول ممن التقاهم في القنفذة علق عليه بقوله: " هذه حقيقة السحر الذي نسبوه



إلى السيد الإدريسي، وبذلك استمال الناس<sup>(١١)</sup> "أي السحر الحلال المتمثل في قوة الخطاب الذي كان يتمتع به السيد الإدريسي. كذلك تتبّه الإدريسي نفسه إلى ما يُحَاك ضده من الأقاويل المغرضة، والاتهام بالشعوذة وأدعاء المهديّة، وانتحال الكرامات والمعجزات فدافع عن نفسه في منشور طويل جاء فيه: " نحن بحمد الله مؤمنون من أهل السنة والجماعة نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونعمل على ما يوافق الشريعة المطهرة ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونجتهد في إزالة البدع الضارة " ويقول فيه ايضاً: " نحن لا ندعي شيئاً من الدعاوى المغرضة التي يمؤّه بها ذو الأوهام على عقول العوام، فلا ننتحل المهديّة كما يزعمون، ولا نشعوذ كما يفترّون، ولا نزعّم كشافاً ولا شيئاً من علم الغيب كما يشيعون (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) " (١٢)

وعلى الرغم من ذلك النفي، فإن صاحب الرحلة يعزو إلى ما يصفه بالخزعبلات التي كان الإدريسي يمؤّه بها على أنصاره هي التي مكنته من السيطرة على قطاع واسع من عسير وتهامة حتى وصلت سيطرته إلى أحواز مكة القريبة منها<sup>(١٣)</sup>. فكان لزاماً على الدولة العليّة إرسال هذه الحملة التي انطلقت من مكة المكرمة في يوم الأحد ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢٩هـ / الموافق ٢٥ إبريل سنة ١٩١١ م عند الساعة التاسعة نهاراً بالتوقيت الغربي، أي حوالي الساعة الثالثة عصرًا بالتوقيت الزوالي عبر الطريق المعروف تاريخياً باسم: الجادة السلطانية المعروفة بين مكة واليمن، وهذا الطريق يسلك مناطق عامرة بالسكان والأودية والزراعة والآبار والمحطات التي كان ينزل فيها الحجاج والتجار قبل معرفة السيارات، وتحوّل الطرق عنها يميناً وشمالاً بفعل ذلك.<sup>(١٤)</sup>

### خط سير الحملة الشريفة:

كانت أولى المحطات التي توافينا بها الرحلة اليمانية بعد الخروج من مكة المكرمة هي: البيضاء، ثم السعدية، ثم الخضراء، ثم الغالة، ثم الخرقان، ثم الكلابية بالليث مروراً بنجعة، فالشاقة الشامية (وادي حلية)، والشاقة اليمانية (وادي عليب) إلى وادي دوقة<sup>(١٥)</sup>. وهو أول محافظة القنفذة التي تبدأ حدودها قبل الدخول في هذا الوادي من الشمال، وتحديداً من محطة عسيبة الواقعة على الطريق الساحلي بين جدة وجازان، ومن هناك تبدأ المساحة التي تشغلها محافظة القنفذة، والأودية والمحطات التي تقع فيها، والتي يرد ذكرها تباعاً في الرحلة اليمانية، وأولها: وادي قرما، ووادي ناوان، فالأحسبة إلى وادي قنونا التي تقع مدينة القنفذة في ساحلها، لنتهي الرحلة بالشريف حسين وعساكره إلى التمرکز في مكان من الوادي نفسه اسمه: أم الجرم، على بعد ساعة إلى الشرق من القنفذة<sup>(١٦)</sup>. وتتضمن الرحلة وصفاً دقيقاً لمراحل الطريق، ولأسماء القبائل التي تنزل فيها، ولكون معظم هذه الأمكنة أسماء أودية، فقد تضمنت الرحلة وصفاً دقيقاً لتلك الأودية، والمحصولات الزراعية التي تجود فيها، والجبال الشرقية التي تستمد منها سيولها إلى أن تصب في البحر الأحمر، وهو وصف جيد، وتعدّ الرحلة مصدراً مهماً في هذا الجانب لتلك الأودية، وما فيها من حياة فطرية وبشرية<sup>(١٧)</sup>. وتتضمن الرحلة أسماء القبائل والمشايخ الذين كانوا يفدون إلى الشريف سامعين ومطعين للدولة العلية، ومعلنين التوبة والبراءة من الإدريسي الذي خدعهم وضللهم بدعايته المغرضة، ومعيّرين عن استعدادهم بسلاحهم وعتادتهم لمحاربتة تحت راية الدولة العلية التي يقودها أمير القبلة الشريف الحسين بن علي، ويورد البركاتي أرقاماً خيالية لتعداد القبائل التي وفد عليه بعض شيوخها سنتوقف عندها لتفنيدها خدمة للدارسين والباحثين الذين سيعتمدون عليها مصدراً لمعلوماتهم إن سمح لنا الوقت<sup>(١٨)</sup>. وتتضمن الرحلة كذلك وصفاً للقنفذة، ولتجارتها، وعادات أهلها، ومينائها، وأشكال منازلها، وما

فيها من المرافق الحكومية، وأسعار بعض السلع، وخصوصاً الحبوب وحتى الدجاج الذي يكثر وجوده فيها، ويبلغ ثمن الواحدة منه حوالي قرشين مصريين<sup>(١٩)</sup>، وبالجملة فوصفه للقنفذة لا يخلو من الفائدة لمن يرجع إلى هذه الرحلة من الدارسين والباحثين عن تلك الحقبة، وهذا ما يؤكد أهميتها بوصفها مصدرًا ومرجعًا مهمًا لأحداث زمانها.

### المواجهات العسكرية في نطاق محافظة القنفذة:

أما في مجال المواجهات مع طلائع العساكر الإدريسية المرابطة في وادي بيبة بمحافظة القنفذة والتي كانت تأتمر بأمر محمد بن خُرشان المقيم في بلدة مَحْشُوش بوادي حلي<sup>(٢٠)</sup>، فكانت أولى الخطوات التي اتخذها أمير الحملة الشريف الحسين بن علي هي توجيه النصح لمشايخ وادي بيبة، وهم: علي بن مديني، شيخ القوز، وبيطلي، شيخ بني يعلى، وأحمد بن خيرة، شيخ النواشرة، وكان ممن سعي بالوساطة بين المذكورين وبين الشريف حسين الشيخ حسن بن عوض الزبيدي، شيخ قبائل بني زيد بوادي قنونا الذي تقع فيه أم الجرم التي يربط فيها الشريف حسين بقواته، ولكن هؤلاء المشايخ لم يستجيبوا لتلك المساعي مظهرين استعدادهم التام للحرب، ويعلل البركاتي ذلك الرفض بقوله: " وذلك لاعتقادهم أن كل من خالف الإدريسي فهو كافر يجب قتله، كما أخبرهم بذلك عن طريق الوحي"<sup>(٢١)</sup> وحينما عاد الوفد إلى مقابلة الشريف أمرهم بالعودة إلى مشايخ وادي بيبة للوساطة، فلما قابلوهم مرة ثانية لم يظفروا منهم بطائل<sup>(٢٢)</sup>. فما كان أمام الشريف من خيار سوى المواجهة الحربية التي بدأت ببعث عدد من السرايا إلى مقر القوات الإدريسية بوادي بيبة، بدءاً من ليلة الاثنين ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩هـ / الموافق ٧ مايو ١٩١١م، ثم تلتها ثلاث سرايا أخرى آخرها وأهمها في ليلة الأربعاء ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩هـ / الموافق ١٦ مايو ١٩١١م، وكان على رأسها الأميران عبد الله وفيصل (ت ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م) نجلا الشريف الحسين بن علي نفسه، وهذه الوقعة استمرت أربع ساعات حقق فيها جيش الشريف انتصاراً ساحقاً على أعدائه<sup>(٢٣)</sup>. أما





المعركة الفاصلة، فكانت في حَبْتِ عَجَلان المعروف على بعد حوالي ١٣ كيلومترًا إلى الشمال الغربي من القوز بينها وبين القنفذة<sup>(٢٤)</sup>، وذلك في غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٢٩هـ/ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٩١١م بقيادة نَجَلِي الشريف الحسين بن علي وهما كما تقدّم: عبد الله وفيصل، وانتهت المعركة - طبقاً لما يورده صاحب الرحلة - بانتصار ساحق للقوات الغازية، وبسيطرة تامة على حَبْتِ عَجَلان، وتقهقر القوات الإدريسية إلى وادي بيّة، ويذكر البركاتي أيضاً أنه لم يُصَبْ أحد من القوات الغازية بأذى<sup>(٢٥)</sup>.

ويمضي البركاتي في الخبر عن تتبع الفارين جنوباً من معركة عجلان إلى وادي بيّة منذ فجر اليوم التالي، حيث هجمت عليهم القوات الشريفة والتركية وهم في تحصيناتهم التي أحكموها بين غابات الوادي " حتى ليخيل للرأي أنها شجرة واحدة" على حد قوله<sup>(٢٦)</sup>، ومع ذلك استطاعوا الانتصار عليهم، وكسروهم شرّ كسرة، وأجبروهم على الانسحاب نحو حَلِي. ويقول البركاتي أن هذه المعركة أسفرت عن مقتل ٦٠٠ قتيل من العساكر الإدريسية على حين إنه لم يذكر أن أحداً من قوات الطرف الآخر قد قتل<sup>(٢٧)</sup>. أما في عجلان، فيذكر صراحة أن أحداً منهم لم يُصَبْ بأذى كما قدمنا. والواقع، أن صاحب الرحلة يفتقر إلى أبسط قواعد الدقّة في إيراد أخبار السرايا والمعارك التي خاضتها قوات الدولة ضد العساكر الإدريسية، فهي عند البركاتي تغزو وتقتل وتغنم وتخوض معارك حامية دون أن يهزموا، أو أن يُقتل منهم أحد إلا في حدود ضيقة جداً، وكأنهم خُلقوا من طينة غير الطينة التي خلق منها خصومهم، مع أنهم لا يقلّون شجاعة وتضحية وصموداً عن أولئك الخصوم أن لم يتفوقوا عليهم. ولا نعدم الردّ على تَعْمِيّة الشريف البركاتي على الحقيقة الواضحة وضوح الشمس في كبد السماء؛ لأننا حينما نستعرض مذكرات الملك عبد الله التي يفرد فيها عدة صفحات للهزيمة الساحقة التي تعرضوا لها في أول مواجهة لهم مع أعدائهم في حَبْتِ عجلان تتضح الحقيقة التي تجرّعوا مرارتها، فهو يصف



جميع القوات التي تحت قيادته من نظامية وغير نظامية، وهي تنهزم أمام القوات الموالية للإيريسية لا تلوي على أثر، ويقول كُنَّا نراهم يهجمون "وليس أمامهم إلا زرع يُحصد" (٢٨) ويقول: " وبالنتيجة لم يسلم من الطوابير الثلاثة إلا سبعون نفرًا" (٢٩) ويقول أيضًا: " وصلنا القنفذة في اليوم الثاني بخسارة عظيمة، ولو كَرَّ الأدارسة ليلتها أو الليلة الثانية لقصوا على الجميع" (٣٠). وتحدّث عن هذه الهزيمة متصرف أبها سليمان شفيق باشا قائلاً بأن الشريف خاض معركة انكسرت فيها قواته، وغنم الثائرون كل ما معه من سلاح وموّن، وقال إنه لم يصدّق هذه الأخبار حينما وصلته لأول مرة حتى تلقى كتاباً رسمياً من قائم مقام القنفذة، وكان - حينذاك - تابعاً لعسير، يؤكد هذه الحقيقة (٣١)، ويفيد بمشاركة ابني الشريف حسين (عبد الله وفيصل) في هذه المعركة التي أبدّيا فيها شجاعة فائقة غير أنهما لم يخرجوا من المعركة إلا بعد أن جرّدهما الثوار من ثيابهما، فرجعا إلى القنفذة عريانين (٣٢)، ويصعب على المرء قبول هذا الخبر وتصديقه إلا إن يكون الثوار جردوهما من سلاحهما وما على رأسيهما من عمائم وعقل . ومهما يكن من أمر، فإن هذه الهزيمة أحرّت استئناف الحملة مدة أسبوعين في القنفذة حتى وصول قوات جديدة وعتاد جديد (٣٣)، فلما تكاملت الاستعدادات للحملة استأنف الشريف بعبانه والقوات العثمانية النظامية المواجهة العسكرية للمرة الثانية بقيادة الشريف زيد بن فواز والأمير ألابي نظيف بك (٣٤)، وزحفوا جنوباً بشرق إلى حيث ترابط العساكر الإيرانية، فواجهوا من جانبها بمقاومة شرسة لا تقلّ عن المواجهة السابقة، وكادت أن تحلّ بهم هزيمة أبشع من الأولى لولا تفوقهم بفعل المدفعية التي كنستهم كنساً كما يقول الملك عبد الله في مذكراته (٣٥)، وأيضاً نفاذ الذخيرة، من أيدي القوات الإيرانية مما اضطرهم إلى استخدام السلاح الأبيض، وشتان بين من يقاتل بالمدافع وبالسلاح الناري المزوّد بما يفوق الحاجة من الذخيرة وبين من يقاتل بالسلاح الأبيض، فانهمز المدافعون، وتراجع ابن خرشان إلى القحمة كما يذكر الملك عبد



الله<sup>(٣٦)</sup>. أما الخسائر في الأرواح في جانب القوات المهاجمة التي تجاهلها البركاتي في رحلته فيذكرها الملك عبد الله بقوله: " ثم قبيل المغرب، جاء التقرير الطبي إلى مقر القيادة بأن الوفيات اليوم في الجيش بلغت مائتين وثمانين نسمة ... وفي اليوم الثالث نزلت القوات إلى ثلثها، وأصبحت القوات المسلحة التركية بفعل القتل ومرض الكوليرا الذي انتشر بينهم في القوز ألفاً وسبعمائة نفر من سبعة آلاف، فأمر بالحركة نحو أبها، وكلما تقدمنا شرقاً تناقص المرض"<sup>(٣٧)</sup>

أما صاحب الرحلة فإنه لم يشر إلى انتشار الكوليرا بين العساكر في القوز ، ولم يشر إلى أي خسائر، كذلك لم يذكر شيئاً عن الاستعجال بالرحيل من القوز صوب أبها، بل على العكس من ذلك، حيث يفهم منه أنهم أمضوا في القوز حوالي ١٧ يوماً تحدث خلالها عن استقبالات لقبائل ومشايخ وفدوا على الشريف حسين<sup>(٣٨)</sup>، وعن نشاطات حربية استهدفت بحرًا موانئ البرك والوسم والشقيق، وبرا استهدفت وادي حلي، وإن كانت لم تتجاوزه جنوباً في تتبع فلول القوات الإدريسية، بل كانت مجرد سرية قوامها ١٠٠٠ مقاتل، انطلقت في صباح يوم الجمعة الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢٩هـ/ الموافق الأول من يونيو ١٩١١م، فعادت منتصرة بعد أن قتلت وغنمت الشيء الكثير من أهل وادي حلي دون أن تشير الرحلة كعادتها إلى أي خسائر لحقت بأفراد السرية<sup>(٣٩)</sup>. كما تذكر الرحلة أيضاً أنه في فترة توقّف الحملة في القوز وصل إلى ميناء القنفذة ذخائر حربية جديدة، كما وصل إليها القائد نشأت باشا ليكون قائداً عاماً لجميع العساكر النظامية، وكان ذلك بناءً على طلب الشريف حسين قبل أن يقدم إلى القوز<sup>(٤٠)</sup>.

وبعد أن تكامل وصول الذخيرة والمدد العسكري تحرك الشريف حسين من أم الجزم إلى القوز التي وصلها عند الساعة العاشرة غروبياً/ الرابعة زوالياً من عصر يوم الاثنين ٧ جمادى الآخرة/ الموافق ٤ يونيو ١٩١١م، وبصحبه من العساكر ٤٨٠٠ نسمة على حد ما يذكر



الشريف البركاتي<sup>(٤١)</sup>، ويذكر أيضا أنه في أثناء إقامة دولة الشريف بالقوز وفدت عليه القبائل التي حاربتَه بالأمس معلنة تويتها وندمها على ملاءمة الإدريسي في ثورته ضد الدولة العلية، ومبديّة استعدادها على نصرته، والذهاب تحت رايته في حربه ضد الإدريسي، وكذلك أبدوا تعهداتهم بدفع الزكاة الشرعية إلى القائمين عليها من قبل الدولة العلية، ومن أبرز الوافدين على دولته شيوخ حليّ وهم أحمد الصمّي، وابن الصغير، والشيخ عَجِي، يرافقهم مشايخ وادي بيّه وهم: علي بن مديني، وأحمد بن خيرة، والبيطلي<sup>(٤٢)</sup>، ويصف البركاتي قبائل وادي حلي ووادي بيّه بأنهم من أعظم قبائل تهامة في العدد والعدة، وأنهم مشهورون بالشجاعة، ويذكر أن الشريف حسين استقبلهم بالترحاب، ووعظهم، وعفا عنهم بعد أن تعهدوا له بالسمع والطاعة للدولة العلية كما تقدم. كما يصف هذين الواديين (بيّة وحليّ) بأنهما من أشهر الأودية في تهامة، ومن أكثرها خصبا وزراعة وغطاء نباتي، واتساعا في أطيانهما التي تُعدّ في نظره من أجود الأطيان، والتي يقدرها بسبعين ألف فدان بالنسبة لوادي بيّة، وبثلاثة أضعاف هذه المساحة بالنسبة لوادي حلي<sup>(٤٣)</sup>. وبعد إقامة امتدت لأكثر من عشرة أيام في القوز أمرهم الشريف حسين بالرحيل منها صوب أبها، فغادروها في الحادي والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢٩هـ/ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٩١١م، فكانت محطتهم الأولى بعد القوز في قرية مُشرف المظلة على وادي بيّة من الشمال<sup>(٤٤)</sup>، ثم منها في اليوم التالي إلى جمعة ربيّة الواقعة حاليّا بمحافظة بارق - منطقة عسير، وبها سوق معروف يقام كل يوم جمعة، ويقدر البركاتي أن عدد من يحضره من القبائل المجاورة للبيع والشراء عشرون ألفا، ولا يمسي المساء إلا وهم متفرقون كل إلى وطنه<sup>(٤٥)</sup>. وهذا التقدير في عدد الذين يحضرون سوق يوم الجمعة في يوم إقامته غير دقيق، لأنني حضرته شخصيا أكثر من مرة في مطلع شباني فوجدته من الأسواق المعتدلة في عدد المتسوقين إليه، ولا أظنهم يتجاوزون الألفين، بل إن أسواقا كبرى مشهورة في



تهامة منها في محافظة القنفذة: سوق الخميس في القَوَز، وسوق الأحد في كِيَاد بحلي، وسوق الأحد أيضًا بالمُطَيْف، وفي منطقة عسير: سوق السبت بمحائل، وربوع العَجْمَة ببارق، وسوق الاثنين بالأجاردة لا أظن أياً منها على كبره يصل عدد المتسوقين فيه إلى نصف هذا العدد<sup>(٤٦)</sup>

### المبالغة في تقديرات الأرقام:

بقي أمر آخر جدير بالإشارة وهو أن مؤلف هذه الرحلة عنده مشكلة في تقدير الأرقام، حيث إنه يبالغ فيها بدرجة لا يمكن أن يتصورها عقل. ولا نعرف ما إذا كانت هذه التقديرات من بنات أفكاره وحده أم إنها من مبالغت الرواة الذين تلقاها عنهم، ولا سيما شيوخ القبائل الذين عادة ما يبالغون في أعداد قبائلهم وعدتهم وعنادهم، وهذا ينطبق حتى على القسم الجغرافي من الرحلة الذي لا يدخل ضمن هذه الدراسة، وفيه من تقديرات الأرقام ما ينبغي أخذها بحذر شديد. ومن أمثلة تقديراته التي نوردتها هنا على سبيل المثال لا الحصر قوله إن قبائل زهران يزيدون على ١٥٠,٠٠٠ (مائة وخمسون ألف) مقاتل<sup>(٤٧)</sup>، ومع تسليمنا بكبر قبيلة زهران إلا إنها في ذلك الوقت لا تصل بسائر أفرادها رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى عشر هذا العدد، فما بالكم وهؤلاء (١٥٠,٠٠٠) من الرجال القادرين على حمل السلاح فقط !! ، فإذا قَرْنَا أن معدل الأسرة أربعة أشخاص، فذلك يعني أن عدد سكان قبيلة زهران حينذاك ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، أي أضعاف مضاعفة لعدد اليوم، بل أكثر من سكان منطقة الباحة في آخر تعداد للسكان بالمملكة، أي بعد أكثر من مائة عام، وهو ٤٠٠ ألف نسمة بمن فيهم قبائل غامد وزهران ومن ساكنهم من الفئات الأخرى بمن فيهم العمالة الأجنبية الذين يشكلون نسبة عالية من سكان المملكة العربية السعودية سوء أكانوا في الباحة أم في غيرها<sup>(٤٨)</sup>.

ومن التقديرات المبالغ فيها عند البركاتي قوله أن المقاتلين من قبيلة بني زيد يبلغون ١٢٥,٠٠٠ مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل<sup>(٤٩)</sup>، وهذا الرقم مبالغ فيه جداً؛ لأن محافظة القنفذة كلها في ذلك الوقت لا أعتقد أن تعداد سكانها بلغ هذا الرقم، فضلاً عن بني زيد الذين بلغ تعدادهم



مع القبائل الأخرى المخالطة لهم من أشرف وسادة وطوالبية وزيالعة حسب آخر إحصاء ١٦,٠٠٠ ( ستة عشر ألفاً ) ، وهذا الإحصاء يشمل النساء والرجال بمن فيهم الأطفال وكبار السن ، فلو أعملنا النسبة الطبيعية للأسر، فإننا نجد أن القادرين على حمل السلاح قد لا يتجاوزون ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ فرد، هذا في وقتنا الحاضر، فما بالكم بحال القبيلة قبل أكثر من مائة عام من الآن، وهذا قليل من كثير من تقديرات البركاتي الخاطئة والمبالغ فيها. وقد تأثر بتقديرات البركاتي بعض المؤرخين الذين جاءوا بعده، واقتفوا أثره، ومنهم المؤرخ اليمني عبد الواسع الواسعي في كتابه<sup>(٥٠)</sup>:  
**تاريخ اليمن المسمى: فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، فضلوا وأضلوا.**

يتضح مما تقدم أن هذه الرحلة من أقدم وأشهر الرحلات في زمانها التي خرجت من مكة المكرمة إلى أبيها مرواً بالقنفذة، ثم العودة إلى مكة عبر مرواً طريق آخر سروي نجدي مروراً بالطائف، وأنها تمثل وجهة نظر رسمية للجهة التي سار مؤلفها في ركابها بوصفه موظفاً رسمياً من موظفي أمير مكة ، ومن رجاله المقربين منه، ولهذا ينبغي أن تؤخذ معلوماتها عن الحملة بحذر شديد، ومع ذلك فهي لا تخلو من الفائدة والقيمة العلمية في وصفه للأودية التي قطعها، والمحطات التي توقّف فيها، وأسماء القبائل والمناهل والجبال التي اشتملت عليها، إلا إن الأرقام الواردة فيها والمتعلقة بإحصاء القبائل، والمراحل بين المدن والقرى والمناطق مبالغ فيها بدرجة كبيرة، ولن يخفى على القارئ الفاحص ملاحظة ذلك، خصوصاً أن تلك التقديرات ولا سيما في أعداد أفراد القبائل جرّت منذ أكثر من مائة عام في وقت كانت الجزيرة العربية كلها مخلخلة من السكان ، وأنهم تضاعفوا أضعافاً مضاعفة عن ذي قبل، خصوصاً في وقتنا الحاضر الذي يشهد طفرة سكانية؛ بسبب تقدم الطب واختراع الوسائل الصحية الحديثة.

### الهوامش والإحالات والمصادر والمراجع

(١) انظر ترجمة المؤلف في: البركاتي، الشريف فيصل بن شرف بن عبد المحسن، "الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي - صاحب الرحلة اليمانية" في

<http://www.al->

[amir.info/inf4/include/plugins/article/article.php?action=s&id=87](http://www.al-amir.info/inf4/include/plugins/article/article.php?action=s&id=87)

ولمزيد من المعلومات عن المترجم له، انظر الموقع نفسه للاطلاع على ترجمته الموسعة، والموثقة بقلم ابنه فيصل بن شرف بن عبد المحسن البركاتي كما تقدم.

(٢) صَيِّبًا: إحدى أهم مدن منطقة جازان في ماضيها وحاضرها، وهي تقع على الضفة الشمالية من وادي صَيِّبَا الشهير، وكانت في زمن الرحلة عاصمة لدولة السيد محمد بن علي الإدريسي المتوفي ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م وهي المذكورة في مطلع قصيدة زعيم صَيِّبَا في زمانه القاسم بن علي الشريف النروي ومنها:

مَنْ لَصَبَّ هَاجَهُ نَشْرُ الصَّبَا      لَمْ يَزِدْهُ الْبَيْنُ إِلَّا نَصَبًا  
وَأَسِيرٌ كُلَّمَا لَاحَ لَهُ      بَارِقُ الْقِبْلَةِ مِنْ صَيِّبَا صَبَا

العقيلي، محمد بن أحمد، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية - مقاطعة جازان (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ص ١٣٨-١٤٢.

(٣) عن إجلاء الأتراك عن منطقة جازان بعد معركة الحفائر التي وقعت في يوم الاثنين ١٠ جمادي الأولى عام ١٤٢٩هـ /الموافق ١٠مايو عام ٢٠٠٨م، وفيها انهزم الأتراك شر هزيمة انظر: شاكر، محمود، شبه الجزيرة العربية - عسير، (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ العقيلي، محمد بن أحمد، المخلاف السليماني، (القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م، ج٢، ص ٩٧-٩٨.



- (٤) أبها: مدينة سرّوية تقع في جنوب غرب المملكة العربية السعودية، وهي العاصمة الإدارية لمنطقة عسير، وقبل الحكم السعودي كانت مقرّاً للمتصرف العثماني، ثم عاصمة للأسر العسيريّة التي حكمتها. انظر: الحربي، علي إبراهيم ناصر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية - منطقة عسير، (أبها ١٤١٧-١٤١٨هـ) ج١، ص ٣٥ والصفحات التي بعدها؛ رفيع، محمد عمر، في ربوع عسير، (القاهرة: دار العهد الجديد للطباعة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص ٢٥-٦٢.
- (٥) عن العساكر التي كانت مع الشريف حسين انظر: ابن الحسين، عبد الله، مذكراتي ط١، (عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ٦٢-٦٣؛ العقيلي، محمد بن أحمد، مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، ط١، (أبها: النادي الأدبي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص ٧٢-٧٤، العارف، يوسف حسين، أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، ط١، (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص ١٠١-١٠٢.
- (٦) البركاتي، شرف بن عبد المحسن، الرحلة اليمانية للشريف حسين بن علي، (لندن: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، ٢٠٠٧م) ص ١٠.
- (٧) البركاتي، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (٨) البركاتي، المصدر نفسه، ص ١٤-١٥.
- (٩) العقيلي، مذكرات سليمان شفيق باشا، ص ٢٩.
- (١٠) العقيلي، المصدر نفسه، ص ٣٠.
- (١١) العقيلي، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- (١٢) العقيلي، المخلاف السليماني، ج٢، ص ١٥٦-١٦٦.
- (١٣) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ١٦.



(١٤) البركاتي، المصدر نفسه، ص ١٩. وعن هذا الطريق انظر: الزيلعي، أحمد بن عمر، مكة وعلاقتها الخارجية، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ١٠٢-١٠٣، وانظر أيضاً: البلادي، عاتق بن غيث، بين مكة واليمن (مكة: دار مكة للنشر والتوزيع ١٤١٠هـ / ١٩٨٤م) ص ١٠، ١٣ والصفحات التي بعدها.

(١٥) كل هذه المسميات معروفة بحسب الترتيب الذي أورده المؤلف، وهي مسميات لأودية وأمكنة معروفة ومأهولة حتى عصر الناس هذا، وتمتد من مكة المكرمة إلى أم الجُزم بوادي قنونا على مسافة تقدر بحوالي ٣٥٠ كيلومتراً.

(١٦) أم الجُزم: موقع ومورد ماء صالح للإقامة فيه من قبل العساكر، وقد سبق ذكره والإقامة فيه من قبل العساكر التركيّة التي غزت عسير وما حولها طبقاً لوثيقتين يوردهما عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن، وتحدّد الوثيقة الأولى منهما المسافة بين أم الجُزم وبين القنفذة بمسير ساعة، وهو تقدير مطابق للتقدير الذي يورده البركاتي. انظر: المؤلف نفسه، من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي، ج١، ص ١٠٠، ٤٠١.

(١٧) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٢٠-٢٦.

(١٨) البركاتي، المصدر نفسه والصفحات نفسها، من أبرز الشيوخ الذين وفدوا على الشريف حسين بن علي في أثناء مروره بديارهم هم: شيوخ الأشراف ذوي حسن، وهم سكان الواديين: حليّة أو الشاقة الشامية، وعُليب أو الشاقة اليمانية، ومن محافظة القنفذة وفد عليه الشيخ محمد بن مرزوق شيخ قبائل زُبيد بمركز المظلييف المعروف اليوم على بعد ٣٠٠ كيلومتراً إلى الجنوب من مكة المكرمة، والشيخ يحيى بن الدّعيس العجلاني، شيخ قبيلة العجاليين بمركز المظلييف أيضاً. انظر البركاتي، المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧.



(١٩) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١. والقنفذة إحدى مدن الساحل الغربي للمملكة العربية السعودية، وتبعد عن مكة إلى الجنوب بحوالي ٣٧٠ كيلومتراً، وهي المركز الإداري لمحافظة تسمى باسمها: محافظة القنفذة، وتتبع حالياً لإمارة منطقة مكة المكرمة، وفي زمن الرحلة كانت قائمقامية تابعة لمتصرفية عسير.

(٢٠) الفقيه، غازي بن أحمد، القوز تاريخ المكان وسيرة الإنسان، ط (١)، (الرياض: مطبعة الحميضي ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م)، ص ١٢٧، انظر الهامش، وعن مَحْشُوش انظر أيضاً: الزيلعي، أحمد بن عمر، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي" حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت (الكويت: جامعة الكويت، الحولية السابعة، الرسالة ٣٩، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، ص ٢٩، وما بعدها في صفحات متفرقة.

(٢١) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٣٣.

(٢٢) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢٣) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٣٤-٣٨. نَجَلًا الملك حسين المذكوران هنا هما: الملك فيصل بن الحسين ملك سوريا، ثم العراق بعد الاحتلال الفرنسي لسوريا، والملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن.

(٢٤) انظر: الفقيه، القوز، ص ١٣٠ في المتن والهامش.

(٢٥) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٢٩-٣٠، وانظر عن هذه المعركة أيضاً: الفقيه، القوز، ص ١٢٩-٣٠.

(٢٦) البركاتي، الرحلة اليمانية، ٤٠.

(٢٧) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٨) ابن الحسين، مذكراتي، ص ٦٣.

- (٢٩) ابن الحسين، المصدر نفسه، ص ٦٤.
- (٣٠) ابن الحسين، المصدر نفسه والصفحة نفسها. وانظر عن هذه المعركة والهزيمة التي حلت بالعساكر الشرفية والتركية، الفقيه، القوز، ص ١٣٢-١٣٣.
- (٣١) العقيلي، مذكرات سليمان شفيق باشا، ص ٧٣.
- (٣٢) ابن الحسين، المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ العارف، أضواء على مذكرات سليمان شفيق، ص ١٠٢.
- (٣٣) ابن الحسين، مذكراتي، ص ٦٤.
- (٣٤) ابن الحسين، المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (٣٥) المصدر نفسه، ٦٥-٦٨، وانظر أيضًا: العارف، أضواء على مذكرات سليمان شفيق، ص ١٠٢.
- (٣٦) ابن الحسين، المصدر نفسه، ص ٦٨.
- (٣٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (٣٨) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٣٨.
- (٣٩) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٤٥-٤٦.
- (٤٠) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٤٦.
- (٤١) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٤٧.
- (٤٢) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٤٧-٤٨.
- (٤٣) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٥٢.
- (٤٤) البركاتي، المصدر نفسه، ص ٥٣.



قرية مشرف وامتدادها شرقاً هي آخر حدود محافظة القنفذة من تلك الجهة، ويلبها من الشرق حدود قبائل ربيعة التابعين اليوم لمنطقة عسير. ويسكن قرية مشرف أسر من السادة الهاشميين، وبعض أفراد من قبيلة العمور المحادين لقرية مشرف من الشمال والغرب.

(٤٥) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٧٣.

(٤٦) كل هذه الأسواق الأسبوعية معروفة ومشهورة بمواقعها وبمعروضاتها التراثية وقد تردت عليها كلها منذ ما يقرب من ٥٠ عامًا، وهي لاتزال قائمة حتى عصر الناس هذا.

(٤٧) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٣٥-٣٦.

(٤٨) عدد سكان منطقة الباحة بما فيها سكان غامد وزهران في عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م (١٨٥.٩٠٥) نسمة حاضرة وبادية انظر: رجب، عمر الفاروق سيد " الخريطة السكانية للمملكة العربية السعودية "، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة الرابعة رجب ١٣٩٨هـ/ يونية، ١٩٧٨م، ص ٢١٠.

(٤٩) البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٣٢.

(٥٠) انظر الطبعة الثانية (الدار اليمانية للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ١١٣-١١٨.

**الأوضاع السياسية للمملكة المتوكلية اليمنية في كتابات رحلة أمين الريحاني  
عام ١٩٢٢ م "دراسة تحليلية"**

**د/ هويدا أحمد على أحمد**

دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب جامعة أسيوط

**ملخص اللغة العربية :**

يقدم أدب الرحلات لعلم التاريخ معلومات قيمة من قلب الحدث، فهو ينقل الحدث بواقعية وبكيفية حية، وإذا كان التاريخ يعمل على وصف واستقصاء حياة البلدان وتاريخها بمختلف مظاهرها (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية)، فإنّ الرّحلات أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية؛ لأن أدب الرحلة يجمع بين السرد والوصف وكأنّها رواية أو قصة طويلة، كما يتبع الرّحّالون الأسلوب العلمي في تدوين رحلاتهم، وبذلك يعكس لنا ما وصلوا إليه من علم غزير، وسعة فهم مع حرصهم على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأول .

تأتي أهمية كتابات الرّحالة أمين الريحاني في كونها أحد المصادر الأولية لدراسة تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، وقد وقع الاختيار على موضوع الأوضاع السياسية للمملكة المتوكلية اليمنية في كتابات رحلة أمين الريحاني عام ١٩٢٢ م "دراسة تحليلية"، من الجزء الأول من كتاب "ملوك العرب" رحلة في البلاد العربية مزينة برسوم وخرائط وفهرست أعلام؛ لأنّ الرّحالة أمين الريحاني دوّن الكثير من معلومات الحيوية عن اليمن التي لم تقتصر على الأوضاع السياسية فحسب بل تطرقت للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والدينية السائدة في اليمن؛ والتي شكلت قاعدة مهمة من المعلومات مكّنت المؤرخين والباحثين من خلالها من دراسة المجالات المختلفة لليمن من خلال مقارنة المادة الموجودة في الوثائق الرسمية وغير الرسمية، وما وفرته كتابات الرّحالة وأدب الرحلات التي تعتبر معيناً لا ينضب من المعلومات .

رصد الرحالة أمين الريحاني من خلال رحلته لليمن أوضاع السياسة الداخلية والخارجية للمملكة بعد أن تولى الإمام يحيى سلطة الإمامة الزيدية في الشمال اليمني، وكيف نجح في تزعم حركة المقاومة ضد الوجود العثماني، إلى أن لحقت الهزيمة بالدولة العثمانية، واضطرت إلى الانسحاب عن اليمن، وتسليم السلطة في صنعاء للإمام يحيى، كما تناول الريحاني سياسة الإمام تجاه سلطات الاحتلال البريطاني في الجنوب اليمني، والتي تأرجحت ما بين السلم أحياناً والاصطدام أحياناً أخرى.

كما تطرق الرحالة أمين الريحاني إلى أوضاع السياسة الداخلية للمملكة المتوكلية اليمنية، وكيف تسلّم الإمام سلطاته الدينية والسياسية تحت شعار تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، وبصفة تتسم بالمركزية القوية، ولكنها تبتعد كثيراً عن مفهوم الدولة المركزية القائمة على أسس حديثة، كما ذكر دور نظام الرهائن المحوري في عملية بسط السلطة المركزية للأمام يحيى وتثبيت دعائمها نتيجة لما أبدته القبائل في بداية الأمر من خضوع واستكانة تجاه تطبيقات هذا النظام، وقد أدت هذه السياسية إلى وقوع العديد من التمردات والانتفاضات التي عبرت عن الرفض لهذا النظام، الذي أخذ به الإمام يحيى منذ مبايعته بالإمامة عام ١٩٠٤م، وكيف مثل نظام الرهائن واحداً من أبرز مظاهر العنف السياسي للنظام الإمامي الملكي، كما تناول البنية القبلية للمجتمع اليمني وأثرها على الوضع السياسي في اليمن .

### Abstract

Travel literature provides valuable information from the heart of the event, conveying the event in a realistic and live way, and if history is to describe and survey the life and history of countries in their various manifestations (political, social, economic and cultural), the trips gave all this its proper dimension. I have discussed the analysis of aspects that were not discussed in the historical documents, because the journey literature combines narrative and description as a long story, and the journey is followed by the scientific method in writing their journeys, thus reflecting the great science they have reached. They are able to understand and make sure that their observations are written up in real time

The importance of the writings of the traveller Amin Al-Rihani comes as one of the primary sources for studying the recent and contemporary history of Yemen, and the subject of the political situations of the Yemeni Kingdom of Al-Mtokliyah was chosen in the writings of Amin Al-Rihani's trip in 1922 ad "an analytical study". The first part of the book "Arab Kings" is a trip in the Arab countries decorated with drawings, maps and flags; because the traveller Amin Al-Rihani did not have much vital information about Yemen, which was not only confined to the political situations but also dealt with the economic, social and religious aspects prevailing in Yemen; This was an important information base through which historians and researchers were able to study the various fields of Yemen by comparing the material in official and unofficial documents, and what the writings of travellers and travel literature that are considered to be inexhaustible from information provided .

The traveller Amin Al-Rihani observed through his trip to Yemen the internal and external political situations of the Kingdom after Imam Yahya took over the authority of the Imam Al-Zabdiya in the north of Yemen, and how he succeeded in leading the resistance movement against the Ottoman presence until the defeat of the Ottoman country and was forced to withdraw from Yemen. The handover of power in Sanaa to Imam Yahya, and Al-Rihani also dealt with the Imam's political policy toward the British occupation authorities in the south of Yemen, which sometimes oscillated between peace and sometimes clash.

The traveller also discussed the internal political situations of the Yemeni Kingdom of Matulia, how the Imam hands over his religious and political authorities under the slogan of applying the Islamic law, and in a way that is very centralized but far from the concept of the central state based on modern bases. He also mentioned the role of the main hostage system in the operation of extending the central authority forward Yahya and stabilizing its supporters as a result of the tribes' submission to the application of this system at the beginning, which led to the occurrence of many mutations and uprisings that expressed their refusal to this regime. He was taken by Imam Yahya since his beginning in the United Nations in 1904, and how he represented the hostage system is one of the most prominent manifestations of the political violence of the royal front system, as well as the tribal structure of Yemeni society and its effect on the political situation in Yemen



### المقدمة :

الرحلة مشتقة لغويًا من الارتحال وهي تعني الانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، مادياً كان ذلك الهدف أو معنوياً، أُلّف فيه الرحالة المسلمون في جميع العصور كتباً ما تزال متعة للقارئ، وشاهدًا حياً من شواهد الحضارات القديمة، ووثيقة تاريخية مهمة. إن هذا الفن من فنون الأدب العربي لم يظهر تحت مسمى أدب الرحلات، وإنما كان يظهر أحياناً تحت خانة " كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف" وهكذا، فإن هذه التسمية «أدب الرحلات» تسمية وليدة هذا العصر وما شاهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات لفنون وألوان المعرفة الأدبية الذي يسجل فيه الرحالة أو الكاتب وصفه لما شاهده في تجواله ورحلاته عبر قطر أو عدة أقطار زارها بقصد المشاهدة والاستطلاع، لذلك يُعدُّ أدب الرحلات من أهم المصادر التاريخية والجغرافية والاجتماعية؛ لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر.

### ولأدب الرحلة قيمتان:

- قيمة علمية فيما تحويه كتب الرحلات من معلومات تاريخية جغرافية و أنثروبولوجية.
- قيمة أدبية وتتجلى في كون الكثير من هذه الرحلات كتب بأسلوب أدبي رفيع، يتميز بالتصوير الحي، والوصف الدقيق، ومعالجة دقائق الحياة الاجتماعية، وتسجيل الانطباعات والمقارنات عن حياة الشعوب والحضارات.

### عند دراسة أدب الرحلات نجد اتجاهات مختلفة وفقاً لما تتضمنه كل رحلة فهناك :

- ١- رحلات ذات اتجاه ديني تستهدف وتحرص على لقاء العلماء والأدباء وأهل الفكر والرأي.
- ٢- رحلات ذات اتجاه تاريخي وحضاري وتستهدف تدوين الوقائع والإحداث التاريخية والاهتمام بالمعالم الحضارية كالأثار والمعابد والمتاحف والمساجد والكنائس والأماكن التاريخية، فيصفها وصفاً مطولاً.
- ٣- رحلات ذات اتجاه جغرافي هو وصف الأماكن من حيث موقعها الجغرافي وما تتسم به وفيم تتشابه، وفيم تختلف، وتأثير العوامل الطبيعية فيها، إن مفهوم أدب الرحلات .
- ٤- رحلات ذات اتجاه سياسي تستهدف الاتصال بالسلطان أو الحاكم.
- ٥- رحلات كتبت من أجل تدوين الرحلة.

وسوف نجد لرحلة أمين الريحاني إلى المملكة اليمنية المتوكلية عام ١٩٢٢ م مزيجا انصهرت فيها اتجاهات مختلفة لأدب الرحلة حاول الريحاني أن ينقل للقارئ الصورة كما شاهدها؛ ولأنه لم يستسغ تقديم الصورة مبتورة، فقد كان يحفها ويكملها بالتاريخ وأحداثه، وبالفلسفة وتأملاتها وبالشعر، فيجد القارئ جانبا كبيرا من تاريخ اليمن الحديث أيام الوجود العثماني والاحتلال الإنجليزي، ورصد تاريخي عن سياسة حكم الأئمة في اليمن خلال رحلته إلى هناك عام ١٩٢٢م، مازجا السياسة بالتاريخ بالجغرافيا بالعلوم والفلسفة، فعقد الريحاني المقارنات بين البلدان أو الأشخاص، ومن هنا كان استنباطه بأن "العظمة والمحسوبية في صنعاء أشد منها في الحجاز".

هذه هي إذن صورة اليمن في عيون الريحاني، وهو ما يحملنا على القول بأن ما كتبه الريحاني عن زيارته لليمن في عام ١٩٢٢م ضمن كتابه (ملوك العرب) الجزء الأول، يأتي مُتَقَرِّداً في بابه ورغم ما عليه من مؤاخذات، سيبطل جديراً بالقراءة والتأمل .

#### ١ - التعريف بالرحالة (أمين الريحاني):

أمين فارس أنطوان الريحاني أديب، ورحالة، وسياسي ومؤرخ، وصحفي ورسام كاريكاتير، ويعتبر أحد المفكرين ودعاة الإصلاح الاجتماعي مابين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الوطن العربي، ويلقب بفيلسوف الفريكة نسبة إلى بلده. ولد أمين الريحاني في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٧٦م في بلدة الفريكة من قرى منطقة المتن الشمالي في جبل لبنان، وهو من أسرة مارونية تعود بجنورها إلى قرية (بجة) في بلاد جبيل. انتقلت أسرته منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر إلى ضيعة (بيت شباب) في المتن، ومنها إلى (الشاوية) مع المطران باسيلوس عبد الأحد سعادة البجاني، الجد الثاني لوالد أمين، ويحكى أن منزل الأسرة هناك كان محاطا بشجر (الأس) أو الريحان فبات يعرف ببيت الريحاني. عمل والده فارس أنطوان الريحاني في تجارة الحرير ونمت عائلته حتى أصبحت تضم ستة أولاد لأم وهي أنيسة جفال طعمه من (القرنة الحمراء) كانت طفولة أمين مميزة بشقاوته بين الأصدقاء، فقد كان كثيرا ما يعود إلى المنزل بعد عراك مع رفاقه، أو بعد ملاسنة بسبب اللعب مع الأولاد في قرينته. (١)

(١) د. أحمد أبوحاقة: أمين الريحاني وأدب الرحلة، دار النشر معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٨، ص ص ١٢٠ - ١٢١.

التحق أمين الريحاني بالمرحلة الابتدائية على يد معلم القرية الذي تلقى على يده المهارات الأساسية في القراءة والكتابة بالعربية، ثم انتقل إلى مدرّسه نعوم مكرزل ليتعلم منه مبادئ الفرنسية إلى جانب القراءة العربية والحساب والجغرافية، عرف عنه خلال دراسته بذكائه وتفوقه على أقرانه<sup>(١)</sup>.

في صيف ١٨٨٨ م سافر أمين الريحاني إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع عمه عبده الريحاني ومعلمه نعوم مكرزل وكان قد بلغ من العمر اثني عشر عاماً، وفي العام ١٨٩٧ التحق بمعهد الحقوق في جامعة نيويورك، واستمر فيه لمدة عام وبعد أن شعر بالمرض، ذهب إلى أحد الأطباء فأشار عليه الطبيب بالعودة إلى لبنان<sup>(٢)</sup>. وظل الريحاني على مدى الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي يلقي المحاضرات ويشارك في الندوات في أرقى الجامعات الأميركية ومراكز أبحاثها وينشر المقالات في أهم الصحف والمجلات الأميركية.

### وفاة أمين الريحاني:

في ١٥ أغسطس عام ١٩٤٠، تعرض أمين الريحاني لحادث سقوط عن دراجة اعتاد أن يركبها على طرقات الجبل حول بلدته الفريكة، ودخل المستشفى وتوفي في ١٣ سبتمبر عام ١٩٤٠ وتُفن في بلدته وقد أُقيم له تمثالاً نُصب في باحة كلية الآداب في الجامعة اللبنانية.

### ٢- أسباب تأليف الكتاب:

كان الريحاني قد قام برحلات عديدة إلى فرنسا كصحفي يغطي أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) ثم سافر إلى إسبانيا وشاهد آثار الحضارة العربية فيها، كذلك سافر إلى المكسيك بطلب من سفير فرنسا للدعوة بين المغتربين العرب لتأييد الحلفاء، لكن حكومة المكسيك سرعان ما اضطرت إلى الرحيل، كما إنه في رحلته العربية كان يحمل

(١) حسن محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٩٨٩، ص ١٥-

١٦، حسنى محمود حسين (د): أدب الرحالة عند العرب، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،

بيروت، لبنان ١٩٨٣، ص ٦-١٢

(٢) د. أحمد أبوحاقة: مرجع سابق، بيروت ١٩٨٨، ص ١٢١-١٢٢.

خطابات توصية به إلى بعض السفراء الأميركيين، وقد ثارت مؤخرًا ضجة صحافية حول علاقته بوزارة الخارجية الأمريكية كل ذلك قبل رحلته التاريخية في الشرق العربي ولقد تنوعت كتابات الريحاني من الأدب والإصلاح الاجتماعي والدعوة إلى الحرية والإخاء الإنساني والتسامح والعدالة الاجتماعية والتعاون العربي البناء، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ م كانت فكرة الترحال في أنحاء البلاد العربية قد اختمرت في ذهن الريحاني لدراستها والتعريف أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمل على إقامة جسور التواصل السياسي والثقافي بين شعوبها. (١)

يقول الرحالة في مقدمته: "لله أنت أيتها البلاد العربية التي لم يشأ أن أجهلك حياتي كلها، فبعث إلى بعيد عنك إنكليزيا يعرفني إلى رسولك، وأميركيًا يصف لي محاسن أبنائك. بعد أن قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الأمريكية الفرنسية الإنكليزية شيء من الخيال الشرقي، فصرت أحلم بذاك المجد الماضي أحلامًا تمتلني حيا فيه، أو تمتله حيا أمامي. عدت إلى بلادي كئيبيًا يحمل كتابًا، ويرغب في أن يكون الكتاب مئة كتاب، وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير، فتغلغلت في سراديبها دون أن أرثي لحالي، وبيننا أنا أتخبط في دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر أنساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفًا في البصرة والكوفة . .... عدت من أميركا، استصحب صاحب اللزوميات، وكمن ترجمانه هناك فساقنتني المهنة إلى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية . فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الأرض دائمة (٢)، وصوروا الأرض بادية عربية .. . . كل هؤلاء الأجانب يسيحون في بلاد كانت قديما - ولا شك - بلاد أجدادي، وبخاطرون بأنفسهم فيها حبًا بالعلم؛ فيكشفون منه المخبأ ويجلون الصدا، ويقربون البعيد، ويعربون في اللذيذ المفيد.

(١) د. حسنى محمود حسين: مرجع سابق، ص ٦-٧، حسن محمد فهميم: مرجع سابق، ص ١٥-١٦.

(٢) أمين الريحاني: ملوك العرب، ج ١، دار الجيل بيروت، ١٩٨٧، ص ٦.

في نيتي رحلة إلى البادية، إلى البلاد العربية، على هجين يبعثني عن كل مظلمة، وعن كل عبودية.

رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب، أكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك، وأرسل أولاده الأمراء الأربعة إلى ساحات الوغى. وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين أول من صورته الآمال ملكاً يفتح أي بابها.

وبينا أنا أفكر في طريقة تحمل إليه أمنيته القصوى، جاءتني مجلة صديقي سليم سرقيس، وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة. وأهم من ذلك يومئذ خبر قرأته مدهوشاً مسروراً عن صديقي قسطنطين يني، الذي أبعدته عني الحرب العظمى وحرمتي أخباره. ف جاء العزيز سرقيس كأنه رسول العناية إليّ يبشرنى بوجوده في خدمة الملك حسين .

هللت وكبرت وتناولت القلم وكتبت تَوّاً إلى العزيز قسطنطين كتاباً فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال أولها : هل يأذن جلالة الملك بالزيارة ؟ وآخرها : هل ترافقتي أنت في هذه الرحلة ؟ وما مضى الشهر الأول ونصف الثاني حتى جاني الجواب وفيه ما يلي :<sup>(١)</sup>

"اتفق أن وصل كتابك إليّ وجلالة الملك حسين في جدة، فقرأته له كلمة كلمة، وتباحثنا في الموضوع، وهو يرحّب بك إذا حضرت . ولا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها، فهو يساعدك على زيارة الحجاز من أقصاه إلى أقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة إلى اليوم، ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوفٍ من جميع أبوابه . ومن رأيه أنك لو درست أخلاق قبائل الحجاز تكون قد درست أخلاق بقية القبائل؛ لأنهم كلهم منقاريون في العادات والمشارب. أما زيارتك الرياض وابن سعود، فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز. والسياسة توافق أن تكون في فصل الشتاء، ولا تستغرق أكثر من أربعة أشهر، ولو انتهت في بغداد. وإنني بكل سرور أرافقك حيث شئت .

(١) أمين الريحاني : مصدر سابق ، ص ص ٩ - ١١

.. في اليوم الخامس من شهر شباط ١٩٢٢ م ( ٨ رجب ١٣٤٠ هـ ) وطئت لأول مرة أرضاً في شبه الجزيرة العربية، وقابلت ملكاً ما عرف العرب غيره من ملوك العرب. جئت من نيويورك أزوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد، وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت إليها".

ويمضى في الحديث بعد ذلك عن الرحلة العربية الأولى التي كانت حلمًا فأضحت حقيقة، والتي أنتجت كتاب: " ملوك العرب"<sup>(١)</sup>.

"إني أشتهي أن تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً. ولكني أغار عليها من دسائس السياسة الأجنبية . وإنما السبيل القويم هو في اتحاد ملوك العرب وأمرائهم اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي".

كان الريحاني يحلم بأن يرى أمة عربية قوية موحدة، واختمرت الحلم في ذهنه أثناء سنوات تواجده في الولايات المتحدة الأمريكية ، ورأى الريحاني أن هناك إمكانية إعادة مجد أمة عربية لها تاريخ عريق، حيث قارن وضعها بالنهضة السياسية والاقتصادية التي قامت في الولايات المتحدة التي لم تكن تتكئ على تاريخ أميركي عريق، ولكن استطاعت بقوة إرادتهم ومواجهة كل أنواع التحديات على إقامة تطور حضاري، فكيف لا يحلم بإعادة مجد أمة عربية لها تاريخ عريق، ولها إسهامات كبيرة في بناء الحضارة الإنسانية، ولكن كيف يكون ذلك؟<sup>(٢)</sup>

هذا ما جعل الريحاني يشد حقائق الترحال تاركا الولايات المتحدة إحدى دول الحداثة والتطور ، ليعود إلى منطقتة العربية، ولكن الريحاني هاله ما شاهد عليه أحوال أمته العربية بعد انتهاء سنوات الحرب وما أعقبها من توقيع اتفاقية سايكس بيكو ١٦ مايو ١٩١٦م، هي اتفاق سري وقع بين كل من فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية، على اقتسام منطقة الهلال الخصيب (حوض نهري دجلة والفرات، والجزء الساحلي من بلاد الشام)

(١) أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ص ١٧ - ٢٠

(٢) جمال محمود حجر: الرحالة الغربيون في المشرق الاسلامي في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٨، ص ص ٩، ١٠

بين فرنسا وبريطانيا لتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد تهاوي الدولة العثمانية، المسيطرة على هذه المنطقة، في الحرب العالمية الأولى.<sup>(١)</sup>

هذا الوضع السياسي المتردي كان يسيطر على بلاد الشام موطنه الأصلي فلم يجد هناك من أمل أن يتحقق الحلم الذي كان ينشده، فتوجه صوب جهة جزيرة العربية، حيث كان تأثير القوى الأوروبية عليها أقل وضوحاً إذا استثنينا الوجود البريطاني في السواحل الشرقية للجزيرة العربية وكذلك سواحلها الجنوبية، حيث من هناك - أي في الجزيرة العربية - اندلعت الثورة العربية الكبرى، هي ثورة مسلحة ضد الدولة العثمانية، بدأت في الحجاز، حينما أطلق الشريف حسين طلقة واحدة من بندقيته، في التاسع من شعبان ١٣٣٤ هـ - ١٠ يونيو ١٩١٦م في مكة المكرمة وكان لدوي تلك الطلقة صدى في جدة والطائف والمدينة وامتدت الثورة ضد العثمانيين بعد إخراجهم من الحجاز حتى وصلت سوريا العثمانية، وإسقاط الحكم العثماني فيها، وفي العراق؛ وذلك نتيجة للسياسة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، والتطلعات القومية العربية والرغبة في بناء دولة عربية ناهضة، تنقل العرب من عصر الانحطاط والتخلف إلى الارتقاء الحضاري.

وظلت هناك ثلاثة أحداث سياسية تتعلق بموضوع الوحدة، أولها في قلب نجد حيث كان الملك عبد العزيز يعمل بجد على توحيد نجد وإخراجها من التشردم السياسي، وثاني هذه الوحدات السياسية في اليمن حيث كان هناك الإمام يحيى حميد الدين الذي أجبر القوات العثمانية على الانسحاب من اليمن بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م) ورغبة الإمام في توحيد الأراضي اليمنية من خلال إقناع القبائل باتباعه والقتال تحت رايته واجب ديني لرفع الظلم عنهم.<sup>(٢)</sup>

(١) Antonius, G: The Arab Awakening. The Story of the Arab National Movement. London: Hamish Hamilton Puplicer: xi,, (1938), p . 471

(٢) Hogarth, D. G.: "Great Britain and the Arabs up to the Armistice of the 30th October 1918", H. W. V. Temperley (ed.) A History of the Peace Conference of Paris: Vol. 6. London, British Institute of International Affairs (1926), pp. 118-183

وإضافة إلى هذين الكيانين السياسيين اللذين لم يكن لأي من الدول الأوروبية عليهما سيطرة توجد إمارة الإدريسي في جازان، وقد قام أمين الريحاني برحلة عظيمة هي أقرب إلى المغامرة في معظم أنحاء الجزيرة العربية يبحث عن أمل يبعث في الروح العربية يقظة، ومن المكان الذي منه انطلقت يقظة العرب وبرزت منه عظمة تاريخ العرب، فزار اليمن فلم يجد ما يسره، فالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هناك سيئة للغاية، ولا يوجد ما يبشر بالحد الأدنى من الأمل، حيث كان يعاني تحت حكم إمامي متخلف يعود في أفكاره إلى القرون الوسطى. ترك اليمن واتجه إلى " صيبا " عاصمة إمارة السيد الإدريسي، فلم يجد إلا سيدياً يدعي من القداصات والخرافات ما يذهل به عقول شعب جاهل يصدق كل خرافاته، فغادر جازان إلى الحجاز موطن الثورة العربية الكبرى، فوجد قائد الثورة الشريف الحسين يعيش أوهاماً، ومنتظر وعوداً من بريطانيا التي لم يكن واداً لديها منذ توقيع اتفاقات الحسين - كماهون ذات الوعود الكاذبة أن تقي بشيء منها، ووجد الحجاز حائرًا يتخبط لا يعرف لمستقبله السياسي أي بصيص من أمل. <sup>(١)</sup>

كانت المحطة الكبرى في رحلة أمين الريحاني في جزيرة العرب لقاءه بالملك عبد العزيز في ميناء القصير على ساحل الإحساء، والملك حينذاك يستقبل برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في منطقة الخليج والعراق وبلاد فارس، ذهل الريحاني وهو يقف أمام قامة عربية شامخة يفاوض بكل شجاعة وبكل إباء مع مندوب أكبر دولة في العالم حول قضايا حدود بلاده من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية وكذلك الشمالية الغربية، ويصر على أن حدود نجد تمتد إلى مشارف بغداد ومشارف عمان، وأنه صاحب الحق التاريخي في حكم كل

(١) Bowden, James L: An Empire of the Hejaz? An Examination of Sharif Hussein's Pre-World War I Imperial Ambitions. World History Bulletin, United States of America. ACADEMIC JOURNAL ARTICLE Vol XXXI (1), 2015. 4-7 & Hogarth, D. G op. cit, P ,pp. 118-183

، محمد عبد الجبار سلام: الأئمة ونظام الحكم ودور حركة المعارضة اليمنية، الملامح السياسية والفكرية والإعلامية، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، العدد ١٧، جامعة صنعاء، ١٩٩٤م، ص ٥٩٣.



سواحل الخليج العربي، أي شخصية عربية هذه يقف الريحاني أمامها وفي ساحتها؟ من هنا لمع في ذهن الريحاني العربي الحالم بأمة عربية بأنه وجد ضالته ووجد الأمل الذي يبحث عنه منذ تلك اللحظة التي غادر فيها نيويورك.<sup>(١)</sup>

لقد أراد الريحاني الترحال إلى مختلف البلاد العربية ليُفتح ملوكها بالوحدة العربية، بالأخذ بأسباب الحياة المدنية الحديثة والمعاصرة حتى يعم النفع والازدهار على الشعب العربية، وكان كتابه (ملوك العرب) حصيلة تلك المهمة التي اضطلع بها إلى الحجاز أولاً، ثم اليمن وعسير ونجد والعراق، ولعل المُتمعن في كتابه هذا سيد نفسه أمام شخصية فذة ذات ثقافة موسوعية وفكر متين وقلم رصين. ورغم أن الكتاب يحكي لقاءات الريحاني مع الملوك العرب ومحاولاته معهم من أجل لمّ صفّ الأمة العربية، إلاّ إنه أكثر من ذلك، فهو يعد وثيقة تاريخية وأدبية واجتماعية لا غنى عنها.

### ٣- التعريف بالكتاب:

تناول المؤلف أمين فارس الريحاني حياة تسعة من الملوك الذين زارهم وتعرف عليهم من قرب وهم في الجزء الأول الملك حسين بن علي، والإمام يحيى بن حميد الدين إمام المملكة اليمينية المتوكلية التي نحن بصدد الحديث عنها في البحث، والسيد الإدريسي حاكم عسير، وفي الجزء الثاني تناول فيه أيضاً جوانب من حياة الملك عبد العزيز آل سعود، وأحمد الجابر الصباح حاكم الكويت، والشيوخ خزعل خان حاكم عرستان، وآل خليفة حكام البحرين، والملك فيصل الأول ملك العراق.

ويعد كتاب ملوك العرب من أشهر كتب الريحاني وأوسعها انتشاراً، حيث ضم في مادته ترجمة لثمانية من ملوك العرب، وصدرت طبعته الأولى في بيروت ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م ويقع الكتاب في جزأين كبيرين يمتدان على ٩٦٠ صفحة، وزين المؤلف كتابه برسوم وخرائط وفهرست أعلام، وقد بلغت عدد طبعات "ملوك العرب" حوالي ١٢ طبعة، وبلغت الترجمات بنحو ستة عشرة ترجمة، وصل عدد المقالات المنشورة حول الكتاب إلى ١٢٧ مقالة في تسع لغات نُشرت في إحدى وعشرين دولة.

(١) د. هويدا أحمد على أحمد: الصراع الإقليمي والنولي على اليمن ١٩٦٢ - ١٩٧٠ م، رسالة ماجستير، قسم

التاريخ، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠١٢، ص ص ٢٠، ٢١

ورغم منع الكتاب عند صدوره من دخول بعض الدول العربية، فما لبث إلا والجامعات حول العالم تعتمد على لطلاب العلوم السياسية، والدراسات الشرق أوسطية، ومن هذه الجامعات: جامعة هامبورغ في ألمانيا، جامعة سان بطرسبرغ في روسيا، جامعة برنستون وجامعة إنديانا في الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من الجامعات العربية والعالمية.

#### ٤- منهج المؤلف:

يتناول الريحاني في كتاب ملوك العرب حياة سبعة من ملوك وأمرء العرب غير الملك حسين بن علي، وجميعهم ملوك وأمرء مع اختلافهم في الألقاب أحياناً، على أنهم مستقلون ولا يوجد أي رابط فيما بينهم ويجهلون بعضهم البعض، فضلاً عن مجموعة غنية من المعلومات و الأفكار والآراء الخاصة بالمنطقة العربية، بناء على الفكر المتعدد الحقول والرحب الآفاق، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأدبياً وفكرياً. (١)

اعتمد الريحاني على أسلوب السرد الذي يعد أداة للتعبير الإنساني، حيث يقوم بترجمة الأفعال والسلوكيات الإنسانية والأماكن إلى بني من المعاني بأسلوب السرد، وبذلك يكون الكاتب قد قام بتحويل المعلومة إلى كلام مع ترتيب الأحداث، ليس المقصود هنا الكلام غير المنتظم الذي لا يوجد فيه ترتيب للأحداث، أو ذلك الذي فيه انعدام للانسجام بين كلماته وجمله ومعانيه. وفي السرد تتلشى الحاجة لشرح أفكار أو لتلخيص المراد أو إعطاء مواظ، وذلك لأن السرد يظهر كل ما هو مراد. (٢)

نقل الريحاني للباحث بالتاريخ الحديث والمعاصر لليمن معلومات عن سياسة الإمام يحيى، والمجتمع اليمني وعاداته وتقاليده، ومُدققاً في السماسر والمقاهي، مُستطلعاً أحوال الأسعار، وإيجارات المنازل، مُستحضراً سلوك الناس ومقيل القات وطُقوسه، وطُرق التحية والسلام، ولُغة الخطاب والمراسلات، تلك اللُغة التي تكشف عن نوعية ثقافة المجتمع وعن طبيعة علاقة الحاكم بالمحكوم مُستنبطاً الفوارق السلوكية في المجتمع على أساس البيئة

(١) د.علي عفيفي على غازي: كتابات الرحالة مصدر تاريخي، المجلة العربية المملكة العربية السعودية، ١٤٣٩

هـ، ٢٠١٧، ص ص ٦٥ - ٦٨

(٢) د. أحمد أبو حاققة: المرجع سابق، ص ص ١١٩ - ١٢٠

ونوعية الثقافة، وعقد المقارنات بين البلدان أو الأشخاص، وتحدث عن تدهور أوضاع المنظومة العسكرية في عهد الإمام يحيى وتحدث عن تفاصيل الملابس التي يرتديها جندي الإمام، وكيف حرص على أن يظل هذا الوضع على ما هو عليه، خشية من أن يقوم بتطوير وإصلاح، ومن ثم يمثل مصدر تهديد لكيان الإمامة المتوكلية في اليمن<sup>(١)</sup>.

كما تطرق الرحالة بعد ذلك إلى سرد المعلومات القيمة عن أماكن لم يرتدها أحد من حكام ومواطني الدول العربية، وتجعلنا نرى بعيون الرحالة أمين الريحاني كيف كانت الحياة داخل المملكة اليمنية في ذلك الوقت، لإكمال الصورة العامة للعرض التاريخي عن السياسية الخارجية للإمام يحيى بصفة خاصة والمجتمع اليمني بصفة عامه خلال حقبة العشرينات من القرن العشرين، ومن ثم تكتسب رحلة أمين الريحاني إلى اليمن مكانة خاصة في المكتبة التاريخية؛ نظراً إلى ما تتضمنه من معلومات رصينة عن مختلف مجالات الحياة السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية، والحضارية، الثقافية والعلمية والطبيعية، وكان الريحاني يحاول رسم صورة واضحة المعالم عن المملكة اليمنية، كان حريصاً على أن يُنوع في مصادرها أو منابعها، فهو يستنتجها تارةً من خلال ملاحظاته ومُشاهداته، أو من خلال تدوين شهادات أشخاص، أو من خلال قراءاته وإطلاعه<sup>(٢)</sup>.

#### أحداث الرحلة مصدر تاريخي:

إن رحلة أمين الريحاني للمملكة اليمنية تعد مصدراً تاريخياً لأن كاتبها كان شاهد عيان في مواجهه الواقع الذي ساد، فعكست ما رآته عينه؛ وسمعتة أذنه، ولمسته يده، وكانت مرآه الزمن في اللحظة التاريخية التي زار فيها لليمن، والتقى فيها مع الإمام يحيى ودون لنا انطباعه عن الأوضاع السياسية الخارجية والداخلية لليمن، كما لمس عادات وتقاليد المجتمع، ولا يمكن أن يجد الباحث في الوثائق الرسمية ما يجده عند الرحالة من وصف جوانب المختلفة سواء سياسة أو اجتماعية أو اقتصادية وهذه الجوانب مجتمعة غائبة في كثير من الكتابات التاريخية.

(١) عبد الرحمن مجاهد : مجاهد حسن غالب والحركة الوطنية اليمنية، دار المستقبل للطباعة-دمشق، ١٩٩٦، ص ٣٧- ٣٨ .، محسن أحمد العيني: معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٥١.

(٢) د.علي عفيفي على غازي: مرجع سابق، ص ٧٣.

ومتى أخضعت كتابات الرحالة للنقد العلمي صارت منهجية وموضوعية؛ لأن المؤرخ والباحث يتجنب ذاتية الرحالة، ويستتبط من موضوعيته ما يفيد، ولعل أفضل ما يقدمه الرحالة لعلم التاريخ هو إمساكه باللحظة التاريخية وقت حدوثها لتبقى حية إلى أن تصل إلينا، فمع الرحالة، نستحضر الماضي حياً كما رآه بنفسه، وكما سجله بقلمه<sup>(١)</sup>

### أحداث الرحلة :

- وصول إلى جدة يوم الخامس والعشرين من شباط عام ١٩٢٢م
- اجتماع بالصدّيقين : قسطنطين يني وفؤاد الخطيب
- اجتماع بالملك حسين وإطلاعه على الغاية من الرحلة .
- سياحة في أرض الحجاز، وإطلاع على ما فيها طبيعةً وعمراًً وبشرًا، ومشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية وحضارية بصورة عامة
- تشاور مع الملك هدفه توطيد السلام بين أسياذ العرب وبرمجه تعاونهم في سبيل العمران والرقى والتطور والخروج من التخلف الذي تتخبط فيه البلاد . والنقطة الأولى في هذا المشروع عقد معاهدة ثنائية بين الملك حسين والإمام يحيى إمام اليمن لتكون تمهيداً لمعاهدة أوسع نطاقاً تشمل أسياذ الجزيرة العربية كلهم، فوافق الملك حسين شرط أن يعترف الإمام ملكاً على العرب.
- الرحلة إلى اليمن بعد الحصول على موافقة الإمام يحيى بدخول اليمن .
- قسطنطين يني يرافق الأمين في سفره .
- الوصول إلى عدن والخضوع لمعاملات بريطانية .
- نصيحة السلطات البريطانية للريحان ورفيقة بعزم السفر إلى صنعاء تلافياً للكثير من الأخطار .
- الريحاني يتحدى المخاطر ويقرر الذهاب إلى اليمن، لكنه ظل ينتظر جواب موافقة الإمام يحيى، وعندما جاء الجواب بالترحيب، شدّ رحاله وقال : وقبل انبلاج الفجر ركبنا سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة للحجية شمالاً، وعند الغروب وصلنا إلى قصر السلطان على بن مانع في المسيمير سلطان الحواشب، وبعد مقابلته تابعاً طريقهما إلى صنعاء "

(١) المرجع نفسه : ص ٤٨ - ٥٠ .

- بلوغ صنعاء عاصمة اليمن في الثامن عشر من نيسان عام ١٩٢٢م بعد مسيرة أسبوعين كاملين مغمورة بالمشقات .
- استقبال الإمام يحيى للزائرين بحفاوة بالغة، واستفهامه عن سبب زيارتهما لليمن .
- اطمئنانه إليهما وإلى حسن نيتهما ورغبتهما في خدمة العرب جميعاً لتوحيد كلمتهم.
- إقامة الريحاني وصديقة في اليمن وسياحتهما في ربوعه واطلاعهما على أحواله
- توثيق العلاقة بين الريحاني والإمام يحيى، والتشاور في الأمور السياسية والاقتصادية والعلاقات الدولية. وحث الريحاني للإمام على التفاهم مع الإنجليز وعهد معاهدات صداقة وتعاون مع الملك حسين وابن سعود بغية الاستقرار السياسي للمنطقة ومن ثم النهوض الاقتصادية واجتماعيه بالدول العربية.

### يقول الريحاني:

- "إني أشتهي أن تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً، ولكني أغار عليها من سانس السياسية الأجنبية، وإنما السبيل القويم هو في اتحاد ملوك العرب وأمرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ولا يجحف باستقلالهم المركزي التاريخي " كما حاول اقناعه بفتح البلاد للتجارة الأجنبية ونشر الثقافة والصناعة والعلوم الحديثة فيها .ولقد رضي الإمام بعقد معاهده ولائية مع الحجاز كتبها الريحاني بنفسه وأرسل نسخه منها إلى الملك حسين .
- جمع المعلومات عن بلاد اليمن (طبيعتها - مواردها - عادات أهلها ومستوى رقيهم الاجتماعي وتأثير الإمام وحكمه).

- يقول الريحاني: " من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء أنه يمكن طالب العلم من الدرس والاستقصاء والاكتشاف، كنا في طريقنا من أحج إلى صنعاء سوئلاً مجسماً، سوئلاً حياً متحركاً إذا أن لنا بالاستعارة، وحسبنا في الأماكن أن نقف ساكتين صابرين، فيجئنا صاحب الإمام مادحاً، ويجئنا عدو الإمام قادحاً، فضلاً عن الفلاحين والجنود، وقد عضهم البؤس والفقر .يجيئوننا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من معلومات. فوصلنا إلى صنعاء وعندما خيرات من أخبار اليمن والزيود ."
- إقامة طويلة في اليمن وإعجاب متبادل بين الريحاني والإمام يحيى .
  - انتهت إقامة الريحاني في اليمن باستئذان الرحالة وانتقاله إلى زيارة السيد الإبريسي في الحديدة

- عرض مشروع معاهدة رباعية بين الإدريسي والإمام يحيى والملك حسين وابن سعود ناشداً السلام والتعاون. (١)

#### - النقد التاريخي لكتابات الرحالة:

أولاً : أراد الرحالة أمين الريحاني من خلال رحلته إلى المملكة اليمينية المتوكلية المنعزلة عن العالم إقناع إمامها الإمام يحيى بن حميد الدين بنقل البلاد من عصور التخلف والجهل والظلام التي كان يعيشها إلى عالم التطور والنهضة والرقى والتقدم والعلوم الحديثة فيها، ولقد وافق الإمام بعقد معاهدة ولأثية مع الحجاز كتبها الريحاني بنفسه وأرسل نسخه منها إلى الملك حسين .

ثانياً: جمع المعلومات عن المملكة اليمينية سياسة الإمام الخارجية والداخلية وطبيعتها - مواردها - عادات أهلها - ومستوى الطبقات الاجتماعية.

تشكّلت لدي الريحاني صورة ذهنية واضحة المعالم بعد مقابلته لأحد مواطني اليمن في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية واصفاً بلاده قائلاً : "بلاننا طيبة الهواء والماء، لكن أهلها دائماً في احتراب فقلت، ومن تحاربون؟ فأجاب:، حاربنا الأتراك، وحاربنا القبائل، وحاربنا الإدريسي، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً".... ثم سألته ما إذا كان من أجنب في اليمن، فقال : لا، وإنه لا يؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالإقامة هناك". - وإذا جاعكم الأجنبي؟ - والله نذبحه. - وإذا ساح مُتتكرًا؟ - إذا عرفناه، فوالله نذبحه. - أو ما يؤذن للسوري وهو عربيّ متلكم؟ - إذا كان مسيحياً فهو والفرنجي سواء عند أهل اليمن، وقد يحميه لسانه أو يُصرف النظر عنه." (٢)

فقد كانت المملكة اليمينية المتوكلية تحت حكم الإمام يحيى محمد حميد الدين محمد المتوكل (١٩٠٤م - ١٩٤٨م) هو مؤسس المملكة المتوكلية اليمينية، حيث أجبر الأتراك على الاعتراف به إماماً مستقلاً على شمال اليمن في العام ١٩١١ م بعد حروب متواصلة ضد العثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى تخلصت المناطق الشمالية لليمن من التأثير التركي

(١) أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ٧٧ - ٨٠.

(٢) أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ٧٧ - ٧٨.

نهائيًا، وتعرض حكم الإمام لعدة تحديات أبرزها "الثورات الفكرية" وانتهج الإمام سياسية انعزالية خوفًا من امتدادها إلى اليمن. (١)

فعاثت المملكة من العزلة التامة عن العالم و الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تلك الأوضاع المتردية والتي أكدتها التحذيرات المتعددة التي تلقاها الريحاني من أصدقائه ومعارفه الأمريكيين وسلطات الاحتلال البريطاني في الجنوب اليمني، التي كانت ترى السفر إلى اليمن يمثل خطورة على حياته ولا تضمن له سلامه الرجوع إلى وطنه، بل هو - حسب تعبير صديق الريحاني، نعوم شقير: "مُستحيل". (٢)

رغم إن كل الشواهد والأحاديث عن اليمن كانت غير مشجعه على القيام برحلته إلى هناك، إلا إنه كان لديه إرادة وعزيمة قوية شجعته في القيام برحلته فوصل إلى عدن في مارس عام ١٩٢٢م ببيلته الإفرنجية وشاله وعقاله بصحبة "قسطنطين يني" (\*) ومن عدن صعد الريحاني، مرورًا بلحج إلى المسيمير، وصولاً إلى ماوية، أولى معاقل النفوذ الأمامي، ومنها إلى إب وبريم وعمار وصولاً إلى صنعاء دار الإمامة التي غادرها يوم رحل إلى مناخة وحرارز وباجل، مُستقرًا في الحديدة، ومُنطلقًا منها إلى شمالي تهامة في جيزان، حيثُ معقل الإدريسي، ومُرتدًا منها إلى الحديدة، فعدن ولحج، ودون الريحاني كل ما رآه أو سمعه أو قرأه، في كل تلك المدن والقرى والمناطق التي مر بها.

(١) حسن أحمد أبو طالب: الصراع بين شطري اليمن جنوره وتطورات، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١٨، محمد على الشهاري: نظرة على بعض قضايا الثورة اليمنية، مكتبة مديولى، ط ١، القاهرة، ١٩٩٠، ص ص ٢٨-٣٩.

(٢) زيد المحبشي وآخرون: اليمن ودول الخليج العربي، دراسة تحليلية توثيقية لعلاقات اليمن مع المملكة العربية السعودية، سلطنة عمان، دولة قطر، الإمارات العربية المتحدة، مملكة البحرين، دولة الكويت، علاقات اليمن مع مجلس التعاون لدول الخليج، مركز البحوث والمعلومات، وكالة الأنباء اليمنية سبأ، صنعاء، سبتمبر، ٢٠٠٥م، ص ٢٧٠، عبد الواسع بن يحيى الواسع اليمني: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوالت وتاريخ اليمن، منشورات مكتبة اليمن الكبرى للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، صنعاء، ١٩٩١م، ص ٢٩٨.

(\*) صديق الريحاني وابن بلنته كان حمل جواز سفر حجازي، وعمل في بلاط الملك حسين مُلازمًا في الجيش.

(\*) صديق الريحاني وابن بلنته كان حمل جواز سفر حجازي، وعمل في بلاط الملك حسين مُلازمًا في الجيش.

استهل الرحالة أمين الريحاني في القسم الثاني من الجزء الأول لكتاب ملوك العرب بالحديث عن الموقع الجغرافي لليمن فضلاً عن أهم ألبوته ومساحته ومدنه وقبائله ومذاهبه فنكر ما يلي: "حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الأحمر إلى تعز فماويه فقطعبه. شمالاً خط يمر من بلاد خولان وبني بشر إلى نجران. غرباً البحر الأحمر من الشيخ سعيد إلى ميدي وشرقاً البحر السافي أو الربع الخالي.

**الوبته :** لواء صنعاء ولواء الحديد ولواء تعز ولواء صعيده

**عدد سكانه:** نحو مليوني نفس ونص المليون

**مساحته:** نحو أربعين ألف ميل مربع

**أهم قبائله:** حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو إسلام وبنو

مطر والمكارنة.

**أهم مدنه :** صنعاء ونمار وبريم وإب وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخة .

**مذاهبه :** الزيدية والإسماعيلية والسنة (شوافع) واليهود<sup>(١)</sup>

### الأوضاع السياسية الداخلية:

تتاول الريحاني الحديث عن الأوضاع السياسية الداخلية ونظام حكم الإمامة المتوكلية، وطبقات المجتمع المختلفة وتنوع العادات والتقاليد، حدد الرحالة مواقع المدن وتناول أهم ما يميزها واصفاً ما تشتمل عليه المدن و البيوت من معمار وأشكال وأقسام وغرف، مُدعِّمةً بوقائع التاريخ أو عادات السكان، وتطرق إلى الطابع الإنساني فهو تحدث عن أهل اليمن وتمسكهم بمدنهم وبقراهم وما يتميزون به من دفاء وعواطف، بالإضافة إلى ذلك صور الريحاني الطبيعة الجغرافية للمكان بكل مظاهرها من الوديان والجبال والسهول والأشجار والنباتات والمزارع ، مُلتمساً في تنوين ذلك قالباً أدبياً ولغةً جميلةً فيها الشّعريُّ الرقراق، والسردى المتميز .

لقد حرص الرحالة أمين الريحاني في التدوين على استعمال ألفاظ اللهجة المحليّة والتعليق عليها وشرح بعض المفردات اليمنية، وأدى ذلك إلى وقعه في بعض أخطاء نُطقية وإملائية في أسماء الأماكن أو الأشياء، فمثلاً كان يُسمّي جبل «نُقم» : «لُقم»، ووادي «نُبن»

(١) أمين الريحاني: مصدر سابق ، ص ٧٦ .



: «دُبْن»، وجبل «عَصْر»: «عُصْر» - بضم العين والصاد - و«الزلط»: «الظلط»، والدُّخْن: «الدُّخَان» وغير ذلك كثير.

### نظام الرهائن Hostage system:

إن السياسة المركزية المفرطة كانت السمة الغالبة للنظام الإمامي الملكي داخل اليمن، ليس ثمة ظاهرة سياسية اجتماعية، حظيت باستهجان ونقد معظم الرحالة والكتاب والمؤرخين، مثل نظام الرهائن Hostage system في المملكة المتوكلية اليمنية (١٩١٨-١٩٦٢)، الذي ارتكز عليه الإمام يحيى طوال فترة حكمه، ولم تلق هذه الظاهرة قبولاً سوى من بعض من أرخ للإمامة من جانب رسمي.<sup>(١)</sup>

انتقد الرحلة الريحاني نظام الرهائن الذي تحول إلي نظام قائم بذاته، حيث تميز بوسائله المتعددة ومقاصده وغاياته التي تتلخص في تثبيت النظام وفرض الولاء للإمام وشجعه على ذلك انه بعد خروج الأتراك لم تكن هناك قوة حقيقية تستطيع منافسته، ومع ذلك وجد الإمام نفسه بحاجة إلى أعمال القوة لسيطرتة ونفوذه على سائر البلاد، فاستخدام نظام الرهائن على نطاق واسع.<sup>(٢)</sup>

يقول الريحاني: " فقد خرج لملاقاتنا أولاد المدرسة مع شيوخهم الفقيه، فاصطفوا إلى جانب الطريق...ولكني علمت أن الأولاد هم من الرهائن عند الإمام. إنه لحكم عسكري قاسٍ شديد، بل اشتباه وارتياب. فلا عجب إذا أخلص العمال لرئيسهم الأكبر ولكل واحد ولد عنده أو أخ أو قريب عزيز"<sup>(٣)</sup>.

إن اعتماد الإمامة المتوكلية على نظام الرهائن الذي جرى استخدامه في اليمن لقرون طويلة لدرجة أو بأخرى قد مكنها من إحكام سيطرتها على زمام أمور الدولة، وقد صاحب عملية بسط السلطة المركزية وتعميم نظام الرهائن على معظم مناطق اليمن العديد من

(١) محمد محسن الظاهري: الدور السياسي للقبليّة في الجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٢ - ١٩٩٠م، رسالة ماجستير، كلية الاقتصادية والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٠٠ .

(٢) هويدا أحمد على أحمد (د): مرجع سابق، ص ص ٢٤، ٢٥، انظر أيضاً:

Huns, Helfritz: The Yemen A Secret Journey, London, 1958, pp. 128 - 130

(٣) أمين الريحاني: ص ص ١٠٩ - ١١٠.

التمردات والانتفاضات التي عبرت عن الرفض لهذا النظام، ولكن دون جدوى، فقد كان النظام عامل ضغط على شيوخ القبائل حتى لا يدبرون المؤامرات، ضد الأمام وإذا ثبت غير ذلك يتم تصفية الرهينة، وبذلك كان نظام الرهائن أحد أساليب التعسف السياسي التي ارتكز عليها نظام الإمامة في القضاء على ثورات القبائل ضد نظام آل حميد<sup>(١)</sup>

ركز الرحالة الريحاني في كتابه على ما غفل عنه الباحثون والدارسون والذين ركزوا اهتمامهم على البعد التاريخي، ولم يتطرقوا بصورة أعمق إلى الأبعاد الأخرى لهذا النظام وإلى آثاره السياسية والاجتماعية والنفسية على ضحاياه، الذين لبث بعضهم سنوات خلف الأسوار ينتظرون الخلاص والعودة إلى أهلهم وذويهم<sup>(٢)</sup>.

إن النظام الإداري لم يخلُ من المركزية، فقد تمحور هذا النظام في شخص الإمام، فقد كان يجمع أنظمة الإدارة المختلفة، تحت السيطرة المباشرة، دون أن يكون لدى الإمامة المتوكلية فكرة أولية عن الحكم المركزي، الذي ينعكس بالإيجاب على كيان الدولة، فلم يكن لدى سلطة الإمامة وزارات من النوع المتعارف عليه، في إدارة شؤون البلاد، وإن وجدت بعض المظاهرات بطرق استثنائية، فقد كانت تخدم مصالح أسرة آل حميد الدين الذاتية، وقد كان على رأس هذه الوزارات أحد أبنائه، أما المسؤولون عن الإدارات الثانوية، فقد كانت لديهم سلطات محدودة للغاية<sup>(٣)</sup>.

ولم يحرص الإمام يحيى على إدخال تجديدات تواكب احتياجات الدولة العصرية، ومن ثم أصبحت طريقة تعامل الهيئات الإدارية إزاء مطالب واحتياجات المواطنين، تتسم بالإهمال

(١) د. هويدا أحمد على أحمد: مرجع سابق ص ص ٢٣، ٢٤، انظر أيضا:

Huns, Helfritz: op.cit, PP 128 – 130

(٢) محمد محسن الظاهري: مرجع سابق، ص ٩٧، انظر مزيد من التفاصيل عن عوامل استمرار وتنامي دور القبيلة ووجودها السياسي في اليمن، فضلاً عن التركيب الاجتماعي المعاصر للقبيلة في اليمن، والإمكانات الحربية لدى القبيلة، نفس المرجع، ص ص ٨٥ - ١٠٤.

(٣) فاروق عثمان أباطة: المرجع السابق، ص ٤٣٨ محمد عبد السلام: الجمهورية بين السلطنة والقبيلة في اليمن الشمالي، شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٠.

والروتينية والتعسف في جمع الضرائب، كما انتشر الفساد والرشوة في الهيئات الإدارية وعدم النظر في شكاوى ومطالب المواطنين<sup>(١)</sup>.

كما صورّ الريحاني ما استنتجه وما سمعه عن سُخِّ الإمام (ملك اليمن الزيدي) ونظامه الاقتصادي، فهو "يكثر الضرائب ويدّخر الأموال فتقلّ، ولا غرور، في أيدي الناس، فتُسبّب وقوف الأشغال وعُسر الأحوال"؛ وبسبب هذا الواقع السياسي تنبأ الريحاني آنذاك بالثورة على الإمام: "أجل، إنّ الناس مع الإمام اليوم ومع أعدائه غدًا"<sup>(٢)</sup>.

ونكر أمين الريحاني أن من يريد أن يرى كيف كانت الحياة في القرون الوسطى فعليه بزيارة اليمن فيذكر: "وكأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة، تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لا مدارس، ولا جرائد، ولا مطابع، ولا أدوية، ولا أطباء، ولا مستشفيات في اليمن، إنّ الإمام هو كل شيء هو العالم، والطبيب، والمحامي، والكاهن"<sup>(٣)</sup>. هذه الصورة للواقع هي مُحصّلةٌ للسياسة والثقافة والمجتمع، لكنّ اليد الطولى فيها للسياسة الظلامية الخائفة والمتوجّسة، المحتمية بنظام حكم يصفه الريحاني بأنه "قاس وشديد، بل حكم اشتباه وارتياب"، وهي السياسة ذاتها التي أفرزت ثقافة اجتماعية تُمارس أشدّ أنواع القمع ضدّ الرجال والنساء على حد سواء داخل اليمن، وإن لم يقلها الريحاني صراحةً، لكنّه بتعريضه كان أبلغ حين قال وهو يحكي عن الطريق إلى الحديدة: "بدأنا نشعر بعد خروجننا من صنعاء بوجود النساء في العالم"<sup>(٤)</sup>.

وما سمعه واستنتجه عن النظام الاقتصادي المتدهور للإمامة المتوكلية قائلاً: "يكثر الضرائب ويدّخر الأموال، فتقلّ، ولا غرور، في أيدي الناس، فتُسبّب وقوف الأشغال وعُسر الأحوال". لم يسهّ الإمام يحيى إلى الاهتمام بالأوضاع الداخلية وتحسين أحوال الشعب اليمني الذي ظلّ يعاني من المرض والجهل والتخلف في جميع نواحي الحياة، فضلاً عن الفساد

(١) جان جاك بيرني:، ترجمة نجدة هاجر، سعيد العز، جزيرة العرب، دار الآفاق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٤٩.

(٢) محمد الشعيبي: وثائق ودراسات، سلسلة وثائق الثورة اليمنية والقوى المضادة لها، ٢، دار الكاتب، دمشق، ١٩٨٣، ص ١٤١.

(٣) د. هويدا أحمد علي أحمد: المرجع سابق، ص ص ٤٢ - ٤٧.

(٤) أمين الريحاني: المصدر سابق، ص ١٤٩.

الإداري الذي انتشر بين الموظفين الحكوميين وترتب عليه ظلم الكثير من طبقات المجتمع المختلفة، وبقيت الأوضاع الاقتصادية متردية والتعليم والاتصالات والمواصلات تعاني من الإهمال على الرغم من دعوات الكثير من المنقذين اليمنيين والعرب لإجراء بعض الإصلاحات العامة في اليمن (١)

### السياسة الخارجية للإمام يحيى في عيون الرحالة أمين الريحاني:

ونحن بصدد التركيز على صورة سياسية اليمن الخارجية في عيون الرحالة أمين الريحاني نجده يقول: " قد استتب لحضرتة الأمر بعد ذلك، فحكم بيد من حديد. وانقنع بما تخلف من ضباط الترك فنظم قسما من جيشه (٢).

منذ أكثر من ألف عام حكمت اليمن على مذهب الإمامة الزيدية، الذي ادعى أصحابه بأن لهم الحق الإلهي في حكم اليمن، ومن ثم حولوها إلى سجن كبير محاط بأسوار عالية، لم يستطع الشعب اليمني عبوره طوال هذه الألفية (٣).

كانت أسرة آل حميد الدين، آخر أسرة زيدية حكمت اليمن، وأصبح صاحب هذه الادعاء داخل تلك الأسرة الإمام يحيى بن حميد الدين ومن بعده أنجاله خلفه ولده المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين المتوكل على الله على كرسي الأمام عام ١٩٠٤م (٤). وفي عام ١٩٢٠، غير الإمام يحيى اسم الدولة من إمامة اليمن الزيدية إلى المملكة المتوكلية اليمنية، ووقع العديد من المعاهدات للاعتراف باليمن كدولة ذات سيادة، ولكن ظلت

(١) شاكرو محمد خضر، الحركة الوطنية في اليمن، القطر الشمالي ١٩١٨-١٩٦٢، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية (الملغى)، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨١، ص ٣١. انظر مزيد التفاصيل عن تدهور الأوضاع المختلفة داخل اليمن هويدا أحمد علي أحمد: الصراع الإقليمي والدولي على اليمن ١٩٦٢ - ١٩٧٠م، رساله ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠١٢، ص ص ٤٢ - ٥١

(٢) الريحاني: مصدر سابق، ص ١٤٠، محمد الشعبي: وثائق ودراسات، سلسلة وثائق الثورة اليمنية والقوى المضادة لها، ج٢، دار الكاتب، دمشق، ١٩٨٣، ص ١٤١.

(٣) محمد عبد الجبار سلام: الأئمة ونظام الحكم ودور حركة المعارضة اليمنية، مرجع سابق، ص ٥٩٣ محمد الشعبي: مرجع سابق ص ١٤١. الريحاني: مصدر سابق، ص، ١٤٩

(٤) عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني: مرجع سابق، ص ٢٩٨.

العزلة والجمود التاريخي التي اعتمد عليها الإمام عملاً منظماً وممنهجاً لفرض التجهيل العام قانوناً للمجتمع والحياة، فمن وجهه نظره الشعب الجاهل يسهل التحكم فيه من قيادة الشعب المتحضر، من هذا المنطلق جاءت المعاداة الجذرية للحياة الحديثة ولأي معالم تحديثية معاصرة على كافة المستويات التعليم والمدرسة والثقافة والصناعة والاقتصاد وتحديث الجيش وبناء المدن (العمران) وتنمية الإنسان وبالنتيجة الانفصال عن العالم الخارجي<sup>(١)</sup>

وعند التدقيق في السرد والصورة التي رسمها الريحاني نراها مُجرأةً، وفي كُلِّ جُزءٍ صورةٌ أو صورٌ مختلفة عن بعضها البعض، فعدن والمحميات ظاهرياً تحت حُكم سلطانٍ يمنيٍّ يأخذ مُشاهراته بـ"الرؤية" من الإنجليز، لكنها واقعياً تحت سيطرة الاحتلال البريطاني، هذه السلطنات قبائل متربصة ببعضها، وكُلُّها مُحتربةٌ مع الإمام، أما الحُدُيدة فسلمها الإنجليز بخرايبها ووعثائها لحليفهم الإدريسي المحترَب - أيضاً - مع الإمام، وكانت بقية المناطق التي يحكمها الإمام تزرَح تحت وطأة ولاة جائرِين يُمارسون الظلم باسم سُلطة الإمام ذات المرجعية الدنيوية والمذهبية في قُوته وشاع الفساد والرشوة في الهيئات الإدارية، وقد لَحَص أحد الجنود الذين رافقوا الريحاني واقع سياسيه الإمام بعد مُقارنته مع سياسيه الأتراك والإنجليز والطلليان بعبارةٍ وجيزة: "... - اقترَب مني ليهمس كلمته همساً - لا مال ولا نظام ولا لطيف كلام ... نحن في اليمن فقراء، وحُكم الإمام يزيدنا فقراً".<sup>(٢)</sup>

فتجد مَنْ يقول لـ الريحاني بأنهم في اليمن سيسقطون الطائرات الإنجليزية المغيرة بسورة "الفاحة" فتخر من علوها كالطير المذبوح<sup>(٣)</sup>.

وداخل المجتمع اليمني، تجد من يفتخر بأن اليمن وحدها من بين العرب والعجم على الصراط المستقيم، لا فسق فيها ولا فجور، لكن ستجد في الوقت ذاته، على لسان جُنديٍّ أو عاملٍ بسيطٍ مَنْ يرفض هذا الواقع ويُدينه، ويقول للريحاني معجباً ويائساً في آنٍ: "الإفرنج أصحاب عُقولٍ ذكيَّة، وهم يستخدمونها في كُلِّ شيء، ونحن لا نستخدم عُقولنا إلا في

(١) فاروق عثمان أباطة: المرجع سابق، ص ٤٤٣، ٤٤٤، . أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ١٥٣

(٢) جان جاك بيرني: المرجع سابق، ص ١٤٩، أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ١١٢-١١٣ .

(٣) ثورة ٢٦ سبتمبر دراسات وشهادات للتاريخ، الكتاب الثاني، إعداد وتوثيق مركز الدراسات والبحوث اليمني،

ط١، صنعاء، ١٩٨٧م، ص ١٨٦

الحروب... أهل اليمن يا أمين يغارون جداً على دينهم، ويظنون أن ليس خارج بلادهم غير الكُفر والكُفَّار، ولكنني سأُسافر إن شاء الله، وإن كُفرت". (١)

بعد الانسحاب العثماني من اليمن انفرد الإمام يحيى بحكم البلاد، وبالتالي بدأ يمارس سلطاته السياسية والدينية داخل اليمن، بعد أن نجح في إخضاع معظم القبائل اليمنية تحت سلطة الإمامة الزيدية، لكن الإمام يحيى لم يهنأ كثيراً بالسلطة والاستقلال؛ إذ اصطدم مرة أخرى بالتنافس الإقليمي والدولي على اليمن، عندما حاول بسط سلطاته على المناطق التي كانت تخضع لسلطة العثمانيين، (٢) على اعتبار أن الإمام هو الوريث الشرعي لتركمة العثمانيين في اليمن حتى تكتمل الوحدة اليمنية، فقد كانت سلطات الاحتلال البريطاني من القوى الدولية التي اصطدم بها الإمام هي في الجنوب، أما القوى الإقليمية فقد تمثلت في الأدارسة، الذي قامت المملكة العربية السعودية بدعم انفصالهم عن اليمن (٣).

وقد أخذ الإمام يحيى بعد الانسحاب التركي من اليمن يتطلع إلى السيطرة على المناطق التي انسحبت منها القوات التركية، بل ويتطلع إلى بسط سيطرته على المحميات في جنوب اليمن، لكن الإنجليز وجرياً على سياستهم المشهورة " فرق تسد " قاموا بالاستيلاء على تهامة حتى الحديدة؛ لكي تكون مناطق مقايضة مع الإمام يحيى الذي أدرك الإنجليز وبحكم طبيعة الأمور في اليمن أن الإمام سينتقل إلى تحرير الجزء المحتل من قبلهم وبسط سيطرته عليه، قامت سلطات الاحتلال البريطاني عام ١٩٢١ م بتسليم ما احتلوه من المناطق التهامية إلى حليفهم الإدريسي والذي وقف إلى جانبهم في الحرب بموجب معاهدة صداقة عقدت بينه وبين الإنجليز عام ١٩١٥ م. (٤)

(١) أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ١١٤

(٢) زيد المحبشي وآخرون: اليمن ودول الخليج العربي، دراسة تحليلية توثيقية لعلاقات اليمن مع المملكة العربية السعودية، سلطنة عمان، دولة قطر، الإمارات العربية المتحدة، مملكة البحرين، دولة الكويت، علاقات اليمن مع مجلس التعاون لدول الخليج، مركز البحوث والمعلومات، وكالة الأنباء اليمنية سبأ، صنعاء، سبتمبر، ٢٠٠٥م، ص ٢٧٠، أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ١٤٩

(٣) فاروق عثمان أباطة: مرجع سابق، ص ٩١، ٩٢

(٤) عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني: مصدر سابق، ص ٢٩٨، انظر أيضاً:

لكن الإمام ظل محافظاً على الاتفاق مع الدولة العثمانية، على إثر ذلك اتجهت بريطانيا إلى احتلال الحديد؛ نظراً لما تركه بريطانيا من أهمية الحديد للإمام<sup>(١)</sup>، ومن ثم يكون نوعاً من الضغط على الإمام من جراء موقفه، فضلاً عن اتخاذها ورقة رابحة تساوم بها الإمام، مستقبلاً في حالة تهديد الإمام للكيان البريطاني في الجنوب<sup>(٢)</sup>.

وإثر تسليم البريطانيين الحديد إلى الإدريسي، قام الإمام يحيى بالهجوم على بعض النواحي التسع التي تجاور عدن، والتي هي جزء من اليمن المحتل، خلال هذا الهجوم عمل الإمام على إثارة شيوخ القبائل ضد سلطات الاحتلال في مناطق النواحي التسع<sup>(\*)</sup>، وانتصر الإمام في الضالع والشعيب وبعض المناطق الأخرى .

وهكذا وجد الإمام الذي أعلن قيام (المملكة المتوكلية اليمنية) نفسه محاطاً بالخصوم في الشمال والجنوب والغرب، ومحروماً من الموانئ التجارية الحيوية، بالإضافة إلى تمردات القبائل الرافضة للفردية المطلقة وسياسة أخذ الرهائن والتعسف في جباية الأموال.

Charles Hepburn Johnston: The View From Steamer Point Being An Account Of Three Years In Aden, London, 1964, p.201

(١) Hans, Helfritz, op.cit, pp.124.125

(٢) R.J. Gavin : Aden Under British Rule 1839-1967, First published In The United Kingdom , London , 1975 , pp. 249-260

(\*) النواحي التسعة: تقع جنوب اليمن، وهي تسع إمارات صغيرة، كانت تخضع لسلطة الحكم العثماني في اليمن، كما اعتبرها أئمة اليمن نواحي من حيث تقسيماتها الإدارية، حرصت بريطانيا على إدخالها تحت حمايتها في عدن، وأطلقت عليها النواحي التسعة المحمية، وتختلف عن بعضها من حيث نقل تلك الحماية، ونفوذ الحكومة بها، وسيطرتها عليها، ومما يلي أسماء تلك الإمارات:

(لحج . أبين . الحواشب . الصبيحة . القطيب . الضالع . يافع العليا والسفلى . العوالق . حضر موت)، انظر مزيد من التفاصيل عن تلك الإمارات، عبد الواسع الواسعي: مصدر سابق، ص ٨٢ . ٨٥، أبو عز الدين: مصدر سابق، ص ٨ . ٣٢ .

شاكر محمد خضر، الحركة الوطنية في اليمن، القطر الشمالي ١٩١٨-١٩٦٢، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨١، ص ٣١.

وعلى الرغم من حرص الإمام يحيى الشديد على فرض سياسة العزلة التامة إلا أنه كان يجد نفسه مضطراً في الظروف الصعبة إلى مدّ أنظاره إلى الخارج، فلعله يجد في ذلك علاجاً لأمراض نظامه التي لا تكاد تحصى، فقد عقد عدة اتفاقيات مع الدول الأجنبية، كان الهدف منها الاعتراف باستقلال اليمن وبحكمه عليه<sup>(١)</sup>

وقد حرص الإمام يحيى على القضاء على الأدارسة نهائياً من عسير بصفة خاصة والجزيرة العربية بصفة عامة، حال دون التوصل إلى حل توفيقي ينهي النزاع الناشب بين الأدارسة والإمام يحيى<sup>(٢)</sup>.

إنه الواقع السياسي، الذي جعل الانغلاق والجمود والعزلة الشاملة للبلاد عن بعضها البعض وعن محيطها العربي وعن العالم الخارجي قانون حياة، والخوف من الآخر والتوجُّس منه تحت ذريعة الدين المغلف بالجهل، وظل هذا الفكر السياسي يسيطر على توجه سلطة الإمام في إدارة المجتمع وتنميته وفي إدارة الحكم ويعد أبشع وأضعف حلقة في سلسلة حلقات التطور في مضمار بناء الدولة والاقتصاد وفي تنمية الإنسان.<sup>(٣)</sup>

تتداعى مع هذه الصورة صورة الثقافة الاجتماعية القبلية، التي يُحمّلها الريحاني وزر التخلف، ويرى أنها مُعضلة اليمن - التي لا يزال اليمن اليوم يُعاني من آثارها وترسباتها - حيث يحكم الريحاني التشخيص والقراءة، فيرى أنه لولا هذه المعضلة المُتمثلة في أمرين اثنين، لكانت الصورة أبهى وأنضر، "الأوّل هو الجهل، والأمر الأكبر هو الجهل المُسلح"، هذا الجهل، وهذا الجهل المُسلح، هو واقع مُجتمع قبليّ مُحترَبٍ أو مُستعدٍ للاحتراب.<sup>(٤)</sup>

وبسبب هذا الواقع السياسي تنبأ الريحاني آنذاك بالثورة على الإمام قائلًا: "أجل، إنَّ الناس مع الإمام اليوم ومع أعدائه غداً".

(١) عبد الله السلال وآخرون، وثائق أولى من الثورة اليمنية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٧.

(٢) عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني: مصدر سابق، ص ٢٩٨، أمين الريحاني: مصدر سابق، ص ٢١٧.

(٣) محمد الشعبي: مرجع سابق ص ١٤١.

(٤) حسني محمود حسين (د): أدب الرحالة عند العرب، ط ٢، دار الأنتلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٩٨٣، ص ص ١٠٣ - ١٠٥، انظر أيضًا: Gavin, op.cit, pp. 272 - 273



وهو تنبؤٌ مبنيٌّ على مُعطيات الصورة التي رآها الريحاني في عُمومها لنظام الإمام وليس لشخصه، الذي أقطعه أكثر من صورةٍ تتجلى في رداء العلم الذي يشوبه التعصب أو الحكمة التي تضعفها العقيدة، إلى آخر ذلك مما ورد في سياقات مختلفة رآها أو سمعها أو استنتجها، وهي حال الريحاني مع كُلِّ الملوك العرب الذين زارهم وحاول أن يقرأ أفكارهم ويُقرب وجهات نظرهم في سبيل وحدةٍ أرادها لتعصم العرب من ويل التخلف وانتهازية سياسة الانجليز القائمة على قاعدة المبدأ المرن في كسب الولاءات وانقضاء العداوات بالدرهم والدينار للحفاظ على مصالحها بأقلِّ الخسائر. (١)

فقد ساعدت هذه الأوضاع مجتمعة، على ظهور حركة معارضة لدى الفئات المستبيرة من أبناء الشعب اليمني طالبت الإمامة المتوكلية، بإصلاح الأوضاع المتردية في كافة المجالات مما جعل الإمام يُقبل على مطاردة المعارضة بكافة الطرق المتاحة، لذلك اضطرت حركة المعارضة إلى الهجرة خارج حدود الإمام فمنهم من اتجه إلى عدن والبعض الآخر إلى القاهرة (٢).

(١) زايد محمد جابر، مجيب الرحمن أحمد عبيد، عايش على صالح عواس: اليمن والدول الكبرى، ج١، وكالة الأنباء اليمنية "سبأ" مركز البحوث والمعلومات، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص ص ٩٣، ٩٤ .

(٢) عادل رضا: محاولة لفهم الثورة اليمنية، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٤ م، ص ص ٤٤، ٤٥، صلاح العقاد: جزيرة العرب في العصر الحديث السعودية اليمن جمهورية اليمن الشعبية، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٩ م، ص ٨٣، انظر أيضاً:

الجمهورية اليمنية، رئاسة الجمهورية، المركز الوطني للمعلومات، عنوان الرابط: <http://www.yemen-nic.com/2feontents/2fstudies/2fdetailphp/3LD/3D4538/26print/3Dy>.

### الخاتمة:

لقد صورَّ الريحاني في رحلته عن اليمن ما رآه وأرادنا أن نراه معه اليوم، فصور ما قابله من ألوان الظلم وهي كلها معطيات جعلت الريحاني منقاداً إلى استنتاج مؤداه يقضي في ظروفٍ كنتك، بأنَّه "يندر في البلاد ذاك الغرس الطيب، غرس الوطنية المُجرَّدة من المصالح الذاتية"، هذه النتيجة التي توصَّل إليها الريحاني في عام ١٩٢٢م، عاشتها اليمن حقيقةً في ٢٦ ثورة ١٩٦٢م معلنه عن ميلاد جمهورية جديدة في العاصمة اليمنية صنعاء وإنهاء حكم الإمامة المتوكلية والتحرر من الاستبداد والاستعمار ومخلفاتها وإقامة حكم جمهوري عادل وإزالة الفوارق والامتيازات بين الطبقات، وبناء جيش وطني قوي لحماية البلاد وحراسة الثورة ومكاسبها، مع رفع مستوى الشعب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، والعمل على إنشاء مجتمع ديمقراطي تعاوني عادل مستمد أنظمته من روح الإسلام الحنيف، بالإضافة إلى تحقيق الوحدة الوطنية في نطاق الوحدة العربية الشاملة، والحرص على احترام مواثيق الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والتمسك بمبدأ الحياد الايجابي وعدم الانحياز والعمل على إقرار السلام العالمي وتدعيم مبدأ التعايش السلمي بين الأمم، كما كانت ثورة ٢٦ سبتمبر هي المحفز والداعم والمحرك لثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م في جنوب الوطن ضد المحتل والمستعمر البريطاني.